

عبد القاهر الجرجاني

دلائل الإعجاز

تحقيق

د. فايز الداية

د. محمد رضوان الداية



أفاق معرفة متجددة

2011-06-04

www.alukah.net

www.almosahm.blogspot.com

الإمام الغوي
عبد القاهر الجرجاني

دلائل الإعجاز

حققه وقدم له

الدكتور

فايز الداية

الدكتور

محمد رضوان الداية



آفاق معرفة متجددة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الإمام الغوي

عبد القاهر الجرجاني

دلائل الإعجاز



الرقم الاصطلاحي: ٢٠٢٨,٠١١

الرقم الدولي: ISBN: 1-59239-671-2

الرقم الموضوعي: ٤١٤

الموضوع: البلاغة

العنوان: دلائل الإعجاز

التأليف: عبد القاهر الجرجاني

تحقيق: د. محمد رضوان الداية

د. فايز الداية

التفيز الطباعي: دار الفكر - دمشق

عدد الصفحات: ٥٨٤ ص

قياس الصفحة: ٢٥×١٧ سم

عدد النسخ: ١٠٠٠ نسخة

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل

طرق الطبع والتصوير والنقل والترجمة

والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي وغيرها

من الحقوق إلا بإذن خطي من

دار الفكر بدمشق

برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد

ص.ب: (٩٦٢) دمشق-سورية

فاكس: ٢٢٣٩٧١٦

هاتف: ٢٢٣٩٧١٧ - ٢٢١١١٦٦

[Http://www.fikr.com](http://www.fikr.com)

e-mail: info@fikr.com

الطبعة الأولى

رجب الفرد ١٤٢٨هـ

آب (أغسطس) ٢٠٠٧م

المحتوي (*)

مقدمة وتاريخ	٩
عبد القاهر الجرجاني ودلائل الإعجاز ٤٠٠ - ٤٧١ هـ	١٣
مقدمة المؤلف : المدخل إلى إعجاز القرآن	٥١
دلائل الإعجاز	٥٩
فصل في الكلام على من زهد في رواية الشعر وحفظه ودَمَّ الاشتغال بعلمه وتتبعه	٦٨
فصل في الفرق بين الحروف المنظومة والكلم المنظومة	٩٧
فصل في أن النظم هو تعليق الكلم بعضها ببعض	١٠١
فصل في الفصاحة	١٠٣
فصل في اللفظ يطلق والمراد به غير ظاهره	١١٠
فصل في الكناية والاستعارة والمجاز والحقيقة	١١٣
فصل في ضروب الاستعارات، العامي المبتذل والبديع النادر	١١٦
القول في النظم وفي تفسيره	١٢٢
فصل في أن مزايا النظم بحسب الموضع وبحسب المعنى المراد والغرض المقصود	١٢٨

* انظر الفهارس التفصيلية في آخر الكتاب.

- فصل في شواهد على الكلام تتحد أجزاءه ويدخل بعضها في بعض ١٣٣
- فصل القول في التقديم والتأخير ١٤٣
- فصل في التقديم مع النفي ١٥٥
- التقديم في الخبر المثبت ١٥٧
- فصل هذا كلام في النكرة إذا قُدِّمت على الفعل أو قُدِّم الفعلُ عليها ١٦٨
- القول في الحذف ١٧٠
- فصل في تحليل شاهد متميِّز للحذف عند البحتري ١٨٩
- فصل القول على فروق في الخبر ١٩١
- هذا فصل في (الذي) خصوصاً ٢١٢
- فروق في الحال لها فضلٌ تعلّقُ بالبلاغة ٢١٥
- القول في الفصل والوصل ٢٣٢
- باب الفصل والوصل ٢٤٩
- فصل في الأصول العامة لوصل الجمل وفصلها ٢٥١
- فصل في مسائل دقيقة في عطف الجمل ٢٥٢
- فصلٌ في ماهية البلاغة وصلتها بالإعجاز ٢٥٦
- باب اللفظ والنظم فصل منه ٢٦٤
- فصل هو فنُّ آخره يرجع إلى هذا الكلام ٢٦٥
- فصل في المعنى، وفي معنى المعنى ٢٦٨
- فصلٌ تحليلي لفكرة معنى المعنى ٢٧٢
- فصلٌ تحليلي لضروب من النظم في الجملة ٢٨٧
- فصلٌ في الذوق والمعرفة ٢٩١

٢٩٣	فصل هذا فنّ من المجاز لم نذكره فيما تقدم
٣٠٢	فصل في تحليل شاهد مجازي
٣٠٤	فصل في الكناية وشواهدا
٣١٢	فصل في التوكيد وعلاماته
٣٢٥	فصل في مسائل «إنما»
٣٣٣	فصل هذا بيان آخر في «إنما»
٣٤٣	فصل في نكتة تتصل بالكلام الذي تضعه بـ «ما» و «إلا»
٣٤٤	فصل في «إنما»
٣٥٠	فصل في «المحاكاة» و «النظم»
٣٥٣	فصل في أن جوهر الإبداع هو توحي النظم
٣٥٦	فصل في مناقشة من يفرد اللفظ عن المعنى
٣٦٠	فصل تحليلي للفظ والمعنى
٣٧١	فصل في الإعجاز واللفظ والمعنى
٣٨٥	فصل في أن فصاحة اللفظ في معناه
٣٨٦	فصل تحليلي للاستعارة والمعنى
٣٨٨	فصل تحليلي مبني على معاني النحو
٣٩٦	فصل في الفصاحة والتشبيه والاستعارة
٤٣٧	فصل في إجمال ما سبق
٤٣٩	فصل في اللفظ والاستعارة وشواهد تحليلية للمعنى
٤٧٩	فصل مجمل في النظم
٤٨٩	فصل في الألفاظ المفردة والوضع والنظم
٤٩٤	فصل تحليلي للنظم

- فهرس الفهارس ٥٠٥
- ١- الفهرس التحليلي ٥٠٧
- ٢- فهرس ألفاظ الإعجاز ٥١٣
- ٣- فهرس الآيات القرآنية الكريمة ٥١٤
- ٤- فهرس الأحاديث النبوية الشريفة ٥٣٠
- ٥- فهرس الأمثال ٥٣١
- ٦- فهرس المصطلحات النحوية واللغوية ٥٣٢
- ٧- فهرس المصطلحات البلاغية والنقدية ٥٣٨
- ٨- فهرس الشواهد الشعرية ٥٤٤
- ٩- فهرس الأعلام ٥٦٥
- ١٠- فهرس الكتب الواردة ٥٧٢

مقدمة وتاريخ

إنَّ صدور الطبعة الثالثة من كتاب (دلائل الإعجاز) يتيح لنا وقفة مع التاريخ ومفهوم العناية بالتراث في زمن تكاثر الكتب المصوّرة والمستنسخة من غير حفاظ على جهود المحقّقين الذين وضعوا الأصول بين أيدي القراء والباحثين، ومن غير إضافة تطوّر وتغني أياّما ووقائعها بتلك المعارف التي زخرت بها.

لقد نهضنا لإخراج هذا العمل المتميز للإمام عبد القاهر الجرجاني في تحقيق علمي - بعد مضي ما ينوف على سبعين عاماً على طبعة محمد رشيد رضا (المنار ١٣٢١هـ) التي وضعت (الدلائل) ليكون عودة إلى الجوهر مع مشارف زمن جديد لكنّ لم تفتقر هذه الخطوة الطيّبة بطرائق التحقيق الحديثة - وقام جهدنا اعتماداً على ثلاث مخطوطات تعود الأولى منها إلى زمن قريب من عصر المؤلف إذ دوّنت سنة ٥٦٨هـ وتوفي عبد القاهر سنة ٤٧١هـ وقد صدر عملنا سنة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، بعد عناء الطباعة والتصحيح لكتاب مشكول متنه وحواشيه وفهارسه، وقد تابعت بعد تحقيقنا طبعات متعدّدة ومنها طبعة الأستاذ محمود محمد شاكر سنة ١٤٠٤ - ١٩٨٤م.

إن تقديم النصوص القديمة لم يعد امتيازاً أو إنجازاً في هذه الآونة إن لم يقترن بما يجعلها أقرب إلى التطبيق والتداول في تكامل مع حاجات تتوالد مع سيرورة الزمن وتعدّد المؤثرات فيه، خاصة بعد نشر أصول كثيرة في حقول المعرفة في تراثنا. ونحترز فنشير إلى أن القديم لا يلغي الاجتهاد والابتكار

الذين تفتتح بهما العقول والأفئدة، وإنما هو تصوّر نبتغي منه الاقتصاد في الجهد عندما نستخدم ما صحّح من التراث وما هو أهلٌ لمعايشتنا، وهذه هي دلالة الإرث الذي يثمر كالشجرة الطيبة تؤتي أكلها كلّ حين. والجانب الآخر في الاستفادة من الجوانب الحيّة في أعمال الأسلاف هو أن نمتلك ملامح هويّة فكرية وثقافية هي أساس لتتابع الأجيال في عالم يضيع في غمراته من لا يعرف ذاته ولا يحسن التعامل مع الآخر.

لقد قدّمنا نصّ (دلائل الإعجاز) موثقاً بمقارنة المخطوطات وما كان طُبع (المنار، والمرافي) والإشارة إلى صواب القراءة ونفي ما هو مضطرب. ثم ربطنا الشواهد بمصادرها ليعقد الباحث الأواصر ويقيم استنتاجاته وتحليلاته في بنية تشدّها وشائج متينة، ولكننا أفضنا في أمور تعين القارئ الذي لم يفرغ إلى تحصيل متخصص أو لا تتيح له شؤون حياته مراجعة المكتبة، فقمنا أولاً بضبط عبارات عبد القاهر التي يشرح فيها القضايا ويوضح مفاصلها، وخاصة (الالفتات) في ضمائر المتكلم والمخاطب والغائب ونحن نعلم أنّ هذا الكتاب أوراق أملاها المؤلف على طلبته وارتجل في أثنائها إضافات وتعليقات في سنوات متعاقبة ممّا يشكّل احتمال التداخل أو الاضطراب عند القراءة العجلى؛ وعبد القاهر متمرس بالحوار، فهو أشعري خبير أساليب الجدل وهذا طبع أسلوبه في المحاضرة والتأليف. وأمّا الأمر الآخر فهو توفير السياق الذي تتجلى فيه القضية البلاغية أو الفكرة القرآنية الكريمة كاملة في الهوامش، ولم نكتف بما اجتزاه المؤلف اعتماداً منه على دراية طلابه وعلى من يشتغل في العلم متخصصاً، وكذلك شأن الأحاديث النبوية الشريفة وشواهد الشعر. وبهذا نتوافق مع منهج عبد القاهر الذي يقوم على قراءة النصّ وتكامل الدلالة بين أجزائه، وتغدو استفادتنا خدمة نوعية للكتاب وقارنه.

لقد حوّلنا عمل الفهرسة من تكملة لاحقة إلى جزء فاعل في البحث العلمي يبيّن مسالك تجعل مادة الكتاب جانباً حياً يلتحم والعصر الذي نتقلّب بين ظهرائه. فاعتنينا بتحديد المصطلحات التي هي مفاتيح الدرس وإدراك معالم

القضايا، فكان على رأسها ما يخصّ الدوالّ المستخدمة في الإعجاز، ثمّ مصطلحات النحو واللغة ومصطلحات النقد والبلاغة مع ثبت تحليلي لموضوعات الكتاب التفصيلية إضافة إلى فهرس الشواهد القرآنية التامة، واستكملت بفهارس الأحاديث النبوية الشريفة والأعلام والشعر والأمثال والكتب.



تحمل الدراسة التي قدّمنا بها (دلائل الإعجاز) مفهوم الرسالة عند القدماء، فهي كتاب لطيف الحجم يتضمن عدداً من القضايا على نحو مركّز فيما يتصل بمكوّنات الكتاب وثقافة عبد القاهر، وكذلك نجد في هذه الدراسة مفهوم الرسالة الحديث على أنها توجيه الأنظار على نحو قصدي وإثارة البحث في زوايا الفكر والنقد والدلالة الأسلوبية، وبهذا نصعد خطوات في سبيل توظيف الرصيد التراثي بحيوية، فنحن بيّنا المحاور التي تنطلق من بؤرة هي (نظرية النظم) وتنداح في تطبيقات نحوية ودلالية وأسلوبية نقدية. وهذا ما كان يقصد إليه عبد القاهر عندما درس النصّ القرآني الكريم وبيّن إعجازه في بيانه، ثمّ سعى إلى جعل هذه النتيجة الهامّة والجوهرية أساساً للنظر في الأعمال الأدبية الشعرية والنثرية لأنها قائمة على بنية لغوية حاملة لقيم تعبيرية تشكّل خصوصيّة كلّ نصّ من النصوص في إطار معطيات سياقه ودلالاته الموقعية وحركاته الداخلية. وبمنظرة إلى ما ساد أوساطنا النقدية والثقافية العربية في السنوات الثلاثين الماضية نجد أنّ عبد القاهر كان حاضراً بتوازٍ مع تحليلات حديثة في البنيوية والأسلوبية ونحو النصّ.. وهو لا شك الرائد تاريخياً في سجل الدراسات الإنسانية العالمي.

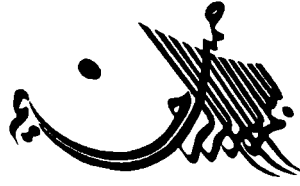
إنّ العناية بالتراث تحتاج إلى مرحلة تحليلية لمكوّنات المصنّفات يقوم بها عارفون ومحّبون، وتفسح المجال لأعمال تركيبيّة جديدة على نحو بتلاءم وطبيعة مادة كلّ مصنّف منها كيما يرى الجيل الجديد طريقة ممهّدة للاشتغال بهذا التراث وإعطائه روحاً جديدة بدلاً من الغوص والبقاء فيه!

ولعلّ الكلمة المخلصة التي نضعها بين الأيدي والأنظار هي أن قدّموا
الجديد الذي يضيف إلى عمل المحقّقين الذين أحسنوا عملهم، وإلّا فاعملوا ما
تجيدون في مجال آخر غير تكرار ما صنعه الذين من قبلكم.

دمشق الشام المحروسة

في شهر رجب الفرد ١٤٢٧

الموافق: آب ٢٠٠٦



عبد القاهر الجرجاني

وحدلائل الإعجاز

٤٠٠ - ٤٧١ هـ

كان عبد القاهر أبو بكر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني في حياته العلمية صورة للحضارة العربية في انتشار ثقافتها وتكامل علومها وسيرورة الكتب بين الناس على اختلاف الأصقاع التي أظلمها الفكر العربي، وعاشت أهلها اللغة العربية؛ ذلك أن التوهج الذي كان يشع في الحواضر الكبرى: بغداد والبصرة والكوفة ودمشق والفسطاط وقرطبة وإشبيلية والمدينة لَقِيَ في الأقاليم والمدن المتباعدة نشاطاً وحيوية تقتبس منه فتُعطي أطيب الثمار.

عرفت مجالس العلم ومنتديات الفكر بجرجان في مطلع القرن الخامس الهجري عبد القاهر دارساً يسعى إلى تشكيل ثقافة تفيد من إنجاز أربعة قرون خصبة ضرب فيها علماء العربية بأسهم وافرة فنضجت علومها وارتفع بنيانها في الجوانب النظرية والتطبيقية فكان علم الأصوات والقراءات، وعلم النحو والصرف، والتصنيف المعجمي في جانيه: معاجم الألفاظ ومعاجم المعاني، إضافة إلى البحوث اللغوية التي تدرج في فقه اللغة من بحوث الأضداد والمشتراك والترادف وأصول اللغة واللهجات، والدلالة، كما قدّم الفلاسفة

والمناطقة والمتكلمون أعمالاً اشتجرت فيها الأصول العربية لحضارة متميزة في محتواها الفكري وآفاقها مع التيارات الأجنبية من يونانية وهندية وفارسية في نتاج الكندي والفارابي وابن سينا، المقارب زمنهم زمن عبد القاهر، والنظام وأصحابه والقاضي عبد الجبار والجبايين والجاحظ وأبي حيان التوحيدي، وبرزت شخصيات الفقهاء ابن مالك وابن حنبل والشافعي وأبي حنيفة.

وأتى الإبداع الأدبي أكله فقد أضاف الشعراء العباسيون ألواناً جديدة إلى ما أعطته قرائح الجاهليين والإسلاميين والأمويين، وذلك بالتفاعل الحي مع الأجواء الحضارية والتراث، وبلور الكتاب أشكالاً فنية لم يعرفها العرب في سالف أيامهم في الجزيرة إذ تسارعت ضروب نثرية مع حاجات الحياة الجديدة.

إنّ هذا التدفق الثقافي الذي يؤازره النماء العلمي قد مكّن عبد القاهر من تحصيل رصيد وافر وهو في بلده جرجان لا يغادره، فكان مكبّاً على القراءة والدراية وسعد بعالم جليل حمل علماً ثراً وأقام بجرجان فلزمه. ذلك العالم هو أبو الحسين محمد بن الحسن بن عبد الوارث الفارسي النحوي ابن أخت أبي علي الفارسي الذي تجلّت لديه الدراسات النحوية والصرفية والعربية فتوزعت بين الناس في المصنفات ومن خلال تلامذة استطاعوا أن يحفظوا وأن يضيفوا دراية وأنظراً إلى ما تلقوه عن الأستاذ من مثل ابن جني أبي الفتح، وابن عبد الوارث هذا.

ورغم أن معجم الأدباء^(١) يذكر أن عبد القاهر قرأ على القاضي علي بن عبد العزيز صاحب الوساطة بين المتنبي وخصومه إلا أننا نشك في هذا للتباعد الزمني بين وفاة القاضي والسن التي تتيح لعبد القاهر أخذ العلم عن مجالسه، لذا فنحن نلمح ظاهرة علمية لا تكون إلا في أزمنة الازدهار الحضاري لأمة من الأمم في إقامة صاحب الدلائل بجرجان لا يبرحها وبلوغه في العلم تلك المكانة التي تجعله يفرغ إلى طلابه ومريديه يتلقون عنه المعرفة في النحو

(١) معجم الأدباء لياقوت ١٤/١٤ - ١٦، ومقدمة الوساطة للقاضي الجرجاني، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، علي البجاوي.

والصرف والبلاغة والنقد والكلام والجدل. وقد ذكر القفطي في (إنباه الرواة): «أنه تصدر بجرجان وحثت إليه الرحال وصنف التصانيف الجليلة»^(١) وقال السيوطي في (بغية الوعاة): «كان عبد القاهر الجرجاني من كبار أئمة العربية والبيان شافعيًا أشعريًا»^(٢)؛ وحفلت كتب التراجم والأخبار والتصنيف بأخبار عبد القاهر العلمية وبأسماء مؤلفاته وألمحت إلى بعض أحواله في حياته الشخصية وهي غامضة لا تبين إلا الشكوى من الزمان وأهله، ولم يكن ثمة ما يشير الاهتمام من تنوع في العلاقات الاجتماعية لدى الجرجاني؛ ويروى قدر قليل من الأبيات للجرجاني قيمتها في إظهار معالم من حياته، لا في خصائص فنية؛ ولا شك في أن هذا الشعر حصيلة لتلقائية طبيعية لعالم أكثر من تداول الأشعار، فالإيقاع يسهل التعامل معه تقطيعاً صوتياً فترتب أغراض عادية مألوقة دون عمق، ولعلّ عبد القاهر لم يقصد إلى شيء مما يرمي إليه الشعراء.

مصنفات عبد القاهر:

نستطيع أن نرتب مصنفات عبد القاهر الجرجاني في عدد من الأقسام المؤلفة ذلك أنها تدور في فلك علوم العربية والإعجاز والأدب:

أ - الدراسات النحوية والصرفية والعروضية:

- ١ - كتاب (المغني) في النحو وهو ثلاثون جزءاً وضعه شرحاً لكتاب أبي علي الفارسي (الإيضاح).
- ٢ - كتاب (المقتصد) وهو تلخيص في مجلد واحد لما جاء في (المغني). [ط. بغداد ١٩٨٢ جُزآن].
- ٣ - (الإيجاز) وهو مختصر لكتاب (الإيضاح).

(١) إنباه الرواة على أنباه النحاة للقفطي ١٨٨/٢

(٢) بغية الوعاة للسيوطي ١٠٦/٢

- ٤ - (العوامل المثة) في النحو. [ط. بولاق، مصر، ١٢٤٧ هـ].
- ٥ - شرح كتاب (العوامل) واسمه: الجُمَل [ط. دمشق].
- ٦ - العمدة في التصريف.
- ٧ - كتاب في العروض.

ب - الدراسات القرآنية:

- ٨ - شرح الفاتحة.
- ٩ - (المعتضد) وهو شرح مبسوط لكتاب (الإعجاز) الذي صنفه أبو عبد الله محمد بن زيد الواسطي (ت ٣٠٦ هـ).
- ١٠ - شرح مختصر لكتاب (الإعجاز) للواسطي.
- ١١ - الرسالة الشافية في الإعجاز. [ط. القاهرة، دار المعارف بمصر ١٩٧٦، ط ٣].

ج - الدراسات البلاغية والأدبية:

- ١٢ - (دلائل الإعجاز) وهو كتابنا الذي نقدمه في هذه المطبوعة.
- ١٣ - أسرار البلاغة. [ط. مصر، المنار ١٣٣١ هـ، ط. ريتز استانبول ١٩٥٤ م].
- ١٤ - المختار من شعر المتنبي والبحري وأبي تمام في مجلد واحد. [ط. مصر، لجنة التأليف والنشر ١٩٣٧ م].

وثمة كتب أو أوراق لا يتضح محتواها في الأخبار كـ (المفتاح) و(التذكرة). ولقيت مؤلفات عبد القاهر قبولاً لدى الدارسين في الآماد المتلاحقة وقام على شرحها وتلخيصها ومناقشتها العلماء في كتب لهم إضافة إلى دراستها في حلقات العلم، ومجالس الأدباء؛ من ذلك كتاب (الجُمَل) الذي شرحه ابن

السيد البطلبيوسي (٥٢١هـ) وابن الخشاب البغدادي (٥٦٧هـ) والبلنسي (٥٨٥هـ) الأندلسي، وابن خروف، والشريشي، وابن عصفور، ومحمد بن علي الغرناطي؛ وكتاب الدلائل الذي عني به الباحثون فمنهم الإمام فخر الدين الرازي الذي ضمّ إلى الدلائل (أسرار البلاغة) في مختصر أسماء (نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز) وكان معول السكاكي في (المفتاح) وجلال الدين القزويني في (الإيضاح) على الدلائل والأسرار لعبد القاهر.

عبد القاهر في الدلائل

يمثل كتاب (دلائل الإعجاز) دور الاكتمال في ثقافة عبد القاهر الذي كان قطع مراحل درس فيها علوم العربية والإعجاز والكلام، وتعمق الشعر العربي تأملاً ومقارنة بما أداره النقد - قبل - من أحاديث خصائصه وقضاياه الفنية والمعنوية، فجاء عملاً له تميّزه في بنائه الداخلي؛ وفي تطلّبه وعياً بمحتواه كيما يستوعب ويغني دارسه والمتلقين بعد ذلك.

لا بدّ لنا بداية من الإشارة إلى مسألة تتصل بتداول (الدلائل) بين الدارسين فهو كتاب محاضرات لا يحدّ بصفحات لها عددها الذي لا يزداد بل إن عبد القاهر - فيما يبدو لنا - كان يزيد في أحاديثه ومجالسه ما يجعل المتلقين عنه تختلف نسخهم بين سنة وأخرى اختلافاً لا يغيّر من جوهر القضايا والآراء المطروحة وإنما يبسط الكلام هنا أو هناك أو تضاف فقرات أو فصول صغيرة في صفحات، ولو تأملنا النسخ التي بين أيدينا لرأينا أنها لم تتخذ لها التقسيم الحاسم في أبواب أو فصول متميزة كل التمايز. وقد ظلّ (الدلائل) أداة طيعة للباحثين في البلاغة والنقد والإعجاز عبر العصور المتتابعة للثقافة العربية؛ وتعين على هذا - إضافة إلى القيمة المعرفية فيه - صيغته التعليمية الحوارية التي أتقن عبد القاهر فيها أساليب الجدل الحامل آثاراً من أشعريته، وهو يطيل المحاورات، ويتسع صدره لآراء المخالفين، ويذهب معهم بعيداً كيما يبلغ مراده دون مصادرة على المسائل.

تناول الجرجاني عدداً من القضايا اللغوية والنحوية والبلاغية والنقدية والقرآنية في الدلائل لكنه لم يشأ أن يكون فيه لغوياً أو نحوياً أو بلاغياً أو باحثاً يخصص الكلام في الإعجاز! لقد أراد أن يكون ذلك كله في هيئة متكاملة، وأن يرسم صورة له مفيداً - في تألف تلك الاهتمامات - الثقافة والرؤى الأدبية واللغوية والفكرية ويجمع بعيداً كل من يرغب في تصوّر (الدلائل) متفرداً في واحد من الاتجاهات، ومن ثمّ يسعى لتبيان الشخصية الفريدة للدرس في هذا المجال أو ذاك، أو ليأخذ عليه المآخذ.

إننا نعتقد أن العودة إلى الأصول هي الأساس لكل درس جديد أو تأمل يبحث في الحقيقة، ولا نبغي أن نفصل في تحليلات تسبق ما دوّنه عبد القاهر فصاحب العمل أحقّ بأن يكون المعبر عن قضايا ومواقفه، لذا سنضع عدداً من المفاتيح عسى أن تعين على الولوج في عالم (الدلائل)، وسنفرد صفحات لقضية هامة تبرز ملامح من ثقافة عبد القاهر نرى أنها لم تفرد في بحوث دارسي عبد القاهر، وبعد ذلك سنفسح المجال للمراجع القديمة التي عرضت لترجمة الجرجاني وللدراسات الحديثة التي قدمها المحدثون في ميادين النقد والبلاغة واللغة؛ وقد صنعنا الفهارس الفنية والاصطلاحية المعينة على التحليل الموضوعي العلمي.

الجوانب اللغوية والنحوية

يظن دارسون لتاريخ النحو العربي أن القرن الرابع الهجري كان خاتمة المطاف للنحويين الذين يريدون أن يضعوا لبنات في بنيان علم التركيب والنحو، ولم يضاف بعد القرن الرابع أولئك الذين تحفل بأسمائهم كتب التراجم وعناوين المخطوطات القديمة شيئاً له أهميته أو أثره في القواعد وهيكلها الذي استقام لها في عصور الاحتجاج؛ وعلى هذا يندرج جهد عبد القاهر النحوي في مصنّفاته تأليفاً وشرحاً وإيجازاً كما سلفت معرفتنا به.

في الحق أن ظاهر الأمور يصح، ويظل عبد القاهر واحداً من المجيدين

الذين استوعبوا قوانين النحو والصرف وبرعوا في تعليمها وتلقينها وسردها في أوراق تكثر وتقل بحسب الحاجة الاستعمالية لا تلبية لجدة تستلزمها، ولكننا نعتقد ما يخالف هذا الذي يتبدى وهو بعيد عن حقيقة عمل عبد القاهر:

فقد خرج عبد القاهر بالنحو العربي من دائرته المغلقة؛ ذلك أن معيارية العربية الفصحى في القضايا الصوتية والصرفية والتركيبية (النحوية) أمر مقرر يحفظ لها ديمومتها وشرط للتواصل بين القديم وما يستحدث في الآماد المتلاحقة، ولكن الباب الذي وجّه إليه الأنظار في (دلائل الإعجاز) هو الدرس التطبيقي التحليلي للكلام العربي فالتركيب تدرس حالاته النحوية: الترتيبية في التقديم والتأخير، والتوليدية بين البسائط من الجمل والمركبات والنظر في العناصر المضافة ودورها وما يذكر وما يحذف، والتلوينية في التعريف والتنكير وفي التقرير والإثبات من طرف والإنشاء بضروبه من طرف آخر.

فالنحو ههنا يتحوّل إلى دراسة أسلوبية تعبيرية تكون أداة في الميدان الفني الأدبي؛ وكذلك في مجال الأداء العلمي الدقيق، وهذا فرع من الدرس ليس كسائر ما يتلقى لأنه يسعى لتحليل الكلام نفسه لا كما اعتاد القوم من مراجعة للقواعد وأمثلتها ومشكلاتها النظرية. إن هذه الطرائق النظرية أساس لكل نحوي إلا أنها تغدو جافة تفتقد الحيوية إذا ما انفردت ولم تكن المنطلق إلى تحليلات أشار إليها عبد القاهر بمصطلح (معاني النحو) التي تتطلب من الدارس فهماً متكاملاً للسياق ومراميه وربطاً للوظائف النحوية بالأغراض والأفكار.

نحن نقول: إن الجرجاني وجّه إلى التحليل الداخلي للجملة والعبارة بديلاً عن التقسيم الشكلي الخارجي الإعرابي، ثم أضاف إلى هذا ربط العمل النحوي بالبحث عن المعاني والسياقات تطبيقاً؛ وقد جنحت كليات الآداب في الجامعات العربية في هذه السنوات القريبة إلى شيء مما نبّه إليه عبد القاهر في هذا المجال سعيّاً منها إلى تحقيق الجودة المفيدة في التمكن من ناصية العربية وتداولها؛ فكانت الدراسات التطبيقية للأساليب (الوظائف النحوية) في الأشعار الجاهلية والإسلامية.

أفاد عبد القاهر في الدلائل من المحاورات العقلية فيما يتصل بالدلالة اللغوية واتخذ موقفاً علمياً فذاً، ذلك أنه ثبت قانوناً دالياً انتظرت الدراسات الحديثة ما يقارب عشرة قرون ليصاغ على يد العالم السويسري (دوسوسير) في مطلع القرن العشرين ألا وهو: عشوائية الألفاظ وقيمتها العرفية الاجتماعية، فأشكال الكلمات ليست بدالة على شيء ولا ترتبط في هيئتها وأصواتها بمدلولاتها (الأشياء والأفكار) وإنما يتم الربط بين هذه الأشكال اللغوية وما تدل عليه بالتفاهم الاجتماعي أي (بالوضع اللغوي)؛ وبهذا يحسم عبد القاهر الجرجاني الرأي في مسألة حفلت بمناقشات الكتب اللغوية والأصولية والمنطقية [هل اللغة توقيفية أم عرفية؟] وكان وقف أمامها ابن جني وفصل فيها القول في (الخصائص)^(١) كما جمع بعد ذلك السيوطي في (المزهر)^(٢) مواقف العلماء والمتكلمين، وههنا نذكر أن الجرجاني انتصر لفكرة الوضع اللغوي والعرفية على نحو يقرب مما قال به أبو هاشم الجبائي بأكثر مما كان من الأشعري إلا إذا أخذنا بما جاء لدى ابن السبكي وفيه أن الأشعري يميز عرفية الدلالة: «اعلم أن للمسألة مقامين: أحدهما الجواز فمن قائل: لا يجوز أن تكون اللغة إلا توقيفاً. ومن قائل: لا يجوز أن تكون إلا اصطلاحاً. والثاني: أنه ما الذي وقع على تقدير جواز كل من الأمرين؟ والقول بتجوز كل من الأمرين هو رأي المحققين، ولم أر من صرح عن الأشعري بخلافه، والذي أراه أنه إنما تكلم في الوقوع، وأنه يجوز صدور اللغة اصطلاحاً، ولو منع الجواز لنقله عنه القاضي وغيره من محققي كلامه»^(٣).

ونأتي على ما ورد لدى الجرجاني في أثناء تناوله للقضايا الدلالية والبلاغية فهو يقول: «مما يجب إحكامه أن نظم الحروف هو تواليها في النطق فقط، وليس نظمها بمقتضى عن معنى، ولا الناظم لها بمقتضى في ذلك رسماً من العقل اقتضى

(١) الخصائص لابن جني ٤٠/١، تحقيق محمد علي النجار، ط. دار الكتب المصرية.

(٢) المزهر للسيوطي ١٧/١، تحقيق البجاوي وأبو الفضل وجاد المولى، ط. عيسى

الحلي، مصر.

(٣) المزهر ٢٤/١

أن يتحرّى في نظمه لها ما تحرّاه. فلو أن واضع اللغة كان قد قال (ربض) مكان (ضرب) لما كان في ذلك ما يؤدي إلى فساد^(١). ويتسع نظر عبد القاهر ليؤكد هذه الفكرة اللغوية في اللغات على اختلافها ففي كلّ منها عرف لغوي يحدّد الدلالة «فهل يتصوّر أن يكون بين اللفظتين تفاضل في الدلالة حتى تكون هذه أدل على معناها الذي وضعت له من صاحبها على ما هي موسومة به؟! وحتى لو أردنا الموازنة بين لغتين كالعربية والفارسية ساغ لنا أن نجعل لفظ رجل أدلّ على الآدمي الذكر من نظيره الفارسي^(٢)؟» وترجع أهمية هذه القضية لدى عبد القاهر إلى انسيابها بين المسائل والتحليلات مما يعمّقها في أذهان قرائه دون أن تفرد في باب مستقل، ولعلّ صلة وثيقة بأعمال أبي علي بن سينا كانت قائمة، وبرزت في التناظر في الآراء اللغوية المتداخلة بالدرس المنطقي والجدلي ههنا^(٣).

قضية لغوية أخرى شغلت المعاصرين في أيامنا هذه ونُصّب^(٤) (دوسوسير) علماً على وضعها في قوانين الدرس اللغوي الحديث، ألا وهي تبيان العلاقة الذهنية والنفسية في حركة الدلالة اللغوية، وإقامة الروابط بين الألفاظ أصواتاً وكتابة وانطباعاتها تصوّرية وقائعها المادية^(٥) أو منعكساتها المجردة. هذه القضية عرض لها عبد القاهر وكانت جزءاً من القاعدة اللغوية التي يركز عليها وينطلق منها.

يقول في (الدلائل): «وإذا كان لا يكون في الكلم نظم ولا ترتيب إلا بأن يصنع بها هذا الصنيع ونحوه؛ وكان ذلك كله مما لا يرجع منه إلى اللفظ شيء ومما لا يتصور أن يكون فيه ومن صفته؛ بأن بذلك أن الأمر على ما قلناه من أن

(١) الدلائل ٩٧.

(٢) الدلائل لعبد القاهر ٩٣.

(٣) الشفاء لابن سينا / العبارة تحقيق محمود الخضيرى، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٩٧٠ م، ص ٣.

(4) F. de Saussure, Cours de linguistique générale, Payot, Paris 1975, PP. 97-103

(٥) يطلق على الوقائع المادية في الدراسات اللسانية والدلالية مصطلح (المرجع).

اللفظ تبع للمعنى في النظم، وأن الكلم تترتب في النطق، بسبب ترتب معانيها في النفس، وأنها لو خلت من معانيها حتى تتجرد أصواتاً وأصداً حروف لما وقع في ضمير ولا هجس في خاطر أن يجب فيها ترتيب ونظم»^(١) وقد أفاد عبد القاهر من الجهود اللغوية لابن سينا في العبارة من (الشفاء) حيث يبين أن «ما يخرج بالصوت يدل على ما في النفس وهي التي تسمى آثاراً، والتي في النفس تدل على الأمور وهي التي تسمى معاني أي مقاصد للنفس. كما أن الآثار أيضاً بالقياس إلى الألفاظ معانٍ. والكتابة تدل على اللفظ إذ يحاذي بها تركيب اللفظ»^(٢).

وهناك مسألة عند عبد القاهر في الدلائل تستدعي الدرس المتأني فقد عرض للفظ والمعنى وأدار الأحاديث الطويلة والتحليلات حولهما لكننا نجده يعالجهما بطريقتين تأتلفان وتتكاملان فهو يناقش الدال والمدلول وأبعاد كل منهما في القيمة الدلالية من جهة، ومن جهة أخرى نراه يجري الموازنة بين الأدوات اللغوية والكلمات المعبرة عن الأغراض والمواقف والانفعالات. وبذا يبرز الاهتمام النقدي الذي شغل به النقاد والمتأدبون باللفظ والمعنى على أنه معادلة تبحث عن توازنها بين مضمون العمل الإبداعي وقوالبه وما توحى به من إيقاعات خارجية متنوعة. وإلى جانب هذا التوجه يتبدى الاهتمام اللغوي لأنه جوهر المسألة ومنه تتفرع وجوه النظر وتبنى عليه المناقشات ونتائجها فما دام الأدب يتعامل بالكلمة فلا بدّ من مناقشة دلالتها من داخلها لا من التأمل الخارجي والعرض الكلي المعتم؛ وعمل عبد القاهر كان إشارة يحسن تقصي مغزاها بدلاً من انصراف النقاد والبلاغيين إلى خلاف بعيد وهو الخوض في تفاضل الألفاظ أو المعاني الشكلي^(٣).

(١) الدلائل لعبد القاهر ١٠٢.

(٢) الشفاء / العبارة ٢ - ٣. وانظر معيار العلم للغزالي ٧٥، تحقيق د. سليمان دنياط، دار المعارف بمصر ١٩٦١ م. ينظر في تفصيل هذه المسألة الفصل الأول: (ماهية الدلالة) في كتاب (علم الدلالة العربي) د. فايز الداية، دار الفكر، دمشق، ط ٢، ١٩٩٦ م.

(٣) انظر علم الدلالة العربي، د. فايز الداية، مشكلة اللفظ والمعنى ٣٠ فما بعد.

أما المحور الذي أقام عبد القاهر من حوله بحوثه في (دلائل الإعجاز) فهو نظرية النظم التي حملت صنوفاً من التحليلات والرؤى في كتابات المحدثين حتى غدت بحاجة إلى قراءة نصية كيلا يذهب القارئ مذاهب شتى مع هؤلاء وأولئك ممن يخيل إليهم أنهم يعرضون الأفكار المتضمنة في (النظم).

لن نفيض في عرض جديد، وإنما نضع مؤشرات قد تفلح في تنوير زوايا في نظرية النظم؛ مع احترازنا وتأكيدينا على العودة إلى النص الذي دونه عبد القاهر، ففي هذه الحالة يستطيع القارئ الحكم على التعليق أو الشرح ويدرك المدى الذي يفصلهما عن الجوهر أو يلمح الشوائب بين الأصل وما يتوره:

النقطة الأولى: التي نراها في مفهوم (النظم) هي الدلالة النحوية في النص الأدبي، فهو كيان له بنيانه ولا بدّ من إيجاد الروابط وعلاقات التأثير فيها بين مكوناته أي أبنيته الداخلية، فالوظائف النحوية: الفاعلية، المفعولية، الحالية، الخبرية، التمييز.... تتفاعل وتؤثر في تركيب الدلالة المتكاملة، ذلك أن الكلمة تحمل مجموعة من الدلالات لا تبين إلا بالتحليل لأننا نتلقاها مركبة: فثمة الدلالة المعجمية السكونية وهي أصل المادة اللغوية (ص و ر)، ثم تتشكل في صيغ صرفية فتأخذ بعداً خاصاً مع كل وزن من الأوزان مع اشتراك في معنى أساسي عريض: صوّر، يصوّر، متصوّر إلخ....، وبعد ذلك نلاحظ قيمة الوظيفة النحوية التي تضاف إلى الكلمة عندما تحلّ في ركن من أركان الجملة أو العبارة، وهنا تظهر الحاجة إلى تجاوز دلالة الكلمة المفردة بعد إدراك البعدين الأولين المعجمي والصرفي، نجيل النظر في النص وجمله، وعباراته التي يمكن لها أن تطول فتشع هذه الكلمة على نحو خاص بحسب المتغيرات والتوافقات مع الكلمات الأخرى. هذا التحليل ينبغي - فيما نراه - الاطلاع على علاقات النص التركيبية في مرحلة من مراحل استكناه العمل الأدبي، وهو جزء من مفهوم نظرية السياق الحديثة في دراسات اللغويين والنقاد الأسلوبيين، ويعبّر عبد القاهر عن هذا بشكل مختصر في مفتتح الدلائل ويفصله في فصول الكتاب فيقول: «معلوم أن ليس النظم سوى تعليق الكلم بعضها ببعض وجعل بعضها بسبب من

بعض، والكلم ثلاث: اسم وفعل وحرف، وللتعليق فيما بينها طرق معلومة^(١). ثم يستأنف الحديث في موضع آخر: «اعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الموضوع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيع عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها، وذلك أنا لا نعلم شيئاً يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه فينظر في الخبر في الوجوه التي تراها....»^(٢).

النقطة الثانية: هي الموقعية في (النظم) ذلك أن عبد القاهر يلتفت إلى جانب آخر هو اكتساب الكلمة دلالاتها المتميزة من تفاعل التصور فيها مع التصورات الأخرى من الأسماء والصفات والأفعال في جو معين (الموضوع، والمجال، والآفاق مادية أو ذهنية أو نفسية) وفي علاقات زمانية ومكانية وشخصية، وبهذا يكتمل السياق بأبعاده اللغوية - النحوية، والآفاق التصورية، وتبرز هنا اصطلاحات الهوامش الدلالية أو ظلال المعنى، فالكلمة تتأثر بدلالات الكلمات في الجملة أو العبارة من حولها، وكذلك تفيد من محيط النص وإيحاءاته. يقول عبد القاهر: «إنك تجد متى شئت الرجلين قد استعملوا كلماً بأعيانها ثم ترى هذا قد فرع السماك وترى ذاك قد لصق بالحضيض، فلو كانت الكلمة إذا حسنت حسنت من حيث هي لفظ، وإذا استحقت المزية والشرف استحقت ذاك في ذاتها وعلى انفرادها دون أن يكون السبب في ذلك حال لها مع أخواتها المجاورة لها في النظم لما اختلف بها الحال، ولكانت إما أن تحسن أبدأً أو لا تحسن أبدأً»^(٣) وكان ذكر «أن الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها في ملاءمة معنى اللفظ لمعنى التي تليها، أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ»^(٤).

(١) الدلائل ٥٢.

(٢) الدلائل ١٢٢ و ٣٥١ و ٣٥٣.

(٣) الدلائل لعبد القاهر ٩٧.

(٤) الدلائل ٩٤.

إننا نشير في هذا الموقع إلى أن نظرية السياق الحديثة لا تضيف إلى ما قاله عبد القاهر إلا التفصيلات والربط بمفهوم التطور الدلالي كما ألفت المعجمات الحديثة، ولا نلتبس لعبد القاهر مكانة بين الدارسين في مؤلفاتهم ذلك أنه في غنى عن هذا والمجدي هو أن نتبصر في تراثنا وماهية عربيتنا لتكون نظرتنا مؤتلفة لا خليطاً لا يحمل شخصيتنا^(١).

النقطة الثالثة: هي توجيه عبد القاهر من خلال مفهوم (النظم) الدارسين لبحثوا في الدلالات الجديدة، والدلالات الخاصة التي تبدأ تطوراً ثم يزداد نمواً ويمكن - مع تراكمه عبر العصور وفي كتابات الأدباء والعلماء - أن يشكل حركة حيوية للاستعمال اللغوي وطبقات الدلالة في المجالات المختلفة. وكانت الدراسات المنطقية والأصولية قد رسمت بعضاً من مؤشرات التحليل الدلالي. وبهذا يحل إشكال تاريخ حياة الألفاظ في العربية الفصحى؛ لكننا لم نلاحظ تبلور هذه الفكرة في أبواب خاصة لغوياً أو نقدياً إلا ما كانت في كتب أصول الفقه والمنطق، ومن ثم انتشرت التحليلات الدلالية في المصنفات بشكل متفرق كما في الشروح الشعرية للدواوين والمجموعات القديمة الجاهلية والعباسية^(٢).

الجوانب المتصلة بالإعجاز:

سبق عبد القاهر عدد من المؤلفين الذين توفروا على موضوع الإعجاز القرآني وفصلوا فيه القول نذكر منهم الجاحظ (٢٥٥ هـ) في كتاب له عن (نظم القرآن)^(٣) ثم الخطابي أبا سليمان حمد بن إبراهيم (٣٨٨ هـ) في رسالته (بيان

(١) انظر الدراسة المستفيضة في هذا المجال: (علم الدلالة العربي) د. فايز الداية ٢١٦ - ٢٢٥ فما بعد. حيث تناقش آراء اللغويين العرب مع اللغويين والنقاد: أولمان، نيدا، ريتشاردز، غيرو...

(٢) علم الدلالة العربي، د. فايز الداية ٢٧٤ - ٢٩٢

(٣) إعجاز القرآن للباقلاني، مقدمة محققه أحمد صقر ٨ - ٩

إعجاز القرآن^(١) والرماني أبا الحسن علي بن عيسى (٣٨٦ هـ) في رسالته (النكت في إعجاز القرآن)^(٢)، والباقلاني أبا بكر محمد بن الطيب (٤٠٣ هـ) وهناك مؤلف ترك كتاباً توفر الجرجاني على شرحه كما مضى معنا في ثبت مؤلفات صاحب الدلائل، ذاك هو الواسطي محمد بن يزيد أبو عبد الله في مصنفه (إعجاز القرآن).

عرفنا أن عبد القاهر تناول كذلك قضية الإعجاز في رسالة مستقلة أسماها (الشافية)، فهو عندما يقبل على تصنيف جديد في (دلائل الإعجاز) إنما يتخذ لنفسه نهجاً فريداً يقوم على توظيف (الإعجاز)^(٣) في صورته التي ارتضاها - النظم - ليكون طرفاً فعالاً في الحياة الأدبية والرؤية النقدية الإبداعية. لذا لا نجد المحاور والجدل النظريين بل نتابع تحليلاً ومناقشة للشواهد والمسائل في اللغة والأدب ومعايير البلاغة والنقد والذوق. إن اختصار عبد القاهر للجانب النظري يعني أنه قد بلغ القدر الذي يفني بحاجة المراجع والمستفسر في تلك الكتب - التي أتينا على ذكر بعضها - ولا بدّ من الإفادة من نتائجه في التطبيق النقدي.

الجوانب البلاغية والنقدية:

هنالك منزلق يقع فيه الدارسون لآثار عبد القاهر فلا يعطى المكانة التي هو أهل لها، ولا تُرى أعماله من زوايا تبصّر النقاد والباحثين على نحو أفضل بكيفية التناول النقدي والتحليل الأدبي من داخل النصوص وبرؤية لتفاعلات مكوناتها وروابط أبنيتها. ذاك المنزلق هو اتباع تقسيم شكلي للبلاغة والنقد والدوران في حلقة مفرغة من الجدل العقيم الذي يستند إلى وضع الدرس الأدبي والنقد في حقب اضطربت فيها الحياة الأدبية وتداخلت المصنفات فكانت كتب تحمل اسم البلاغة مجردة عن إطارها الفني الحقيقي من النصوص والآفاق الأدبية شعرية ونثرية منذ القرن السادس الهجري عند السكاكي في (مفتاح العلوم).

(١) نشرت الرسالتان مع (الشافية) لعبد القاهر الجرجاني بدار المعارف بمصر، ط. ١٩٥٦ م.

(٢) الدلائل ٦٦-٦٧ و ٣٧١-٣٧٢.

لا شك أن عبد القاهر قد أعطى دراسة مركزة للعمل الأسلوبى في جانبين أساسيين من مكونات الأسلوب هما^(١) الصورة الفنية وجمالياتها، والتركيب اللغوي وجمالياته وقد تحوّل القسم الأول إلى: علمي البيان (الاستعارة والتشبيه والكناية) والبديع (بمفهومه المتأخر وضروب التحسين اللفظي والمعنوي)؛ والثاني إلى: علم المعاني.

إن الجانب العقلي المتأثر بالمنطق وأقيسته لم يؤثر بشكل سلبي على جهود عبد القاهر، ذلك أنه تطلع إلى دراسة أسلوبية جمالية فهي بهذا عمل نقدي تحليلي وإن لم يتخذ شاعراً واحداً أو مجموعة من الشعراء بأعيانهم مجالاً لتحليله. إن عبد القاهر تمتع بتصوّر نقدي شمولي من جهة جمعه بين الشعر قديمه ومعاصره - بالنسبة إليه - وضمه النثر والنصّ القرآني إلى الشعر ومن الجهة الأخرى كان عبد القاهر متخصصاً في درس جماليات التركيب والصورة في (دلائل الإعجاز) فبحث عن القيمة المرتبطة باحتمالات بناء الجملة وتوزع الأدوار بين أجزائها في نقل المواقف والإيحاءات؛ فالقدرة التعبيرية المميّزة لهذه الجملة أو تلك العبارة تعطي دائرة من الضوء تلون هذا الجانب أو تمنح لمحة وتوتراً يخلق التواصل فيتحقق البعد الجمالي إفادة ومتمعة على درجات بحسب موقعية النص.

تناول عبد القاهر الحذف والذكر والتعريف والتنكير ووقف عند القصر، وناقش التقرير والاستفهام، ولكنه في هذه المسائل - وما إليها - كان يستعرض الشواهد ويحللها في بعديها النفسي والاجتماعي ويرى المبدع والمتلقي ويتتبع خيوط التأثير. إن الشخصية الفذة لهذا الناقد أنه استطاع أن يدرس الأسلوب بعقلية توازن بين معطيات الثقافة العربية الناضجة، فقد تخلّقت لديه قضايا البنى الداخلية للعمل الفني الأدبي وتشابكها مع أبعاد المواقف والحالات التي يقصد إليها أصحاب النصوص الإبداعية. إنه يحلّل البعد اللغوي الأساسي للفظ

(١) خصص عبد القاهر كتابه (أسرار البلاغة) لمسائل الصورة، وأعطى قدراً وافراً لجماليات التركيب في (الدلائل).

والمعنى في صياغته وزناً ثم في محيطه الدلالي وبعدها يفسر العلاقات النحوية التركيبية والسياق والموقعية التي تضم في كل متكامل من الدلالة والإيحاء.

ويتابع بناء عمله ليعرض الصورة الفنية في حدودها اللغوية^(١) - وهذا بصر في ماهية الإبداع الأدبي متميز - ولا يقتصر كما يتوهم بعض الباحثين على الاستعارة وإنما يشير إلى الكناية والتمثيل، ويصل إلى فكرة المعنى اللغوي أي الدلالة الأساسية ومعنى المعنى أي البعد الفني الذي يعطيه تركيب لغوي خاص في أشكال المجاز والاستعارة والكناية والتعريض والتمثيل^(٢).

لا يعني حديثنا ههنا أن عبد القاهر ينصرف إلى اللغة يرتب أوراقها بمعزل عن الفنون، بل إنه يقرن الأدب بالتصوير فيقول: «ليس الغرض بنظم الكلم أن توالى ألفاظها في النطق، بل أن تناسقت دلالتها وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل، وكيف يتصور أن يقصد إلى توالي الألفاظ في النطق بعد أن ثبت أنه نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض، وأنه نظير الصباغة والتجبير والتفويف والنقش وكل ما يقصد به التصوير»^(٣) وهذا يؤكد مع الشواهد الأخرى^(٤) اتصال عبد القاهر بالثقافة اليونانية وتمثله لها دون أن تغطي على خصوصية درسه للعربية وأدبها.

ونورد من كلام عبد القاهر إشارتين قصيرتين إلى (١) ارتباط الصورة بالبناء اللغوي التركيبى و(٢) إلى قضية (معنى المعنى) ونترك القارئ والباحث ليناقش المسائل والقضايا باستفاضة مع (الدلائل) ذلك أننا لم نقصد إلى العرض التفصيلي وإنما - كما ذكرنا قبل - إلى فتح أبواب الحوار والمناقشة:

١ - يقول عبد القاهر: «وإن أردت أعجب من ذلك - فيما ذكرت لك - فانظر إلى قوله:

(١) الدلائل ٢٦٨-٢٦٩.

(٢) وهذا ما يتوسّع الدارسون الأسلوبيون فيه تحت مصطلح (الانزياح) ودلالاته.

(٣) الدلائل ٩٨. وانظر أيضاً ٨٧.

(٤) انظر في القسم الثاني من هذه المقدمة.

سالت عليه شعاب الحيّ حين دعا أنصاره بوجوه كالدنانير

فإنك ترى هذه (الاستعارة) على لطفها وغرابتها إنما تمّ لها الحسن وانتهى إلى حيث انتهى بما توخّى من وضع الكلام من التقديم والتأخير، وتجدها قد ملحّت ولطفت بمعاونة ذلك ومؤازرته لها، وإن شككت فاعمد إلى الجازين والظرف فأزل كلّاً منها عن مكانه الذي وضعه الشاعر فيه فقل:

«سالت شعاب الحي بوجوه كالدنانير عليه حين دعا أنصاره» ثم انظر كيف يكون الحال وكيف يذهب الحسن والحلاوة، وكيف تعدم أريحيّتك التي كانت وكيف تذهب النشوة التي كنت تجدها»^(١).

٢ - وحول تحليل الدلالة ومعنى المعنى يقول في الدلائل:

«الكلام على ضربين: ضرب أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده وذلك إذا قصدت أن تخبر عن زيد مثلاً بالخروج على الحقيقة فقلت: خرج زيد، وبالاتّفاق عن عمرو فقلت: عمرو منطلق، وعلى هذا القياس، وضرب آخر أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، ولكن يدلك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض، ومدار هذا الأمر على الكناية والاستعارة والتمثيل. وقد مضت الأمثلة مشروحة مستقصاة... وإذ عرفت هذه الجملة فما هنا عبارة مختصرة وهي أن تقول: المعنى ومعنى المعنى»^(٢).

ثقافة عبد القاهر الفلسفية في (الدلائل)

نعرض في هذا القسم من التعريف بعبد القاهر وبكتابه (الدلائل) قضية لها أهميتها؛ فقد أخذ البلاغيون عن الجرجاني في مصنفاتهم لكنهم جنحوا إلى

(١) الدلائل ١٣٨. وانظر كذلك في الصفحات ١١٧ - ١٢٦ - ١٣٨ - ١٤٢، ٢٦٨ - ٢٧٠ - ٢٩٣ - ٣٠٥ - ٣١٣، ٣٠٩ - ٤٠٦.

(٢) الدلائل لعبد القاهر ٢٦٨.

ضروب من النظر العقلي المجرد، وابتعدوا بقراءتهم عن النص الأدبي، ونرغب ههنا في توضيح جانب من ثقافة عبد القاهر الفلسفية المنطقية التي لم يدرك اللاحقون أبعادها في إطار له صلته بالفن كما نقل وحوّر بحسب مجموع (الأورغانون) أي الكتب المنطقية الأرسطية بعد إضافات الشراح وإلحاقهم (فن الشعر) و (الخطابة) بهذا الدرس المنطقي.

إننا نصدر عن منهج نصي تحليلي مع الاحتراز بأن هذا الجزء إنما تكمله دراسة مفصلة عن الأثر الفلسفي المنطقي في البلاغة العربية من عبد القاهر إلى شروح التلخيص (السبكي، التفتازاني، المغربي) مروراً بمجموعة من المصنفين البلاغيين (فخر الدين الرازي، السكاكي، جلال الدين القزويني).

حفل جهد عبد القاهر الجرجاني البلاغي والنقدي بعدد من العلامات المنطقية وقد انتظمت في أثناء فصول الدلائل والأسرار بصورة لا تبدو فيها حادة الجوانب، بارزة في تميز من لحمة التحليل الذي يجريه المصنف، ولكننا باستقراء متأنٍ نلاحظ أن العمل التنظيري احتاج من عبد القاهر إلى ركائز عقلية وأصول ثقافية كان من ضمنها المنطق أو بعض مسائله على وجه التحديد، وتنتسب هذه المسائل إلى مفهوم (الأورغانون) الأرسطي وتداخل الأقيسة فيه، بحيث جعل للشعر والخطابة أقيسة منطقية تباين البراهين اليقينية واستدلالات الجدليين وأهل السفسة.

سنقابل في أعمال المتأخرين على عبد القاهر تأثراً يستمد من المنطق الخالص، ولعلّ قيمة عبد القاهر هي في توجيهه التأليف البلاغي بعده وجهة تفيد من المنطق، وإن تكن الطريقة مختلفة والجزئيات المستمدة ليست متطابقة.

نحن أمام تصنيف نقدي بلاغي بمعنى أنه ينظر لأساليب التعبير على هيئة بحث في ماهية الصورة (المجاز والاستعارة - والتشبيه معها - والكناية)، وخصائص الجملة في حالاتها المتعددة والتي بها يؤدي المبدع أغراضه، وإنّ عمل عبد القاهر هذا هو الأساس والجوهر الذي تعاقب عليه آخرون، وأعطوا

من خلاله للبلاغة صورتها التي نعرفها بتقسيماتها الثلاثة (المعاني، البيان، البديع) وما تتفرع إليه من فروع جزئية.

وتعد جهود عبد القاهر البلاغية دراسة متخصصة لجوانب من التصنيف النقدي العام الذي نعرفه لأسلافه من النقاد، وأول ما يبادرنا هو ذلك التطبيق للقياس الشعري التخيلي على الصورة في التشبيه والاستعارة كما يطبق على مسائل أخرى القياس الاستدلالي، وبذا يمكننا معرفة الرصيد المنطقي لعبد القاهر؛ فهو لا يكتفي بالأخذ عن الخطابة والشعر الأرسطيين والتصريح بذلك، وإنما يتكئ على مباحث الاستدلال في القضايا البلاغية العامة. وهذا أقرب إلى التصور العلمي، لأن الاطلاع على (الأورغانون) كاملاً لم يكن عسيراً في تلك الآونة، بالإضافة إلى حاجة المصنف والدارس من أصحاب علم الكلام إلى المنطق والجدل، ولقد كان عبد القاهر أشعرياً متكلماً، وانطلقت من ثقافته الكلامية منطلقات للتفسيرات العقلية في مباحث الصورة البلاغية عندما تعالج على أساس من الدلالات المطابقة والتضمنية والالتزامية، وفي مناقشة حالات أسلوبية في الجملة ووزنها بمصطلحات القضية المنطقية بموضوعها ومحمولها وما يتبع ذلك من علاقات، وكذلك في تحليلات تعتمد على مفهومات المعاني الكلية من الأجناس والأنواع لتتبع العلائق بين أجزاء الأسلوب في العبارة البلاغية وفي الصورة لدى تمييز خصائصها.

وسأفرد فقرات تضم هذه الأفكار المبينة للعناصر المنطقية عند عبد القاهر الجرجاني:

١ - يستعمل عبد القاهر (الاستدلال) مصطلحاً مع القياس ويقصد بهما إلى الاحتجاج على الشيء والإتيان ببينة تعلل ما يورد وتجعله مقبولاً ومستساغاً لدى الآخرين، والأهم هو احتمال المادة البلاغية على هذا القدر من التعليل، والاعتماد على مقاييس داخلية يحكمها العقل عند المبدع أو صاحب التعبير البليغ.

والفصاحة لا تكون عند عبد القاهر صفة للفظ بمعزل عن معناه؛ وللبهرنة على هذه الفرضية نراه يسلك طريقاً من الاستدلال لطيفاً، ذلك أنه يقول: «لا تخلو الفصاحة من أن تكون صفة في اللفظ محسوسة تدرك بالسمع أو تكون صفة فيه معقولة تعرف بالقلب»، وبعد وضع هذه المقدمة الشرطية ينبغي عبد القاهر في مقدمة تالية لها طرفاً منها: «فمحال أن تكون صفة في اللفظ محسوسة لأنها لو كانت كذلك لكان ينبغي أن يستوي السامعون للفظ الفصح في العلم بكونه فصيحاً»، وينتهي إلى نتيجة أنه: «إذا بطل أن تكون محسوسة، وجب للحكم ضرورة أنها صفة معقولة، وإذا وجب أنها صفة معقولة فإننا لا نعرف للفظ صفة يكون طريق معرفتها العقل دون الحس إلا دلالة على معناه، فالفصاحة وصف له من جهة معناه»^(١). وهكذا نرى كيف يعمل عبد القاهر القياس الشرطي. وإلى جانب هذا ثمة استخدام لأحد فروع القياس^(٢)، وهو التمثيل أو ما يعرف بقياس الفقهاء، والذي يقوم على مقارنة بين جزئيين وجزئيين آخر يشابهه وإطلاق الحكم على الثاني بما يكون للأول فهناك من يقرب بين الأعمال الأدبية وأشياء مما يبرز فيها التفنن والصنعة ويقايس بينها فيورد عبد القاهر ما يذكرون مع تحفظ يبيده: «فإننا لنراهم يقيسون الكلام في معنى المعارضة على الأعمال الصناعية كنسج الديباج وصوغ الشنف والسوار وأنواع ما يصاغ وكل ما هو صنعة وعمل يد بعد أن يبلغ مبلغاً يقع التفاضل فيه ثم يعظم حتى يزيد فيه الصانع على الصانع زيادة يكون له بها صيت ويدخل في حدّ يعجز عنه الأكثرون. وهذا القياس، وإن كان قياساً ظاهراً معلوماً وكالشيء المركوز في الطباع حتى لنرى العامة فيه كالخاصة فإن فيه أمراً يجب العلم به وهو أنه يتصور أن يبدأ هذا فيعمل ديباجاً ويبعد في نقشه فيجيء آخر ويعمل ديباجاً مثله في نقشه وهيئته، وليس يتصور مثل ذلك في الكلام لأنه لا سبيل إلى أن تجيء إلى معنى بيت من الشعر أو فصل من النثر فتؤديه بعينه وعلى خاصيته وصنعتة بعبارة

(١) دلائل الإعجاز ٣٨٥.

(٢) وهذا في الحقيقة ضرب من الاستقراء الذي يجعله المحدثون موازياً للقياس لا فرعاً منه.

أخرى حتى يكون المفهوم من هذه هو المفهوم من تلك لا يخالفه في صفة ولا وجه»^(١).

وتتعدد المواضع التي نقابل فيها عبارة «كان من مقتضى القياس أن يفعل ما ذكر» فمنها حديثه عن تقديم الاسم تقديماً لازماً كـ (مثل) و (غير)^(٢)، وحديثه عن الفصاحة عامة. وفي تحليل مثال تظهر فيه تعقيدات تحول دون وضوح معناه:

(وتسكب عيناى الدموع لتجمدا)^(٣).

وكذلك في كلام له عن الشعر الموصوف بحسن اللفظ^(٤).

ولقد كان عبد القاهر سابقاً في عدّ التشبيه قياساً «فالاستعارة ضرب من التشبيه ونمط من التمثيل؛ والتشبيه قياس، والقياس يجري فيما تعيه القلوب وتدركه العقول، وتستفتى فيه الأفهام والأذهان لا الأسماع والآذان»^(٥) ويكاد مصطلح القياس يلزم ذكر التشبيه في أسرار البلاغة ففي المثال «نجوم الهدى» يظهر أن اللفظة الواحدة تستعار على طريقتين مختلفتين، ويذهب بها في القياس والتشبيه مذهبين: أحدهما يفضي إلى ما تناله العيون، والآخر يرمي إلى ما تمثله الظنون^(٦)، ولا يخفى المصدر الذي يؤخذ منه هذا الربط؛ فالعمل الشعري التخيلي قياس من نوع خاص وهو ذلك الذي يوضع بجانب البرهان اليقيني ويختلف عنه بعدم اشتراط الصدق واليقين فيه، بل يُكتفى بما يطيف في ذهن الشاعر ويجري على صورة القياس، ويقول عبد القاهر: «وأما القسم التخيلي

(١) دلائل الإعجاز ٢٦٦ - ٢٦٧.

(٢) الدلائل ١٦٥.

(٣) دلائل الإعجاز ٢٧٣، ٢٧٤ والشرط الأول من البيت:

(سأطلب بعد الدار عنكم لتقربوا)

(٤) أسرار البلاغة ٢٤، والدلائل ١٨٤، ٢٢٧.

(٥) أسرار البلاغة ٢٠.

(٦) الأسرار ٦٣.

فهو الذي لا يمكن أن يقال إنه صدق، وإن ما أثبتته ثابت وما نفاه منفي، ثم إنه يجيء طبقات ويأتي على درجات فمنه ما يجيء مصنوعاً قد تَلَفَّظ فيه واستعين عليه بالرفق والحدق حتى أعطي شيئاً من الحق، وغشي رونقاً من الصدق، باحتجاج تمحل، وقياس تصنع وتعمل ومثاله قول أبي تمام:

(لا تنكري عَظْلَ الكريم من الغنى فالسيل حربٌ للمكان العالي)^(١)

ويفصل أحد شواهد التمثيل البلاغي «مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً» ويقول إنه لا بد لصحته من اعتبار الجزئيات مجتمعة في الطرفين، وممتزجة وما لم تكن كالخيطة الممدود حتى يكون القياس قياس أشياء يبالغ في مزاجها حتى تتحد وتخرج عن أن تعرف صورة كل واحد منها على الانفراد، بل تبطل صورها المفردة التي كانت قبل المزج، وتحدث صورة خاصة - غير اللواتي عهدت - لم يتم المقصود، ولم تحصل النتيجة المطلوبة^(٢).

ويرى عبد القاهر أن الاستعارة يكون لها في تركيبها الذهني ما هو كالل دليل والحجة التي يقطع معها بوجود الشيء، وبالتالي المزية والفخامة الملحوظة فيها ويحلل القول: (رأيت أسداً) «فالقائل هنا يتلطف لما أراد إثباته للرجل من فرط الشجاعة حتى يجعلها كالشيء الذي يجب له الثبوت والحصول وكالأمر الذي نصب له دليل يقطع بوجوده وذلك أنه إذا كان أسداً فواجب أن تكون له تلك الشجاعة العظيمة»^(٣). ويعود في أسرار البلاغة إلى حديث القياس فهم «يستعيرون الصفة المحسوسة من صفات الأشخاص للأوصاف المعقولة، ثم تراهم كأنهم قد وجدوا تلك الصفة بعينها، وأدركوها بأعينهم على حقيقتها، وكأن حديث الاستعارة والقياس لم يجزٍ منهم على بال، ولم يروه ولا طيف

(١) الأسرار ٢٤٥ - ٢٤٦.

(٢) الأسرار ٩١، وثمة مواضع عن التشبيه والتمثيل مع القياس: الأسرار ١٠٩ - ١١٠،

١١١، ٢٠٩، ٢٠٢، ٢٠٤.

(٣) الدلائل ١١٥.

(بخيال)، ومثاله استعارتهم العلو لزيادة الرجل على غيره في الفضل والقدر والسلطان، ثم وضعهم الكلام وضع من يذكر علواً من طريق المكان كقول أبي تمام:

ويصعد حتى يظن الجهول بأن له حاجة في السماء^(١)

وإن هذا الاستخدام للقياس في تحليل الصورة وأركان بلاغية أخرى يتجلى لنا بهيئة أقرب إلى الوضوح بينما نشعر بحاجة إلى بذل جهد أكبر لمعرفة أبحاث (القضية) من باب العبارة في (الدلائل) و (الأسرار).

٢ - إن التماس الاستفادة مما يسمى (القضية) من باب العبارة في المنطق عند عبد القاهر لا يؤدي بنا إلى قدر كبير من التأثير، ومع ذلك فهو يشير إلى أن ثمة ظلالاً كانت تلقى بين أبحاثه وقد استطاع أن يبعد عن أن تكون صياغتها بشكل قوالب بادية، وتكاد تنحصر المادة التي عثرت عليها في: استغراق محمول القضية، وهو ههنا الخبر، للموضوع، والكلام على اللام الجنسية في الاسم فمذهبها فيه وهو خبر غير مذهبها وهو مبتدأ، وتنجلي المسألة بالمثالين «أنت الشجاع والشجاع موقى، فاللام هنا جنسية والفرق بينهما عظيم»^(٢)، وهذا التناول لأطراف من بحث القضية في المنطق وأركانها من كونها كلية وأوضاع الاستغراق فيها، قريب من الحديث حول التأكيد وصلته بالشمول؛ فهو يأتي على ذكر الجملة دون لفظ التوكيد (كل)، ويقلب وجوه النظر فيها إذ تحتل الشمول، وكذلك جملة من الناس دون استغراقهم، أما عندما يتصل بالكلام المثبت لفظ يدل على الجمع فليس ثمة مجال، وكأنما أفاد عبد القاهر من الموازنة بين القضية (المنطقية) المهمة الموجبة: جاء القوم، والقضية المسورة: كل القوم جاؤوا، جاء القوم كلهم، وقد تداخلت هذه المسألة مع تطبيق على الكلام الذي يتركب مع النفي والتوكيد الكلي، فانت تقول: «لم ألقَ كلَّ القوم، ولم أأخذ كلَّ الدراهم، فيكون المعنى أنك لقيت بعضاً منهم ولم تلق الجميع،

(١) أسرار البلاغة ٢٧٨ - ٢٧٩.

(٢) دلائل الإعجاز ٢٠٩.

وأخذت بعضاً من الدراهم وتعرف ذلك بأن تنظر إلى (كلّ) في الإثبات وتتعرف، وإذا نظرت وجدته قد اجتلب ليفيد الشمول في الفعل الذي تسنده إلى الجملة أو توقعه بها»^(١).

وثمة عبارة لعبد القاهر تحدد علاقة عموم النفي ونفي العموم يعتقد الدارسون أنها الأساس الذي ولّد تعقيدات عند المتأخرين بمناقشتهم للقضايا كليها وسالبها وما يتبع ذلك، ونوردها هنا مع الإشارة إلى المسألة السابقة ففيها يبرز الوجه المنطقي والعلاقة بالقضية وتقسيماتها. يقول: «اعلم أنك إذا أدخلت كلاً في حيّز النفي وذلك بأن تقدم النفي عليه لفظاً أو تقديرًا فالمعنى على نفي الشمول دون نفي الفعل والوصف نفسه، وإذا أخرجت كلاً من حيّز النفي ولم تدخله فيه لا لفظاً ولا تقديرًا كان المعنى على أنك تتبعت الجملة فنفيت الفعل والوصف عنها واحداً واحداً والعلة في أن كان ذلك كذلك أنك إذا بدأت بكلّ كنت قد بنيت النفي عليه وسلّطت الكلية على النفي وأعملتها فيه وإعمال معنى الكلية في النفي يقتضي ألا يشذ شيء عن النفي»^(٢). وينتقل من هذا العنصر المنطقي المتميز بتطبيقه على الجملة التي ستؤول إلى أبحاث علم المعاني عند السكاكي والقزويني والشرّاح، ونلتفت إلى مسائل تعم مباحث في الصورة، وما هو من المعاني في درس المتأخرين. واقفين حيناً بالكليات وحيناً آخر بالجنس والنوع.

٣ - من أساليب التحليل التي اعتمدها عبد القاهر في كتابته البلاغية وتنظيره لفروعها، أخذه بالتقسيم الذي يبني الوجود من أجناس وأنواع وعلاقات بينها في تدرج صاعد أو نازل، وهذا باب منطقي يؤدي إلى بحث الماهيات وتدقيق التعريفات والوصول إلى حدود واضحة للأشياء، وسنبين كيف امتزجت بالعناصر البلاغية وأي منها كان أكثر حظاً لنعرض تحليلات عبد القاهر ذات الوجه المنطقي. وتحليلاته إما عامة أو خاصة بالاستعارة والتشبيه والتمثيل، فالعامة مثل

(١) الدلائل ٢٨١.

(٢) دلائل الإعجاز ٢٨٦.

تقريره «أن أسماء الأجناس كلها إذا وصفت تتنوع بالصفة، فيصير الرجل الذي هو جنس واحد أنواعاً مختلفة: رجل طويل، رجل ظريف، رجل شاعر وهكذا القول في المصادر: العلم والجهل والضرب، فينقسم الجنس منها أقساماً ويصير أنواعاً، ومثلها مثل الشيء المجموع المؤلف تفرقه فرقاً وتشعبه شعباً، وهذا معروف عندهم وأصل متعارف في كل جيل وأمة»^(١).

وفي شرحه للنكرة إذا قدّمت على الفعل، أو قدم الفعل عليها يُعمل مقاييس الجنس، فيقول: «إن قدمت الاسم - مخاطباً - (أرجل جاءك) فأنت تسأل - من تخاطب - عن جنس مَنْ جاءه أرجل هو أم امرأة؟ ويكون هذا منك إذا كنت علمت أنه قد أتاه آتٍ ولكنك لم تعلم جنس ذلك الآتي، فسبيلك في ذلك سبيلك إذا أردت أن تعرف عَيْنَ الآتي، (أزيد جاءك أم عمرو) ولا يجوز تقديم الاسم في المسألة الأولى، و: (أجاءك رجل؟) تسأل عن المجيء لأن تقديم الاسم يكون إذا كان السؤال عن الفاعل، والسؤال عن الفاعل إما عن عينه وإما عن جنسه ولا ثالث. وإذا كان كذلك كان محالاً أن تقدم الاسم النكرة وأنت لا تريد السؤال عن الجنس لأنه لا يكون لسؤالك متعلق من حيث لا يبقى بعد الجنس إلا العين»^(٢).

والمصنّف يعبر هنا بالجنس عن نوع الرجل بالنسبة إلى الجنس الأعلى وهو الإنسان، وبالتالي يبقى لديه في الترتيب الوجودي: الأفراد بعد تحديد النوع بين رجل وامرأة، وهو ما يذكره باسم (العين) أي الواحد من النوع ههنا^(٣).

في معالجة للصورة البيانية يفسّر عبد القاهر الصلة بين طرفي الاستعارة: المستعار والمستعار له بأنها موازنة بين جنسين، ومن ثم يُضَمّ واحد منهما إلى الآخر، ويتداخل الجنسان بحيث يُعَدُّ المستعار له من جنس المستعار. يقول: «إنك إذا كنت لا تطلق اسم الأسد على الرجل إلا من بعد أن تدخله في جنس

(١) الدلائل ٢٠٦-٢٠٧.

(٢) الدلائل ١٦٨.

(٣) انظر في (أسرار البلاغة) ٢٥.

الأسود لم تكن نقلت الاسم عما وضع له بالحقيقة لأنك إنما تكون ناقلاً إذا أنت أخرجت معناه الأصلي من أن يكون مقصودك ونفضت به يدك، فأما أن تكون ناقلاً له عن معناه مع إرادة معناه فمحال متناقض^(١). ويتم الشرح بأمثلة أخرى مصطلح (الادعاء)، «ففي قولك: عَنَّتْ لنا ظبية، وسللتُ سيفاً على العدو، فوضع الاسم هكذا انتهازاً واقتضاباً على المقصود وادعاء أنه من الجنس الذي وضع له الاسم في أصل اللغة»^(٢).

وخلال مناقشة الاستعارة وهل هي لغوية أم عقلية في تركيبها يقول عبد القاهر^(٣): «إذا كان كذلك عاد الحديث إلى أن المجاز فيهما جميعاً عقلي فكيف قسمته قسمين لغوي وعقلي؟ الجواب أن هذا الذي زعمت من أنك لا تجري اسم المشبه به على المشبه حتى تدّعي أنه قد صار من ذلك الجنس نحو أن تجعل الرجل كأنه في حقيقة الأسد صحيح كما زعمت أنه لا يدفعه أحد، وكيف السبيل إلى دفعه وعليه المعول في كون التشبيه على حدّ المبالغة وهو الفرق بين الاستعارة وبين التشبيه المرسل»^(٤).

وإذا كان الجنس الأعلى يجمع ركني الاستعارة فثمة موازنة بينهما تعتمد على النوعية ضمن ذلك الجنس والانتقال من واحد إلى آخر في الاعتبار والادعاء يكون من الأضعف إلى الأقوى، والمثال الذي في (أسرار البلاغة) استعارة الطيران للجري في السرعة (كلّما سمع هَيْعة طار إليها)، (طرتُ بمنصلي

(١) دلائل الإعجاز ٤٠٦.

(٢) الأسرار ٣٠٣ - ٣٠٤.

(٣) يتابع الجرجاني مناقشة - بدأها قبل - ليظهر الجانب اللغوي مع التسليم لمناقشه كما عرفنا في أشياء هي الصفة العقلية في عملية الاستعارة، «إلا أن ههنا نكتة أخرى قد أغفلتها وهي أن تجوزك هذا الذي طريقه العقل يفضي بك إلى أن تجري الاسم على شيء لم يوضع له في اللغة على كلّ حال فتجوز بالاسم على الجملة الشيء الذي وضع له فمن ههنا جعلنا اللغة طريقاً فيه». الأسرار ٣٨٠.

(٤) الأسرار ٣٨٠.

إلى يَعمَلات) «فالذي يستحق أن يكون أولاً من ضروب الاستعارة - أن يرى معنى الكلمة المستعارة موجوداً في المستعار له من حيث عموم جنسه على الحقيقة، إلا أن لذلك الجنس خصائص ومراتب في الفضيلة والنقص والقوة والضعف، فأنت تستعير لفظ الأفضل لما هو دونه ومثاله في استعارة الطيران لغير ذي الجناح إذا أردت السرعة، وانقضاض الكواكب للفرس إذا أسرع في حركته من علوّ، والسباحة إذا عدا عدواً كان حاله فيه شبيهاً بحالة السابح في الماء، ومعلوم أن الطيران والانقضاض والسباحة والعدو كلها جنس واحد من حيث الحركة على الإطلاق، إلا أنهم نظروا إلى خصائص الأجسام في حركتها فأفردوا حركة كلّ نوع منها باسم ثم إنهم إذا وجدوا في الشيء - في بعض الأحوال - شبيهاً من حركة غير جنسه استعاروا له العبارة من ذلك الجنس»^(١).

وننتقل إلى التشبيه والتفصيلات التي تشتمل على سمات منطقية من أبحاث الكليات فقد شرح عبد القاهر مثال:

فإن تفق الأنام وأنت منهم فإن المسك بعض دم الغزال

من وجهتين: الأولى يبسط فيها الصفة التي أراد الشاعر أن يمدح بها المتوجه إليه بالحديث، والثانية يشير فيها إلى الحاجة إلى البرهنة على صدق الدعوى وينبّه المصنف إلى ما في هذه البرهنة من التجوّز^(٢).

ولعبد القاهر فكرة في بناء التشبيه تدور حول ضرورة كون الشبه مقررّاً بين شيئين مختلفين في الجنس لتهز السامعين وتحركهم «فتشبيه العين بالترجس عامي مشترك معروف، وأنت ترى بُعداً ما بين العينين وبينه من حيث الجنس وتشبيه الثريا بما شُبّهت به من عنقود الكَرَم المنوّر، واللجام المفصّض، والوشاح المفصّل وأشباه ذلك خاصي، والتباين بين المشبه والمشبّه به في الجنس على ما لا يخفى»^(٣). والمصنف عندما يعطي أمثله من عامي التشبيهات وخاصيها

(١) أسرار البلاغة ٥٢، وكذا ٥٩

(٢) الأسرار ١٠٩ - ١١٠

(٣) الأسرار ١١٦

يبتغي التأكيد على ما ارتآه، ولكنه يستدرك فليس الجمع بين جنسين متباعدين في صياغة تشبيهية كافياً ليصيب القائل ويحسن فيما هو قائله فالشرط هو «أن تصيب بين المختلفين في الجنس وفي ظاهر الأمر شبهاً صحيحاً معقولاً، وتجد للملاءمة والتأليف السوي بينهما مذهباً وإليهما سبيلاً»^(١). ويضم التمثيل إلى ما ذكره فثمة ما يجمعهما، بل إن التمثيل يظهر فيه ما يريد بأكثر مما هو في التشبيه «فلذا ثبت هذا الأصل وهو أن تصوير الشبه بين المختلفين في الجنس مما يحرك قوى الاستحسان ويثير الكامن من الاستطراف فإن التمثيل أخص شيء بهذا الشأن»^(٢).

وكما غدت الأجناس مرتكزاً للمقارنة بين جزئي الاستعارة والمجاز في البلاغة الوسيطة نمت فكرة تحليل ضروب البيان بالدلالات العقلية وتكاملت بعد عبد القاهر؛ لذا سنبحث عن أصولها لديه.

٤ - فُصِّنَفُو البلاغة العربية^(٣) يفتتحون علم البيان بمبحث الدلالات المنطقية الثلاث: المطابقة والتضمن والالتزام، ويقسمونها إلى فرعين: الأول وضعي وفيه الدلالة المطابقة والثاني عقلي وفيه الدالتان الأخريان، ويذكرون أن أساليب البيان: الاستعارة والمجاز والكناية تفسر بالفرع الثاني ووجهته العقلية إذ يمكن أن تتفاوت الدلالات في الوضوح وبذا يعلو تعبير على آخر في مدى مطابقتها للأحوال التي تتطلب قولاً بليغاً في شعر أو خطابة تقال في محفل.

ولقد وقفت على نصوص في (دلائل الإعجاز) ترهص بما آلت إليه الحال في مصنفات التالين عبد القاهر الذين لا يخفون استفادتهم من هذه الأفكار ذاتها، كما صرح بذلك فخر الدين الرازي^(٤) في (نهاية الإيجاز)، والأهمية التي

(١) الأسرار ١٣٩

(٢) الأسرار ١١٨ وهناك مواضع مماثلة لما عرضنا له خاصة بالتشبيه والجنس. الأسرار

٨٠، ٨٨، ١٥٤، ٢٠٢، ٢٠٤

(٣) فخر الدين الرازي، السكاكي، القزويني، شراح التلخيص.

(٤) فخر الدين الرازي، الإيجاز ٩

أتصوّرها في إثبات النقول عن الدلائل إنما هي تأصيل ما هو مستفيض شائع في تراثنا البلاغي وإدراك المنابع التي متح منها الظواهر المتبدية فيه، وكذلك إضاءة زوايا في عمل عبد القاهر ذاته وأعتقد ههنا أنه كان يفيد من المنطق، ويستوحي ركائز في نظريته البلاغية منه، إلا أن عقل عبد القاهر وذوقه امتزجا بحيث لا تحتفظ السمات المنطقية بشخصيتها الغريبة مع التطبيق بل تندمج اندماجاً تغدو فيه جزءاً غير ظاهر التميز إلا بعد التدقيق والتنقيب.

والمصنف يقسم الكلام إلى ضربين واحد منهما تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده على معناه، والضرب الآخر لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده ولكن يدلك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة، ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض، ومدار هذا الأمر على الكناية والاستعارة والتمثيل، وبعد هذا الفصل بين داليتين الأولى لغوية، والأخرى تحصل بصياغة وفق ما يجري في الكناية والاستعارة والتمثيل أي بغير الوضع، يذكر شواهد وأمثلة على كلامه^(١).

وقبل أن نورد التركيز الذي أراد منه عبد القاهر أن يقنّن هذه المسألة، لا بدّ من الوقوف عند عبارة ذات أثر كبير في توجيه الباحثين البلاغيين إلى الدراسات العقلية - والمنطق أساس في ثقافة العصر - وهي قوله: «ثم يعقل السامع من ذلك المعنى على سبيل الاستدلال معنى ثانياً»، والاستدلال يكتسب في (الدلائل) وكذلك (الأسرار) دلالة القياس المنطقي كما أجراه في عديد من المواضع التي ذكرت بعضاً منها قبلُ في درس القياس عند عبد القاهر فهذه العبارة تقود إلى البحث عن الأدوات الاستدلالية المساعدة على تفهّم المعاني الثانية أو على وجه التحديد الأساليب البَيانية.

والقانون الذي يختصر به صاحب الدلائل المسألة برمتها هو «أن تقول المعنى، ومعنى المعنى، نعني بالمعنى المفهوم من ظاهر اللفظ والذي تصل إليه

بغير واسطة، وبمعنى المعنى: أن تعقل من اللفظ معنى ثم يفضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر كالذي فسر^(١).

ويفيض في موضع تالٍ في هذا الحديث، وإننا ستأمل طرفاً مما دونه وقد احتفظ به المتأخرون على أنه خاص بالدلالة الوضعية المقابلة للعقلية، فاللغة تعطينا مفهومات محددة للألفاظ؛ فلما أن يكون السامع عارفاً بها أو أنه يجهلها فلا تفاوت فيها أي أنّ أيّ تفاوت يتم بما يقابل الوضعية. وهذا يفتح باباً لينظر في أبحاث المنطق حيث يرد ذكر المطابقة: الوضعية، والتضمن، والالتزام العقليين «فمن الصفات التي تجدهم يجرونها على اللفظ ثم لا تعترضك شبهة ولا يكون منك توقف في أنها ليست له ولكن لمعناه قولهم: لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه، ولفظه معناه، ولا يكون لفظه أسبق إلى سمعك من معناه إلى قلبك وقولهم: يدخل في الأذن بلا إذن. فهذا مما لا يشك العاقل في أنه يرجع إلى دلالة المعنى على المعنى، وأنه لا يتصور أن يراد به دلالة اللفظ على معناه الذي وضع له في اللغة؛ ذاك لأنه لا يخلو السامع من أن يكون عالماً باللغة وبمعاني الألفاظ التي يسمعها أو يكون جاهلاً بذلك. فإن كان عالماً لم يتصور أن يتفاوت حال الألفاظ معه فيكون معنى لفظ أسرع إلى قلبه من معنى لفظ آخر، وإن كان جاهلاً كان ذلك في وصفه أبعد، وجملة الأمر أنه ربما يتصور أن يكون لمعنى أسرع فهماً منه لمعنى آخر إذا كان ذلك مما يدرك بالفكر، وإذا كان مما يتجدد له العلم به عند سماعه للكلام، وذلك محال في دلالات الألفاظ اللغوية لأن طريق معرفتها التوقيف والتقدم بالتعريف، وإذا علم ذلك كذلك عُلِمَ ضرورة أن مصرف ذلك إلى دلالات المعاني على المعاني^(٢). وسنعرف لدى الرازي كيف استفيد من فكرة عبد القاهر هذه في مقابلة الوضعية للزوم، وكذلك لدى القزويني في بسط الدلالة الوضعية.

(١) دلائل الإعجاز ٢٦٨.

(٢) الدلائل ٢٧٢.

وقبل أن ننجز النظر في المواد المنطقية عند عبد القاهر الجرجاني يجدر بنا أن نحدد المواضع التي أشار فيها إلى مصادره المتصلة بالمنطق، وبمتابعة بعض النصوص لدى عبد القاهر نقف على اتصاله بالثقافة اليونانية الأرسطية وذلك من خلال كتابي الشعر والخطابة، فهو يذكرهما في أكثر من سياق له، ويفيد في تقعيد الاستعارة ويبين صلتها بالتشبيه، وليست الإشارة عنده مرتبطة بتسمية تامة، وإنه لا ينص على اسم مؤلفهما (أرسطو) فيصفه مثلاً بالعارف بهذا الشأن إذ يقول: «لأن قصدي في هذا الفصل أن أبين أن المجاز أعم من الاستعارة وأن الصحيح من القضية في ذلك أن كل استعارة مجاز وليس كل مجاز استعارة، وذلك أنا نرى كلام العارفين بهذا الشأن - أعني علم الخطابة ونقد الشعر - والذين وضعوا الكتب في أقسام البديع يجري على أن الاستعارة نقل الاسم عن أصله إلى غيره للتشبيه على حدّ المبالغة»^(١)، وكذلك يشير إليه عندما يقول: «طريقة أهل الخطابة ونقد الشعر»^(٢).

والجانب الآخر الذي يظهر أخذ عبد القاهر من خطابة أرسطو هو ربطه بين المعاني التي يسميها العقلية والأدلة، وهذه اللفظة الأخيرة يراد بها بحسب مألوف استخدام صاحب الدلائل: الأقيسة المنطقية وأن تكون معدلة أو متسامحاً في يقينها كما سنعرف بعد، وهذا النهج يستبين في مطالعة الجزء الأول من خطابه أرسطو^(٣)، إذ يتطلب بناء الكلام وفق أنماط من الأقيسة لتكون مقنعة ومؤدية الغرض منها والنص التالي يوضح ما قصدت إليه رغم ما ينم عليه من

(١) أسرار البلاغة ٣٦٨

(٢) الأسرار ٣٦٩، وفي تلخيص خطابة أرسطو لابن سينا ٢١٢، «والتشبيه يجري مجرى الاستعارة إلا أن الاستعارة تجعل الشيء غيره، والتشبيه يحكم على المشبه بأنه كغيره لا غيره نفسه».

(٣) في الجزء الأول من خطابة أرسطو بترجمة د. إبراهيم سلامة ٨٦ - ٩٣، ويقابلها في تلخيص ابن سينا ٢١، وابن رشد ٣٣ - ٥٦، بتحقيق سليم سالم، وفي الترجمة القديمة للخطابة تحقيق د. بدوي ١١ - ١٢، حديث عن السلجسة والسلجموس الرطوري = القياس الخطابي.

توفيق في إدخال هذه الأقيسة في صميم التراث العربي بحيث تخفى علينا عملية الأخذ: «ويجب علينا أن نتكلم أولاً على المعاني وهي تنقسم قسمين عقلي وتخيلي، وكل واحد منهما يتنوع، فالذي هو العقلي على أنواع: أولها عقلي صحيح مجراه - في الشعر والكتابة والبيان والخطابة - مجرى الأدلة التي تستنبطها العقلاء والفوائد التي تثيرها الحكماء؛ ولذلك تجد الأكثر من هذا الجنس منتزعاً من أحاديث النبي ﷺ وكلام الصحابة رضي الله عنهم منقولاً من آثار السلف الذين شأنهم الصدق وقصدهم الحق أو ترى له أصلاً في الأمثال القديمة والحكم المأثورة عن القدماء»^(١).

وبمزيد من التأمل نجد أن الأورغانون الأرسطي قد أثر في فكر عبد القاهر البلاغي، وذلك بمفهومه الذي يشمل الشعر والخطابة فيه وعلى أنهما قياسان منطقيان يختلفان عن البرهان اليقيني، ولكنهما يبقيان على نظام القياس بمقدماته، أو لنقل بصور المقدمات مع التجاوز والتساهل في مادتها، يقول في أسرار البلاغة: «وعلى هذا موضوع الشعر والخطابة أن يجعلوا اجتماع الشئين في وصف علة لحكم يريدونه، وإن لم يكن كذلك في المعقول ومقتضيات العقول، ولا يؤاخذ الشاعر بأن يصحح كون ما جعله أصلاً وعلة كما ادعاه فيما يرم أو ينقض من قضية، وأن يأتي على ما صيره قاعدة وأساساً بيّنة عقلية، بل تُسلم مقدمته بلا بيّنة كتسليمنا أنَّ عائب الشيب لم ينكر منه إلا لونه وتناسينا سائر المعاني التي لها كُره ومن أجلها عيب»^(٢). ويفسر قول البحتري المشهور بتأويل طريف يخفف كثيراً من غلواء يفهم منه في كتابات الدارسين للنقد:

كلفتمونا حدود منطقكم والشعر يغني عن صدقه كذبه

«فهو أراد كلفتمونا أن نجري مقاييس الشعر على حدود المنطق، ونأخذ نفوسنا فيه بالقول المحقق حتى لا ندعي إلا ما يقوم عليه من العقل برهان يقطع

(١) الأسرار ٢٤١

(٢) الأسرار ٢٤٨

به، ويلجئ إلى موجهه، ولا شك أنه إلى هذا النحو قصد - البحتري - وإياه عمَد، إذ يبعد أن يريد بالكذب إعطاء الممدوح حظاً من الفضل والسؤدد ليس له، ويبلغه بالصفة حظاً من التعظيم ليس هو أهلاً له، وأن يجاوز به من الإكثار محله لأن هذا الكذب لا يبين بالحجج المنطقية والقوانين العقلية، إنما يكذب فيه القائل بالرجوع إلى حدّ المذكور واختباره فيما وصف به والكشف عن قدره وخسته ورفعته أو صفته ومعرفة محله ومرتبته^(١). فالمسألة إذاً كما تناولها البحتري تظل في إطار أنواع الأقيسة فيجنب اليقيني ونقرب مما يؤلف في قياس الشعر من تخفف وعدم طلب المحقّق لأن التخييل غير التصديق في اشتراطات مادته. وقد لا يكون الشاعر قصد إلى هذا بالدقة ولكن الإطار الذي يجول ضمنه عبد القاهر يؤدي بنا إلى ما نرى من تفسيره للمنطق ههنا.

إن اهتمام عبد القاهر بالناحية العقلية والتعديد يبدو في تدقيقاته وتعريفاته التي تحيط بالمواد البلاغية المعروضة في كتابيه: دلائل الإعجاز، وأسرار البلاغة، إضافة إلى ما سبق الإشارة إليه، وشرحه من جوانب منطقية بارزة لديه، وهناك قوله له توجه أيضاً إلى المنحى العقلي التقني - إذا صحّ لنا التعبير بهذا عن (القانون) - «ألا ترى أن حدّك الخبر بأنه ما احتمل الصدق والكذب بما لا يخص لساناً دون لسان ونظائر ذلك كثيرة وهو أحد ما غفل عنه الناس، ودخل عليهم اللبس فيه حتى ظنوا أنه ليس لهذا العلم قوانين عقلية، وأن مسائله مشبهة باللغة في كونها اصطلاحاً يتوهم عليه النقل والتبديل ولقد فحش غلطهم فيه»^(٢).

وهناك عدد من المواضع التي تطرّق فيها إلى أشياء من المنطق ولكنها جزئية ولا تخرج إلى أن تتشكل في مجموعة ذات أثر بارز في النظرية البلاغية أو جانب من جوانبها.

(١) أسرار البلاغة ٢٤٩

(٢) الأسرار ٣٢٥، التضاد وعدم التناقض ٨٠، ٢٤٠، الحدود ٢٨، الأعم والأخص، ٥٨ القسم.

المخطوطات وعملنا في الكتاب

كان بين أيدينا في تحقيق كتاب (دلائل الإعجاز) ثلاث نسخ مخطوطة من الكتاب مصوّرة في جامعة الدول العربية (معهد إحياء المخطوطات) وهي:

١ - نسخة مصورة من مكتبة (حسين جلبي ١ معانٍ) وتقع في (١٨٢) ورقة، وهي نسخة نقلت من نسخة بخط المؤلف عبد القاهر الجرجاني وكتبت سنة (٥٦٨ هـ) ورمزنا لها بالحرف (أ).

٢ - نسخة مصوّرة من مكتبة (أسعد أفندي ٣٠٠٤) وتقع في (١٧٢) ورقة من الحجم الكبير، وقد كتبت في القرن السادس الهجري ورمزنا لها بالحرف (ب).

٣ - نسخة ثالثة مصوّرة من مكتبة (شهيد علي رقم ٢٢٢٥) وتقع في (٢١٧) ورقة، وقد كتبت في القرن الحادي عشر الهجري، ورمزنا لها بالحرف (ج).

وقد اعتمدنا نسخة حسين جلبي (أ) وقابلناها ببقية النسخ، وانفردت هذه النسخة بمقدمة للمؤلف تقع في ثلاث أوراق، وبعد ختام الكتاب زادت النسخة مجموعة من الفصول كان المؤلف قد أضافها إلى الدلائل، وقد طبعت المقدمة والزيادات في الطبعات القديمة (المنار والمراغي).

أما النسخة (أ) فهي تقع في (١٨٢) ورقة مزدوجة رمزنا لهما بـ (أ) و (ب)، وفي كل ورقة (١٧) سطراً في المتوسط وفي كل سطر (١٥) كلمة، وهي مكتوبة بخط نسخي، وتتداخل قاعدة الكتابة هذه بقواعد الخط الرقعي، ويكثر في النص أن يضبط بالشكل خصوصاً الكلمات التي في حاجة إلى ضبط، وتميزت بعض الصفحات بحواشٍ إيضاحية على قلة، والناسخ يدل على قدر كبير من المعرفة والدقة.

وأما النسخة (ب) فهي تقع في (١٧٢) ورقة مزدوجة في كل ورقة (١٩) سطرًا، وفي كل سطر (١٢) كلمة في المتوسط وكتبت بقلم نسخي جميل مشكول، والناسخ يدل على قدر من المعرفة والدراية.

وأما النسخة (ج) فهي تقع في (٢١٧) ورقة، في كل ورقة (٢١) سطرًا في كل سطر (١١) كلمة، والنسخة مكتوبة بخط التعليق بقلم عريض قليلاً، والشعر متميز عادة من النثر، إلا أن هذه النسخة ليست في جودة (أ) و (ب) لذا كنا نستأنس بها فقط.

وأما عملنا في الكتاب فقد توخى:

* إسناد النص إلى مخطوطات بأعينها يمكن الرجوع إليها ومداينة ما فيها.

* ضبط النص وشكله، وهذه مهمة تراثية في زمن يحتاج إلى دقة في التعامل مع العربية الفصحى المعربة.

* تخريج الشواهد وتوثيقها، وضبط القضايا في أصولها ومصادرها.

* وضع الفهارس الفنية والاصطلاحية وهي التي تمهد للدرس العلمي الموضوعي، والنقد التحليلي، وقد توسعنا في هذا المجال وخاصة (مصطلحات اللغة والنحو) و (مصطلحات البلاغة والنقد) إضافة إلى فهارس الآيات القرآنية والأحاديث والأمثال والأعلام والشعر وألفاظ الإعجاز، والكتب الواردة في النص، وفهرس الموضوعات التحليلي.

ونذكر ههنا أننا راجعنا ما طبع قبل من طبعات ونبها إلى ما فيها من أخطاء أو اختلافات في المواضع المختلفة ورمزنا لها بـ (ط) أو سميت (المنار) أو (المراغي).

* وقد رأينا في سرد بعض مصادر ترجمة عبد القاهر الجرجاني فائدة للدارسين، ونضيف إليها عدداً من الدراسات النقدية والبلاغية الحديثة درس فيها جهد عبد القاهر:

أ - إنباه الرواة على أنباه النحاة لجمال الدين القفطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة لجلال الدين السيوطي، دمية القصر وعصرة أهل العصر لأبي الحسن علي بن الحسن الباخرزي، كشف الظنون عن أسامي العلوم والفنون لکاتب جلبي (حاجي خليفة) وفي هذا الكتاب ذكر لمصنفات عبد القاهر، معجم الأدباء لياقوت الحموي.

ب - ونتاج عددًا من المؤلفين المحدثين في مصنفاتهم:

- إبراهيم مصطفى / إحياء النحو، ط. لجنة التأليف والترجمة والنشر، مصر ١٩٣٧ م، ص ١٦
- د. إحسان عباس / تاريخ النقد الأدبي عند العرب - نقد الشعر، ط. دار الأمانة، مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٧١ م، ص ٤١٩ - ٤٣٨
- د. أحمد أحمد بدوي / عبد القاهر الجرجاني (سلسلة أعلام العرب)، ط. المؤسسة المصرية العامة، القاهرة ١٩٦٢، ط ٢
- أحمد مصطفى المراغي / تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها، ط. مصطفى البابي الحلبي، القاهرة ١٩٥٠ م، ص ٢٠ - ٢٣، ١٠٠ - ١٠٢
- أمين الخولي / مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب، ط. دار المعرفة، القاهرة ١٩٦١ م، ص ٨٨ - ٢٧١
- د. بدوي طبانة / البيان العربي، ط. مطبعة الرسالة، القاهرة ١٩٦٢ م.
- د. جابر عصفور / الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، ط. دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٧٤ م، ص ٢٦٩ - ٣٠٥
- د. درويش الجندي / نظرية عبد القاهر في النظم، ط. مكتبة النهضة، مصر ١٩٦٠ م.

- د. شكري محمد عياد / كتاب أرسطو طاليس في الشعر، ط. دار الكاتب العربي، القاهرة ١٩٦٧ م، ص ٢٣٩ - ٢٤١
- د. شوقي ضيف / البلاغة تطور وتاريخ، ط. دار المعارف بمصر - القاهرة ١٩٦٥ م، ص ١٦٠ - ٢١٩
- د. طه حسين / تمهيد في البيان العربي، مقدمة لكتاب النثر المنسوب خطأ إلى قدامة (في طبعته المصرية)، لجنة التأليف والترجمة ١٩٣٨ م.
- محمد خلف الله أحمد / من الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقده، ط. معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة ١٩٧٠ م، ص ١٠٦ - ١٣٨، ١٥٣ - ١٦٤
- محمد عبد المنعم خفاجي / عبد القاهر والبلاغة العربية، ط. المطبعة المنيرية بالقاهرة ١٩٥٢ م، ص ٨
- د. محمد زكي العشماوي / قضايا النقد الأدبي والبلاغة، ط. دار الكاتب العربي، القاهرة ١٩٦٧ م، ص ٣٠٢ - ٣٧٢
- د. محمد مندور / النقد المنهجي عند العرب، ط ٢، دار نهضة مصر - القاهرة ١٩٧٢ م، ص ٣٣٢ - ٣٣٩
- / في الميزان الجديد، ط ٣، مكتبة نهضة مصر، ص ١٨١ - ٢٠١
- د. مصطفى ناصف / نظرية المعنى في النقد العربي، ط. دار القلم، القاهرة ١٩٦٢ م.

مقدمة المؤلف

المدخل إلى إعجاز القرآن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

توكلتُ على الله وحده

قال الشيخ الإمام مجد الإسلام أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني، رحمه الله تعالى:

الحمد لله رب العالمين حمدَ الشاكرين، وصلواته على محمد سيد المرسلين وعلى آله أجمعين. هذا كلامٌ وجيزٌ يطلعُ به الناظرُ على أصولِ النحوِ جُملةً، وكلُّ ما به يكونُ النظمُ دفعةً، وينظرُ منه في مرآةِ تربيهِ الأشياءِ المتباعدة الأمانة قد التقت له حتى رآها في مكانٍ واحدٍ، ويرى بها مُشتملاً قد ضمَّ إلى مُعرق^(١)، ومُغرباً قد أخذ بيد مُشرقٍ، وقد دخلت بأخرة^(٢) في كلامٍ من أصغى إليه وتدبره

(١) أشام: ذهب إلى الشام. وأعرق: ذهب إلى العراق. قال الزمخشري في أساس البلاغة (مادة ش أ م): «يقال: قد أشام وتقول: جمع بين المتفرق وقرن المُشتم بالمُعرق».

(٢) في (أ): «وقد وصلت بأخرة كلام». الأخرة والأخرة: يقال: نلتُ بأخرة: أخيراً.

تدبر ذي دينٍ وفُتوةٍ دعاهُ إلى النظر في الكتاب الذي وضعناه، وبعثه على طلبٍ ما دونه، والله تعالى الموفق للصواب، والمُلمهم لما يؤدي إلى الرشاد، بِمَنِّهِ وفضله.



قال رضي الله عنه:

معلومٌ أن ليس النظم سوى تعليقِ الكلمِ بعضها ببعضٍ، وجعلِ بعضها بسببٍ من بعض. والكلمُ ثلاثٌ: اسمٌ وفعلٌ وحرف، وللتعليق فيما بينها طرق معلومةٌ، وهو لا يعدو ثلاثة أقسام: تعلق اسم باسم، وتعلق اسم بفعل، وتعلق حرف بهما. فالاسم يتعلق بالاسم بأن يكون خبراً عنه أو حالاً منه، أو تابعاً له صفةً أو تأكيداً أو عطفَ بيان أو بدلاً، أو عطفاً بحرف، (أو بأن يكون الأول مضافاً إلى الثاني)^(١) أو بأن يكون الأول يعملُ في الثاني عملَ الفعل، ويكون الثاني في حكم الفاعل له أو المفعول، وذلك في اسم الفاعل كقولنا: زيدٌ ضاربٌ أبوه عمراً، وكقوله تعالى^(٢): ﴿أَخْرَجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ [النساء: ٧٥/٤]، وقوله تعالى^(٣): ﴿وَمَنْ يَلْعَبُونَ، لَأَهْبِئَةَ قُلُوبِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٢١/٣-٢]، واسمُ المفعول كقولنا: زيدٌ مضروبٌ غلمانهُ، وكقوله تعالى^(٤): ﴿ذَلِكَ يَوْمَ تَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ﴾ [هود: ١١/١٠٣]، والصفةُ المشبهة كقولنا: زيدٌ حسنٌ وجههُ، وكريم أصلهُ، وشديدٌ ساعدهُ، والمصدر كقولنا: عَجِبْتُ من ضَرْبِ زيدٍ عمراً، وكقوله

(١) سقط من (أ) العبارة التالية: «أو بأن يكون الأول مضافاً إلى الثاني».

(٢) النساء ٧٥/٤ الآية الكريمة: ﴿وَمَا كُنْزٌ لَا تُفْتَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنَ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾.

(٣) الآية الكريمة: ﴿لَأَهْبِئَةَ قُلُوبِهِمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾.

(٤) الآية الكريمة: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمَ تَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمَ مَشْهُودٌ﴾.

تعالى^(١): ﴿أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبٍ ۖ يَتِيمًا﴾ [البلد: ١٤/٩٠-١٥]، أو بأن يكون تمييزاً قد جلاه [٢] منتصباً عن تمام الاسم. ومعنى تمام الاسم أن يكون فيه ما يمنع من الإضافة، وذلك بأن يكون فيه نونٌ تشبیه كقولنا: قفيزان بُرّاً، أو نونٌ جمع كقولنا: عشرون درهماً، أو تنوين كقولنا: راقودٌ خلا^(٢)، وما في السماء قدرٌ راحةٍ سحاباً، أو تقدير تنوين كقولنا: خمسة عشر رجلاً، أو يكون قد أضيف إلى شيء فلا يمكن إضافته مرة أخرى كقولنا: لي ملوهُ عسلاً، وكقوله تعالى^(٣): ﴿يَلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا﴾ [آل عمران: ٩١/٣].

وأما تعلق الاسم بالفعل فبأن يكون فاعلاً له، أو مفعولاً، فيكون مصدراً قد انتصب به كقولك^(٤): ضربت ضرباً: ويقال له: المفعول المطلق. أو مفعولاً به كقولك: ضربت زيدا. أو ظرفاً مفعولاً فيه زماناً أو مكاناً، كقولك: خرجت يوم الجمعة، ووقفت أمامك، أو مفعولاً معه كقولنا: جاء البرد والطيلسة، ولو تُرَكِبَ الناقَةُ وفصيلها لرُضعها: أو مفعولاً له^(٥) كقولنا: جئتكَ إكراماً لك، وفعلت ذلك إرادة الخير بك. وكقوله تعالى^(٦): ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ آتِيَةً مِّنْ رَبِّهِ أَفْوَاجًا﴾ [النساء: ١١٤/٤] أو بأن يكون منزلاً من الفعل منزلة المفعول. وذلك في خبر (كان) وأخواتها، والحال والتمييز المنتصب عن تمام الكلام مثل: طاب زيد نفساً، وحسن وجهاً، وكرم أصلاً. ومثله الاسم المنتصب على الاستثناء كقولك: جاءني القوم إلا زيدا؛ لأنه من قبيل ما ينتصب عن تمام الكلام.

(١) الآيات الكريمة: ﴿أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبٍ ۖ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۖ أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾.

(٢) الراقود: وعاء كبير.

(٣) الآية الكريمة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا فَلَنْ يُمْسَكَ مِنْ أَحَدِهِمْ يَلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ أُفْتُتْ لَهُمْ أَشْجَارُ الْعَالَمِ أَجْرًا لَمَا يَنْقُصُوا مِنْهُ شَيْئًا﴾.

(٤) في (أ): كقولنا.

(٥) ويقال فيه المفعول لأجله.

(٦) الآية الكريمة: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ لِصَلَحٍ بِينَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ آتِيَةً مِّنْ رَبِّهِ أَفْوَاجًا﴾.

وأما تعلُّق الحرفِ بهما فعلى ثلاثةِ أضرب:

أحدها أن يتوسَّط بين الفعلِ والاسم فيكون ذلك في حُرُوفِ الجرِّ التي من شأنها أن تُعَدِّيَ الأفعالَ إلى ما لا تَتَعَدَّى إليه بأنفسها من الأسماء، مثل أنك تقولُ: «مررتُ» فلا يصلُّ إلى نحو زيدٍ وعمرو. فإذا قلت: مررتُ بزيدٍ أو على زيدٍ، وجدته قد وَصَلَ بالباء أو على. وكذلك سبيلُ الواو الكائنة بمعنى (مع) في قولنا: لو تُرَكَتِ النَّاقَةُ وفصيلُها لرضعها؛ بمنزلة حرفِ الجرِّ في التوسط بين الفعلِ والاسم؛ وإيصاله إليه. إلا أنَّ الفرقَ أنها لا تعمل بنفسها شيئاً، لكنها تُعين الفعلَ على عمله النَّصب. وكذلك حكم (إِلَّا) في الاستثناء فإنها عندهم بمنزلة هذه الواو الكائنة بمعنى مع [٢ ب] في التوسُّط، وعمل النَّصب في المستثنى^(١) للفعل ولكن بوساطتها وعون منها.

والضرب الثاني من تعلق الحرف بما يتعلق به العطفُ وهو أن يدخل الثاني في عَمَلِ العاملِ في الأول كقولنا: جاءني زيدٌ وعمرو، ورأيتُ زيداً وعمراً، ومررتُ بزيدٍ وعمرو.

والضرب الثالث: تعلُّقه^(٢) بمجموع الجُملة كتعلق حرفِ التفي والاستفهام والشرط والجزاء بما يدخلُ عليه. وذلك أن من شأن هذه المعاني أن تتناول ما تتناولُه بتقييدٍ^(٣) وبعد أن يسند إلى شيء. معنى ذلك أنك إذا قلت: «ما خَرَجَ زيدٌ وما زيدٌ خارجٌ». لم يكن التفي الواقعُ بها متناولاً الخروجِ على الإطلاق. بل الخروج واقعاً من زيدٍ ومسنداً إليه. ولا يغرّنك قولُنا في نحو «لا رجلَ في الدار» أنها لنفي الجنس. فإن المعنى في ذلك أنها لنفي الكينونة في الدار عن الجنس، ولو كان يتصورُ تعلقُ التفي بالاسم المفردِ لكان الذي قالوه في كلمة التَّوْحِيدِ من أن التقديرَ فيها «لا إلهَ لنا أو في الوجود إلا الله» فضلاً من القول، وتقديراً

(١) سقطت (في) من المطبوع.

(٢) من (أ). وفي ط: «تعلق».

(٣) في (ط): بالتقييد.

لما لا يحتاج إليه، وكذلك الحكم أبداً. فإذا^(١) قلت: هل خرج زيد؟ لم تكن قد استفهمت عن الخروج مطلقاً ولكن عنه واقعاً من زيد. وإذا قلت: إن يأتي زيد أكرمه: لم تكن جعلت الإتيان شرطاً بل الإتيان من زيد، وكذا لم تجعل الإكرام على الإطلاق جزاء الإتيان بل الإكرام واقعاً منك. كيف وذلك يؤدي إلى أشنع ما يكون من المحال، وهو أن يكون ها هنا إتيان من غير آت وإكرام من غير مكرم، ثم يكون هذا شرطاً وذلك جزاء؟!

ومختصر كل الأمر أنه لا يكون كلام من جزء واحد وأنه لا بد من مسند ومسند إليه وكذلك السبيل في كل حرف رأيتُه يدخل على جملة (كان) وأخواتها، ألا ترى أنك إذا قلت «كان» يقتضي مشبهاً ومشبهاً به كقولك: كان زيداً الأسد. وكذلك إذا قلت «لو» و«لولا» وجدتهما يقتضيان جملتين تكون الثانية جواباً للأولى.

وجملة الأمر أنه لا يكون كلام من حرف وفعل أصلاً، ولا من حرف واسم إلا في النداء نحو: يا عبد الله. وذلك أيضاً إذا حُقق الأمر كان كلاماً بتقدير الفعل المضمر الذي هو أغني، وأريد، وأدعو و (يا) دليل على قيام معناه في النفس.

فهذه هي الطرُق [٣] والوجوه في تعلق الكلم بعضها ببعض وهي كما تراها معاني النحو وأحكامه.

وكذلك السبيل في كل شيء كان له مدخل في صحة تعلق الكلم بعضها ببعض لا ترى شيئاً من ذلك يعدو أن يكون حكماً من أحكام النحو ومعنى من معانيه. ثم إنا نرى هذه كلها موجودة في كلام العرب، ونرى العلم بها مشتركاً بينهم.

وإذا كان ذلك فما جوابنا لخصم يقول لنا: إذا كانت هذه الأمور وهذه الوجوه من التعلق التي هي محصول النظم موجودة على حقائقها، وعلى

(١) في (ط): وإذا.

الصحة، وكما ينبغي في منشور كلام العرب ومنظومه، ورأيانهم قد استعملوها وتصرفوا فيها وكمّلوا بمعرفتها، وكانت حقائق لا تتبدل ولا تختلف^(١) بها الحال، إذ لا يكون للاسم بكونه خبراً لمبتدأ، أو صفة لموصوف، أو حالاً لذي حال، أو فاعلاً، أو مفعولاً لفعل، في كلام حقيقة هي خلاف حقيقة^(٢) في كلام آخر، فما هذا الذي تجدد بالقرآن من عظيم المزية، وباهر الفضل، والعجيب من الرّصف، حتى أعجز الخلق قاطبةً، وحتى قهر من البلغاء والفصحاء القوي والقدر، وقيد الخواطر والفكر، وحتى^(٣) خرس الشقاشق^(٤) وعدم نطق الناطق، وحتى لم يجر لسان، ولم يُبين بيان، ولم يساعد إمكان، ولم ينقدح لأحدٍ منهم زُند، ولم يمض له حدّ، وحتى أسأل الوادي عليهم عجزاً، وأخذ منافذ القول عليهم أخذاً، أيلزمنا أن نجيب هذا الخصم عن سؤاله، ونردّه عن ضلاله، وأن نطبّ لدائه، ونزيل الفساد عن رائه^(٥)؟ فإن كان ذلك يلزمنا فينبغي لكلّ ذي دين وعقل أن ينظر في الكتاب الذي وضعناه، ويستقصي التأمل لما أودعناه، فإن علم أنه الطريق إلى البيان، والكشف عن الحجة والبرهان، تبع الحق وأخذ به، وإن رأى أنّ له طريقاً غيره أومى^(٦) لنا إليه، ودلّنا عليه، وهيهات ذلك؛ وهذه آيات في مثل ذلك:

إني أقول مقالاً لست أخفيه ولست أرهب خضماً إن بدا فيه

ما من سبيل إلى إثبات معجزة في النظم إلا بما أصبحت أبعده^(٧)

(١) في (ط): تختلف.

(٢) في (ط): حقيقته.

(٣) في (ط): «حتى» بحذف الواو.

(٤) الشقاشق جمع شقشقة وهي لهاء البعير أو شيء كالرثة يخرج البعير من فمه إذا هاج. ويقال للفصيح: هدرت شقاشقه، يريدون قوة البيان، وغزارة الكلام.

(٥) رائه، ورأيه بمعنى.

(٦) في (أ): أومى، وفي (ط): أوماً. وهما لفتان بمعنى أشار.

(٧) هو كتاب: دلائل الإعجاز.

[٣ ب] فما لنظمِ كلامٍ أنت ناظمه
 اسمٌ يرى وهو أضلُّ للكلامِ فما
 وآخر هو يعطيك الزيادة في
 تفسيرُ ذلك أنَّ الأضلَّ مُبتداً
 وفاعلٌ مُسنَدٌ فعلٌ تُقدِّمه
 هذان أضلان لا تأتيك فائدة
 وما يَزِيدُكَ من بَعْدِ التَّمامِ فما
 هذي قوانين يكفي^(٢) من تتبعها
 فلست تأتي إلى بابٍ لتعلمه
 هذا كذاكَ وإن كان الذين ترى
 ثم الذي هو قصدي أن يقال لهم
 يقول: من أين أن لا نَظَمَ يُشَبِّهه
 وقد عَلِمْنَا بأنَّ النَّظَمَ ليس سوى
 لو نَقَّبَ الأرضَ باغٍ غيرَ ذاك له
 ما عادَ إلا بخُسْرٍ في تَطَلُّبه

مَعْنَى سَوَى حُكْمٍ إِعْرَابٍ تُزَجِّيه^(١)
 يَتَجَمُّ مِنْ دُونِهِ قَصْدٌ لِمُنْشِيهِ
 مَا أَنْتَ تَثْبِتُهُ أَوْ أَنْتَ تَنْفِيهِ
 تَلْقَى لَهُ خَبِيراً مِنْ بَعْدِ تَثْنِيهِ
 إِلَيْهِ يُكْسِبُهُ وَضْفاً وَيُعْطِيهِ
 مِنْ مَنْطِقٍ لَمْ يَكُنْ مِنْ مَبَانِيهِ
 سَلَّطْتَ فِعْلاً عَلَيْهِ فِي تَعْدِيهِ
 مَا يُشَبِّهُ الْبَحْرَ فَيْضاً مِنْ نَوَاحِيهِ
 إِلَّا أَنْصَرَفَتْ بَعْجَزٍ عَنْ تَقْصِيهِ^(٣)
 يَرَوْنَ أَنَّ الْمَدَى دَانٍ لِبَاغِيهِ^(٤)
 بِمَا يُجِيبُ الْفَتَى خُضْماً يُمَارِيهِ
 وَلَيْسَ مِنْ مَنْطِقٍ فِي ذَاكَ يَحْكِيهِ
 حُكْمٍ مِنَ النَّحْوِ نَمْضِي فِي تَوْخِيهِ^(٥)
 مَعْنَى وَصَعَّدَ يَعْلُو فِي تَرْقِيهِ
 وَلَا رَأْيَ غَيْرَ غَيٍّ فِي تَبَقِّيهِ^(٦)

(١) يريد نظم القرآن وأسلوبه، وفي البيت تصريح أيضاً بأنه هو الواضع للفن (عن الشيخ رشيد رضا). زجاء: دفعه برفق، وساقه.

(٢) في ط: «يلفي» باللام.

(٣) التقصّي: التَّبَع.

(٤) باغيه: طالبه.

(٥) توخى.

(٦) تَبَقَّى وَابْتَقَى: طلب.

وَنَحْنُ مَا إِنْ بَشَّنَا الْفِكْرَ نَنْظُرُ فِي أَحْكَامِهِ وَتُرَوِّي فِي مَعَانِيهِ
كَأَنَّ حَقَائِقَ يُلْفَى الْعِلْمُ مُشْتَرَكًا بِهَا وَكُلًّا تَرَاهُ نَافِذًا فِيهِ
فَلَيْسَ مَعْرِفَةٌ مِنْ دُونِ مَعْرِفَةٍ فِي كُلِّ مَا أَنْتَ مِنْ بَابِ تَسْمِيهِ
تَرَى تَصَرُّفَهُمْ فِي الْكُلِّ مُطَرِّدًا يَجْرُونَهُ بِأَقْنِدَارٍ فِي مَجَارِيهِ
فَمَا الَّذِي زَادَ فِي هَذَا الَّذِي عَرَفُوا حَتَّى غَدَا الْعَجْزُ يَهْمِي سَيْلُ وَادِيهِ
قُولُوا وَإِلَّا فَأَضْغُوا لِلْبَيَانِ تَرَوْا كَالصُّبْحِ مُنْبَلِجًا فِي عَيْنِ رَائِيهِ
الْحَمْدُ لِلَّهِ وَحْدَهُ وَصَلَوَاتُهُ عَلَى رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ وَآلِهِ.



دلائل الإعجاز

للإمام اللغوي عبد القاهر الجرجاني

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، حمدَ الشاكرين، نَحْمَدُه على عظيم نعمائه، وجميل بلائه، ونستكفيه نوائِبَ الزَّمان، ونوازلَ الحَدَثان^(١) ونرغبُ إليه في التَّوفيق والعصمة، ونبرأُ إليه من الحَوْلِ والقُوَّة، ونسأله يقيناً يملأُ الصَّدر، ويعمرُ القلب، ويستولي على النَّفس، حتى يكفَّها إذا نَزغت^(٢)، ويردها إذا تطلَّعت، وثقةً بأنه عزَّ وجلَّ الوَزَر، والكالئُ والرَّاعي والحافظ، وأنَّ الخيرَ والشرَّ بيده. وأنَّ النعمَ كُلَّها من عنده، وأنَّ لا سلطانَ لأحدٍ مع سُلطانِهِ نوجَّهَ رغباتنا إليه، ونُخلصَ نياتنا في التَّوَكُّلِ عليه، وأنَّ يَجْعَلنا ممن هَمُّهُ الصَّدق، وبُغْيَتُهُ الحقُّ وعَرَضُهُ الصَّواب، وما تصحَّحَهُ العقولُ وتقبَّله الألباب، ونعوذُ به من أن ندَّعي العلمَ بشيءٍ لا نعلِّمُهُ، وأنَّ نُسَدِّي قولاً لا نُلحِمُهُ^(٣)، وأنَّ نكونَ ممَّن يغرَّهُ الكاذبُ من الثَّناء، وينخدعُ للمتجورِّز في الإطراء، وأنَّ يكونَ سبيلنا سبيلَ من يُعجبه أنَّ يجادلَ بالباطل، ويموَّهَ على السَّامع ولا يُبالي إذا راج عنه القولُ أنَّ يكونَ قد خلَّطَ فيه، ولم يسدِّد في معانيه، ونستأنفُ الرَّغبةَ إليه عزَّ وجلَّ في الصَّلَاة على خيرِ خلقِهِ، والمُصطفى من بَرِيَّتِهِ، محمَّدَ سيِّد المُرسَلين، وعلى أصحابِهِ الخُلَفاءِ الرَّاشدين، وعلى آله الأخيار ومن بعدهم أجمعين.

(١) الحَدَثان: الليل والنَّهار. وحَدَثان الدَّهر: نوائبه وحوادثه.

(٢) النَّزغ: الوسوسة - وسوسة النفس، وسوسة الشيطان - والنزغ أيضاً: الإغواء والإغراء، والمعنى متقارب وفي التنزيل العزيز قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَزْعُفَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَوِذْ بِاللَّهِ﴾ [الأعراف: ٢٠٠/٧].

(٣) يقال: سدَّى الثوب، وأسده، وسداه أي مَدَّ سداه. والسدى خلاف اللحمه، وهو ما يمد طولاً في النسيج. ومن المجاز - وهو يجري مجرى المثل -: قد أسدَّيت فالحم، وأسَرَجْتَ فالحِجَم. أي: بدأت أمراً فأتَمَمته، أو أحسن إتمامه.

وبعد فإننا إذا تصفّحنا الفضائل لنعرف منازلها في الشرف، ونتبيّن مواقعها من العِظَم، ونعلم أيُّ أحقُّ منها بالتّقديم، وأسبق في استيجابِ التّعظيم، وجدنا العِلْمَ أولًاها بذلك، وأولها هنالك، إذ لا شرف إلا وهو السبيلُ إليه، ولا خير إلا وهو الدليلُ عليه، ولا منقبة^(١) إلا [٢ ب] وهو ذروتها وسنامها، ولا مفخرة إلا وبه صحّتها وتماُمها، ولا حسنة إلا وهو مِفْتَاحُها، ولا مَحَمْدَة إلا ومنه يتقدّم مصباحُها، وهو الوَفْيُ إذا خانَ كلُّ صاحب، والثقة إذا لم يوثق بناصر، لولاه لَمَّا بَانَ الإنسانُ من سائر الحيوانِ إلّا بتخطيطِ صورته، وهيئةِ جسمه وبنيتِه، لا ولا وجد إلى اكتسابِ الفضلِ طريقاً، ولا وُجِدَ بشيءٍ من المحاسنِ خليقاً، ذاك لأنّا وإن كنّا لا نصلُّ إلى اكتسابِ فضيلةٍ إلا بالفعل، وكان لا يكونُ فعلٌ إلا بالقدرة، فإننا لم نَرِ فعلاً زانَ فاعله، وأوجب الفضلَ له، حتى يكونَ عن العلمِ صَدْرُهُ، وحتى يتبيّنَ ميسمُه عليه وأثره، ولم نَرِ قدرةً قط أكسبت صاحبها مجداً، وأفادته حمداً، دونَ أن يكونَ العلمُ رائدَها فيما تطلّب، وقائدها حيثُ تؤمُّ وتذهب، ويكونَ المصرفُ لعنانها، والمقلّبُ لها في مَيدَانِها، فهي إذن مفتقرةٌ في أن تكونَ فضيلةً إليه، وعيالٌ في استحقاقِ هذا الاسمِ عليه، وإذا هي خلّت من العلمِ أو أثبت أن تمتثل أمره، وتقتفي رسمه، آلت ولا شيء أحشدُ للذمِّ على صاحبها منها، ولا شَيْنَ أشينُ^(٢) من إعماله لها.

فهذا في فضلِ العلمِ لا تجدُ عاقلاً يُخالفك فيه، ولا ترى أحداً يدفعه أو ينفيه، فأما المفاضلةُ بين بعضه وبعض، وتقديمُ فنٍّ منه على فنٍّ، فإنك ترى الناسَ فيه على آراءٍ مُختلفة، وأهواءٍ مُتعدية، ترى كلاً منهم لحبه نفسه وإشاره أن يدفعَ النقصَ عنها يقدّم ما يُحسن من أنواع العلمِ على ما لا يُحسن. ويحاولُ الزّرايةَ على الذي لم يحظَ به، والظعنَ على أهله والغصنَ منهم، ثم تتفاوت أحوالهم في ذلك. فمن مغموٍ قد استهلكه هَواء، وبُعِدَ في الجورِ مداه، ومن مترجّح فيه بين الإنصافِ والظُّلم، يجور [١٣] تارةً ويعدلُ أخرى في الحُكم،

(١) المنقبة: الفعل الكريم والمفخرة، وجمعها مناقب.

(٢) في (ط): ولا شيء أشين. والشين: العيب.

فأما من يَخْلُص في هذا المعنى من الحَيْفِ حتَّى لا يَقْضِيَ إلا بالعدل، وحتى يصدرَ في كلِّ أمرِه عن العقل، فكالشَّيءِ الممتنع وجوده، ولم يكنْ ذلك كذلك إلا لشرفِ العلمِ وجليلِ محلِّه، وأنَّ محبَّتَه مركوزةٌ في الطُّباع، ومرْكبةٌ في النفوس، وأنَّ الغيرةَ عليه لازمةٌ للجِبلة، وموضوعةٌ في الفِطرة، وأنَّه لا عيبَ أعيبُ عند الجميع من عَدَمِه، ولا ضَعَة أوضَعُ من الخُلُو عنه، فلم يُعاد إذن إلا من فرطِ المحبَّة، ولم يُسمح به إلا لشدَّة الضَّن.

ثم إنَّك لا ترى علماً هو أرسخُ أصلاً، وأسبقُ فرعاً، وأحلى جَنى، وأعذب ورِداً، وأكرم نتاجاً، وأنور سراجاً، من علم البيان الذي لولاه لم ترَ لساناً يحوِّك الوَشي، ويصوغُ الحَلْيَ، ويلفظُ الدَّر، وينفثُ السُّحر، ويقرِّي الشَّهَد^(١) ويُرِيكَ بدائعَ من الزَّهر، ويُجَنِّيكَ الحلوَّ اليانِعَ من الثَّمَر، والذي لولا تحقِّقه بالعلوم، وعنايَتُه بها، وتصويرُه إياها، لبقيتْ كامنةٌ مستورةٌ، ولما استبنت لها يدُ الدَّهرِ صُورة^(٢)، ولا استمرَّ السُّرارُ بأهْلَتِها^(٣)، واستولى الخفاءُ على جُمْلَتِها، إلى فوائد لا يُدركها الإحصاء، ومحاسن لا يحضُّرها الاستقصاء، إلا أنَّك لن ترى على ذلك نوعاً من العلم قد لقي من الضِّيم ما لَقِيَه، ومُنِي من الحَيْفِ بما مُنِي به، ودخل على الناس من الغلِط في مَغْناه ما دخلَ عليهم فيه، فقد سبقت إلى نفوسهم اعتقادات فاسِدةٌ، وظنونٌ رديَّةٌ، وركبهم فيه جهلٌ عظيم، وخطأ فاحش، ترى كثيراً منهم لا يرى له معنى أكثر مما يرى للإشارة بالرأس والعين، وما يجده للخطِّ والعقد^(٤)،

(١) قرى الشيء: جمعه.

(٢) يد الدهر: الأبد. وقولهم: لا أفعله يد الدهر أي أبداً.

(٣) السُّرار - بفتح السين وكسرهما - : آخر ليلة في الشهر. تقول: استسرَّ القمر: أي خفي ليلة السُّرار.

(٤) علم الخط هو علم الرمل. ويقال من ذلك: خط الرمال في الرمل، أو: في الأرض. قال في اللسان (خطط): «وهو علم قديم تركه الناس». ووصف كيفيته باختصار.

ويتحدث البلاغيون عادة عن (الإشارة) و (التوخي) قال في (البرهان في وجوه البيان) ١٤٠: «ومن الوحي الإشارة باليد، والغمز بالحاجب، والإيماض بالعين...».

والعقد من قولهم عقد الحاسب إذا حسب. والمقصود هنا: التفاهم بعقد الأصابع.

يقول: إنما هو خبرٌ واستخبار، [٣ ب] وأمرٌ ونهي، ولكلٌّ من ذلك لفظٌ قد وُضع له، وجُعِلَ دليلاً عليه، فكلُّ مَنْ عرف أوضاع لغةٍ من اللّغات عربيّةً كانت أو فارسيّةً وعرف المغزى من كل لفظٍ ثم ساعده اللّسان على التّلقُّ بها، وعلى تأدية أجزائها وحروفها، فهو يبيّن في تلك اللّغة، كاملُ الأداة، بالّغ من البيان المبلغ الذي لا مزيد عليه، منتهٍ إلى الغاية التي لا مذهب بعدها، يسمعُ الفصاحة والبلاغة والبراعة فلا يعرف لها معنىً سوى الإطناب في القول، وأن يكون المتكلّم في ذلك جهير الصّوت، جاري اللّسان، لا تعترضه لُكنة، ولا تقف به حُبسة^(١)، وأن يستعمل اللفظ الغريب، والكلمة الوحشيّة، فإن استظهر للأمر، وبالع في النظر، فإن لا يلحن فيرفع في موضع التّصبٍ أو يخطئ فيجيء باللفظة على غير ما هي عليه في الوضع اللّغوي، وعلى خلاف ما ثبتت به الرواية عن العرب، وجملة الأمر أنه لا يرى النقص يدخل على صاحبه في ذلك إلا من جهة نقصه في علم اللّغة لا يعلم أنّها هنا دقائق وأسراراً طريق العلم بها الرويّة والفكر، ولطائف مستقها العقل، وخصائص معانٍ ينفرد بها قوم قد هدوا إليها، ودّلّوا عليها، وكُشف لهم عنها، ورُفعت الحجب بينهم وبينها، وأنها السببُ في أن عرضت المزيّة في الكلام ووجب أن يفضل بعضه بعضاً وأن يبتعد الشّأ في ذلك وتمتد الغاية ويعلو المُرْتقى ويعزّز المطلب، حتّى ينتهي الأمر إلى الإعجاز وإلى أن يخرج من طوق البشّر.

ولما لم تعرف هذه الطائفة هذه الدقائق وهذه الخواصّ واللّطائف لم تتعرض لها ولم تطلّبها. ثم عنّ لها بسوء الاتفاق رأيٌّ صار حجازاً بينها وبين العلم بها، وسدّاً دون أن تصل [٤ أ] إليها، وهو أن ساء اعتقادها في الشّعْر الذي هو معدنها، وعليه المَعْوَل فيها، وفي علم الإعراب الذي هو لها كالنّاسِب الذي ينميها إلى أصولها، ويبين فاضلها من مفضولها، فجعلت تُظهر الرُّهْد في كل واحدٍ من النوعين، وتطرّح كلاً من الصّنفين، وترى التّشاغلَ عنهما، أولى من الاشتغال بهما، والإعراض عن تدبّرهما، أصوب من الإقبال على تعلمهما.

(١) اللكنة: من لكن أي عي وثقل لسانه، وصعب عليه الإفصاح بالعربية لعجمة لسانه، فهو لكن، والمؤنة لکناء. والحبسة: ثقل في اللسان يمنع من الإبانة.

أما الشعرُ فَخَيْلٌ إليها أنه ليس فيه كثيرُ طائل! وأن ليس إلا ملحّةً أو فكاهةً أو بكاءً منزلاً أو وصفَ طللٍ، أو نعتَ ناقَةٍ أو جملٍ، أو إسرافَ قولٍ في مدح أو هجاء وأنه ليسَ بشيءٍ تمسّ الحاجةُ إليه في صلاح دينٍ أو دُنْيَا.

وأما التَّحْوُ فَظَنَّتُهُ ضرباً من التَّكْلُفِ، وباباً من التَّعَسُّفِ، وشيئاً لا يستند إلى أصل، ولا يعتمد فيه على عقل، وأنّ ما زاد منه على معرفة الرّفع والنصب وما يتصلُ بذلك مما تجده في المبادئ فهو فضلٌ لا يجدي نفعاً ولا تحصلُ منه على فائدة، وضربوا له المثل بالملح - كما عرفت^(١) - إلى أشباه لهذه الظّنون في القبيلين وآراء لو علموا مَغَبَّتْهَا وما تقود إليه لَتَعَوَّذُوا بالله منها، ولَا يُفَوُّوا لأنفسهم من الرّضا بها، ذاك لأنهم بإيثارهم الجهل بذلك على العِلْمِ في معنى الصّادّ عن سبيل الله، والمُتَبَغْيِ إطفاء نور الله تعالى.

وذاك أنا إذا كُنَّا نعلمُ أنّ الجهة التي منها قامت الحُجّة بالقرآن وظهرت، وبانت وبهرت، هي أن كانَ على حدٍّ من الفصاحةِ تُقَصِّرُ عنه قُوَى البشر، ومتنبهاً إلى غاية لا يُطَمَحُ إليها بالفكر، وكان مُحالاً أن يعرف كونه كذلك إلا من عَرَف الشعر الذي هو ديوانُ العرب، وعنوانُ الأدب، والذي لا يُشَكُّ أنه كان [٤ ب] ميدان القوم إذا تَجَارَوْا في الفصاحة والبيان، وتنازَعوا فيهما قصبَ الرّهان، ثم بحثَ عن العِلل التي بها كان التّبّايُن في الفضل، وزادَ بعض الشعر على بعض، كان الصّادُّ عن ذلك صادّاً عن أن تُعرف حُجّة الله تعالى^(٢). وكان مثله مثلُ مَنْ

(١) جاء في أسرار البلاغة ٦٥: وقد جرى تمثيلهم النحو بالملح في قولهم: «النحو في

الكلام كالملح في الطعام» إذ المعنى أن الكلام لا يستقيم ولا تحصل منافعه التي هي الدلالات على المقاصد إلا بمراعاة أحكام النحو من الإعراب والترتيب الخاص، كما لا يجدي الطعام، ولا تحصل المنفعة المطلوبة منه وهي التغذية ما لم يصلح بالملح، فأما ما يتخللونه من أن معنى ذلك أن القليل من النحو يغني وأن الكثير منه يفسد الكلام كما يفسد الملح الطعام إذا كثر فيه فتحريف وقول بما لا يتحصل على البحث». وهذه الإشارة في الدلائل إلى بحث قد تناوله عبد القاهر قبل يدل على سبق تأليفه أسرار البلاغة.

(٢) الآيات في معنى الصّدّ عن سبيل الله عديدة، ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٦٧/٤].

يَتَصَدَّى لِلنَّاسِ فَيَمْنَعُهُمْ عَنْ أَنْ يَحْفَظُوا كِتَابَ اللَّهِ تَعَالَى وَيَقُومُوا بِهِ، وَيَتْلُوهُ وَيَقْرُؤُوهُ، وَيَصْنَعُ فِي الْجُمْلَةِ صَنِيعاً يُوَدِّي إِلَى أَنْ يَقْلَ حِفْظُهُ، وَالْقَائِمُونَ بِهِ وَالْمُقَرَّنُونَ لَهُ، ذَاكَ لِأَنَّا لَمْ نَتَعَبِدْ بِتِلَاوَتِهِ وَحِفْظِهِ، وَالْقِيَامَ بِأَدَاءِ لَفْظِهِ، عَلَى التَّحْوِ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْهِ، وَحِرَاسَتِهِ مِنْ أَنْ يَغْيَرَ وَيُبَدِّلَ، إِلَّا لَتَكُونَ الْحُجَّةُ بِهِ قَائِمَةً عَلَى وَجْهِ الدَّهْرِ تُعَرِّفُ فِي كُلِّ زَمَانٍ، وَيُتَوَصَّلُ إِلَيْهَا فِي كُلِّ أَوَانٍ، وَيَكُونُ سَبِيلُهَا سَبِيلَ سَائِرِ الْعُلُومِ الَّتِي يَرُويها الْخَلْفُ عَنِ السَّلَفِ، وَيَأْثُرُهَا الثَّانِي عَنِ الْأَوَّلِ، فَمَنْ حَالٌ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَالِهِ كَانَ حِفْظُنَا إِيَّاهُ، وَاجْتِهَادُنَا فِي أَنْ نُؤَدِّيَهُ وَنَرْعَاهُ، كَانَ كَمَنْ رَامَ أَنْ يُنْسِيَنَاهُ جُمْلَةً، وَيُذْهِبَهُ مِنْ قُلُوبِنَا دَفْعَةً، فَسَوَاءٌ مَنْ مَنَعَكَ الشَّيْءَ الَّذِي يُتَنَزَّعُ مِنْهُ الشَّاهِدُ وَالذَّلِيلُ، وَمَنْ مَنَعَكَ السَّبِيلَ إِلَى انْتِزَاعِ تِلْكَ الدَّلَالَةِ، وَالْإِطْلَاقِ عَلَى تِلْكَ الشَّهَادَةِ، وَلَا فَرْقَ بَيْنَ مَنْ أَعْدَمَكَ الدَّوَاءَ الَّذِي تَسْتَشْفِي بِهِ مِنْ دَائِكَ، وَتَسْتَبْقِي بِهِ حُشَاشَةَ نَفْسِكَ، وَبَيْنَ مَنْ أَعْدَمَكَ الْعِلْمَ بِأَنْ فِيهِ شِفَاءٌ، وَأَنْ لَكَ فِيهِ اسْتِبْقَاءٌ.

فَإِنْ قَالَ مِنْهُمْ قَائِلٌ: إِنَّكَ قَدْ أَغْفَلْتَ فِيمَا رَتَبْتَ، فَإِنَّ لَنَا طَرِيقاً إِلَى إِعْجَازِ الْقُرْآنِ غَيْرَ مَا قُلْتَ، وَهُوَ عَلَمُنَا بِعَجْزِ^(١) الْعَرَبِ عَنْ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ، وَتَرْكِهِمْ أَنْ يِعَارِضُوهُ مَعَ تَكَرُّرِ التَّحْدِي عَلَيْهِمْ وَطُولِ التَّقْرِيعِ لَهُمْ بِالْعَجْزِ عَنْهُ، وَلِأَنَّ الْأَمْرَ كَذَلِكَ مَا قَامَتْ بِهِ الْحُجَّةُ عَلَى الْعَجْمِ قِيَامَهَا عَلَى الْعَرَبِ، وَاسْتَوَى النَّاسُ قَاطِبَةً فَلَمْ يَخْرُجِ الْجَاهِلُ [هـ] بِلِسَانِ الْعَرَبِ مِنْ أَنْ يَكُونَ مُحْجُوجاً بِالْقُرْآنِ؛ قِيلَ لَهُ خَبَرْنَا عَمَّا اتَّفَقَ عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ مِنْ اخْتِصَاصِ نَبِيِّنَا عَلَيْهِ السَّلَامُ بِأَنْ كَانَتْ مُعْجَزَتُهُ بَاقِيَةً عَلَى وَجْهِ الدَّهْرِ. أَتَعْرِفُ لَهُ مَعْنَى غَيْرَ أَنْ لَا يَزَالُ الْبِرْهَانُ مِنْهُ لَائِحاً مُعْرَضاً لِكُلِّ مَنْ أَرَادَ الْعِلْمَ بِهِ، وَطَلَبَ الْوَصُولَ إِلَيْهِ، وَالْحُجَّةُ فِيهِ وَبِهِ ظَاهِرَةٌ لِمَنْ أَرَادَهَا، وَالْعِلْمُ بِهَا مُمْكِنٌ لِمَنْ التَّمَسَّهْ؟ فَإِذَا كُنْتَ لَا تَشْكُ فِي أَنْ لَا مَعْنَى لِبَقَاءِ الْمُعْجِزَةِ بِالْقُرْآنِ إِلَّا أَنْ الْوَصْفَ الَّذِي لَهُ^(٢) كَانَ مُعْجِزاً قَائِمٌ فِيهِ أَبَداً وَأَنَّ الطَّرِيقَ

= وَفِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُنِيرَ نُّورُهُمْ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢/٩].

(١) فِي النِّسْخَةِ (أ): عَلِمْنَا عَنْ عَجْزِ الْعَرَبِ.

(٢) فِي النِّسْخَةِ (أ) سَقَطَتْ كَلِمَةُ (لَهُ).

إلى العلم به موجودٌ، والوصولُ إليه ممكنٌ، فانظر أيَّ رجلٍ تكون إذا أنت زهدت في أن تعرفَ حُجَّةَ الله تعالى وآثرتَ فيه الجهلَ على العلمِ وعدمِ الاستبانةِ على وجودِها. وكان التَّقْلِيدُ فيها أحبَّ إليك، والتعويلُ على علم غيرك آثرَ لديك، ونَحَّ الهوى عنك، وراجعَ عقلك، واصدُقْ نفسك، يَبِينُ لك فُحْشُ الغُلُطِ فيما رأيتَ وقُبْحُ الخطأِ في الذي توهمتَ، وهل رأيتَ رأياً أعجزَ، واختياراً أقبحَ، ممَّنْ كَرِهَ أن تُعرفَ حُجَّةَ الله تعالى من الجهة التي إذا عُرِفَتْ منها كانت أنورَ وأبهرَ، وأقوى وأقهرَ، وآثَرَ أن لا يقوى سلطانُها على الشُّركِ كلِّ القوةِ، ولا تَعْلُو على الكُفْرِ كلِّ العلْوِ، والله المستعان.



فصل

في الكلام على من زهد في رواية الشعر وحفظه وذم الاشتغال بعلمه وتتبُّعه

لا يخلو من كان هذا رأيُه من أمور:

أحدها: أن يكون رفضه له وذمه إياه من أجل ما يجده فيه من هزل^(١) وسخف وهجاء وسب وكذب وباطل على الجملة.

والثاني: أن يذمه لأنه موزون مقفى ويرى هذا بمجرد عيبا يقتضي الزهد فيه والتنزُّة عنه.

والثالث: أن يتعلّق بأحوال [ه ب] الشعراء وأنها غير جميلة في الأكثر ويقول: قد دُموا في التنزيل^(٢) وأي كان من هذه رأياً له فهو في ذلك على خطأ ظاهر، وغلط فاحش، وعلى خلاف ما يوجبُه القياس والنظر، وبالضدّ مما جاء به الأثر، وصحّ به الخبر.

أما من زعم أن ذمه له من أجل ما يجد فيه من هزل وسخف وكذب وباطل فينبغي أن يذم الكلام كلّهُ، وأن يفضل الخرس على النطق والعي على البيان!

(١) في (ب) و (ط): هزل أو سخف.

(٢) إشارة إلى ما في التنزيل العزيز [سورة الشعراء ٢٦/٢٢٣ والآيات التالية].

فمنثورُ كلامِ النَّاسِ على كُلِّ حالٍ أَكْثَرُ من منظومِهِ، والذي زعمَ أَنه ذمُّ الشَّعرِ من أَجلِهِ، وعاداه بسببِهِ^(١) فيه أَكْثَرُ؛ لأنَّ الشُّعراءَ في كلِّ عَصْرِ وزمانٍ معدودون، والعامَّةُ ومن لا يقولُ الشَّعرَ من الخاصَّةِ عديدُ الرَّمَلِ. ونحنُ نعلمُ أَن لو كانَ منثورُ الكلامِ يُجمَعُ كما يُجمَعُ المنظومُ ثمَّ عمدَ عامدٌ فجمَعَ ما قيلَ من جنسِ الهزلِ والسُّخفِ نثرًا في عَصْرِ واحدٍ لأربى على جميعِ ما قاله الشُّعراءُ نظمًا^(٢) في الأزمانِ الكثيرةِ ولغمره حتَّى لا يظهرَ فيه. ثمَّ إِنَّكَ لو لم تَرَوْ من هذا الضربِ شيئاً قطُّ ولم تحفظِ إلَّا الجِدَّ المحضَ وإلا ما لا مَعابَ عليك في روايته، وفي المحاضرة به، وفي نسخِهِ وتدوينِهِ لكانَ في ذلك غِنًى ومندوحةٌ ولوجدتُ طلبتَكَ، ونلتُ مُرادَكَ، وحصلَ لك ما نحنُ ندعوكَ إليه من عِلْمِ الفصاحةِ فاخترُ لنفسكَ ودعْ ما تكرهُ إلى ما تحبُّ!

هذا، وراوي الشَّعرِ حاكٍ وليس على الحاكي عيبٌ، ولا عليه تَبعةٌ، إذا هو لم يَقصد بحكايته أَن ينصَرَ باطلاً، أو يسوءَ مُسلماً، وقد حكى الله تعالى كلامَ الكُفَّار. فانظرْ إلى الغرضِ الذي له رُوي الشَّعرُ ومن أَجلِهِ أريدُ، وله دُؤنٌ، تعلمُ أَنَّكَ قد رُغِتَ عن المنهجِ وَأَنَّكَ مَسِيءٌ في هذه العداوةِ وهذه العصبيَّةِ منك على الشَّعرِ. وقد استشهد [٦ أ] العلماءُ لغريبِ القرآنِ وإِعرايهِ بالأبياتِ فيها الفُحشُ وفيها ذِكرُ الفعلِ القبيحِ ثمَّ لم يَعْبَهُم ذلكَ إذ كانوا لم يَقصدوا إلى ذلكَ الفُحشِ، ولم يُريدوه، ولم يرووا الشَّعرَ من أَجلِهِ.

قالوا: وكانَ الحَسَنُ البصريُّ، رحمه الله، يَتمثِّلُ في مَواعِظِهِ بالأبياتِ من الشَّعرِ^(٣) وكانَ من أوجعها عنده:

(١) المَثبِتُ في العبارةِ من نسخة (ب).

وفي (أ): ذمُّ الشَّعرِ بسببِهِ.

وفي (ط): بسببِهِ، وعاداه بنسبته إليه.

وفي (غ): (أكثر فيه).

(٢) سقطت الكلمة من (أ).

(٣) عبارة «بالأبيات من الشَّعر» سقطت من (أ).

- والحسن البصري (٢١ - ١١٠ هـ) أبو سعيد الحسن بن يسار البصري، إمام أهل

اليومَ عندك دَلَّها وحَدِيثُها وَعَدَا لِيغَيِّرَكَ كَفُّها والمِغْصَمُ

وفي الحديث عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه - ذكره المَرْزِبَانِي في كتابه بإسنادٍ عن عبد الملك بن عُمَيْر أنه قال: أتى عمر رضوان الله عليه بِحُلُلٍ من اليمن فأتاه محمد بن جعفر بن أبي طالب ومحمد بن أبي بكر الصديق ومحمد بن طلحة بن عبيد الله ومحمد بن حاطب فدخل عليه زيد بن ثابت رضي الله عنه فقال: يا أمير المؤمنين! هؤلاء المحمَّدُونَ بالباب يطلبون الكُسوة. فقال: ائذن لهم يا غلام! فدعا بِحُلُلٍ فأخذ زيدٌ أجودها، وقال: هذه لمحمد بن حاطب، وكانت أمُّه عنده، وهو من بني لُؤَيٍّ - فقال عمر رضي الله عنه: أيهاَت أيهاَت! وتمثَّل بشعرِ عُمارة بن الوليد^(١):

أَسْرَكَ لِمَا صَرَّعَ القَوْمَ نشوَةً خروِجِي منها سَالِمًا غَيْرَ غَارِمٍ
بَرِيئًا كَأَنِّي قَبْلُ لَمْ أَكُ مِنْهُمْ وَلَيْسَ الخِدَاعُ مَرْتَضًى فِي التَّنَادُمِ^(٢)

رُدَّها! ثم قال: اتنتي بثوبٍ فألقِه على هذه الحُلل. وقال: أدخل يدك فخذ حُلَّةً وأنت لا تراها فأعطهم. قال عبدُ الملك: فلم أرَ قِسْمَةً أعدَل منها. وعُمارة هذا هو عمارَةُ بن الوليد بن المغيرة خَطَبَ امرأةً من قومه^(٣) فقالت: لا أتزوجك أو تتركَ الشَّرابَ، فأبى ثم اشتدَّ وجُدُّه بها فحلفَ لها أن لا يشرب. ثم مرَّ بخمار

= البصرة في زمانه، وأحد العلماء الفقهاء الفصحاء التَّسَاك.

(وفيات الأعيان ٦٩/٢، طبقات ابن سعد ١٥٦/٧، تهذيب التهذيب ٢/٢٦٣). وانظر

أُمالي المرتضى ١/١٦٠، والبيت فيهما. وهو من قطعة في مدَّة بعض النساء.

(١) الخبر في الأغاني (١٨/٦٥)، باختلاف طفيف في العبارة، والمحتوى واحد.

وعُمارة بن الوليد بن المغيرة، شاعر قرشي مخزومي، كان مستهتراً بالشراب وغيره من أخلاق الجاهلية. وهو أحد أزواد الركب ويقال له الوحيد: وكان أزواد الركب لا يمرُّ بهم غريب إلا قروه وأحسنوا ضيافته وزودوه ما يحتاج إليه لسفره. قال المَرْزِبَانِي: إنه شاعر جاهلي. وأظنه كان قريباً جداً من عهد ظهور الإسلام. (الأغاني ١٨/٦٢، معجم الشعراء ٧٦).

(٢) رواهما في الأغاني، ومعجم الشعراء باختلافات يسيرة.

(٣) الخبر في الأغاني.

عنده شَرِبَ يشربون فَدَعَوْه فدخلَ عليهم وقد أنفدوا ما عندهم فنَحَرَ لهم ناقته وسقاهم بِبُرديه ومكثوا أياماً ثم [٦ ب] خرج فأتى أهله. فلَمَّا رَأَتْهُ امرأته قالت: ألم تحلف أن لا تشرب؟ فقال^(١):

ولسنا بِشَرِبْ أُمِّ عمرو إذا انتشوا ثيابُ النَّدَامى عندهم كالغَنائم
ولكننا يا أُمِّ عمرو نديمُنَا بمنزلةِ الرِّيانِ ليسَ بعائم^(٢)
أَسْرَكُ... البيتين.

فإذن رُبَّ هَزَل صار أَدَاءً في جِدِّ، وكلام جرى في باطل ثم استُعين به على حق، كما أَنَّهُ رب شيءٍ خسيس، تُوصَّلُ به إلى شريف، بأن ضُرب مثلاً فيه، وجُعِلَ مثلاً له. كما قال أبو تمام^(٣):

والله قَدْ ضَرَبَ الْأَقْلَّ لِشُورِهِ مَثْلاً مِنَ الْمَشْكَاءِ وَالنَّبْرَاسِ

وعلى العكس فربَّ كلمةٍ حقٍّ أريدَ بها باطل فاستحقَّ عليها الذم؛ كما عرف من خَبَرِ الخارجي مع عليّ رضوانُ الله عليه^(٤). وَرَبَّ^(٥) قول حسن لم يحسن من قائله حين تسبَّب به إلى قبيح كالذي حكى الجاحظ؛ قال^(٦): رجع طاووس يوماً عن مجلس مُحَمَّد^(٧) بن يوسف وهو يومئذٍ والي اليمن فقال: ما ظننتُ أَنَّ قول

(١) هما في الأغاني، بالرواية المذكورة.

(٢) العائم: ذو العيمة، وهي شدة شهوة اللَّبَنِ، أو شدة العطش - والشرب: جماعة الشَّارِبِينَ.

(٣) البيت لأبي تَمَّام (ديوانه ٢/ ٢٥٠) من قصيدة في مدح المعتصم.

ورواية الديوان: فالله قد ضرب الأقل...

(٤) كلمة قالها علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، في جواب رجل دعا إلى التحكيم بقوله: لا حُكْمَ إلَّا لله. وفي تاريخ الطبري (٧٢/٥) وما بعدها) روايات وأخبار عن التحكيم. وفيه أنه قال: «كلمة حق يراد بها باطل»، أو: «كلمة حق يلتبس بها باطل».

(٥) في (أ): قُرْبٌ.

(٦) الخبر في البيان والتبيين ١/ ٣٩٥، أورده في باب «ما ذكروا فيه من أن أثر السيف يمحو أثر الكلام».

(٧) حاشية في (أ): «هو أخو الحجاج».

«سُبْحَانَ اللَّهِ» يَكُونُ مَعْصِيَةً لِلَّهِ حَتَّى كَانَ الْيَوْمَ، سَمِعْتُ رَجُلًا أَبْلَغَ ابْنَ يُوسُفَ عَنْ رَجُلٍ كَلَامًا، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْمَجْلِسِ: سُبْحَانَ اللَّهِ! كَأَلْمُسْتَعِظِمِ لَذَلِكَ الْكَلَامِ، لِيُغْضِبَ^(١) ابْنَ يُوسُفَ.

فبهذا ونحوه فاعتبر، واجعله حكماً بينك وبين الشعر.

وبعد، فكيف وضع من الشعر عندك وكسبه المقت منك أنك وجدت فيه الباطل والكذب، وبعض ما لا يحسن؛ ولم يرفعه في نفسك ولم يوجب له المحبة من قلبك أن كان فيه الحق والصدق والحكمة وفصل الخطاب، وأن كان مجنى ثمر العقول والألباب، ومجتمع فرق الآداب [١٧] والذي قيد على الناس المعاني الشريفة، وأفادهم الفوائد الجليلة، وترسل بين الماضي والغابر، ينقل مكارم الأخلاق إلى الولد عن الوالد، ويؤدي ودائع الشرف عن الغائب إلى الشاهد، حتى ترى به آثار الماضين، مخلدة في الباقيين؛ وعقول الأولين، مردودة في الآخرين؛ وترى لكل من رام الأدب وابتغى الشرف، وطلب محاسن القول والفعل، مناراً مرفوعاً، وعلماً منصوباً، وهادياً مُرشدًا، ومعلماً مسدداً، وتجده فيه للنائي عن طلب المآثر، والزاهد في اكتساب المحامد، داعياً ومحرّضاً، وباعثاً ومحضّضاً، ومذكراً ومعرفاً، وواعظاً ومثقفًا، فلو كنت ممن يُنصف كان في بعض ذلك ما يُغيّر هذا الرأي منك، وما يحدوك على رواية الشعر وطلبه. ويمنعك أن تعيبه أو تعيب به، ولكنت أبيت إلا ظناً سبق إليك، وإلا بادئ رأي^(٢) عنك لك، فأفقلت عليه قلبك وسددت عما سواه سمعك، فعيي الناصح بك وعسر على الصديق والخليفة^(٣) تنبيهك. نعم وكيف رويت «لأن يمتلئ جوف أحدكم قبحاً فيريه»^(٤) خير له من أن يمتلئ شعراً ولهجت له وتركت

(١) رواية البيان: فغضب ابن يوسف. ورواية الدلائل أقرب إلى سياق الخبر، ومغزاه.

(٢) بادئ الرأي: ما يبدأ منه، وهو الرأي الفطير يبدو قبل إنعام النظر. يقال: فعله بادئ الرأي.

(٣) الخليفة: المخالط، ويطلق على الشريك، والصاحب والجار المُصافي...

(٤) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي، وابن ماجه، وفيها - عدا أبي داود - : «قبحاً يريد»، وفي روايات أخرى: «حتى يريه».

ونقل في فتح الباري عن أبي عبيد (١٠/ ٤٥١ - ٤٥٣) أن وجه المعنى عنده والمقصود:

قوله ﷺ: «إِنَّ من الشعر لحكماً وإنَّ من البيان لسحراً»^(١) وكيف نسيت أمره ﷺ بقول الشعر ووعده عليه الجنة، وقوله لحسان: «قل وروح القدس معك»^(٢) وسماعه له، واستنشاده إياه وعمله ﷺ به، واستحسانه له، وارتياحه عند سماعه؟

(أمّا) أمره به فمن المعلوم ضرورة. وكذلك سماعه إياه فقد كان حسان وعبد الله بن رواحة وكعب بن زهير يمدحونه ويسمع منهم ويصغي إليهم ويأمرهم بالردّ على المُشركين [٧ ب] فيقولون في ذلك ويعرضون عليه. وكان عليه السلام يذكر لهم بعض ذلك كالذي روي من أنه ﷺ قال لكعب: «ما نسي ربك وما كان ربك نسيّاً شعراً قلته». قال: وما هو يا رسول الله؟ قال: «أنشده يا أبا بكر» فأنشد أبو بكر رضوان الله عليه^(٣):

زعمت سَخِينَةً أن ستغلب ربّها وَلِيُغْلِبَنَّ مُغَالِبُ الغلاب^(٤)

= أن يمتلئ قلبه من الشعر حتى يغلب عليه فيشغله عن القرآن، وعن ذكر الله، فيكون الغالب عليه، فأما إذا كان القرآن والعلم الغالبين عليه فليس جوفه ممتلئاً من الشعر.

(١) روى الإمام أحمد في مسنده (٢٦٩/١) من حديث ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: «قال رسول الله ﷺ: إنَّ من الشعر حكماً ومن البيان سحراً». ومثله عند ابن ماجه. وفي البخاري، والترمذي، وأبي داود عن ابن عمر رضي الله عنهما: «إنَّ من البيان لسحراً» ورويت الجملة الأخرى من طرق أخرى. - وقد سقطت الجملة الأولى من (أ).

(٢) قول النبي ﷺ مشهور في كتب الحديث، والسيرة، وفي ترجمة حسان، وفي كتب الأدب والنقد.

وفي مسند الإمام أحمد (٧٢/٦) من حديث عائشة رضي الله عنها: «إنَّ الله عز وجل ليؤيّد حسان بروح القدس». وفيه من حديث البراء بن عازب: «اهجّ المشركين فإن روح القدس معك».

(٣) الخبر في ترجمة كعب بن مالك الأنصاري في الأغاني (١٦٨/١٦) وفي الشعر والشعراء (٢٢٢/١) والسيرة (٣٦١/٣).

(٤) البيت آخر قصيدة لكعب بن مالك في موقعة الخندق (سيرة ابن هشام ٣/٢٦١). وروايته ثمة. و (سخينة) لقب كانت تنبذ به قريش في الجاهلية. وأصل السخينة طعام.

وأما استنشاده إياه فكثير. من ذلك الخبر المعروف في استنشاده - حين استسقى فسقى - قول أبي طالب^(١):

وَأَبْيَضُ يُسْتَسْقَى الْغَمَامُ بِوَجْهِهِ ثِمَالُ الْبِتَامَى عِصْمَةٌ لِلْأَرَامِلِ
يُطِيفُ بِهِ الْهَلَاكُ مِنْ آلِ هَاشِمٍ فَهُمْ عِنْدَهُ فِي نِعْمَةٍ وَفَوَاضِلِ
... الأبيات.

وعن الشعبي رضي الله عنه عن مسروق عن عبد الله قال: لَمَّا نَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْقَتْلَى يَوْمَ بَدْرٍ مُصْرَعِينَ فَقَالَ ﷺ لِأَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَوْ أَنَّ أَبَا طَالِبٍ حَيٌّ لَعَلِمَ أَنَّ أَسْيَافَنَا قَدْ أَخَذَتْ بِالْأَنَامِلِ»^(٢) قال: وَذَلِكَ لِقَوْلِ أَبِي طَالِبٍ^(٣):

كَذَبْتُمْ وَبَيْتَ اللَّهِ إِنْ جَدَّ مَا أَرَى لَتَلْتَبِسْنَ أَسْيَافُنَا بِالْأَنَامِلِ
وَيَنْهَضُ قَوْمٌ فِي الدُّرُوعِ إِلَيْهِمْ نُهَوِّضُ الرُّوَايَا فِي طَرِيقِ حُلَاحِلِ
ومن المحفوظ في ذلك حديث محمد بن مسلمة الأنصاري^(٤) جمعه وابن

(١) أبو طالب عبد مناف بن عبد المطلّب، وهو عمّ النبي ﷺ (٨٥ ق.هـ - ٣ ق.هـ).

والبيت من قصيدة في السيرة النبوية (٢٧٦/١) ورواية البيت التالي:

يلوذ به الهلاف من آل هاشم فهم عنده في رحمة وفواضل
- والثمال: الملجأ، والهلاك جمع هالك، وهو الفقير طالب العطاء.

(٢) للخبر سياق آخر في السيرة النبوية (٢٨١/١).

(٣) البيتان من القصيدة الطويلة المنسوبة إلى أبي طالب. قال ابن هشام بعد تمام الأبيات: هذا ما صحّ لي من هذه القصيدة، وبعض أهل العلم بالشعر ينكر أكثرها. وللبيتين رواية أخرى في السيرة، وليسا متابعين:

وينهض قومٌ في الحديد إليكم نهوض الروايا تحت ذات الصّلاصلِ
وإنّا لعمر الله إن جدّ ما أرى لتلتبسْنَ أسيافنا بالأمانيلِ
وقوله: «لتلتبسْنَ أسيافنا بالأمانيلِ» أي لتختلطن بالأشراف بما تفتك بهم في المعارك. والروايا جمع راوية، وهو ما يستقى عليه من بغير وغيره. والصلاصل: المزدادات لها صلصلة بالماء.

(٤) محمد بن مسلمة الأنصاري الأوسي (ت ٤٦ هـ) وعبد الله بن أبي حذرد (ت ٧١ هـ).

أبي حذرد الأسلمي الطريق، قال: فتذاكرنا الشكرَ والمعروفَ. قال: فقال محمد: كُنَّا يوماً عند النبي ﷺ فقال لحسان بن ثابت: «أنشدني قصيدةً من شعرِ الجاهليةِ فإنَّ الله تعالى قد وضعَ عنا آثامها في شعرها وروايتها»، فأنشدَهُ قصيدةً للأعشى هجا بها علقمةَ بنَ عُلاثة^(١):

علقمُ ما أنتَ إلى عامرٍ الناقِضِ الأوتارَ والواترِ^(٢)

[٨] فقال النبي ﷺ: «يا حسان لا تعدُّ تُنشدني هذه القصيدة بعد مجليكَ هذا» فقال: يا رسول الله، تنهاني عن رجلٍ مشركٍ مقيمٍ عند قيصر؟ فقال النبي ﷺ: «يا حسان أشكرُ الناسِ أشكرُهم الله تعالى وإن قيصرَ سأل أبا سفيانَ بن حرب عني فتناول مني. (وفي خبرٍ آخر فشعثَ مني) وإنَّهُ سأل هذا عني فأحسن القول» فشكره رسول الله ﷺ على ذلك^(٣).

وروي من وجه آخر أنَّ حسان قال: يا رسول الله مَنْ نالتك يَدُه وجب علينا شكره.

- (١) علقمة بن علاثة (ت نحو سنة ٢٠) كان في الجاهلية من أشراف قومه. وله منافرة مشهورة مع عامر بن الطفيل وهما يلتقيان في الجد الثالث. وكان خلافهما على من يستحق منهما الرياسة في قومه.
- أسلم علقمة وارتدَّ ولحق بقيصر، ثم أسلم أيام أبي بكر الصديق رضي الله عنه وحسن إسلامه، وولي حوران لعمر بن الخطاب رضي الله عنه.
- (٢) في ديوان الأعشى:

عَلَقَمُ لَا لَسْتُ إِلَى عَامِرٍ النَّاقِضِ الْأُوتَارَ وَالْوَاتِرِ

يقول: يا علقمة إنك لا تُقاس إلى عامر ولا تُدانيه، الآخذ ثأره من الخصم، والتارك الثأر فيهم لا يأخذونه.

والقصيدة (ديوانه: ١٣٩) في تفضيل عامر بن الطفيل على علقمة. وعامر هو الذي غدر بالمسلمين سنة ٤ هـ ومات بدعاء النبي ﷺ ميتةً عذاب.

- (٣) في حاشية (ط): الحديث رواه ابن أبي الدنيا في قضاء الحوائج، وابن عساكر عن محمد بن مسلمة بلفظ مقارب لرواية المؤلف. قلت: وفي مسند الإمام أحمد (٢١٢/٥) من حديث الأشعث بن قيس: «إن أشكر الناس لله عزَّ وجلَّ أشكرهم للناس» وقوله ﷺ: «شعث مني» أي غَضَّ مني.

ومن المعروف في ذلك خبرُ عائشة رضوان الله عليها أنها قالت: كان رسول الله ﷺ كثيراً ما يقول: «أبياتك» فأقول^(١):

ارْفَعْ ضَعِيفَكَ لَا يَحْزُبُكَ ضَعْفُهُ يَوْمًا فَتَدْرِكُهُ الْعَوَاقِبُ قَدْ نَمَى
يَحْزِبُكَ أَوْ يُثْنِي عَلَيْكَ وَإِنْ مَنْ أَثْنَى عَلَيْكَ بِمَا فَعَلْتَ فَقَدْ جَزَى

قالت: فيقول عليه السلام: «يقول الله تبارك وتعالى لعبده من عبیده صنع إليك عبدي معروفاً فهل شكرته عليه؟ فيقول: يا رب علمتُ أنه منك فشكرتُك عليه، قال: فيقول الله عز وجل: لَمْ تَشْكُرْنِي إِذْ لَمْ تَشْكُرْ مِنْ أَجْرِيَّتُهُ عَلَى يَدِهِ».

وأما علمه عليه السلام بالشعر فكما رُوي أن سودة^(٢) أنشدت:

«عديّ وتيم تبتغي من تحالف»^(٣)

فظنت عائشة وحفصة رضي الله عنهما أنها عرّضت بهما وجرى بينهما كلامٌ في هذا المعنى. فأخبر النبي ﷺ فدخل عليهن وقال: «يا ويلكن! ليس في عديّكن ولا تيمكن قيل هذا. وإنما قيل هذا في عديّ تميم وتيم تميم». وتمام هذا الشعر، وهو لقيس بن معدان الكلبي من بني يربوع:

[٨ ب] فحالف ولا والله تهبط تلعةً من الأرض إلا أنت للذل عارفٌ

ألا من رأى العبدین أو ذُكرا له عديّ وتيم تبتغي من تحالف

(١) البيتان في ترجمة غريض اليهودي في الأغاني (١١١/٣) ونسبهما أبو الفرج للغريض أو ابنه. وذكر أنهما يرويان أيضاً لعدد من الشعراء فقل إنهما لزيد بن عمرو بن نفيل، وقيل لورقة بن نوفل، وقيل لزهير بن جناب وقيل لمدرج الرياح: عامر بن المجنون الجرمي.

(٢) أم المؤمنين سودة بنت زمعة العامرية رضي الله عنها. من المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة. تزوجها النبي ﷺ بعد خديجة رضي الله عنها. وتوفيت سنة ٥٤ هـ، وقيل: في آخر زمان عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

روى القالي الخبر في أماليه (١/٢٤١ - ٢٤٢) عن أبي بكر بن الأنباري، رواية أتم من هذه وزاد في الأبيات المروية. والسياق واحد. وانظر: السمط ٥٤٧

(٣) في قریش: تيم قریش منهم أبو بكر الصديق، وعديّ قریش منهم عمر بن الخطاب (انظر: اللباب ١/١٩١ و ٢/١٢٦).

وروى الزبير بن بكار قال: مرّ رسول الله ﷺ ومعه أبو بكر رضي الله عنه برجلٍ يقول في بعض أزقة مكة:

يا أيها الرجل المحوّل رَحْلَهُ هَلَا نزلت بآل عبد الدار

فقال النبي ﷺ: «يا أبا بكر أهكذا قال الشاعر؟» قال: لا يا رسول الله ولكنه قال^(١):

يا أيها الرجل المحوّل رَحْلَهُ هَلَا سألت عن آل عبد مناف

فقال رسول الله ﷺ: «هكذا كنّا نسمّوها».

وأما ارتياحه ﷺ للشعر واستحسانه له فقد جاء فيه الخبر من وجوه. من ذلك حديث النابغة الجعدي؛ قال: أنشدت رسول الله ﷺ قولي^(٢):

بَلَّغْنَا السَّمَاءَ مَجْدَنَا وَجُدودَنَا وَإِنَّا لَنَرُجُو فَوْقَ ذَلِكَ مَظْهَرَا

فقال النبي ﷺ: «أين المظهر يا أبا ليلى؟» فقلت: الجنة يا رسول الله. قال: «أجل إن شاء الله» ثم قال: «أنشدني» فأنشدته من قولي:

وَلَا خَيْرَ فِي حِلْمٍ إِذَا لَمْ تَكُنْ لَهُ بَوَادِرُ تَحْمِي صَفْوَهُ أَنْ يُكَدَّرَا^(٣)

وَلَا خَيْرَ فِي جَهْلٍ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ حَلِيمٌ إِذَا مَا أَوْرَدَ الْأَمْرَ أَضْدَرَا

فقال ﷺ: «أجذت لا يفضض الله فاك» قال الرازي: فنظرت إليه فكأن فاه البرد المنهل ما سقطت له سن ولا انفلتت ترفت غروبه^(٤).

(١) القائل: مطرود بن كعب الخزاعي، يرثي عبد المطلب جدّ نبينا ﷺ. (السيرة: ١٨٨).

(٢) الخبر في ديوان النابغة الجعدي (الصفحة م من المقدمة) وانظر مصادره ثمة.

(٣) النابغة الجعدي هو أبو ليلى قيس، وقيل: عبد الله بن قيس وقيل: حبان. من المعمرين: مخضرم، وله صحبة. أدرك إمرة عبد الله بن الزبير.

جعله ابن سلام في الطبقة الثالثة مع الشماخ وأبي ذؤيب وليبد.

البوادر جمع البادرة: ما يئدر من الرجل عند غضبه.

(٤) الانفلال: التلثم. والغروب: الأسنان.

- (وترف) سقطت من ب. ومعنى ترفت: تلمع. وترفت غروبه أي تلمع ثناياه.

[٩ أ] ومن ذلك حديث كعب بن زهير: رُوي أنَّ كعباً وأخاه بُجَيْراً خرجا إلى رسول الله ﷺ حتى بلغا أبرق العَرَاف^(١)، فقال كعب لبجير: إلق هذا الرجل وأنا مقيمٌ ههنا فانظر ما يقول. وقدم بُجَيْرٌ على رسول الله ﷺ فعرضَ عليه الإسلام فأسلم وبلغ ذلك كعباً، فقال في ذلك شعراً فأهدر النبي ﷺ دمه، فكتب إليه بُجَيْرٌ يأمره أن يُسلم ويقبل إلى النبي ﷺ، ويقول: إن مَنْ شهد أن لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسولُ الله قَبِلَ منه رسول الله ﷺ وأسقط ما كان قبل ذلك. قال: فقدم كعبٌ وأنشد النبي ﷺ قصيدته المعروفة^(٢):

بَانَتْ سَعَادُ فَقَلْبِي الْيَوْمَ مَتَبُولُ مُتَيِّمٌ إِثْرَهَا لَمْ يُفَدَ مَغْلُولُ^(٣)
وما سَعَادُ غَدَاةَ الْبَيْنِ إِذْ رَحَلْتُ إِلَّا أَغْنُ غَضِبُضُ الطَّرَفِ مَكْحُولُ
تَجْلُو عَوَارِضَ ذِي ظَلَمٍ إِذَا ابْتَسَمْتُ كَأَنَّهُ مُنْهَلٌ بِالرَّاحِ مَغْلُولُ^(٤)
سَخَّ السَّقَاةُ عَلَيْهَا مَاءٌ مَخْنِيَّةٌ مِنْ مَاءِ أَبْطَحِ أَضْحَى وَهُوَ مَشْمُولُ^(٥)
وَيْلُ أُمِّهَا خُلَّةٌ لَوْ أَنَّهَا صَدَقَتْ مَوْعُودَهَا أَوْ لَوْ أَنَّ النَّصْحَ مَقْبُولُ^(٦)

(١) أبرق العراف، سمي بذلك، زعموا، لأنهم يسمعون به عذيف الجن (أي أصواتها) قال البكري (معجم ما استعجم ٣/ ٩٤٠) وأبرق العراف يسرةً عن طريق الكوفة قريب من زرود.
(٢) الخبر مستفيض في السيرة، وفي تراجم كعب بن زهير في كتب الرجال وكتب الأدب. وهو في مقدمة ديوان كعب بن زهير (٣ - ٥).

(٣) القصيدة في أول الديوان ٦

- ورواية الديوان: لم يُجز مكبول. ومن النسخة (ب): لم يفد مكبول. و «متبول»: أتبله الحب: أسقمه وذهب بعقله. وتيمم الحب: استعبده وذهب بعقله.

(٤) العوارض: الأسنان وهي ما بين الثنية والضرس. والظلم: ماء الأسنان.

(٥) روى في الديوان:

شُجَّتْ بِذِي شَبِمٍ مِنْ مَاءٍ مَخْنِيَّةٍ صَافٍ بِأَبْطَحِ أَضْحَى وَهُوَ مَشْمُولُ

وقوله: بذى شيم أي بماء بارد. والمخنية ما انحنى من الوادي فيه رملٌ وحصى صغار.

(٦) في (أ) ولو أن:

وفي الديوان:

يا ويحها خُلَّةٌ لَوْ أَنَّهَا صَدَقَتْ مَا وَعَدَتْ أَوْ لَوْ أَنَّ النَّصْحَ مَقْبُولُ

حتى أتى على آخرها فلما بلغ مديح رسول الله ﷺ:

إن الرسولَ لَسيفٌ يُستضاءُ به مُهَنَّدٌ من سِيفِ الله مَنلُوهُ
في فِثْيَةٍ من قريشٍ قال قائلُهُم ببطنِ مَكَّةَ لَمَّا أَسْلَمُوا زُولُوا
زَالُوا فما زال أنكَاسٌ ولا كُشْفٌ عند اللقاء ولا ميلٌ معازيلُ^(١)
[٩ ب] لا يَقَعُ الظعنُ إلَّا في نحورِهِم وما بِهِم عن حِيَاضِ المَوْتِ تهليلُ^(٢)
شُمُ العَرَانِينِ أَبطالٌ لَبُوسُهُم من نَسَجِ داوُدَ في الهَيْجَا سَرايِلُ^(٣)

أشار رسول الله ﷺ إلى الحلقِ أن اسمعُوا. قال: وكان رسول الله ﷺ يكون من أصحابه مكانَ المائدة من القوم يتحلّقون حلقةً دونَ حلقةٍ فيلتفتُ إلى هؤلاء وإلى هؤلاء. والأخبارُ فيما يُشبه هذا كثيرةٌ والأثرُ به مُستفيض.

وإن زعم^(٤) أنه ذم الشعر من حيث هو موزونٌ مُقَفًى حتى كأنَّ الوزنَ عَيْبٌ وحتى كأنَّ الكلامَ إذا نُظِمَ نَظِمَ الشعر اتّضع في نفسه وتغيّرت حاله، فقد أبعد، وقال قولاً لا يُعرف له معنى وخالف العلماء في قولهم: «إنما الشعرُ كلامٌ حسنه حسنٌ وقبيحه قبيح»، وقد روي ذلك عن النبي ﷺ مرفوعاً أيضاً^(٥).

فإن زعم أنه إنما كره الوزن لأنه سببٌ لأن يُعْنَى في الشعر ويُتَلَهَّى به، فإنّا

(١) الكُشْفُ: الذين ينهزمون ولا يَثْبُتون. والمِيلُ: جمع الأميل وهو الذي لا يثبت على السَّرج. والنَّكسُ: الضعيف.

(٢) تهليل: تكذيب، يقال هلّل الرجل: إذا جن في حملته. وقيل: هلل: هرب.

(٣) البيت متقدم على سابقه في الديوان ثلاثة أبيات.

(٤) عودة الحديث إلى الحوار. راجع الفقرة الثانية من هذا الفصل.

(٥) انظره في عمدة ابن رشيقي (١ - ٢٧) في باب الردّ على من يكره الشعر. قال: روي عن النبي ﷺ: «إنما الشعر كلام مؤلف فما وافق الحق فهو حسن وما لم يوافق الحق منه فلا خير فيه». وقال عليه الصلاة والسلام: «إنما الشعر كلامٌ فمن الكلام خبيث وطيب».

وروي عن السيدة عائشة رضي الله عنها: الشعر فيه كلام حسن وقبيح، فخذ الحسن واترك القبيح.

إذا كنّا لم ندعُهِ إلى الشعر من أجل ذلك وإنّما دعوناهُ إلى اللَّفْظِ الجَزَلِ والقولِ الفُضْلِ، والمنطقي الحسن، والكلام البَيِّن، وإلى حُسن التَّمثِيل والاستعارة، وإلى التَّلويح والإشارة، وإلى صِنْعَةٍ تَعَمَّدُ إلى المعنى الخسيسِ فَتُشَرِّفُهُ، وإلى الضَّئِيلِ فَتَفْخُمُهُ، وإلى النازلِ فَتَرْفَعُهُ، وإلى الخاملِ فَتَنْوُهُ بِهِ، وإلى العاطِلِ فَتَحْلِيهِ، وإلى المُشْكِلِ فَتُجَلِّيهِ، فلا مُتَعَلِّقٌ لَهُ عَلَيْنَا بما ذَكَرَ، ولا ضَرَرٌ عَلَيْنَا أَنْكَرَ، فليَقُلْ في الوزن ما شاء، وليَضَعُهُ حيثُ أَرَادَ، فليس يعيننا أمرُهُ، ولا هو مُرَادنا من هذا الَّذي راجَعنا القولَ فيه، وهذا هو الجوابُ لِمُتَعَلِّقٍ إنْ تَعَلَّقَ بقوله تعالى^(١): ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ [يس: ٦٩/٣٦] [أ ١٠] وأَرَادَ أَنْ يجعله حِجَّةً في المنع من الشِّعْر، ومن حفظه وروايته، وذاك أَنَا نَعْلَمُ أَنَّهُ ﷺ لم يمنع الشِّعْرَ من أجل أنْ كان قولاً فصلاً، وكلاماً جَزْلاً، وَمَنْطَقاً حَسَناً وَبَيَاناً بَيِّناً، كيف؟ وذلك يقتضي أن يكون الله تعالى قد مَنَعَهُ البَيَانَ والبلاغة، وَحَمَاهُ الفَصَاحَةَ والبراعة، وجَعَلَهُ لا يَبْلُغُ مبلغَ الشُّعراءِ في حُسن العبارة وشَرَفِ اللَّفْظِ؟ وهذا جهلٌ عَظِيمٌ وخلافٌ لِمَا عَرَفَهُ العُلَماءُ وأَجْمَعُوا عَلَيْهِ من أَنَّهُ ﷺ كان أَفْصَحَ العَرَبِ، وإذا بَطُلَ أنْ يَكُونَ المنعُ من أجل هذه المعاني وَكُنَّا قد أَعْلَمْنَاهُ أَنَا ندعو إلى الشعر من أَجْلِهَا، وَنَحْذُو بِطَلْبِهِ عَلَى طَلِبِهَا، كان الاعتراضُ بِالآيَةِ مُحالاً، والتعلُّقُ بِهَا خَطِئاً مِنَ الرَّأْيِ وانحِلالاً.

فإن قال: إذا قال الله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ [يس: ٦٩/٣٦] فقد كَرِهَ للنَّبِيِّ ﷺ الشعرَ ونَزَّهَهُ عَنْهُ بلا شُبْهَةٍ. وهذه الكراهة وإنْ كانت لا تتوجَّهُ إِلَيْهِ من حيثُ هو كلامٌ ومن حيثُ إنه بليغٌ بَيِّنٌ وفَصِيحٌ حسن ونحو ذلك فإنها تتوجَّهُ إلى أمرٍ لا بدَّ لك من التَّلَبُّسِ بِهِ في طلبِ ما ذَكَرْتَ أَنَّهُ مُرَادك من الشعر وذاك أَنَّهُ لا سَبِيلَ لك إلى أن تَمَيِّزَ كونهُ كلاماً عن كونه شعراً حتى إذا رويته التَّبَسَّتَ بِهِ من حيثُ هو كلامٌ، ولم تَلْتَبَسْ بِهِ^(٢) من حيثُ هو شعر. وهذا محال؛ وإذا كان لا بدَّ لك من مُلابسة موضع الكراهة فقد لزم العيب برواية الشعر

(١) الآية: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ إِنَّهُ هُوَ إِلَّا ذَكَرْهُ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ.

(٢) كلمة «به» سقطت من (أ).

وإعمال اللسان فيه، قيل له: هذا منك كلام لا يتحصّل وذلك أنه لو كان الكلام إذا وزن حظ ذلك من قدره وأزرى به وجلب على المفزع له في ذلك القالب إثمًا، وكسبه ذمًا، لكان من حق العيب فيه أن يكون [١٠ ب] على واضح الشعر أو من يريده لمكان الوزن خصوصاً دون من يريده لأمر خارج عنه، ويطلبه لشيء سواه، فأما قولك: إنك لا تستطيع أن تطلب من الشعر ما لا يُكره حتى تلتبس بما يُكره فإني إذا لم أقصده من أجل ذلك المكروه، ولم أرد له، وأردته لأعرف به مكان بلاغة، وأجعلهُ مثلاً في براعة، أو أحتج في تفسير كتاب وسنة، وأنظر إلى نظمه ونظم القرآن، فأرى موضع الإعجاز وأقف على الجهة التي منها كان، وأتبيّن الفصل والفرقان، فحق هذا التلبس أن لا يُعتد عليّ وأن لا أواخذ به، إذ لا تكون مؤاخذه حتى يكون عمداً إلى أن تُواقع المكروه وقصداً إليه.

وقد تتبّع العلماء الشعوذة والسحر وعُنوا بالتوقّف على حيل المموهين ليعرفوا فرق ما بين المعجزة والحيلة، فكان ذلك منهم من أعظم البر، إذ كان الغرض كريماً والقصد شريفاً.

هذا، وإذا نحن رجعنا إلى ما قدّمناه من الأخبار، وما صحّ من الآثار، وجدنا الأمر على خلاف ما ظنّ هذا السائل ورأينا السبيل في منع النبي ﷺ الوزن؛ وأن ينطلق لسانه بالكلام الموزون غير ما ذهبوا إليه، وذاك لو كان منع تنزيه وكرهية^(١) لكان ينبغي أن يُكره له سماع الكلام موزوناً، وأن يُنزّه سمعه عنه كما نُزّه لسانه؛ ولكان ﷺ لا يأمر به ولا يحث عليه؛ وكان الشاعر لا يُعان على وزن الكلام وصياغته شعراً ولا يؤيد فيه بروح القدس.

وإذا كان هذا كذلك فينبغي أن يُعلم أن ليس المنع في ذلك منع تنزيه وكرهية بل سبيل الوزن في منعه عليه السلام إياه سبيل الخط حين جعل عليه السلام لا يقرأ ولا يكتب في أن لم يكن المنع من أجل كراهية كانت في الخط

(١) في (ب): وكرهية.

- أي وكرهية للوزن الشعري.

بل [١١ أ] لأن تكون الحُجَّةُ أبهرَ وأقهرَ والدَّلالةُ أقوى وأظهرَ، ولتكون أكرمَ^(١) للجاحد وأقمعَ للمُعاند وأردَّ لطالب الشُّبهة، وأمنَعَ من ارتفاع الرِّيبة^(٢).

وأما التعلُّق بأحوال الشعراء بأنهم قد ذُوموا في كتابِ الله تعالى فما أرى عاقلاً يرضى به أن يجعله حُجَّةً في ذمِّ الشعرِ وتَهجينه، والمنع من حفظه وروايته، والعلم بما فيه من بلاغة، وما يختصُّ به من أدبٍ وحكمة، ذاك لأنه يلزمُ على قَوْدٍ^(٣) هذا القول أن يعيب العلماء في استشهادهم بشعر امرئ القيس وأشعار أهل الجاهليَّة في تفسير القرآن وفي غريبه وغريب الحديث، وكذلك يلزمه أن يدفع ما تقدَّم ذكره من أمر النبي ﷺ بالشعر وإصغائه إليه واستحسانه له. هذا ولو كان يسوغُ ذمَّ القول من أجلِ قائله، وأن يُحمَلَ ذنبُ الشاعرِ على الشعرِ لكان ينبغي أن يُخصَّصَ ولا يُعمَّ وأن يُستثنى فقد قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الشعراء: ٢٢٧/٢٦]^(٤) ولولا أنَّ القول يجرُّ بعضه بعضاً وأنَّ الشيء يُذكر لدخوله في القِسمة لكان حقُّ هذا ونحوه أن لا يُشاغلَ به وأن لا يُعادَ ويبدأ في ذكره.

وأما زهدهم في النَّحو واحتقارهم له وإصغارهم أمره وتهاونهم به فصنيعهم في ذلك أشنعُ من صنيعهم في الذي تقدَّم، وأشبهُ بأن يكونَ صدأً عن كتاب الله وعن معرفة معانيه. ذاك لأنهم لا يجدونُ بدءاً من أن يَعترفُوا بالحاجة إليه فيه إذ كان قد علِمَ أن الألفاظ مغلقةٌ على معانيها حتَّى يكونَ الإعرابُ هو الذي يفتحها، وأنَّ الأغراضَ كامنةً فيها حتَّى يكونَ هو المستخرج لها، وأنه المعيارُ الذي لا يتبيَّن نقصانُ كلامٍ ورجحانه حتَّى يُعرضَ عليه، والمقياسُ الذي [١١ ب]

(١) كعم البعير: شدَّ فاه في هياجه لثلا يعضُّ أو يأكل.

(٢) في (ب): من ارتفاع. وفي (ط): في ارتفاع.

(٣) القود لغة القصاص. ومقصود المؤلف: على جريرة هذا القول، وبناء عليه.

(٤) الآية في سياقها من الآيات الكريمة: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْفَأْوَنُ﴾ [٢٢٧] أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٨﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ [الشعراء: ٢٢٤/٢٦-٢٢٧]..

لا يُعرف صحيحٌ من سقيم حتى يُرجع إليه. ولا يُنكرُ ذلك إلا من نُكرَ حسّه، وإلا من غالط في الحقائقِ نَفْسُهُ، وإذا كان الأمر كذلك فليت شعري ما عذرٌ من تهاوّن به وزهد فيه ولم يرَ أن يستسقيهُ من مَصَبِّه، ويأخذهُ من معدِنه، ورضي لنفسه بالنقص، والكمالُ لها معرضٌ، وآثر الغيبة وهو يجدُ إلى الرّيح سبيلاً؟!!

فإن قالوا: إنا لم نأبِ صِحةَ هذا العلم، ولم ننكر مكانَ الحاجةِ إليه في معرفةِ كتابِ الله تعالى وإنما أنكرنا أشياءً كثُرتموه بها، وفُضِّلَ قولُ تكلفتموها، ومسائلَ عويصةً تجسّمتمُ الفكرَ فيها، ثم لم تحصلوا على شيءٍ أكثرَ من أن تُغريُوا على السّامعين. وتعايوا بها الحاضرين، قيل لهم: خَبَرْنَا عما زعمتم أنّه فضولٌ قولٍ وعويصٌ لا يعودُ بطائلٍ ما هو؟ فإن بدؤوا فذكروا مسائلَ التصريف التي يَضَعُها التّحويون للرياضة ولضرب من تمكين المقاييس في النفوس كقولهم كيف تَبْنِي من كذا كذا؟ وكقولهم ما وَزن كذا؟ وتَتَّبِعُهُم في ذلك الألفاظ الوحشيّة كقولهم: ما وَزنُ عِزْوِيْت^(١) وما وَزن أَرْوَنان؟ وكقولهم في باب ما لا ينصرف: لو سَمِيت رجلاً بكذا كيف يكون الحُكم وأشباهُ ذلك؟. وقالوا: أَتَشْكُون أن ذلك لا يُجدي إلا كَدَّ الفكر وإضاعة الوقت؟ قلنا لهم: أمّا هذا الجنس فلسنا نعيبكم إن لم تنظروا فيه ولم تُغنُوا له وليس يَهُمُّنا أمرُهُ فقولوا فيه ما شئتم، وضَعُوهُ حيث أردتم، فإن تركوا ذلك وتجاوزوه إلى الكلام على أغراض واضع اللّغة وعلى وجهِ الحِكمة في الأوضاع وتقريرِ المقاييس التي اظردت عليها وذكرِ العِلَلِ التي اقتضت أن تجري على ما أُجريت عليه كالقول [١٢] في المعتلّ وفيما يلحقُ الثلاثة التي هي الواو والياء والألف من التغير بالإبدال والحذف والإسكان. أو ككلامنا مثلاً على التثنية وجمع السّلامة: لِمَ كان إعرابُهُما على خلافِ إعراب الواحد؟ ولمَ تَبِعَ النّصبُ فيهما الجَرَ؟ وفي النون أنه عِوضٌ عن الحركة والتنوين في حالٍ وعن الحركة وحدها في حال؛ والكلام على ما ينصرف وما لا ينصرف، ولم كان منع الصّرف؟ وبيان العلّة فيه.

(١) عزويت: على وزن عفريت، معناه القصير، ووزنه فعليت. وأرونان وزنه أفوعال من الرّنين. وقيل: أعلان من قولهم: كشف الله عنك رؤية هذا الأمر أي غمته وشدته.

والقول على الأسباب التسعة وأنها كلها ثوانٍ لأصول. وأنه إذا حصل منها اثنان في العلم أو تكرر سبب صار بذلك ثانياً من جهتين وإذا صار كذلك أشبه الفعل لأن الفعل ثانٍ للاسم والاسم المقدم والأول وكل ما جرى هذا المجرى - قلنا إنا نسكت عنكم في هذا الضرب أيضاً ونعذرکم فيه ونسامحكم على علم متا بأن قد أسأتم الاختيار، ومنعتم أنفسكم ما فيه الحظ لكم ومنعتموها الاطلاع على مدارج الحكمة وعلى العلوم الجمّة. فدعوا ذلك وانظروا في الذي اعترفتم بصحته وبالحاجة إليه هل حصلتموه على وجهه؟ وهل أحطتم بحقائقه؟ وهل وقّيت كل باب منه حقّه وأحكمتموه إحكاماً يؤمنكم الخطأ فيه إذا أنتم خضتم في التفسير، وتعاطيتم علم التأويل، ووازنتم بين بعض الأقوال وبعض، وأردتم أن تعرفوا الصحيح من السقيم. وعُدتُم في ذلك وبدأتُم، وزدتم ونقصتم؟ وهل رأيتم إذ قد عرفتُم صورة المبتدأ والخبر وأن إعرابهما الرفع أن تتجاوزوا ذلك إلى أن تنظروا في أقسام خبره فتعلموا أنه يكون مفرداً وجُملة، وأن المفرد ينقسم إلى ما يحتمل ضميراً له وإلى ما لا يحتمل الضمير، وأن الجملة على أربعة أضرب، وأنه لا بد لكل جملة وقعت خبراً لمبتدأ من أن يكون فيها ذكرٌ يعود إلى المبتدأ، وأن هذا [١٢ ب] الذكر ربما حذف لفظاً وأريد معنى. وأن ذلك لا يكون حتى يكون في الحال دليلٌ عليه إلى سائر ما يتصل بباب الابتداء من المسائل اللطيفة والفوائد الجليلة التي لا بُدّ منها؟ وإذا نظرتم في الصفة مثلاً فعرفتُم أنها تتبع الموصوف وأن مثالها قولك: جاءني رجلٌ ظريفٌ ومررت بزيد الظريف، هل ظننتُم أن وراء ذلك علماً وأن ههنا صفةٌ تُخصّص صفةً توضح وتبين، وأن فائدة التخصيص غيرُ فائدة التوضيح كما أن فائدة الشّياح^(١) غيرُ فائدة الإبهام. وأن من الصفة صفةٌ لا يكون فيها تخصيصٌ ولا توضيحٌ ولكن يؤتى بها مؤكدة كقولهم: أمس الدّابرُ وكقوله تعالى^(٢): ﴿إِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ [الحاقة: ١٣/٦٩] وصفة يُراد بها المدحُ والثناء كالصفات الجارية على اسم الله تعالى جدّه؟ وهل

(١) شاع شيوخاً وشباعاً: ظهر.

(٢) في التنزيل العزيز: ﴿إِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ وَجُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً

﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ [الحاقة: ١٣/٦٩-١٥].

عرفتم الفرق بين الصفة والخبر وبين كل واحدٍ منها وبين الحال؟ وهل عرفتم أن هذه الثلاثة تتفق في أن كافتها لثبوت المعنى للشيء ثم تختلف في كيفية ذلك الثبوت؟

وهكذا ينبغي أن تعرض عليهم الأبواب كلها واحداً واحداً ويسألوا عنها باباً باباً، ثم يقال: ليس إلا أحد أمرين، إما أن تفتحوها التي لا يرضاها العاقل فتذكروا أن يكون بكم حاجة في كتاب الله تعالى، وفي خبر رسول الله ﷺ، وفي معرفة الكلام جملة إلى شيء من ذلك وتزعموا أنكم إذا عرفتم مثلاً أن الفاعل رفع لم يبق عليكم في باب الفاعل شيء تحتاجون إلى معرفته، وإذا نظرتم إلى قولنا: «زيدٌ منطلق»، لم تحتاجوا من بعده إلى شيء تعلمونه في الابتداء والخبر. وحتى تزعموا مثلاً أنكم لا تحتاجون في أن تعرفوا وجه الرفع في (الصابثون)^(١) في سورة المائدة إلى ما قاله العلماء فيه، وإلى استشهادهم بقول الشاعر^(٢):

[١٣] وَإِلَّا فاعَلُمُوا أَنَا وَأَنْتُمْ بُغَاةٌ مَا بَقَيْنَا فِي شِقَاقِ

وحتى كأن المُشكِـلَ على الجميع غيرُ مُشكِـلٍ عنـدكم. وحتى كأنكم قد أُوتِيتُم أن تستنبطوا من المسألة الواحدة من كل باب مسائله كلها فتخرجوا إلى فنٍّ من

(١) والآية الكريمة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّالِحِينَ وَالصَّالِحِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

- راجع وجوه إعراب (والصابثون) في الإنصاف لابن الأنباري ١٨٥/١ - ١٨٩

(٢) ديوان بشر بن أبي خازم، وفيه:

بغاةٌ ما حبينا في شِقَاقِ

من قصيدة يهجو بها أوس بن حارثة وقبل البيت:

فإن جُرِّتْ نواصي آل بدر فأدوها وأسرى في الوثاقِ

قال في الإنصاف (١٩٠/١) في إعراب (بغاة): إن شئت جعلت قوله (بغاة) خبراً للثاني وأضمرت للأول خبراً ويكون التقدير: وإلا فاعلموا أننا بغاة وأنتم بغاة. وإن شئت جعلته خبراً للأول وأضمرت للثاني خبراً.

- ويتدّرّد هذا البيت شاهداً في كتب النحو. والشاهد فيه العطف على محلّ اسم إن بعد مضي الخبر.

التَّجَاهُلُ لَا يَبْقَىٰ مَعَهُ كَلَامٌ، وَإِنَّمَا أَنْ تَعْلَمُوا أَنْكُمْ قَدْ أَخْطَأْتُمْ حِينَ أَصْغَرْتُمْ أَمْرَ هَذَا الْعِلْمِ وَظَنَنْتُمْ مَا ظَنَنْتُمْ فِيهِ فَتَرْجِعُوا إِلَى الْحَقِّ وَتُسَلِّمُوا الْفَضْلَ لِأَهْلِهِ وَتَدْعُوا الَّذِي يُزِرِّي بِكُمْ وَيَفْتَحُ بَابَ الْعَيْبِ عَلَيْكُمْ، وَيُطِيلَ لِسَانَ الْقَادِحِ فِيكُمْ. وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقِ.

هذا - ولو أنَّ هؤلاء القوم إذ تركوا هذا الشَّانَ تركوه جملةً وإذ زعموا أنَّ قَدْرَ المفتقرِ إليه القليلُ منه ولم يَخُوضُوا فِي التَّفْسِيرِ وَلَمْ يَتَعَاظُوا التَّأْوِيلَ لَكَانَ الْبَلَاءُ وَاحِدًا وَلَكَانُوا إِذْ لَمْ يَبْنُوا لَمْ يَهْدِمُوا وَإِذْ لَمْ يُصْلِحُوا لَمْ يَكُونُوا سَبَبًا لِلْفَسَادِ وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَفْعَلُوا. فَجَلِبُوا مِنَ الدَّاءِ مَا أَغْنَى الطَّبِيبُ، وَخَيَّرَ اللَّبِيبُ، وَانْتَهَى التَّخْلِيطُ بِمَا أَتَوْهُ فِيهِ، إِلَى حَدِّ يُؤْسَ مِنْ تَلَاْفِيهِ، فَلَمْ يَبْقَ لِلْعَارِفِ الَّذِي يَكْرَهُ الشَّغْبَ إِلَّا التَّعَجُّبُ وَالسَّكُوتُ. وَمَا الْآفَةُ الْعُظْمَى إِلَّا وَاحِدَةٌ وَهِيَ أَنْ يَجِيءَ مِنَ الْإِنْسَانِ أَنْ يَجْرِيَ لَفْظُهُ، وَيَمْشِي^(١) لَهُ أَنْ يَكْثُرَ فِي غَيْرِ تَحْصِيلٍ، وَأَنْ يُحَسِّنَ الْبِنَاءَ عَلَى غَيْرِ أُسَاسٍ، وَأَنْ يَقُولَ الشَّيْءَ لَمْ يَقْتُلْهُ عِلْمًا. وَنَسْأَلُ اللَّهَ الْهُدَايَةَ وَنَرْغُبُ إِلَيْهِ فِي الْعَصْمَةِ.

ثم إنا وإن كُنَّا فِي زَمَانٍ هُوَ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنْ إِحَالَةِ الْأُمُورِ عَنْ جِهَاتِهَا، وَتَحْوِيلِ الْأَشْيَاءِ عَنْ حَالَاتِهَا، وَنَقْلِ النُّفُوسِ عَنْ طِبَاعِهَا، وَقَلْبِ الْخَلَائِقِ الْمَحْمُودَةِ إِلَى أَضْدَادِهَا، وَدَهْرِ لَيْسَ لِلْفَضْلِ وَأَهْلِهِ لَدَيْهِ إِلَّا الشَّرُّ صِرْفًا وَالْغِيْظُ بَحْثًا، وَإِلَّا مَا يُدْهَشُ عَقُولَهُمْ، وَيَسْلُبُهُمْ [ب ١٣] مَعْقُولَهُمْ، حَتَّى صَارَ أَعْجَزُ النَّاسِ رَأْيًا عِنْدَ الْجَمِيعِ مَنْ كَانَتْ لَهُ هِمَّةٌ فِي أَنْ يَسْتَفِيدَ عِلْمًا، أَوْ يَزْدَادَ فَهْمًا، أَوْ يَكْتَسِبَ فَضْلًا، أَوْ يَجْعَلَ لَهُ ذَلِكَ بِحَالٍ شُغْلًا، فَإِنَّ الْإِلْفَ مِنْ طِبَاعِ الْكَرِيمِ، وَإِذَا كَانَ مِنْ حَقِّ الصَّدِيقِ عَلَيْكَ وَلَا سِيَّما إِذَا تَقَادَمَتْ صُحْبَتُهُ وَصَحَّتْ صِدَاقَتُهُ، أَنْ لَا تَجْفُوهُ بِأَنْ تَنْكُبَكَ الْأَيَّامُ، وَتُضْجِرَكَ النَّوَائِبُ، وَتُحَرِّجَكَ مَحَنُ الزَّمَانِ، فَتَتَنَاسَاهُ جُمْلَةً، وَتَطْوِيهِ طَيًّا، فَالْعِلْمُ الَّذِي هُوَ صَدِيقٌ لَا يَحُولُ عَنِ الْعَهْدِ،

(١) أي: يكثر كلامه في غير طائل.

- و «يمشي» هي كذلك في الأصول. وقرأها في طبعة (غ). و «يمنى» أي يقدر.

ولا يُدْغِلُ في الود، وصاحبٌ لا يصحُّ عليه التَّكْثُّ والغَدْر، ولا يُظَنُّ به الخيانةُ والمكر، أولى^(١) منه بذلك وأجدرُ، وحَقُّه عليك أكبر.

ثم إن التَّوَقُّ إلى أن تَقَرَّ الأمور قرارها، وتوضَعَ الأشياءُ مواضعها، والنِّزاعُ إلى بيان ما يُشكَل، وحَلُّ ما يَنعقد، والكشف عما يَخفى، وتلخيص الصِّفة حتى يزدادَ السَّامِعُ ثَقَّةً بِالْحُجَّةِ، واستظهاراً على الشُّبْهَةِ، واستبانةً للدَّليْلِ، وتَبَيُّناً للسَّبِيلِ، شيءٌ في سَوْسِ الْعَقْلِ^(٢)، وفي طباعِ النَّفْسِ إذا كانت نَفْساً. ولم أزل منذُ خَدَمْتُ الْعِلْمَ أَنْظُرُ فيما قاله العلماء في معنى الفصاحة والبلاغة، والبيان والبراعة، وفي بيان الْمَغْزَى من هذه العبارات وتفسير الْمُرَاد بها، فأجد بعض ذلك كالرَّمز والإيماء، والإشارة في خَفَاء، وبعضه كالتَّبْيِيهِ على مكان الخبيء لِيُطْلَب، ومَوْضِعِ الدَّفِينِ لِيُبْحَثَ عنه فَيُخْرَجَ، وكما يَفْتَحُ لك الطَّرِيقَ إلى المطلوب لتسلكه، وتوضيح لك القاعدة لتبني عليها، ووجدت الْمُعْوَلَ على أن ههنا نَظْماً وترتيباً، وتاليفاً وتركيباً، وصياغةً وتصويراً، ونَسْجاً وتحبيراً، وأن سبيل هذه المعاني في الكلام الذي هي مجاز فيه سبيلها في الأشياء التي هي حقيقة فيها وأنه كما يفضلُ هناك النَظْمُ النَظْمَ [١٤ أ]، والتأليفُ التَّأْلِيفَ، والنَّسْجُ النَّسْجَ، والصَّيَاغَةُ الصَّيَاغَةَ، ثم يعظم الفضل، وتكثرُ المزية، حتى يفوقُ الشَّيْءُ نظيره. والمجانس له درجات كثيرة وحتى تتفاوتَ الْقِيَمُ التَّفَاوُتَ الشَّدِيدَ. كذلك يفضلُ بعضُ الكلام بعضاً ويتقدَّم منه الشَّيْءُ الشَّيْءَ. ثم يزدادُ فضله ذلك ويرتقى منزلةً فوق منزلةً، ويعلو مَرَقَباً بعد مَرَقَبٍ^(٣). وتُسْتَأْنَفُ له غايةٌ بعد غاية، حتى ينتهي إلى حيث تنقطعُ الْأَطْمَاعُ، وتُخَسَّرُ الظُّنُونُ، وتَسْقُطُ الْقَوَى، وتستوي الْأَقْدَامُ في الْعَجْزِ.

وهذه جملةٌ قد يرى في أَوَّلِ الْأَمْرِ وبدايِ الظن أنها تكفي وتغني. حتى إذا نظرنا فيها وَعُدْنَا وَبَدَأْنَا وجدنا الأمر على خِلاف ما حَسِبْنَاهُ، وصادفنا الْحَالَ على غير ما تَوَهَّمْنَاهُ، وعلمنا أَنَّهُمْ لئن أَقْصَرُوا اللَّفْظَ لَقَدْ أَطَالُوا الْمَعْنَى، وإن لم

(١) أي العلم أولى بما ذكر من الصديق.

(٢) السوس: العقل.

(٣) المرقب: الموضع المشرف يرتفع عليه الرَّقِيب. والجمع مراقب. ومثل المرقب: المراقبة.

يُغرقوا في التزع^(١) لقد أبعدوا على ذاك في المزمى، وذاك لأنه يقال لنا: ما زدتم على أن قسّم قياساً فقلتم نَظْمٌ ونَظْمٌ، وترتيبٌ وترتيبٌ، ونَسَجٌ ونَسَجٌ. ثم بنيتم عليه أنه ينبغي أن تظهرَ المزيةُ في هذه المعاني ها هنا حسب ظهورها هناك. وأن يَعْظُمَ الأمرُ في ذلك كما عَظُمَ ثم، وهذا صحيح كما قلتم. ولكن بقي أن نُعلمونا مكان المزية في الكلام وتَصِفُوها لنا وتذكروها ذكراً كما يُنصّ الشيء ويُعيّن، ويكشف عن وجهه ويُبيّن، ولا يكفي أن تقولوا «إنه خصوصيةٌ في كيفية النّظم، وطريقةٌ مخصوصةٌ في نسق الكلام بعضها على بعض» حتى تصفوا تلك الخصوصية وتبينوها. وتذكروا لها أمثلةً وتقولوا «مثل كيت وكيت»، كما يذكر لك من تستوصفه عملَ الدّيباج المُنقّش ما تعلم به وجه دقة الصّنع، أو يعمله بين يديك حتى ترى عياناً كيف [١٤ ب] تذهب تلك الخيوط وتجيء وماذا يذهب منها طويلاً وماذا يذهب منها عرضاً وبِمَ يبدأ وبِمَ يُثني وبِمَ يُثلك. وتبصر من الحساب الدّقيق ومن عجيب تصرف اليد ما تعلم منه مكان الجذقي وموضع الأستاذية. ولو كان قول القائل لك في تفسير الفصاحة إنها خصوصيةٌ في نظم الكلم وضّم بعضها إلى بعض على طريق مخصوصة أو على وجوه تظهر بها الفائدة، أو ما أشبه ذلك من القول المجمل كافياً في معرفتها ومُغنياً في العلم بها لكفى مثله في معرفة الصّناعات كُلّها فكان يكفي في معرفة نسج الدّيباج الكثير التّساوير أن^(٢) يُعلّم أنه ترتيبٌ للغزل على وجوه مخصوصٍ وضّم لطاقات الإبريسم^(٣) بعضها إلى بعض على طُرُقٍ شتى، وذلك ما لا يقوله عاقل!

وجملة الأمر أنك لن تعلم في شيء من الصّناعات علماً تُمرّ فيه وتُحلي^(٤) حتى تكون ممن يعرف الخطأ فيها من الصّواب ويفصل بين الإساءة والإحسان، بل حتّى تُفاضل بين الإحسان والإحسان. وتعرف طبقات المُحسنين.

(١) أغرق الرّامي في القوس: استوفى مدّها. ونزع في القوس: مدّها.

(٢) في (ب) و (ط): تعلم.

(٣) الإبريسم: حسن التحرير. والكلمة من المعرّب.

(٤) قولهم: فلان لا يمرّ ولا يُحلي أي لا يقول، أو لا يفعل حلوّاً ولا مُراً. والمقصود:

لا ينفع ولا يضرّ.

وإذا كان هذا هكذا علمت أنه لا يكفي في علم الفصاحة أن تنصب لها قياساً، وأن تصنفها وصفاً مُجَمَّلاً، وتقول فيها قولاً مُرسلاً، بل لا تكون من معرفتها في شيء حتى تُفَضِّل القول وتُحَصِّل، وتضع اليد على الخصائص التي تعرض في نظم الكلم وتعدّها واحدةً واحدةً، وتسمّيها شيئاً شيئاً، وتكون معرفتك معرفة الصَّنَع^(١) الحاذق الذي يعلم علم كلّ خيط من الإبريسم الذي في الدُّبَّاج وكلّ قطعة من القطع المنجورة في الباب المُقَطَّع^(٢)، وكلّ أَجْرَة من الأجر الذي في البناء البديع.

وإذا نظرت إلى الفصاحة هذا النظر، وطلبتّها هذا الطلب، احتجّت إلى صبر على التأمل، ومواظبة على التدبُّر [١٥] وإلى همّة تأبى لك أن تقنع إلا بالتمام، وأن تَرْبَعَ^(٣) إلا بعد بلوغ الغاية.

ومتى جَسِمْتَ^(٤) ذلك، وأبيت إلا أن تكون هنالك، فقد أمت^(٥) إلى غرض كريم، وتعرّضت لأمر جسيم، وأثرت التي هي أتمّ لدينك وفضلك، وأنبل عند ذوي العقول الراجحة لك، وذلك أن تعرف حُجّة الله تعالى من الوجه الذي هو أضوأ لها وأنوّه لها^(٦)، وأخلق بأن يزداد نورها سطوعاً، وكوكبها طلوعاً، وأن تسلك إليها الطريق الذي هو آمن لك من الشك، وأبعد من الريب، وأصحّ لليقين، وأحرى بأن يُبلِّغك قاصية التبيين.

وأعلم أنه لا سبيل إلى أن تعرف صحّة هذه الجملة حتى يبلغ القول غايته وينتهي إلى آخر ما أردت جمعه لك، وتصويره في نفسك، وتقريره عندك، إلا أن

(١) يقال: رجلٌ صَنَعَ، وصنَّعُ اليدين: أي حاذقٌ في الصنعة.

(٢) يريد بالباب المقطع: المؤلف من قطع (كثيرة) من الخشب. يخرج من حسن تجميعها وترتيبها باب مزخرف مزين تظهر به دقة الصنعة.

(٣) رَبَعَ: وقف، وانتظر.

(٤) جَسَم الأمر: تكلفه على مشقة.

(٥) أَمَّ (يؤم): أي قصد.

(٦) ناء: علا وارتفع. ومنه التنويه بالشيء: الإشادة.

هَهُنَا نَكْتَةً إِنْ أَنْتَ تَأَمَّلْتَهَا تَأَمَّلَ الْمُتَثَبِتَ، وَنَظَرْتَ فِيهَا نَظَرَ الْمُتَأَنِّي. رَجَوْتُ أَنْ يَخْسُنَ ظَنُّكَ، وَأَنْ تَنْشَطَ لِلْإِصْغَاءِ إِلَى مَا أَوْرَدَهُ عَلَيْكَ، وَهِيَ أَنَا إِذَا سُقْنَا دَلِيلَ الْإِعْجَازِ فَقُلْنَا: لَوْلَا أَنَّهُمْ حِينَ سَمِعُوا الْقُرْآنَ؛ وَحِينَ تُحَدُّوْا إِلَى مَعَارَضَتِهِ سَمِعُوا كَلَاماً لَمْ يَسْمَعُوا قَطُّ مِثْلَهُ، وَأَنَّهُمْ قَدْ رَازُوا^(١) أَنْفُسَهُمْ فَأَحْسُوا بِالْعَجْزِ عَنْ أَنْ يَأْتُوا بِمَا يُوَازِيهِ أَوْ يُدَانِيهِ، أَوْ يَقَعُ قَرِيباً مِنْهُ، لَكَانَ مُحَالاً أَنْ يَدْعُوا مَعَارَضَتَهُ وَقَدْ تُحَدُّوْا إِلَيْهِ، وَفَرَّغُوا فِيهِ، وَطُوبِلُوا بِهِ، وَأَنْ يَتَعَرَّضُوا لَشِبَابِ^(٢) الْأُسْنَةِ، وَيَسْتَقْحَمُوا مَوَارِدَ الْمَوْتِ، فَقِيلَ لَنَا: قَدْ سَمِعْنَا مَا قَلْتُمْ، فَخَبَّرُونَا عَنْهُمْ عَمَّاذَا عَجَزُوا؟ أَعَنْ مَعَانٍ فِي دِقَّةِ مَعَانِيهِ وَحُسْنِهَا وَصِحَّتِهَا فِي الْعُقُولِ؟ أَمْ عَنْ أَلْفَافٍ مِثْلِ أَلْفَافِهِ؟ فَإِنْ قَلْتُمْ (عَنِ الْأَلْفَافِ) فَمَاذَا أَعْجَزَهُمْ مِنَ اللَّفْظِ أَمْ مَا بَهَرَهُمْ مِنْهُ؟ فَقُلْنَا: أَعْجَزَتْهُمْ مَزَايَا ظَهَرَتْ لَهُمْ فِي نَظْمِهِ، وَخِصَائِصُ صَادِفُوهَا فِي سِيَاقِ لَفْظِهِ [١٥ ب] وَبِدَائِعُ رَاعَتِهِمْ مِنْ^(٣) مَبَادِئِ آيِهِ وَمَقَاطِعِهَا، وَمَجَارِي أَلْفَافِهَا وَمَوَاقِعِهَا، وَفِي مَضْرَبِ كُلِّ مِثْلٍ، وَمَسَاقِ كُلِّ خَبِيرٍ، وَصُورَةِ كُلِّ عَظْمَةٍ وَتَنْبِيهِ وَإِعْلَامٍ، وَتَذَكِيرٍ وَتَرْغِيبٍ وَتَرْهِيْبٍ، وَمَعَ كُلِّ حُجَّةٍ وَبُرْهَانٍ، وَصِفَةٍ وَتَبْيَانٍ، وَبَهَرِهِمْ أَنَّهُمْ تَأْمَلُوهُ^(٤) سُوْرَةً سُوْرَةً، وَعَشْرًا عَشْرًا وَآيَةً آيَةً، فَلَمْ يَجِدُوا فِي الْجَمِيعِ كَلِمَةً يَنْبُو بِهَا مَكَانُهَا، وَلَفْظَةً يَنْكُرُ شَأْنُهَا أَوْ يَرَى أَنَّ غَيْرَهَا أَصْلَحُ هُنَاكَ أَوْ أَشْبَهُ، أَوْ أُخْرَى وَأَخْلَقَ. بَلْ وَجَدُوا اتِّسَاقاً بَهِرَ الْعُقُولِ، وَأَعْجَزَ الْجُمْهُورِ. وَنِظَاماً وَالتَّامَّاً وَاتِّقَاناً وَإِحْكَاماً. لَمْ يَدْعُ فِي نَفْسٍ بَلِيغٍ مِنْهُمْ وَلَوْ حَكَّ بِيَا فَوْخِهِ السَّمَاءُ^(٥) مَوْضِعَ طَمَعٍ حَتَّى خَرَسَتْ الْأَلْسُنُ عَنْ أَنْ تَدَّعِي وَتَقُولَ وَخَلَدَتْ الْقُرُومُ^(٦) فَلَمْ تَمْلِكْ أَنْ تَصُولَ، نَعَمْ فَإِذَا

(١) رَازَ الشَّيْءَ: جَرَّبَهُ وَاجْتَبَرَهُ.

(٢) شِبَابُ جَمْعِ شِبَابَةٍ وَشِبَابَةُ الشَّيْءِ: حُدُّهُ.

(٣) فِي (ب): مِنْ مَبَادِئِ آيَةٍ.

(٤) فِي (أ): تَأْمَلُوا.

(٥) قَالَ فِي الْوَسِيطِ (أَفْخَ): الْيَا فَوْخُ: فَجْوةٌ مَغْطَاةٌ بَغْشَاءٍ تَكُونُ عِنْدَ تَلَاقِي عِظَامِ الْجُمُجْمَةِ وَهُمَا يَا فَوْخَانِ: أَمَامِي، وَخَلْفِي.

(٦) خَلَدَتْ: أَقَامَتْ. وَالْقُرُومُ جَمْعُ قَرَمٍ، وَهُوَ الْفَحْلُ، وَالْكَلِمَةُ تَسْتَعْمَلُ حَقِيقَةً فِي الْإِبْلِ، وَمَجَازاً فِي النَّاسِ.

كان هو الذي يذكر في جواب السائل فبنا أن ننظر أي أشبه بالفتى في عقله ودينه، وأزيد له في علمه وبقينه، أن يُقَلَّد في ذلك ويحفظ متن الدليل وظاهر لفظه ولا يبحث عن تفسير المزاي والخصائص ما هي ومن أين كُثِرَت الكثرة العظيمة، واتسعت الاتساع المجاوز لوسع الخلق وطاقة البشر؟ وكيف يكون أن تظهر في ألفاظ محصورة، وكلم معدودة معلومة، بأن يؤتى ببعضها في إثر بعض لطائف لا يحصرها العدد، ولا ينتهي بها الأمد؟ أم أن يبحث عن ذلك كله، ويستقصي النظر في جميعه، ويتبعه شيئاً فشيئاً، ويستقصيه باباً فباباً، حتى يعرف كلاً منه بشاهده ودليله، ويعلمه بتفسيره وتأويله، ويوثق بتصوره وتمثيله، ولا يكون كمن قيل فيه:

يَقُولُونَ أَقْوَالاً وَلَا يَعْلَمُونَهَا وَلَوْ قِيلَ: هَاتُوا حَقُّوْا لَمْ يُحَقِّقُوا^(١)

قد قطع غُذر المتهاون ودلت على ما أضاع من حظه، وهديته لرشده، وصح [١٦] أن لا غنى بالعاقل عن معرفة هذه الأمور والوقوف عليها، والإحاطة بها، وأنَّ الجهة التي منها يقف، والسبب الذي به يعرف، استقراء كلام العرب وتتبع أشعارهم والنظر فيها. وإذ قد ثبت ذلك فينبغي لنا أن نبتدئ في بيان ما أردنا بيانه، ونأخذ في شرحه والكشف عنه.

وجملة ما أردت أن أبينه لك أنه لا بد لكل كلام تستحسنه، ولفظ تستجده، من أن يكون لاستحسانك ذلك جهة معلومة، وعلة معقولة، وأن يكون لنا إلى العبارة عن ذاك سبيل، وعلى صحة ما ادَّعينا من ذلك دليل، وهو باب من العلم إذا أنت فتحته اطلعت منه على فوائد جلييلة، ومعانٍ شريفة، ورأيت له أثراً في

(١) الكامل للمبرد ٣١٦/١ والبيت فيه لأنس بن أبي أنس. وهو من قطعة في أمالي المرتضى ٣٨٥/١ نسبها إلى أنس بن أبي أنيس أو أنس بن أبي إلياس الديلي. قال: وتروى لأبي الأسود الدؤلي. والقطعة في ديوان أبي الأسود (مستدرك الديوان: القطعة ٩٣) وانظر تخريجها ثمة.

- وورد في مناسبتها: ولي حارثة بن بدر الغُداني كورة (سرق) من أعمال الأهواز فخرج إليها فشيَّعه الناس، وكان فيهم أبو الأسود الدؤلي فقال: ... الأبيات.

الدين عظيماً وفائدة جسيمة، ووجدته سبباً إلى حسم كثير من الفساد فيما يعود إلى التنزيل، وإصلاح أنواع من الخلل فيما يتعلق بالتأويل، وإنه ليؤمنك من أن تغالط في دعاوك، وتدافع عن مغزاك، ويربأ بك عن أن تستبين هدىً ثم لا تهتدي إليه، وتُدِلَّ بعرفان ثم لا تستطيع أن تُدَلَّ عليه، وأن تكون عالماً في ظاهر مقلد، ومستبيناً في صورة شاك، وأن يسألك السائل عن حجة يلقي بها الخصم في آية من كتاب الله تعالى أو غير ذلك فلا ينصرف عنك بمقنع، وأن يكون غاية ما لصاحبك منك أن تحيله على نفسه، وتقول: قد نظرت فرأيت فضلاً ومزية، وصادفت لذلك أريحية، فانظر لتعرف كما عرفت، وراجع نفسك واسبر ودُق لتجد مثل الذي وجدت، فإن عرفت فذاك، وإلا فبينكما التناكر، تنسبه إلى سوء التأمل، وينسبك إلى فساد في التخيل، وإنه على الجملة بحيث ينتقي لك من علم الإعراب خالصه ولُبُّه، ويأخذ لك منه أناسي العيون، وحبّات القلوب، [١٦ ب] وما لا يدفع الفضل فيه دافع، ولا ينكر رجحانه في موازين العقول منكر، وليس يتأتى لي أن أعلمك من أول الأمر في ذلك آخره، وأن أسمى لك الفصول التي في نيتي أن أحررها بمشيئة الله عز وجل، حتى تكون على علم بها قبل موردها عليك، فاعمل على أن ههنا فصولاً يجيء بعضها في إثر بعض وهذا أولها.

في تحقيق القول على البلاغة والفصاحة، والبيان والبراعة، وكل ما شاغل ذلك مما يعبر به عن فضل بعض القائلين على بعض من حيث نطقوا وتكلموا، وأخبروا السامعين عن الأغراض والمقاصد، وراموا أن يعلموهم ما في نفوسهم، ويكشفوا لهم عن ضمائر قلوبهم، ومن المعلوم أن لا معنى لهذه العبارات وسائر ما يجري مجراها مما يُفَرَّد فيه اللفظ بالنع والصفة وينسب فيه الفضل والمزية إليه دون المعنى، غير وصف الكلام بحسن الدلالة وتامها فيما له كانت دلالة، ثم تبرجها في صورة هي أبهى وأزین، وأتق وأعجب، وأحق بأن تستولي على هوى النفس، وتنال الحظ الأوفر من ميل القلوب، وأولى بأن تطلق لسان الحامد، وتطيل رغم الحاسد، ولا جهة لاستعمال هذه الخصال غير أن يؤتى المعنى من الجهة التي هي أصح لتأديته، ويختار له اللفظ الذي هو أخص به، وأكشف عنه وأتم له، وأحرى بأن يكسبه نبلاً، ويظهر فيه مزية.

وإذا كان هذا كذلك فينبغي أن ينظر إلى الكلمة قبل دخولها في التأليف، وقبل أن تصير إلى الصورة التي بها يكون الكلم إخباراً وأمرأً ونهياً واستخباراً وتعجباً، وتؤدي في الجملة معنى من المعاني التي لا سبيل إلى إفادتها إلا بضم كلمة إلى كلمة، وبناء لفظة على لفظة، هل يتصور أن يكون بين اللفظتين [١٧] تفاضل في الدلالة حتى تكون هذه أدلّ على معناها الذي وضعت من صاحبها على ما هي موسومة به حتى يقال إن رجلاً أدلّ على معناه من فرس على ما سمي به. وحتى يُتصوّر في الاسمين الموضوعين لشيء واحد أن يكون هذا أحسن نبأ عنه وأبين كشفاً عن صورته من الآخر؟ فيكون الليث مثلاً أدلّ على السبع المعلوم من الأسد، وحتى أننا لو أردنا الموازنة بين لغتين كالعربية والفارسية سأغ لنا أن نجعل لفظة رجلٍ أدلّ على الآدمي الذكر من نظيره في الفارسية. وهل يقع في وهم وإن جهد أن تتفاضل الكلمتان المفردتان من غير أن ينظر إلى مكان تقعان فيه من التأليف والنظم، بأكثر من أن تكون هذه مألوفة مستعملة، وتلك غريبة وحشية أو أن تكون حروف هذه أخف، وامتزاجها أحسن، ومما يكذّب اللسان أبعد، وهل تجد أحداً يقول: هذه اللفظة فصيحة. إلا وهو يعتبر مكانها من النظم، وحسن ملائمة معناها لمعنى جاراتها، وفضل مؤانستها لأخواتها؟ وهل قالوا: لفظة متمكنة ومقبولة، وفي خلافه: قلقة ونابية ومستكرهة، إلا وغرضهم أن يعبروا بالتمكن عن حسن الاتفاق بين هذه وتلك من جهة معناهما، وبالقلق والنبوّ عن سوء التلاؤم، وأن الأولى لم تلق بالثانية في معناها، وأن السابقة لم تصلح أن تكون لفقاً للثانية في مؤدّاها؟ وهل تشكّ إذا فكرت في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَيْ مَاءَكَ وَاسْمَاةً أَقْلِي وَغِيصَ أَلْمَاءِ وَفُصِّي الْأَمْرُ وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ٤٤/١١]. فتجلى لك منها الإعجاز، وبهرك الذي ترى وتسمع، أنك لم تجد ما وجدت من المزية الظاهرة، والفضيلة القاهرة، إلا لأمر يرجع إلى ارتباط هذه الكلم بعضها ببعض، وأن لم يعرض لها الحسن [١٧ ب] والشرف إلا من حيث لاقت الأولى بالثانية والثالثة بالرابعة؟ وهكذا إلى أن تستقرها إلى آخرها، وأن الفضل نتائج ما بينها، وحصل من مجموعها.

إن شككت فتأمل! هل ترى لفظةً منها بحيث لو أخذت من بين أخواتها وأفردت لأدّت من الفصاحة ما تؤديه وهي في مكانها من الآية؟ قل «ابلعي» واعتبرها وحدها من غير أن تنظر إلى ما قبلها وإلى ما بعدها وكذلك فاعتبر سائر ما يليها. وكيف بالشك في ذلك ومعلوم أنّ مبدأ العظمة في أن نُوديت الأرض، ثم أمرت، ثم في أن كان النداء بـ «يا» دُونَ «أي» نحو يا أيتها الأرض، ثم إضافة الماء إلى الكاف دون أن يقال: ابلعي الماء، ثم أن أتبع نداء الأرض وأمرها بما هو من شأنها، ونداء السماء وأمرها كذلك بما يخصّها، ثم أن قيل وغيض الماء «فجاء الفعل على صيغة» «فُعِل» الدالة على أنه لم يغيض إلا بأمر آمر، وقدرة قادر، ثم تأكيد ذلك وتقريره بقوله تعالى: ﴿وَقَصَّى الْأَمْرُ﴾ ثم ذكر ما هو فائدة هذه الأمور وهو «استوت على الجودي» ثم إضمار السفينة قبل الذكر كما هو شرط الفخامة والدلالة على عظم الشأن، ثم مقابلة «قيل» في الخاتمة بقيل في الفاتحة، أفترى لشيء من هذه الخصائص التي تملؤك بالإعجاز روعةً، وتحضرك عند تصورها هيبةً تحيط بالنفس من أقطارها تعلقاً باللفظ من حيث هو صوتٌ مسموع، وحروف تتوالى في النطق؟ أم كل ذلك لما بين معاني الألفاظ من الاتساق العجيب؟

فقد اتضح إذن اتضاحاً لا يدعُ للشك مجالاً أن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظٌ مجردةٌ ولا من حيث هي كلمٌ مفردةٌ، وأن الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ. ومما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروك وتؤنسك [١٨] في موضع، ثم تراها بعينها تثقلُ عليك وتوحشك في موضع آخر، كلفظ الأخدع في بيت الحماسة:

تَلَفَّتْ نَحْوَ الْحَيِّ حَتَّى وَجَدْتُني وَجَعْتُ من الإِضْغَاءِ لِنَتَا وأخدعا^(١)

(١) البيت في الحماسة (المرزوقي) ١٢١٨/٣ للصمة بن عبد الله القشيري. وهو في مجموع شعره ٩٤. والليث: صفحة العنق، والأخدعان: عرقان في جانبي العنق، الواحد: أخدع.

وبيت البحتري^(١):

وإني وإن بَلَّغْتُني شَرَفَ الغنى وَأَعْتَقْتُ مِنْ رِقِّ المطامِعِ أَخْذَعِي
فإن لها في هذين المكانين ما لا يخفى من الحُسن. ثم إِنَّكَ تتأملُها في بيت
أبي تمام^(٢):

يا دَهْرُ قَوْمٍ مِنْ أَخْذَعَيْكَ فَقَدْ أَضْجَجْتَ هذا الأَنامَ مِنْ خُرْقِكَ
فتجد لها من الثَّقَلِ على النفس ومن التَّنْغِيصِ والتكديرِ أضعاف ما وجدت
هناك من الرُّوح والخفة، والإيناس والبهجة. ومن أعجب ذلك لفظة «الشيء»
فإنك تراها مقبولةً حسنةً في موضع وضعيفة مستكرهة في موضع. وإن أردت أن
تعرف ذلك فانظر إلى قولِ عمر بن أبي ربيعة المخزومي^(٣):

ومن مالى عينيه من شيءٍ غيره إذا راح نحو الجمرَةِ البيضُ كالدمى^(٤)
وإلى قول أبي حَيَّة^(٥):

(١) ديوان البحتري ١٢٤١/٢. والبيت الذي قبله:

مكاني مِنْ نَعْمَاكَ غيرُ مُؤَخَّرٍ وحظي من جَدِّواكَ غيرُ مُضْبَعٍ
وبعده:

فما أنا بِالْمَغْضُوضِ فيما أَتَيْتُهُ إِلَيَّ ولا المَوْضُوعِ في غير مَوْضِعِي
والقصيدة في مدح الفتح بن خاقان.

(٢) البيت لأبي تمام (ديوانه ٤٠٥/٢) من قصيدة في مديح أبي الحسين محمد بن الهيثم بن
شبانة. ورواية الديوان (بتحقيق د. عزام):
«يا دَهْرُ قَوْمٍ أَخْذَعِيكَ فَقَدْ... إلخ».

وأسقط (من). وهذا يُخرج البيت عن وزن القطعة لأنها على بحر المنسرح؛ فتأمل.
والخُرق: الحمق.

(٣) المخزومي سقطت من (أ).

(٤) البيت من قطعة لعمر في ديوانه: ٤٥١. وقبله ثمة:

وكم من قَتِيلٍ لا يُبَاءُ به دَمٌ ومن عَلِقَ رهنًا إذا ضَمَّه مِنِي

(٥) هو أبو حَيَّة النميري، واسمه الهيثم بن الربيع. وهو شاعر مجيدٌ من مخضرمي الدَّولتين.

فصل

لِى الفرق بين الحروف المنظومة والكلم المنظومة

ومما يجبُ إحكامه بعقب هذا الفصلِ الفرقُ بين قولنا حروف منظومةٌ وكلمٌ منظومةٌ. وذلك أنَّ نَظْمَ الحُرُوفِ هو تواليها في النُطْقِ فقط^(١) وليس نظمُها بمقتضى عن معنى^(٢) ولا النَّظْمُ لها بمقتضى في ذلك رسماً من العقلِ اقتضى أن يتحرَّى في نظمِها ما تحرَّاه. فلو أنَّ واضع اللُّغة كان قد قال «ربض» مكان ضَرَبَ لما كانَ في ذلك ما يؤدِّي إلى فساد. وأما نظمِ الكلمِ فليس الأمر فيه كذلك لأنك تقتضي في نظمِها آثارَ المعاني وتُرتبها على حسب ترتيبِ المعاني في النَّفس، فهو إذنُ نظمٌ يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض، وليس هو النَّظْمُ الذي معناه ضَمُّ الشَّيْءِ إلى الشَّيْءِ كيف جاء واتفق. وكذلك كان عندهم نظيراً للنَّسجِ والتَّأليفِ والصِّياغةِ والبناءِ والشَّيْءِ والتَّحْبِيرِ وما أشبه ذلك مما يوجب اعتبار الأجزاء بعضها مع بعضٍ حتَّى يكون لوضع كلِّ حيثٍ وضعٌ علَّةٌ تقتضي كونه هناك وحتى لو وضع في مكان غيره لم يَصِحَّ.

(١) سقطت (فقط) من (أ).

(٢) أي ليس واجباً (لازماً) لمعنى اقتضاه (عن ط).

والفائدة في معرفة هذا الفرق أنك إذا عرفته عرفت أن ليس الغرض بنظم الكلام أن توالى ألفاظها في النطق، بل أن تناسقت دلائلها وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل. وكيف يتصور أن يُقصد به إلى توالي الألفاظ في النطق، بعد أن ثبت أنه نظمٌ يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض، وأنه نظير الصباغة والتخبير والتفويف^(١) والنقش وكل ما يقصد به التصوير، وبعد أن كُنّا لا نشك في [١٩] أن لا حال للفظ مع صاحبها تُعتبر إذا أنت عزلت دالتهما جانباً. وأي مسامح للشك في أن الألفاظ لا تستحق من حيث هي ألفاظ أن تُنظم على وجه دون وجه، ولو فرضنا أن تنخلع من هذه الألفاظ التي هي لغات دلائلها لما كان شيء منها أحقّ بالتقديم من شيء ولا يُتصور أن يجب فيها ترتيب ونظم. ولو حفظت صبيّاً شطر كتاب (العين) أو (الجمهرة) من^(٢) غير أن تفسر له شيئاً منه وأخذته بأن يضبط صور الألفاظ وهيئتها ويؤديها كما يؤدي أصناف^(٣) أصوات الطيور لرأيت أنه لا يخطر له ببال أن من شأنه أن يؤخر لفظاً ويقدم آخر. بل كان حاله حال من يزمي الحصى ويعدّ الجوز، اللهم إلا أن تسومه أنت أن يأتي بها على حروف المعجم ليحفظ نسق الكتاب.

ودليل آخر وهو أنه لو كان القصد بالنظم إلى اللفظ نفسه دون أن يكون الغرض ترتيب المعاني في النفس ثم النطق بالألفاظ على حذوها لكان ينبغي أن لا يختلف حال اثنين في العلم بحسن النظم أو غير الحسن فيه لأنهما يُحسان بتوالي الألفاظ في النطق إحساساً واحداً، ولا يعرف أحدهما في ذلك شيئاً يجهله الآخر.

وأوضح من هذا كله وهو أن هذا النظم الذي يتوآصفه البلغاء وتتفاضل مراتب البلاغة من أجله صنعة يُستعان عليها بالفكرة لا محالة. وإذا كانت

(١) الفوف: ثياب رقائق موشاة مخططة. والثوب المرفوف: ثوب رقيق مخطط.

(٢) مُعجم العين، للخليل بن أحمد والجمهرة لابن دريد. معجمان لغويان من معاجم

الألفاظ مشهوران. والعين أول معجم عربي شامل.

(٣) سقطت (أصناف) من (أ).

مما يُستعان عليه بالفكرة ويُستخرج بالرؤية فينبغي أن يُنظر في الفكر بماذا تلبس :
 أبا المعاني ؟ أم بالألفاظ ؟ بأي شيء وجدته الذي تلبس به فكرك من بين المعاني
 والألفاظ فهو الذي تحدث فيه صنعتك وتقع فيه صياغتك ونظمك وتصويرك
 فمحال أن تتفكر في شيء وأنت لا تصنع فيه شيئاً وإنما تصنع في غيره لو جاز
 ذلك لجاز أن يفكر البتاء في الغزل ليجعل فكره فيه وصلة إلى أن يُصنع من
 الأجر وهو من الإحالة المفردة ! فإن قيل [١٩ ب] : النظم موجود في الألفاظ
 على كل حال ولا سبيل إلى أن يعقل الترتيب الذي تزعمه في المعاني ما لم
 تنظم الألفاظ ولم ترتبها على الوجه الخاص ، قيل : إن هذا هو الذي يُعيد هذه
 الشبهة جذعةً أبدأ^(١) والذي يحلّه أن تنظر : أتصور أن تكون مُعبّراً مفكراً في
 حال اللفظ مع اللفظ حتى تضعه بجانبه ، أو قبله ، وأن تقول هذه اللفظة
 إنما صلحت ههنا لكونها على صفة كذا ؟ أم لا يُعقل إلا أن تقول : صلحت ههنا
 لأن معناها كذا . ولدالتها على كذا ، ولأن معنى الكلام والغرض فيه يوجب
 كذا ، ولأن معنى ما قبلها يقتضي معناها ؟ فإن تصورت الأول فقل ما شئت
 واعلم أن كل ما ذكرناه باطل . وإن لم تتصور إلا الثاني فلا تخدعن نفسك
 بالأضاليل ، ودع النظر إلى ظواهر الأمور ، واعلم أن ما ترى أنه لا بد منه من
 ترتيب الألفاظ وتواليها على النظم الخاص ليس هو الذي طلبته بالفكر ، ولكنه
 شيء يقع بسبب الأول ضرورة من حيث إن الألفاظ إذا كانت أوعية للمعاني
 فإنها لا محالة تتبع المعاني في مواقعها ، فإذا وجب لمعنى أن يكون أولاً في
 النفس وجب اللفظ الدال عليه أن يكون مثله أولاً في النطق ، فأما أن تتصور في
 الألفاظ أن تكون المقصودة قبل المعاني بالنظم والترتيب وأن يكون الفكر في

(١) الأصل في معنى الجذع ما قبل الثني من البهائم ، ويُطلق أيضاً على الشاب من الناس .

ومن هذا ما روي عن ورقة بن نوفل في حديث البعثة النبوية :

يا ليتني فيها جذع أخبُ فيها وأضع

يتمنى لو يكون شاباً حين تظهر النبوة لبالغ في نصرته .

ومعنى أعاد الشيء جذعاً أي جديداً .

النظم الذي يتوآصفه البلغاء فكراً في نظم الألفاظ، أو أن تحتاج بعد ترتيب المعاني إلى فكر تستأنفه لأن تجيء بالألفاظ على نسقها، فباطلٌ من الظن ووهم يتخيل إلى من لا يوفي النظر حقّه. وكيف تكون مفكراً في نظم الألفاظ وأنت لا تعقل لها أوصافاً وأحوالاً إذا عرفت أن حقّها أن تنظم على وجه كذا؟

ومما يلبسُ على الناظر في هذا الموضع ويغلطه أنه يستبعد أن يقال: هذا كلام قد نظمت معانيه. فالعرف كأنه لم يجرِ بذلك إلا أنهم وإن كانوا [٢٠ أ] لم يستعملوا النظم في المعاني قد استعملوا فيها ما هو بمعناه ونظيرٌ له، وذلك قولهم: إنه يرتب المعاني في نفسه وينزلها ويبنى بعضها على بعض. كما يقولون: يرتب الفروع على الأصول، ويتبع المعنى المعنى، ويلحق التظير بالتظير. وإذا كنت تعلم أنهم استعاروا النسخ والوشى والنقش والصياغة لنفس ما استعاروا له النظم، وكان لا يشك في أن ذلك كله تشبيه وتمثيلٌ يرجع إلى أمور وأوصاف تتعلق بالمعاني دون الألفاظ فمن حَقَّ أن تعلم أن سبيل النظم ذلك السبيل.

واعلم أن من سبيلك أن تعتمد هذا الفصل حدّاً، وتجعل النكت التي ذكرتها فيه على ذكر منك أبدأ، فإنها عمْدٌ وأصولٌ في هذا الباب، إذا أنت مكنتها في نفسك، وجدت الشبه تنزّاح عنك، والشكوك تنفني عن قلبك، ولا سيّما ما ذكرت من أنه لا يتصوّر أن تعرف للفظ موضعاً من غير أن تعرف معناه. ولا أن تتوخّى في الألفاظ من حيث هي ألفاظٌ ترتيباً ونظماً، وأنت تتوخّى الترتيب في المعاني، وتعمل الفكر هناك فإذا تمّ لك ذلك أتبعته الألفاظ وقفوت بها آثارها. وأنت إذا فرغت من ترتيب المعاني في نفسك لم تحتجِ إلى أن تستأنف فكراً في ترتيب الألفاظ بل تجدها تترتب لك بحكم أنها خدَمٌ للمعاني، وتابعة لها ولاحقة بها، وأن العلم بمواقع المعاني في النفس، علمٌ بمواقع الألفاظ الدالة عليها في النطق.

فصل

[في أن النظم

هو تعليق الكلم بعضها ببعض]

واعلم أنك إذا رجعت إلى نفسك علمتَ علماً لا يعترضه الشك أن لا نظم في الكلم ولا ترتيب حتى يُعلّق بعضها ببعض ويُبنى بعضها على بعض. وتُجعل هذه بسبب من تلك. هذا ما لا يجهله عاقل ولا يخفى على أحد من الناس. وإذا كان كذلك فَبنا أن ننظر إلى التّعليق فيها والبناء وجعل الواحدة منها [٢٠ ب] بسبب من صاحبَتها ما معناه وما محصوله. وإذا نظرنا في ذلك علمنا أن لا محصول لها غير أن تعمد إلى اسم فتجعله فاعلاً لفعل أو مفعولاً. أو تعمد إلى اسمين فتجعل أحدهما خبراً عن الآخر أو تُتبع الاسم اسماً على أن يكون الثاني صفةً للأول، أو تأكيداً له، أو بدلاً منه أو تجيء باسم بعد [تمام]^(١) كلامك على أن يكون الثاني صفةً، أو حالاً، أو تمييزاً، أو تتوخى في كلام هو لإثبات معنى أن يصير نفيّاً أو استفهاماً أو تمنياً، فتدخل عليه الحروف الموضوعة لذلك، أو تريد في فعلين أن تجعل أحدهما شرطاً في الآخر فتجيء بهما بعد الحرف الموضوع لهذا المعنى، أو بعد اسم من الأسماء التي ضُمّنت معنى ذلك الحرف - وعلى هذا القياس.

(١) كلمة (تمام) سقطت من (أ).

وإذا كان لا يكونُ في الكلمِ نظمٌ ولا ترتيبٌ إلا بأن يصنع بها هذا الصنيع ونحوه، وكان ذلك كله مما لا يرجع منه إلى اللفظ شيء، ومما لا يتصورُ أن يكون فيه ومن صفته - بأن بذلك أن الأمر على ما قلناه من أن اللفظ تبعٌ للمعنى في النظم، وأن الكلمَ تترتبُ في النطقِ بسببِ ترتبِ معانيه في النفس، وأنها لو خَلَّتْ من معانيها حتى تتجردَ أصواتاً وأصداءَ حروفٍ لما وَقَعَ في ضميرٍ ولا هَجَسٍ في خاطرٍ أن يجب فيها ترتيبٌ ونظم، وأن يُجعل لها أمكنةٌ ومنازل، وأن يجب النطق بهذه قبل النطق بتلك. والله الموفق للصواب.



فصل

[في الفصاحة]

وهذه شبهة أخرى ضعيفة عسى أن يتعلّق بها متعلّق ممن يُقدّم على القول من غير روية. وهي أن يدّعي أن لا معنى للفصاحة سوى التلاؤم اللفظي وتعديل مزاج الحروف حتّى لا يتلاقى في النطق حروف تثقل على اللسان كالذي أنشده الجاحظ من قول الشاعر^(١):

وقبرُ حرب بمكانٍ قفرٍ وليسَ قربَ قبرٍ حربٍ قبرُ

وقول ابن يسير^(٢): [٢١ أ]

لا أذبلُ الآمالَ بفقدك إنني بَعْدَها بالآمالِ جدُّ بخيلٍ

(١) قال الجاحظ (في البيان والتبيين ١/ ٦٥): ومن ألفاظ العرب ألفاظ تتنافر، وإن كانت مجموعة في بيت شعر لم يستطع المنشد إنشادها إلا ببعض الاستكراه، فمن ذلك قول الشاعر: وقبر حرب.... إلخ.

والبيت مجهول القائل. وانظر تخريجه في حواشي البيان.

(٢) هو محمد بن يسير الرياشي، أخباري، شاعر، أديب. من الشعراء المحدثين غير المكثرين، أكثر من شعر الهجاء. كان من أهل البصرة، ولم يفارقها.

وله ترجمة في الأغاني (١٤/ ١٨) وأخبار متفرقة في كتب الأدب مثل العمدة (١/ ٢٦١) والعقد (٦/ ١٩٢)، والخبر في البيان والتبيين (١/ ٦٥).

كَمْ لَهَا مَوْقِفًا بِبَابِ صَدِيقٍ رَجَعْتُ مِنْ نَدَاءُ بِالتَّعْطِيلِ
لَمْ يَضِرْهَا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ شَيْءٌ وَانْشَنُتْ نَحْوَ عَزَفِ نَفْسٍ ذَهُولِ

قال الجاحظ: فتفقد النصف الأخير من هذا البيت^(١) فإنك ستجد بعض الفاظه يتبرأ من بعض. ويزعم أن الكلام في ذلك على طبقات، فمنه المتناهي في الثقل، المفرط فيه كالذي مضى. ومنه ما هو أخف منه كقول أبي تمام^(٢):

كَرِيمٌ مَتَى أَمْدَحُهُ أَمْدَحُهُ وَالْوَرَى جَمِيعاً وَمَهْمَا لُمْتُهُ لُمْتُهُ وَخَلَدِي

ومنه ما يكون فيه بعض الكلفة على اللسان إلا أنه لا يبلغ أن يعاب به صاحبه ويشهر أمره في ذلك ويحفظ عليه. ويزعم أن الكلام إذا سلّم من ذلك وصفاً من شوبه كان الفصيح المشاد به والمشار إليه. وأن الصفاء أيضاً يكون على مراتب يعلو بعضها بعضاً وأن له غاية إذا انتهى إليها كان الإعجاز.

والذي يبطل هذه الشبهة - إن ذهب إليها ذاهب - أنا إن قصرنا صفة الفصاحة على كون اللفظ كذلك، وجعلناه المراد بها لزمنا أن نخرج الفصاحة من حيز البلاغة ومن أن تكون نظيرة لها. وإذا فعلنا ذلك لم نخل من أحد أمرين إما أن نجعله العمدة في المفاضلة بين العبارتين ولا نعرّج على غيره، وإما أن نجعله أحد ما نفاضل به؛ ووجهاً من الوجوه التي تقتضي تقديم كلام على كلام. فإن أخذنا بالأول لزمنا أن نقصر الفضيلة عليه حتى لا يكون الإعجاز إلا به. وفي ذلك ما لا يخفى من الشناعة لأنه يؤدي إلى أن لا يكون للمعاني التي ذكروها في حدود البلاغة من وضوح الدلالة، وصواب الإشارة، وتصحيح الأقسام، وحسن الترتيب والنظام، والإبداع في طريقة [٢١ ب] التشبيه والتّمثيل،

(١) يعني بيت ابن يسير الأخير.

(٢) البيت لأبي تمام في ديوانه (١١٦/٢) من قصيدة في مدح أبي المغيث الوافقي ويعتذر إليه. ورواية البيت ثمة:

معي ومتى ما لمتُه لمتُه وحدي

وروي أيضاً: «ومتى ما ذممتُه....». أي لا أمدحه بشيء إلا صدقني الناس فيه.

والإجمال ثم التفصيل، ووضع الفصل والوصل موضعهما، وتوفية الحذف والتأكيد والتقديم والتأخير شروطهما - مدخل فيما له كان القرآن معجزاً حتى^(١) ندعي أنه لم يكن معجزاً من حيث هو بليغ، ولا من حيث هو قولٌ فصلٌ، وكلامٌ شريف النظم بديع التأليف، وذلك أنه لا تعلق لشيء من هذه المعاني بتلاؤم الحروف.

وإن أخذنا بالثاني وهو أن يكون تلاؤم الحروف وجهاً من وجوه الفضيلة وداخلاً في عداد ما يُفاضل به بين كلام وكلام على الجملة لم يكن لهذا الخلاف ضرراً علينا، لأنه ليس بأكثر من أن يعمد إلى الفصاحة فيخرجها من حيز البلاغة والبيان وأن تكون نظيرة لهما، وفي عداد ما هو شبههما من البراعة والجزالة وأشباه ذلك، مما يُنبئ عن شرف النظم وعن المزاي التي شرحت لك أمرها، وأعلمتكم جنسها، أو يجعلها اسماً مشتركاً يقع تارة لما تقع له تلك وأخرى لما يرجع إلى سلامة اللفظ مما يثقل على اللسان. وليس واحد من الأمرين بقادح فيما نحن بصده. وإن تعسف متعسف في تلاؤم الحروف فبلغ به أن يكون الأصل في الإعجاز وأخرج سائر ما ذكره في أقسام البلاغة من أن يكون له مدخل أو تأثير فيما له كان القرآن معجزاً، كان الوجه أن يقال له: إنه يلزمك على قياس قولك أن تجوز أن يكون ههنا نظمٌ للألفاظ وترتيبٌ لا على نسق المعاني، ولا على وجه يقصد به الفائدة، ثم يكون مع ذلك معجزاً وكفى به فساداً!

فإن قال قائل: إني لا أجعل تلاؤم الحروف معجزاً حتى يكون اللفظ مع ذلك دالاً وذاك أنه إنما تصعب مراعاة التعادل بين الحروف إذا احتيج مع ذلك إلى مراعاة المعاني، كما أنه إنما تصعب مراعاة السجع والوزن [٢٢] ويصعب كذلك التجنيس والترصيع إذا روعي معه المعنى، قيل له: فأنت الآن إن عقلت ما تقول قد خرجت من مسألتك وتركت أن يستحق اللفظ المزية من حيث هو لفظ^(٢)،

(١) في (أ): لا ندعي.

(٢) كلمة (لفظ) سقطت من (أ).

وجئت تطلبُ لصعوبة النّظم فيما بين المعاني طريقاً وتضع له علّة غيرَ ما يعرفه النَّاسُ، وتَدّعي أنّ ترتيب المعاني سهلٌ، وأن تفاضُل النَّاسِ في ذلك إلى حدّ، وأن الفضيلة تزدادُ وتقوى إذا تُوتِخِي في حُرُوف الألفاظِ التّعادُلُ والتّلاؤم، وهذا مِنكَ وَهْمٌ، وذلك أنا لا نعلمُ لتعادُلِ الحروفِ معنى سوى أن تسلم من نحو ما تجده في بيت أبي تمام:

❁ كريم متى أمدحه أمدّخه والورى ❁

وبيت ابن يسير:

❁ وانثنت نحو عزف نفسٍ ذهول ❁

وليس اللفظ السليم من ذلك بمعوزٍ ولا بعزيز الوجود، ولا بالشيء لا يستطيعه إلّا الشّاعرُ المُفلق والخطيبُ البليغ، فيستقيم قياسه على السّجع والتجنيس، ونحو ذلك مما إذا رامهُ المتكلّم صَعُبَ عليه تصحيح المعاني وتأدية الأغراض. فقولنا: أطال الله بقاءك! وأدام عزّك! وأتم نعمته عليك! وزاد في إحسانه عندك! لفظٌ سليمٌ مما يَكْذُ اللّسان وليس في حُرُوفه استكراه. وهكذا حالُ كلام النَّاسِ في كُتُبهم ومُحاوراتهم لا تكادُ تجدُ فيه هذا الاستكراه لأنّه إنّما هو شيءٌ يعرضُ للشّاعر إذا تكلف وتعمّل. فأما المُرسِلُ نفسه على سجيّتها فلا يعرضُ له ذلك.

هذا، والمتعلّل بمثل ما ذكرتُ من أنّه إنّما يكونُ تلاؤم الحروفِ مُعجزاً بعد أن يكون اللفظ دالاً، لأنّ مراعاة التّعادُل إنّما تصعبُ إذا احتيجَ مع ذلك إلى مُراعاة المعاني - إذا تأملت - يذهبُ إلى شيءٍ ظريفٍ وهو أن يصعبَ مرام اللفظ بسبب المعنى، وذلك مُحالٌ لأنّ الذي يعرفه العقلاء عكسُ ذلك، وهو أن يصعبَ مَرامُ المعنى بسبب اللفظ، فصعوبةُ ما صَعُبَ من السّجع هي [٢٢ ب] صعوبةُ عرضتُ في المعاني من أجلِ الألفاظ، وذاك أنّه صعبَ عليك أن توفّق بين معاني تلك الألفاظِ المُسجّعة وبين معاني الفُصول التي جعلت أردافاً لها فلم تستطع ذلك إلا بعد أن عدلت عن أسلوبٍ إلى أسلوبٍ أو دخلت في ضَرْبٍ من

المجاز، أو^(١) أخذت في نوع من الاتساع، وبعد أن تَلَقَّفت على الجملة ضَرْباً من التَلَقُّف. وكيف يُتَصَوَّرُ أَنْ يَصْعَبَ مَرَامُ اللَّفْظِ بسبب المعنى، وأنت إن أردت الحقَّ لا تطلب اللفظَ بحال وإنما تطلب المعنى، وإذا ظفرت بالمعنى فاللفظ معك وإزاء ناظرك؟ وإنما كان^(٢) يتصور أن يصعب مرام اللفظ من أجل المعنى أن لو كنت إذا طلبت المعنى فَحَصَلَتْهُ احتجَّتْ إلى أن تطلب اللفظَ على حدة وذلك مُحال.

هذا، وإذا توهم متوهم أنا نحتاجُ إلى أن نطلب اللفظَ وأنَّ من شأن الطلب أن يكونَ هناك، فإنَّ الذي يتوهم أنه يحتاجُ إلى طلبه هو ترتيبُ الألفاظ في النُّطق لا مَحالة. وإذا كان كذلك فينبغي لنا أن نرجع إلى نفوسنا فننظر: هل يتصور أن تُرتَّب معاني أسماء وأفعالٍ وحروفٍ في النفس، ثم تخفى علينا مَوَاقِعُها في النُّطق، حتى يُحتاج في ذلك إلى فكر وروية؟ وذلك ما لا يَشْكُ فيه عاقلٌ إذا هو رَجَعَ إلى نفسه.

وإذا بطل أن يكون ترتيبُ اللفظِ مطلوباً بحال، ولم يكن المطلوب أبداً إلا ترتيب المعاني وكان معوِّلاً هذا المخالف على ذلك، فقد اضمحلَّ كلامه وبان أنه ليس لمن حام في حديثِ المزية والإعجاز حول اللفظ، ورام أن يجعله السَّبب في هذه الفضيلةِ إلَّا التسكُّع في الحيرة، والخروج عن فاسدٍ من القول إلى مثله والله الموفق للصواب.

فإن قيل: إذا كان اللفظُ بمعزلٍ عن المزية التي تنازعنا فيها وكانت مقصورةً على المعنى فكيف كانت الفصاحة [٢٣١] من صفاتِ اللَّفْظِ البتَّة؟ وكيف امتنع أن يوصفَ بها المعنى؟ فيقال: معنىً فصيحٌ وكلام فصيحٌ المعنى؟ قيل: إنما اختصَّت الفصاحة باللفظِ وكانت من صفته من حيث كانت عبارة عن كون اللفظ على وصفٍ إذا كان عليه دلٌّ على المزية التي نحنُ في حديثها، وإذا كانت

(١) في (أ): وأخذت.

(٢) (كان) سقطت من (أ).

لكون اللفظ دالاً استحال أن يوصف بها المعنى كما يستحيل أن يوصف المعنى بأنه دالٌّ مثلاً فاعرفه.

فإن قيل: فماذا دعا القدماء إلى أن قَسَمُوا الفضيلة بين المعنى واللفظ^(١) فقالوا: معنى لطيفٌ ولفظٌ شريف، وفخموا شأن اللفظ وعظموه حتى تبعهم في ذلك من بعدهم وحتى قال أهلُ النَّظَر: إنَّ المعاني لا تتزايدُ وإنما تتزايد الألفاظ، فأطلقوا كما ترى كلاماً يوهم كلَّ من يسمعه أن المزية في حاقٍ^(٢) اللفظ؟ قيل له: لَمَّا كانت المعاني إنما تتبينُ بالألفاظ، وكان لا سبيلَ للمرتب بها، والجامع شَمَلُها، إلى أن يُعلمك ما صنَّع في ترتيبها بفكره، إلّا بترتيب الألفاظ في نُطقه، تُجَوِّزُ فكنُّوا عن ترتيب المعاني بترتيب الألفاظ ثم بالألفاظ بحذف الترتيب ثم أتبعوا ذلك من الوصف والنَّعتِ ما أبانَ العَرَضُ وكشف عن المراد كقولهم: «لفظٌ متمكِّنٌ» يُريدون أنه بموافقة معناه لمعنى ما يليه كالشيء الحاصل في مكانٍ صالحٍ يطمئن فيه «ولفظٌ قلقٌ نابٍ» يريدون أنه من أجل أن معناه غير مُوافق لما يليه كالحاصل في مكانٍ لا يصلحُ له فهو لا يستطيعُ الطمأنينة فيه - إلى سائر ما يجيء في صفة اللفظ مما يعلم أنه مُستعار له من معناه، وأنهم نحلوه إِيَّاه بسبب مضمونه ومؤداه هذا - ومن تعلَّق بهذا وشبهه واعتراضه الشكُّ فيه بعد الذي مضى من الحُجَج فهو رجلٌ قد أنسَ بالتقليد فهو يدعو الشُّبهةَ إلى نفسه من ههنا وثمَّ. ومن كان هذا سبيلَهُ فليسَ له دواءٌ سوى السكوت عنه [٢٣ ب] وتركه وما يختاره لنفسه من سوءِ النظر وقلةِ التَّدبُّر.

قد فرغنا الآن من الكلام على جنس المزية وأنها من حيز المعاني دون الألفاظ، وأنها ليست لك حيث تسمعُ بأذنك، بل حيث تنظر بقلبك وتستعينُ بفكرك، وتعمل رَوَيْتَكَ وتراجعُ عقلك، وتَسْتَنجِدُ في الجملة فهمك، وبلغ القول في ذلك أقصاه، وانتهى إلى مداه، وينبغي أن نأخذ الآن في تفصيل أمر المزية وبيان الجهات التي منها تعرض. وإنه لمرامٌ صعبٌ ومطلبٌ عسير. ولولا أنه على

(١) (أ) سقطت العبارة من (أ).

(٢) حاق الشيء: وسطه، والمقصود حقيقة اللفظ.

ذلك لما وجدت الناس بين مُنكر له من أصله، ومتخيّل له على غير وجهه، ومعتقد أنّه بابّ لا تقوى عليه العبارة، ولا تملك فيه إلّا الإشارة، وأنّ طريق التعليم إليه مسدود، وباب التفهيم دونه مُغلق، وأن معانيك فيه معانٍ تأبى أن تبرز من الضّمير، وأن تدين للتبيين والتّصوير، وأن تُرى سافرة لا نقاب عليها، ونادية لا حجاب دونها، وأن ليس للواصف لها إلّا أن يلوّح ويُشير أو يضرب مثلاً يُنبئ عن حسنٍ قد عرفه على الجملة وفضيلة قد أحسّها من غير أن يُتبع ذلك بياناً، ويقيم عليه بُرهاناً، ويذكر له علةً، ويورد فيه حُجّةً، وأنا أنزل لك القول في ذلك وأدرّجه شيئاً فشيئاً. وأستعين بالله تعالى عليه وأسأله التوفيق.



فصل

لِي اللفظ يطلق والمراد به غير ظاهره

اعلم أنَّ لهذا الضرب اتساعاً وتفنناً لا إلى غاية، إلا أنه على اتساعه يدورُ في الأمر الأعمّ على شيئين: الكناية والمجاز، والمراد بالكناية ههنا أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه^(١) في الوجود فيومئ به إليه ويجعله دليلاً عليه [٢٤]، مثال ذلك قولهم: «هو طویل النّجاد» يريدون طویل القامة، «وكثيرُ رماذِ القدر» يَغْنُون كثيرَ القري، وفي المرأة: «نؤوم الضّحى» والمراد أنها مترفةٌ مخدومةٌ لها من يكفيها أمرها. فقد أرادوا في هذا كُله كما ترى معنى ثم لم يذكروه بلفظه الخاصّ به ولكنهم توصّلوا إليه بذكر معنى آخر مِنْ شأنه أن يردّفه في الوجود. وأن يكون إذا كان. أفلا ترى أنَّ القامة إذا طالَّت طال النّجاد، وإذا كثر القري كثر رماذِ القدر؟ وإذا كانت المرأة مترفةً لها من يكفيها أمرها ردف ذلك أن تنام إلى الضّحى؟

وأما المجازُ فقد عَوّل الناسُ في حدّه على حديث النّقل، وأن كلّ لفظ نُقلَ عن موضوعه فهو مجاز. والكلامُ في ذلك يطول. وقد ذكرتُ ما هو الصّحيح من ذلك في موضعٍ آخر وأنا أقتصرُ ههنا على ذكر ما هو أشهرُ منه وأظهر. والاسمُ

(١) الردف: التابع.

والشُّهرة فيه لشئين: الاستعارة والتَّمثيل. وإنما يكون التمثيل مجازاً إذا جاء على حد الاستعارة.

فالاستعارة أن تريد تشبيه الشيء بالشيء فتدع أن تُفصِّح بالتَّشبيه وتظهره وتجيء إلى اسم المشبِّه به فتُعيِّره المشبِّه وتجريه عليه؛ تُريد أن تقول: رأيت رجلاً هو كالأسد في شجاعته وقوة بطشه سواء، فتدع ذلك وتقول: «رأيت أسداً». وضرب آخر من الاستعارة وهو ما كان نحو قوله^(١):

❁ إذ أصبحت بيد الشمال زمامها ❁

هذا الضرب وإن كان الناس يضمونه إلى الأول حيث يذكرون الاستعارة فليسا سواء، وذاك أنك في الأول تجعل الشيء الشيء ليس به، وفي الثاني تجعل للشيء الشيء له. تفسيرُ هذا أنك إذا قلت: رأيت أسداً، فقد ادَّعيت في إنسان أنه أسد وجعلته لِيَّاه، ولا يكون الإنسان أسداً. وإذا قلت: «إذ أصبحت بيد الشمال زمامها» فقد ادَّعيت [ب ٢٤] أن للشمال يداً. ومعلوم أنه لا يكون للريح يد.

وههنا أصلٌ يجب ضبطه وهو أن جعل المشبِّه المشبِّه به على ضربين: أحدهما أن تنزله منزلة الشيء تذكره بأمر قد ثبت له فأنت لا تحتاج إلى أن تعمل في إثباته وتزجيته وذلك حيث تُسقط ذكر المُشبِّه من الشَّيئين^(٢) ولا تذكره بوجه من الوجوه كقولك: رأيت أسداً. والثاني أن تجعل ذلك كالأمر الذي يحتاج إلى أن تعمل في إثباته وتزجيته. وذلك حيث تجري اسم المشبِّه به خبراً^(٣) على المشبه فتقول: زيد أسدٌ وزيد هو الأسد. أو تجيء به على وجه يرجع إلى هذا كقولك: إن لقيته لقيت به أسداً، وإن لقيته ليلقيَنَّك منه الأسد. فأنت في هذا كله تعمل في إثبات كونه أسداً أو الأسد وتضع كلامك له. وأمّا في الأول فتخرجه

(١) البيت من معلقة لييد، وتامة:

وغداة ريحٍ قد وزعت وقرّةً إذ أصبحت بيد الشمال زمامها

ديوانه لييد: ٣١٥

(٢) في (ب): من البين؛ وهو تحريف.

(٣) في (ط): «صراحة» في موضع «خبراً».

مخرج ما لا يحتاج فيه إلى إثباتٍ وتقرير. والقياسُ يقتضي أن يُقال في هذا الضرب أعني ما أنت تعملُ في إثباته وترجيته أنه تشبيهٌ على حدِّ المُبالغة ويقتصرُ على هذا القدر ولا يُسمَّى استعارةً.

وأما التَّمثيلُ الذي يكونُ مجازاً لمجيئك به على حدِّ الاستعارة فمثاله قولُكَ للرجل يتردَّد في الشيء بين فعله وتركه: أراك تقدم رجلاً وتؤخرُ أخرى^(١). فالأصلُ في هذا: أراك في تردُّدك كمنْ يُقدم رجلاً ويؤخرُ أخرى، ثم اختصر الكلامُ وجعل كأنه يقدمُ الرجلَ ويؤخرُها على الحقيقة كما كان الأصلُ في قولك: رأيتُ أسداً: «رأيتُ رجلاً كالأسد» ثم جعل كأنه الأسد على الحقيقة. وكذلك تقولُ للرجل يعمل غير مَعْمَلٍ^(٢): «أراك تنفُخ في غيرِ فحم! وتَحُطُّ على الماء!» فتجعله في ظاهر الأمر كأنه ينفُخ ويحُطُّ، والمعنى على أنك في فعلك كمنْ يفعلُ ذلك. وتقولُ للرجل يُعمل الحيلة حتى [٢٥ أ] يميل صاحبه إلى الشيء قد كان يأباه ويمتنعُ منه: «ما زال يفتلُ في الذرَّوة والغارب حتى بلغ منه ما أراد»، فتجعله بظاهر اللفظ كأنه كان منه فتلاً في ذرَّوة وغارب. والمعنى على أنه لم يزل يرفقُ بصاحبه رفقاً يشبهُ حاله فيه حالَ الرجل يجيءُ إلى البعيرِ الصَّعب فيحكُّه ويفتلُ الشَّعرَ في ذروته وغاربه حتى يسكنَ ويستأنسَ. وهو في المعنى نظيرُ قولهم: «فلان يُقرِّدُ فلاناً» يُعنى به أنه يتلطف له، فعل الرجل ينزِعُ القَرادَ من البعير ليلذُّه ذلك فيسكنَ ويثبَّت في مكانه حتى يتمكن من أخذه.

وهكذا كلَّ كلامٍ رأيتهم قد نحووا فيه التَّمثيل ثم لم يُفصِّحوا بذلك وأخرجوا اللَّفظَ مخرجه إذا لم يُريدوا تمثيلاً.

(١) العبارة من رسالة مقتضبة مشهورة كتب بها يزيد بن الوليد من أواخر خلفاء بني أمية في المشرق إلى مروان بن محمد، وكان قد تلكأ بعد البيعة ليزيد: والكتاب هو: «بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الله أمير المؤمنين يزيد بن الوليد إلى مروان بن محمد أما بعد، فإنني أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى. فإذا أتاك كتابي هذا فاعتمد على أيهما شئت. والسلام».

- انظر البيان والتبيين ١/ ٣٠١ - ٣٠٢

(٢) أي بلا جدوى.

فصل

لِفي الكناية والاستعارة والمجاز والحقيقة

قد أجمع الجميع على أن الكناية أبلغ من الإفصاح، والتعريض أوقع من التصريح، وأن للاستعارة مزيةً وفضلاً، وأن المجاز أبدأ أبلغ من الحقيقة. إلا أن ذلك وإن كان معلوماً على الجملة فإنه لا تطمئن نفس العاقل في كُلِّ ما يطلب العلم به حتى يبلغ فيه غايته، وحتى يغفل الفكر إلى زواياه، وحتى لا يبقى عليه موضع شبهة ومكان مسألة، فنحن وإن كُنّا نعلم أنك إذا قلت: هو طويلُ التجاد وهو جَمُّ الرماد. كان أبهى لمعناك، وأنبلَ من أن تدع الكناية وتصريح بالذي تُريد. وكذا إذا قلت: رأيتُ أسداً. كان لكلامك مزيةً لا تكون إذا قلت: رأيت رجلاً هو في معنى الشجاعة وفي قوة القلب وشدة البطش، وأشبه ذلك. وإذا قلت: بلغني أنك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى. كان أوقع من صريحه الذي هو قولك: بلغني أنك تتردد في أمرك وأنت في ذلك كمن يقول: أخرج ولا أخرج فيقدم رجلاً ويؤخر أخرى. ونقطع على ذلك حتى لا يخالجنّا شك فيه وإنما تسكن أنفسنا تمام [٢٥ ب] السكون إذا عرفنا السبب في ذلك والعلّة ولم كان كذلك، وهياناً له عبارة تُفهم عتاً من نُريد إفهامه. وهذا هو قول^(١) في ذلك.

(١) في (ط): هو القول.

اعلم أنّ سبيلك أولاً أن تعلم أن ليست المزيّة التي تثبتها لهذه الأجناس على الكلام المتروك على ظاهره، والمبالغة التي تدعى لها في أنفس المعاني التي يقصد المتكلم إليها بخبره، ولكنها في طريق إثباته لها وتقريره إيّاها. تفسير هذا أن ليس المعنى إذا قلنا «إن الكناية أبلغ من التصريح» أنك لما كنيّت عن المعنى زدت في ذاته، بل المعنى أنك زدت في إثباته فجعلته أبلغ وأكد وأشدّ. فليست المزيّة في قولهم: «جُمّ الرماد» أنّه دلّ على قرى أكثر بل أنك أثبت له القرى الكثير من وجه هو أبلغ وأوجبته إيجاباً هو أشدّ، وأدعيته دغوى أنت بها أنطق، وبصحتها أوثق.

وكذلك ليست المزيّة التي تراها لقولك: «رأيت أسداً» على قولك: «رأيت رجلاً لا يميّز من الأسد في شجاعته وجراته» أنك قد أفدت بالأول زيادة في مساواته الأسد، بل أن أفدت^(١) تأكيداً وتشديداً وقوة في إثباتك له هذه المساواة وفي تقريرك لها. فليس تأثير الاستعارة إذن في ذات المعنى وحقيقته، بل في إيجابه والحكم به.

وهكذا قياس التمثيل ترى المزيّة أبداً في ذلك تقع في طريق إثبات المعنى دون المعنى نفسه. فإذا سمعهم يقولون: إن من شأن هذه الأجناس أن تُكسب المعاني نبلاً وفضلاً، وتوجب لها شرفاً، وأن تفخّمها في نفوس السامعين، وترفع أقدارها عند المخاطبين، فإنهم لا يريدون الشجاعة والقرى وأشباه ذلك من معاني الكلم المفردة وإنما يعنون إثبات معاني هذه الكلم لمن ثبت له ويخبر بها عنه.

هذا ما ينبغي للعاقل أن يجعله [٢٦] على ذكر منه أبداً وأن يعلم أن ليس لنا إذا نحن تكلمنا في البلاغة والفصاحة مع معاني الكلم المفردة شغل ولا هي منا بسبيل، وإنما نعمد إلى الأحكام التي تحدث بالتأليف والتركيب. وإذا قد عرفت مكان هذه المزيّة والمبالغة التي لا تزال تسمع بها وأنها في الإثبات دون المثبت فإن لها في كل واحد من هذه الأجناس سبباً وعلة.

(١) في (ب): بل بأن أفدت.

أما الكناية فإن السبب في أن كان للإثبات بها مزية لا تكون للتصريح أن كل عاقل يعلم - إذا رجع إلى نفسه - أن إثبات الصفة بإثبات دليلها، وإيجابها بما هو شاهد في وجودها، أكد وأبلغ في الدعوى من أن تجيء إليها فتثبتها ساذجاً غفلاً. وذلك أنك لا تدعي شاهد الصفة ودليلها إلا والأمر ظاهر معروف وبحيث لا يشك فيه ولا يُظن بالمخبر التجوُّز والغلط.

وأما الاستعارة فسبب ما ترى لها من المزية والفخامة أنك إذا قلت: «رأيت أسداً» كنت قد تلطفت لما أردت إثباته له من فرط الشجاعة حتى جعلتها كالشيء الذي يجب له الثبوت والحصول، وكالأمر الذي نُصب له دليل يقطع بوجوده. وذلك أنه إذا كان أسداً فواجب أن تكون له تلك الشجاعة العظيمة، والمستحيل أو الممتنع أن يغرى عنها، وإذا صرحت بالتشبيه فقلت: «رأيت رجلاً كالأسد» كنت قد أثبتتها إثبات الشيء يترجح بين أن يكون وبين أن لا يكون، ولم يكن من حديث الوجوب في شيء.

وحكم التمثيل حكم الاستعارة سواء. فإنك إذا قلت: أراك تُقدِّم رجلاً وتؤخر أخرى؛ فأوجبت له الصورة التي يُقطع معها بالتأخير والتردد كان أبلغ لا محالة من أن تجري على الظاهر. فتقول: قد جعلت تتردد في أمرك فانت كمن يقول: أخرج ولا أخرج، فيقدِّم رجلاً ويؤخر أخرى.

فصل

لِفي ضروب الاستعارات، العامي المبتذل والبديع النادر

[٢٦ ب] اعلم أنَّ من شأن هذه الأجناس أن تجري فيها الفضيلة وأن تتفاوت
التفاوت الشديد. أفلا ترى أنك تجد^(١) في الاستعارة العامي المبتذل كقولنا:
رأيت أسداً، ووردت بحراً، ولقيت بداراً؛ والخاصي النادر الذي لا تجده إلا في
كلام الفحول، ولا يقوى عليه إلا أفراد الرجال، كقوله^(٢):

❁ وسالت بأعناق المطي الأباطح ❁

أراد أنها سارت سيراً حثيثاً في غاية السرعة وكانت سرعة في لين وسلاسة

(١) قوله: «أنت تجد» سقط من (ط).

(٢) هذا الشطر هو عجز بيت، من ثلاثة أبيات متنازعة النسبة، فنسب إلى يزيد بن الطثيرة،
وكثير عزة، وكعب بن زهير، ونصيب، والمضرب.

- والأبيات مشهورة، وهي:

وَلَمَّا قَضَيْنَا مِنْ مِثْنَى كُلِّ حَاجَةٍ	وَمَسَّحَ بِالْأَرْكَانِ مَنْ هُوَ مَاسِحٌ
وَشُدَّتْ عَلَى حُذْبِ الْمَهَارَى رِحَالُنَا	وَلَا يَنْظُرُ الْغَادِي الَّذِي هُوَ رَائِعٌ
أَخَذْنَا بِأَطْرَافِ الْأَحَادِيثِ بَيْنَنَا	وَسَالَتْ بِأَعْنَاقِ الْمَطِيِّ الْأَبَاطِحُ

والأبيات وتخريجها في شعر يزيد بن الطثيرة: ٦٤

كأنها كانت سُيولاً وقعت في تلك الأباطح فجرت بها. ومثلُ هذه الاستعارة في الحُسْن واللفظِ وعُلُوّ الطبقة في هذه اللفظة بعينها قولُ الآخر^(١):

سَالَتْ عَلَيْهِ شِعَابُ الْحَيِّ حِينَ دَعَا أَنْصَارَهُ بِوَجْوهٍ كَالدَّنَانِيرِ

أراد أنه مطاعٌ في الحي وأنهم يُسرعون إلى نصرته، وأنه لا يدعوهم لحرب، أو نازلٍ خطب، إلا أتوه وكثروا عليه، وازدحموا حواليه، حتى تجدهم كالسُّيول تجيء من ههنا وههنا، وتنصبّ من هذا المسيل وذلك حتّى يَغصّ بها الوادي ويطفح منها.

ومن بديع الاستعارة ونادرها - إلا أنّ جهة الغرابة فيه غيرُ جهتها في هذا - قولُ يزيد بن مسلمة بن عبد الملك^(٢) يصفُ قُرساً له وأنه مؤدّبٌ وأنه إذا نزل عنه وألقى عنانه في قربوس^(٣) سَرَجِه وقف مكانه إلى أن يعودَ إليه:

(١) هو سُبيح بن الخطيم التيمي، تيم عبد مناة بن أد بن طابخة، من بطن منهم، يقال له بنو رفاعة. قال الأمدى (١٥٩ - ١٦٠) فيه: شاعر محسن. وهو القائل لزيد الفوارس الضبي في إبل كان استنقذها وردّها عليه:

نَبَهْتُ زَيْدًا فَلَمْ أَفْزَعْ إِلَى وَكَلٍ رَثَ السِّلَاحِ وَلَا فِي الْحَيِّ مَكْثُورٍ
إِنَّ ابْنَ آلِ ضَرَارٍ حِينَ أَنْدَبَهُ زَيْدًا سَعَى لِي سَعِيًّا غَيْرَ مَكْفُورٍ
سَالَتْ عَلَيْهِ بَرَاقُ الْحَيِّ حِينَ دَعَا أَنْصَارَهُ بِوَجْوهٍ كَالدَّنَانِيرِ

وهي سبعة أبيات في المؤتلف والمختلف، وستة أبيات في الوحشيات، والاختيارين ٦٩١. وتنسب الأبيات إلى دجاجة بن عبد القيس ومحرز بن المكعب، وزيد الفوارس بن حُصين الضبي (وهو الممدوح) فارس شاعر من سادة بني تميم. وهو فارس نخلة.

(٢) هو المعروف بالحصني لأنه كان ينزل حصن مسلمة بديار مضر فنسب إليه، ف قيل: الحصني، المسلمي. قال ابن المعتز: شاعر مكثُرُ مُحسن. وذكر ابن النديم أنّ ديوانه مئة ورقة. وبقي من شعره متفرقات في كتب الأدب. (انظر معجم الشعراء ٣٥٦، وطبقات ابن المعتز ٣٠١، والأغاني ١٢/١٠٥).

ودراسة عنه في (تطور الشعر في القرنين الثاني والثالث الهجريين) للدكتور عبد الرحمن عطية. والبيتان في الكامل للمبرّد (٢/١٩٠).

(٣) القربوس: حنو السرج. وهما قربوسان. والجمع قرابيس.

عَوْدَتُهُ فِيمَا أَزُورُ حَبَائِبِي إِهْمَالَهُ وَكَذَاكَ كُلَّ مَخَاطِرِ
وَإِذَا احْتَبَى قَرَبُوسُهُ بَعْنَانِهِ عِلَّكَ الشَّكِيمَ إِلَى انْصِرَافِ الرَّائِرِ^(١)

فالغربة ههنا في الشبه نفسه وفي أن استدرك أن هيئة العنان في موقعه من قربوس السرج كالهية في موقع الثوب من ركة المحتبي. وليست الغربة في قوله:

❁ وسالت بأعناق المطي الأباطح ❁

على هذه الجملة وذلك أنه لم يُغرب لأن جعلَ المطي في سُرعة سيرها وسهولته [٢٧] كالماء يجري في الأبطح؛ فإن هذا شبه معروف ظاهر. ولكن الدقة واللطف في خصوصية أفادها بأن جعل «سال» فعلاً للأباطح ثم عداه بالباء ثم بأن أدخل الأعناق في البيت فقال: «بأعناق المطي»، ولم يقل بالمطي، ولو قال: «سالت المطي في الأباطح» لم يكن شيئاً. وكذلك الغربة في البيت الآخر ليس في مطلق معنى «سال» ولكن في تعديته بـ «على» والباء وبأن جعله فعلاً لقوله: «شعاب الحي» ولولا هذه الأمور كلها لم يكن هذا الحسن.

وهذا موضع يدق الكلام فيه وهذه أشياء من هذا الفن:

الْيَوْمُ يَوْمَانِ مُذْ غُيِّبَتْ عَنْ بَصْرِي نَفْسِي فِدَاؤُكَ مَا ذَنْبِي فَأَعْتَذِرُ
أُمْسِي وَأَصْبَحُ لَا أَلْقَاكَ وَاحْرَزْنَا لَقَدْ تَأَنَّقَ فِي مَكْرُوهِهِ الْقَدَرُ!
سَوَّارُ بْنُ الْمَضْرَبِ وَهُوَ لَطِيفٌ جَدًّا^(٢):

بِعَرَضٍ تَنْوِفَةٍ لِلرِّيحِ فِيهَا نَسِيمٌ لَا يَرُوعُ الثَّرْبَ وَإِنْ

(١) احتبى بالثوب: جمع بين ظهره وساقيه بعمامة ونحوها. والشكيمة: الحديدية المعترضة في فم الفرس من اللجام.

(٢) البيت من أصمعية لسوار بن المضرب (٢٣٩ - ٢٤٣) ورواية البيت ثمة:

بِكُلِّ تَنْوِفَةٍ لِلرِّيحِ فِيهَا حَفِيفٌ لَا يَرُوعُ الثَّرْبَ وَإِنْ

وانظر مصادر ترجمته، وتخرجات القصيدة في (الأصمعيات).

- والواني: الضعيف.

بعض الأعراب^(١):

وَلِرُبِّ خَصِمٍ جَاهِدِينَ ذَوِي شَذَا تَقْذِي عُبُونُهُمْ بِهَيْثِرِ هَاتِرِ
لَدْ ظَاوَرْتُهُمْ عَلَى مَا سَاءَ هُمْ وَخَسَاتُ بَاطِلُهُمْ بِحَقِّ ظَاهِرِ
المقصود لفظة «خسأت»^(٢):

ابن المعتز^(٣):

حَتَّى إِذَا مَا عَرَفَ الصَّبْدَ الضَّارَ وَأَذِنَ الصُّبْحُ لَنَا فِي الْإِبْصَارِ
المعنى: حتى إذا تهيأ لنا أن نُبَصِّرَ شيئاً. لَمَا كَانَ تَعَذُّرُ الْإِبْصَارِ مَنَعاً مِنَ
الَلَّيْلِ جَعَلَ إِمْكَانَهُ عِنْدَ ظُهُورِ الصُّبْحِ إِذْنًا مِنَ الصُّبْحِ. وله^(٤):
بَخِيلٌ قَدْ بُلِيَتْ بِهِ يَكُذُّ الْوَعْدَ بِالْحُبَجِ

(١) هو ثعلبة بن صُعبير بن خزاعي المازني، وهو شاعر جاهل قديم. قال في شرح
المفضليات (القاهرة ١٢٨): ولم نجد له غير هذه القصيدة.

- وفي المفضليات: «تقذي صدورهم»... وفيه.

والخصم: يقال للمفرد والجمع. والشذا: الأذى. وتقذي: تقذف بالقذى. الهتر الهاتر:
الكلام القبيح. ولد جمع ألد وهو الشديد الخصومة. وظأرتهم: عطفتهم، وخسأت:
زجرت ودفعت.

(٢) سقطت العبارة من (ط).

(٣) ديوان ابن المعتز (٢/٤٣٨).

من قطعة في (البازي).

وبعده:

جَلَى لِكُلِّ شَيْخٍ نَائِي الدَّارِ فَارَسَ كَفَّ مَائِلَ كَالْأَسَاوِزِ
والضَّار: الضَّارِي.

(٤) ديوان ابن المعتز (١/٣٣١) وفيه:

«بَخِيلٌ قَدْ شَقِيْتُ بِهِ...» وبعده:

عَلَى بَسْتَانِ خَدِيهِ زَرَافِينَ مِنَ السَّبَجِ

وله^(١):

يُنَاجِينِي الْإِخْلَافَ مِنْ تَحْتِ مَظِلِّهِ فَتَخْتَصِمُ الْأَمَالُ وَالْبَاسُ فِي صَدْرِي
ومِمَّا هو في غايةِ الحُسْنِ وهو من الفَرَنِّ الأوَّل قول الشاعر؛ أنشده
الجاحظ^(٢):

لَقَدْ كُنْتُ فِي قَوْمٍ عَلَيْكَ أَشْحَى بِنَفْسِكَ إِلَّا أَنْ مَا طَاحَ طَائِحُ
[٢٧ ب] يَوْدُونَ لَوْ خَاطُوا عَلَيْكَ جُلُودَهُمْ وَلَا تَدْفَعُ الْمَوْتَ النُّفُوسُ الشَّحَائِحُ^(٣)
قال: وإليه ذهب بشار في قوله^(٤):

وَصَاحِبٍ كَالدَّمَلِ الْمُمِدِّ حَمَلْتُهُ فِي رُقْعَةٍ مِنْ جِلْدِي!
ومن سرّ هذا الباب أنك ترى اللفظة المستعارة قد استُعيرت في عدّة مواضع
ثم تَرى لها في بعض ذلك ملاحظة لا تجدها في الباقي. مثال ذلك أنك تنظرُ إلى
لفظة الجِسر في قول أبي تمام^(٥):

لَا يَظْمَعُ الْمَرْءُ أَنْ يَجْتَابَ لُجَّتُهُ بِالْقَوْلِ مَا لَمْ يَكُنْ جِسْرًا لَهُ الْعَمَلُ
وقوله^(٦):

- (١) ديوان ابن المعتز (١٢٥/٢).
- (٢) البيان والتبيين (٥٠/١) وهما منسوبان لشاعر اسمه الأغَرّ وانظر حاشية المحقق ثمة.
- (٣) في البيان والتبيين: «وهل يدفع الموت...».
- (٤) البيت ملفق من اثنين، وهما في ديوان بشار (٢٢٤/٢):
وَصَاحِبٍ كَالدَّمَلِ الْمُمِدِّ أَرْقُبُ مِنْهُ مِثْلَ يَوْمِ الْوَرْدِ
حَمَلْتُهُ فِي رُقْعَةٍ مِنْ جِلْدِي صَبْرًا وَتَنْزِيهًا لِمَا يَوْدِي
- والممد: الذي تخرج منه المدة (بكسر الميم). ويوم الورد: يوم نوبة الحمى. شبه
الشاعر يوم زيارته بيوم مجيء الحمى.
- (٥) ديوان أبي تمام (١٦/٣) من قصيدة في مدح المعتصم بالله، وفيه:
لَا يَظْمَعُ الْمَرْءُ أَنْ يَجْتَابَ غَمْرَتَهُ....
- (٦) ديوانه (٧٣/١) من بائته المشهورة في فتح عمورية.

بَصُرْتُ بِالرَّاحَةِ الْعُظْمَى فَلَمْ تَرَهَا تُنَالُ إِلَّا عَلَى جِسْرِ مِنَ التَّعَبِ
فَتَرَى لَهَا فِي الثَّانِي حَسَنًا لَا تَرَاهُ فِي الْأَوَّلِ. ثم تنظرُ إليها في قول ربيعة
الرَّقِّي^(١):

قُولِي نَعَمْ وَنَعَمْ إِنْ قُلْتِ وَاجِبَةً قَالَتْ عَسَى وَعَسَى جَسْرٌ إِلَى نَعَمْ^(٢)
فَتَرَى لَهَا لَطْفًا وَخِلَابَةً^(٣) وَحُسْنًا لَيْسَ الْفَضْلُ فِيهِ بِقَلِيلِ.

ومما هو أصلٌ في شرف الاستعارة أن ترى الشاعرَ قد جمعَ بين عدّة
استعاراتٍ قَصْدًا إلى أن يلحقَ الشكلَ بالشَّكْلِ وأن يتمَّ المعنى والشَّبهُ فيما يُريد.
مثاله قولُ امرئ القيس^(٤):

فَقُلْتُ لَهُ لَمَّا تَمَطَّى بِضُلْبِهِ وَأَزْدَفَ أَعْجَازًا وَنَاءً بِكُلْغَلِ

لما جعل لليل ضُلباً قد تمطّى به ثَنَى ذلك فجعلَ لَهُ أعجازاً قد أردف بها
الضُّلْبَ وثَلَّث فجعل له كلِّلاً قد ناءَ به. فاستوفى له جملة أركان الشَّخص،
وراعى ما يراه الناظرُ من سواده إذا نظر قُدَّامه وإذا نظر إلى ما خَلْفَه^(٥)، وإذا
رَفَعَ البصرَ ومَدَّه في غُرْضِ الجَوِّ.

(١) هو ربيعة بن ثابت بن لجأ الأسدي نسباً الرقي موطناً. شاعر عباسي، ولعله أدرك الدولة
المروانية فتى. اتصل بخلفاء العباسيين وولاتهم ومدحهم، ونال أعطياتهم. وكان ربيعة
الرقي ضريباً. وتوفي سنة ١٩٨ هـ

- وله ديوان شعر يضمّ الملتقط والمجموع من شعره. (طبع وزارة الثقافة - دمشق).

(٢) البيت من قصيدة له، عدّها ابن المعتز فيما يُستملح من شعره. وروايته في الديوان:

قُولِي: نَعَمْ إِنَّهَا إِنْ قُلْتِ نَافِعَةٌ قَالَتْ: عَسَى، وَعَسَى جَسْرٌ إِلَى نَعَمْ

(٣) الخلابة في أصل معناها: الخديعة (والإغراء) برفيق الحديث، ومن هنا قيل: امرأة
خلابة! واللطف والخلابة في عبارة المؤلف على المجاز.

(٤) من معلقة امرئ القيس (ديوانه: ٦٢).

(٥) سقطت «ما» من: (ط).

[القول في النظم وفي تفسيره]

واعلم أنَّ ههنا أسراراً ودقائق لا يُمكن بيانها إلا بعد أن نُعدَّ جملةً من القول [٢٨] في النظم وفي تفسيره والمُرَاد منه وأيُّ شيء هو، وما محصولة ومحصول الفضيلة فيه. فينبغي لنا أن نأخذَ في ذكره، وبيان أمره، وبيان المزية التي تُدعى له من أين تأتيه، وكيف تعرضُ فيه، وما أسبابُ ذلك وعِلله، وما المُوجبُ له.

وقد علمت إطباق العلماء على تعظيم شأن النظم وتفخيم قدره، والتنويه بذكره، وإجماعهم أن لا فضلَ مع عَدَمِهِ، ولا قدرَ لكلام إذا هو لم يستقمَ له، ولو بلغَ في غرابية معناه ما بلغ، وبَتُّهم الحكم بأنه الذي لا تمامَ دونه، ولا قوامَ إلا به، وأنه القطب الذي عليه المدار، والعمود الذي به الاستقلال. وما كان بهذا المحلِّ من الشَّرَفِ، وفي هذه المنزلة من الفضل، وموضوعاً هذا الموضع من المزية، وبالغاً هذا المبلغ من الفضيلة، كان حَرَى بأن توقَّظَ له الهِمَمُ، وتوَكَّلَ به النفوسُ، وتحركَ له الأفكار، وتُستخدم فيه الخواطر، وكان العاقلُ جديراً أن لا يَرْضَى من نفسه بأن يجد فيه سبيلاً إلى مزية علم، وفضل استبانة، وتلخيص حُجَّة، وتحرير دليل، ثم يعرضُ عن ذلك صفحاً، ويطوي دونه كشحاً، وأن يَرَبُّاً بنفسه، وتدخلَ عليه الأنفة من أن يكون في سبيل المقلِّد الذي لا يَبْتَ حُكماً، ولا يَقْتُلُ الشيءَ علماً، ولا يجدُ ما يُبْرِئ من الشُّبهة، ويشفي غليل الشاك، وهو يَسْتَطِيعُ أن يرتفع عن هذه المنزلة، ويُبَيِّنَ من^(١) هو بهذه الصِّفة، فإنَّ ذلك دليلُ ضعفِ الرأي وقصرِ الهمة ممن يختاره ويعملُ عليه.

واعلم أنَّ ليسَ النظمُ إلا أن تضعَ كلامك الوضعَ الذي يَقْتضيه علمُ النحو، وتعملَ على قوانينه وأصوله، وتعرفَ مناهجَه التي نُهَجَّتْ فلا تزيغَ عنها، وتحفَظَ الرسومَ التي رُسمت لك فلا تُخلَّ بشيءٍ منها، وذلك أتا لا نعلم شيئاً يبتغيه

(١) في (أ): ما، وفي (ب): من.

الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه - فينظر في الخبر إلى الوجوه التي تراها [٢٨ ب] في قولك: زيد منطلقٌ و «زيد ينطلق» و «ينطلق زيد» و «منطلق زيد» و «زيد المنطلق» و «المنطلق زيد» و «زيد هو المنطلق» و «زيد هو منطلق». وفي الشرط والجزاء إلى الوجوه التي تراها في قولك: إن تخرج أخرج، وإن خرجت خرجت، وإن تخرج فأنا خارج، وأنا خارج إن خرجت، وأنا إن خرجت خارج. وفي الحال إلى الوجوه التي تراها في قولك: جاءني زيد مسرعاً، وجاءني يسرع، وجاءني وهو مسرع، أو هو يسرع، وجاءني قد أسرع، وجاءني وقد أسرع. فيعرف لكل من ذلك موضعه، ويجيء به حيث ينبغي له. وينظر في الحروف التي تشترك في معنى ثم ينفرد كل واحد منها بخصوصية في ذلك المعنى فيضع كلاً من ذلك في خاص معناه، نحو أن يجيء ب (ما) في نفي الحال، وب (لا) إذا أراد نفي الاستقبال، وب (إن) فيما يرجح بين أن يكون وأن لا يكون، وب (إذا) فيما علم أنه كائن؛ وينظر في الجمل التي تسرد فيعرف موضع الفصل فيها من موضع الوصل، ثم يعرف فيما حقه الوصل موضع الواو من موضع الفاء، وموضع الفاء من موضع (ثم) وموضع (أو) من موضع (أم)، وموضع (لكن) من موضع (بل). ويتصرف في التعريف والتشكيك والتقديم والتأخير في الكلام كله، وفي الحذف والتكرار والإضمار والإظهار، فيصيب بكل^(١) من ذلك مكانه، ويستعمله على الصحة وعلى ما ينبغي له.

هذا هو السبيل فلست بواجب شيئاً يرجع صوابه إن كان صواباً وخطؤه إن كان خطأ إلى النظم، ويدخل تحت هذا الاسم، إلا وهو معنى من معاني النحو قد أصيب به موضعه ووضع في حقه، أو عومل بخلاف هذه المعاملة فأزيل عن موضعه، واستعمل في غير ما ينبغي له، فلا ترى كلاماً قد وُصف بصحة نظم أو فساده، أو وُصف بمزية وفضل فيه، إلا وأنت تجد مرجع تلك الصحة وذلك الفساد وتلك المزية وذلك الفضل إلى معاني النحو وأحكامه، ووجدته يدخل في أصل من أصوله، ويتصل بباب من أبوابه.

(١) في (ط): فيضع كلاً.

هذه [٢٩] جملة لا تزداُ فيها نظراً، إلا ازددت لها تصوّراً، وازدادت عندك صحّة وازددت بها ثقة، وليس من أحدٍ تُحرّكه لأن يقولَ في أمر النّظم شيئاً إلا وجدته قد اعترف لك بها أو ببعضها، ووافقَ فيها درى ذلك أو لم يدر. ويكفيكَ أنهم قد كشفوا عن وجه ما أردناه حيث ذكروا فساد النظم؛ فليس من أحدٍ يُخالف في نحو قول الفرزدق^(١):

وما مثله في الناس إلا مُملّكاً أبو أمّه حيّ أبوه يقاربُه
وقول المتنبي^(٢):

ولذا اسمُ أغطيّة العيون جفونُها من أنّها عملَ السُّيوفِ عوامِلُ
وقوله^(٣):

الطيبُ أنت إذا أصابَكَ طيبُه والماءُ أنت إذا اغتسلت الغاسِلُ
وقوله^(٤):

وقاؤكما كالربيع أشجاء طائِمُه بأن تُسعيدا والدّمُعُ أشفاء ساجِمُه
وقول أبي تمام^(٥):

ثانيه في كِبِدِ السّماءِ ولم يَكُنْ لاثْنَيْنِ ثانٍ إذ هُما في الغارِ
وقوله^(٦):

يَدِي لِمَنْ شَاءَ رَهْنٌ لَمْ يَذُقْ جُرْعاً من راحَتِكَ دَرَى ما الصّابُ والعسلُ

(١) البيت في ديوان الفرزدق (١٠٨/١).

(٢) من قصيدة في مدح أبي الفضل أحمد بن عبد الله الأنطاكي. (ديوانه: ٢٦٦).

(٣) الديوان: ٢٧١ من القصيدة نفسها.

(٤) مطلع قصيدة في مدح سيف الدولة الحمداني (ديوان أبي الطيب بشرح الواحدي: ٣٧٣).

(٥) ديوان أبي تمام (٢٠٧/٢) من قصيدة في مدح المعتصم وذكر أمر الأفشين.

(٦) ديوانه (٥/٢) في مدح المعتصم بالله.

وفي نظائر ذلك مما وصفوه بفساد النظم وعابوه من جهة سوء التأليف، أنّ الفساد والخلل كانا من أن تعاطى الشاعر ما تعاطاه من هذا الشأن على غير الصواب، وصنع في تقديم أو تأخير أو حذف وإضمار أو غير ذلك ما ليس له أن يصنعه، وما لا يسوغ ولا يصح على أصول هذا العلم. وإذا ثبت أن سبب فساد النظم واختلاله أن لا يعمل بقوانين هذا الشأن ثبت أن سبب صحته أن يعمل عليها. ثم إذا ثبت أن مستنبط صحته وفساده من هذا العلم ثبت أن الحكم كذلك في مزيتيه والفضيلة التي تعرض فيه. وإذا ثبت جميع ذلك ثبت أن ليس هو شيئاً غير توخى معاني هذا العلم وأحكامه فيما بين الكلم. والله الموفق للصواب [٢٩ ب].

وإذ قد عرفت ذلك فاعمد إلى ما توافقه بالحسن، وتشاهدوا له بالفضل، ثم جعلوه كذلك من أجل النظم خصوصاً دون غيره مما يستحسن له الشعر أو غير الشعر من معنى لطيف أو حكمة^(١) أو أدب أو استعارة أو تجنيس أو غير ذلك مما لا يدخل في النظم وتأمله، فإذا رأيته قد ارتحت واهتزت واستحسنته فانظر إلى حركات الأريحية مم كانت؟ وعند ماذا^(٢) ظهرت؟ فإنك ترى عياناً أن الذي قلت لك كما قلت. اعمد إلى قول البحري^(٣):

بَلَوْنَا ضَرَائِبَ مَنْ قَدْ نَرَى قَمَا إِنْ رَأَيْنَا لِفَتْحٍ ضَرْبَا
هُوَ الْمَرْءُ أَبَدَتْ لَهُ الْحَادِثَا ثُ عَزْماً وَشِكَاً وَرَأْيَا صَلِيبَا
تَنْقَلَّ فِي خُلُقِي سُودُودُ سَمَاحاً مُرَجَّى وَبَاساً مَهِيْبَا
فَكَالسَّيْفِ إِنْ جِئْتُهُ صَارِخَاً وَكَالْبَحْرِ إِنْ جِئْتُهُ مُسْتَشِيْبَا

(١) في (ط): أو أدب.

(٢) في (أ): عندما ظهرته.

(٣) ديوان البحري (١/١٠١)، والأبيات من قصيدة له في مدح الفتح بن خاقان ومعاتبته. والضرائب جمع ضربة وهي الطبيعة والخلق، والضرب الشبيه، المستشب (اسم فاعل) طالب الثواب والعطاء.

فإذا رأيتها قد راقتك وكثرت عندك، ووجدت لها اهتزازاً في نفسك، فعُدْ فانظر في السَّبَبِ، واستقصِ في النَّظَرِ، فإنك تعلم ضرورةً أن ليس إلا أنه قدّم وأخر، وعَرَفَ ونَكَّرَ، وحَذَفَ وأضمر، وأعاد وكرَّرَ، وتوخَّى على الجملة وجهاً من الوجوه التي يقتضيها علمُ النحو فأصاب في ذلك كله ثم لطف موضع صوابه وأتى ما تَتَى يُوجب الفضيلة. أفلا ترى أن أول شيء يروك منها قوله: «هو المرء أبدت له الحادثات» ثم قوله: «تنقل في خلقي سودد» بتكثير السُّودد وإضافة الخلقين إليه. ثم قوله: «فكالسيف» وعطفه بالفاء مع حذفه المبتدأ لأن المعنى: لا محالة فهو كالسيف. ثم تكريره الكاف في قوله: «وكالبحر» ثم أن قرن إلى كل واحد من التشبيهين شرطاً جوابه فيه. ثم أن أخرج من كل واحد من الشَّرطين [١٣٠] حالاً على مثال ما أخرج من الآخر، وذلك قوله: «صارخاً» هناك «ومُستثيباً» ها هنا. لا ترى حسناً تنسبه إلى النظم ليس سببه ما عدت أو ما هو في حكم ما عدت، فاعرف ذلك.

وإن أردت أظهر أمراً في هذا المعنى فانظر إلى قول إبراهيم بن العباس^(١):

فلو إذ نبا دهرٌ وأنكر صاحبٌ وسلط أعداءٌ وغاب نصيرٌ
تكون عن الأهوازِ داري بنجوةٍ ولكن مقاديرٌ جرت وأمورٌ
وإني لأرجو بعد هذا محمداً لأفضل ما يرجى أخ وزيرٌ

فإنك ترى ما ترى من الرُّونق والظلاوة، ومن الحُسن والحلاوة، ثم تتفقُ السَّبَبِ في ذلك فتجده إنما كان من أجل تقديمه الظَّرَفَ الذي هو «إذ نبا» على عامله الذي هو «تكون» وأن لم يقل: فلو تكون عن الأهوازِ داري بنجوةٍ إذ نبا دهرٌ. ثم أن قال «تكون» ولم يقل «كان» ثم أن نَكَّرَ «الدهر» ولم يقل «فلو إذ نبا الدَّهر» ثم أن ساق هذا التنكير في جميع ما أتى به من بعد. ثم أن قال: «وأنكر الدَّهر»

(١) ديوانه (في الطرائف الأدبية: ١٣٢)، وهي قطعة قالها لمحمد بن عبد الملك الزيات في أول الأمر يمدحه وفيه: «تغير لي دهرٌ...».

صاحبٌ» ولم يقل: «وأنكرتُ صاحباً». لا ترى في البيتين الأولين شيئاً غير الذي عدّدته لك تجعله حسناً في النّظم؛ وكلّه من معاني التّحو كما ترى. وهكذا السّبيلُ أبداً في كلِّ حُسْنٍ ومزِيّةٍ رأيتهما قد نُسبا إلى النظم وفضلٍ وشرفٍ أُحيلَ فيهما عليه.



فصل

لِفي أن مزايا النظم بحسب الموضع وبحسب المعنى المراد والغرض المقصوداً

وإذ قد عرفت أن مدار أمر النظم على معاني النحو وعلى الوجوه والفروق التي من شأنها أن تكون فيه، فاعلم أن الفروق والوجوه كثيرة ليس لها غاية تقف عندها، ونهاية لا تجد لها ازدياداً بعدها، ثم اعلم أن ليست المزية بواجبة لها في أنفسها ومن حيث هي على الإطلاق، ولكن تعرض بسبب المعاني والأغراض التي يوضع لها الكلام [٣٠ ب]، ثم بحسب موقع بعضها من بعض واستعمال بعضها مع بعض. تفسيرُ هذا أنه ليس إذا راقك التنكير في «سؤدد» من قوله «تنقل في خلقي سؤدد» وفي «دهر» من قوله «فلو إذ نبا دهر» فإنه يجب أن يروقك أبداً وفي كل شيء. ولا إذا استحسنت لفظ ما لم يُسم فاعله في قوله: «وأنكر صاحب» فإنه ينبغي أن لا تراه في مكان إلا أعطيتُه مثل استحسانك ههنا. بل ليس من فضلٍ ومزيةٍ إلّا بحسب الموضع، وبحسب المعنى الذي تُريد والغرض الذي تؤم، وإنما سبيلُ هذه المعاني سبيلُ الأصباغ التي تعمل منها الصورُ والنقوشُ فكما أنك ترى الرجلَ قد تهذى في الأصباغ التي عمل منها الصورةُ والنقشُ في ثوبه الذي نسج إلى ضربٍ من التخيير والتدبر في أنفس الأصباغ وفي مواقعها ومقاديرها وكيفية مزجها لها وترتيبها إياها إلى ما لم يتهدَّ

إليه صاحبه فجاء نقشه من أجل ذلك أعجب، وصورته أغرب، كذلك حال الشاعر والشاعر في توخيها معاني النحو، ووجوه التي علمت أنها محضول النظم.

واعلم أن من الكلام ما أنت ترى المزية في نظمه والحسن^(١) كالأجزاء من الصبغ تتلاحق وينضم بعضها إلى بعض حتى تكثر في العين؛ فأنت لذلك لا تكبر شأن صاحبه ولا تقضي له بالحدق والأستاذية وسعة الذرع وشدة المنة^(٢) حتى تستوفي القطعة وتأتي على عدة أبيات وذلك ما كان من الشعر في طبقة ما أنشدتكم من أبيات البحري. ومنه ما أنت ترى الحسن يهجم عليك منه دفعة، ويأتيك منه ما يملأ العين ضربة^(٣) حتى تعرف من البيت الواحد مكان الرجل من الفضل، وموضعه من الحدق، وتشهد له بفضل المنة وطول الباع، وحتى تعلم - إن لم تعلم القائل - أنه من قبل شاعر فحل، وأنه خرج من تحت يد صناع، وذلك ما [١٣١] إذا أنشدته وضعت فيه اليد على شيء فقلت: هذا هذا. وما كان كذلك فهو الشعر الشاعر^(٤)، والكلام الفاخر، والنمط العالي الشريف، والذي لا تجده إلا في شعر الفحول البزل ثم المطبوعين الذين يلهمون القول إلهاماً.

ثم إنك تحتاج إلى أن تستقري عدة قصائد بل أن تقلي ديواناً من الشعر حتى تجمع منه عدة أبيات وذلك ما كان مثل قول الأول، وتمثل به أبو بكر الصديق رضوان الله عليه حين أتاه كتاب خالد بالفتح في هزيمة الأعاجم:

تمننا ليلقانا بقوم نخال بياض لأهمم السرابا
فقد لاقيتنا فرأيت حرباً عواناً تمنع الشيخ الشرابا

انظر إلى موضع الفاء في قوله:

(١) في (ط): نظمه الحسن.

(٢) المنة: القوة.

(٣) في (ط): غرابة.

(٤) في (ط): شعر الشاعر.

❁ فقد لاقيتنا فرأيت حرباً ❁

ومثل قول العباس بن الأحنف^(١):

قَالُوا: خُرَاسَانُ أَقْصَى مَا يُرَادُ بِنَا ثُمَّ الْقُفُولُ فَقَدْ جِئْنَا خُرَاسَانَا
انظر إلى موضع الفاء و «ثم» قبلها. ومثل قول ابن الدُّمَيْنَةِ^(٢):

أَبِينِي أَفِي يُمْنِي بِدِيكَ جَعَلْتَنِي فَاغْرَحْ أَمْ صَبَّرْتَنِي فِي شِمَالِكَ
أَبَيْتُ كَأَنِّي بَيْنَ شَقَّيْنِ مِنْ عَصَا حِذَارَ الرَّدَى أَوْ خَيْفَةً مِنْ زِيَالِكَ
تَعَالَلْتُ كَنِي أَشْجَى وَمَا بِكَ عِلَّةٌ تُرِيدِينَ قَتْلِي؛ قَدْ ظَفَرْتَ بِذَلِكَ

انظر إلى الفضل والاستئناف في قوله:

❁ تُرِيدِينَ قَتْلِي؟ قَدْ ظَفَرْتَ بِذَلِكَ ❁

ومثل قول أبي حَفْصِ الشَّطْرَنْجِي وقاله على لسانِ عُلَيَّةَ أُخْتِ الرَّشِيدِ، وقد كان الرَّشِيدُ عَتَبَ عَلَيْهَا^(٣):

لَوْ كَانَ يَمْنَعُ حَسَنُ الْعَقْلِ صَاحِبَهُ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ ذَنْبٌ إِلَى أَحَدٍ
كَانَتْ عُلَيَّةُ أَبْرَأَ النَّاسِ كُلِّهِمْ^(٤) مِنْ أَنْ تُكَافَأَ بِسُوءٍ آخَرَ الْأَبْدِ

(١) ديوان العباس بن الأحنف (دار صادر ٣١٢) وبعده:

مَنْ يَكُونُ الَّذِي أَرْجُو وَأَمْلُهُ أَمَّا الَّذِي كُنْتُ أَخْشَاهُ فَقَدْ كَانَا

وفي مناسبة: «أن الرشيد ألف العباس بن الأحنف، فلما خرج إلى خراسان طال مقامه بها، ثم خرج إلى أرمينية والعباس معه، فعارضه في طريقه، فأنشده الأبيات...».

(٢) ديوان ابن الدُّمَيْنَةِ: ١٧، من قصيدة غزليّة. والزّيال: الفراق.

ورد البيت الأول هنا في القصيدة (من ديوانه) برقم ١٩. والثالث هو من رواية في الحماسة البصرية (انظر حاشية المحقق على البيت ١٨). والبيت الثاني هو من رواية لصاحب الأغاني بدلاً من البيت ١٤ من نسق القصيدة.

(٣) وكان أبو حفص الشَّطْرَنْجِي شاعر عُلَيَّةَ أُخْتِ الرَّشِيدِ. والأبيات في الأغاني (٥٤/٢٢) قالها على لسانها يعتذر إلى هارون الرشيد ويسأله الرضا، ويستعطفه لها.

(٤) في الأغاني: كانت عُلَيَّةُ أَرَبَى النَّاسِ...

[٣١ب] ما أعجب الشيء ترجوه فتخرمه قد كنت أحسب أنني قد ملأت يدي!

انظر إلى قوله: «قد كنت أحسب»، وإلى مكان هذا الاستئناف.

ومثل قول أبي ذؤاد^(١):

ولقد أغتدي بدافع ركني أخوذني ذو ميمة إضرب
سلهب شرجب كأن رماحاً حملته وفي السراة دموع

انظر إلى التكرير في قوله: «كأن رماحاً» ومثل قول ابن البواب^(٢):

أتيتك عائداً بك من لك لما ضاقت الحيل
وصيرني هواك وبني لحيني يضرب المثل
فإن سلمت لكم نفسي فما لاقيته جلال
وإن قتل الهوى رجلاً فإني ذلك الرجل!

انظر إلى الإشارة والتعريف في قوله: فإني ذلك الرجل. ومثل قول عبد

الصمد^(٣):

- (١) هو أبو ذؤاد الإيادي، جارية بن الحجاج، شاعر جاهلي متقدم، عاش - كما قدر غرونيوم في مقدمة ديوانه: ٢٥٧ - من سنة ٤٨٠ إلى حوالي ٥٤٠ - ٥٥٠ م وهذا يعني أنه مات قبل ولادة النبي ﷺ بنحو ربع قرن من الزمان.
- والبيتان هما الأول والثالث من قطعة في ديوانه من ستة أبيات.
- رواية البيت الأول:

أجولي ذو ميمة أضرب

والأجولي: الفرس الجوال السريع. والأحودي: الحاذق المشتمر للأمور، السريع فيما أخذ به. والإضرب: الجواد الكثير العدو. والسلهب: العظيم الطول من الخيل. والشرجب: الطويل القوائم، أو الفرس الكريم الجواد. (انظر ديوانه: ٢٩٩).

- (٢) الأبيات في الأغاني (٢٠٥/٢٠) لمحمد بن أبي محمد البيزدي، في أخباره، وترجمته، وانظر أيضاً الأغاني (١٥٩/٦)، ومقالته في نسبة الشعر. والبيزدي شاعر عباسي، وله أخبار مع المأمون والمعتصم.

- (٣) هو عبد الصمد بن المعذل، شاعر عباسي مشهور. ترجم له ابن المعتز في طبقات

مُكْتَنِبٌ دُوْكَبِدٍ حَرَّى تَبْكِي عَلَيْهِ مُقْلَةً عَبْرَى
بَرْقَعُ يُمْنَاهُ إِلَى رَبِّهِ يَدْعُو وَفَوْقَ الْكَبِدِ الْبُسْرَى
انظر إلى لفظ «يدعو» وإلى موقعها. ومثل قول جرير^(١):

لِمَنْ الدِّيارُ بِبُرْقَةِ الرُّوحَانِ إِذْ لَا نَبِيْعُ زَمَانِنَا بِزَمَانِ
صَدَعَ الْغَوَانِي - إِذْ رَمَيْنَ - فُؤَادَهُ صَدَعَ الرُّجَاجَةَ، مَا لِذَاكَ تَدَانِ

انظر إلى قوله: «ما لذاك تدان»، وتأمل حال هذا الاستئناف. ليس من بصير عارف بجوهر الكلام حساس متفهم لسر هذا الشأن يُنشد أو يقرأ هذه الأبيات إلا لم يلبث أن يضع يده في كل بيت منه على الموضع الذي أشرت إليه يَعَجَب ويعَجَب ويكْبُر شأنَ المزية فيه والفضل.

= الشعراء: ٣٦٨. والقطعة في ديوانه (مجموع شعره ط بغداد): ١٠٣. ونسبهما في الزهرة (٢٤/١) مع بيتين آخرين لمانى الموسوس.
(١) ديوان جرير (١٠٠٨/٢).

فصل

لِفي شواهد على الكلام تتحد أجزاءه ويدخل بعضها في بعضاً

واعلم أن مما هو أصل في أن يدقّ النظر ويغمض [١٣٢] المسلك في توخي المعاني التي عرفت أن تتحد أجزاء الكلام ويدخل بعضها في بعض، ويشد ارتباط ثانٍ منها بأول، وأن يحتاج في الجملة إلى أن تضعها في النفس وضعاً واحداً، وأن يكون حالك فيها حالّ الباني يضع يمينه ههنا في حال ما يضع بيساره هناك. نعم وفي حال ما يُبصر مكان ثالث ورابع يضعهما بعد الأولين. وليس لما شأنه أن يجيء على هذا الوصف حدّ يحصره وقانون يحيط به، فإنه يجيء على وجوه شتى وأنحاء مختلفة. فمن ذلك أن تزواج بين معنيين في الشرط والجزاء معاً كقول البحتري^(١):

إذا ما نهى الناهي فلجّ بي الهوى أصاحت إلى الواشي فلجّ بها الهجر
وقوله^(٢):

إذا اختربت يوماً ففاضت دماؤها تذكّرت القربى ففاضت دموعها

(١) ديوان البحتري (٨٤٤/٢) من قصيدة في مدح الفتح بن خاقان.

(٢) ديوان البحتري (١٢٩٩/٢) من قصيدة في مدح المتوكل على الله.

فهذا نوعٌ. ونوع منه آخر قول سليمان بن داود القضاعي:

فبينما المرأة في علياء أهوى ومنحطّ أتبع له اعتلاء
وبينا نعمة إذ حال بؤس وبؤس إذ تعقبه ثراء^(١)

ونوع ثالث وهو ما كان كقول كثير^(٢):

وإني وتهيامي بعزة بعدما تخلّيت ممّا بيننا وتخلّيت
لكالمُرْتَجِي ظِلَّ الغمامة كُلّما تَبَوّأ مِنها لِلْمَقْبِلِ اضمحلّت

وكقول البحتري^(٣):

لَعَمْرُكَ إِنَّا والزَّمان كما جَنَتْ على الأضعف الموهون عادية الأَفْوى
ومنه التقسيم، وخصوصاً إذا قسّمْتَ ثم جمعتَ كقول حسان^(٤):

قومٌ إذا حاربوا ضرّوا عدوّهم أو حاولوا النفع في أشياعهم نفّعوا
سَجِيَّةٌ تلك منهم غيرُ محدثةٍ إن الخلائق فاعلم شرّها البِدْعُ

[٣٢ ب] ومن ذلك، وهو شيء في غاية الحسن، قولُ القائل:

لو أنّ ما أنتم فيه يدوم لكم ظَنَنْتُ ما أنا فيه دائماً أبداً
لكن رأيتُ اللَّبالي غيرَ تاركَةٍ ما سرّ من حادثٍ أو ساء مُطَرِّداً
فقد سَكَنْتُ إلى أني وأنكُم سَنَسْتَجِدُّ خِلافَ الحالتَيْنِ عَداً^(٥)

(١) تعقبه: تتبعه.

(٢) ديوان كثير عزة: ١٠٣

(٣) ديوان البحتري (٥٦/١) من قصيدة في مدح صاعد بن مخلد أحد وزراء الموفق العباسي، ومدح ابنه أبا عيسى. ورواية الديوان:

أجدك! إنا والزمان كما جنت على الأضعف الموهون عادية الأَفْوى

(٤) ديوان حسان: ٢٤٨، من قصيدة في مفاخرة وفد تميم الذي وفد على رسول الله ﷺ.

(٥) سنجد أمراً جديداً.

قوله: «سنستجد خلاف الحاليتين غداً» جمعٌ فيما قسم لطيف. وقد ازدادَ لُطفًا بحسن ما بناه عليه، ولطفٍ ما توصل به إليه، من قوله: «فقد سكنت إلى أني وأنكم» وإذ قد عرفت هذا النمط من الكلام وهو ما تتحد أجزاءه حتى يُوضَعَ وضعاً واحداً فاعلم أنه النمط العالي والباب الأعظم والذي لا ترى سلطان المزية يعظم في شيء كعظمه فيه. ومما ندر منه ولطف مأخذه، ودقَّ نظر واضعه، وجلَّى لك عن شأِرٍ قد تحسر دونه العتاقُ، وغاية يَغيا من قبلها المذاكي القرح^(١)، الأبيات المشهورة في تشبيه شيئين بشيئين - بيت امرئ القيس^(٢):

كَانَ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَظْباً وَيَابِساً لَدَى وَكْرِهَا الْعُتَابُ وَالْحَشْفُ الْبَالِي
وبيت الفرزدق^(٣):

وَالشَّيْبُ يَنْهَضُ فِي الشَّبَابِ كَأَنَّهُ لَيْلٌ يَصِيحُ بِجَانِبِهِ نَهَارُ
وبيت بشار^(٤):

كَانَ مُشَارَ النَّفْعِ فَوْقَ رُؤُوسِنَا وَأَسْيَافُنَا لَيْلٌ تَهَاوَى كَوَاكِبُهُ
وَمِمَّا أَتَى فِي هَذَا الْبَابِ مَا تَنَى أَعْجَبَ مِمَّا مَضَى كُلُّهُ قَوْلُ زِيَادِ الْأَعْجَمِ^(٥):
وَأَنَا وَمَا تُلْقِي لَنَا إِنْ هَجَوْتَنَا لِكَالْبَحْرِ مَهْمَا يُلْقَى فِي الْبَحْرِ يَغْرَقُ

(١) ذكى الفرس أتى عليه بعد قروحه سنة أو سنتان، والفرس القارح بمنزلة البازل من الإبل.

(٢) ديوان امرئ القيس: ٣٨، (يصف عقاباً بكثرة الصيد).

(٣) البيت في ديوانه: ٤٦٧

(٤) ديوان بشار ٣١٨/١

(٥) ثاني بيتين قالهما زياد الأعجم في الفرزدق، تحذيراً له من هجاء قومه. وهما في الأغاني، في ترجمة زياد (٣١٧/١٥) وقيله:

وَمَا تَرَكَ الْهَاجُونَ لِي إِنْ هَجَوْتُهُ مَصْحَاحاً أَرَاهُ فِي أَيْمِ الْفَرَزْدَقِ
فإننا..... البيت.

وإنما كان أعجب لأن عمله أدق، وطريقه أغمض، ووجه المشابكة^(١) فيه أغرب.

واعلم أن من الكلام ما أنت تعلم إذا تدبرته أن لم يحتج واضعُه إلى فكرٍ ورويةٍ [٢٣] حتى انتظم له^(٢) بل ترى سبيله في ضمّ بعضه إلى بعض سبيل مَنْ عَمَدَ إلى لآلٍ فخرطها^(٣) في سلك لا ينبغي أكثر من أن يمتعها التفرُّق، وكمن نَصَدَ أشياء بعضها على بعض لا يُريد في نَصْدِهِ ذلك أن تجيء له منه هيئةٌ أو صورةٌ بل ليس إلا أن تكون مجموعة في رأي العين. وذلك إذا كان معنك معنى لا يحتاج أن تصنع فيه شيئاً غير أن تعطف لفظاً على مثله كقول الجاحظ^(٤): «جَنَّبَكَ الله الشُّبُهَةَ، وعصمَكَ من الحَيَرَةِ، وجعلَ بينك وبين المعرفة نسباً، وبين الصدق سبباً، وحَبَّبَ إليك الثَّبْتَ، وزَيَّنَ في عينك الإنصاف، وأذاقك حلاوة التَّقْوَى، وأشعرَ قلبك عِزَّ الحقِّ، وأودَعَ صدرك بَرْدَ اليَقِينِ، وطردَ عنك ذُلَّ اليأس، وعرفَكَ ما في الباطل من الذُّلَّةِ، وما في الجهل من القِلَّةِ»، وكقول بعضهم: «الله درُ خطیبِ قام عندك یا امیر المؤمنین، ما أفصحَ لسانه، وأحسنَ بيانه، وأمضى جَنانَه، وأبلَّ ريقه، وأسهلَ طريقه»، ومثل قول النابغة في الثناء المسجوع^(٥): «أَيُّفَاخِرَكَ الْمَلِكُ^(٦) اللَّخْمِيُّ؟ فوالله لَقَفَاكَ خَيْرٌ من وجهه، ولشِمَالِكَ خَيْرٌ من يَمِينِه، ولأَخْمَصُكَ خَيْرٌ من رأسِه، ولَخَطْوُكَ خَيْرٌ من صوابِه، ولعِيكَ^(٧) خيرٌ من كلامه^(٨)، ولخَدَمِكَ خَيْرٌ من قومه». وكقول بعض البلغاء في وصف اللسان:

(١) في (ط): المشابهة!

(٢) (له) سقطت من (ط).

(٣) أي: فجمعها.

(٤) من خطبة كتاب الحيوان (٣/١).

(٥) الخبر في ترجمة النابغة في الأغاني (١٥/١٢٤).

(٦) في الأغاني: المنذر اللخمي.

(٧) في الأغاني: ولصحتك.

(٨) زاد في الأغاني هنا: «ولأمك خيرٌ من أبيه».

- وهذا المقتطف من كلمة للنابغة الذبياني أنشأها بناء على اقتراح الأمير الغساني

«اللسان أداة يظهر بها حسنُ البيان، وظاهرٌ يخبر عن الضمير، وشاهدٌ ينبئك عن غائب، وحاكمٌ يفصلُ به الخطاب، وواعظٌ ينهى عن القبيح، ومزينٌ يدعو إلى الحسن، وزارعٌ يحرثُ المودة، وحاصدٌ يحصد الضغينة، ومُلِهٌ يُوقِ الأسماع».

فما كان من هذا وشبهه لم يجب به فضلٌ إذا وجب إلا بمعناه أو بمُتون ألفاظه، دون نظمه وتأليفه، وذلك لأنه لا فضيلةٌ حتى ترى في الأمر مَصْنَعاً، وحتى تجد إلى التخيير سبيلاً، وحتى تكونَ قد استدركت صواباً.

فإن قلت: أفليس [٣٣ ب] هو كلاماً قد اطرَد على الصواب وسَلِمَ من العيب؟ أفما يكونُ في كثرةِ الصواب فضيلةٌ؟ قيل: أمّا والصواب كما ترى فلا. لأننا لسنا في ذكر تقويم اللسان والتحرُّز من اللحن وزيف الإعراب فنعتمد بمثل هذا الصواب. وإنما نحن في أمور تدرك بالفكر اللطيفة. ودقائق يوصلُ إليها بثاقب الفهم، فليس درك صواب دركاً فيما نحن فيه حتى يشرف موضعُه، ويصعب الوصول إليه، وكذلك لا يكون ترك خطأ تركاً حتى يحتاج في التحفظ منه إلى لطف نظر، وفضل روية، وقوة ذهن، وشدة تيقظ، وهذا باب ينبغي أن تراعيه، وأن تُعنى به، حتى إذا وازنت بين كلام وكلام دريت كيف تصنع، فضممت إلى كل شكل شكله، وقابلته بما هو نظيرٌ له، وميّزت ما الصنعة منه في لفظه، مما هي منه في نظمه.

واعلم أن هذا - أعني الفرق بين أن تكون المزية في اللفظ، وبين أن تكون في النظم - بابٌ يكثر فيه الغلط فلا تزال ترى مستحسناً قد أخطأ بالاستحسان موضعه، فينحلُّ اللفظ ما ليس له، ولا تزال ترى الشبهة قد دخلت عليك في الكلام قد حُسِّن من لفظه ونظمه، فظننت أن حُسْنَهُ ذلك كله للفظ منه دون النظم. مثال ذلك أن تنظر إلى قول ابن المعتز^(١):

= عمرو بن الحارث يشني عليه ثناءً مسجوعاً، وكان حسان في المجلس ذاته قد مدح الأمير نفسه بشعر عالي الطبقة. والخبر في الأغاني، وهو منقول في كتب الأدب والمحاضرات.

(١) ديوان ابن المعتز (٣٠٧/١).

وَأَنِّي عَلَى إِشْفَاقٍ عَيْنِي مِنَ الْعَدَا^(١) لَتَجْمَحُ مِنِّي نَظْرَةٌ ثُمَّ أَطْرِقُ

فترى أن هذه الطلاوة وهذا الظرف إنما هو لأن جعل النظر يجمع وليس هو لذلك بل لأن قال في أول البيت: «وإني» حتى دخل اللام في قوله: «لتجمع» ثم قوله: «مني» ثم لأن قال: «نظرة» ولم يقل النظر مثلاً ثم لمكان «ثم» في قوله: ثم أطرق، وللطيفة أخرى نصرت هذه اللطائف وهي اعتراضه بين اسم إن وخبرها بقوله: «على إشفاق عيني من العدا».

وإن أردت أعجب من ذلك فيما ذكرت لك فانظر إلى قوله - وقد تقدّم إنشاده قبل -:

[١٣٤] سَأَلْتُ عَلَيْهِ شِعَابَ الْحَيِّ حِينَ دَعَا أَنْصَارَهُ بِوُجُوهِ كَالْدَنَانِيرِ

فإنك ترى هذه الاستعارة على لطفها وغرابتها إنما تم لها الحسن وانتهى إلى حيث انتهى بما توخى في وضع الكلام من التقديم والتأخير وتجدها قد ملحت ولطفت بمعاونة ذلك ومؤازرته لها. وإن شككت فاعمد إلى الجارين والظرف فأزل كلاً منها عن مكانه الذي وضعه الشاعر فيه فقل: سألت شعاب الحي بوجوه كالدنانير عليه حين دعا أنصاره. ثم انظر كيف يكون الحال وكيف يذهب الحسن والحلاوة وكيف تعدم أريحيتك التي كانت وكيف تذهب النشوة التي كنت تجدها؟

وجملة الأمر أن ههنا كلاماً حسناً للفظ دون النظم، وآخر حسناً للنظم دون اللفظ، وثالثاً قد أتاه الحسن^(٢) من الجهتين، ووجبت له المزية بكلا الأمرين، والإشكال في هذا الثالث وهو الذي لا تزال ترى^(٣) الغلط قد عارضك فيه، وتراك قد حفت فيه على النظم فتركته، وطمحت ببصرك إلى اللفظ وقدّرت في حُسن كان به وباللفظ أنه للفظ خاصة. وهذا هو الذي أردت حين قلت لك: إن في الاستعارة ما لا يمكن بيانه إلا من بعد العلم بالنظم والوقوف على حقيقته.

(١) في (ط): من العدى

(٢) في (ط): قرى الحسن. وسقطت من (أ) كلمة أتا.

(٣) سقطت كلمة (ترى) من (ب).

ومن دقيق ذلك وَخَفِيَهُ أَنْكَ تَرَى النَّاسَ إِذَا ذَكَرُوا قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مريم: ٤/١٩]^(١) لم يزدوا فيه على ذِكْرِ الاستعارة ولم ينسبوا الشرف إلّا إليها، ولم يَرَوْا للمزية موجبا سواها، هكذا ترى الأمر في ظاهر كلامهم، وليس الأمر على ذلك. ولا هذا الشرف العظيم ولا هذه المزية الجليلة وهذه الرّوعة التي تدخلُ على النفوس عند هذا الكلام لمجرد الاستعارة. ولكن لأن سُلِكَ^(٢) بالكلام طريق ما يسند الفعل فيه إلى الشيء وهو لما هو من سببه فيرفع به ما يسند إليه ويؤتى بالذي الفعل له في المعنى منصوبا بعده مبيّنا أن ذلك الإسناد وتلك [٣٤ ب] النسبة إلى ذلك الأول إنما كان من أجل هذا الثاني ولما بينه وبينه من الاتصال والملازمة كقولهم: طاب زيد نفساً، وقرّ عمرٌو عيناً، وتصبّب عرقاً، وكرُم أصلاً، وحسن وجهاً. وأشباه ذلك مما تجدُ الفعل فيه منقولاً عن الشيء إلى ما ذلك الشيء من سببه وذلك أنا نعلم أن اشتعل للشيب في المعنى وإن كان هو للرأس في اللفظ، كما أن طابَ للنفس وقرّ للعين وتصبّب للعرق وإن أسند إلى ما أسند إليه، يُبَيِّنُ أن الشرف كان لأن سُلِكَ فيه هذا المسلك، وتوَحَّيَ به هذا المذهب، أن تدع هذا الطريق فيه وتأخذ اللفظ فتُسِنِدُهُ إلى الشيب صريحاً فتقول: اشتعلَ شيبُ الرأسِ والشيبُ في الرأس. ثم تنظر هل تجدُ ذلك الحسن وتلك الفخامة؟ وهل ترى الروعة التي كنت تراها؟ فإن قلت: فما السببُ في أن كان «اشتعل» إذا استعير للشيب على هذا الوجه كان له الفضل، ولمَ بَانَ بالمزية من الوجه الآخر هذه البيّنونَ فإن السببُ أنه يفيد مع لَمعانِ الشيبِ في الرأس الذي هو أصل المعنى الشمولَ وأنه قد شاع فيه، وأخذه من نواحيه، وأنه قد استغرقه^(٣)، وعمّ جُمَلَتَهُ، حتى لم يبقَ من السواد شيءٌ أو لم يبقَ منه إلّا ما لا يُعتدُّ به. وهذا ما لا يكون إذا قيل: اشتعل شيبُ الرأس أو الشيبُ في الرأس. بل لا يُوجب اللفظ حينئذ أكثر من ظهوره فيه على

(١) الآية الكريمة: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾.

(٢) في (ط): يسلك.

(٣) في (ط): استقر به.

الجملة. وَوزان هذا أنك تقول: اشتعل البيت ناراً. فيكون المعنى أن النار قد وقعت فيه وقوعَ الشُّمول وأنها قد استولت عليه وأخذت في طرفيه ووسطه. وتقول: اشتعلت النارُ في البيت. فلا يُفِيد ذلك بل لا يقتضي أكثر من وقوعها فيه وإصابتها جانباً منه. فأما الشمولُ وأن تكون قد استولت على البيت وابتزته فلا يُعْقَل من اللفظ البتة.

ونظير هذا في التنزيل قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾ [القمر: ٥٤/١٢] ^(١) التفجير للعيون في المعنى [٣٥ أ] وأوقع على الأرض في اللفظ كما أسند هناك الاشتعال إلى الرأس. وقد حصل بذلك من معنى الشُّمول ههنا مثلُ الذي حصل هناك. وذلك أنه قد أفاد أن الأرضَ قد كانت صارت عيوناً كُلُّها وأن الماء قد كان يفور من كل مكان منها. ولو أُجريَ اللفظ على ظاهره فقل: وَفَجَّرْنَا عيون الأرض أو العيون في الأرض. لم يُفِيد ذلك ولم يَدُلَّ عليه ولكان المفهوم منه أن الماء قد كان فار من عيون متفرقة في الأرض وتبجَّس من أماكن منها.

واعلم أن في الآية الأولى شيئاً آخر من جنس النظم وهو تعريف الرأس بالألف واللام وإفادة معنى الإضافة من غير إضافة وهو أحد ما أوجب المزية. ولو قيل: واشتعل رأسي. فصرَّح بالإضافة لذهب بعضُ الحُسن فاعرفه. وأنا أكتب لك شيئاً مما سبيل الاستعارة فيه هذا السبيلُ ليستحكم هذا البابُ في نفسك ولتأنس به. فمن عجيب ذلك قول بعض الأعراب ^(٢):

اللَّيْلُ دَاجٍ كَنَفًا جِلْبَابِهِ وَالْبَيْنُ ^(٣) مَحْجُورٌ عَلَى غُرَابِهِ

ليس كل ما ترى من الملاحاة لأنَّ جَعَلَ لليل جِلْبَاباً وَحَجَرَ على الغراب ولكن في أن وضع الكلام الذي ترى فجعل الليل مبتدأً وجعل (داج) خبراً له

(١) الآية: ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾.

(٢) الأول من الرجز لبعض الأعراب، في اللسان: (جلب) وروايته فيه:

* العيش داج كَنَفًا جِلْبَابِهِ *

- وكنف الشيء: جانيه.

(٣) في (أ): والليل محجور...

وفعلًا لما بعده وهو الكنفان وأضاف الجلباب إلى ضمير الليل ولأن جعل كذلك البين مبتدأ وأجرى محجوراً خبراً عليه^(١) وأن أخرج اللفظ على مفعول. يبين ذلك أنك لو قلت: وغراب البين محجورٌ عليه أو: قد حُجر على غراب البين، لم تجد له هذه الملاحه. وكذلك لو قلت: قد دجا كنفا جلباب الليل، لم يكن شيئاً! ومن النادر فيه قول المتنبي^(٢):

غَصَبَ الدَّهْرَ وَالْمُلُوكَ عَلَيْهَا فَبَنَاهَا فِي وَجْنَةِ الدَّهْرِ خَالاً!

قد ترى في أول الأمر أن حسنه أجمع في أن جعل للدهر وجنة وجعل البنية خالاً في الوجنة وليس الأمر [٣٥ ب] على ذلك فإن موضع الأعجوبة في أن أخرج الكلام مخرجه الذي ترى، وأن أتى بالخال منصوباً على الحال من قوله: «فبناها» أفلا ترى أنك لو قلت: وهي خالٌ في وجنة الدهر. لوجدت الصورة غير ما ترى؟ وشبيه بذلك أن ابن المعتز قال:

يَا مِسْكَةَ الْعِطَّارِ وَخَالَ وَجْهِ النَّهَارِ^(٣)

وكانت الملاحه في الإضافة بعد الإضافة لا في استعارة لفظة الخال إذ معلوم أنه لو قال: يا خالاً في وجه النهار أو: يا من هو خالٌ في وجه النهار، لم يكن شيئاً. ومن شأن هذا الضرب أن يدخله الاستكراه قال الصاحب^(٤): إِيَّاكَ وَالْإِضَافَاتِ الْمُدَاخِلَةَ فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَحْسُنُ. وذكر أنه يُستعمل في الهجاء كقول القائل:

يَا عَلِيُّ بْنُ حَمْزَةَ بْنِ عِمَارَةَ أَنْتَ وَاللَّهِ ثُلُجَةٌ فِي خِيَارَةِ^(٥)

(١) في (ط): عنه.

(٢) من قصيدة لأبي الطيب المتنبي في مدح سيف الدولة الحمداني (ديوانه: ٥٨٨).

(٣) ديوان ابن المعتز (٥٧٧/٢) والبيت أول قطعة في وصف سوداء.

(٤) الصاحب لقبٌ غلب على أبي القاسم إسماعيل بن عباد (٣٢٦ - ٣٨٥) وعمل كاتباً ثم وزيراً لدى بني بويه. وله مشاركة في الشعر وشيء من التأليف، ولأبي حيان التوحيدي فيه الكلام الطويل المشهور.

(٥) هو علي بن حمزة الأصفهاني، أحد أدباء أصفهان.

ولا شبهة في ثقل ذلك في الأكثر ولكنه إذا سلم من الاستكراه لُطِفَ ومُلِحَ.
ومما حَسُنَ فيه قول ابن المعتز أيضاً^(١):

وظَلَلْتُ تُدِيرُ الرَّاحَ أَيْدِي جَاذِرٍ عِناقِ دَنانِيرِ الوُجُوهِ مِلَاحٍ
ومما جاء منه حسناً جميلاً قول الخالدي في صِفَةِ غلام له^(٢):

وَيَغْرِفُ الشَّعْرَ مِثْلَ مَغْرِفَتِي وَهُوَ عَلَى أَنْ يَزِيدَ مُجْتَهِدٌ
وَصَبْرَفِي الْقَرِيضَ وَزَانَ دِينَ نَارِ الْمَعَانِي الدَّقَاقِ مُنْتَقِدٌ
ومنه قول أبي تمام^(٣):

خُذْهَا ابْنَةُ الْفِكْرِ الْمُهَذَّبِ فِي الدُّجَى وَاللَّيْلُ أَسْوَدُ رُقْعَةِ الْجِلْبَابِ
ومما أكثر الحُسْنِ فيه بِسَبَبِ النِّظْمِ قولُ المتنبي^(٤):

وَقَبِذْتُ نَفْسِي فِي ذِرَاكَ مَحَبَّةٍ وَمَنْ وَجَدَ الْإِحْسَانَ قَبِذاً تَقْبِداً
الاستعارة في أصلها مبتذلة معروفة فإنك ترى العامي يقول للرجل يكثر
إحسانه إليه وبره له، حتى يَأْلَفَهُ ويختارَ الْمُقَامَ عنده: قد قَبِذَنِي بِكَثْرَةِ إِحْسَانِهِ
إِلَيَّ، وجميل فعله معي [٣٦] حتى صارت نفسي لا تطاوعني على الخروج من
عنده. وإنما كان ما ترى من الحسن بالمُسْلَكِ الذي سلك في النظم والتأليف.

(١) ديوان ابن المعتز (٧٤/٢) ثاني بيتين في قطعة له.

(٢) الشعر لأبي عثمان سعيد بن هاشم الخالدي، في ديوان الخالديين: ١٢٢. وفيه:
«المعاني الجياد متقد» وهما ثمة بتقديم وتأخير.

(٣) ديوان أبي تمام (٩١/١) من قصيدة في مدح مالك بن طوق التغلبي، والوصف في
البيت لقصيدته.

(٤) ديوان أبي الطيب (٥٣٥) والبيت من قصيدة ظنانة في مدح سيف الدولة.

فصل

[القول في التقديم والتأخير]^(١)

هو باب كثير الفوائد، جَمُّ المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية، لا يزال يفتَرُّ لك عن بديعة، ويفضي بك إلى لطيفة، ولا تزال ترى شعراً يروقك مسمَّعه، ويلطِّف لديك موقعه، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك أن قُدِّم فيه شيءٌ وحُوِّل اللفظ^(٢) عن مكان إلى مكان.

واعلم أن تقديم الشيء على وجهين: تقديم يقال إنه على نية التأخير وذلك في كل شيء أقرته مع التقديم على حكمه الذي كان عليه وفي جنسه الذي كان فيه، كخبر المبتدأ إذا قَدِّمته على المبتدأ، والمفعول إذا قدمته على الفاعل، كقولك: منطلقٌ زيدٌ وضربَ عمرًا زيدٌ. معلومٌ أن «منطلق» و«عمرًا» لم يخرججا بالتقديم عما كانا عليه من كون هذا خبرَ مبتدأ ومرفوعاً بذلك وكون ذلك مفعولاً ومنصوباً من أجله. كما يكون إذا أخرت. وتقديم لا على نية التأخير ولكن على أن تنقل الشيء عن حكم إلى حكم وتجعل^(٣) له باباً غير بابهِ، وإعراباً غير إعرابه، وذلك أن تجيء إلى اسمين يحتمل كل واحد منهما أن يكون مبتدأ

(١) زاد في (ط) كلمة «فصل».

(٢) في (ب): لفظ.

(٣) في (ط): تجعله.

ويكون الآخر خبراً له فتقدم تارة هذا على ذاك وأخرى ذاك على هذا. ومثاله ما تصنعه بزيد والمنطلق حيث تقول مرة: زيد المنطلق. وأخرى: المنطلقُ زيدٌ. فأنت في هذا لم تقدم المنطلق على أن يكون متروكاً على حُكمه الذي كان^(١) عليه مع التأخير فيكون خبر مبتدأ كما كان بل على أن تنقله عن كونه خبراً إلى كونه مبتدأ. وكذلك لم تؤخر زيداً على أن يكونَ مُبتدأً كما كان، بل على أن تُخرجه عن كونه مبتدأً إلى كونه خبراً. وأظهر من هذا قولنا: [٣٦ ب] ضربتُ زيداً وزيد ضربته. لم تقدم زيداً على أن يكون مفعولاً منصوباً بالفعل كما كان ولكن على أن ترفعه بالابتداء وتشغل الفعل بضميره وتجعله في موضع الخبر له. وإذ قد عرفت هذا التقسيم فإني أتبعه بجملته من الشرح.

واعلم أنا لم نجدهم اعتمدوا فيه شيئاً يجري مجرى الأصل غير العناية والاهتمام. قال صاحب الكتاب وهو يذكر الفاعل والمفعول: «كأنهم يقدّمون الذي بيانه أهم لهم وهم بشأنه أغنى وإن كانا جميعاً يُهمّانهم ويغنيانهم» ولم يذكر في ذلك مثلاً. وقال النحويون: إنّ معنى ذلك أنه قد تكون أغراض الناس في فعل ما أن يقع بإنسان بعينه ولا يُبالون من أوقعه كمثل ما يعلم من حالهم في حال^(٢) الخارجي يَخْرُجُ فَيَعِثُ وَيُفْسِدُ وَيَكْثُرُ في الأذى، أنهم يريدون قتله ولا يُبالون مَنْ كان القتل منه، ولا يعينهم منه شيء فإذا قُتل وأراد مريدُ الإخبار بذلك فإنه يُقدّم ذكرَ الخارجي فيقول: قَتَلَ الخارجي زيدٌ. ولا يقول: قتل زيدٌ الخارجي. لأنه يعلم أن ليس للناس في أن يعلموا أن القاتلَ له زيدٌ جدوى وفائدة فيعينهم ذكره ويهتهم ويتصل بمسرتهم، ويعلم من حالهم أن الذي هُم متوقّعون له ومتطلّعون إليه متى يكون وقوع القتل بالخارجي المفسد وأنهم قد كُفوا شرّه وتخلصوا منه.

ثم قالوا: فإن كان رَجُلٌ ليس له بأس ولا يُقدَّر فيه أنه يُقتلُ فقتل رجلاً وأراد المخبر أن يخبر بذلك فإنه يقدم ذكرَ القاتل فيقول: قتل زيدٌ رجلاً: ذاك لأن الذي يعنيه ويعني الناس من شأن هذا القتل طرافته وموضع الندرة فيه وبُعده كان

(١) كلمة (كان) لم ترد في (ب).

(٢) كلمة (حال) من (ب).

من الظن. ومعلوم أنه لم يكن نادراً وبعيداً من حيث كان واقعاً بالذي وقع به ولكن من حيث كان واقعاً من الذي وقع منه. فهذا جيدٌ بالغ إلا أن الشأن في أنه ينبغي أن يُعرف في كل شيء قُدَم في موضع من [٣٧ أ] الكلام مثلُ هذا المعنى ويفسر وجهُ العناية فيه هذا التفسير. وقد وقع في ظنون الناس أنه يكفي أن يقال إنه قُدَم للعناية ولأن ذكره أهم، من غير أن يُذكر^(١) من أين كانت تلك العناية وبِمَ^(٢) كان أهم. ولتخليهم ذلك قد صغر أمرُ التقديم والتأخير في نفوسهم وهونوا الخطبَ فيه حتى إنك لترى أكثرهم يرى تتبعه والنظر فيه ضرباً من التكلف. ولم ترَ ظناً أزرى على صاحبه من هذا وشبهه.

وكذلك صنعوا في سائر الأبواب فجعلوا لا ينظرون في الحذف والتكرار، والإظهار والإضمار، والفصل والوصل، ولا في نوع من أنواع الفروق والوجوه، إلا نظرك فيما غيره أهم لك، بل فيما إن لم تعلمه لم يضرك. لا جرم أن ذلك قد ذهب بهم عن معرفة البلاغة ومنعهم أن يعرفوا مقاديرها، وصدَّ أوجههم عن الجهة التي هي فيها، والشقُّ الذي يحويها. والمداخلُ التي تدخل منها الآفة على الناس في شأن العلم، ويبلغ الشيطان مراده منهم في الصدَّ عن طلبه وإحراز فضيلته كثيرةٌ وهذه من أعجبها - إن وجدت متعجباً - وليت شِعري إن كانت هذه أموراً هينة، وكان المدى فيها قريباً، والجدا^(٣) يسيراً، من أين كان نظمٌ أشرف من نظم، وبِمَ عظم التفاوت، واشتد التباين، وترقى الأمر إلى الإعجاز، وإلى أن يفهر أعناق الجبابرة؟ أو ها هنا أمورٌ آخر نُحيلُ في المزية عليها، ونجعلُ الإعجازَ كان بها، فتكون تلك الحوالة لنا عُذراً في تركِ النظر في هذه التي معنا، والإعراض عنها وقلةِ المبالاة بها؟ أو ليس هذا التهاون - إن نظر العاقل - خيانةٌ منه لعقله ودينه ودُخولاً فيما يزري بذِي الخطر، ويَغُضُّ من قَدَرِ ذَوِي القدر؟ وهل يكون أضعف رأياً وأبعد من حسن التدبر منك إذا أهَمَّك

(١) في (ب): «يذكروا».

(٢) في (ط): «لِمَ».

(٣) الجدا: الغناء والنفع.

أن تعرف الوجوه في ﴿أَنْذَرْتَهُمْ﴾ [البقرة: ٦/٢]^(١) والإمالة في ﴿رَأَى الْقَمَرَ﴾ [الأنعام: ٧٧/٦]^(٢) وتعرف الصُّرَاطَ^(٣) والزُّرَاطَ [٣٧ ب] وأشياء ذلك مما لا يعدو علمك فيه اللفظ وجرس الصوت، ولا يمنعك إن لم تعلمه بلاغةً، ولا يدفعك عن بيان، ولا يُدْخِلُ عليك شكاً، ولا يُغْلِقُ دونك بابَ معرفة، ولا يُفْضِي بك إلى تحريف وتبديل، وإلى الخطأ في تأويل، وإلى ما يعظم فيه المَعَاب عليك، ويظيل لسان القادح فيك، ولا يعينك ولا يُهْمِّك أن تعرف ما إذا جهلته عَرَضَتْ نفسك لكل ذلك، وحصلت فيما هنالك، وكان أكثر كلامك في التفسير، وحيث تخوض في التأويل، كلام من لا يبني الشيء على أصله، ولا يأخذه من مأخذه، ومن ربّما وقع في الفاحش من الخطأ الذي يبقى عاره، وتشنع آثاره، ونسأل الله العِصْمَةَ من الزَّلَل، والتوفيق لما^(٤) هو أقربُ إلى رضاه من القول والعمل.

واعلم أن من الخطأ أن يُقَسَّم الأمر في تقديم الشيء وتأخيره قسمين فيجعل مفيداً في بعض الكلام وغير مفيد في بعض. وأن يعلّل تارة بالعناية وأخرى بأنه توسعة على الشاعر والكاتب، حتى تطرد لهذا قوافيه ولذاك سجعه. ذاك لأن من البعيد أن يكون في جملة النظم ما يدلُّ تارة ولا يدلُّ أخرى. فمتى ثبت في تقديم المفعول مثلاً على الفعل في كثير من الكلام أنه قد اختصَّ بفائدة لا تكون تلك الفائدة مع التأخير فقد وجب أن تكون تلك قضية في كل شيء وكل حال. ومن سبيل من يجعل التقديم وترك التقديم سواء أن يدعي أنه كذلك في عموم الأحوال، فأما أن يجعله بين بين، فيزعم أنه للفائدة في بعضها وللتصرف في اللفظ من غير معنى في بعض، فمما ينبغي أن يرغب عن القول به.

(١) الآية الكريمة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

(٢) الآية الكريمة: ﴿قَلَمًا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوَّيْنِ الْمَتَّالِينَ﴾.

(٣) في تفسير البحر المحيط (٢٥/١): روى الأصمعي عن أبي عمرو أنه قرأها (كلمة الصراط) بزاي خالصة. وعن الطبري أن الزاي لغة لعذرة وكعب وبني القين. (وانظر

الكشف عن وجوه القراءات السبع ٢٤/١ - ٢٧) والتيسير للداني: ١٨

(٤) في (ب) إلى ما.

وهذه مسائل لا يستطيع أحد أن يمتنع من التفرقة بين تقديم ما قُدِّمَ فيها وترك تقديمه. ومن أبين شيء في ذلك الاستفهام بالهمزة فإن موضع الكلام على أنك إذا قلت: أفعلت؟ فبدأت بالفعل كان الشك في الفعل نفسه وكان [٣٨] غرضك من استفهامك أن تعلم وجوده. وإذا قلت: أنت فعلت؟ فبدأت بالاسم كان الشك في الفاعل من هو وكان التردد فيه. ومثال ذلك أنك تقول: أبنييت الدار التي كنت على أن تبنيها؟ أقلت الشعر الذي كان في نفسك أن تقوله؟ أفرغت من الكتاب الذي كنت تكتبه؟ تبدأ في هذا ونحوه بالفعل لأن السؤال عن الفعل نفسه والشك فيه، لأنك في جميع ذلك متردد في وجود الفعل وانتفائه مجوّز أن يكون قد كان وأن يكون لم يكن. وتقول: أنت بنيت هذه الدار؟ أنت قلت هذا الشعر؟ أنت كتبت هذا الكتاب؟ فتبدأ في ذلك كله بالاسم. ذلك لأنك لم تشك في الفعل أنه كان؟ وكيف وقد أشرت إلى الدار مبنية والشعر مقولاً والكتاب مكتوباً؟ وإنما شككت في الفاعل من هو. فهذا من الفرق لا يدفعه دافع، ولا يشك فيه شاك، ولا يخفى فساد أحدهما في موضع الآخر. فلو قلت: أنت بنيت الدار التي كنت على أن تبنيها؟ أنت قلت الشعر الذي كان في نفسك أن تقوله؟ أنت فرغت من الكتاب الذي كنت تكتبه؟ خرجت من كلام الناس. وكذلك لو قلت: أبنييت هذه الدار؟ أقلت هذا الشعر؟ أكتبت هذا الكتاب؟ قلت ما ليس بقوله. ذاك لفساد أن تقول في الشيء المشاهد الذي هو نُضِبَ عينيك: أوجود أم لا؟ ومما يُعلم به ضرورة أنه لا تكون البداية بالفعل كالبداية بالاسم أنك تقول: أقلت شعراً قط؟ أرايت اليوم إنساناً؟ فيكون كلاماً مستقيماً. ولو قلت: أنت قلت شعراً قط؟ أنت رأيت إنساناً. أخطأت وذاك أنه لا معنى للسؤال عن الفاعل من هو في مثل هذا لأن ذلك إنما يتصور إذا كانت الإشارة إلى فعل مخصوص نحو أن تقول: من قال هذا الشعر؟ ومن بنى هذه الدار؟ ومن أتاك اليوم؟ ومن أذن لك في [٣٨] الذي فعلت؟ وما أشبه ذلك مما يمكن أن يُنص فيه على معين فأما قيل شعر على الجملة ورؤية إنسان على الإطلاق فمحال ذلك فيه لأنه ليس مما يختص بهذا دون ذاك حتى يسأل عن عين فاعله. ولو كان تقديم الاسم لا يوجب ما ذكرنا من أن يكون السؤال عن

الفاعل من هو، وكان يصح أن يكون سؤالاً عن الفعل أكان أم لم يكن، لكان ينبغي أن يستقيم ذلك.

واعلم أن هذا الذي ذكرته لك في الهمزة (وهي للاستفهام) قائم فيها إذا كانت هي للتقرير. فإذا قلت: أنت فعلت ذاك؟ كان غرضك أن تقرره بأنه الفاعل. يبين ذلك قوله تعالى حكاية عن قول نمرود: ﴿قَالُوا ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِلَهُ هَٰؤُلَاءِ﴾ [الأنبياء: ٢١/٦٢]^(١) لا شبهة في أنهم لم يقولوا ذلك له عليه السلام وهم يريدون أن يُقرّر لهم بأن كسر الأصنام قد كان ولكن أن يُقرّر بأنه منه كان [وكيف] وقد أشاروا له إلى الفعل في قولهم: «أأنت فعلت هذا» وقال هو عليه السلام في الجواب: «بل فعله كبيرهم هذا» ولو كان التقرير بالفعل لكان الجواب: فعلت أو لم أفعل. فإن قلت: أو ليس إذا قال: «أفعلت» فهو يريد أيضاً أن يقرّره بأن الفعل كان منه لا بأنه كان على الجملة؟ فأبي فرق بين الحالين؟ فإنه إذا قال: «أفعلت» فهو يقرّره بالفعل من غير أن يردده بينه وبين غيره، وكان كلامه كلام من يُوهم أنه لا يدري أن ذلك الفعل كان على الحقيقة. وإذا قال: أنت فعلت؟ كان قد ردّد الفعل بينه وبين غيره ولم يكن منه في نفس الفعل تردّد. ولم يكن كلامه كلام من يُوهم أنه لا يدري أكان الفعل أم لم يكن، بدلالة أنك تقول ذلك والفعل ظاهرٌ موجودٌ مشار^(٢) إليه كما رأيت في الآية.

واعلم أن الهمزة فيما ذكرنا تقريرٌ بفعل قد كان وإنكار له لم كان، وتوبيخٌ لفاعله عليه. ولها مذهب آخر وهو أن يكون لإنكار أن يكون الفعل قد كان من أصله. ومثاله قوله تعالى: ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنْتًا إِنَّكُمْ لَقَائِلُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ [الإسراء: ١٧/٤٠] [٣٩] وقوله عز وجل: ﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ﴾ [٥٣] مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ [الصافات: ٣٧/١٥٣]. فهذا ردٌّ على المشركين وتكذيبٌ لهم في قولهم ما يؤدي إلى هذا الجهل العظيم. وإذا قدم الاسم في هذا صار الإنكار في الفاعل ومثاله قولك للرجل قد انتحل شعراً:

(١) الآيتان الكريمتان: ﴿قَالُوا ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِلَهُ هَٰؤُلَاءِ﴾ [الأنبياء: ٢١/٦٢] قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَتَنَّاوَهُمْ إِنَّ كَانُوا يَنْشُرُونَ.﴾

(٢) في (ب): يشار.

أأنت قلت هذا الشعر؟ كذبت لست ممن يُحسن مثله. أنكرت أن يكون القائل ولم تُنكر الشعر. وقد تكون إذ يراد إنكار الفعل من أصله ثم يُخرج اللفظ مُخرجه إذا كان الإنكار في الفاعل، مثال ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ مَالَهُ أَذُنٌ لَكُمْ﴾ [الإذن راجع إلى قوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا﴾ [يونس: ٥٩/١٠]^(١) ومعلوم أن المعنى على إنكار أن يكون قد كان من الله تعالى إذن فيما قالوه من غير أن يكون هذا الإذن قد كان من غير الله فأضافوه إلى الله، إلا أن اللفظ أخرج مُخرجه إذا كان الأمر كذلك لأن يُجعلوا في صورة من غلط فأضافَ إلى الله تعالى إذناً كان من غير الله فإذا حقق عليه ارتدع. ومثال ذلك قولك للرجل يدعي أن قولاً كان ممن تعلم أنه لا يقوله: أهو قال ذاك بالحقيقة أم أنت تغلط؟ تضع الكلام وضعه إذا كنت علمت أن ذلك القول قد كان من قائل لينصرف الإنكار إلى الفاعل فيكون أشد لنفي ذلك وإبطاله. ونظير هذا قوله تعالى: ﴿قُلْ مَالَكُمْ حَرَمٌ أَمْ الْأَنْبِيَاءُ أَمَّا اسْتَمَلْتُ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأَنْبِيَاءِ﴾ [الأنعام: ١٤٣/٦]^(٢) أخرج اللفظ مُخرجه إذا كان قد ثبت تحريم في أحد أشياء ثم أريد معرفة عين المحرم مع أن المراد إنكار التحريم من أصله ونفي أن يكون قد حُرِّم شيء مما ذكروا أنه محرم. وذلك أن كان الكلام وضع على أن يجعل التحريم كأنه قد كان ثم يقال لهم: أخبرونا عن هذا التحريم الذي زعمتم فيم هو؟ أفي هذا أم ذاك أم في الثالث؟ ليتبين بطلان قولهم ويظهر مكان الفرية منهم على الله تعالى. ومثل ذلك قولك للرجل يدعي أمراً وأنت تنكره: متى كان هذا أفي [٣٩ ب] ليل أم نهار؟ تضع الكلام وضع من سلم أن ذلك قد كان ثم تطالبه ببيان وقته لكي يتبين كذبه إذا لم يقدر أن يذكر له وقتاً ويفتضح. ومثله قولك: من أمرك

(١) الآية الكريمة: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ مَالَهُ أَذُنٌ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْقَهُونَ﴾.

(٢) الآية: ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَسَاتٌ كُتِلُوا مِنْكُمْ رِزْقُكُمْ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦١﴾ تَنْبِيْهُ أَرْوَاحُ مِنَ الْفَنَاءِ أَتَنْبِيْهُ قُلْ مَالَكُمْ حَرَمٌ أَمْ الْأَنْبِيَاءُ أَمَّا اسْتَمَلْتُ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيُّوِي بِمِلِّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٢/٦-١٤٣].

بهذا ممّا وأيّنا أذن لك فيه؟ وأنت لا تعني أن أمراً قد كان بذلك من واحد منكم إلا أنك تضع الكلام هذا الوضع لكي تضيق عليه وليظهر كذبه حين لا يستطيع أن يقول فلان وأن يحيل على واحد.

وإذ قد بينا الفرق بين تقديم الفعل وتقديم الاسم والفعل ماضٍ فينبغي أن ينظر فيه والفعل مضارع. والقول في ذلك أنك إذا قلت: أتفعل؟ وأنت تفعل؟ لم يخلُ من أن تريد الحال أو الاستقبال. فإن أردت الحال كان المعنى شبيهاً بما مضى في الماضي فإذا قلت: أتفعل؟ كان المعنى على أنك أردت أن تقرّره بفعل هو يفعله وكنت كمن يوهم أنه لا يعلم بالحقيقة أن الفعل كائن. وإذا قلت: أأنت تفعل؟ كان المعنى على أنك تريد أن تقرّره بأنه الفاعل، وكان أمرُ الفعل في وجوده ظاهراً وبحيث لا يُحتاج إلى الإقرار بأنه كائن. وإن أردت بتفعل المستقبل كان المعنى: إذا بدأت بالفعل على أنك تعتمد بالإنكار إلى الفعل نفسه وترغم أنه لا يكون أو أنه لا ينبغي أن يكون. فمثال الأول^(١):

أَيَقْتُلُنِي وَالْمُشْرِفِي مُضَاجِعِي وَمَسْنُونَةُ زُرْقٍ كَأَنْيَابٍ أَغْوَالٍ؟!

فهذا تكذيبٌ منه لإنسان تهذّده بالقتل وإنكار أن يقدر على ذلك ويستطيعه. ومثله أن يطمع طامع في أمر لا يكون مثله فتجهله في طمعه فتقول: أيرضى عنك فلان وأنت مقيمٌ على ما يكره؟ أتجد عنده ما تحبُّ وقد فعلت وصنعت؟ وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿أَنْزِلْهُمْ كُفُوهَا وَأَنْتَ لَهَا كَرِهُونَ﴾ [هود: ٢٨/١١]^(٢) ومثال الثاني قولك للرجل يركب الخطر: أخرج في هذا الوقت؟ أتذهب في غير الطريق؟ أتعزّز بنفسك؟ وقولك للرجل يضيع الحق: أتتسى قديمَ إحسانٍ فلان؟ أترك صاحبه [٤٠ أ] وتتغير عن حالك معه لئن تغيّر الزمان؟ كما قال^(٣):

(١) ديوان امرئ القيس: ٣٣ من قصيدته التي أولها:

ألا عم صباحاً أيها الطلل البالي وهل يعمن من كان في العصر الخالي

(٢) الآية الكريمة: ﴿قَالَ يَقْوَرُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَى يَتْنِ رَبِّي وَءَاتَنِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُيبَتْ عَلَيْكُمْ أَنْزِلْهُمْ كُفُوهَا وَأَنْتَ لَهَا كَرِهُونَ﴾.

(٣) البيت لعمارة بن عقيل بن بلال بن جرير، من قطعة يمدح بها خالد بن يزيد بن مزيد

=

أَأْتَرُكَ أَنْ قُلْتَ دَرَاهِمُ خَالِدٍ زِيَارَتُهُ؟ إِيَّايَ إِذَا لَلَّيْمُ!

جُمْلَةُ الأَمْرِ أَنَّكَ تَنَحَوُ بِالْإِنْكَارِ نَحْوَ الْفِعْلِ فَإِنْ بَدَأْتَ بِالْأَسْمِ فَقُلْتَ: أَأَنْتَ تَفْعَلُ؟ أَوْ قُلْتَ: أَهُوَ يَفْعَلُ؟ كُنْتَ وَجْهْتَ الْإِنْكَارَ إِلَى نَفْسِ الْمَذْكُورِ وَأَبَيْتَ أَنْ تَكُونَ بِمَوْضِعِ أَنْ يَجِيءَ مِنْهُ الْفِعْلُ وَمَنْ يَجِيءُ مِنْهُ وَأَنْ يَكُونَ بِتِلْكَ الْمَثَابَةِ. تَفْسِيرُ ذَلِكَ أَنَّكَ إِذَا قُلْتَ: أَأَنْتَ تَمْنَعُنِي؟ أَأَنْتَ تَأْخُذُ عَلَى يَدِي؟ صَرْتَ كَأَنَّكَ قُلْتَ: إِنْ غَيْرِكَ الَّذِي يَسْتَطِيعُ مَنَعِي وَالْأَخْذَ عَلَى يَدِي وَلَسْتُ بِذَاكَ، وَلَقَدْ وَضَعْتَ نَفْسَكَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِكَ، هَذَا إِذَا جَعَلْتَهُ لَا يَكُونُ مِنْهُ الْفِعْلُ لِلْعَجْزِ وَلِأَنَّهُ لَيْسَ فِي وَسْعِهِ. وَقَدْ يَكُونُ أَنْ تَجْعَلَهُ لَا يَجِيءُ مِنْهُ لِأَنَّهُ لَا يَخْتَارُهُ وَلَا يَرْضِيهِ وَأَنْ نَفْسَهُ نَفْسُ تَأْبَى مِثْلَهُ وَتَكْرَهُهُ. وَمِثَالُهُ أَنْ تَقُولَ: أَهُوَ يَسْأَلُ فَلَانًا؟ هُوَ أَرْفَعُ هِمَّةً مِنْ ذَلِكَ. أَهُوَ يَمْنَعُ النَّاسَ حَقُوقَهُمْ؟ هُوَ أَكْرَمُ مِنْ ذَاكَ. وَقَدْ يَكُونُ أَنْ تَجْعَلَهُ لَا يَفْعَلُهُ لِصِغَرِ قَدْرِهِ وَقَصَرِ هِمَّتِهِ وَأَنْ نَفْسَهُ نَفْسٌ لَا تَسْمُو. وَذَلِكَ قَوْلُكَ: أَهُوَ يَسْمَحُ بِمِثْلِ هَذَا؟ أَهُوَ يَرْتَاحُ لِلْجَمِيلِ؟ هُوَ أَقْصَرُ هِمَّةً مِنْ ذَلِكَ وَأَقْلُ رَغْبَةً فِي الْخَيْرِ مِمَّا تَنْظُنُّ.

وَجُمْلَةُ الأَمْرِ أَنْ تَقْدِيمَ الْأَسْمِ يَقْتَضِي أَنَّكَ عَمَدْتَ بِالْإِنْكَارِ إِلَى ذَاتِ مَنْ قِيلَ إِنَّهُ يَفْعَلُ أَوْ قَالَ هُوَ: إِيَّايَ أَفْعَلُ. وَأَرَدْتَ مَا تَرِيدُهُ إِذَا قُلْتَ: لَيْسَ هُوَ بِالَّذِي يَفْعَلُ وَلَيْسَ مِثْلُهُ يَفْعَلُ. وَلَا يَكُونُ هَذَا الْمَعْنَى إِذَا بَدَأْتَ بِالْفِعْلِ فَقُلْتَ: أَتَفْعَلُ؟ أَلَا تَرَى أَنَّ الْمَحَالَّ أَنْ تَزْعِمَ أَنَّ الْمَعْنَى فِي قَوْلِ الرَّجُلِ لِصَاحِبِهِ: أَتُخْرِجُ فِي هَذَا الْوَقْتِ؟ أَتُغَرَّرُ بِنَفْسِكَ؟ أَتَمْضِي فِي غَيْرِ الطَّرِيقِ؟ أَنَّهُ أَنْكَرَ أَنْ يَكُونَ بِمَثَابَةِ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ وَبِمَوْضِعِ مَنْ يَجِيءُ مِنْهُ ذَاكَ. ذَاكَ لِأَنَّ الْعِلْمَ مُحِيطٌ بِأَنَّ النَّاسَ لَا يَرِيدُونَهُ وَأَنَّهُ لَا يَلِيقُ بِالْحَالِ الَّتِي يَسْتَعْمَلُ فِيهَا هَذَا الْكَلَامُ. وَكَذَلِكَ مُحَالٌّ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى فِي قَوْلِهِ جَلٌّ وَعَلَا [٤٠ ب]: ﴿أَنْزَلْنَاهُمْ وَأَنْشَرْنَاهُمْ كَذِبُهُمْ﴾ أَتَا لِسْنَا بِمَثَابَةِ مَنْ يَجِيءُ مِنْهُ هَذَا الْإِلْزَامُ وَأَنْ غَيْرِنَا مَنْ يَفْعَلُهُ - جَلٌّ اللَّهُ تَعَالَى - وَقَدْ يَتَوَهَّمُ الْمَتَوَهَّمُ فِي الشَّيْءِ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ يَحْتَمَلُ، فَإِذَا نَظَرَ لَمْ يَحْتَمَلْ، فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ:

= الشَّيْبَانِيُّ وَيَذَمُّ تَمِيمَ بْنَ خَزِيمَةَ بْنَ خَازِمِ النَّهْشَلِيِّ.

(انظر: الكامل للمبرّد ٣١٣/١، والعمدة ٧٠/١) والبيت في ديوان عمارة (مجموع

شعره) طبع ببغداد: ٧٥ وانظر تخريجه فيه.

❁ أيقنلني والمشرفي مضاجعي؟ ❁

وقد يظنُّ الظانُّ أنه يجوز أن يكون في معنى أنه ليس بالذي يجيء منه أن يقتل مثلي ويتعلّق بأنّه قال قَبْلُ^(١):

يَغِطُ غَطِيطَ الْبَكْرِ شُدَّ خِنَاقُهُ لِيَقْتُلْنِي وَالْمَرْءُ لَيْسَ بِقَتَّالٍ

ولكنه إذا نظر عليم أنّه لا يجوز وذاك لأنه قال: «والمشرفي مضاجعي»، فذكر ما يكون منعاً من الفعل، ومُحال أن يقول هو ممن لا يجيء منه الفعل ثم يقول: إني أمتعه؛ لأنَّ المنع يُتصوّر فيمن يجيء منه الفعل ومع من يصح منه، لا من هو منه محال، ومن هو نفسه عنه عاجز، فاغرفه.

واعلم أنا وإنَّ كُنَّا نفَسِّرُ الاستفهامَ في مثل هذا بالإنكار فإن الذي هو مَحْضُ المعنى أنه لتنبيه السامع حتى يرجع إلى نفسه فيخجل ويرتدع^(٢) ويعيا بالجواب، إمّا لأنه قد ادّعى القدرة على فعل لا يقدر عليه فإذا ثبت على دعواه قيل له «فافعل» فيفضحه ذلك، وإما لأنه همّ بأن يفعل ما لا يستصوب فغله فإذا رُوجع فيه تنبه وعرف الخطأ، وإما لأنه جَوّز وجودَ أمر لا يوجد مثله فإذا ثبت على تجويزه وُبَيِّحَ على تَعَتُّبِهِ^(٣) وقيل له: فأرِنَاهُ في موضع وفي حال وأقم شاهداً على أنّه كان في وقت. ولو كان يكون للإنكار وكان المعنى فيه من بدء الأمر لكان ينبغي أن لا يجيء فيما لا يقول عاقل إنه يكون حتى يُنكَرَ عليه كقولهم: أتصعد إلى السماء؟ أتستطيع أن تنقلَ الجبالَ؟ أإلى رُدٍّ ما مضى سبيلٌ؟ وإذ قد عرفت ذلك فإنّه لا يقرّر بالمحال وبما لا يقول أحدٌ إنه يكون إلّا على سبيل التمثيل وعلى أن يقال له [١٤١] إنك في دعواك ما ادعيت بمنزلة من يدّعي هذا المحال، وإنك في طَمَعِكَ في الذي طَمَعْتَ فيه بمنزلة من يطمع في الممتنع.

(١) ديوان امرئ القيس: ٣٣ (بشرح الأعلام الشتمري) ومنه:

- البكر: الفتى من الإبل، وهو صعبٌ عند الرياضة فيشدّ حبلٌ في خنقه ليراض به فيُسمع له غطيظ. والمعنى: هذا الرجل لغيظه عليّ يردّد صوتاً كصوت المختنق.

(٢) سقطت كلمة (ويرتدع) من (ب).

(٣) في (ب): وقبح على نفسه.

وإذ قد عَرَفْتَ هذا فمما هو من هذا الضَرْبِ قوله تعالى: ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصَّمَّةَ أَوْ تَهْدِي السَّمْعَى﴾ [الزخرف: ٤٣/٤٠]^(١) ليس إسماعُ الصَّمِّ مما يدَّعيه أحدٌ فيكون ذلك للإنكار وإنما المعنى فيه التمثيل والتشبيه وأن ينزل الذي يُظَنُّ بهم أنهم يَسْمعون أو أنه يستطيع إسماعهم منزلةً من يرى أنه يُسْمِعُ الصَّمَّ ويهدي السَّمْعَى. ثم المعنى في تقديم الاسم وأن لم يُقَلَّ «أُتَسْمَعُ الصَّمَّ» هو أن يقال للنبي ﷺ: أنت خصوصاً قد أوتيت أن تُسمع الصَّمَّ؟ وأن يُجْعَلَ في ظَنِّه أنه يستطيع إسماعهم بمثابة من يظن أنه قد أوتي قدرة على إسماع الصَّم. ومن لطيف ذلك قول ابن أبي عيينة:

فَدَعَ الْوَعِيدَ فَمَا وَعَيْدُكَ ضَائِرِي أَطْنِينُ أَجْنَحَةِ الذَّبَابِ يَضِيرُ؟^(٢)

جعله كأنه قد ظَنَّ أن طنينَ أجنحة الذباب بمثابة ما يضير حتى ظَنَّ أن وعيده يضير.

واعلم أنَّ حَالَ المفعولِ فيما ذكرنا كحال الفاعلِ أعني تقديم اسم المفعول يقتضي أن يكون الإنكارُ في طريق الإحالة والمنع من أن يكون بمثابة أن يُوقَعَ به مثلُ ذلك الفعل فإذا قلت: أزيداً تضربُ؟ كنتَ قد أنكرتَ أن يكونَ زيدٌ بمثابة أن يُضْرَبَ أو بموضع أن يجترأ عليه ويستجأزَ ذلك فيه، ومن أجل ذلك قدَّم (غير) في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَخْيَدُ وَلِيًّا﴾ [الأنعام: ١٤/٦]^(٣) وقوله عزَّ وجلَّ^(٤): ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَدَابُ اللَّهِ أَوْ أَنْتُمْ السَّاعَةُ أَغَيَّرَ اللَّهُ تَدْعُونَ﴾ [الأنعام: ٤٠/٦] وكان له من الحسن والمزية والفخامة ما علم أنه لا يكونُ لو أُخِّرَ فقيلاً: قل أنتخذُ غير الله ولياً وأتدعون غير الله؟ وذلك لأنه قد حَصَلَ بالتقديم معنى قولك: أيكون غيرُ الله

(١) الآية الكريمة: ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصَّمَّةَ أَوْ تَهْدِي السَّمْعَى وَمَنْ كَانَتْ فِي صَلَكِ ثِيَابٍ﴾.

(٢) البيت لابن أبي عيينة (الكامل ٣٤/٢) من قطعة في هجاء علي بن محمد بن جعفر، وكان دعاه إلى نصرته فلم يجبه فقال: الأبيات وهي خمسة. والشاعر هو عبد الله بن محمد بن أبي عيينة المهلب.

(٣) وهي: ﴿قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَخْيَدُ وَلِيًّا فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُعَلِّمُ وَلَا يُعْلَمُ قُلْ إِنْ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَتْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

(٤) والآية: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَدَابُ اللَّهِ أَوْ أَنْتُمْ السَّاعَةُ أَغَيَّرَ اللَّهُ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

بمثابة أن يتخذ ولياً؟ وأيرضى [٤١ ب] عاقل من نفسه أن يفعل ذلك؟ وأيكون جهلاً أجهلاً وعمى أعمى من ذلك؟ ولا يكون شيء من ذلك إذا قيل: أأتخذ غير الله ولياً: وذلك لأنه حينئذ يتناول الفعل أن يكون فقط ولا يزيد على ذلك فاعرفه. وكذلك الحكم في قوله تعالى^(١): ﴿فَقَالُوا أَبَشَرًا مِثَّا وَجِدًا نَّتَّبِعُهُ﴾ [القمر: ٥٤/ ٢٤] وذلك لأنهم بنوا كفرهم على أن من كان مثلهم بشراً لم يكن بمثابة أن يتبع ويطاع ويُنْتَهَى إلى ما يأمر ويُصدَّق أنه مبعوث من الله تعالى، وأنهم مأمورون بطاعته، كما جاء في الأخرى^(٢): ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا﴾ [إبراهيم: ١٤/ ١٠] وكفوله عز وجل^(٣): ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ٢٤] فهذا هو القول في الضرب الأول وهو أن يكون يفعل بعد الهمزة لفعل لم يكن.

وأما الضرب الثاني وهو أن يكون يفعل لفعل موجود فإن تقديم الاسم يقتضي شبهاً بما اقتضاه في الماضي من الأخذ بأن يُقرَّ أنه الفاعل أو الإنكار أن يكون الفاعل. فمثال الأول قولك للرجل يبغي ويظلم: أنت تجيء إلى الضعيف فتغصب ماله؟ أنت تزعم أن الأمر كيت وكيت؟ وعلى ذلك قوله تعالى^(٤): ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠/ ٩٩] ومثال الثاني^(٥): ﴿أَهَرَّ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٣٢].

- (١) الآية: ﴿فَقَالُوا أَبَشَرًا مِثَّا وَجِدًا نَّتَّبِعُهُ﴾ إِنَّا إِذَا لَبِئْسَ فَكْلًا وَشَعِيرًا.
- (٢) الآية: ﴿قَالَتْ رَسُولُهُمْ أَفَى اللَّهِ شَكٌّ فَأَطِيعِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ دُؤْبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَدُؤُنَا ءَابَاؤُنَا قَاتِلُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾.
- (٣) الآية: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي ءَابَائِنَا الْأُولَى﴾.
- (٤) الآية الكريمة: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جِئِمَّا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾.
- (٥) الآية الكريمة: ﴿أَهَرَّ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرَاءً وَرَحِمَتْ رَبُّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

فصل

[في التقديم مع النفي]

وإذ قد عرفت هذه المسائل في الاستفهام فهذه مسائل في النفي. إذا قلت: ما فَعَلْتُ؛ كُنْتَ نَفَيْتَ عَنْكَ فِعْلاً لَمْ يَثْبُتْ أَنَّهُ مَفْعُول. وإذا قلت: ما أَنَا فَعَلْتُ؛ كُنْتَ نَفَيْتَ عَنْكَ فِعْلاً ثَبَّتَ أَنَّهُ مَفْعُول. تفسِيرُ ذَلِكَ أَنَّكَ إِذَا قُلْتَ: ما قُلْتُ هَذَا؛ كُنْتَ نَفَيْتَ أَنَّ تَكُونَ قَدْ قُلْتَ ذَاكَ وَكُنْتَ تُوْظِرْتَ فِي شَيْءٍ لَمْ يَثْبُتْ أَنَّهُ مَقُول. وإذا قلت: ما أَنَا قُلْتُ هَذَا؛ كُنْتَ نَفَيْتَ أَنَّ تَكُونَ الْقَائِلَ لَهُ وَكَانَتِ الْمَنَاطَرَةُ فِي شَيْءٍ ثَبَّتَ أَنَّهُ مَقُول. وكذلك إِذَا قُلْتَ: ما ضَرَبْتُ زَيْدًا؛ كُنْتَ نَفَيْتَ عَنْكَ ضَرْبَهُ وَلَمْ يَجِبْ أَنَّ [١٤٢] يَكُونَ قَدْ ضُرِبَ، بَلْ يَجُوزُ أَنَّ يَكُونَ قَدْ ضَرَبَهُ غَيْرَكَ وَأَنَّ لَا يَكُونَ قَدْ ضُرِبَ أَصْلًا. وإذا قلت: ما أَنَا ضَرَبْتُ زَيْدًا؛ لَمْ تَقْلَهُ إِلَّا وَزَيْدٌ مُضْرُوبٌ وَكَانَ الْقَصْدُ أَنَّ تَنْفِي أَنَّ تَكُونَ أَنْتَ الضَّارِبَ، وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ صَلَحَ فِي الْوَجْهِ الْأَوَّلِ أَنَّ يَكُونَ الْمَنْفِيَّ عَامًّا كَقَوْلِكَ: ما قُلْتُ شِعْرًا قَطُّ وَمَا أَكَلْتُ الْيَوْمَ شَيْئًا وَمَا رَأَيْتُ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ. وَلَمْ يَصْلَحْ فِي الْوَجْهِ الثَّانِي فَكَانَ خَلْفًا أَنْ تَقُولَ: ما أَنَا قُلْتُ شِعْرًا قَطُّ، وَمَا أَنَا أَكَلْتُ الْيَوْمَ شَيْئًا، وَمَا أَنَا رَأَيْتُ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ. وَذَلِكَ لِأَنَّهُ يَقْتَضِي الْمَحَالَّ وَهُوَ أَنَّ يَكُونَ هَهُنَا إِنْسَانٌ قَدْ قَالَ كُلَّ شَيْءٍ فِي الدُّنْيَا وَأَكَلَ كُلَّ شَيْءٍ يُؤْكَلُ وَرَأَى كُلَّ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ فَنَفَيْتَ أَنَّ تَكُونَهُ.

ومما هو مثال بَيِّن في أن تقديم الاسم يقتضي وجود الفعل قوله^(١):

وَمَا أَنَا أَسْقَمْتُ جِسْمِي بِهِ وَلَا أَنَا أَضْرَمْتُ فِي الْقَلْبِ نَارًا

المعنى: كما لا يخفى على أن السقم ثابتٌ موجودٌ وليس القصد بالنفي إليه، ولكن إلى أن يكون هو الجالب له ويكون قد جَرَّه إلى نفسه.

ومثله في الوضوح قوله^(٢):

❁ وما أنا وخدي قلتُ ذا الشعر كله ❁

الشعر مقولٌ على القَطْع والنفي لأن يكون هو وحده القائل له.

وهنا أمران يرتفع معهما الشكُّ في وجوب هذا الفرق وبصير العلم به كالضرورة أحدهما أنه يصح لك أن تقول: ما قلتُ هذا ولا قاله أحد من الناس، وما ضربتُ زيداً ولا ضربه أحدٌ سواي. ولا يصحّ ذلك في الوجه الآخر. فلو قلتُ: ما أنا قلتُ هذا ولا قاله أحد من الناس، وما أنا ضربتُ زيداً ولا ضربه أحد سواي، كان خُلُفاً^(٣) من القول وكان في التناقض بمنزلة أن تقول: لستُ الضاربُ زيداً أمس: فَتُثِبْتُ أنه قد ضُرب ثم تقول من بعده: وما ضربه أحد من الناس، ولستُ القائل ذلك. فتثبت أنه قد قيل ثم تجيء فتقول: وما قاله أحد [٤٢ ب] من الناس.

والثاني من الأمرين أنك تقول: «ما ضربتُ إلا زيداً»، فيكون كلاماً مستقيماً، ولو قلت: «ما أنا ضربتُ إلا زيداً» كان لغواً من القول، وذلك لأن

(١) الشعر لأبي الطيب (ديوانه: ٥١٣)، قاله وقد استبطأ سيف الدولة مدحه، وتنكر لذلك.

(٢) صدر بيت لأبي الطيب، وتمامه:

وما أنا وخدي قلتُ ذا الشعر كله ولكن لشعري فيك من نفسي شِعْرٌ

والبيت من قصيدة له في مدح علي بن أحمد بن عامر الأنطاكي (ديوانه بشرح الواحدي: ٢٩٠).

(٣) الخُلف: اسمٌ من الإخلاف، وفي علم الفلسفة: المُحال الذي يُنافي المنطق ويخالف المعقول.

نقض النفي بإلّا يقتضي أن تكون ضربت زيداً. وتقديمك ضميرك وإيلاؤه حرف النفي يقتضي نفي أن تكون ضربته فهما يتدافعان، فاعرفه.

ويجيء لك هذا الفرق على وجهه في تقديم المفعول وتأخيريه، فإذا قلت: ما ضربت زيداً، فقدمت الفعل كان المعنى أنك قد نفيت أن يكون قد وقع ضرب منك على زيد ولم تعرض في أمر غيره لنفي ولا إثبات وتركت مبهماً محتملاً. وإذا قلت: ما زيدا ضربت، فقدمت المفعول كان المعنى على أن ضرباً وقع منك على إنسان وظن أن ذلك الإنسان زيد فنفيت أن يكون إياه. فلك أن تقول في الوجه الأول: ما ضربت زيداً ولا أحداً من الناس، وليس لك في الوجه الثاني. فلو قلت: ما زيدا ضربت ولا أحداً من الناس؛ كان فاسداً على ما مضى في الفاعل.

ومما ينبغي أن تعلمه أنه يصح لك أن تقول: ما ضربت زيداً ولكني أكرمته؛ فتعقب الفعل المنفي بإثبات فعل هو ضده. ولا يصح أن تقول: ما زيدا ضربت ولكني أكرمته. وذاك أنك لم ترد أن تقول: لم يكن الفعل هذا ولكن ذاك، ولكنك أردت أنه لم يكن المفعول هذا ولكن ذاك. فالواجب إذن أن تقول: ما زيدا ضربت ولكن عمراً. وحكم الجار مع المجرور في جميع ما ذكرنا حكم المنصوب فإذا قلت: ما أمرتك بهذا؛ كان المعنى على نفي أن تكون قد أمرته بذلك ولم يجب أن تكون قد أمرته بشيء آخر، وإذا قلت: ما بهذا أمرتك؛ كنت قد أمرته بشيء غيره.

[التقديم في الخبر المثبت]

واعلم أن هذا الذي بان لك في الاستفهام والنفي من المعنى في التقديم قائم مثله في [٤٣ أ] الخبر المثبت، فإذا عمدت إلى الذي أردت أن تحدث عنه بفعل فقدمت ذكره ثم بنيت الفعل عليه فقلت: زيد قد فعل وأنا فعلت وأنت فعلت؛ اقتضى ذلك أن يكون القصد إلى الفاعل إلا أن المعنى في هذا القصد ينقسم قسمين: أحدهما جلي لا يُشكل وهو أن يكون الفعل فعلاً قد أردت أن

تنصّ فيه على واحد فتجعله له وتزعم أنه فاعله دون واحد آخر أو دون كل أحد. ومثال ذلك أن تقول: أنا كتبتُ في معنى فلان وأنا شَفَعْتُ في بابه: تريد أن تدّعي الانفراد بذلك والاستبداد به وتُزيل الاشتباه فيه وتردّ على من زعم أن ذلك كان من غيرك أو أن غيرك قد كَتَبَ فيه كما كتبت^(١) ومن البين في ذلك قولهم في المثل: «أَتَعْلَمَنِي بَضْبُ أُنَا حَرَشْتُهُ»^(٢).

والقسم الثاني أن لا يكون القصدُ إلى الفاعل على هذا المعنى، ولكن على أنك أردت أن تحقّق على السامع أنه قد فَعَلَ وتمنّعه من الشكّ، فانتَ لذلك تبدأ بذكره، وتوقعه أولاً ومن قَبْلُ أن تَذْكُرَ الفِعْلَ في نفسه، لكي تباعدَه بذلك من الشبهة وتمنّعه من الإنكار، أو مِنْ أن يُظَنَّ بك الغلط أو التزيّد، ومثاله قولك: هو يعطي الجزيل وهو يحب الثناء: لا تريد أن تزعم أنه ليس ههنا من يعطي الجزيل ويحب الثناء غيره، ولا أن تُعَرِّضَ بإنسان وتحطّه عنه وتجعله لا يعطي كما يعطي ولا يرغَبُ كما يَرغَبُ. ولكنك تريد أن تحقّق على السامع أن إعطاء الجزيل وحبّ الثناء دأبه. وأن تمكّن ذلك في نفسه. ومثاله في الشعر^(٣):

هُمُ يُفْرِشُونَ اللَّبَدَ كُلَّ طِمْرَةٍ وَأَجْرَدَ سَبَاحٍ يَبْذُ الْمُغَالِبَا

(١) في (ب): كتب.

(٢) «قال أبو عبيد: ومن أمثالهم في مخاطبة العالم بالشيء مَنْ يريد تعليمه: أتعلمني بضْبُ أُنَا حَرَشْتُهُ. ونحو منه قولهم: كملّمة أمّها البضاع». اللسان: (حرش). وهو في أمثال الميداني (١٢٥/١) وأمثال العسكري (٧٦/١) وفي الميداني: تعلّمني بمعنى تعلّمني. ومعنى حرش الضب صاده. وكان فيهم من يأكله.

(٣) البيت من قطعة حماسيّة (الحماسة بشرح المروزقي ١٧٦٣/٤) للمعدّل بن عبد الله الليثي كما ذكر التبريزي (الحماسة بشرحه) وقال المروزباني في معجم الشعراء (٣٨٨): إنه المعدّل البكري أحد بني قيس بن ثعلبة. شاعر إسلامي قال: وقدم على المهلب بخراسان فقال لمن حضره: يا معشر الأزد: هو الذي يقول: الأبيات... فجمعوا له وأعطاه من عنده.....

- يفرشون اللبد أي يجعلون اللبد فراشاً لظهر كل فخلٍ كريم سَبَاحٍ في عَدُوّه، غلاب لمباريه في الغلو سَبَاقٍ في الرهان. وانظر الشعر والشعراء (٨٣/١).

لم يُرد أن يدعي لهم هذه الصفة دعوى من يُفردهم بها وينصّ عليهم فيها، حتى كأنه يعرض بقوم آخرين فينفي أن يكونوا أصحابها. هذا محال! وإنما أراد أن يصفهم بأنهم فرسان [٤٣ ب] يمتهدون صهوات الخيل، وأنهم يقتعدون الجياد منها وأن ذلك دأبهم، من غير أن يعرض لنفيه عن غيرهم، إلا أنه بدأ بذكرهم لينبّه السامع لهم، ويُعلم بدياً قصده إليهم بما في نفسه من الصفة، ليمنعه بذلك من الشك، ومن توهم أن يكون قد وصفهم بصفة ليست هي لهم، أو أن يكون قد أراد غيرهم فغلط إليهم، وعلى ذلك قول الآخر^(١):

هُمْ يَضْرِبُونَ الْكَبْشَ يَبْرُقُ بَيْضُهُ عَلَى وَجْهِهِ مِنَ الدَّمَاءِ سَبَائِبُ

لم يرد أن يدعي لهم الانفراد ويجعل هذا الضرب لا يكون إلا منهم ولكن أراد الذي ذكرته لك من تنبيه السامع لقصدهم بالحديث من قبل ذكر الحديث ليحقق الأمر ويؤكدّه ومن البين فيه قول عروة بن أذينة^(٢):

سَلِمَى أَزْمَعَتْ بَيْنَا فَأَيْنَ تَقُولُهَا أَيْنَا

(١) البيت من قصيدة في الحماسة (٧٢٧/٢) للأخنس بن شهاب بن ثمامة التغلبي. شاعر جاهليّ كان قبل الإسلام بدهر. وهو فارس العصا. والعصا اسم فرسه. وقصيدة الأخنس هذه مفضلية (انظر المفضليات ٢٠٣).

- والبيت في الحماسة برواية «فَهُمْ».

- والكبش: رئيس القوم وحاميهم. البيض جمع بيضة، وهي قلنسوة الحديد. والسبائب جمع سبيبة، وهي الطرائق.

(٢) البيت من قطعة لعروة بن أذينة (في الأغاني ٢/٢٠٣) وفي «... فأين بقولها أينا». وفي الأغاني أيضاً (٢٤٤/١٨) روي:

سَلِمَى أَجْمَعَتْ بَيْنَا فَأَيْنَ تَقُولُهَا أَيْنَا!

والشاعر هو عروة بن يحيى (ولقبه أذينة) بن مالك بن الحارث الليثي: شاعر غزل مقدم. من أهل المدينة. وهو معدود من الفقهاء والمحدثين أيضاً ولكن الشعر غلب عليه. وجمع الدكتور يحيى الجبوري ما وجد من شعره في ديوان مطبوع. (الأغاني ١٨/٢٤٢، سبط اللآلي ١٣٦، الشعر والشعراء ٥٧٩/٢، الموشح ٢١١ - ٢١٣، المورد ٢٣١/٢/٣).

وذلك أنه ظاهرٌ معلومٌ أنه لم يُرد أن يجعل هذا الإزماغَ لها خاصةً ويجعلها من جماعة لم يزمع البينَ منهم أحدٌ سواها، هذا محالٌ، ولكنه أراد أن يحقق الأمرَ ويؤكدُه فأوقعَ ذكرها في سَمْعِ الذي كَلَّمَ ابتداءً ومن أول الأمر ليعلم قبل هذا الحديث أنه أرادها بالحديث فيكون ذلك أبعد له من الشك. ومثله في الوضوح قوله^(١):

هُمَا يَلْبَسَانِ الْمَجْدَ أَحْسَنَ لِبْسَةٍ شَجِيحَانِ مَا اسْتَطَاعَا عَلَيْهِ كِلَاهُمَا

لا شبهة في أنه لم يُرد أن يقصُرَ هذه الصفة عليهما ولكن نبّه لهما قبل الحديث عنهما. وأبين من الجميع قوله تعالى^(٢): ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الفرقان: ٢٥/٣] وقوله عزَّ وجلَّ^(٣): ﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾ [المائدة: ٥/٦١]. وهذا الذي قد ذكرْتُ من أن تقديمَ ذكرِ المحدث عنه يفيد التنبيه له قد ذكره صاحبُ الكتاب في [٤٤] المفعول إذا قُدِّمَ فرفعٌ بالابتداء وبُني الفعلُ الناصبُ كان له عليه وعُدِّي إلى ضميره فشُغِلَ به كقولنا في «ضربتُ عبدَ الله»: عبدُ الله ضربته: فقال وإنما قلتُ عبدُ الله فنبهته له ثم بَيَّنَّتْ عليه الفعلَ ورفعته بالابتداء.

فإن قلتُ فمن أين وجب أن يكون تقديمُ ذكرِ المحدث عنه بالفعل أكد لإثبات ذلك الفعل له وأن يكون قوله: «هما يلبسان المجد» أبلغ في جعلهما يلبسانه من أن يقول: يلبسان المجد. فإن ذلك من أجل أنه لا يؤتى بالاسم معرّى من العوامل إلا لحديث قد نُويَ إسناده إليه. وإذا كان كذلك فإذا قلتُ «عبدُ الله» فقد أشعرت قلبه بذلك أنك قد أردتَ الحديثَ عنه فإذا جئتُ بالحديث فقلتُ مثلاً قام أو قلتُ: خرج، أو قلتُ: قديم، فقد عَلِمَ ما جئتُ به،

(١) البيت لعمره الخثعمية من قطعة في رثاء ابنها (الحماسة ٣/١٠٨٤) وانظر ما في شرح

التبريزي ٦٠/٣

(٢) الآية الكريمة: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا تُشْرِكُونَ﴾.

(٣) الآية الكريمة: ﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ ءَالَهُ أَغْلَرْنَا بِكُم بَانًا وَأَنَّا بِكُم كَاثِبُونَ﴾.

وقد وطلّأت له وقدمت الإعلام فيه، فدخلَ على القلب دخولَ المأنوس به، وقبّله قَبُولَ المتهَيِّئ له المطمئن إليه، وذلك لا محالة أشدُّ لثبوته وأنقى للشبهة وأمنع للشكِّ وأدخلُ في التحقيق.

وجُملة الأمرِ أنه ليس إعلامُك الشيء بغتةً مثلَ إعلامِكَ له بعد التنبيه عليه والتقدمة له، لأنَّ ذلك يجري مجرى تكرير الإعلام، في التأكيد والإحكام، ومن ههنا قالوا: إن الشيء إذا أضْمِرَ ثم فُسِّرَ كان ذلك أفخم له من أن يذكر من غير تقدم إضمار، ويُدْخَلُ على صحة ما قالوه أنا نعلم ضرورة في قوله تعالى^(١): ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ﴾ [الحج: ٤٦/٢٢] فخامة وشرفاً وروعةً لا نجد منها شيئاً في قولنا: فإن الأبصار لا تعمى. وكذلك السبيلُ أبداً في كل كلام كان فيه ضمير قصة. فقولهُ تعالى^(٢): ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧/٢٣] يفيد من القوة في نفي الفلاح عن الكافرين ما لو قيل: إن الكافرين لا يفلحون؛ لم يُفد ذلك. ولم يكن ذلك كذلك إلا لأنك تعلمه إياه من بعد تقدمه وتنبيه أنت به في حكم مَنْ بدأ وأعاد ووطّد، ثم بيّن ولوّح ثم صرّح، ولا يخفى مكان المزية فيما طريقه هذا الطريق.

ويشهد لما [٤٤ ب] قلنا من أنَّ تقديمَ المحدث عنه يقتضي تأكيد الخبر وتحقيقه له أنا إذا تأملنا وجذنا هذا الضرب من الكلام يجيء فيما سبق فيه إنكارٌ من مُنكر نحو أن يقول الرجل: ليس لي علمٌ بالذي تقول. فتقول له: أنت تعلم أنَّ الأمرَ على ما أقول، ولكنتك تميلُ إلى خصمي. وكقول الناس: هو يعلمُ ذاك وإن أنكر وهو يعلمُ الكذب فيما قال وإن حلف عليه. وكقولهُ تعالى^(٣):

(١) الآية الكريمة: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَلِمَ تَقَالِبُهَا لَمْ تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَتَّبِعْ أَفْئِدَةً تُبْصِرُ﴾ [الأنعام: ١٠٨].

(٢) الآية الكريمة: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٢].

(٣) الآية الكريمة: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِطَاعٍ يُودِّعُ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّعُ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمَّتْ عَلَيْهِ قَالِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّتِ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٧٨].

﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٥/٣] فهذا من أبين شيءٍ وذاك أنَّ الكاذب لا سيمًا في الدين لا يعترف بأنه كاذبٌ، وإذا لم يعترف بأنه كاذب كان أبعد من ذلك أن يعترف بالعلم بأنه كاذب، أو يجيء فيما اعترض فيه شكٌ نحو أن يقول الرجل: كأنك لا تعلم ما صنع فلانٌ ولم يبلغك، فيقول: أنا أعلم ولكنني أداريه. أو في تكذيب مدّع كقوله عز وجل^(١): ﴿وَإِذَا جَاءَوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾ [المائدة: ٦١/٥] وذلك أن قولهم آمنا دعوى منهم أنهم لم يخرجوا بالكفر كما دخلوا به، فالموضع موضع تكذيب. أو فيما القياس في مثله أن لا يكون كقوله تعالى^(٢): ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ ءَالِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الفرقان: ٣/٢٥] وذلك أن عبادتهم لها تقتضي أن لا تكون مخلوقة. وكذلك في كل شيء كان خبراً على خلاف العادة وعمّا يستغرب من الأمر نحو أن نقول: ألا تعجب من فلان: يدعي العظيم، وهو يغيا باليسير، ويزعم أنه شجاع وهو يفزع من أدنى شيء؟!!

ومما يحسن ذلك فيه ويكثر الوعد والضمان كقول الرجل: أنا أعطيك، أنا أكفيك، أنا أقوم بهذا الأمر. وذلك أن من شأن من تعدّه وتضمن له أن يعترضه الشك في تمام الوعد وفي الوفاء به، فهو من أحوج شيء إلى التأكيد. وكذلك يكثر في المدح كقولك: أنت تُعطي الجزيل، أنت تفري في المحل أنت تجود حين لا يجود أحد. وكما قال^(٣):

وَلَأَنْتَ تَفْرِي مَا خَلَقْتَ وَبِعَ ضُ الْقَوْمِ يَخْلُقُ ثُمَّ لَا يَفْرِي

وكقول الآخر^(٤) [٤٥]:

- (١) الآية الكريمة: ﴿وَإِذَا جَاءَوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾.
 (٢) الآية الكريمة: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ ءَالِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوةً وَلَا شَوْءًا﴾.
 (٣) القائل هو زهير بن أبي سلمى. والبيت من قصيدة في مدح هرم بن سنان (ديوانه: ٩٤):

لِمَنِ الدِّيارُ بِقُنَّةِ الْحَجَرِ أَقْوَنَ مِنْ حَبَجٍ وَمِنْ دَفَرٍ

(٤) هو طرفة بن العبد. وتمام البيت (ديوانه: ٦٥):

* لا ترى الأدب فينا ينتقر *

❁ نَحْنُ فِي الْمَشْتَاةِ نَدْعُو الْجَفَلَى ❁

وذلك أن من شأن المادح أن يمنع السامعين من الشك فيما يمدح به ويباعدهم من الشبهة، وكذلك الْمُفْتَخِر. وَيَزِيدُكَ بَيَاناً أنه إذا كان الفعل مما لا يُشَكُّ فيه ولا يُنْكَرُ بحالٍ لم يكد يجيء على هذا الوجه، ولكن يُؤْتَى به غير مبني على اسم فإذا أخبرت بالخروج مثلاً عن رجلٍ من عاداته أن يخرج في كل غداة قلت: قد خرج. ولم تحتج إلى أن تقول: هو قد خرج، ذاك لأنه ليس بشيء يُشَكُّ فيه السامع فتحتاج أن تحقّقه وإلى أن تقدم فيه ذكر المحدث عنه. وكذلك إذا علم السامع من حال رجل أنه على نية الركوب والمضي إلى موضع ولم يكن شك وتردّد أنه يركب أو لا يركب كان خبرك فيه أن تقول: قد ركب. ولا تقول: هو قد ركب. فإن جئت بمثل هذا في صلة كلام ووضعت بعد واو الحال حَسَنَ حينئذٍ وذلك قولك: جئته وهو قد ركب. وذاك أن الحكم يتغير إذا صارت الجملة في مثل هذا الموضع ويصير الأمر بمعرض الشك، وذاك أنه إنما يقول هذا من ظنّ أنه يصادفه في منزله وأن يصل إليه من قبل أن يركب. فإن قلت فإنك قد تقول: جئته وقد ركب بهذا المعنى ومع هذا الشك. فإن الشك لا يقوى حينئذٍ قوته في الوجه الأول. أفلا ترى أنك إذا استبطأت إنساناً فقلت: أانا والشمس قد طلعت. كان ذلك أبلغ في استبطائك له من أن تقول: أانا وقد طلعت الشمس. وعكس هذا أنك إذا قلت: أتى والشمس لم تطلع كان أقوى في وصفك له بالعجلة والمجيء قبل الوقت الذي ظنّ أنه يجيء فيه من أن تقول: أتى ولم تطلع الشمس بعد. هذا وهو كلام لا يكاد يجيء إلا نائياً، وإنما الكلام البليغ هو أن تبدأ بالاسم وتبني الفعل عليه كقوله:

❁ قد أغتدي والطير لم تكلم ❁

= والبيت من قصيدة مطلعها:

أَصْحَوْتُ الْيَوْمَ أَمْ شَاقَّتْكَ هِرْ وَمِنَ الْحُبِّ جُنُونٌ مُسْتَوِرْ

- والمشتاة زمن الشتاء والجذب. والجَفَلَى: الدَّعوة العامة إلى الطعام. وَعَكْسُهَا التَّقَرى. ومن مفاخرهم الجود والإسراف فيه.

فإذا كان الفعلُ فيما بَعْدَ هذه الواو التي يراد بها الحال مضارعاً لم يَصْلَحْ
إلا مبنياً على اسم [٤٥ ب] كقولك: رأيتهُ وهو يكتُبُ، ودخلتُ عليه وهو يُمْلِي
الحديث. وكقوله^(١):

تَمَرَّزْتُهَا وَالذِّيكُ يَدْعُو صَبَاحَهُ إِذَا مَا بَنُو نَعِشٍ دَنَوْا فَتَصَوَّبُوا

ليس يصلح شيء من ذلك إلا على ما تراه لو قلت: رأيتهُ ويكتُبُ، ودخلتُ
عليه ويملي الحديث، وتمرّزتها ويدعو الديك صباحه. لم يكن شيئاً.

ومما هو بهذه المنزلة في أنك تجد المعنى لا يستقيم إلا على ما جاء عليه
من بناء الفعل على الاسم قوله تعالى: ﴿إِنَّ وَلِيََّ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى
الْفَالِغِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦/٧]، ﴿وَقَالُوا أَأَسْطِطِرُّ الْأَوَّلِينَ أَكَتَّبَهَا فَبِئْسَ ثَمَلٌ عَلَيْهِ
بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥/٢٥] وقوله تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِبِّ
وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [النمل: ١٧/٢٧] فإنه لا يخفى على مَنْ له ذوق أنه لو
جاء في ذلك بالفعل غير مبني على الاسم فقليل: إن وليَّ الله الذي نزل الكتاب
ويتولى الصالحين، واكتبها فتُمْلَى عليه، وحُشِرَ لسليمان جنوده من الجبِّ
والإنس والطير فيوزعون: لَوَجَدَ اللفظ قد نبا عن المعنى والمعنى قد زال عن
صورته والحال التي ينبغي أن يكون عليها.

واعلم أن هذا الصنيع يقتضي في الفعل المنفي ما اقتضاه في المثبت فإذا
قلت: أنت لا تُحَسِّنُ هذا؛ كان أشدَّ لنفي إحسان ذلك عنه من أن تقول:
لا تُحَسِّنُ هذا. ويكون الكلام في الأول مع من هو أشدَّ إعجاباً بنفسه وأعرض
دعوى في أنه يحسن حتى إنك لو أتيت بأنَّ فيما بعد تُحَسِّنُ فقلت: لا تُحَسِّنُ
أنت؛ لم يكن له تلك القوة. وكذلك قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾
[المؤمنون: ٥٩/٢٣] يفيد من التأكيد في نفي الإشراك عنهم ما لو قيل: والذين

(١) القائل هو التابغة الجعدي، والبيت من قصيدة في ديوانه: ٤ وروايته ثمة:

شربتُ بها والذِّيكُ يدعو صَبَاحَهُ إِذَا مَا بَنُو نَعِشٍ دَنَوْا فَتَصَوَّبُوا

تَمَرَّزْتُهَا أَي: تَمَضَّصْتُهَا قَلِيلاً قَلِيلاً، ومزه يمزّه: مَضَّه، والحديث عن الخمرة، وسبق
ذكرها في بيت قبله.

لا يُشركون برّبهم أو برّبهم لا يشركون؛ لم يفد ذلك، وكذا قوله تعالى^(١): ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس: ٧/٣٦] وقوله تعالى^(٢): ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [القصص: ٦٦/٢٨] و [٤٦/١] و ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنفال: ٥٥/٨].

ومما يرى تقديم الاسم فيه كاللازم (مثل) و(غير) في نحو قوله^(٣):

مِثْلُكَ يَخْنِي الْمُرْنَ عَنْ صَوْبِهِ وَيَسْتَرِدُّ الدَّمْعَ عَنْ عَرَبِهِ

وقول الناس: مِثْلُكَ رَعَى الْحَقَّ وَالْحُرْمَةَ: وكقول الذي قال له الحجاج: لأَحْمَلَنَّكَ عَلَى الْأَدَمِ. يريد القَيْدَ، فقال على سبيل المُغَالِطَةِ: ومثل الأمير يحملُ على الأدهم والأشهب. وما أشبه ذلك مما لا يُقْصَدُ فيه بمثل إلى إنسان سوى الذي أُضِيفَ إليه، ولكنهم يَغْنُون أن كُلَّ من كان مثله في الحال والصفة كَانَ مِنْ مُقْتَضَى الْقِيَاسِ، وموجب العُزْفِ والعادة أن يفعل ما ذكر أو أن لا يفعل. ومن أجل أن المعنى كذلك قال^(٤):

وَلَمْ أَقُلْ مِثْلُكَ أَغْنِي بِهِ سِوَاكَ يَا قَرْدًا بِلَا مُشْبِهِ

وكذلك حكم (غير) إذا سُلِكَ هذا الْمَسْلَكُ فَقِيلَ: غيري يفعل ذاك: على معنى أني لا أفعله، لا أن يَوْمِيَّ «بغير» إلى إنسان فيخبر عنه بأن يفعل، كما قال^(٥):

(١) والآية الكريمة والتي قبلها: ﴿لِنُنْذِرَ قَوْمًا مَّا أُنْذِرَ آبَاءَهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

(٢) والآية الكريمة والتي قبلها: ﴿وَيَوْمَ يُكَادِيهِمْ يَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾.

(٣) القائل هو أبو الطيب المتنبي، من قصيدة له يعزّي بها أبا شجاع عضد الدولة في عمته، ومطلمها:

آخِرَ مَا الْمَلِكُ مَعَزَّى بِهِ هَذَا الَّذِي أَثَرَفِي قَلْبَهُ
(ديوان أبي الطيب).

(٤) من قصيدة المتنبي السابقة الإشارة إليها.

(٥) هو أبو الطيب المتنبي، والشرط من مطلع قصيدة في مدح سيف الدولة الحمداني

❁ غَيْرِي بِأَكْثَرِ هَذَا النَّاسِ يَنْخَدِعُ ❁

وذاك أنه معلوم أنه لم يُرد أن يُعرض بواحد كان هناك فيستقصه ويصفه بأنه مضعوف يُغرَّ ويُخدع، بل لم يُرد إلا أن يقول: إني لست ممن يَنْخَدِعُ ويغترّ. وكذلك لم يُرد أبو تمام بقوله^(١):

وغيري يَأْكُلُ الْمَعْرُوفَ سُخْتًا وَتَشْحُبُ عِنْدَهُ بِبُضِّ الْأَيَادِي

أن يُعرض مثلاً بشاعر سواه فيزعم أن الذي قرف به عند الممدوح من أنه هجاه كان من ذلك الشاعر لا منه، هذا محال! بل ليس إلا أنه نفى عن نفسه أن يكون ممن يَكْفُرُ النعمة ويلوِّم. واستعمال (مثل) و (غير) على هذا السبيل شيء مركوز في الطباع وهو جارٍ في عادة [٤٦ ب] كل قوم، فأنت الآن إذا تصفحت الكلام وجدت هذين الاسمين يقدمان أبداً على الفعل إذا نُحي بهما هذا النحو الذي ذكرت لك، وترى هذا المعنى لا يستقيم فيهما إذا لم يُقدِّم. أفلا ترى أنك لو قلت «يُثني المزن عن صوبه مثلك، ورعى الحق والحرمة مثلك، ويحيل على الأدهم والأشهب مثل الأمير، وينخدع غيري بأكثر هذا الناس، ويأكل غيري المعروف سُخْتًا» رأيت كلاماً مقلوباً عن جهته، ومغيراً عن صورته، ورأيت اللفظ قد نبا عن معناه، ورأيت الطبع يأبى أن يرضاه.

واعلم أن معك دستوراً لك فيه إن تأملت غنى عن كل ما سواه، وهو أنه لا يجوز أن يكون لنظم الكلام وترتيب أجزائه في الاستفهام معنى لا يكون له ذلك المعنى في الخبر. وذاك أن الاستفهام استخبار والاستخبار هو طلب من المخاطب أن يخبرك، فإذا كان كذلك كان محالاً أن يفترق الحال بين تقديم

= (الديوان: ٤٥١)، وبتمة البيت:

غيري بأكثر هذا الناس ينخدع إن قاتلوا جبنوا أو حدثوا شجعوا

ووصف فيها الوقعة التي نكب فيها المسلمون بالقرب من بحيرة الحدث.

(١) ديوان أبي تمام (٣٧٧/١) من قصيدة يمدح بها القاضي أحمد بن داود ويعتذر إليه.

- والسحت: ما لا بركة فيه، ولذلك سَمَوْا الْمُحَرَّم من المكاسب سُخْتًا لأنه لا يثبت خيره ولا تحمد عاقبته.

الاسم وتأخيرهِ في الاستفهام فيكون المعنى إذا قلت: أزيد قام؟ غيره إذا قلت: أقام زيد؟ ثم لا يكونُ هذا الافتراق في الخبر. ويكون قولك: «زيد قام» و«قام زيد» سواءً ذاك لأنه يؤدِّي إلى أن تستعمله أمراً لا سبيل فيه إلى جواب وأن تستثبته المعنى على وجه ليس عنده عبارة يشبه لك بها على ذلك الوجه. وجُمْلَةُ الأمر أن المعنى في إدخالك حرف الاستفهام على الجُمْلَةِ من الكلام هو أنك تطلب أن يَقِفَ في معنى تلك الجملة ومَوَظَّعاً على إثبات أو نفي. فإذا قلت: «أزيد منطلق؟» فأنت تطلب أن يقولَ لك: نَعَمْ هو منطلقٌ. أو يقول: لا ما هو منطلقٌ. وإذا كان ذلك كذلك كان محالاً أن لا تكون الجملة إذا دخلتها همزة الاستفهام استخباراً عن المعنى على وجه لا تكون هي إذا نُزِعَتْ منها الهمزة إخباراً به على ذلك الوجه [٤٧؛ ١] فاعرفه.



فعل

هذا كلام في النكرة إذا قُدِّمت على الفعل أو قُدِّم الفعل عليها

إذا قلت: أ جاءكَ رجلٌ؟ فأنت تريد أن تسأله: هل كَانَ مجيئٌ مِنْ أَحَدٍ من الرُّجَالِ إليه؟ فإن قُدِّمَتِ الاسم فقلت: أ رجلٌ جاءكَ؟ فأنت تسأله عن جنس مَنْ جاءه أ رجلٌ هو أم امرأة؟ ويكونُ هذا منك إذا كنتَ علمتَ أنه قد أتاه آتٍ ولكنتُك لم تعلم جنس ذلك الآتي فسيئُك في ذلك سيئُك إذا أردتَ أن تعرفَ عَيْنَ الآتي فقلت: أزيدُ جاءكَ أم عمرو؟ ولا يجوز تقديمُ الاسم في المسألة الأولى لأنَّ تقديمَ الاسم يكون إذا كان السؤال عن الفاعل والسؤال عَنِ الفاعل يكون إما عن عينه أو عن جنسه ولا ثالث. وإذا كان كذلك كان محالاً أن تُقَدِّمَ الاسم النكرة وأنت لا تريدُ السؤال عن الجنس لأنَّه لا يكون لسؤالك حينئذٍ متعلِّق من حَيْثُ لا يبقى بعد الجنس إلَّا العين. والنكرة لا تدُلُّ على عين شيء فيسأل بها عنه. فإن قلت: أ رجلٌ طويلٌ جاءكَ أم قصيرٌ؟ كان السؤالُ عن أن الجائي من جنس طوالِ الرجالِ أم قصارهم؟ فإن وصفتَ النكرة بالجملة فقلت: أ رجلٌ كنتَ عرفتُه من قَبْلُ أعطاك هذا أم رجلٌ لم تعرفه؟ كان السؤال عن المُعْطِي أكان ممن عرفه قَبْلُ أم كان إنساناً لم تتقدم منه معرفة.

وإذا قد عرفت الحُكْمَ في الابتداء بالنكرة في الاستفهام فابن الخبر عليه. فإذا قلت: رَجُلٌ جاءني؛ لم يَصْلُحْ حَتَّى تَرِيدَ أَنْ تُعْلِمَهُ أَنَّ الذي جاءك رَجُلٌ لا امرأة، ويكون كلامك مع مَنْ قد عَرَفَ أَنْ قد أتاك آتٍ. فإن لم تُردِ ذاك كان الواجب أَنْ تقول: جاءني رَجُلٌ فَتَقَدَّمَ الفعل. وكذلك إِنْ قلت: رَجُلٌ طويلٌ جاءني؛ لم يَسْتَقِمْ حَتَّى يكون السامعُ قد ظَنَّ أَنَّهُ قد أتاك قصير أو نُزِلَتْهُ مَنْ ظَنَّ ذلك. وقولهم: شَرٌّ أهرَّ ذا نابٍ: إِنَّمَا قُدِّمَ فيه (شَرٌّ) لِأَنَّ المرادَ أَنْ يُعْلَمَ أَنَّ [٧؛ ب] الذي أهرَّ ذا الناب هو مِنْ جِنْسِ الشَّرِّ لا جِنْسِ الخير فَجَرى مَجْرى أَنْ تقول: رَجُلٌ جاءني تَرِيدُ أَنَّهُ رَجُلٌ لا امرأة. وقولُ العلماء أَنَّهُ إِنَّمَا يَصْلُحُ لِأَنَّهُ بمعنى «ما أهرَّ ذا نابٍ إِلَّا شَرٌّ» بَيَانٌ لذلك. ألا ترى أَنَّكَ لا تقول: ما أَتاني إِلَّا رَجُلٌ، إِلَّا حَيْثُ يَتَوَهَّمُ السامعُ أَنَّهُ قد أَتَتْكَ امرأة. ذاك لِأَنَّ الخبرَ يَنْقُضُ النَّفْيَ يكون حيث يراد أَنْ يُقْصَرَ الفعلُ على شيءٍ وَيُنْفَى عما عداه فإذا قلت: ما جاءني إِلَّا زيد؛ كان المعنى أَنَّكَ قد قَصَرْتَ المجيء على زيد ونَفَيْتَهُ عن كُلِّ مَنْ عداه وَإِنَّمَا يُتَصَوَّرُ قَصْرُ الفعلِ على معلوم. ومتى لم يُرَدَّ بالنكرة الجنس لم يَقِفْ منها السامعُ على معلوم حتى يَزْعُمَ أَنِّي أَقْصَرُ له الفعل عليه وأخبره أَنَّهُ كان منه دونَ غيره.

واعلم أَنَّا لم نُردِّ بما قلناه من أَنَّهُ إِنَّمَا حَسَنَ الابتداء بالنكرة في قولهم: «شَرٌّ أهرَّ ذا نابٍ» لِأَنَّهُ أَرِيدَ بِهِ الجنسُ أَنَّ معنى شَرٌّ والشَّرُّ سواء، وَإِنَّمَا أَرَدْنَا أَنَّ الغرضَ من الكلام أَنْ يُبَيَّنَ أَنَّ الذي أهرَّ ذا الناب هو من جِنْسِ الشَّرِّ لا جِنْسِ الخير كما أَنَا إِذَا قلنا في قولهم: أَرَجُلٌ أَتَاكَ أم امرأة؟ أَنَّ السَّوْأَلَ عَنِ الجنس لم نُردِّ بذلك أَنَّهُ بِمَنْزِلَةِ أَنْ يُقالَ: الرَّجُلُ أم المرأة أَتَاكَ. وَلَكِنَّا نَعْنِي أَنَّ المعنى على أَنَّكَ سَأَلْتَ عَنِ الآتِي: أَهو من جِنْسِ الرجال أم جِنْسِ النساء؟ فَالنَّكَرَةُ إِذْنًا على أَصلها من كونها لواحدٍ مِنَ الجنس إِلَّا أَنَّ القصدَ مِنْكَ لَمْ يَقَعْ إِلَى كونه واحداً، وَإِنَّمَا وَقَعَ إِلَى كونه من جِنْسِ الرجال. وَعَكْسُ هَذَا أَنَّكَ إِذَا قلت: أَرَجُلٌ أَتَاكَ أم رَجُلَانِ؟ كَانَ القصدُ مِنْكَ إِلَى كونه واحداً دونَ كونه رَجُلًا فَاعْرِفَ ذَلِكَ أَصْلًا وهو أَنَّهُ قد يكون في اللفظ دَلِيلٌ على أمرين ثُمَّ يَقَعُ القصدُ إِلَى أَحَدِهِمَا دونَ الآخر فيصيرُ الآخرُ بَانَ لَمْ يَدْخُلْ فِي القصدِ كَأَنَّهُ لَمْ يَدْخُلْ فِي دَلَالَةِ اللفظ وَإِذَا

اعتبرت ما قدمته من قول صاحب الكتاب: [٤٨ أ] أنك قلت عبدُ الله فنبهته له ثم بنيت عليه الفعل وجدته يطابق هذا. وذاك أنَّ التنبيه لا يكون إلا على معلوم، كما أنَّ قصرَ الفعل لا يكون إلا على معلوم، فإذا بدأت بالنكرة فقلت: رَجُلٌ، وأنت لا تقصدُ بها الجنس وأن تُعَلِّمَ السامع أنَّ الذي أردت بالحديث رجلٌ لا امرأة كان محالاً أن تقول: إني قدمته لأنَّه المخاطب له؛ لأنه يخرج بك إلى أن تقول: إني أردت أن أنبئه السامع لشيء^(١) لا يعلمه في جُمْلَةٍ ولا تفصيل، وذلك ما لا يُشَكُّ في استحالة فاعرفه.

القول في الحذف

هو بابٌ دقيقُ المسلك، لطيفُ المآخذ، عجيبُ الأمر، شبيه بالسحر، فإنَّك ترى به تركَ الذَّكر، أفصحَ من الذكر، والصمت عن الإفادة، أزيد للإفادة، وتجذُّك أنطقَ ما تكونُ إذا لم تنطق، وأتمَّ ما تكونَ بياناً إذا لم تُبين، وهذه جملة قد تنكرها حتى تخبرَ، وتدفعها حتى تنظرَ، وأنا أكتبُ لك بديناً أمثلةً مما عَرَضَ فيه الحذفُ ثم أنبئك على صحة ما أشرتُ إليه، وأقيم الحُجَّةَ من ذلك عليه، صاحبُ الكتاب:

اَعْتَادَ قَلْبُكَ مِنْ لَبْلَى عَوَائِدُهُ وَهَاجَ أَهْوَاؤُكَ الْمَكْنُونَةَ الظَّلَّلُ^(٢)

رَبَعَ قَوَاءَ أَذَاعِ الْمُغْصِرَاتِ بِهِ وَكُلَّ حَيْرَانَ جَارٍ مَأْوَءَ خَضِلُ

قال: أراد ذاك رَبَعَ قَوَاءَ أو هو ربع. قال ومثله قول الآخر:

(١) في (ب): ولا يعلمه.

(٢) البيتان لعمر بن أبي ربيعة كما نسبهما البغدادي في شرح شواهد المغني. (انظر حواشي

أبيات سيبويه لابن السَّيرافي ٣٩١/١) ولم ينسبهما في الكتاب (١/١٤٢).

والقواء: الْمُقْفَر، والمعصرات من السُّحُب التي فيها الأعاصير: الرهج والغبار. وقوله:

«كل حيران» أي سحابٍ متردّد يسير ليلاً، والخضل معناه الندي. يعني سحاباً ماطرأ

غزيراً.

هل تَعْرِفُ الْيَوْمَ رَسْمَ الدَّارِ وَالطَّلَلَا كَمَا عَرَفْتَ بِحَفْنِ الصَّبِيلِ الْخِلَلَا^(١)
 دَارٌ لِمَرْوَةٍ إِذْ أَهْلِي وَأَهْلُهُمْ بِالْكَانِسِيَّةِ نَرعى اللَّهْوَ وَالغَزَلَا

كأنه قال: تلك دار. قال شيخنا رحمه الله: ولم يُحْمَلِ البيت الأول على أن [٤٨ ب] الرَّبْعُ بدلٌ من الطلل لأن الربع أكثرُ من الطلل والشيءُ يُبدَلُ مما هو مثله أو أكثر منه، فأما الشيء من أقل منه ففاسد لا يُتَصَوَّرُ. وهذه طريقةٌ مستمرة لهم إذا ذَكَّرُوا الديارَ والمنازلَ وكما يُضْمَرُونَ المبتدأ فيرفعون فقد يضمرون الفعل فينصبون كبيت الكتاب أيضاً^(٢):

دِيَارَ مِيَّةٍ إِذْمِي تُسَاعِفُنَا وَلَا يَرَى مِثْلَهَا عُجْمٌ وَلَا عَرَبٌ
 أنشده بنصب «ديار» على إضمارِ فعل؛ كأنه قال: اذْكُرْ دِيَارَ مِيَّةٍ.

ومن المواضع التي يطرد فيها حذفُ المبتدأ القطعُ والاستئنافُ يبدوون بذكر الرجل ويقدمون بعض أمره ثم يدعون الكلام الأول ويستأنفون كلاماً آخر وإذا فعلوا ذلك أتوا في أكثر الأمر بخبر من غير مبتدأ. مثال ذلك قوله^(٣):

وَعَلِمْتُ أَنِّي يَوْمَ ذَا لَكَ مُنَازِلٌ كَغَبَابٍ وَنَهْدَا
 قَوْمٌ إِذَا لَبِسُوا الْحَدِيدَ لَدَنَمَّرُوا حَلَقاً وَقَدَا
 وقوله^(٤):

(١) البيتان في ملحق ديوان عمر بن أبي ربيعة: ٤٨٩، وأثبتهما المحقق في القسم الثالث في ذكر المنسوب إلى عمر بن أبي ربيعة غير الموجود في أصول ديوان شعره.
 الجفن: غمد السيف. والصَّيْلُ: الذي يصقل السيوف ويَجْلُوها. والخِلَال جمع خِلَّة: وهي غمد السيف المنقوش بالذهب.

(٢) البيت لذي الرمة (ديوانه ٢٣/١). وهو من أبيات الكتاب ١/١٤١، ٣٣٣

(٣) ديوان عمرو بن معديكرب: ٦٤. وهي قصيدة حماسية.

(٤) البيتان لأبي البرج القاسم بن حنبل المرِّي، من أبيات في زفر بن أبي هاشم بن مسعود بن سنان.

(حماسة أبي تمام بشرح المرزوقي ١٦٥٨/٤) وكانوا يزعمون أن شرب دماء الملوك يشفي من داء الكلب. وفحوى كلام الشاعر أن الممدوح وقومه من طينة الملوك.

هُمُ حَلُّوا مِنَ الشَّرَفِ الْمُعَلَّى وَمِنْ حَسَبِ الْعَشِيرَةِ حَيْثُ شَاؤُوا
بُنَاءُ مَكَارِمٍ وَأَسَاءُ كَلِمٍ دَمَائُهُمْ مِنَ الْكَلْبِ الشَّفَاءُ
وقوله^(١):

رَأَيْتُ عَلَى مَا بِي عَمِيلَةً فَاشْتَكَيْ إِلَى مَا لِي حَالِي أَسْرًا كَمَا جَهَزَ
غُلَامٌ رَمَاهُ اللَّهُ بِالْخَيْرِ مُقْبِلًا لَهُ سِنِمِيَاءُ لَا تَشُقُّ عَلَى الْبَصَرِ
وقوله^(٢):

إِذَا ذُكِرَ ابْنُ الْعَنْبَرِيَّةِ لَمْ تَضِقْ ذِرَاعِي وَأَلْقَى بِأَسْتِهِ مَنْ أَفَاخِرُ
هَلَالَانِ حَمَلَانِ فِي كُلِّ شَنْوَةٍ مِنْ الثَّقَلِ مَا لَا تَسْتَطِيعُ الْأَبَاعِرُ
«حَمَلَانِ»: خبر ثانٍ وليس بصفة كما يكون لو قلت مثلاً: رجلان حَمَلَانِ.
ومما اغتيد فيه أن يجيء خبراً قد بُنيَ على مُبتدأ محذوفٍ قولهم بعد أن يذكروا
الرجلَ: قَتَى مِنْ [٤٩] صَفْتَهُ كَذَا، وَأَعَرُّ مِنْ صَفْتِهِ كَيْتُ وَكَيْتُ. كقوله^(٣):

- (١) البيتان من حماسية (١٥٨٦/٤) لأسيد بن عنقاء الفزاري، قالها في عميلة الفزاري الذي قاسمه ماله وأغناه بعد فقره. وبين البيتين المختارين هنا بيتان آخران.
- ويريد بالسيمياء ما عليه من حسن القبول والتمكن من النفوس والقلوب، وأن هيئته لا تملأها العيون ولا تنطبق دونها الجفون.
 - (٢) البيتان من حماسية (٣٦٩/١) لموسى بن جابر بن أرقم بن مسلمة بن عبيد الحنفي اليمامي، شاعر نصراني جاهلي، كثير الشعر، كان يُلقب أزيق اليمامة. ويعرف بابن ليلي وهي أمه. (معجم الشعراء ٣٧٦، المؤلف والمختلف ١٦٥).
 - (٣) القائل هو أبو حذابة واسمه الوليد بن حنيفة، أحد بني ربيعة ينتهي نسه إلى تميم، قال الأصفهاني: «إنه شاعر من شعراء الدولة الأموية القدماء، بدوي حضري سكن البصرة، خرج مع ابن الأشعث لما خرج على عبد الملك وأظنه قتل معه، وكان شاعراً راجزاً فصيحاً خبيث اللسان هجاءً».
- والبيتان لم يذكرهما صاحب الأغاني ولكنه ذكر القصيدة التي رثى بها أبو حذابة عبد الله بن ناشرة اليربوعي الذي قُتل في سجستان في فتنة ابن الزبير.
(الأغاني ٢٢/٢٧١ - ٢٨٣، وسماء الطبري الوليد بن نهيك أبو خرابة ٥/٤٧٢).

ألا لا فتى بعد ابن ناشرة الفتى ولا عُزف إلا قد تَوَلَّى وأذبرا
فتى حنظلي ما تزال ركباه تجود بمغروف وتُنكر مُنكرا
وقوله^(١):

ساشر عمرأ إن تراخت منيتي أيادي لم تُمنن وإن هي جلت
فتى غير محجوب الغنى عن صديقه ولا مظهر الشكوى إذا النعل زلت
ومن ذلك قول جميل^(٢):

وهل بُثينة يا للناس قاضيتي ديني وفاعلة خيراً فأجزبها؟
ترنو بعيني مهة أقصدت بهما قلبي عشيّة تزميني وأزربها
هيفاء مُقبلة عجزاء مُذبرة ربّا العظام [بلا عيب يرى فيها
من الأوانس مكسأل مُبثلة خرّد غذاها] بلين العيش غاذبها

= - والبيتان من حماسية (٩٨٤/٢) من ثلاثة أبيات لم يسم قائلها في شرح المرزوقي، وهي في شرح التبريزي (٢٢/٣). ومنهما بيت من القطعة في البيان والتبيين (٣٢٩/٣) وهي ثمة في ستة أبيات.

(١) القائل هو عبد الله بن الزبير الأسدي كما في الكامل ٢١٤/١ والأغاني ٢١٢/١٤ - ٢١٣. وتُنسب لغيره. وعمرو المذكور هو عمرو بن عثمان بن عفان وقيلت الأبيات عقب حادثة ذكرها صاحب الأغاني، والأبيات هناك ثلاثة. وعبد الله أموي الشعر والهو. مات في خلافة عبد الملك بن مروان وهو أحد الهجائين للناس، المرهوب شرهم (الأغاني ٢٢/٢٠٨). وانظر مُعجم الشعراء ٤٢١، وسمط اللاكي ١٦٦، وديوان إبراهيم بن العباس في الطرائف ١٣٠. وانظر حاشية الحماسة (المرزوقي ١٥٨٩/٤) في نسبة الأبيات).

(٢) لم ترد الأبيات في ديوان جميل بثينة (جمعه ورتبه د. حسين نصار)، وهي في كتاب (البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن) لابن الزمكاني ٢٣٨، وانظر حاشية التحقيق فيه. - والاستدراك من البرهان.

وقوله^(١):

إِنِّي عَشِيَّةٌ رُحْتُ وَهِيَ حَزِينَةٌ تَشْكُو إِلَيَّ صَبَابَةً لَصَبُورُ
وَتَقُولُ بِثِّ عِنْدِي فَدَيْتُكَ لَيْلَةً أَشْكُو إِلَيْكَ فَإِنَّ ذَاكَ بِسِيرُ
غَرَاءٍ مِبْسَامٍ كَانَ حَدِيثُهَا دُرٌّ تَحْدَرُ نَظْمُهُ مَنَشُورُ
مَخْطُوطَةُ الْمُتَنِّينِ مُضْمَرَةُ الْحِشَا رَبِّمَا الرَّوَافِدِ خَلَقَهَا مَمْكُورُ^(٢)

وقول الأقيشر^(٣) في ابنِ عَمٍّ له موسر سأله فمنعه وقال: كَمْ أُعْطِيكَ مَالِي وَأَنْتَ تَنْفَقُهُ فِيمَا لَا يَغْنِيكَ وَاللَّهِ لَا أُعْطِيكَ. فتركه حتى اجتمع القومُ في نادِيهِمْ وَهُوَ فِيهِمْ فَشَكَاهُ إِلَى الْقَوْمِ وَذَمَّهُ فَوُتِبَ إِلَيْهِ ابْنُ عَمِّهِ فَلَطَمَهُ فَأَنْشَأَ يَقُولُ:

سَرِيعٌ إِلَى ابْنِ الْعَمِّ يَلْطِمُ وَجْهَهُ وَلَيْسَ إِلَى دَاعِيِ النَّدَى بِسَرِيعِ
[٤٩ ب] حَرِيصٌ عَلَى الدُّنْيَا مُضِيعٌ لِدِينِهِ وَلَيْسَ لِمَا فِي بَيْتِهِ بِمُضِيعِ

فتأمل الآن هذه الأبيات كلها واستقرها واحداً واحداً وانظر إلى موقعها في نفسك وإلى ما تجده من اللطف والظرف إذا أنت مررت بموضع الحذف منها ثم قلبت النفس عما تجدُ وألطفْتَ النظر فيما تحس به. ثم تكلف أن تردّ ما حذف الشاعرُ وأن تخرجه إلى لفظك وتوقعه في سَمْعِكَ فَإِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّ الَّذِي قُلْتُ كَمَا قُلْتُ، وَأَنَّ رُبَّ حَذْفٍ هُوَ قِلَادَةُ الْجَيِّدِ، وقاعدةُ التَّجْوِيدِ، وإن أردت ما هو

(١) ديوان جميل: ٩٧

(٢) مخطوطة المتنين: ممدودة الظاهر. ومضمرة الحشا: دقيقة الحشا (الظن). وربّما: ممتلئة. وممكور: مطويّ مدمج.

(٣) اسمه - على الأغلب - المغيرة بن عبد الله بن معرض أو المغيرة بن بني معرض بن عمرو بن أسد. والأقيشر: لقب. وهو شاعر إسلامي عمّر طويلاً وتوفي بعد الثمانين من المئة الأولى. وفي المؤرخين من يجعل ولادته في العصر الجاهلي.

(انظر مقدمة ديوان الأقيشر الأسدي: أخباره وأشعاره - حوليات الجامعة التونسية).

- البيتان في ديوانه: ٧٣

أصدق في ذلك شهادة، وأدُلُّ دلالة، فانظر إلى قول عبد الله بن الزبير يذكر غريباً له قد ألحَّ عليه^(١):

عَرَضْتُ عَلَى زَيْدٍ لِيَأْخُذَ بَعْضَ مَا يُحَاوِلُهُ قَبْلَ اعْتِرَاضِ الشَّوَاعِلِ
فَدَبَّ دَبِيبَ الْبَغْلِ بِأَلَمٍ ظَهَرُهُ وَقَالَ تَعَلَّمْ أَتَنِي غَيْرُ فَاعِلٍ
تَشَاءَبَ حَتَّى قَلْتُ دَاسِعُ نَفْسِهِ وَأَخْرَجَ أَنْيَاباً لَهُ كَالْمَعَاوِلِ

الأصل حتى قلت: هو داسِعُ نَفْسِهِ. أي حسبته من شدة التأوُّب ومما به من الجُهد يقذف نفسه من جوفه ويُخرجها من صدره كما يَدَسُّعُ البعيرُ جِرَّتَهُ. ثم إنك ترى نِضْبَةَ الكلام وهيئته تروم منك أن تنسى هذا المبتدأ وتباعده عن وهمك، وتجتهد أن لا يدورَ في خلدك، ولا يَعْرِضُ لخاطرك، وتراك كأنك تتوقاه تَوَقَّى الشَّيْءَ يُكْرَهُ مَكَانُهُ، والثَّقِيلَ يُخْشَى هُجُومُهُ. ومن لطيف الحذف قول بكر بن النطاح^(٢):

الْعَيْنُ تُبْدِي الْحُبَّ وَالْبُغْضَا وَتُظْهِرُ الْإِبْرَامَ وَالنَّقْضَا
دُرَّةٌ مَا أَنْصَفْتَنِي فِي الْهَوَى^(٣) وَلَا رَحِمَتِ الْجَسَدَ الْمُنْضَى [٥٠ أ]
غَضَبِي وَلَا وَاللهِ يَا أَهْلَهَا لَا أَطْعَمُ الْبَارِدَ أَوْ تَرْضَى!

(١) الخبر في الأغاني (٢٢٧/١٤) في هجاء رجل يسمى (ذنباً). وفيه:

عرضتُ على ذنبٍ لِيَأْخُذَ بَعْضَ مَا يُحَاوِلُهُ قَبْلَ اسْتِغْثَالِ الشَّوَاعِلِ

ولم يرد البيت الثاني من هذه الأبيات الثلاثة.

- ودَسَعُ البعيرُ بجِرَّتِهِ: دَفَعَهَا حَتَّى أَخْرَجَهَا مِنْ جَوْفِهِ إِلَى فَمِهِ دَفْعَةً وَاحِدَةً. وَالْجِرَّةُ: مَا يُخْرِجُهُ الْبَعِيرُ مِنْ بَطْنِهِ لِيَمْضَغَهُ وَيَبْلَعَهُ.

(٢) الأبيات في الأغاني (٤٩/١٩) من قطعة قالها في جارية له تُدعى (درة).

(٣) المنضى: المهزول.

- وبكر بن النطاح شاعر حسن الشعر من شعراء الدولة العباسية. قال الأصفهاني: وكان شجاعاً بطلاً فارساً شاعراً حسن الشعر. وكان بكر صعلوكاً يُصِيبُ الطريق ثم أقصر عن ذلك (امتنع) فجعله أبو دلف (العجلي) من الجند وجعل له رزقاً سلطانياً (راتباً دائماً).

يقولُ في جارية كان يُحِبُّها وسُعي^(١) به إلى أهلها فمنعوها منه والمقصودُ قوله (عُضِي) وذلك أنَّ التقدير «هي غضبي» أو «غضبي هي» لا محالة ألا ترى أنك ترى النفس كيف تتفادى من إظهار هذا المحذوف وكيف تأنس إلى إضماره، وترى الملاحاة كيف تذهب إن أنت رمت التكلم به، ومن جَيِّد الأمثلة في هذا الباب قولُ الآخر يخاطِبُ امرأته وقد لامته على الجود:

قَالَتْ سُمِيَّةٌ قَدْ عَوَيْتَ بَأْنَ رَأَتْ حَقًّا تَنَاقِبَ مَا لَنَا وَوُفُودًا^(٢)

عَيَّ لَعَمْرُكَ لَا أَزَالُ أَعُودُهُ مَا دَامَ مَالٌ عِنْدَنَا مَوْجُودًا

المعنى «ذاك غي لا أزال أعود إليه فدعي عنك لومي» وإذ قد عَرَفْتَ هذه الجملة من حالِ الحذف في المبتدأ فاعلم أنَّ ذلك سبيلُه في كلِّ شيء، فما من اسم أو فعل تجده قد حُذِفَ ثم أصيب به موضعه وحُذِفَ في الحال يَنْبَغِي أن يُحذَفَ فيها إلَّا وأنت تجدُ حذفه هناك أحسنَ من ذكره، وترى إضماره في النفس أولى وأنس مِنَ النطق به.

وإذ قد بدأنا في الحذفِ بذكرِ المُبتدأ وهو حذفُ اسمٍ إذ لا يكون المبتدأ إلَّا اسماً، فإنني أتبعُ ذلك ذكر المفعول به إذا حُذِفَ خصوصاً، فإنَّ الحاجةَ إليه أمسُّ، وهو بما نحن به أخصُّ، واللطائفُ كأنها فيه أكثر، وما يظهر بسببه مِنَ الحُسْنِ والرَّوْنِقِ أعجبُ وأظهرُ، وههنا أصلٌ يجب ضَبْطُه وهو أنَّ حالَ الفعل مع المفعول الذي يتعدى إليه حاله مع الفاعل وكما أنك إذا قلت: ضَرَبَ زيدٌ. فأسندتَ الفعلَ إلى الفاعل كان غرضك من ذلك أنَّ تثبتَ الضَّرْبِ فعلاً له لا أنَّ تفيد وجودَ الضرب في نفسه وعلى الإطلاق. كذلك إذا عدَّيتَ الفعلَ إلى المفعول فقلتَ [٥٠ ب]: ضرب زيدَ عمرًا. كان غرضك أن تفيد التباسَ الضرب الواقع من الأول بالثاني ووقوعه عليه فقد اجتمع الفاعل والمفعول في أنَّ عَمِلَ الفعل فيهما، إنما كان مِنْ أَجْلِ أن يُعْلَمَ التباسُ المعنى الذي اشتق منه بهما.

(١) في (ب): «تسعى» و «يمنعوها».

(٢) في (أ) و (ب): «وفود» و «موجود».

فَعَمِلَ الرُّفْعُ فِي الْفَاعِلِ لِيُعْلَمَ التَّبَاسُّ الضَّرْبِ بِهِ مِنْ جِهَةٍ وَقَوْعِهِ مِنْهُ، وَالنَّصْبُ فِي الْمَفْعُولِ لِيُعْلَمَ التَّبَاسُّ بِهِ مِنْ جِهَةٍ وَقَوْعِهِ عَلَيْهِ، وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ لِيُعْلَمَ وَقَوْعُ الضَّرْبِ فِي نَفْسِهِ، بَلْ إِذَا أُريدَ الْإِخْبَارُ بِوُقُوعِ الضَّرْبِ وَوُجُودِهِ فِي الْجُمْلَةِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْسَبَ إِلَى فَاعِلٍ أَوْ مَفْعُولٍ أَوْ يَتَعَرَّضَ لِبَيَانِ ذَلِكَ فَالْعِبَارَةُ فِيهِ أَنْ يَقَالَ: كَانَ ضَرْبٌ أَوْ وَقَعَ ضَرْبٌ أَوْ وُجِدَ ضَرْبٌ. وَمَا شَاكَلَ ذَلِكَ مِنْ أَلْفَاظٍ تَفِيدُ الْوُجُودَ الْمَجْرَدَ فِي الشَّيْءِ.

وإِذْ قَدْ عَرَفْتَ هَذِهِ الْجُمْلَةَ فاعْلَمْ أَنَّ أَغْرَاضَ النَّاسِ تَخْتَلِفُ فِي ذِكْرِ الْأَفْعَالِ الْمُتَعَدِّيَةِ فَهُمْ يَذْكُرُونَهَا تَارَةً وَمُرَادَهُمْ أَنْ يَقْتَصِرُوا عَلَى إِبْثَاتِ الْمَعَانِي الَّتِي اشْتَقَّتْ مِنْهَا لِلْفَاعِلِينَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَتَعَرَّضُوا لِلذِّكْرِ الْمَفْعُولِينَ. فَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ كَانَ الْفِعْلُ الْمُتَعَدِّي كَغَيْرِ الْمُتَعَدِّي مَثَلًا فِي أَنْكَ لَا تَرَى لَهُ مَفْعُولًا لَا لَفْظًا وَلَا تَقْدِيرًا. وَمِثَالُ ذَلِكَ قَوْلُ النَّاسِ: فَلَانٌ يَحُلُّ وَيَعْقِدُ، وَيَأْمُرُ وَيَنْهَى، وَيَضُرُّ وَيَنْفَعُ، وَكَقَوْلِهِمْ: هُوَ يُعْطِي وَيُجْزِلُ، وَيَقْرِي وَيُضَيِّفُ. الْمَعْنَى فِي جَمِيعِ ذَلِكَ عَلَى إِبْثَاتِ الْمَعْنَى فِي نَفْسِهِ لِلشَّيْءِ عَلَى الْإِطْلَاقِ وَعَلَى الْجُمْلَةِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَتَعَرَّضَ لِحَدِيثِ الْمَفْعُولِ حَتَّى كَأَنَّكَ قُلْتَ: صَارَ إِلَيْهِ الْحُلُّ وَالْعَقْدُ، وَصَارَ بِحَيْثُ يَكُونُ مِنْهُ حَلٌّ وَعَقْدٌ وَأَمْرٌ وَنَهْيٌ وَضُرٌّ وَنَفْعٌ، وَعَلَى هَذَا الْقِيَاسِ. وَعَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى ^(١): ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٣٩/٩] الْمَعْنَى هَلْ يَسْتَوِي مَنْ لَهُ عِلْمٌ وَمَنْ لَا عِلْمَ لَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُقْصَدَ النَّصُّ عَلَى مَعْلُومٍ. وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنْتُمْ هُوَ أَضْحَكَ وَأَنْتَ الْبَاقِي﴾ [النجم: ٤٣/٥٣-٤٤] [٥١] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنْتُمْ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى﴾ [النجم: ٤٨/٥٣] الْمَعْنَى هُوَ الَّذِي مِنْهُ الْإِحْيَاءُ وَالْإِمَاتَةُ وَالْإِغْنَاءُ وَالْإِقْنَاءُ. وَهَكَذَا كُلُّ مَوْضِعٍ كَانَ الْقَصْدُ فِيهِ أَنْ يَثْبِتَ الْمَعْنَى فِي نَفْسِهِ فِعْلًا لِلشَّيْءِ وَأَنْ يُخْبَرَ بِأَنْ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَكُونَ مِنْهُ أَوْ لَا يَكُونَ إِلَّا مِنْهُ أَوْ لَا يَكُونَ مِنْهُ فَإِنَّ الْفِعْلَ لَا يُعَدَّى هُنَاكَ لِأَنَّ تَعْدِيَتَهُ تَنْقُصُ الْغَرَضَ وَتُغَيِّرُ الْمَعْنَى. أَلَا تَرَى أَنْكَ إِذَا قُلْتَ: هُوَ يُعْطِي الدَّنَانِيرَ؛ كَانَ الْمَعْنَى عَلَى أَنْكَ قَصَدْتَ أَنْ

(١) وَالْآيَةُ الْكَرِيمَةُ: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَنِيتُ ءَانَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةً رَبِّهِ. قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَؤُلَ الْأَلْبَابِ﴾.

تُعْلِمُ السامِعَ أَنَّ الدنانيرَ تَدْخُلُ في عطائه أو أنه يعطيها خصوصاً دونَ غيرها وكان غَرَضُكَ على الجملة بيانَ جنس ما تناوله الإعطاء لا الإعطاء في نفسه ولم يكن كلامك مع مَنْ نفى أن يكون كان منه إعطاء بوجه من الوجوه بل مع من أثبت له إعطاء إلا أنه لم يُثَبِّتْ إعطاء الدنانير فاعرف ذلك فإنه أصلٌ كبير عظيم النفع. فهذا قسم من خلو الفعل عن المفعول وهو أن لا يكون له مفعولٌ يمكن النَّصُّ عليه.

وقسمٌ ثانٍ وهو أن يكونَ له مفعولٌ مقصودٌ قَصْدُهُ معلومٌ إلا أنه يُخَذَفُ من اللفظ لدليل الحال عليه، وينقسم إلى جَلِيٍّ لا صنعة فيه وخَفِيٍّ تدخُّله الصنعة. فمثالُ الجلي قولهم: أصغيتُ إليه؛ وهم يُريدونَ أذني، و: أغضيتُ عليه؛ والمعنى جفني. وأما الخفي الذي تدخُّله الصنعة فيتفنن^(١) ويتنوع. فنوعٌ منه أن تذكر الفعلَ وفي نفسك له مفعولٌ مخصوص قد عُلِمَ مكانه إما لَجَرِي ذُكِرَ أو دليل حالٍ إلا أنك تُنسيه نفسك وتخفيه وتوهمُ أنك لم تذكر ذلك الفعلَ إلا لأن تثبتَ نفس معناه من غير أن تعديه إلى شيء أو تعرضَ فيه لمفعول. ومثاله قولُ البحري^(٢):

شَجَوُ حُسَّادِهِ وَغِيْظُ عِدَائِهِ أَنْ يَرَى مُبْصِرٌ وَيَسْمَعُ وَاعٍ!

المعنى لا محالة أن يرى مُبْصِرٌ محاسنه ويسمعُ واعٍ أخباره وأوصافه، ولكنك تعلم على ذلك [هـ ب] أنه كأنه^(٣) يسرقُ علمَ ذلك مِنْ نفسه، ويدفعُ صورته عن وهمه، ليحصلَ له معنى شريفٌ وغرضٌ خاصٌ. وذاك أنه يمدح خليفة وهو المعتزُّ ويعرضُ بخليفة وهو المستعين فأراد أن يقول: إن محاسنَ المعتزِّ وفضائله المحاسنُ والفضائلُ يكفي فيها أن يَقَعَ عليها بصرٌ ويعيها سَمْعٌ، حتى يعلم أنه المستحقُّ للخلافة، والفرْدُ الوحيد الذي ليس لأحدٍ أن ينازعه مَرَّتَبَتِها، فأنت ترى حساده وليس شيء أشجى لهم وأغيض من عملهم بأن ههنا مُبْصِراً

(١) في (ب): فيفتن.

(٢) ديوان البحري (٢/ ١٢٤٤)، والبيت من قصيدة يمدح بها المعتز بالله.

(٣) في الأصل: «وقال إنه» والتصويب من غ.

يرى وسامعاً يعي حتى ليطمنون أن لا يكون في الدنيا من له عَيْنٌ يبصر بها، وأذن يعي معها، كي يخفى مكانُ استحقاقه لشرف الإمامة، فيجدوا بذلك سبيلاً إلى منازعته إياها.

(وهذا نوع آخر منه) وهو أن يكونَ معك مفعولٌ معلومٌ مقصودٌ قصدهُ قد عُلِمَ أنه ليس للفعل الذي ذكرتَ مفعولٌ سواءً بدليل الحالِ أو ما سَبَقَ من الكلامِ إلّا أنك تطرّحه وتتناساه وتدعه يُلزَمَ ضميرَ النفس لغرض غير الذي مَضَى وذلك الغرضُ أن تتوفر العنايةُ على إثبات الفعلِ للفاعل وتخلّصَ له وتنصرفَ بجملتها وكما هي إليه. ومثاله قولُ عمرو بن معدي كَرِب^(١):

فلو أن قَوْمِي أَنْطَقْتَنِي رِمَاحُهُمْ نَطَقْتُ وَلَكِنَّ الرِّمَاحَ أَجَرَّتْ

«أجَرَّتْ» فعل متعدٍ ومعلومٌ أنه لو عدّاه لما عدّاه إلّا إلى ضمير المتكلم نحو: «ولكنَّ الرماحَ أجرتني» وأنه لا يُتَصَوَّرُ أن يكون ههنا شيءٌ آخر يتعدّى إليه لاستحالة أن يقول: فلو أن قومي أنطقتني رماحهم، ثم يقول: ولكنَّ الرماحَ أجَرَّتْ غيري. إلّا أنك تجد المعنى يلزمك أن لا تنطق بهذا المفعول ولا تُخرجه إلى لفظك، والسبب في ذلك أنَّ تعديتَكَ له توهم ما هو خلافُ الغرض، وذلك أن الغرض هو أن تُثَبِّتَ أنه كان من الرماح إجرارٌ وحَسْبُ للالسن عن النطق وأن [٥٢] تصحَّحَ وجودُ ذلك. ولو قال: «أَجَرَّتَنِي جَارٌ أن يتوهم أنه لم يُغْنِ بأن يثبتَ للرماح إجراراً بل الذي عناه أن يبيِّنَ أنها أجَرَّتْه، فقد يُذَكِّرُ الفعلُ كثيراً والغَرَضُ منه ذِكْرُ المفعول مثاله أنك تقول: أَضْرَبْتُ زيداً؟ وأنت لا تنكِرُ أن يكون كان من المخاطب ضَرْبٌ، وإنما تُنَكِّرُ أن يكونَ وَقَعَ الضربُ منه على زيد وأن يستجيرَ ذلك أو يستطيعه، فلمّا كان في تعديّة «أَجَرَّتْ» ما يُوهم ذلك وَقَفَ

(١) ديوان عمرو بن معدي كرب: من قصيدة في الأصمعيات، وحماسة أبي تمام.

- والإجرار: أن يُشَقَّ لسان الفَصِيل ويضعوا فيه عوداً لتلا يرضع. يقول - كما شرح المرزوقي -: لو أن قومي أبلوا في الحرب لافتخرتُ بهم وذكرْتُ بلاءهم ولكن رماحهم (بإساءتهم الحرب) أجَرَّتْ لساني كما يُجَرُّ لسان الفصيل، فلم ينطق بمدحهم أو الافتخار بهم.

فلم يُعَدَّ البتة ولم ينطق بالمفعول لتخلّص العناية لإثبات الإجراء للرماع وتضحيح أنّه كان منها وتسلّم بكليتها لذلك، ومثله قول جرير^(١):

أَمْنِيَتِ الْمُنَى وَخَلَبَتِ حَتَّى تَرَكْتُ ضَمِيرَ قَلْبِي مُسْتَهَامَا

الغرض أن يثبت أنه كان منها تمنيةً وخلافةً، وأن يقول لها: أهكذا تصنعين وهذه حيلتك في فتنّة الناس؟ ومنّ بارع ذلك ونادره ما تجده في هذه الأبيات. روى المرزباني في كتاب الشعر بإسناد قال: لما تشاغل أبو بكر الصديق رضي الله عنه بأهل الردة استبطأته الأنصار فقال: إما كلفتموني أخلاق رسول الله ﷺ فوالله ما ذاك عندي ولا عند أحد من الناس ولكني والله ما أوتى من مودة لكم ولا حُسن رأي فيكم، وكيف لا نحبيكم! فوالله ما وجدت مثلاً لنا ولكم إلا ما قال طفيل الغنوي لبني جعفر بن كلاب^(٢):

جَزَى اللَّهُ عَنَّا جَعْفَرًا حِينَ أَرْلَقْتُ بِنَا نَعْلُنَا فِي الْوَاطِئِينَ فَرَلْتُ
أَبَوَا أَنْ يَمَلُّونَا وَلَوْ أَنَّ أَمْنَا تُلَاقِي الَّذِي لَاقُوهُ مِنَّا لَمَلَّتْ
هُمُ خَلَطُونَا بِالنُّفُوسِ وَالْجُؤَا إِلَى حُجَرَاتٍ أَذْفَأَتْ وَأَظْلَّتْ

فيها حذف مفعول مقصود قصده في أربعة مواضع قوله: لملت وأظلتنا وأدفات [٥٢ ب] وأظلت؛ لأن الأصل «لملتنا وألجؤنا إلى حجرات أدفاتنا وأظلتنا» إلا أن الحال على ما ذكرت لك من أنه في حدّ المتناسي حتى كأن لا قصد إلى مفعول وكأنّ الفعل قد أبهم أمره فلم يُقصد به قصد شيء يقع عليه كما يكون إذا قلت: قد ملّ فلان؛ تريد أن تقول: قد دخله الملل، من غير أن تخصّ شيئاً بل لا تزيد على أن تجعل الملل من صيفته وكما تقول: هذا بيت يُدفى ويُظّل. تريد أنه بهذه الصفة.

واعلم أن لك في قوله: أجرت ولملت: فائدة أخرى زائدة على ما ذكرت من

(١) ديوان جرير (٢٢١/١) من قصيدة في مدح هشام بن عبد الملك، ويقال إنها آخر شعره.

ومعنى خلّبه: فتنت قلبه.

(٢) ديوان طفيل الغنوي: ٩٨

توفير العناية على إثبات الفعل وهي أن تقول: كان من سوء بلاء القوم ومن تكذيبهم عن القتال ما يُجرُّ مثله وما القضية فيه أنه لا يتفق على قوم إلا خرس شاعرهم فلم يستطع نطقاً. وتعديتك الفعل تمنع من هذا المعنى لأنك إذا قلت: ولكنَّ الرماح أجرتني؛ لم يكن أن يتأوَّل على معنى أنه كان منها ما شأن مثله أن يُجرَّ قضية مستمرة في كلِّ شاعر قوم بل قد يجوز أن يوجد مثله في قوم آخرين فلا يُجرَّ شاعرهم، ونظيره أنك تقول: قد كان منك ما يؤلم؛ تريد ما الشرط مثله أن يؤلم كلَّ أحد وكلَّ إنسان. ولو قلت: ما يؤلمني؛ لم يُفد ذلك لأنه قد يجوز أن يؤلمك الشيء لا يؤلم غيرك. وهكذا قوله: ولو أنَّ أماناً تلاقي الذي لاقوه منا لملت؛ يتضمن أن من حكم مثله في كلِّ أم أن تملَّ وتسأم وأن المشقة في ذلك إلى حدِّ يعلم أن الأم تمل له الابن وتتبرم مع ما في طباع الأمهات من الصبر على المكاره في مصالح الأولاد. وذلك أنه وإن قال «أماناً» فإن المعنى على أن ذلك حكم كلِّ أم مع أولادها. ولو قلت: «لملتنا» لم يَحتمِل ذلك لأنه يجري مجرى أن تقول: لو لقيت أماناً ذلك لدخلها ما يُملُّها منا. وإذا قلت: ما يملها منا؛ فقيدت [٥٣] لم يصلح لأن يراد به معنى العموم وأنه بحيث يملُّ كل أم من كل ابن. وكذلك قوله: «إلى حجرات أدفات وأظلت»؛ لأن فيه معنى قولك حجرات من شأن مثلها أن تدفئ وتظلَّ أي هي بالصفة التي إذا كان البيت عليها أدفاً وأظل. ولا يجيء هذا المعنى مع إظهار المفعول إذ لا تقول: حجرات من شأن مثلها أن تدفئنا وتظلنا. هذا لغو من الكلام فاعرف هذه النكته فإنك تجدُّها في كثير من هذا الفن مضمومة إلى المعنى الآخر الذي هو توفير العناية على إثبات الفعل والدلالة على أن القصد من ذكر الفعل أن تثبته لفاعله لا أن تُعلم التباسه بمفعوله.

وإن أردت أن ترداد تبييناً لهذا الأصل أعني وجوب أن تُسقط المفعول لتوفر العناية على إثبات الفعل لفاعله ولا يدخلها شوب فانظر إلى قوله تعالى^(١): ﴿وَلَمَّا رَدَّ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا سَقَىٰ حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءَ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ۝ۚ فَسَقَىٰ

(١) وتمة الآية ٢٤: ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لَمَّا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَصِيرٌ﴾.

لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ) [القصص: ٢٨/٢٣-٢٤] ففيها حذف مفعولٍ في أربعة مواضعٍ إذ المعنى: وجد عليه أمةٌ من الناس يسقون أغنامهم أو مواشيهم وامرأتين تذودان غنمهما وقالتا: لا نسقي غنمنا، فسقى لهما غنمهما. ثم إنه لا يخفى على ذي بَصَرٍ أنه ليس في ذلك كله إلا أن يترك ذكره، ويؤتى بالفعل مطلقاً، وما ذاك إلا أنَّ الغرضَ في أن يعلم أنه كان من الناس في تلك الحال سَقِي، وَمِنْ المرأتين دَوْدٌ، وأنها قالتا: لا يكون مِنَّا سَقِي حتى يصدر الرعاء، وأنه كان من موسى عليه السلام من بَعْدَ ذلك سَقِي، فأما ما كان المسقِي غنماً أم إبلاً أم غير ذلك فخارج عن الغرض ومُوْهِمٌ خلافه، وذاك أنه لو قيل: وجد من دونهم امرأتين تذودان غنمهما؛ جاز أن يكون لم ينكر الذودَ من حَيْثُ هو دَوْدٌ بل [٥٣ ب] من حيث هو دَوْدٌ غَنَمَ حتى لو كان مكان الغنم إبل لم ينكر الذود كما أنك إذا قلت: ما لك تمنع أخاك؟ كنت منكراً المنع لا من حيث هو مَنعٌ بل مِنْ حيث هو منعٌ أخ فاعرفه تَعْلَمَ أنك لم تجد لحذفِ المفعولِ في هذا النحو من الرُّوْعَةِ والحُسْنِ ما وجدتِ إلا لأن في حذفه وتركِ ذكره فائدةٌ جليلةٌ وأن الغرض لا يَصِحُّ إلا على تركه.

ومما هو كأنه نوعٌ آخر غير ما مضى قول البحرى^(١):

إِذَا بَعُدَتْ أَبْلَتْ وَإِنْ قَرُبَتْ شَفَتْ فَهَجَرَتْهَا يُبْلِي وَلُقْبَانُهَا يَشْفِي

قد عَلِمَ أن المعنى «إذا بعدت عني أبلتني وإن قربت مني شفتني» إلا أنك تجد الشعرَ يأبى ذكرَ ذلك ويوجبُ أطراحه، وذاك لأنه أراد أن يَجْعَلَ البلى كأنه واجب في بَعَادِهَا أن يوجبَه ويَجْلِبَه وكأنَّه كالطبيعة فيه، وكذلك حالُ الشفاء مع القرب حتى كأنه قال: أتدري ما بَعَادُهَا هو الداءُ الْمُضْنِي. وما قَرُبُهَا؟ هو الشفاءُ والبُرءُ من كلِّ داء. ولا سبيل لك إلى هذه اللطيفة وهذه النكتة إلا بحذف المفعول البتة فاعرفه، وليس لنتائج هذا الحذفِ أعني حذفِ المفعولِ نهاية، فإنه طريقٌ إلى ضروبٍ من الصنعة وإلى لطائف لا تحصى.

(١) ديوان البحرى ٣/ ١٣٦٩، من مطلع قصيدة غزلي، والقصيدة في مدح المتوكل على الله.

وهذا نوعٌ منه آخرُ. اعلم أنَّ ههنا باباً من الإضمار والحذف يُسمَّى الإضمار على شريطة التفسير. وذلك مثل قولهم: أكرمني وأكرمتُ عبد الله. أردت «أكرمني عبدُ الله وأكرمتُ عبدَ الله» ثم تركتُ ذكره في الأول استغناءً بذكره في الثاني. فهذا طريقٌ معروف ومذهبٌ ظاهر وشيء لا يُغبأ به ويُظن أنه ليس فيه أكثرُ مما تريك الأمثلة المذكورة منه. وفيه إذا أنت طلبتَ الشيء من معدنه^(١) من دقيق الصنعة ومن جليل الفائدة^(٢) ما لا تجده إلا في كلام الفحول. فمن لطيف ذلك ونادره قولُ البحرّي^(٣):

لو شئتَ لم تُفسِدَ سَمَاحَةً (حاتِم) كَرَمًا وَلَمْ تَهْدِمِ مَآثِرَ (خَالِدٍ) [٥٤]

الأصلُ لا محالة لو شئتَ أن لا تفسد سَمَاحَةً حاتم لم تفسدها، ثم حذفَ ذلك من الأول استغناءً بدلالته في الثاني عليه، ثم هو على ما تراه وتعلمه من الحسن والغرابة وهو على ما ذكرتُ لك من أنَّ الواجبَ في حكم البلاغة أن لا يَنطِقَ بالمحذوف ولا يَظهر إلى اللفظ، فليس يخفى أنك لو رجعت فيه إلى ما هو أصله فقلت: لو شئتَ أن لا تفسد سَمَاحَةً حاتم لم تفسدها؛ صرتَ إلى كلامٍ غثٍّ وإلى شيء يَمَجُّهُ السمع وتعافه النفس، وذلك أن في البيان إذا وَرَدَ بعد الإبهام وبعد التحريك له أبداً لطفاً ونبلاً لا يكون إذا لم يتقدم ما يحركُ وأنت إذا قلت: لو شئت؛ علم السامع أنك قد علقت هذه المشيئة في المعنى بشيء فهو يَضَع في نفسه أن هنا شيئاً تقتضي مشيئته له أن يكون أو أن لا يكون فإذا قلت: لم يفسد سَمَاحَةً حاتم؛ عرف ذلك الشيء.

ومجيءُ المشيئة بعد «لو» وبعد حروف الجزاء هكذا موقوفة غير معداة إلى شيء كثير شائع كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾ [الأنعام: ٣٥/٦] ﴿وَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النحل: ٩/١٦] والتقدير في ذلك كله على ما ذكرتُ فالأصل: لو شاء الله أن يجمعهم على الهدى لجمعهم و: «لو شاء أن يهديكم

(١) عبارة «من معدنه» سقطت من ب.

(٢) في (ب): ومن جليل القدرة.

(٣) ديوان البحرّي (٥٠٨/١) من قطعة له في معاتبة يوسف بن محمد.

أجمعين لهداكم» إِلَّا أَنَّ البلاغة في أن يجاء به كذلك محذوفاً وقد يتفق في بعضه أن يكون إظهارُ المفعول هو الأحسن، وذلك نحو قول الشاعر^(١):

وَلَوْ شِئْتُ أَنْ أَبْكِي دَمًا لَبَكَيْتُهُ عَلَيْهِ وَلَكِنْ سَاحَةَ الصَّبْرِ أَوْسَعُ

فقياسُ هذا لو كان على حَدِّ «وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى» أن يقول: لو شئتُ بكيتُ دماً. ولكنه كأنه ترك تلك الطريقة وعدل إلى هذه لأنها أحسنُ في هذا الكلام خصوصاً. وسببُ حسنه أنه كأنه بذع عجيب أن يشاء الإنسان أن يبكي دماً فلَمَّا كان كذلك، كان الأولى أن يُصرِّح بذكره ليقرِّره في نفس السامع ويؤنسه به. [٥٤ ب].

وإذا استقرت وجدت الأمر كذلك أبداً متى كان مفعولُ المشيئة أمراً عظيماً أو بديعاً غريباً كان الأحسن أن يُذكر ولا يُضمَر. يقول الرجل يخبرُ عن عزة نفسه: لو شئتُ أن أرددَ على الأمير رَدَدْتُ، ولو شئتُ أن ألقى الخليفة كلَّ يوم لقيتُ. فإذا لم يكن مما يُكبرُه السامع فالحذف كقولك: لو شئتُ خرجتُ ولو شئتُ قمتُ ولو شئتُ أنصفتُ ولو شئتُ لقلتُ. وفي التنزيل^(٢): ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ [الأنفال: ٣١/٨] وكذا تقول: لو شئتُ كنتُ كزيد، قال^(٣):

لَوْ شِئْتُ كُنْتُ كَكُرْزٍ فِي عِبَادَتِهِ أَوْ كَابْنِ طَارِقٍ حَوْلَ الْبَيْتِ وَالْحَرَمِ

- (١) ديوان الخُرَيْمِي: ٤٣ من قصيدة يرثي بها خُريم بن عمارة.
- (٢) والآية الكريمة: ﴿وَإِذَا نُنَاقِلُهَا عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنَّا نَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾.
- (٣) الشعر لعبد الله بن شبرمة قاضي الكوفة. وأورد القاضي وكيع في ترجمة ابن شبرمة بيتين من الشعر له، وهما:

لو شئت كنت ككرز في تعبدِه أو كابن طارق حول البيت في الحرم

قد حال دون لذيذ العيش خوفهما وسارعا في طلاب الفوز والكرم

(انظر كتاب أخبار القضاة لكيع ٩٤/٣).

وكذلك الحكم في غيره من حروف المجازاة أن تقول: إن شئت قلت وإن أردت دفعت. قال الله تعالى^(١): ﴿إِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ﴾ [الشورى: ٢٤/٤٢] وقال عزّ اسمه^(٢): ﴿مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأِ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٩/٦] ونظائر ذلك من الآي ترى الحذف فيها المستمر. ومما يُعلم أن ليس فيه لغير الحذف وجه قول طرفة^(٣):

وإن شئت لم ترقل وإن شئت أرقلت مخافة ملوي من القدّ مخصد
وقول حميد^(٤):

إذا شئت غثنني بأجزاء ينشأ أو الرزق من تثليث أو بيلمما
مطوّقة وزقاة تسجع كلما دنا الصيف وانجاب الربيع فأنجما
وقول البحتري^(٥):

إذا شاء غادي صرمة أو غدا على عقائل سرب أو تقنص رربا
وقوله^(٦):

لو شئت غدت بلاد نجد عودة فحللت بين عقيقه وزرودو

(١) والآية الكريمة: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْعَلْ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَيِّنَاتِ وَيُحْيِي الْحَيِّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُمْ عَلَيْهِ يَدَاتِ السُّدُورِ﴾.

(٢) والآية الكريمة: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سُوءُ بُرْءِكُمْ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأِ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

(٣) ديوان طرفة: ٢٦. والبيت من معلقته المشهورة. والإرقال أن تنفض الناقة رأسها لشدة سيرها. والملوي: السوط. والقدّ: ما قدّ من الجلد. والمخصد: الشديد الفتل.

(٤) هو حميد بن ثور الهلالي شاعر مخضرم، وأكثر ما عاش في ظل الإسلام، وعده ابن سلام في الطبقة الرابعة من الإسلاميين ويعدّ «حميد» في فحول الشعراء المجيدين. والأبيات من قصيدة مشهورة (الديوان: ٢٦). إنجاب وأنجم: ألق.

(٥) ديوان البحتري (١/١٩٩) من قصيدة في مدح الفتح بن خاقان وذكر منازلته للأسد. وروايته: «إذا شاء غادي عانة... والصرمة: القطعة من الإبل.

(٦) ديوان البحتري (٢/٦٩٣) من قصيدة في مدح عبيد الله بن يحيى بن خاقان.

معلوم أنك لو قلت: وإن شئت أن لا ترقل لم ترقل. أو قلت: إذا شئت أن تغنيني بأجزاء بيضة غثني، وإذا شاء أن يغادي صرمة غادي، ولو شئت أن تعود بلاد نجد عودة غدتها: أذهبت الماء والرونق وخرجت إلى كلام غث، ولفظ رث. وأما [٥٥ أ] قول الجوهري^(١):

فَلَمْ يُبْقِ مِنِّي الشُّوقَ غَيْرَ تَفْكَرِي فَلَوْ شِئْتُ أَنْ أَبْكِي بَكَيتُ تَفْكَراً!

فقد نحا به نحو قوله: وَلَوْ شِئْتُ أَنْ أَبْكِي دماً لبكيت؛ فأظهر مفعول شئت ولم يقل: فلو شئت بَكَيتُ تفكيراً لأجل أن له غرضاً لا يتم إلا بذكر المفعول وذلك أنه لم يرد أن يقول: وَلَوْ شِئْتُ أَنْ أَبْكِي تَفْكَراً بكيت كذلك. ولكنه أراد أن يقول: قد^(٢) أفناني النحول، فلم يبق مني^(٣) وفي غير خواطر تجول، حتى لو شئت بكاء فَمَرِيتُ شؤني، وعصرت عيني، ليسيل منها دمع لم أجده، وَلَخَرَجَ بدل الدمع التفكير فالبكاء الذي أراد إيقاع المشيئة عليه مطلق مُبْهِمٌ غير مُعَدَّى إلى التفكير البتة، والبكاء الثاني مقيّد معدى إلى التفكير، وإذا كان الأمر كذلك صار الثاني كأنه شيء غير الأول وجرى مَجْرَى أَنْ تقول: لو شئت أن تعطي درهماً أعطيت درهمين. في أن الثاني لا يصلح أن يكون تفسيراً للأول.

واعلم أن هذا الذي ذكرنا ليس بصريح «أكرمت وأكرمني عبد الله» ولكنه شبيه به في أنه إنما حُذِفَ الذي حُذِفَ من مفعول المشيئة والإرادة لأن الذي يأتي في جواب (لو) وأخواتها يدل عليه.

وإذا أردت ما هو صريح في ذلك ثم هو نادر لطيف ينطوي على معنى دقيق وفائدة جليلة فانظر إلى بيت البحتري^(٤):

قَدْ طَلَبْنَا فَلَمْ نَجِدْ لَكَ فِي السُّوْ دَدٍ وَالْمَجْدِ وَالْمَكَارِمِ مِثْلاً

(١) هو أبو الحسن علي بن أحمد الجوهري. عده الثعالبي في شعراء جرّان. وكان من الشعراء الوافدين على صاحب بن عباد (يتيمة الدهر ٢٧/٤).

(٢) كلمة (قد) ساقطة من (أ).

(٣) ضبطها في (ب): «فلم يبق مني وفي غير...».

(٤) ديوان البحتري (٣/١٦٥٧) من قصيدة في مدح المعتز بالله، ووصف الكامل.

المعنى قد طلبنا لك مثلاً ثم حُذِفَ لأن ذكره في الثاني يدل عليه. ثم أن للمجيء به كذلك من الحُسن والمزية والروعة ما لا يَخْفَى. ولو أنه قال: طلبنا لك في السؤدد والمجد والمكارم مثلاً فلم نجده؛ لم تَرِ مِنْ هذا الحُسن الذي تراه شيئاً. وسبب ذلك أن [ه ه ب] الذي هو الأصل في المدح والغرض بالحقيقة هو نفي الوجود عن المثل فأما الطلبُ فكالشئ يُذكر ليبني عليه الغرضُ ويؤكد به أمره. وإذا كان هذا كذلك فلو أنه قال: قد طلبنا لك في السؤدد والمجد والمكارم مثلاً فلم نجده؛ لكان يكون قد ترك أن يُوقع نفي الوجود على صريح لفظ المثل وأوقعه على ضميره ولن تبلغَ الكناية مبلغَ الصريح أبداً.

ويُبين هذا كلامٌ ذكره أبو عثمان الجاحظ في كتاب البيان والتبيين^(١) وأنا أكتب لك الفصلَ حتى يستبين الذي هو المرادُ قال: «والسُّنَّةُ في خُطبة النكاح أن يُطيل الخاطب ويقتصر المجيبُ، ألا تَرى أن قيس بن خارجة^(٢) لما ضَرَبَ^(٣) بسيفه مؤخرة راحلة^(٤) الحاملين في شأن حمالة داحس^(٥) وقال: مالي فيها أيُّها العَشمَتان^(٦) قالاً^(٧): بل ما عندك؟ قال: عندي قرى كلُّ نازل وِرَضَى كلُّ ساخط، وخطبةٌ من لدن تطلُعُ الشمسُ إلى أن تغرب! أمر فيها بالتواصل، وأنهى فيها عن التَّقاطع، قالوا: فخطب يوماً إلى اللَّيْلِ فما أعاد^(٨) كلمة ولا معنى. فقيل لأبي يعقوب^(٩): هلا اكتفى بالأمر بالتواصل، عن النَّهي عن التَّقاطع؟ أوليس الأمرُ بالصلَّة هو النَّهي عن القطيعة؟ قال: أو ما علمت أن الكناية

(١) النص في البيان والتبيين (١/١١٦).

(٢) في البيان زاد: ابن خارجة بن سنان.

(٣) في البيان: بصفحة سيفه.

(٤) في البيان: راحلتي الحاملين.

(٥) في البيان: داحس والغبراء.

(٦) العشمة: الشيخ الهرم الذي تقارب خطوه، وانحنى ظهره.

(٧) في البيان: قال له.

(٨) في البيان: فما أعاد فيها.

(٩) هو أبو يعقوب إسحاق بن حسان بن قُوهى، وهو الشاعر الخريمي المشهور.

والتعريض لا يعملان في العقول عمل الإيضاح^(١) والتكشيف انتهى الفصل الذي أردت أن أكتبه، فقد بصرك هذا أن لن يكون إيقاعُ نفي الوجود على صريح لفظ المثل كإيقاعه على ضميره وإذ قد عرفت هذا فإن هذا المعنى بعينه قد أوجب في بيت ذي الرُّمة أن يضع اللفظ على عكس ما وضعه البحري فيُعمل الأول من الفعلين وذلك قوله^(٢):

ولم أمدح لأرضيه بشعري لثيماً أن يكون أصابَ ما لا

أعمل «لم أمدح» الذي هو الأول في صريح لفظ اللثيم «وأرضى» الذي هو الثاني في ضميره وذلك لأن إيقاع نفي المدح على اللثيم صريحاً والمجيء به مكشوفاً ظاهراً هو الواجب من حيث كان أصل الغرض [٥٦ أ] وكان الإرضاء تعليلاً له. ولو أنه قال: ولم أمدح لأرضي بشعري لثيماً لكان يكون قد أبهم الأمر فيما هو الأصل وأبانه فيما ليس بالأصل فاعرفه. ولهذا الذي ذكرنا من أن للتصريح عملاً لا يكون مثل ذلك العمل للكناية كان لإعادة اللفظ في مثل قوله تعالى^(٣): ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلْ﴾ [الإسراء: ١٧/١٠٥] وقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ [الإخلاص: ١/٢-١١٢] من الحُسْنِ والبهجة ومن الفخامة والنبيل ما لا يخفى موضعه على بصير وكان لو ترك فيه الإظهار إلى الإضمار فقليل: وبالحق أنزلناه وبه نزل. وقُلْ هو الله أحد هو الصَّمَدُ، لعِدَّت^(٤) الذي أنت واجدُه الآن.

(١) في البيان: الإفصاح والكشف.

(٢) الشعر لذي الرمة وهو في ديوانه (١٥٣٤/٣) من قصيدة في مدح بلال بن أبي بردة. مطلعها:

أراح فريقي جبرتك جمالا كأنهم يريدون احتمالا

(٣) الآية الكريمة: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾.

(٤) في (ب): أنت الذي.

فصل

لِفي تحليل شاهد متميز للحذف عند البحري

قد بانَ الآن واتضح لمن نظَرَ نظَرَ المثبَّت الحَصيفِ الراغِبِ في اقتِداحِ زناد العقل. والازديادِ من الفضل، وَمَنْ شأنُهُ التوقُّ إلى أن يعرف الأشياءَ على حقائقها، ويتغلغلَ إلى دقائقها، ويربأ بنفسه عن مرتبة المقلِّد الذي يجري مع الظاهر، ولا يعدو الذي يَقَعُ في أولِ خاطر، أن الذي قَلْتُ في شأنِ الحذف وفي تفخيم أمره، والتنويه بذكره، وأن مأخذه مأخِذٌ يشبه السحر، ويُبهر الفكرَ، كالذي قَلْتُ: وهذا فَنٌّ آخَرُ من معانيه عجيب وأنا ذاكرُهُ لك. قال البحري^(١) في قصيدته التي أولها:

أعن سفو يوم الأَبيرِ أم حُلَمِ

وهو يذكرُ محاماة الممدوحِ عليه وصيَّاتَه له ودَفَعه نوائِبَ الزمانِ عنه^(٢):

وَكَمْ دُذَّتْ عَنِّي مِنْ تَحَامُلِ حَادِثٍ وَسُورَةُ آيَامٍ حَزَزْنَ إِلَى الْعَظَمِ

(١) ديوان البحري (٢٠١٣/٣). وتمة البيت:

أعن سفو يوم الأَبيرِ أم حُلَمِ وقوف بريع أو بكاء على رسم

(٢) ديوان البحري (٢١٠٨/٣) من القصيدة المشار إليها.

الأصل لا محالة حزنَ اللحم إلى العظم إلا أن في مجيئه به محذوفاً وإسقاطه له من النطق وتركه في الضمير مزيةً عجيبةً وفائدةً جليلةً، وذلك أن من حذَقَ الشاعر أن يوقع المعنى في نفس السامع إيقاعاً يمنعُه به من أن يتوهم في بدء الأمر شيئاً غيرَ المراد ثم ينصرف^(١) إلى المراد، ومعلومٌ [٥٦ ب] أنه لو أظهر المفعول فقال: وسورةُ أيام حزنَ اللحم إلى العظم لجاز أن يقع في وهم السامع إلى أن يجيء إلى قوله: «إلى العظم» أن هذا الحزُّ كان في بعض اللحم دونَ كلِّه وأنه قطع ما يسلي الجلد ولم ينتهِ إلى ما يلي العظم، فلما كان كذلك ترك ذكرَ اللحم وأسقطه من اللفظ ليُبرئ السامع من هذا الوهم^(٢) ويجعله بحيث يقع المعنى منه في أنفِ الفهم ويتصوَّر في نفسه من أول الأمر أنَّ الحزُّ مضى في اللحم حتى لم يردَّه إلا العظم. أفىكون دليلٌ أوضح من هذا وأبين وأجلى في صحة ما ذكرتُ لك من أنك قد ترى تركَ الذكر أفصحَ من الذكر، والامتناع من أن يبرز اللفظ من الضمير أحسنَ للتصوير.



(١) ضبطت في (أ) بضم الفاء على الاستئناف: ينصرف.

(٢) كلمة (الوهم) سقطت من ط.

فصل

[القول على فروق في الخبر]

أول ما ينبغي أن يُعلّم منه أنه ينقسم^(١) إلى خبرٍ هو جزءٌ من الجملة لا تتم الفائدة دونّه، وخبرٍ ليس بجزء من الجملة ولكنه زيادةٌ في خبرٍ آخر سابق له. فالأول خبرُ المبتدأ كمنطلقٍ في قولك: زيدٌ منطلق. والفعل كقولك: خرج زيد. فكل واحد من هذين جزءً من الجملة وهو الأصل في الفائدة. والثاني هو الحال كقولك: جاءني زيدٌ راكباً. وذاك لأن الحال خبرٌ في الحقيقة من حيثُ إنك تثبت بها المعنى الذي الحال كما تثبتُ^(٢) بخبر المبتدأ للمبتدأ وبالفعل للفاعل. ألا تراك قد أثبتت الركوبَ في قولك: «جاءني زيدٌ راكباً» لزيد إلا أن الفرق أنك جئت به لتزيدَ معنىً في إخبارك عنه بالمجيء وهو أن تجعله بهذه الهيئة في مجيئه ولم تجرّد إثباتك للركوب ولم تباشره به بل ابتدأت فأثبت المجيء ثم وصلت به الركوب فالتبس به الإثبات على سبيل التبع للمجيء وبشرط أن يكون في صلبه. وأمّا في الخبر المطلق نحو «زيدٌ منطلقٌ وخرج عمرو» فإنك مثبتٌ للمعنى إثباتاً [٥٧ أ] جرّده له وجعلته يباشره من غير واسطة ومن غير أن تتسبّب بغيره إليه فاعرفه.

(١) في (ط): يقسم.

(٢) في (ط): تثبته.

وإذ قد عرفت هذا الفرق فالذي يليه من فروق الخبر هو الفرق بين الإثبات إذا كان بالاسم وبينه إذا كان بالفعل وهو فرق لطيف تَمَسُّ الحاجة في علم البلاغة إليه. وبيانه أن موضوع الاسم على أن يُثَبَّت به المعنى للشيء من غير أن يقتضي^(١) تجددَه شيئاً بعد شيء. وأما الفعل فموضوعه على أنه يقتضي تجدد المعنى المثبت به شيئاً بعد شيء فإذا قلت: زيدٌ منطلقٌ. فقد أثبت الانطلاق فعلاً له من غير أن تجعله يتجدد ويحدث منه شيئاً فشيئاً بل يكون المعنى فيه كالمعنى في قولك: زيدٌ طويلٌ وعمرٌ قصيرٌ. فكما لا تَقْصِدُ ههنا إلى أن تجعلَ الطولَ أو القصرَ يتجدد ويحدث بل توجبهُما وتثبتُهُما فقط وتقتضي بوجودهما على الإطلاق، كذلك لا تتعرض في قولك: زيدٌ منطلقٌ. لأكثر من إثباته لزيد.

وأما الفعل فإنه يُقْصَد فيه إلى ذلك فإذا قلت: زيدٌ ها هو ذا ينطلق. فقد زعمت أن الانطلاق يقع منه جزءاً فجزءاً وجعلته يزاوله ويزجيّه. وإن شئت أن تُجسَّ الفرق بينهما من حيث يُلْطَف فتأمل هذا البيت^(٢):

لا يَأْلُ الدَّرْهَمُ الْمَضْرُوبُ خِرْقَتَنَا لَكِنْ يَمُرُّ عَلَيْهَا وَهُوَ مَنْطَلِقُ^(٣)

هذا هو الحسن اللائق بالمعنى ولو قلته بالفعل: لكن يَمُرُّ عليها وهو ينطلق. لم يَحْسُن. وإذا أردت أن تعتبره بحيث لا يخفى أن أحدهما لا يصلح في موضع صاحبه فانظر إلى قوله تعالى^(٤): ﴿وَكَلْبُهُمْ بَسِيطٌ ذِرَاعِيهِ بِالْوَصِيدِ﴾ [الكهف: ١٨/ ١٨] فإن أحداً لا يشك في امتناع الفعل ههنا وأن قولنا: [كَلْبُهُمْ]^(٥) يبسط

(١) في (أ): يقضي.

(٢) البيت لجؤية بن النضر، من شعراء الحماسة، وهو في الحماسة بشرح المرزوقي (٤/ ١٧٣٥)، وفي الحماسة البصرية (١٢/ ٢).

(٣) يروى: خرقتنا، وصرتنا، وفي المخطوطات: خرقتنا، و (ط): صرتنا.

- وفي الحماستين: الدرهم الصباح.

(٤) الآية الكريمة: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ آيْهًا ظَالِمًا وَهُمْ رُفُودٌ وَنَقَلَهُمْ ذَاتَ أَلْيَمِينَ وَذَاتَ أَلْسِمَالٍ وَكَلْبُهُمْ بَسِيطٌ ذِرَاعِيهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطْلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمْلَمْتَ مِنْهُمْ رُغْبًا﴾.

(٥) سقطت كلمة «كلبهم» من (أ).

ذراعيه. لا يؤدي الغرض وليس ذلك إلا لأن الفعل يقتضي مزاولَةً وتجددَ الصفة في الوقت، ويقتضي الاسمُ ثبوتَ الصفة وحصولها من غير أن يكونَ هناك [٥٧ ب] مزاولَةً وتزجيةُ فعل ومعنى يحدثُ شيئاً فشيئاً. ولا فرقَ بين «وكلُّهم باسط» وبين أن يقول: وكلُّهم واحدٌ. مثلاً في أنك لا تثبت مزاولَةً ولا تجعل الكلبَ يفعلُ شيئاً بل تثبته بصفة هو عليها فالغرضُ إذن تأدية هيئة الكلب. ومتى اعتبرت الحال في الصفات المشبهة وجدت الفرقَ ظاهراً بيناً ولم يعترضك الشكُّ في أنَّ أحدهما لا يصلح في موضع صاحبه فإذا قلت: زيدٌ طويلٌ وعمرو قصير. لم يَصْلُحْ مكانه يطولُ ويقصرُ، وإنما تقول: يطولُ ويقصرُ، إذا كان الحديثُ عن شيء يزيْدُ وينمو كالشجرِ والنباتِ والصبيِّ ونحو ذلك مما يتجددُ فيه الطولُ أو يحدثُ فيه القصرُ فأما وأنت تُحدثُ عن هيئة ثابتة وعن شيء قد استقرَّ طولُه ولم يكن ثمَّ تزايدٌ وتجددٌ فلا يصلحُ فيه إلا الاسم.

وإذا ثبتَ الفرقُ بين الشيئين في مواضع كثيرة، وظَّهر الأمرُ بأن ترى أحدهما لا يصلحُ في موضع صاحبه، وجَبَ أنْ تقضي بثبوت الفرق حيث ترى أحدهما قد صَلَحَ في مكان الآخر، وتعلَّم أن المعنى مع أحدهما غيره مع الآخر كما هي العبرةُ في حَمْلِ الخفيِّ على الجليِّ. وينعكسُ لك هذا الحكمُ أعني أنك كما وجدتَ الاسمَ يقع حيث لا يصلحُ الفعلُ مكانه كذلك تجدُ الفعلَ يَقَعُ ثَمَّ لا يصلحُ الاسمَ مكانه ولا يؤدي ما كان يؤديه. فمن البين في ذلك قولُ الأعشى^(١):

لَعَمْرِي لَقَدْ لَاحَتْ عُيُونٌ كَثِيرَةٌ إِلَى ضَوْءِ نَارٍ فِي يَفَاعٍ تَحَرَّقُ

تُشَبُّ لِمَقْرُورَيْنِ يَضْطَلِبَانِهَا وَبَاتَ عَلَى النَّارِ النَّدَى وَالْمَحَلُّ

معلوم أنه لو قيل: إلى ضوء نارٍ مُحَرَّقةٍ^(٢) لَبَا عنه الطبعُ وأنكرته^(٣) النفس

(١) ديوان الأعشى: ٢٢٣ - ٢٢٤ من قصيدة في مدح المحلق بن خثم بن شداد بن ربيعة.

- اليفاع: الأرض المرتفعة. المقرور: من أصابه البرد. واصطلى النار: استفاد بها،

والندى: الكرم.

(٢) في (ط): متحرقة.

(٣) في (أ): وأنكره.

ثم لا يكون ذاك النبؤ وذاك الإنكار من أجل القافية وأنها تفسدُ به من جهة أنه لا يُشبهه [٥٨] الغرض ولا يليقُ بالحال. وكذلك قوله^(١):

أو كُلِّمَّا وَرَدَتْ عُكَاظُ قَبِيلَةٍ بَعَثُوا إِلَيَّ عَرِيفَهُمْ يَتَوَسَّمُ

وذاك لأنَّ المعنى في بيتِ الأعشى على أنَّ هناك موقداً يتجدد منه الإلهابُ والإشعالُ حالاً فحالاً وإذا قيل مُحَرَّقة كان المعنى أن هناك ناراً قد ثَبَّتَتْ لها وفيها هذه الصفةُ وجرى مجرى أن يقال: إلى ضوءِ نارٍ عظيمة؛ في أنه لا يفيدُ فعلاً يُفعل. وكذلك الحالُ في قوله: بَعَثُوا إِلَيَّ عَرِيفَهُمْ يَتَوَسَّمُ. وذلك لأنَّ المعنى: على توَسَّمٍ وتأَمَّلٍ ونظِرٍ يتجدد من العريف هناك حالاً فحالاً، وتصفُّح منه للوجوه واحداً بعد واحدٍ. ولو قيل: بعثوا إليَّ عريفهم متوسِّماً لم يُفد ذلك حقَّ الإفادة. ومن ذلك قوله تعالى^(٢): ﴿هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٣/٣٥] لو قيل: هل من خالق غير الله رازقٍ لكم. لكان المعنى غيرَ ما أُريد. ولا ينبغي أن يُغرَّكُ أنا إذ تكلمنا في مسائل المبتدأ والخبر قدرنا الفعل في هذا النحو تقدير الاسم كما نقول في «زيد يقوم»، إنه في موضع «زيد قائم» فإن ذلك لا يقتضي أن يستوي المعنى فيها استواءً لا يكون من بُعدِهِ افتراقٌ فإنهما لو استويا هذا الاستواء لم يكن أحدهما فعلاً والآخر اسماً، بل كان ينبغي أن يكونا جميعاً فعلين أو يكونا اسمين.

ومن فروقِ الإثباتِ أنَّك تقول: «زيدٌ منطلقٌ» و«زيد المنطلقُ» و«المنطلقُ زيدٌ». فيكون لك في كلِّ واحدٍ من هذه الأحوال غرضٌ خاص، وفائدة لا تكونُ

(١) البيت لطريف بن تميم العنبريِّ فارس الأغر. وكان يُسمَّى «ملقي القناع» لأنه أول من ألقى القناع بعكاظ وقال: من شاء فليطلبني.

وهو جاهلي من الشعراء الفرسان. (انظر حواشي تحقيق الأصمعيات ومصادرهم ثمة).

- والبيت من قطعة أصمعية (الأصمعيات: ١٢٧).

- ويتوسَّمُ: يتفرس ويطلب الوسم وهو العلامة.

(٢) الآية الكريمة: ﴿يَتْلُوا النَّاسُ أَذْكَرُوا نَسَتْ اللَّهُ طَبَقَهُ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآفَ تُؤَفَّكَوْكَ﴾.

في الباقي، وأنا أفسّر لك ذلك: اعلم أنك إذا قلت: «زيد منطلق» كان كلامك مع من لم يعلم أن انطلافاً كان لا من زيد ولا من عمرو فانت تفيد ذلك ابتداءً، وإذا قلت: «زيد المنطلق» كان كلامك مع من عرف أن انطلافاً كان إما من زيد وإما من عمرو فانت تُعلم أنه كان من زيد ودون غيره والنكتة: أنك تثبت في الأول الذي هو قولك: زيد مُنْطَلِقٌ [٥٨ ب] فعلاً لم يعلم السامع من أصله أنه كان، وتثبت في الثاني الذي هو «زيد المنطلق» فعلاً قد علم السامع أنه كان ولكنه لم يعلمه لزيد فأفدته ذلك، فقد وافق الأول في المعنى الذي له كان الخبر خبراً وهو إثبات المعنى للشيء، وليس يقدح في ذلك أنك كنت قد علمت أن انطلافاً كان من أحد الرجلين لأنك إذا لم تصل إلى القطع على أنه كان من زيد دون عمرو كان حالك في الحاجة إلى من يثبت^(١) لزيد كحالك إذا لم تعلم أنه كان من أصله.

وتمام التحقيق أن هذا كلامٌ يكون معك إذا كنت قد بُلغْتَ أنه كان من إنسانٍ انطلافاً من موضع كذا في وقت كذا لغرض كذا فجوّزت أن يكون ذلك كان من زيد فإذا قيل لك: زيد المنطلق؛ صار الذي كان معلوماً على جهة الجواز معلوماً على جهة الوجوب. ثم إنهم إذا أرادوا تأكيد هذا الوجوب أدخلوا الضمير المسمّى فصلاً بين الجزئين فقالوا: زيد هو المنطلق.

ومن الفرق بين المسألتين - وهو ما تمس الحاجة إلى معرفته - أنك إذا نكّرت الخبر جاز أن تأتي بمبتدأ ثانٍ على أن تُشركه بحرف العطف في المعنى الذي أخبرت به عن الأوّل وإذا عرّفت لم يُجز ذلك. تفسير هذا أنك تقول: زيد منطلق وعمرو. تريد «وعمرّو منطلق أيضاً» ولا تقول: زيد المنطلق وعمرو. ذلك لأنّ المعنى مع التعريف على أنك أردت أن تثبت انطلافاً مخصوصاً قد كان من واحد فإذا أثبت لزيد لم يصح إثباته لعمرو. ثم إن كان قد كان ذلك الانطلاق من اثنين فإنه ينبغي أن يُجمع^(٢) بينهما في الخبر فتقول: زيد وعمرو هما المنطلقان.

(١) في (ط): «إلى من كان يثبت لزيد».

(٢) في (ب) و (ط): «تجمع».

لا أن تُفَرَّق فتثبته أولاً لزيد ثم تجيء فتثبته لعمرو. ومن الواضح في تمثيل هذا النحو قولنا: هو القاتل بيت كذا، كقولك: جرير هو القاتل^(١):

❁ وليس لسيفي في العظام بقية ❁

فأنت لو حاولت أن تُشرك في هذا الخبر غيره فتقول: جرير هو القاتل هذا البيت [٥٩] وفلان؛ حاولت محالاً لأنه قوله بعينه فلا يُتصور أن يُشرك جريراً فيه غيره.

واعلم أنك تجد الألف واللام في الخبر على معنى الجنس ثم ترى له في ذلك وجوهاً (أحدها) أن تقصر جنس المعنى على المخبر عنه لقصدك المبالغة وذلك قولك: زيد هو الجواد وعمرو هو الشجاع؛ تريد أنه الكامل إلا أنك تُخرج الكلام في صورة توهيم أن الجود^(٢) والشجاعة لم توجد إلا فيه، وذلك لأنك لم تعتد بما كان من غيره لقصوره عن أن يبلغ الكمال، فهذا كالأول في امتناع العطف عليه للإشراك، فلو قلت: زيد هو الجواد وعمرو؛ كان خُلُفاً من القول.

والوجه الثاني أن تقصر جنس المعنى الذي تُفيده بالخبر على المُخبر عنه لا على معنى المبالغة وترك الاعتداد بوجوده في غير المُخبر عنه بل على دعوى أنه لا يوجد إلا منه، ولا يكون ذلك إلا إذا قيدت المعنى بشيء يخصه ويجعله في حكم نوع برأسه وذلك كنعو أن يُقيد بالحال والوقت كقولك: هو الوفي حين لا تظن نفس بنفس خيراً^(٣) وهكذا إذا كان الخبر بمعنى يتعدى ثم اشترط له مفعولاً مخصوصاً كقول الأعشى^(٤):

(١) البيت في ديوان جرير ٨٠/١:

وليس لسيفي في العظام بقية وللسيف أشوى وقعة من لسانيا!

وهو من قصيدة في عتاب جده الخطفي. والشوى: الأمر الهين، فالمعنى: أهون وقعة.

(٢) في (ط): «أو».

(٣) القول لجبار بن سلمى بن مالك بن جعفر بن كلاب، حين وقف على قبر عامر بن

الطفيل فقال: «كان والله لا يضل حتى يضل النجم، ولا يعطش حتى يعطش البعير،

ولا يهاب حتى يهاب السيل، وكان والله خير ما يكون حين لا تظن نفس بنفس خيراً».

(انظر البيان والتبيين ٥٤/١، والحيوان ٤٨١/٣، شروح سقط الزند ٥٠٠).

(٤) ديوان الأعشى: ٥١. من قصيدة في مدح قيس بن معديكرب.

هُوَ الْوَاهِبُ الْمِئَّةَ الْمُضْطَفَاءُ إِمَّا مَخَاضاً وَإِمَّا عِشَاراً
فَأَنْتَ تَجْعَلُ الْوَفَاءَ فِي الْوَقْتِ الَّذِي لَا يَفِي فِيهِ أَحَدٌ نَوْعاً خَاصّاً مِنْ الْوَفَاءِ،
وَكَذَلِكَ تَجْعَلُ هِبَةَ الْمِئَةِ مِنَ الْإِبْلِ نَوْعاً خَاصّاً مِنْ الْوَفَاءِ وَكَذَا الْبَاقِي، ثُمَّ إِنَّكَ
تَجْعَلُ كُلَّ هَذَا خَبِراً عَلَى^(١) مَعْنَى الْإِخْتِصَاصِ وَأَنَّهُ لِلْمَذْكُورِ دُونَ مَنْ عَدَاهُ
أَلَا تَرَى أَنَّ الْمَعْنَى فِي بَيْتِ الْأَعَشَى أَنَّهُ لَا يَهْبُ هَذِهِ الْهِبَةُ إِلَّا الْمَدْمُوحُ وَرَبِمَا ظَنَّ
الظَّانُّ أَنَّ اللَّامَ فِي:

❁ هُوَ الْوَاهِبُ الْمِئَّةَ الْمُضْطَفَاءُ ❁

بِمَنْزِلَتِهَا فِي نَحْوِ «زَيْدٌ هُوَ الْمُنْطَلِقُ» مِنْ حَيْثُ كَانَ الْقَصْدُ إِلَى هِبَةٍ مَخْصُوصَةٍ
كَمَا كَانَ الْقَصْدُ إِلَى انْطِلَاقٍ مَخْصُوصٍ وَلَيْسَ الْأَمْرُ [٥٩ ب] كَذَلِكَ لِأَنَّ الْقَصْدَ هَهُنَا
إِلَى جِنْسٍ مِنَ الْهِبَةِ مَخْصُوصٍ لَا إِلَى هِبَةٍ مَخْصُوصَةٍ بَعِينِهَا. يَدْلُكُ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ
الْمَعْنَى عَلَى أَنَّهُ يَتَكَرَّرُ مِنْهُ وَعَلَى أَنَّهُ يَجْعَلُهُ يَهْبُ الْمِئَةَ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى. وَأَمَّا الْمَعْنَى
فِي قَوْلِكَ: زَيْدٌ هُوَ الْمُنْطَلِقُ. فَعَلَى الْقَصْدِ إِلَى انْطِلَاقٍ كَانَ مَرَّةً وَاحِدَةً لَا إِلَى جِنْسٍ
مِنَ الْانْطِلَاقِ، فَالْتَكَرَّرُ هُنَاكَ غَيْرُ مُتَصَوِّرٍ، كَيْفَ وَأَنْتَ تَقُولُ: جَرِيرٌ هُوَ الْقَاتِلُ:

❁ وَلَيْسَ لِسَيْفِي فِي الْعِظَامِ بَقِيَّةٌ ❁

تَرِيدُ أَنْ تُثَبِّتَ لَهُ قِيلَ هَذَا الْبَيْتِ وَتَأْلِيْفَهُ. فَافْصِلْ بَيْنَ أَنْ تَقْصِدَ إِلَى نَوْعِ فِعْلٍ
وَبَيْنَ أَنْ تَقْصِدَ إِلَى فِعْلٍ وَاحِدٍ مُتَعَيِّنٍ حَالُهُ فِي الْمَعْنَانِ حَالُ زَيْدٍ فِي الرِّجَالِ فِي
أَنَّهُ ذَاتٌ بَعِينِهَا.

وَالْوَجْهَ الثَّلَاثُ أَنْ لَا تَقْصِدَ قَصَرَ الْمَعْنَى فِي جِنْسِهِ عَلَى الْمَذْكُورِ لَا كَمَا كَانَ
فِي «زَيْدٌ هُوَ الشَّجَاعُ» تَرِيدُ أَنْ لَا تَعْتَدَّ بِشَجَاعَةٍ غَيْرِهِ، وَلَا كَمَا تَرَى فِي قَوْلِهِ:

❁ هُوَ الْوَاهِبُ الْمِئَةَ الْمَصْفَاءَ ❁

لَكِنْ عَلَى وَجْهِ ثَالِثٍ وَهُوَ الَّذِي عَلَيْهِ قَوْلُ الْخَنْسَاءِ^(٢):

إِذَا قُبِحَ الْبُكَاءُ عَلَى قَتِيلٍ رَأَيْتُ بَكَاءَكَ الْحَسَنَ الْجَمِيلَا

(١) فِي (أ): «عَنْ».

(٢) أُنْسُ الْجُلَسَاءِ فِي دِيْوَانِ الْخَنْسَاءِ: ٧٢ مِنْ قِطْعَةٍ فِي رِثَاءِ صَخْرٍ.

لم تُرِدْ أَنْ ما عدا البكاء عليه فليس بحسَنٍ ولا جميل، ولم تُقَيِّدِ الحَسَنَ بشيءٍ فيتصوَّر أن يُقَصِّرَ على البكاء كما قَصَرَ الأعشى هبة المثة على الممدوح، ولكنها أرادت أن تُقَرِّه في جنس ما حُسِنَتِ الحُسْنُ الظاهر الذي لا ينكره أحدٌ ولا يشكُّ فيه شكٌّ. ومثله قولُ حسان^(١):

وإنَّ سَنَامَ المَجْدِ مِنْ آلِ هَاشِمٍ بَنُو بِنْتِ مَخْزُومٍ ووالدُكَ العَبْدُ!
أراد أن يثبت العبودية ثم يجعله ظاهر الأمر فيها ومعروفاً بها ولو قال:
ووالدك عبدٌ. لم يكن قد جعل حاله في العبودية حالةً ظاهرة متعارفة. وعلى ذلك
قولُ الآخر:

أُسُودٌ إِذَا ما ابْدَتْ الحَرْبُ نَابَهَا وفي سَائِرِ الدَّهْرِ الثُّبُوتُ المَواطِرُ
[٦٠] واعلم أنَّ للخبر المعروف بالألف واللام معنى غير ما ذكرت لك وله
مسلكٌ ثمَّ دقيقٌ ولمحةٌ كالخلسِ يكونُ المتأملُ عنده كما يقال يُعرَفُ وينكُرُ وذلك
قولك: هو البطلُ المحامي وهو المتقى المرتجى. وأنتَ لا تقصدُ شيئاً مما تقدَّم
فلمستَ تشيرُ إلى معنى قد علِمَ المخاطبُ أنه كان ولم يَعْلَمْ ممن^(٢) كان كما مضى
في قولك: زيدٌ هو المنطلق. ولا تريدُ أن تقصر معنى عليه على معنى أنه لم
يحصل لغيره على الكمال كما كان في قولك: زيدٌ هو الشجاع، ولا أن تقولَ إنَّه
ظاهرٌ بهذه الصفة كما كان في قوله: ووالد العبد ولكنك تريدُ أن تقولَ
لصاحبك: هل سمعتَ بالبطل المحامي؟ وهل حصَّلت معنى هذه الصفة؟ وكيف
ينبغي أن يكونَ الرجلُ حتى يستحقَّ أن يقال ذلك له وفيه؟ فإن كنتَ قتلته علماً
وتصوَّرتَه حقَّ تصوُّره فعليك صاحبك واشدُّ به يدك فهو ضالُّك وعند بُغيَتِكَ
وطريقه طريق^(٣) قولك: هل سمعتَ بالأسدِ وهل تعرفُ ما هو؟ فإن كنتَ تعرفُه
فزيدٌ هو هو بعينه.

(١) ديوان حسان بن ثابت: ١١٨

من قصيدة في هجاء أبي سفيان بن الحارث وفيه بنو ابنة مخزوم ووالدك العبد.

(٢) في (ط): «ولم يعلم أنه ممن كان».

(٣) في (ط): «كفريق».

ويزداد هذا المعنى ظهوراً بأن تكون الصفة التي تريد الإخبار بها عن المبتدأ مُجرأة على موصوف كقول ابن الرومي^(١):

هُوَ الرَّجُلُ الْمَشْرُوكُ فِي جُلِّ مَالِهِ وَلَكِنَّهُ بِالْمَجْدِ وَالْحَمْدِ مُفْرَدٌ

تقديره كأنه يقول للسامع: فكّر في رجل لا يتميز عُفاته وجيرائه ومعارفه عنه في ماله وأخذ ما شاؤوا منه، فإذا حصلت صورته في نفسك فاعلم أنه ذلك الرجل. وهذا فنٌ عجيب الشأن وله مكان من الفخامة والنبيل وهو من سحر البيان الذي تقصّر العبارة عن تأدية حقه، والمُعَوَّل فيه على مراجعة النفس واستقصاء التأمل، فإذا علمت أنه لا يريد بقوله: الرجلُ المشروكُ في جُلِّ ماله. أن يقول: هو الذي بلغك حديثه وعرفت [٦٠ ب] من حاله وقصته أنه يُشرك في جُلِّ ماله على حدّ قولك: هو الرجلُ الذي بلغك أنه أنفقَ كذا والذي وهب المئة المصطفاة^(٢) من الإبل. ولا أن يقول إنه على معنى «هو الكامل في هذه الصفة حتّى كأن ههنا أقواماً يُشركون في جُلِّ أموالهم إلّا أنه في ذلك أكمل وأتم» لأن ذلك لا يتصوّر. وذاك أن كَوَّنَ الرجل بحيث يُشرك في جُلِّ ماله ليس بمعنى يقع فيه تفاضل، كما أن بذل الرجل كلّ ما يملك كذلك، ولو قيل: الذي^(٣) يُشرك في ماله جاز أن يتفاوت. وإذا كان كذلك علمت أنه معنى ثالث وليس إلّا ما أشرت إليه من أنه يقول للمخاطب: ضع في نفسك معنى قولك «رجلٌ مشروك في جُلِّ ماله» ثم تأمل فلاناً فإنك تستملي هذه الصورة منه وتجده يؤذيها لك نصاً وبأتيك بها كمالاً. وإن أردت أن تسمع في هذا المعنى ما تسكنُ النفسُ إليه سكونَ الصادي إلى برّد الماء فاسمع قوله^(٤):

(١) ديوان ابن الرومي ٥٨٩/٢، فيه:

هو الرجل المشروك في جُلِّ ماله ولكنّه بالخير والحمد مفرد

(٢) المصطفاة: سقطت من (ب).

(٣) الذي: سقطت من (ب).

(٤) وهو ابن الرومي كما ذكر المراغي وقال بعده:

أريد مكاناً من كريم بصونني ولا فلي رزق بكل مكان

أَنَا الرَّجُلُ الْمَدْعُوُ عَاشِقُ فَقْرِهِ إِذَا لَمْ تُكَارِمْنِي صُرُوفُ زَمَانِي
وإن أَرَدْتَ أعْجَبَ مِنْ ذَلِكَ فَقُولُهُ^(١):

أَهْدَى إِلَيَّ أَبُو الْحُسَيْنِ يَدًا أَرْجُو الثَّوَابَ بِهَا لَدَيْهِ عَدَا
وَكَذَاكَ عَادَاتُ الْكَرِيمِ إِذَا أَوْلَى يَدًا حُسِبَتْ عَلَيْهِ يَدَا
إِنْ كَانَ يَحْسُدُ نَفْسَهُ أَحَدٌ فَلَا زُعْمَنَّكَ ذَلِكَ الْآحَدَا

فهذا كله على معنى الوهم والتقدير وأن يُصَوِّرَ في خاطره شيئاً لم يَرَهُ ولم يَعْلَمَهُ ثم يجريه مُجْرَى ما عَهِدَ وَعَلِمَ. وليس شيء أغْلَبَ على هذا الضرب الموهوم من «الذي» فإنه يجيء كثيراً على أنك تقدر شيئاً في وَهْمِكَ ثم تعبر عنه بالذي. ومثال ذلك قوله^(٢):

أَخُوكَ الَّذِي إِنْ تَدْعُهُ لِمُلْمَةٍ يُجِبْكَ وَإِنْ تَغْضَبَ إِلَى السَّيْفِ يَغْضَبِ
وقول الآخر^(٣):

[٦١] أَخُوكَ الَّذِي إِنْ رَبَّنَا قَالَ إِنَّمَا أَرَبْتُ وَإِنْ عَاتَبْتَهُ لَانَ جَانِبُهُ

فهذا ونحوه على أنك قَدَّرْتَ إنساناً هذه صفته وهذا شأنه وأَحَلَّتِ السامِعَ على مَا يَعْنِي^(٤) في الوهم دون أن يكون قد عَرَفَ رجلاً بهذه الصفة فأعلمته أن المستحقَّ لاسم الأخوة هو ذلك الذي عَرَفَهُ حتى كأنك قلت: أخوك زيدُ الذي عرفت أنك إن تدعُه لملمة يجيبك. ولكون هذا الجنس معهوداً من طريق الوهم

(١) هو ابن الرومي (ديوانه ٧٨٦/٢) من قصيدة في مدح القاسم بن عبيد الله. وفيه: ١ - أسدى، ٢ - أسدى يداً.

(٢) البيت لشاعر جاهلي فارس مقدّم هو حُجَيَّة بن الْمُضَرَّب. والبيت من قصيدة حماسية يعاتب فيها امرأته التي لامته لأنه أعطى إبله لبني أخيه اليتامى.

انظر الحماسة (المرزوقي) ١١٧٧/٣، والمختلف والمؤتلف ١١٦، ٢٧٨

(٣) البيت لبشار بن برد من بائته المشهورة في مدح مروان بن محمد (ديوانه ٣٠٨/١). وفي اللسان (ري ب) أن البيت يُنسب للمتلّمس ولبشار.

(٤) في (ط): «على ما يتعين في الوهم، وهو تصحيف.

والتخيل جرى على ما يُوصف بالاستحالة كقولك للرجل وقد تمنى: هذا هو الذي لا يكون وهذا ما لا يَدْخُل في الوجود. وقوله^(١):

ما لا يَكُونُ فلا يَكُونُ بحيلةٍ أبدأً وما هو كائنٌ سيَكُونُ
وَمِنْ لطيف هذا الباب قوله^(٢):

وإني لَمُشتاقٌ إلى ظِلِّ صاحبٍ يَرِقُّ ويَضْفُو إن كدِرتُ عَلَيْهِ
قَدْ قَدَّرَ كما ترى ما لَمْ يَغْلَمْه موجوداً. ولذلك قال المأمون: خُذْ مني
الخلافةَ وأعطني هذا الصاحب^(٣). فهذا التعريفُ الذي تراه في الصاحب
لا يَغْرَضُ فيه شَكٌّ أنه موهومٌ.

وأما قولنا: المنطلق زيدٌ. والفرقُ بينه وبينَ [أن نقول]^(٤): «زيدُ المنطلقُ»
فالقول في ذلك أنك وإن كنتَ ترى في الظاهر أنهما سواءٌ من حيثُ كانَ
الغرضُ في الحالين إثباتَ انطلاقٍ قد سَبَقَ العِلْمُ به لزيد فليس الأمرُ كذلك
بل بين الكلامين فصلٌ ظاهرٌ وبيانه أنك إذا قلتَ: زيدُ المنطلق. فأنتَ في

(١) البيت في (الأغاني ٣٩/٢٠) ثاني ثلاثة أبيات جاء في خبر روى الأصفهاني بسنده
«حفر حفراً في بعض أفنية مكة فوجد فيه حجرٌ عليه منقوش:

ما لا يكون فلا يكون بحيلة أبدأً وما هو كائنٌ فسيكونُ
سيكون ما هو كائن في وقته وأخو الجهالة متعب محزون
يسعى القويُّ فلا ينال بسميه حظاً ويحظى عاجزٌ ومهين

كما نسبت الأبيات إلى عبد الله بن أبي عيينة من هذا الخبر ٣٩/٢٠ وفي الكامل ٧/٢
نسبها لعبد الله بن أبي عيينة يقولها لظاهر بن الحسين وهي في الكامل ستة أبيات.

(٢) البيت لأبي العتاهية ولم يأت في ديوانه، وهو في الأغاني ٣٢٦/١١ مع بيت قبله وهو
قوله:

عذيري من الإنسان لا إن جفوته صفا لي ولا إن صرت طوع يديه

(٣) انظر عبارة المأمون في الأغاني ٣٢٦/١١ وهو يقولها لعلويه المغني.

(٤) ما بين معقوفتين من (أ) فقط.

حديث انطلاقٍ قد كان وعرف السامع كونه إلا أنه لم يعلم أمين زيد كان أم من عمرو؟ فإذا قلت: زيد المنطلق. أزلت عنك الشك وجعلته يقطع بأنه كان من زيد بعد أن كان يرى ذلك على سبيل الجواز. وليس كذلك إذا قدمت «المنطلق» فقلت: المنطلق زيد. بل يكون المعنى حينئذٍ على أنك رأيت إنساناً ينطلق بالبُعْد منك فلم تثبته ولم تعلم أزيد هو أم عمرو [٦١ ب] فقال لك صاحبك: المنطلق زيد؛ أي هذا الشخص الذي تراه من بُعد هو زيد. وقد ترى الرجل قائماً بين يديك وعليه ثوبٌ ديباج والرجلُ ممن عرفته قديماً ثم بُعد عهدك به فتناسيته فيقال لك: اللابسُ الديباج صاحبك الذي كان يكون عندك في وقت كذا، أما تعرفه! لشد ما نسيته. ولا يكون الغرض أن يُثبت له لبسُ الديباج لاستحالة ذلك من حيث إن رؤيتك الديباج عليه تُغنيك عن إخبار مُخبر وإثباتٍ مُثبتٍ لبسه له. فمتى رأيت اسم فاعل أو صفة من الصفات قد بُدئ به فجعل مبتدأً وجعل الذي هو صاحبُ الصفة في المعنى خيراً فاعلم أن الغرض هناك غير الغرض إذا كان اسمُ الفاعل أو الصفة خبراً كقولك: زيد المنطلق.

واعلم أنه ربما اشتبهت الصورة في بعض المسائل من هذا الباب حتى يُظن أن المعرفتين إذا وقعتا مبتدأً وخبراً لم يختلف المعنى فيهما بتقديم وتأخير، ومما يؤهم ذلك قولُ النحويين في باب كان: إذا اجتمع معرفتان كنت بالخيار في جعل أيهما شئت اسماً والآخر خبراً كقولك: كان زيد أخاك وكان أخوك زيداً. فيُظن من ههنا أن تكافؤ الاسمين في التعريف يقتضي أن لا يختلف المعنى بأن تبدأ بهذا وتُثني بذاك، وحتى كان الترتيب الذي يدعى بين المبتدأ والخبر وما يوضع لهما من المنزلة في التقدم والتأخر يسقط ويرتفع إذا كان الجزآن معاً معرفتين.

ومما يؤهم ذلك أنك تقول: الأميرُ زيدٌ، وجنتك والخليفةُ عبدُ الملك، فيكون المعنى على إثبات الإمارة لزيد والخلافة لعبد الملك كما يكون إذا قلت:

زيدُ الأميرُ وعبدُ الملك الخليفةُ. وتقوله لمن لا يُشاهد^(١) ومن هو غائب عن حضرة الإمارة ومَعْدِن الخلافة. وهكذا يُتوهم^(٢) في نحو قوله^(٣):

أَبُوكَ حَبَابٌ سَارِقُ الضَّيْفِ بُرْدُهُ وَجَدِّي يَا حَجَّاجُ فَارَسُ شَمَّرَا

[٦٢] أنه لا فصل^(٤) بينه وبين أن يقال: حُبَابُ أبوك وفارسُ شَمَّرِ جدِّي. وهو موضعٌ غامض. والذي يبين وجه الصواب ويدل على وجوب الفرق بين المسألتين أنك إذا تأملتَ الكلامَ وجدتَ ما لا يحتمل التسوية وما تجد الفرقَ قائماً فيه قياماً لا سبيلَ إلى دفعه هو الأعمُّ الأكثر وإن أردتَ أن تعرفَ ذلك فانظر إلى ما قدمتُ لك من قولك: اللابسُ الديباجَ زيدٌ؛ وأنت تشيرُ له إلى رجلٍ بين يديه، ثم انظر إلى قول العرب: ليس الطيبُ إلَّا المسكُ^(٥). وقول جرير^(٦):

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكَبَ الْمَطَايَا

ونحو قول المتنبي^(٧):

❁ أَلَسْتُ ابْنَ الْأَلَى سَعِدُوا وَسَادُوا ❁

(١) في (ط): «لمن يشاهد».

(٢) في (ط): «وهكذا من يتوهم» وليس في النسخ المعتمدة.

(٣) القائل هو جميل بن معمر العذري؛ صاحب بئينة (ديوانه: ١١٣). وشَمَّر: اسم فرس كان لجذ جميل. وقوله: سارق الضيف بُردَه، أي: سارق بُرد الضيف.

(٤) في (ب): «لا فرق».

(٥) انظر مغني اللبيب لابن هشام ٣٨٧ - ٣٨٩

(٦) من مشهور شعره والبيت:

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكَبَ الْمَطَايَا وَأَنْدَى الْعَالَمِينَ بَطُونِ رَاحٍ

وهو من قصيدة في مدح عبد الملك بن مروان (ديوانه ٨٩/١).

(٧) تمام البيت: ولم يلدوا امرأً إلَّا نجياً.

وهو من قصيدة في مدح علي بن محمد بن سيَّار بن مُكْرَم التميمي مطلعها:

ضُرُوبُ النَّاسِ عُشَّاقٌ ضُرُوبَا فَأَعَذَّرُهُمْ أَشْفُهُمْ حَبِيبَا

انظر ديوانه (شرح الواحدي) ٢٩٠

وأشبه ذلك مما لا يحصى ولا يُعدُّ. وأرد المعنى على أن يَسَلَّمَ لك مع قَلْبٍ طرفي الجملة وقُلْ: ليس المسكُ إلا الطيبُ. و: أليس خيرٌ من ركب المطايا إياكم؟ و: أليس ابنُ الأولى سَعِدُوا وسادوا إِيَّاكَ؟ تعلمُ أنَّ الأمرَ على ما عَرَفْتُكَ من وجوبِ اختلاف المعنى بحسب التقديم والتأخير.

وهنا نكتةٌ يجب القطع معها بوجوبِ هذا الفرقِ أبداً وهي أن المبتدأ لم يكن مبتدأً لأنه منطوقٌ به أولاً ولا كان الخبرُ خبراً لأنه مذكورٌ بعد المبتدأ بل كان المبتدأ مبتدأً لأنه مسندٌ إليه ومثبتٌ له المعنى والخبرُ خبراً لأنه مُسندٌ ومثبتٌ به المعنى. تفسيرُ ذلك أنك إذا قلتَ: زيد منطلق؛ فقد أثبتَّ الانطلاقَ لزيد وأسندته إليه فزيدٌ مُثبتٌ له ومنطلقٌ مثبتٌ به، وأما تقدم المبتدأ على الخبر لفظاً فحكمٌ واجبٌ من هذه الجهة أي من جهة أن كان المبتدأ هو الذي يثبت له المعنى ويسند إليه والخبر هو الذي يثبت به المعنى ويسند ولو كان المبتدأ مبتدأً لأنه في اللفظ مقدّمٌ مبدوء^(١) به لكان ينبغي أن يخرج عن كونه مبتدأً بأن يقال: منطلقٌ زيد. ولوجب [٦٢ ب] أن يكونَ قولهم: إن الخبر مقدّمٌ في اللفظ والنيةُ به التأخيرُ: محالاً. وإذا كان هذا كذلك ثم جئتُ بمعرفتين فجعلتهما مبتدأً وخبراً فقد وجب وجوباً أن تكونَ مثبتاً بالثاني معنىً للأول، فإذا قلتَ: زيدٌ أخوك؛ كنتَ قد أثبتَّ بأخوك معنىً لزيد، وإذا قدّمتَ وأخرتَ فقلتَ: أخوك زيد؛ وجب أن تكونَ مثبتاً بزيد معنىً لأخوك وإلا كان تسميتُك له الآن مبتدأً وإذا ذاك خبراً تغييراً للاسم عليه من غير معنى ولأدّى إلى أن لا يكونَ لقولهم المبتدأ والخبر فائدةٌ غيرُ أن يتقدم اسم في اللفظ على اسم من غير أن ينفرد كلُّ واحدٍ منهما بحكم لا يكون لصاحبه، وذلك مما لا يُشكُّ في سقوطه.

ومما يدلُّ دلالة واضحة على اختلاف المعنى - إذا جئتُ بمعرفتين ثم جعلتَ هذا مبتدأً وذاك خبراً تارة وتارة بالعكس - قولهم: الحبيبُ أنتَ وأنتَ الحبيبُ. وذاك أنَّ معنى الحبيبُ أنتَ^(٢) أنه لا فصلَ بينك وبين مَنْ تحبُّه إذا

(١) في (ب): مبتدأ به.

(٢) أنت: سقطت من (أ).

صَدَقَتِ المحبة وأن مثل المتحابين مَثَلُ نفسٍ يقتسمها شخصان كما جاء عن بعض الحكماء أنه قال: الحبيب أنت إلا أنه غيرك. فهذا كما ترى فرقاً لطيف ونكتة شريفة ولو حاولت أن تُفيدها بقولك: أنت الحبيب؛ حاولت ما لا يصح لأنّ الذي يُعقل من قولك: أنت الحبيب؛ هو ما عناه المتنبي في قوله^(١):

أَنْتَ الْحَبِيبُ وَلَكِنِّي أَعُوذُ بِهِ مِنْ أَنْ أَكُونَ مُحِبًّا غَيْرَ مَحْبُوبٍ

ولا يخفى بُعد ما بين الغرضين. فالمعنى في قولك: «أنت الحبيب» أنك أنت^(٢) الذي أختصّه بالمحبة من بين الناس. وإذا كان كذلك عرفت أن الفرق واجبٌ أبداً وأنه لا يجوز أن يكون «أخوك زيد» و«زيد أخوك» بمعنى واحد.

وهنا شيءٌ يجب النظر فيه وهو أن قولك: أنت الحبيب، كقولنا: أنت الشجاع. تريد أنه الذي كملت فيه الشجاعة، أو كقولنا: زيد المنطلق. تريد أنه الذي كان منه الانطلاق الذي سمع المخاطب به. وإذا نظرنا وجدناه لا يحتمل أن يكون كقولنا: أنت [٦٣] الشجاع لأنه يقتضي أن يكون المعنى أنه لا محبة في الدنيا إلا ما هو به حبيب كما أن المعنى في «هو الشجاع» أنه لا شجاعة في الدنيا إلا ما تجده عنده وما هو شجاع به وذلك محال.

وأمر آخر وهو أن الحبيب (فعل) بمعنى مفعول فالمحبة إذن ليست هي له بالحقبة وإنما هي صفةٌ لغيره قد لا يسته وتعلقت به تعلق الفعل بالمفعول. والصفة إذا وصفت بالكمال^(٣) وصفت به على أن يرجع ذلك الكمال إلى مَنْ هي صفة له دون من تلابسه ملابسة المفعول. وإذا كان كذلك بُعد أن تقول: أنت المحبوب، على معنى أنت الكامل في كونك محبوباً كما أن بعيداً أن يقال هو

(١) من قصيدة في مدح كافور الإخشيدي في سؤال سنة ٣٤٦ هـ قال الواحدي: «هي

قصيدة فريدة، من محاسن شعره» (شرح الواحدي ٦٣٣) ومطلعها:

من الجآذر في زِي الأعراب حُرُ الحلى والمطايا والجلاليب

(٢) أنت: ليست في (ط).

(٣) في (ط): بكمال.

المضروب: على معنى أنه^(١) الكامل في كونه مضروباً، وإن جاء شيء من ذلك جاء على تعسف فيه^(٢) وتأويل لا يتصور ههنا، وذلك أن يقال مثلاً: زيد هو المظلوم، على معنى أنه لم يُصَبَّ أحداً ظلم يبلغ في الشدة والشناعة الظلم الذي لَحَقَهُ فصار كلُّ ظلم سواء عدلاً في جنبه، ولا يجيء هذا التأويل في قولنا: أنت الحبيب؛ لأننا نعلم أنهم لا يريدون بهذا الكلام أن يقولوا: إن أحداً لم يحبَّ أحداً محبتي لك وإن ذلك قد أبطل المحبَّات كلها حتى صِرَتِ الذي لا يُعقل للمحبة معنى إلا فيه. وإنما الذي يريدون أنَّ المحبة مني بجملتها مقصورة عليك وأنه ليس لأحد غيرك حظ في محبة مني.

وإذا كان كذلك بان أنَّه لا يكون بمنزلة «أنت الشجاع» تريد الذي تكامل الوصف فيه إلا أنه ينبغي من بُعد أن تعلم أن بين «أنت الحبيب» وبين «زيد المنطلق» فرقاً وهو أنَّ لك في المحبة التي أثبتُّها طرفاً من الجنسية من حيث كان المعنى أن المحبة مني بجملتها مقصورة عليك ولم تعد إلى محبة واحدة من محباتك. ألا ترى أنَّك قد أعطيت بقولك: أنت الحبيب أنك لا تحبَّ غيره وأنَّ لا محبة لأحدٍ سواه عندك، ولا يتصور هذا في «زيد المنطلق» [٦٣ ب] لأنه لا وجه هناك للجنسية إذ ليس ثمَّ إلا انطلاق واحد قد عَرَفَ المخاطب أنه كان واحتاج أن يعيَّن له الذي كان منه وينصَّ له عليه. فإن قلت: زيد المنطلق في حاجتك. تريد الذي من شأنه أن يسعَى في حاجتك^(٣) عرض فيه معنى الجنسية حينئذٍ على حدِّها في «أنت الحبيب».

وههنا أصلٌ يجب أن تُحكَّمَهُ وهو أنَّ من شأنِ أسماءِ الأجناس كلها إذا وصفت أن تتنوع بالصفة فيصير الرجل الذي هو جنس واحد إذا وصفته فقلت: «رجلٌ ظريفٌ ورجلٌ قصيرٌ ورجلٌ شاعرٌ ورجلٌ كاتبٌ» أنواعاً مختلفة يُعدُّ كل نوع منها شيئاً على حدة ويُستأنف في اسم الرجل بكلِّ صفة تقرنُها إليه جنسية. وهكذا

(١) أنه: سقطت من (ب).

(٢) فيه: سقطت من (أ).

(٣) في (أ): حاجاتك.

القول في المصادر تقول: العِلْمُ والجهلُ والضربُ والقتلُ والسيرُ والقيامُ والقعودُ. فتجدُ كلَّ واحد من هذه المعاني جنساً كالرجل والفرس والحمار، فإذا وصفتَ فقلت: عِلْمٌ كذا وعلم كذا كقولك: «عِلْمٌ ضروري وعلم مكتسبٌ وعلم جليٌّ وعلم خفيٌّ وضربٌ شديدٌ وضربٌ خفيفٌ وسيرٌ سريعٌ وسيرٌ بطيءٌ وما شاكل ذلك» انقسم الجنس منها أقساماً وصار أنواعاً وكان مثلاً مثل الشيء المجموع المؤلف تفرقه فرقاً وتشعبه شعباً. وهذا مذهبٌ معروفٌ عندهم وأصلٌ متعارفٌ في كل جيل وأمة.

ثم إن ههنا أصلاً هو كالمترفع على هذا الأصل أو كالنظير له وهو أن من شأن المصدر أن يفرق بالصلات كما يفرق بالصفات، ومعنى هذا الكلام أنك تقول: «الضربُ» فتراه جنساً واحداً فإذا قلت: الضربُ بالسيف. صار تعديتك له إلى السيف نوعاً مخصوصاً. ألا تراك تقول: الضربُ بالسيف غيرُ الضربُ بالعصا، تريد أنهما نوعانِ مختلفانِ وأن اجتماعهما في اسم الضرب لا يوجب اتفاقهما لأن الصلة قد فصلت بينهما وفرقتهما [٦٤ أ] ومن المثال البين في ذلك قولُ المتنبي^(١):

وتوهَّمُوا اللَّعِبَ الوَغَى والطَّعْنَ في الدِّهِجِ
هَبَّجَاءِ غَيْرِ الطَّعْنِ في المَيْدَانِ

لولا أنَّ اختلافَ صلة المصدرِ تقتضي اختلافه في نفسه وأن يحدث في انقسام وتنوع لما كان لهذا الكلام معنى ولكن في الاستحالة كقولك: والطعنُ غيرُ الطعن. فقد بان إذن أنه إنما كان كلُّ واحد من الطعنين جنساً برأيه غير الآخر بأن كان هذا في الهيجاءِ وذاك في الميدان. وهكذا الحكمُ في كلِّ شيء تَعَدَّى إليه المصدرُ وتعلَّقَ به فاختلفَ مفعولُ المصدرِ يقتضي اختلافه وأن يكون المتعدي إلى هذا المفعولِ غيرَ المتعدي إلى ذاك، وعلى ذلك تقول: ليس إعطاؤك الكثيرَ كإعطائك القليل. وهكذا إذا عدَّيته إلى الحال كقولك: ليس

(١) البيت من قصيدة في مدح سيف الدولة الحمداني وقت منصرفه من بلاد الروم سنة

٣٤٥هـ (الواحدي: ٥٩٤) ومطلعها:

الرأي قبل شجاعة الشجعان هو أوَّلُ وهي المحلُّ الثاني

إعطاؤك معسراً كإعطائك موسراً. وليسَ بذلكَ وأنتَ مُقِلٌّ كَبْذَلِكِ وَأنتَ مُكْثِرٌ. وإذا قد عَرَفْتَ هذا من حُكْمِ المصدرِ فاعتبر به حُكْمَ الاسمِ المشتقِّ منه.

وإذا اعتبرتَ ذلكَ علمتَ أنَّ قولك: هو الوفيُّ حين لا يفي أحدٌ وهو الواهبُ المئة المصطفاءة. وقوله^(١):

وَهُوَ الضَّارِبُ الْكَتِيبَةَ وَالطَّعَنُ نَةً تَغْلُو وَالضَّرْبُ أَغْلَى وَأَغْلَى

وأشبهَ ذلكَ كلُّها أخبارٌ فيها معنى الجنسية وأنها في نوعِها الخاصِّ بمنزلة الجنس المطلقِ إذا جعلته خبراً فقلت: أنتَ الشجاعُ. وكما أنك لا تقصِدُ بقولك: أنتَ الشجاعُ، إلى شجاعةٍ بعينها قد كانت وعُرفتَ من إنسانٍ وأردتَ أن تعرفَ ممن كانت بل تريد أن تُقْصِرَ جنسَ الشجاعة عليه ولا تجعلَ لأحدٍ غيره فيه خطأً كذلك لا تقصِدُ بقولك: «أنتَ الوفيُّ حين لا يفي أحدٌ» إلى وفاءٍ واحدٍ، كيفَ وأنتَ تقول: «حين لا يفي أحدٌ» وهكذا محالٌّ أن يَقْصِدَ في قوله: «هُوَ الواهبُ المئة المصطفاءة» إلى هِبَةٍ واحدةٍ لأنه يقتضي أن يَقْصِدَ [٦٤ ب] إلى مئةٍ من الإبل قد وهبها مرة ثم لم يَعْذْ لمثلها، ومعلومٌ أنه خلافُ الغرض لأن المعنى أنه الذي من شأنه أن يَهَبَ المئة أبداً والذي يبلغ عطاؤه هذا المبلغ كما تقول: هو الذي يعطي مادحة الألف والألفين وكقوله^(٢):

(١) يعني المتنبي والبيت من قصيدة يعزي فيها سيف الدولة بأخته الصغرى ويسليه بالكبرى في شهر رمضان سنة ٣٤٤ هـ (الواحدى ٥٧٧) ومطلعها:

إِنْ يَكُنْ صَبْرُ ذِي الرِّزْيَةِ فَضْلاً تَكُنِ الْأَفْضَلُ الْأَعَزُّ الْأَجْلاً
وفي الديوان: «أغلى وأغلى» وفي نسخة (ب) روى البيت:

وهو الطاعن الكتيبة والضرر بة تعلقو والطعن أعلى وأغلى

(٢) في اللسان: «مأي».

قالته امرأة من بني عُقَيْلٍ تفخر بأخوالها من اليمن. وقال أبو زيد إنه للعامة:

حيدة خالي ولقيبط وعلي وحاتم الطائي وهاب المنى

ولم يكن كخالك العبد الدَّعي يأكل أزمان الهزال والسَّني

هناتٍ عَينٍ مَبْنِيٍّ غَيْرِ ذَكِي

❁ وحاتم الطائي وهاب المني ❁

وذلك أوضح من أن يخفى. وأصل آخر وهو أن من حقنا أن نعلم أن مذهب الجنسية في الاسم وهو خبر غير مذهبها وهو مبتدأ. تفسير هذا أننا وإن قلنا: إن اللام في قولك: أنت الشجاع، للجنس كما هو له في قولهم^(١): الشجاع موقي والجبان ملقي. فإن [الفرق بينهما عظيم. وذلك أن المعنى في قولك؛ الشجاع موقي]^(٢) أنك تثبت الوقاية لكل ذات من صفتها الشجاعة فهو في معنى قولك: الشجاعان كلهم مؤقون. ولست أقول إن الشجاع كالشجاعان على الإطلاق وإن كان ذلك ظن كثير من الناس ولكني أريد أنك تجعل الوقاية تستغرق الجنس وتشملة وتشيع فيه. وأما في قولك: أنت الشجاع فلا معنى فيه للاستغراق إذ لست تريد أن تقول أنت الشجاعان كلهم حتى كأنك تذهب به مذهب قولهم: أنت الخلق كلهم وأنت العالم كما قال^(٣):

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

ولكن لحديث الجنسية هنا مأخذاً آخر غير ذلك وهو أنك تعتمد بها إلى المصدر المشتق منه الصفة وتوجهها إليه لا إلى نفس الصفة، ثم لك في توجيهها إليه مسلك دقيق وذلك أنه ليس القصد أن تأتي إلى شجاعات كثيرة فتجمعها له وتوجدتها فيه، ولا أن تقول: إن الشجاعات التي يتوهم وجودها في الموصوفين

(١) في (ب): قولك.

(٢) ما بين معقوفتين سقط من (ب).

(٣) يعني أبا نواس. والبيت من قطعة في ديوانه (الغزالي) ٤٥٤ وهي في مديح هارون الرشيد وأولها:

قولاً لهارون إمام الهدى عند احتفال المجلس الحاشد

والرواية في الديوان:

وليس لله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

وكذلك ذكره في نسخة (أ) إنما في الهامش، وقد سقط الأول من نسخة (ب) وأبقينا

على ما جاء في (ط) وقد أشار في الديوان الحاشية (ف) إلى رواية: وليس لله.

بالشجاعة هي موجودة فيه لا فيهم، هذا كله محالٌ بل المعنى على أنك تقول كنا قد عَقَلْنَا الشجاعة وعَرَفْنَا حَقِيقَتَهَا وما هي وكيف ينبغي أن يكون الإنسان في إقدامه وبَطْشِهِ حتى يَعْلَمَ أنه شجاع على الكمال [٦٥ أ]، واستقرينا الناس فلم نجد في واحد منهم حقيقة ما عرفناه حتى إذا صِرْنَا إلى المخاطب وجدناه قد استكمل هذه الصفة واستجمع شرائطها وأخلص جوهرها ورسخ فيه سِنُهَا^(١). وبيّن لك أن الأمر كذلك اتفاق الجميع على تفسيرهم له بمعنى الكامل ولو كان المعنى على أنه استَغَرَقَ الشجاعات التي يتوهم كونها في الموصوفين بالشجاعة لما قالوا إنه بمعنى الكامل في الشجاعة لأن الكمال هو أن تكون الصفة على ما ينبغي أن تكون عليه وأن لا يخالطها ما يقدح فيها، وليس الكمال أن تجتمع آحادُ الجنس وينضمَّ بعضها إلى بعض فالغرضُ إذن^(٢) بقولنا: أنت الشجاع، هو الغرضُ بقولهم: هذه هي الشجاعة على الحقيقة وما عداها جُبْنٌ وهكذا يكون العلم وما عداه تَخَيُّلٌ وهذا هو الشُّعْر وما سواه فليس بشيء، وذلك أظهر من أن يخفى.

وضرب آخر من الاستدلال في إبطال أن يكون: أنت الشجاع؛ بمعنى أنك كأنك جميعُ الشجعان على حدّ «أنت الخلقُ كلُّهم» وهو أنك في قولك: أنت الخلقُ وأنت الناسُ كلُّهم وقد جُمِعَ العالمُ مِنْكَ في واحدٍ؛ تدّعي له جميعَ المعاني الشريفة المتفرقة في الناس من غير أن تُبطل تلك المعاني وتنفيها عن الناس بل على أن تدّعي له أمثالها. ألا ترى أنك إذا قلت في الرجل: إنه معدودٌ بألف رجلٍ؛ فليست تعني أنه معدودٌ بألف رجلٍ لا معنى فيهم ولا فضيلة لهم بوجه! بل تريدُ أنه يُعْطِيكَ^(٣) من معاني الشجاعة أو العلم أو الكذا أو كذا مجموعاً ما لا تجدُ مقداره مفرقاً إلا في ألف رجلٍ. وأمّا في نحو «أنت الشجاع»

(١) السِّنْخ: الأصل من كل شيء، الجمع أسناخ وسنوخ. يقال: رجع فلان إلى سنخ الكرم، وسنخ الكلمة أصل بانها.

(٢) إذن: سقطت من (أ).

(٣) في (ب): أن يعطيك. في (ط): أن يعطيه

فإنك تدّعي له أنه قد انفردَ بحقيقة الشجاعة وأنه قد أوتي فيها مزيةً وخاصةً لم يؤتَها أحدٌ حتى صار الذي كان يُعَدُّه الناسُ شجاعةً غير شجاعةٍ وحتى كأنَّ كلَّ إقدامٍ إحجامٌ وكلَّ قوّةٍ عُرفتْ في الحرب ضَعْفٌ، وعلى ذلك قالوا: جاد حتى [٦٥ ب] بَخَلَّ كلُّ جوادٍ، وحتى منع أن يستحقَّ اسمَ الجوادِ أحدٌ. كما قال^(١):

وإنَّكَ لَا تَجُودُ عَلَى جَوَادٍ هِبَاتُكَ أَنْ يُلقَّبَ بِالْجَوَادِ
وكما يقال: جاد حتى كأنَّ لم يُعرَفْ لأحدٍ جودٌ وحتى كأنَّ قد كَذَبَ
الواصفون الغيثَ بالجود. كما قال^(٢):

أَعْطَيْتَ حَتَّى تَرَكْتَ الرُّيْحَ حَاسِرَةً وَجُدْتَ حَتَّى كَانَ الْغَيْثُ لَمْ يَجِدْ



(١) يعني المتنبي، من قصيدة في مدح علي بن إبراهيم التنوخي (الواحدى: ١٣٧) ومطلعها:

أَحَادٌ أَمْ سُدَّاسٌ فِي أَحَادٍ لِيُؤَلِّقُنَا الْمَنُوطَةَ بِالتَّنَادِي

قال الواحدى في شرح البيت ١٤٠: «أي هباتك لا تجود على أحد باسم الجواد لأنَّه لا يستحق هذا الاسم مع ما يُرى من جودك وزيادتك عليه».

(٢) يعني البحترى، والبيت من قصيدة في مدح أبي نهشل بن حميد الطوسي (ديوان البحترى ١/ ٥٧٥).

هَذَا فِصْل

فِي (الَّذِي) خُصُوصاً

اعلم أنَّ لك في (الذي) علماً كثيراً وأسراراً جَمَّةً وخفايا إذا بحثت عنها وتصورتها اطلَّعت على فوائد تُوْنِسُ النفسَ، وتُثْلِجُ الصدرَ، بما يُفْضِي بك إليه من اليقين، ويؤدِّيه إليك من حُسن التبيين، والوجهُ في ذلك أن تتأملَ عباراتٍ لهم فيه: لِمَ وَضِعَ، ولأي غَرَضٍ اجْتُلِبَ، وأشياء وصفوه بها، فمن ذلك قولهم: إن (الذي) اجْتُلِبَ ليكون وصلة إلى وصف المعارف بالجمل كما اجْتُلِبَ (ذو) ليتوصَّل به إلى الوصف بأسماء الأجناس. يعنون بذلك أنك تقول: مررتُ بزيد الذي أبوه منطليقٌ، وبالرجل الذي كان عندنا أمس. فتجدُكَ قد توصَّلت بالذي إلى أن أبنت زيدا مِنْ غيرهِ بالجملة التي هي قولُك: «أبوه منطليقٌ» ولولا (الذي) لم توصِّلْ إلى ذلك. كما أنك تقول: مررتُ برجلٍ ذي مالٍ. فيتوصَّل^(١) بذِي إلى أن يبيِّن الرجلُ من غيرهِ بالمال ولولا (ذو) لم يتأتَّ لك ذلك إذ لا تستطيع أن تقول: برجلٍ مالٍ. فهذه جملةٌ مفهومةٌ إلا أن تحتها خبايا تحتاج إلى الكشفِ عنها، فمن ذلك أن تَعْلَمَ مِنْ أينَ امتنعَ أن توصِّفَ المعرفةَ بالجملة، ولمَ لَمْ يكن حالُها في ذلك حالَ النكرة التي تَصِفُها بها في قولك: مررتُ برجلٍ أبوه منطليقٌ، ورأيتُ إنساناً تقادُ الجنائبُ بينَ يديه. وقالوا:

(١) في (ط): تتوصَّل.

إن السبب في امتناع ذلك أن الجملَ نكراتٌ كُلُّها بدلالة أنها تُستفاد وإنما يستفاد المجهول [٦٦ أ] دون المعلوم قالوا: فلمَّا كانت كذلك كانت وفقاً للنكرة فجاز وصفها بها ولم يَجْزُ أن توصف بها المعرفة إذ لم تكن وفقاً لها.

والقول المبين في ذلك أن يقال: إنه إنما اجتلب حتى إذا كان قد عُرِفَ رجلٌ بقصة وأمرٍ جرى له فتخصَّص بتلك القصة وبذلك الأمر عند السامع ثم أريد القصد إليه ذَكَرَ (الذي). تفسيرُ هذا أنك لا تَصِلُ (الذي) إلَّا بجمله من الكلام قد سَبَقَ مِنَ السامعِ علْمٌ بها وأمرٌ قد عَرَفَه له نحو أن ترى عنده رجلاً يَشِدُّهُ^(١) شعراً فتقول له مِنْ غَدٍ: ما فعل الرجلُ الذي كانَ عندكَ بالأمس ينشدُك الشعر؟ هذا حُكْمُ الجملة بَعْدَ (الذي) إذا أنت وصفتَ به شيئاً فكانَ معنى قولهم: إنه^(٢) اجتلب ليتوصَّل به^(٣) إلى وصفِ المعارف بالجملة؛ أنه جيء به ليفصِّل بين أن يُرادَ ذَكَرُ الشيءَ بجمله قد عَرَفها السامع له وبين أن لا يكونَ الأمر كذلك. فإن قلت: قد^(٤) يؤتى بَعْدَ الذي بالجملة غيرِ المعلومة للسامع وذلك حيث يكون (الذي) خبراً كقولك: «هذا الذي كان عندكَ بالأمس وهذا الذي قَدِمَ رسولاً من الحضرة» أنت في هذا وشبهه تُعلِّمُ المخاطبَ أمراً لم يَسْبِقْ له به علْمٌ وتفيده في المشارِ إليه شيئاً لم يكن عنده، ولو لم يَكُنْ كذلك لم يكن الذي خبراً إذ كان لا يكون الشيءَ خبراً حتى يُفادَ به فالقول في ذلك أن الجملة في هذا النحو وإن كان المخاطب لا يعلمها لعَيْنٍ مَنْ أشرتَ إليه، فإنه لا بدَّ من أن يكون قد عَلِمَها على الجملة وحُدِّثَ بها فإنك على كل حال لا تقول: هذا الذي قَدِمَ رسولاً، لمن لم يعلم^(٥) أن رسولاً قدم ولم يبلغه ذلك في جملة ولا تفصيل. وكذا لا تقول: هذا الذي كان عندكَ أمس، لمن قد نسي أنه كان عنده إنسان

(١) في (ب): ينشد.

(٢) «إنه» سقطت من (ب).

(٣) «به» سقطت من (ب).

(٤) في (ب): فقد.

(٥) في (ب): لمن لا يعلم.

وَذَهَبَ عَنْ وَهْمِهِ وَإِنَّمَا تَقُولُهُ لِمَنْ ذَاكَ عَلَى ذِكْرِ مِنْهُ إِلَّا أَنَّهُ رَأَى رَجُلًا يَقْبَلُ مِنْ بَعِيدٍ فَلَا يَعْلَمُ أَنَّهُ ذَاكَ وَيُظَنُّ إِنْسَانًا غَيْرَهُ.

وعلى الجملة فكلُّ عاقلٍ يعلم بَوْنِ ما [٦٦ ب] بين الخيرِ بالجملة مع (الذي) وبينها مع ^(١) غير (الذي) فليس مِنْ أَحَدٍ بِهِ طَرَقٌ إِلَّا وَهُوَ لَا يَشْكُ ^(٢) أَنْ لَيْسَ الْمَعْنَى فِي قَوْلِكَ: هَذَا الَّذِي قَدِمَ رَسُولًا مِنَ الْحَضْرَةِ، كَالْمَعْنَى إِذَا قُلْتَ: هَذَا قَدِمَ رَسُولًا مِنَ الْحَضْرَةِ، وَلَا: هَذَا الَّذِي يَسْكُنُ فِي مَحَلَّةٍ كَذَا. كَقَوْلِكَ: هَذَا يَسْكُنُ مَحَلَّةً كَذَا. وَلَيْسَ ذَاكَ إِلَّا أَنْكَ فِي قَوْلِكَ: «هَذَا قَدِمَ رَسُولًا مِنَ الْحَضْرَةِ» مَبْتَدِئٌ خَبَرًا بِأَمْرٍ لَمْ يَبْلُغِ السَّامِعَ وَلَمْ يُبَلِّغْهُ وَلَمْ يَعْلَمْهُ أَصْلًا. وَفِي قَوْلِكَ: «هَذَا الَّذِي قَدِمَ رَسُولًا» مُعْلِمٌ فِي أَمْرٍ قَدْ بَلَّغَهُ أَنَّ هَذَا صَاحِبُهُ فَلَمْ يَخْلُ إِذَا مِنَ الَّذِي بَدَأْنَا بِهِ فِي أَمْرِ الْجُمْلَةِ مَعَ (الذي) مِنْ أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ جُمْلَةً قَدْ سَبَقَ مِنَ السَّامِعِ عِلْمٌ بِهَا فَاعْرِفْهُ فَإِنَّهُ مِنَ الْمَسَائِلِ الَّتِي مَنْ جَهَلَهَا جَهَلَ كَثِيرًا مِنَ الْمَعَانِي وَدَخَلَ عَلَيْهِ الْغُلْطُ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأُمُورِ وَاللَّهُ الْمَوْفِقُ لِلصَّوَابِ.



(١) فِي (ب): مِنْ.

(٢) جَاءَ فِي (مَتْنِ اللُّغَةِ) لِلْعَامِلِي: الطَّرَقُ: الشَّحْمُ وَيَكْنَى بِهِ عَنِ الْقُوَّةِ، وَالْمُرَادُ لَدَى عَبْدِ الْقَاهِرِ الدَّلَالَةُ عَلَى الْإِنْسَانِ الَّذِي يَتَمَتَّعُ بِالْفَهْمِ الْبَسِيطِ وَالسَّلِيمِ.

فروق في الحال لها فضل تعلق بالبلاغة

اعلم أن أوَّلَ فَرْقٍ في الحال أنَّها تَجِيءُ مفرداً وجملةً والقصدُ ههنا إلى الجملة، وأوَّلُ ما ينبغي أن يُضَبَّطَ من أمرها أنَّها تَجِيءُ تارةً مع الواو وأخرى بغير الواو، فمثالُ مجيئها مع الواو قولك: أتاني وعليه ثوبٌ ديباج ورأيتُه وعلى كَتِفِهِ سيفٌ ولقيتُ الأميرَ والجندُ حواليه وجاءني زيدٌ وهو متقلِّدٌ سيفه، ومثالُ مجيئها بغير واو: «جاءني زيدٌ يسعى غلامُه بين يديه وأتاني عمرو يقودُ فرسه» وفي تمييز ما يقتضي الواو مما لا يقتضيه صعوبةً، والقولُ في ذلك أنَّ الجملةَ إذا كانت من مبتدأ وخبر فالغالبُ عليها أن تَجِيءَ مع الواو كقولك: جاءني زيدٌ وعمرو أمامه وأتاني وسيفُه على كَتِفِهِ. فإنَّ كان المبتدأ من الجملة ضميرَ ذي الحال لم يصلح بغير الواو البتة وذلك كقولك: جاءني زيدٌ وهو راكبٌ ورأيتُ زيداً وهو جالسٌ ودخلتُ عليه وهو يُملِي الحديثَ وانتهيتُ إلى الأميرِ وهو يُعَبِّئُ الجيشَ؛ فلو^(١) تركتَ الواو في شيء من ذلك [١٦٧] لم يصلح فلو قلت: جاءني زيدٌ هو راكبٌ ودخلتُ عليه هو يملِي الحديثَ؛ لم يكن كلاماً. فإن كان الخبرُ في الجملة من المبتدأ والخبر ظرفاً ثم كان قد قُدِّمَ على المبتدأ كقولنا: عليه سيفٌ وفي يده سوطٌ؛ كثر فيها أن تَجِيءَ بغيرِ واو. فمما جاء منه كذلك قولُ بشار^(٢):

(١) فلو: سقطت من (أ).

(٢) ديوان بشار ٤٩/٣ من قصيدة جاء في الديوان أنه قالها لخالد بن جبلة بن عبد الرحمن

إذا أنكرتني بلدة أو نكرتها خَرَجْتُ مَعَ الْبَازِي عَلَيَّ سَوَادٌ
يَعْنِي: عَلَيَّ بَقِيَّةٌ مِنَ اللَّيْلِ.

وقول أمية^(١):

فَأَشْرَبَ هَنِيئاً عَلَيْكَ النَّاجُ مُرْتَفِقاً فِي رَأْسِ غُمْدَانٍ دَاراً مِنْكَ مِخْلَلاً
وقول الآخر^(٢):

لَقَدْ صَبَرْتُ لِلذَّلِّ أَعْوَادُ مَنْبِرٍ تَقُومُ عَلَيْهَا فِي يَدَيْكَ قَضِيبُ

كلُّ ذلك في مَوْضِعِ الحال وليس فيه واو كما ترى ولا هُوَ مُحْتَمِلٌ لَهَا إِذَا
نَظَرْتُ. وقد يجيء ترك الواو فيما ليس الخبرُ فيه كذلك ولكنه لا يكثرُ فمن ذلك
قولهم: «كَلَّمْتُهُ فَوَه إِلَى فَيٍّ» و«رَجَعَ عَوْدُهُ عَلَى بَذْنِهِ» في قول من رَفَعَ وَمِنْهُ بَيْتُ
الإصلاح^(٣):

= الباهلي، وهو أحد الثائرين على الدولة العباسية، أما أبو الفرج في الأغاني فيذكر أنه
قالها لخالد بن برمك في خبر أورده.
والرواية في الديوان:

نَهَضْتُ مَعَ الْبَازِي عَلَيَّ سَوَادٌ

والبازي: هو الصقر وهو أبكر الطيور خروجاً.

(١) هو أمية بن أبي الصلت الثقفى، والبيت من قصيدة قالها في مدح سيف بن ذي يزن
وتنسب لأبيه (ديوانه: ٤٥٣) ومطلعها:

ليطلب الشار أمثال ابن ذي بَزْنٍ رَسَمَ فِي الْبَحْرِ لِلْأَعْدَاءِ أَحْوَالاً
مرتفعاً: مُتَكَنّاً، غمدان: قصر بصنعاء وهو من أعاجيبها، ومكان محلال: يكثر فيه
الحلول والإقامة.

(٢) البيت أول أربعة أبيات أنشدها الجاحظ في البيان والتبيين ١/ ٢٩٢ وفي ٢/ ٣١٣ -
٣١٤ هي ستة أبيات منسوبة لوائلة بن خليفة السدوسي، وأنشدها في ٣/ ٧٨ وهي أربعة
أبيات بترتيب مختلف. وانظر عيون الأخبار ٢/ ٢٥٩

وقد ذكر المرزباني (معجم الشعراء ٥١٤): أن الشاعر هو أبو وائلة بن خليفة السدوسي
وهو ممن غلبت كنيته على اسمه.

(٣) البيت للمسيب بن علس كما في إصلاح المنطق: ٢٤١ والرواية فيه:

=

نَصَفَ النَّهَارُ الْمَاءَ غَامِرُهُ وَرَفِيقُهُ بِالغَيْبِ لَا يَدْرِي
ومن ذلك ما أنشدَه الشيخُ أبو علي^(١) في الإغفال^(٢):
وَلَوْلَا جَنَّانُ اللَّيْلِ مَا أَبَّ عَامِرٌ إِلَى جَفْعَرٍ سِرْبَالُهُ لَمْ يُمَزَّقْ^(٣)
وَمِمَّا ظَاهِرُهُ أَنَّهُ مِنْهُ قَوْلُهُ^(٤):

إِذَا أَتَيْتَ أَبَا مَرْوَانَ تَسْأَلُهُ وَجَدْتُهُ حَاضِرًا: الْجُودُ وَالْكَرَمُ

فقوله: «حاضراه الجود» جملة من المبتدأ والخبر كما ترى وليس فيها وَاوٌ والموضع موضع حال، ألا تراك تقول: أتيتُه فوجدتُه جالساً! فيكون جالساً حالاً، ذاك لأنَّ وجدتُ في مثل هذا من الكلام لا تكون المتعدية إلى مفعولين ولكن المتعدية إلى مفعولٍ واحدٍ كقولك: وجدتُ الضالَّةَ. إلا أنه ينبغي أن تعلم أن لتقديمه الخبر الذي هو حاضراه تأثيراً في معنى الغنى عن الواو وأنه لو قال:

= نَصَفَ النَّهَارُ الْمَاءَ غَامِرُهُ وَشَرِيكَهُ بِالغَيْبِ مَا يَدْرِي

- قال ابن السكيت: «أراد انتصف النهار والماء غامره لم يخرج. قال: ذكر غائصاً أنه غاص فانتصف النهار فلم يخرج من الماء».

والبيت في الجُمان لابن ناقيا منسوب للأعشى: ٣٣٨ وهو ليس في ديوانه.

(١) هو أبو علي الفارسي، الحسن بن أحمد، العالم اللغوي المشهور، أستاذ ابن جني وله مؤلفات كثيرة. توفي في بغداد ٣٧٧ هـ (الفهرست: ٦٩).

(٢) الإغفال اسم كتاب لأبي علي، أصلح فيه مسائل على الزجاج إبراهيم بن السري بن سهل، المتوفى ٣١٢ هـ (الفهرست: ٦٩).

(٣) البيت لسلامة بن جندل السعدي. وهو شاعر جاهلي فارسي. والبيت من قافية طويلة في ديوانه: ١٧٨ والرواية فيه:

وَلَوْلَا سَوَادُ اللَّيْلِ مَا أَبَّ عَامِرٌ إِلَى جَفْعَرٍ سِرْبَالُهُ لَمْ يُخَرَّقِ

والشاهد فيه جواز مجيء الجملة الاسمية حالاً دون أن تسبقها واو الحال (سرباله لم يُخرَق).

(٤) يعني الأخطل التغلبي، الشاعر الأموي المشهور، والبيت من قصيدة بائية في ديوانه: ١٩٨ قالها في مديح الأمويين عامة، وبشر بن مروان خاصة والرواية:

إِذَا أَتَيْتَ أَبَا مَرْوَانَ تَسْأَلُهُ وَجَدْتُهُ حَاضِرًا: الْجُودُ وَالْحَسْبُ

وجدته الجود والكرم حاضرا. لم يحسن حسنه الآن وكان السبب في حسنه مع التقديم أنه [٦٧ ب] يقرب في المعنى من قولك: وجدته حاضره الجود والكرم أو حاضرا عنده الجود والكرم.

وإن كانت الجملة من فعل وفاعل والفعل مضارع مثبت غير منفي لم يكد يجيء بالواو بل ترى الكلام على مجيئها عارية من الواو كقولك: جاءني زيد يسعى غلامه بين يديه. وكقوله^(١):

وَقَدْ عَلَوْتُ قُتُودَ الرَّحْلِ يَسْفَعُنِي يَوْمَ قُدَيْدِيَمَةَ الْجِوَزَاءِ مَسْمُومٌ
وقوله^(٢):

وَلَقَدْ أَغْتَدِي بِدَافِعٍ رُكْنِي أَخُوذِي ذُو مَيْعَةٍ إِضْرِيحُ

وكذلك قولك: جاءني زيد يسرع. لا فضل بين أن يكون الفعل لذي الحال وبين أن يكون لمن هو من سببه فإن ذلك كله يستمر على الغنى عن الواو وعليه التنزيل والكلام ومثاله في التنزيل قوله عز وجل^(٣): ﴿وَلَا تَنْتَنُ تَشْكِرُ﴾ [المدر: ٧٤/٦] وقوله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا آلُتَى ۖ﴾ [الذي يؤتي ماله يتزكى] [الليل: ٩٢/١٧-١٨]

(١) البيت لعلقمة الفحل. والفحل لقبه وفي ذلك أقوال. وهو علقمة بن عبدة، شاعر جاهلي له أخبار مع امرئ القيس وهي مشهورة. والبيت من قصيدة مفضلية (المفضليات: ٤٠٣). وهي في ديوانه: ٥٠
والرواية في الديوان والمفضليات:

يَوْمَ تَجِيءُ بِهِ الْجِوَزَاءُ مَسْمُومٌ

وقُدَيْدِيَمَةَ: تصغير قُدَام. قال في اللسان (قدم) ٣٦٤/١٥: قُدَام نقيض وراء وهما يؤثان ويصفران بالهاء، قُدَيْدِيَمَةُ وقُدَيْدِيَمَةُ وورينة وهما شاذان لأن الهاء لا تلحق الرباعي في التصغير.

(٢) هو أبو دؤاد الإيادي وقد سبق في الصفحة ١٣١.

(٣) والآية الكريمة في سياقها: ﴿يَأْتِيَا الذِّكْرُ ۖ قَدْ قَاتَرَ ۖ وَرَبَّكَ فَكَّرَ ۖ وَبِابِكَ فَطَرَّ ۖ وَالرُّجُزَ فَأَعْجَزَ ۖ وَلَا تَنْتَنُ تَشْكِرُ ۖ﴾.

وكقوله عز اسمه^(١): ﴿وَيَذُرْهُمْ فِي طُفَيْتِهِمْ يَمْعُون﴾ [الأعراف: ١٨٦/٧] فأما قول ابن همام السَّلُولي^(٢):

فَلَمَّا خَشِيتُ أَظَافِيرَهُ نَجَوْتُ وَأَزْهَنُهُمْ مَالِكَا

في رواية من روى «وأرهنهم» وما شبهوه به من قولهم: قُنت وأصك وجهه. فليست الواو فيها للحال وليس المعنى نجوت راهناً مالكا وقمت صاكاً وجهه ولكن أرهن وأصك حكاية حال مثل قوله^(٣):

وَلَقَدْ أَمَرْتُ عَلَى اللَّثِيمِ يَسُبُّنِي فَمَضَيْتُ ثُمَّتَ قُلْتُ: لَا يَغْنِينِي!

فكما أن «أمر» ههنا في معنى «مررت» كذلك يكون «أزهن وأصك» هناك في معنى «رهننت وصككت» ويبين ذلك أنك ترى الفاء تجيء مكان الواو في مثل هذا وذلك كنعو ما في الخبر في حديث عبد الله بن عتيك^(٤) حين دخل على أبي رافع اليهودي^(٥) حصنه قال: «فانتهيته إليه فإذا هو في بيت مظلم لا أدري

(١) والآية الكريمة في سياقها: ﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَأَ هَادِيَ لَمْ وَيَذُرْهُمْ فِي طُفَيْتِهِمْ يَمْعُون﴾.

(٢) البيت لعبد الله بن همام السَّلُولي كما في اللسان (رهن) ٤٨/١٧، والشعر والشعراء ٢/٦٥١ ورواية البيت فيهما:

نَجَوْتُ وَأَزْهَنُتُهُمْ مَالِكَا

وفي الشعر والشعراء: ولَمَّا.. وذكر اللسان: «أرهنهم» رواية للأصمعي.

(طبقات فحول الشعراء ٢/٥٩٢، الشعر والشعراء ٢/٦١٥، سمط اللآلي ٢/٦٨٣). وانظر معاهد التنصيص ١/٢٨٥

(٣) من شواهد سيبويه ٤١٦/١ يقال إنه لرجل مولد من سلول.

ورواه في الكامل ٨٠/٣.... فأجوز ثم أقول لا يعني.

وأنشده الأصمعي في الأصمعيات: ١٢٦ في قطعة خمسة أبيات نسبها لشاعر اسمه (شمر بن عمرو الحنفي).

(٤) عبد الله بن عتيك بن قيس بن الأسود الخزرجي الأنصاري، صحابي من القادة شهد أحداً وما بعدها. واستشهد يوم اليمامة في خلافة أبي بكر (إمتاع الأسماع ١/١٨٦، ١٨٧، الإصابة ١).

(٥) أبو رافع اليهودي، اسمه سلام بن أبي الحقيقي، قُتل في سنة (٣) للهجرة لأنه كان

أين^(١) هو من البيت فقلتُ: أبا رافع. فقال: مَنْ هذا؟ فأهويتُ نحو الصَّوْتِ فأضربُهُ بالسيف [٦٨ أ] وأنا دَهْشٌ. فكما أن «أضربُهُ» مضارعٌ قد عَطَفَهُ بالفاء على ماضٍ لأنه في المعنى ماضٍ كذلك يكون «أرهنهم» معطوفاً على الماضي قبله، وكما لا يُشَكُّ في أن المعنى في الخبر «فأهويتُ فضربتُ» كذلك يكون المعنى في البيت «نَجوتُ ورهنْتُ» إلا أنَّ الغرضَ في إخراجِه على لفظ الحال أن يحكي الحالَ في أحد الخبرين ويدعِ الآخرَ على ظاهره كما كان ذلك في:

وَلَقَدْ أَمَرْتُ عَلَى اللَّئِيمِ يُسَبِّحُنِي فَمَضَيْتُ

إلا أنَّ الماضي في هذا البيت مؤخَّرٌ معطوف وفي بيت ابن هَمَّام وما ذكرناه معه مقدَّمٌ معطوف عليه فاعرفه.

فإن دخلَ حرفُ نفي على المضارع تغيَّرَ الحكمُ فجاء بالواو وبترْكُها كثيراً وذلك مثلُ قولهم: كُنْتُ ولا أَخَشَى بالذنبِ^(٢). وقول مسكين الدَّارمي^(٣):

= يُظَاهِرُ كَعْبُ بْنُ الْأَشْرَفِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَبَعَثَ لَهُ الرَّسُولُ عَلَيْهِ السَّلَامُ جَمَاعَةً مِنَ الْأَنْصَارِ، وَكَانَ لَهُ حَصْنٌ بِأَرْضِ الْحِجَازِ، وَأَمَرَ عَلَيْهِمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَتِيكٍ فَقَتَلُوهُ فِي خَبَرٍ طَوِيلٍ.

- انظر: تاريخ الطبري ٤٩٣/٢ - ٤٩٩

(١) في (ط): آتَى، وهو تصحيف.

(٢) المثل «لَقَدْ كُنْتُ وما أَخَشَى بالذنب». فالْيَوْمَ قد قِيلَ: الذَّنْبُ الذَّنْبُ «أمثال الميداني ٢/ ١٨٠ رقمه ٣٢٥٧ قال الأصمعي: أصله أنَّ الرجلَ يطوُّلُ عمره فيخرف إلى أن يُخَوِّفَ بمجيءِ الذنب. وقال بعض العلماء: إنَّه لَقَبَاتُ بن أَشِيم الكنانِي.

(٣) البيت لمسكين الدارمي في (الأغاني ١٧٥/٢٠) والرواية:

كسبته الورق البيضُ أباً ولقد كان وما يُدعى لأب

ومسكين لقب غلب عليه، واسمه ربيعة بن أنيف من بني زيد مناة بن تميم، ولُقِّب مسكيناً في بيت شعر قاله:

* أنا مسكين لمن أنكرني *

له أخبار مع معاوية. وكان متصلاً بزياد بن أبيه. وجمع خليل العطية وعبد الله الجبوري شعره (الأغاني ١٦٧/٢٠ والشعر والشعراء ٥٤٤).

اَحْسَبْتُهُ الْوَرِقُ الْبَيْضُ اَبَاً وَلَقَدْ كَانَ وَلَا يُدْعَى لِأَب!

وقول مالك بن رُفيع وكان جَنَى جَنَايَةً فَطَلَبَهُ مُضَعَبُ بْنُ الزُّبَيْرِ^(١):

أَتَانِي مُضَعَبٌ وَيَنُوءُ أَبِيهِ فَأَيْنَ أَحَبُّهُ عَنْهُمْ لَا أَحَبُّ

أَقَادُوا مِنْ دَمِي وَتَوَعَّدُونِي وَكُنْتُ وَمَا يُنْهِنُهُنِي الْوَعِيدُ

«كان» في هذا كله تامةً والجملة الداخل عليها الواو في موضع الحال، ألا ترى أنَّ المعنى «وُجِدْتُ غيرَ خاشٍ للذئب. ولقد وُجِدَ غيرَ مدعوٍّ لأب. وَوُجِدْتُ غيرَ منهنَّ بالوعيد وغيرَ مبالٍ به» ولا معنى لجعلها ناقصةً وجعل الواو مزيدةً. وليس مَجِيءُ الفعل المضارع حالاً على هذا الوجه بعزير في الكلام، ألا تراك تقول: جعلتُ أمشي وما أدري أين أضعُ رجلي وجعل يقول: ولا يدري. وقال أبو الأسود^(٢):

يُصِيبُ وَمَا يَدْرِي

وهو شائع كثيراً.

(١) في (ذيل الأمالي: ١٢٧): «وأنشدنا الزبير بن بكار لمالك بن أخي رُفيع الأسدي قال: أنشدنيها محمد بن أنس الأسدي وكان صعلوكاً، فطلبه مضعب بن الزبير فهرب منه، وقال:

بَقَانِي مُضَعَبٌ وَيَنُوءُ أَبِيهِ فَأَيْنَ أَحَبُّ مِنْهُمْ لَا أَحَبُّ

أَسُودٌ بِالْحَجَازِ عَلَى أَسُودٍ خَوَادِرَ مَا تُنْهِنُهَا الْأَسُودُ

أَقَادُوا مِنْ دَمِي وَتَوَعَّدُونِي وَكُنْتُ وَمَا يُنْهِنُهُنِي الْوَعِيدُ

(٢) أبو الأسود الدؤلي: اسمه ظالم بن عمرو بن جندل من كنانة، والبيت بتمامه كما في (ديوانه: ٤٧):

يُصِيبُ فَمَا يَدْرِي وَيُخْطِي وَمَا دَرَى فَكَيْفَ يَكُونُ الثُّوكُ إِلَّا كَذَاكَ

والنوك: الحق. وفي ديوانه أنه قاله لعبد الرحمن بن فروخ مع بيت آخر. وفي (الأغاني ٣٢٩/١٢): جاء في قصيدة في خطاب الحصين بن أبي الحُرّ العنبري. وفي (معجم الشعراء ١٨٩) أنَّ الشعر لشاعر اسمه فُرات بن حيان ويقال إنه لأبي سفيان بن الحارث.

فأما مجيء المضارع منفياً حالاً من غير الواو فيكثر أيضاً وَيَحْسُنُ فمن ذلك قوله^(١): [٦٨ ب]

مَضَوْا لَا يُرِيدُونَ الرَّوَاحَ وَغَالَهُمْ

من الدَّهْرِ أَصَابُ جَرَيْنَ عَلَى قَدَرٍ

وقال أَرطاةُ بن سُهَيْتٍ وهو لطيفٌ جداً^(٢):

إِنْ تَلَقَّنِي لَا تَرَى غَيْرِي بِنَظَرَةٍ تَنْسُ السِّلَاحَ وَتَعْرِفُ جِبْهَةَ الْأَسَدِ

فقوله: «لا ترى»: في موضع حال. ومثله في اللطف والحسن قولُ أعشى هَمْدَانَ، وَصَحَبَ عَتَابَ بْنَ وَرْقَاءَ إِلَى أَصْبَهَانَ فَلَمْ يَحْمَدْهُ فَقَالَ^(٣):

(١) البيت الثاني من قطعة حماسية في خمسة أبيات لعكرشة العبسي يرثي بنيه (الحماسة مرزوقي ١٠٥٥/٣).

وعكرشة كنيته أبو الشَّئْبِ العبسي: شاعر من شعراء الدولة الأموية ذكره القالي في (الأمالي ٨٨/٢)، وفي (سمط اللآلي ٤٢٨/١) ذكر أن أبا الشَّئْبِ العبسي قال الأبيات في رثاء بني الزهراء، واسمه عكرشة العبسي وقيل يرثي بنيه.

(٢) أَرطاة بن سهية المرِّي، وسهية أمه، عُرف بها وهو شاعر فصيح معدود في طبقات الشعراء المعدودين من شعراء الإسلام في دولة بني أمية لم يسبقها ولم يتأخر عنها. (الأغاني ٢٧/١٣ - ٢٨، الشعر والشعراء ٢٥٥/١) والبيت من قصيدة قالها في شبيب بن البرصاء وقد قال شبيب:

«وددت أني جمعني وابن الأمة أَرطاة بن سهية يوم قتال فاشفي منه غيظي» فبلغ ذلك أَرطاة فقال القصيدة (الأغاني ٣٢/١٣ - ٣٤).

(٣) «وصحب - أي أعشى همدان - عتاب بن ورقاء إلى أصبهان». انظر (الأغاني ٤٣/٦ - ٤٤، البيان والتبيين ٢٣٦/٣ و ٥٠/٤) وفي الأغاني والبيان أن الشعر مَقُولٌ في خالد بن عتاب بن وَرْقَاءَ لما استعمل على أصبهان.

- أمّا أعشى همدان فاسمه عبد الرحمن بن عبد الله بن الحارث، ويكنى أبا المصباح، شاعر كوفي من شعراء الدولة الأموية، وكان زوج أخت الشعبي الفقيه، والشعبي زوج أخته، وهو أحد الفقهاء القراء ثم ترك ذلك وقال الشعر. وخرج مع ابن الأشعث فاتى به الحجاج أسيراً فقتله (الأغاني ٣٤/٦).

أتينا أضبَهانَ فَهَزَلْنَا وكنا قبلَ ذلك في نعيم
وكان سفاهَةً مِنِّي وجهلاً مَسِيرِي لا أَسِيرُ إلى حَمِيمٍ

قوله: لا أَسِيرُ إلى حَمِيمٍ. حالٌ من ضمير المتكلم الذي هو الياء في «مَسِيرِي» وهو فاعلٌ في المعنى فكأنه قال: وكان سفاهَةً مِنِّي وجهلاً أن سرْتُ غيرَ سائرٍ إلى حَمِيمٍ وأن ذهبتُ غيرَ متوجِّهٍ إلى قريبٍ. وقال خالد بن يزيد بن معاوية^(١):

لو أن قَوْمًا لا زِنْفَاعَ قَبِيلَةٍ دَخَلُوا السَّمَاءَ دَخَلْتُهَا لا أَحْبَبُ
وهو كثير إلا أنه لا يَهْتَدِي إلى وضعه بالموضع المرضي إلا مَنْ كان صحيحَ الطبع.

ومما يجيء بالواو وغير الواو الماضي وهو لا يقع حالاً إلّا مع «قد» مظهرَة أو مقدّرة، أمّا مجيئها بالواو فالكثيرُ الشائع كقولك: «أتاني وَقَدْ جَهَدَ السَّيْرُ» وأمّا بغير الواو فكقوله^(٢):

مَتَى أَرَى الصُّبْحَ قَدْ لَاحَتْ مَخَابِلُهُ واللَّيْلَ قَدْ مَرَّقَتْ عَنْهُ السَّرَابِلُ
وقول الآخر^(٣):

= والبيتان من قصيدة في (الأغاني ٦/ ٤٤) وليسا متتابعين بل بينهما عدة أبيات، والأول في (البيان والتبيين ٤/ ٥٠).

(١) قال الجاحظ في (البيان والتبيين ١/ ٣٢٨): «وكان خالد بن يزيد بن معاوية، خطيباً شاعراً، وفصيحاً جامعاً، وجيّد الرأي كثير الأدب، وكان أوّل من ترجم كتب النجوم والطب والكيمياء». توفي سنة ٨٥ هـ في دمشق وله أخبار في الأغاني ١٧/ ٢٥٨. وانظر وفيات الأعيان ٢/ ٢٢٤ - ٢٢٦

(٢) يعني خُندج بن خُندج، وهو شاعر إسلامي مُؤَلِّ من بني مرّة. (سمط اللّالي ١/ ٣٠٨). والبيت من قصيدة في الأمالي ١/ ٩٩، الحماسة (مرزوقي) ٤/ ١٨٢٨، وفي معجم البلدان (صول) ٣/ ٤٣٥ ومطلع القصيدة:

في ليل صُوبٍ تناهى العرضُ والطولُ كأنما صبَّحُه بالليل موصولُ

(٣) هو عبد الشّارق بن عبد العزى الجُهني كما في الحماسة (مرزوقي) ١/ ٤٤٢

فَأَبَوْا بِالرَّمَاكِ مَكْسَرَاتٍ وَأَبْنَا بِالسُّيُوفِ قَدْ انْحَزِنَا
وقال آخر وهو لطيف جداً^(١):

يَمْشُونَ قَدْ كَسَرُوا الْجُفُونَ إِلَى الْوَعَى مُتَبَسِّمِينَ وَفِيهِمْ اسْتَبْشَارُ
ومما يجيء بالواو في الأكثر الأشيع ثم يأتي في مواضع بغير الواو فيلطف
مكانه ويدل على البلاغة الجملة قد دخلها (ليس). تقول: أتاني وليس عليه ثوبٌ
ورأيتُه وليس معه غيره. فهذا هو المعروف المستعمل ثم قد جاء بغير الواو فكان
من الحُسن على ما ترى وهو قولُ الأعرابي^(٢): [٦٩]

لَنَا فَتَى وَاحِبٌ ذَا الْأَفْتَاءِ تَعْرِفُهُ الْأَرْسَانُ وَالذَّلَاءُ
إِذَا جَرَى فِي كَفِّهِ الرَّشَاءُ خَلَّى الْقَلْبِيبَ لَيْسَ فِيهِ الْمَاءُ^(٣)

ومما ينبغي أن يُراعى في هذا الباب أنك ترى الجملة قد جاءت حالاً بغير
واوٍ ويحسن ذلك ثم تنظر فتري ذلك إنما حسن من أجل حَرْفٍ دخلَ عليها،
مثالُه قولُ الفرزدق^(٤):

= والبيت من قصيدة حماسية هي إحدى المنصفات؛ وهي القصائد التي أنصف قائلوها
فيها أعداءهم. والبيت رقمه ١٩ في الحماسة (مرزوقي) ٤٤٩/١
والقصيدة أيضاً في الأشباه والنظائر للخالدين ١٥٢/١ وانظر حديثهما عن المنصفات
١٤٩/١ واسم الشاعر فيها (عبد الشارق بن عبد العزيز الجهني) والبيت رقمه ١٥ في
الخالدين ١٥٣/١ ومطلع المنصفة:

أَلَا حُبَيْتِ عَنَا يَا رَدِينَا نُخَيِّبُهَا وَإِنْ بَخِلْتُ عَلَيْنَا

- (١) البيت لأحد الخوارج يصف أصحابه (شعر الخوارج ١١٦) وفيه: «يمضون».
 - (٢) في (ط): وحبذا الإفتاء.
 - (٣) في (ط): ليس فيه ماء. وهو خطأ لمكان العروض. والأفتاء جمع فتى: وهو الشاب.
والأرسان: الحبال. والرشاء: حبال الدلو. والقلب: البثر.
 - (٤) الأبيات ليست في ديوانه ط (الصاوي).
- وجاء في (الشعر والشعراء ٤٧٣/١): ومكث الفرزدق زماناً لا يُؤلِّدُ له، فعيرته امرأته
التَّوَارُ بذلك فقال:

فَقُلْتُ عَسَى أَنْ تُبَصِّرَنِي كَأَنَّمَا بَنِيَّ حَوَالِيَّ الْأَسْوَدُ الْحَوَارِدُ

قوله: «كأنما بني» إلى آخره في موضع الحال من غير شبهة ولو أنك تَرَكْتَ «كَانَ» فقلت: عسى أن تبصريني بني حوالي كالأسود. رأيته لا يحسن حسنه الآن^(١) ورأيت الكلام يقتضي الواو كقولك: عسى أن تبصريني وبني حوالي كالأسود الحوارد.

وشبه بهذا أنك ترى الجملة قد جاءت حالاً بعقب مفرد فلطفت مكانها ولو أنك أردت أن تجعلها حالاً من غير أن يقدمها ذلك المفرد لم يحسن. مثال ذلك قول ابن الرومي^(٢):

وَالله يَبْقِيكَ لَنَا سَالِمًا بُرْدَاكَ تَبْجِيلٌ وَتَغْظِيمٌ

فقوله: بُرْدَاكَ تبجيل. في موضع حال ثانية ولو أنك أسقطت «سالمًا» من البيت فقلت: والله يبقيك برداك تبجيل. لم يكن شيئاً.

وإذ قد رأيت الجمل الواقعة حالاً قد اختلف بها الحال هذا الاختلاف الظاهر فلا بُدَّ من أن يكون ذلك إنما كان من أجل علل توجبه وأسباب تقتضيه فمحال أن يكون ههنا جملة لا تصح إلا مع الواو وأخرى لا تصلح فيها الواو وثالثة تصلح أن تجيء فيها بالواو وأن تدعها فلا تجيء بها، ثم لا يكون لذلك سبب وعلة، وفي الوقوف على العلة في ذلك إشكال وغموض. ذاك لأن الطريق إليه غير مسلولك والجهة التي منها تُعرف غير معروفة، وأنا أكتب لك أصلاً في الخبر إذا عرفته انفتح لك وجه العلة في ذلك.

= فَإِنَّ تَجِيئاً قَبْلَ أَنْ يَلِدَ الْحَصَى أقام زماناً وهو في الناس واحد
وقالت: أراه واحداً لا أخاً له يُؤمُّه في الوارثين الأباعد
لعلك يؤماً أن ترينني كأنما بني حوالي الأسود الحوارد

وانظر الخبر في عيون الأخبار ١٢٢/٤ - ١٢٣

والحوارد: المجتمع الخلق الشديدة الهيئة واحداً حارداً.

(١) في (ط): حسنه الأول.

(٢) ديوان ابن الرومي ٦/٢٣١٥ من قطعة مدح بها عبيد الله بن عبد الله.

واعلم أن الخبر ينقسم إلى خَبَرٍ هو جزء من الجملة لا تتم الفائدة دونهُ، وخبر ليس [٦٩ ب] بجزء من الجملة ولكنه زيادة في خبرٍ آخر سابقٍ له، فالأول خبرٌ المبتدأ كمنطوقٍ في قولك: زيدٌ منطلقٌ. والفعل كقولك: خرجَ زيدٌ. وكلُّ واحدٍ من هذين جزءاً من الجملة وهو الأصل في الفائدة. والثاني هو الحال كقولك: جاءني زيدٌ راكباً. وذلك لأن الحال خبرٌ في الحقيقة من حيثُ إنك تثبتُ بها المعنى الذي الحال كما تُثبتُ بالخبر للمبتدأ^(١)، وبالفعل للفاعل، ألا تراك قد أثبتتُ الركوبَ في قولك: جاءني زيدٌ راكباً، لزيدٍ إلا أن الفرقَ أنك جئتُ به لتزيدَ معنىً في إخبارك عنه بالمجيء وهو أن تجعله بهذه الهيئة في مجيئه ولم تجرّد إثباتك للركوب ولم تبأشِرْ به ابتداءً بل بدأتُ فأثبتتُ المجيء ثم وصلتُ به الركوبَ فالتبسَ به الإثباتُ على سبيلِ التبعِ لغيره؛ وبشرط أن يكونَ في صلته، وأمّا في الخبر المطلق نحو «زيدٌ منطلقٌ وخرجَ عمرو» فإنك أثبتتَ المعنى إثباتاً جرّدتَه له وجعلته يُبأشِرُهُ^(٢) من غير واسطة ومن غير أن تتسبب بغيره إليه.

وإذ قد عرفتَ هذا فاعلم أن كلَّ جملة وقعتُ حالاً ثم امتنعتُ من الواو فذاك لأجلِ أنك عمّدت إلى الفعل الواقع في صدرها فضممتَه إلى الفعل الأول في إثباتٍ واحدٍ وكلُّ جملة جاءتُ حالاً ثم اقتضتِ الواو فذاك لأنك مستأنفتُ بها خبراً وغيرُ قاصدٍ إلى أن تضمّها إلى الفعل الأوّل في الإثبات.

تفسير هذا أنك إذا قلتَ: جاءني زيدٌ يسرع [كانَ بمنزلة قولك: جاءني زيدٌ مسرعاً. في أنك تثبتُ مجيئاً فيه إسرأعاً]^(٣) وتصل أحدَ المعنيين بالآخر وتجعلُ الكلامَ خبراً واحداً وتريدُ أن تقولَ: جاءني كذلك وجاءني بهذه الهيئة. وهكذا قوله^(٤):

(١) في (أ): حيثُ إنك تُثبتُ بها المعنى ذي الحال كما تثبتُ لخبر المبتدأ. في (ط): حيثُ إنك تُثبتُ بها المعنى ذي الحال كما تثبتُ بالخبر للمبتدأ. في (ب): حيثُ إنك تثبتُ بها المعنى الذي الحال كما تثبتُ بالخبر للمبتدأ.

(٢) في (ط): تبأشِرْ. في (أ): مبأشِرْ. والمثبت من (ب).

(٣) ما بين معقوفتين سقط من (أ).

(٤) سبق البيت وتخريجهُ وهو لعلّمة الفحل.

وقد علّوتُ قُتودَ الرَّحْلِ يَسْفَعُنِي يَوْمَ قُدَيْدِيَمَةَ الْجَوَازِ مَسْمُومٌ
كانه قال: وَقَدْ عَلَوْتُ قُتودَ الرَّحْلِ بارِزاً للشمس ضاحياً. وكذلك قوله:

﴿مَتَى أَرَى الصُّبْحَ قَدْ لَاحَتْ مَخَايِلُهُ﴾^(١)

لأنه في معنى متى أرى الصبح بادياً لائحاً بيناً متجلياً وعلى [١٧٠] هذا القياس أبداً. وإذا قلت: جاءني وعلامه يسعى بين يديه ورأيتُ زيدا وسيفه على كتفه. كان المعنى على أنك بدأت فائتت المجيء والرؤية ثم استأنفت خبراً وابتدأت إثباتاً ثانياً لسعي الغلام بين يديه ولكون السيف على كَتِفِهِ. ولَمَّا كان المعنى على استئناف الإثبات احتيج إلى ما يربط الجملة الثانية بالأولى فجاء بالواو كما جاء بها في قولك: زيدٌ منطلقٌ وعمرو ذاهبٌ والعلمُ حسنٌ والجهلُ قبيحٌ. وتسميتنا لها (واو الحال) لا يخرجها عن أن تكون مجتلبة لضمّ جملة إلى جملة. ونظيرها في هذا الفاء في جواب الشرط نحو «إن تأتني فانت مُكْرَمٌ» فإنها وإن لم تكن عاطفة فإن ذلك لا يخرجها من أن تكون بمنزلة العاطفة في أنها جاءت لتربط جملة ليس من شأنها أن ترتبط بنفسها فاعرف ذلك ونزل الجملة في نحو «جاءني زيدٌ يسرعُ وقد علّوتُ قُتودَ الرَّحْلِ يَسْفَعُنِي يومٌ» منزلة الجزاء الذي يستغني عن الفاء لأن من شأنه أن يرتبط بالشرط من غير رابط وهو قولك: إن تُعْطِنِي أَشْكُرْكَ. ونزل الجملة في «جاءني زيد وهو راكب» منزلة الجزاء الذي ليس من شأنه أن يرتبط بنفسه ويحتاج إلى الفاء كالجملة في نحو «إن تأتني فانت مُكْرَمٌ» قياساً سوياً وموازنة صحيحة.

فإن قلت: قد عَلِمْنَا أَنَّ عِلَّةَ دُخُولِ الْوَائِ عَلَى الْجُمْلَةِ أَنْ تَسْتَأْنِفَ الْإِثْبَاتَ وَلَا تَصِلَ الْمَعْنَى الثَّانِي بِالْأَوَّلِ فِي إِثْبَاتٍ وَاحِدٍ وَلَا تُنْزِلَ الْجُمْلَةَ مَنْزِلَةَ الْمَفْرَدِ، وَلَكِنْ بَقِيَ أَنْ تَعْلَمَ لِمَ كَانَ بَعْضُ الْجُمْلِ بِأَنْ يَكُونَ تَقْدِيرُهَا تَقْدِيرَ الْمَفْرَدِ فِي أَنْ لَا يُسْتَأْنَفَ بِهَا الْإِثْبَاتُ أَوَّلَى مِنْ بَعْضٍ؟ وَمَا الَّذِي مَنَعَ فِي قَوْلِكَ: [٧٠ ب] جَاءَنِي زَيْدٌ وَهُوَ يَسْرَعُ أَوْ وَهُوَ مَسْرَعٌ، أَنْ يَدْخُلَ الْإِسْرَاعُ فِي صِلَةِ الْمَجِيءِ

(١) شطر من بيت سبق هو لَحْنُجْجُجْ بِنِ حُنْجُجْ.

وِيُضَامُّهُ فِي الْإِثْبَاتِ كَمَا كَانَ ذَلِكَ حِينَ قُلْتُ: جَاءَنِي زَيْدٌ يَسْرَعُ؛ فَالْجَوَابُ أَنَّ السَّبَبَ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْمَعْنَى فِي قَوْلِكَ: جَاءَنِي زَيْدٌ وَهُوَ يَسْرَعُ؛ عَلَى اسْتِثْنَاءِ إِبْثَاتِ لِلسَّرْعَةِ وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ فِي «جَاءَنِي زَيْدٌ يَسْرَعُ» وَذَلِكَ أَنَّكَ إِذَا أَعَدْتَ ذَكَرَ زَيْدٍ فَجِئْتَ بِضَمِيرِهِ الْمَنْفَصِلِ الْمَرْفُوعِ كَانَ بِمَنْزِلَةِ أَنْ تُعِيدَ اسْمُهُ صَرِيحاً فَتَقُولَ: «جَاءَنِي»^(١) زَيْدٌ وَزَيْدٌ يَسْرَعُ» فِي أَنَّكَ لَا تَجِدُ سَبِيلاً إِلَى أَنْ تُدْخِلَ «يَسْرَعُ» فِي صَلَةِ الْمَجِيءِ وَتَضُمَّهُ إِلَيْهِ فِي الْإِثْبَاتِ وَذَلِكَ أَنْ إِعَادَتَكَ ذَكَرَ زَيْدٍ لَا تَكُونُ حَتَّى تَقْصِدَ اسْتِثْنَاءَ الْخَبَرِ عَنْهُ بِأَنَّهُ يَسْرَعُ وَحَتَّى تَبْتَدِئَ إِثْبَاتاً لِلسَّرْعَةِ لِأَنَّكَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ ذَلِكَ تَرَكْتَ الْمَبْتَدَأَ الَّذِي هُوَ ضَمِيرُ زَيْدٍ أَوْ اسْمُهُ الظَّاهِرُ بِمَضْيَعَةٍ^(٢) وَجَعَلْتَهُ لَغَوّاً فِي الْبَيِّنِ وَجَرَى مَجْرَى أَنْ تَقُولَ: جَاءَنِي زَيْدٌ وَعَمَرُو يَسْرَعُ أَمَامَهُ. ثُمَّ تَزْعُمُ أَنَّكَ لَمْ تَسْتَأْنِفْ كَلَاماً وَلَمْ تَبْتَدِئَ لِلسَّرْعَةِ إِثْبَاتاً وَأَنَّ حَالَ «يَسْرَعُ» هَهُنَا حَالُهُ إِذَا قُلْتَ: جَاءَنِي زَيْدٌ يَسْرَعُ. فَجَعَلْتَ السَّرْعَةَ لَهُ وَلَمْ تَذْكُرْ عَمراً وَذَلِكَ مُحَالٌ.

فَإِنْ قُلْتَ إِنَّمَا اسْتِحَالَ فِي قَوْلِكَ: جَاءَنِي زَيْدٌ وَعَمَرُو يَسْرَعُ أَمَامَهُ؛ أَنْ تَرُدَّ «يَسْرَعُ» إِلَى زَيْدٍ وَتُنْزِلَهُ مَنْزِلَةَ قَوْلِكَ: جَاءَنِي زَيْدٌ يَسْرَعُ؛ مِنْ حَيْثُ كَانَ فِي «يَسْرَعُ» ضَمِيرٌ لِعَمَرُو، وَتَضُمَّتْهُ ضَمِيرَ عَمَرُو يَمْنَعُ أَنْ يَكُونَ لَزِيدٍ وَأَنْ يُقَدَّرَ حَالاً لَهُ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ «جَاءَنِي زَيْدٌ وَهُوَ يَسْرَعُ» لِأَنَّ السَّرْعَةَ هُنَاكَ لَزِيدٍ لَا مُحَالَةً فَكَيْفَ سَاعَ أَنْ تَقِيسَ إِحْدَى الْمَسْأَلَتَيْنِ عَلَى الْأُخْرَى؟ قِيلَ: لَيْسَ الْمَانِعُ أَنْ يَكُونَ يَسْرَعُ فِي قَوْلِكَ: جَاءَنِي زَيْدٌ وَعَمَرُو يَسْرَعُ أَمَامَهُ حَالاً مِنْ زَيْدٍ أَنَّهُ فَعَلَ لِعَمَرُو فَإِنَّكَ لَوْ أَخَّرْتَ عَمراً فَرَفَعْتَهُ بِ «يَسْرَعُ» وَأَوَّلَيْتَ «يَسْرَعُ» زَيْداً فَقُلْتَ: جَاءَنِي زَيْدٌ يَسْرَعُ عَمَرُو أَمَامَهُ. وَجَدْتَهُ قَدْ صَلَحَ حَالاً لَزِيدٍ مَعَ أَنَّهُ فَعَلَ لِعَمَرُو وَإِنَّمَا الْمَانِعُ مَا عَرَّفْتُكَ مِنْ أَنَّكَ تَدْعُ عَمراً بِمَضْيَعَةٍ وَتَجِيءُ بِهِ مَبْتَدَأً ثُمَّ لَا تُعْطِيهِ خَبِراً. وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى فُسَادِ ذَلِكَ أَنَّهُ يُوْدِي إِلَى أَنْ يَكُونَ «يَسْرَعُ» قَدْ اجْتَمَعَ فِي مَوْضِعِهِ النِّصْبُ وَالرَّفْعُ وَذَلِكَ أَنْ جَعَلَهُ حَالاً مِنْ زَيْدٍ يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ فِي مَوْضِعِ نِصْبٍ [١٧١] وَجَعَلَهُ خَبِراً عَنْ عَمَرُو الْمَرْفُوعِ بِالْإِبْتِدَاءِ يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ فِي مَوْضِعِ رَفْعٍ وَذَلِكَ بَيِّنٌ

(١) فِي (ب): جَاءَ.

(٢) الْمَضْيَعَةُ - بِكَسْرِ الضَّادِ - مَفْعُولَةٌ مِنَ الضِّيَاعِ وَالْإِطْرَاحِ وَالْهُوَانِ (اللِّسَانُ: ضِيْع).

التدافع ولا يجب هذا التدافع إذا أخرت عمراً فقلت: جاءني زيد يسرعُ عمرو أمامه. لأنك [حينئذ] ^(١) ترفعه بـ «يسرع» على أنه فاعلٌ له وإذا ارتفع به لم يوجب في موضعه إعراباً فيبقى مُفْرَغاً لأن يقدَّرَ فيه النصبُ على أنه حالٌ من زيد وجَرى مَجْرَى أن تقول: جاءني زيد مسرعاً عمرو أمامه.

فإن قلت: فقد ينبغي على هذا الأصل أن لا تجيء جملةً من مبتدأ وخبرٍ حالاً إلا مع الواو وقد ذكرت قَبْلُ أنَّ ذلك قد جاء في مواضع من كلامهم؛ فالجواب أنَّ القياسَ والأصلَ أن لا تجيء جملةً من مبتدأ وخبرٍ حالاً إلا مع الواو وأما الذي جاء من ذلك فسيبيلُهُ سبيلُ الشيء يَخْرُجُ عن أصله وقياسه والظاهر فيه بضربٍ من التأويل ونوعٍ من التشبيه فقولهم: «كلمته فوه إلى في»، إنما حَسُنَ بغير واو من أجل أنَّ المعنى كلمته مشافهاً له. وكذلك قولهم: «رجع عوده على بذنه» إنما جاء الرفعُ فيه والابتداء من غير واو لأن المعنى رجع ذاهباً في طريقه الذي جاء فيه. وأما قوله: وجدته حاضراً الجود والكرم. فلأنَّ تقديم الخبر الذي هو «حاضراً» يجعله كأنه قال: وجدته حاضراً عنده الجود والكرم. وليس الحملُ على المعنى وتنزيل الشيء منزلةً غيره بعزیز في كلامهم وقد قالوا: زيد اضربه فأجازوا أن يكونَ مثالُ الأمر في موضع الخبر لأن المعنى على النصب نحو «اضرب زيدا» ووَضَعُوا ^(٢) الجملةً من المبتدأ والخبر موضعَ الفعل والفاعل في نحو قوله تعالى: ﴿أَدْعَوْهُمْ أَن آتُوا﴾ ^(٣) «أدعوتهم أم آتت صمئون» [الأعراف: ١٩٣/٧] لأن الأصلَ في المعادلة أن تكونَ الثانيةُ كالأولى نحو «أدعوتهم أم صمئتم» ويدل على أن ليس مجيء الجملة من المبتدأ والخبر حالاً بغير الواو أصلاً قِلَّتُهُ وأنه ^(٣) لا يجيء إلا في الشيء بعد الشيء، هذا ويجوزُ أن يكونَ [٧١ ب] ما جاء من ذلك إنما جاء على إرادة الواو كما جاء الماضي على إرادة «قد».

(١) ما بين معقوفتين سقط من (ط).

(٢) في (ب): وضع، في (أ): ووضَعَ.

(٣) في (ب): فإنه.

واعلم أنَّ الوجة فيما كان مثل قول بشار:

❁ خَرَجْتُ مَعَ الْبَازِي عَلَيَّ سَوَادٌ ❁

أَنْ يُؤْخَذَ فِيهِ بِمَذْهَبِ أَبِي الْحَسَنِ الْأَخْفَشِ^(١) فَيُرْفَعَ «سَوَادٌ» بِالظَّرْفِ دُونَ الْإِبْتِدَاءِ وَيَجْرِي الظَّرْفُ هَهُنَا مَجْرَاهُ إِذَا جَرَتْ الْجُمْلَةُ صِفَةً عَلَى النِّكْرَةِ نَحْوُ^(٢) «مَرَرْتُ بِرَجُلٍ مَعَهُ صَقْرٌ صَائِدٌ بِهِ غَدًا» وَذَلِكَ أَنَّ صَاحِبَ الْكِتَابِ^(٣) يُوَافِقُ أَبَا الْحَسَنِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ فَيَرْفَعُ «صَقْرٌ» بِمَا فِي «مَعَهُ» مِنَ الْفِعْلِ فَلِذَلِكَ يَجُوزُ أَنْ يُجْرِيَ الْحَالُ مَجْرَى الصِّفَةِ فَيَرْفَعُ الظَّاهِرَ بِالظَّرْفِ^(٤) إِذَا هُوَ جَاءَ حَالًا فَيَكُونُ ارْتِفَاعُ «سَوَادٌ» بِمَا فِي «عَلَيَّ» مِنْ مَعْنَى الْفِعْلِ لَا بِالْإِبْتِدَاءِ، ثُمَّ يَنْبَغِي أَنْ يُقَدَّرَ هَهُنَا خُصُوصًا أَنَّ الظَّرْفَ فِي تَقْدِيرِ اسْمِ فَاعِلٍ لَا فِعْلٍ أَعْنِي أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى «خَرَجْتُ كَائِنًا عَلَيَّ سَوَادٌ أَوْ بَاقِيًا عَلَيَّ سَوَادٌ» [وَلَا يُقَدَّرُ «يَكُونُ سَوَادٌ عَلَيَّ وَيَبْقَى عَلَيَّ سَوَادٌ»]^(٥) اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ تَقَدَّرَ فِيهِ فِعْلًا مَاضِيًا مَعَ «قَدْ» كَقَوْلِكَ: خَرَجْتُ مَعَ الْبَازِي قَدْ بَقِيَ عَلَيَّ سَوَادٌ. وَالْأَوَّلُ أَظْهَرُ. وَإِذَا تَأَمَّلْتَ الْكَلَامَ وَجَدْتَ الظَّرْفَ وَقَدْ وَقَعَ مَوَاقِعَ لَا يَسْتَقِيمُ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَقَدَّرَ تَقْدِيرَ اسْمِ فَاعِلٍ وَلِذَلِكَ قَالَ أَبُو بَكْرُ بْنُ السَّرَّاجِ^(٦) فِي قَوْلِنَا: زَيْدٌ فِي الدَّارِ: إِنَّكَ مَخِيرٌ بَيْنَ أَنْ تَقَدَّرَ فِيهِ فِعْلًا فَتَقُولَ:

(١) الْأَخْفَشُ سَقَطَ مِنْ (ب).

وهو الأخفش الأوسط سعيد بن مسعدة يُكنى أبا الحسن. والمشهورون بهذا اللقب من علماء العربية ثلاثة: أولهم أبو الخطاب عبد الحميد بن عبد المجيد من أوائل علماء البصرة، وهو الأخفش الأكبر. والثاني وقد عُرف بالأخفش الأوسط وهو سعيد بن مسعدة المعروف بأبي الحسن. توفي ٢١٥ هـ. والثالث هو أبو الحسن علي بن سليمان المتوفى سنة ٣١٥ هـ وهو الأخفش الأصغر (انظر إنباه الرواة ٣٦/٢ - ٤٣ - ٢٧٦).

(٢) فِي (ب): تَقُولُ.

(٣) يَعْنِي سَبِيوَهُ.

(٤) بِالظَّرْفِ سَقَطَتْ مِنْ (ب).

(٥) مَا بَيْنَ مَعْقُوفَتَيْنِ سَقَطَ مِنْ (أ).

(٦) ابْنُ السَّرَّاجِ سَقَطَتْ مِنْ (أ) وَ (ب).

وهو أبو بكر محمد بن السري بن سهل المتوفى ٣١١ هـ أحد أئمة الأدب والعربية. إنباه الرواة ١٤٦/٣.

استقرّ في الدارِ وبينَ أن تقدّرَ اسمَ فاعلٍ فتقولَ: مستقرّ في الدارِ. وإذا عاد الأمرُ إلى هذا كان الحالُ في تركِ الواو ظاهرةً وكان «سوادٌ» في قوله: خرجتُ مع البازي عليّ سوادٌ بمنزلة قضاء الله في قوله^(١):

سَأَغِيلُ عَنِّي الْعَارَ بِالسَّيْفِ جَالِباً عَلَيَّ قَضَاءَ اللَّهِ مَا كَانَ جَالِباً^(٢)

في كونه اسماً ظاهراً قد ارتفع باسم فاعل قد اعتمد على ذي حال فعَمِلَ عَمَلَ الْفِعْلِ. ويدلُّك على أن التقديرَ فيه ما ذكرتُ وأنه من أَجْلِ ذلكَ حَسُنَ أنك تقولَ: جاءني زيدٌ والسيفُ على كَتِفِهِ وخرَجَ والتَّاجُ عليه. فتجذّه لا يَحْسُنُ إِلَّا بالواو وتعلمُ أنك لو قلتَ: جاءني زيدُ السيفِ على [٧٢] كَتِفِهِ وَخَرَجَ التَّاجُ عليه. كان كلاماً نافراً لا يكاد يقعُ في الاستعمال، وذلك لأنه بمنزلة قولك: جاءني وهو متقلِّدٌ سيفه وخرَجَ وهو لابسُ التَّاجِ. في أَنَّ المعنى على أنك استأنفت كلاماً وابتدأت إثباتاً وأنك لم تُردِّ: جاءني كذلك. ولكن «جاءني وهو كذلك» فاعرفه.



-
- (١) يعني سعد بن ناشب العنبري، شاعر إسلامي، كان من شياطين العرب وهو صاحب يوم الوقيط في الإسلام بين تميم وبكر بن وائل. (الشعر والشعراء ٦٩٦).
- والبيت مطلع قصيدة حماسية. انظر الحماسة (مرزوقي) ٦٧/١
- (٢) سقط البيت من (ب).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١)

القول في الفصل والوصل

اعلم أنَّ العلمَ بما ينبغي أن يُصنَعَ في الجملِ من عطفٍ بعضها على بعضٍ أو تركِ العطفِ فيها والمجيءِ بها منثورةً تُستأنَفُ واحدةً منها بعد أخرى من أسرارِ البلاغةِ ومما لا يتأتَّى (٢) لتمامِ الصوابِ فيه إلَّا الأعرابُ الخُلصُ وإلَّا قَوْمٌ طَبِعُوا على البلاغةِ وأوتوا فتناً مِنَ المعرفةِ في ذوقِ الكلامِ هم بها أفرادٌ وقد بلغَ من قوةِ الأمرِ في ذلك أنهم جعلوه حَدّاً للبلاغةِ فقد جاءَ عَنْ بعضهم (٣) أنه سُئِلَ عنها فقال: مَعْرِفَةُ الْفَصْلِ مِنَ الْوَصْلِ. ذاكَ لغموضِهِ ودقَّةِ مَسْلَكِهِ وأنه لا يَكْمُلُ لإحرازِ الفضيلةِ فيه أحدٌ إلَّا كَمَلَ لسائرِ معاني البلاغةِ.

واعلم أنَّ سبيلَنَا أن ننظرَ إلى فائدةِ العطفِ في المُفردِ ثم نَعُدَّ إلى الجملةِ فننظرَ فيها ونتعرفَ حالَهَا. ومعلومٌ أنَّ فائدةَ العطفِ في المفردِ أن يُشْرَكَ الثاني في إعرابِ الأوَّلِ وأنه إذا أُشْرَكَ في إعرابه فقد أُشْرَكَ في حُكْمِ ذلك الإعرابِ نحو أنَّ المعطوفَ على المرفوعِ بأنه فاعلٌ مثلهُ والمعطوفُ على المنصوبِ بأنه

(١) البسمة ليست في (ب).

(٢) في (ط): يأتي.

(٣) في البيان والتبيين ١/ ٨٨: «قيل للفراسي: ما البلاغة؟ قال: معرفة الفصل والوصل».

- قال المراغي: إنه أبو علي الفارسي وهذا خطأ لأنَّ أبا علي الفارسي توفي ٣٧٧ هـ - بينما توفي الجاحظ ٢٥٥ هـ فمحال أن ينقل الجاحظ عن أبي علي الفارسي.

مفعولٌ به أو فيه أو له؛ شريكٌ له في ذلك، وإذا كان هذا أصله في المفرد فإنَّ الجمل المعطوفَ بعضها على بعضٍ على ضربين: أحدهما أن يكونَ للمعطوفِ عليها موضعٌ من الإعراب، وإذا كانت كذلك كانَ حكمُها حكمَ المفردِ إذ لا يكونَ للجملة موضعٌ من الإعراب حتى تكونَ واقعةً موقعَ المفرد، وإذا كانت الجملةُ الأولى واقعةً موقعَ المُفْرَدِ كانَ عطْفُ الثانيةِ عليها جارياً مَجْرَى عطْفِ المفردِ وكان وجهُ الحاجةِ إلى الواو ظاهراً والإشراكُ بها في الحُكْمِ موجوداً. فإذا قلتَ: مررتُ برجلٍ خُلِقَ حَسَنٌ وَخُلِقَ قَبِيحٌ. كنتَ قد أشركتَ [٧٢ ب] الجملةُ الثانيةُ في حُكْمِ الأولى وذلك الحكمُ كونُها في موضعٍ جرٍّ بأنَّها صفةٌ للنكرة. ونظائرُ ذلك تكثرُ، والأمرُ فيها يسهلُ.

والذي يشكُلُ أمرُه، هو الضربُ الثاني وذلك أن تَعَطَّفَ على الجملةِ العاريةِ الموضعَ من الإعرابِ جملةً أخرى كقولك: زيدٌ قائمٌ وعمرو قاعدٌ والعِلْمُ حسنٌ والجهلُ قبيحٌ. لا سبيلَ لنا إلى أن ندَّعي أن الواو أشركتِ الثانيةَ في إعرابٍ قد وَجَبَ للأولى بوجهٍ من الوجوه. وإذا كان كذلك فينبغي أن تعلمَ المطلوبَ مِنْ هذا العطْفِ والمغزى منه وَلِمَ لَمْ يَسْتَوِ الحالُ بينَ أن تَعَطَّفَ وَيَنْ أَنْ تَدَّعِ العطْفَ فتقولَ: زيدٌ قائمٌ وعمرو قاعدٌ. بعد أن لا يكونَ هنا أمرٌ معقولٌ يؤتى بالعاطفِ لِيشْرَكَ بين الأولى والثانيةِ فيه.

واعلم أنه إنما يَعرِضُ الإشكالُ في الواو دونَ غيرها مِنْ حروفِ العطْفِ، وذلك لأن تلكَ تفيذُ مع الإشراكِ معانيَ مثلَ أنَّ الفاءَ توجِبُ الترتيبَ مِنْ غيرِ تراخٍ و (ثم) توجِبُ مَعَ تراخٍ و (أو) تردُّ الفعلَ بينَ شيئينِ وتجعله لأحدهما لا لِبيْنِهِ، فإذا عطفتُ بواحدٍ منها الجملةَ على الجملةِ ظهرتِ الفائدةُ، فإذا قلتَ: أعطاني فشكرتُه؛ ظهرَ بالفاءِ أنَّ الشكرَ كانَ مُعَقِّباً على العطاءِ ومسبباً عنه. وإذا قلتَ: خرجتُ ثم خرجَ زيدٌ. أفادت (ثم) أن خروجه كانَ بَعْدَ خروجِكَ وأن مُهْلَةً وقعتَ بينهما. وإذا قلتَ: يعطيكَ أو يكسوكَ. دلَّت (أو) على أنه يفعلُ واحداً منهما لا بِعَيْنِهِ. وليس للواو معنىً سوى الإشراكِ في الحكمِ الذي يَقْتَضِيهِ الإعرابُ الذي أتبعَت فيه الثاني الأولَ. فإذا قلتَ: جاءني زيدٌ وعمرو. لم تُفِذْ

بالواو شيئاً أكثر من إشراك عمرو في المجيء الذي أثبتّه لزيد والجمع بينه وبينه، ولا يُتصوّر إشراك بين شيئين حتّى يكون هناك معنى يقع ذلك الإشراك فيه. وإذا كان ذلك كذلك ولم يكن مَعْنَا في قولنا: زيد قائم وعمرو قاعدٌ، معنى تزعم أن الواو أشركت بين هاتين الجملتين فيه ثبت [٧٣] إشكال المسألة.

ثم إن الذي يوجبُه النظر والتأمل أن يقال في ذلك: إنا وإن كنّا إذا قلنا: زيد قائم وعمرو قاعدٌ. فإننا لا نرى ههنا حكماً نزعاً أن الواو جاءت للجمع بين الجملتين فيه، فإننا نرى أمراً آخر نحصلُ معه على معنى الجمع وذلك أنا^(١) لا نقول: زيد قائم وعمرو قاعد، حتى يكون عمرو بسبب من زيد وحتى يكونا كالنظيرين^(٢) والشريكين وبحيث إذا عرف السامع حال الأول عنه أن يعرف حال الثاني. يدلك على ذلك أنك إن جئت فعطفت على الأول شيئاً ليس منه بسبب ولا هو مما يُذكرُ بذكره ويتصلُ حديثه بحديثه لم يستقم، فلو قلت: خرجت اليوم من داري. ثم قلت: وأحسن الذي يقول بيت كذا. قلت ما يضحك منه. ومن ههنا عابوا أبا تمام في قوله^(٣):

لا والذي هو عالم أن النوى صير وأن أبا الحسين كريم

وذلك لأنه لا مناسبة بين كرم أبي الحسين ومرارة النوى ولا تعلّق لأحدهما بالآخر وليس يقتضي الحديث بهذا الحديث بذاك.

واعلم أنه كما يجب أن يكون المحدث عنه في إحدى الجملتين بسبب من المحدث عنه في الأخرى كذلك ينبغي أن يكون الخبر عن الثاني مما يجري مجرى الشبيه والنظير أو النقيض للخبر عن الأول فلو قلت: زيد طويل القامة وعمرو شاعرٌ. كان خُلُفاً لأنه لا مشاكلة ولا تعلّق بين طول القامة وبين الشعر وإنما الواجب أن يقال: زيد كاتبٌ وعمرو شاعرٌ وزيد طويل القامة وعمرو قصيرٌ.

(١) في (ط): أن.

(٢) في (ب): بالنظيرين.

(٣) ديوان أبي تمام ٢٩٠/٣ من قصيدة في مدح محمد بن الهيثم بن شبانة.

وجملة الأمر أنها لا تجيء حتى يكون المَعْنَى في هذه الجملة لَفَقاً للمعنى في الأخرى ومُضاماً له، مثل أن زيداً وعمراً إذا كانا أخوين أو نظيرين أو مشتبكي الأحوال على الجملة كانت الحال التي يكون عليها أحدهما من قيام أو قعود أو ما شاكل ذلك مضمومة في النفس إلى الحال التي عليها الآخر من غير شك، وكذا السبيلُ أبداً والمعاني في ذلك كالأشخاص فإنما قلت مثلاً: العلمُ حسنٌ والجهلُ قبيحٌ. لأنَّ كونَ العلمِ حسنًا مضمومٌ في القولِ إلى [٧٣ ب] كونِ الجهلِ قبيحاً.

واعلم أنه إذا كان المخبر عنه في الجملتين واحداً كقولنا: هو يقولُ ويفعلُ وَيَضُرُّ وَيَنْفَعُ وَيُسِيءُ وَيُحْسِنُ وَيَأْمُرُ وَيَنْهَى وَيَحُلُّ وَيَعْقِدُ وَيَأْخُذُ وَيُعْطِي وَيَبِيعُ وَيَشْتَرِي وَيَأْكُلُ وَيَشْرَبُ، وأشبه ذلك، ازداد معنى الجمع في الواو قوةً وظهوراً، وكان الأمر حينئذٍ صريحاً، وذلك أنك إذا قلت: هو يَضُرُّ وينفعُ. كنت قد أفدت بالواو أنك أوجبت له الفعلين جميعاً وجعلته يفعلهما معاً. ولو قلت: يَضُرُّ ينفعُ. من غير واو لم يجب ذلك بل قد يجوز أن يكون قولك: «ينفعُ» رجوعاً عن قولك: «يضرُّ» وإبطالاً له. وإذا وقع الفعلان في مثل هذا في الصلة ازداد الاشتباك والاقتران حتى لا يتصور تقديرُ إفرادٍ في أحدهما عن الآخر وذلك في مثل قولك: العَجَبُ من أني أحسنتُ وأساءتُ ويكفيك ما قُلْتُ وسمعتُ وأيحسنُ أن تنهى عن شيء وتأتي مثله. وذلك أنه لا يشبه على عاقل أن المعنى على جعلِ الفعلين في حكمِ فعلٍ واحد. ومنَ البين في ذلك قوله^(١):

(١) البيت للفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب، وكان أحد شعراء بني هاشم المذكورين وفصحائهم، وكان شديد الأذمة. الأغاني ١٦/١٩٩

والبيت في عيون الأخبار ١/٢١٣ في خبر لزيد بن علي مع هشام بن عبد الملك وفيه:

مهلاً بني هَمْنَا عن نحت أثَلْتَنَا سيروا رويداً كما كنتم تسبِرونا
لا تجمعوا أن تُهينونا وتُكرمكم وأن نَكْفُ الأذى عنكم وتودونا
فالله يعلم أننا لا نحبككم ولا نلومكم ألا تحبونا

وجاءت في العقد ٢/٣٢٨ بدون نسبة.

وقد نسب المبرد في الكامل ٤/٤٦ البيت الأول من القطعة للفضل بن العباس.

لَا تَطْمَعُوا أَنْ تُهَيِّنُونَا وَنُكْرِمَكُمُ وَإِنْ نَكُفَّ الْأَذَى عَنْكُم وَتَوَدُّونَا!

المعنى لا تطمعوا أن تروا إكرامنا وقد وجد مع إهانتكم وجامعها في الحصول. ومما له مأخذ لطيف في هذا الباب قول أبي تمام^(١):

لَهَانَ عَلَيْنَا أَنْ نَقُولَ وَتَفْعَلَا وَنَذْكُرَ بَعْضَ الْفَضْلِ مِنْكَ وَتُفْضِلَا

واعلم أنه كما كان في الأسماء ما يصله معناه بالاسم قبله فيستغني بصلته معناه له عن واصل يصله وربط يربطه - وذلك كالصفة التي لا تحتاج في اتصالها بالموصوف إلى شيء يصلها به، وكالتأكيد الذي يفتقر كذلك إلى ما يصله بالموكّد - كذلك يكون في الجمل ما تتصل من ذات نفسها بالتي قبلها وتستغني بربط معناها لها عن حرف عطف يربطها، وهي كل جملة كانت مؤكدة للتي قبلها ومبيّنة لها وكانت إذا حُصّلت لم تكن شيئاً سواها كما [١٧٤] لا تكون الصفة غير الموصوف والتأكيد غير المؤكّد، فإذا قلت: جاءني زيد الظريف وجاءني القوم كلهم لم يكن «الظريف» و «كلهم» غير زيد وغير القوم.

ومثال ما هو من الجمل كذلك قوله تعالى: ﴿الْعَمَّ ۝ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢/١-٢]^(٢) قوله: «لَا رَيْبَ فِيهِ» بيان وتوكيد وتحقيق لقوله: «ذلك الكتاب» وزيادة تثبيت له وبمنزلة أن تقول: هو ذلك الكتاب هو ذلك الكتاب، فتعيده مرة ثانية لتثبته، وليس تثبيت الخبر غير الخبر، ولا بشيء^(٣) يتميز به^(٤) عنه فيحتاج إلى ضام يضمه إليه وعاطف يعطفه عليه. ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٢/٦-٧] قوله تعالى: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ تأكيد لقوله: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ وقوله: ﴿خَتَمَ اللَّهُ

(١) ديوان أبي تمام ٩٨/٣ مطلع قصيدة في مدح محمد بن عبد الملك الزيات وبعثته.

(٢) والآيتان في سياقهما: ﴿الْعَمَّ ۝ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾.

(٣) في (ط): ولا شيء. في (ط): وليس يثبت.

(٤) به: ليست في (أ) ولا في (ب).

عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ» تأكيد ثانٍ أبلغ من الأول لأن من كان حاله إذا أُنذِرَ مثل حاله إذا لم يُنذَرِ كان في غاية الجهل وكان مطبوعاً على قلبه لا محالة. وكذلك قوله عز وجل: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتِيهِمُ الْآخِرُ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨/٢-٩] ^(١) إنما قال ^(٢): «يخادعون» ولم يقل «ويخادعون» لأن هذه المخادعة ليست شيئاً غير قولهم: «آمنا» من غير أن يكونوا مؤمنين فهو إذن كلامٌ أكَّد به كلام آخر هو في معناه، وليس شيئاً سواه، وهكذا قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنُوا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُونَ﴾ [البقرة: ١٤/٢] وذلك لأن معنى قولهم: «إنا معكم» أنا لم نؤمن بالنبي ﷺ ولم نترك اليهودية. وقولهم: «إنما نحن مستهزؤون» خبر بهذا المعنى بعينه لأنه لا فرق بين أن يقولوا: إنا لم نُقل ما قلناه من أننا آمنا إلا استهزاء. وبين أن يقولوا: إنا لم نخرج من دينكم وإننا [٧٤ ب] معكم. بل هما في حكم الشيء الواحد، فصار كأنهم قالوا: إنا معكم لم نفارقكم. فكما لا يكون (إنا لم نفارقكم) شيئاً غير (إنا معكم) كذلك لا يكون (إنما نحن مستهزؤون) غيره فاعرفه.

ومن الواضح البين في هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ثَلَّثَ عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنِهِ قِرَاطًا﴾ [لقمان: ٧/٣١] لم يأت معطوفاً نحو «وكان في أذنيه وقراء» لأن المقصود من التشبيه بمن [في أذنيه وقراء] هو بعينه المقصود من التشبيه ^(٣) بمن لم يسمع إلا أن الثاني أبلغ وأكد في الذي أريد، وذلك أن المعنى في التشبيهين جميعاً أن ينبغي أن يكون لتلاوة ما تلي عليه من الآيات فائدة معه ويكون لها تأثير فيه، وأن يجعل حاله إذا تليث عليه كحال إذا لم تثل، ولا شبهة في أن التشبيه بمن في أذنيه وقراء أبلغ وأكد في جعله كذلك من

(١) البقرة ٨/٢ و ٩، وهما في سياقهما: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتِيهِمُ الْآخِرُ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ^(٢) يخادعون الله والذين ءامنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون.

(٢) قال: سقطت من (أ)، وفي (ب): قيل.

(٣) ما بين معقوفتين سقط من (أ).

حيث كان مَنْ لا يصحُّ منه السَّمْعُ - وإن أراد ذلك - أبعد مِنْ أن يكون لتلاوة ما يُتلى عليه فائدة مَنْ الذي يصحُّ منه السَّمْعُ إلا أنه لا يسمعُ إما اتفاقاً وإما قصداً إلى أن لا يسمعَ فاعرفه، وأحسِّن تدبُّره.

ومن اللطيف في ذلك قوله تعالى: ﴿مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١/١٢]^(١) وذلك أن قوله: «إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ» مشابه لقوله: «ما هذا بشراً» ومداخل في ضمّنه من ثلاثة أوجه: وجهان هو فيهما شبيهة بالتأكيد ووجهٌ هو فيه شبيهة بالصفة. فأحد وجهي كونه شبيهاً بالتأكيد هو أنه إذا كان ملكاً لم يكن بشراً وإذا كان كذلك كان إثبات كونه ملكاً تحقيقاً لا محالة وتأكيداً لنفي أن يكون بشراً، والوجه الثاني أن الجاري في العرف والعادة أنه إذا قيل: ما هذا بشراً، وما هذا بآدمي - والحال حال تعظيم وتعجب مما يُشاهد في الإنسان مِنْ حُسْنِ خَلْقٍ أو خُلُقٍ - أن يكون الغرض والمراد من الكلام أن يقال إنه ملكٌ وأن^(٢) يُكتفى به عن ذلك حتى إنه يكون مفهوم اللفظ، وإذا كان مفهوماً مِنَ اللفظ قَبْلَ أن يُذكر كان ذكره إذا ذُكِرَ تأكيداً لا محالة لأن [٧٥] حَدَّ التأكيد أن تُحقّق باللفظ معنى قَدْ فُهِمَ مِنْ لَفْظٍ آخَرَ قَدْ سَبَقَ مِنْكَ، أفلا ترى أنه إنما كان «كلّهم» في قولك: جاءني القوم كلّهم؛ تأكيداً من حيث كان الذي فُهِمَ منه وهو الشمولُ قد فهم بديناً من ظاهر لفظ القوم ولو أنّه لم يكن فُهِمَ الشمولُ من لفظ القوم ولا كان هو مِنْ موجه لم يكن «كلُّ» تأكيداً ولكان الشمولُ مستفاداً من «كلّ» ابتداءً.

وأما^(٣) الوجه الثالث الذي هو [فيه]^(٤) شبيهة بالصفة فهو أنه إذا نُفِيَ أن يكون بشراً فقد أثبت له جنس سواه إذ من المحال أن يخرج من جنس البشر ثم

(١) والآية الكريمة: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكِئًا وَآتَتْ كُلَّ وَجْدَةٍ وَتَنَزَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾.

(٢) في (ط): وإنه.

(٣) أمّا: سقطت من (أ).

(٤) سقطت من (ط).

لا يدخلُ في جنس آخر وإذا كَانَ الأمرُ كذلكَ كان إثباته مَلَكاً تبييناً وتعييناً لذلك الجنس الذي أريدَ إدخاله فيه وإغناء عن أن تحتاجَ إلى أن تسأل فتقول: فإن لم يكن بشراً فما هو وما جنسه؟ كما أنك إذا قلت: مررتُ بزيدِ الظريف؛ كان «الظريف» تبييناً وتعييناً^(١) للذي أردتَ مِنْ بين مَنْ له هذا الاسمُ وكنتَ قد أغنيتَ المخاطَبَ عن الحاجةِ إلى أن يقول: أيُّ الزيدِينِ أردتَ؟

ومما جاءَ فيه الإثباتُ بأنْ وإلا على هذا الحدِّ قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ [يس: ٦٩/٣٦] وقوله: ﴿وَمَا يَطِّقُ عَنِ الْمَوْتِ﴾ ② إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم: ٤-٣/٥٣] أفلا ترى أَنَّ الإثباتَ في الآيتين جميعاً تأكيدٌ وتثبيتٌ لنفي ما نفى فإثباتٌ ما علَّمه النبي ﷺ وأوحى إليه ذكراً وقرآناً تأكيدٌ وتثبيتٌ لنفي أن يكون [قد علَّم الشعرَ، وكذلك إثباتٌ ما يتلوه عليهم وحياً مِنْ الله تعالى [تأكيد]^(٢) وتقرير^(٣) لنفي أن يكون نُطْقَ به عَنْ هوى].

واعلم أَنَّهُ ما من عِلْمٍ من علومِ البلاغةِ أَنْتَ تقولُ إِنَّه فيه خَفِيٌّ غامضٌ ودقيقٌ صَغْبٌ إِلَّا وَعِلْمُ هذا البابِ أَغْمَضُ وَأَخْفَى وَأَدْقُ وَأَصْعَبُ، وقد قَنِعَ الناسَ فيه بأنْ يقولوا إذا رأوا جملةً قد تُركَ فيها [٧٥ ب] العطفُ: إن الكلامَ قد استؤنِفَ وقُطِعَ عما قبله. لا تطلبُ أنفسهم منه زيادةً على ذلك ولقد غَفِلُوا غَفْلَةً شديدة.

ومما هو أصلٌ في هذا الباب أَنَّكَ ترى الجملةَ وحالها معَ التي قبلها حالٌ ما يُعْظَفُ ويُقَرَّنُ إلى ما قبله ثم تراها قد وجِبَ فيها تركُ العطفِ لأمرٍ عَرَضَ فيها صارت به أجنبيَّةً ممَّا قبلها، مثالُ ذلك قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: ١٥/٢] الظاهرُ كما لا يخفى يَفْتَضِي أَنْ يُعْظَفَ على ما قبله من قوله: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ [البقرة: ١٤/٢] وذلك أَنه ليس بأجنبي منه

(١) في (ب): تعيناً لذلك الجنس الذي.

(٢) سقطت من (ط).

(٣) ما بين معقوفين سقط من (ب).

بل هو نظير ما جاء معطوفاً من قوله تعالى: ﴿يُخَذِّعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِّعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢/٤]^(١) قوله: ﴿وَمَكَّرُوا وَمَكَّرَ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٥٤/٣]^(٢) وما أشبه ذلك مما يَرُدُّ فيه العَجْزُ على الصدر. ثم إنك تجده قد جاء غير معطوفٍ وذلك لأميرٍ أوجب أن لا يُعْطَفَ وهو أن قوله: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ [البقرة: ١٤/٢] حكايةٌ عنهم أنهم قالوا وليس بخبرٍ من الله تعالى. وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِرَبِّهِ﴾ [البقرة: ١٥/٢] خبرٌ من الله تعالى أنه يُجازيهم على كُفْرِهِم واستهزائِهِم. وإذا كان كذلك كان العطفُ ممتنعاً لاستحالة أن يكون الذي هو خبرٌ من الله تعالى معطوفاً على ما هو حكايةٌ عنهم ولا يُجَابُ ذلك أن يخرج من كونه خبراً من الله تعالى إلى كونه حكايةً عنهم وإلى أن يكونوا قد شهدوا على أنفسهم بأنهم مؤاخِذُونَ وأن الله تعالى يُعاقِبهم عليه.

وليس كذلك الحال في قوله تعالى: ﴿يُخَذِّعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِّعُهُمْ﴾ ﴿وَمَكَّرُوا وَمَكَّرَ اللَّهُ﴾^(٣) لأن الأول من الكلامين فيهما كالثاني في أنه خبرٌ من الله تعالى وليس بحكاية وهذا هو العلة في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾^(٤) ألا إنهم هم المفسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١١-١٢] إنما جاء «إنهم هم المفسِدُونَ» مستأنفاً مفتتحاً بالآلة لأنه خبرٌ من الله تعالى بأنهم كذلك والذي قبله من قوله: «إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ»^(٥) حكايةٌ عنهم فلو عُطِفَ لِلزِّمِ [١٧٦] عليه مثل الذي قدّمْتُ ذكره من الدخول في الحكاية ولصارَ خبراً من اليهود ووصفاً منهم لأنفسِهِم بأنهم مُفسِدُونَ، ولصارَ كأنه قيل: «قالوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ» وقالوا «إنهم هم المفسِدُونَ» وذلك ما^(٥) لا يُشَكُّ في فساده. وكذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا

(١) والآية الكريمة: ﴿إِنَّ الْمُتَفِيعِينَ يُخَذِّعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِّعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُتَالاً يَرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً﴾.

(٢) والآية الكريمة: ﴿وَمَكَّرُوا وَمَكَّرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾.

(٣) انظر الحاشية (١) و (٢) في الصفحة السابقة.

(٤) مصلحون: سقطت من (ب).

(٥) في (ب): مما يُشَكُّ في فساده.

«أَمَّنَ السُّفَهَاءُ إِلَّا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ» [البقرة: ١٣/٢] وَلَوْ عُطِفَ
 «إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ» عَلَى مَا قَبْلَهُ لَكَانَ يَكُونُ قَدْ أُدْخِلَ فِي الْحِكَايَةِ وَلِصَارَ حَدِيثًا
 مِنْهُمْ عَنْ أَنْفُسِهِمْ بِأَنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ مِنْ بَعْدِ أَنْ زَعَمُوا أَنَّهُمْ إِنَّمَا تَرَكُوا أَنْ يُؤْمِنُوا
 لثَلَا يَكُونُوا مِنَ السُّفَهَاءِ، عَلَى أَنَّ فِي هَذَا أَمْرًا آخَرَ وَهُوَ أَنْ قَوْلَهُ: «أَنْزَلْنَا»
 اسْتَفْهَامٌ وَلَا يُعْطَفُ الْخَبَرُ عَلَى الاسْتَفْهَامِ. فَإِنْ قُلْتَ: هَلْ كَانَ يَجُوزُ أَنْ يُعْطَفَ
 قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ عَلَى «قَالُوا» مِنْ قَوْلِهِ: قَالُوا: ^(١) إِنَّا مَعَكُمْ. لَا عَلَى
 مَا بَعْدَهُ وَكَذَلِكَ كَانَ يَفْعَلُ فِي «إِنَّهُمْ الْمَفْسُودُونَ» وَ «إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ»، وَكَانَ
 يَكُونُ نَظِيرَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا مَلَكٌ وَلَوْ أُنْزِلْنَا مَلَكًا لَفَقِيَ الْأَمْرُ﴾
 [الأنعام: ٨/٦] ^(٢) وَذَلِكَ أَنَّ قَوْلَهُ: وَلَوْ أُنْزِلْنَا مَلَكًا، مَعْطُوفٌ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ عَلَى
 «قَالُوا» دُونَ مَا بَعْدَهُ؟ قِيلَ: إِنَّ حَكَمَ الْمَعْطُوفِ عَلَى ^(٣) «قَالُوا» فِيمَا نَحْنُ فِيهِ
 مُخَالَفٌ لِحُكْمِهِ فِي الْآيَةِ الَّتِي ذَكَرْتَ وَذَلِكَ أَنَّ «قَالُوا» هَهُنَا جَوَابُ شَرْطٍ فَلَوْ
 عُطِفَ قَوْلُهُ: «اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ» عَلَيْهِ لَلَزِمَ إِدْخَالُهُ فِي حُكْمِهِ مِنْ كَوْنِهِ جَوَابًا وَذَلِكَ
 لَا يَصِحُّ وَذَاكَ أَنَّهُ مَتَى عُطِفَ عَلَى جَوَابِ الشَّرْطِ شَيْءٌ بِالْوَاوِ كَانَ ذَلِكَ عَلَى
 ضَرْبَيْنِ: أَحَدُهُمَا أَنْ يَكُونَ شَيْئَيْنِ يَتَصَوَّرُ وَجُودَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا دُونَ الْآخَرِ
 وَمِثَالُهُ قَوْلُكَ: إِنْ تَأْتَيْتِ أُكْرِمَكَ أُعْطِكَ وَأُكْسِكَ. وَالثَّانِي أَنْ يَكُونَ الْمَعْطُوفُ شَيْئًا
 لَا يَكُونُ حَتَّى يَكُونَ الْمَعْطُوفُ عَلَيْهِ وَيَكُونَ الشَّرْطُ لِدَلَالَةِ سَبَبٍ فِيهِ بِوَسَاطَةِ ^(٤) كَوْنِهِ
 سَبَبًا لِلأَوَّلِ وَمِثَالُهُ قَوْلُكَ: إِذَا رَجَعَ الْأَمِيرُ إِلَى الدَّارِ اسْتَأْذَنْتُهُ وَخَرَجْتُ. فَالْخُرُوجُ
 لَا يَكُونُ حَتَّى يَكُونَ الاسْتِئْذَانُ وَقَدْ صَارَ الرُّجُوعُ [ب ٧٦] سَبَبًا فِي الْخُرُوجِ مِنْ
 أَجْلِ كَوْنِهِ سَبَبًا فِي الاسْتِئْذَانِ فَيَكُونُ الْمَعْنَى فِي مِثْلِ هَذَا عَلَى كَلَامَيْنِ نَحْوُ: إِذَا
 رَجَعَ الْأَمِيرُ اسْتَأْذَنْتُ وَإِذَا اسْتَأْذَنْتُ خَرَجْتُ.

وَإِذْ قَدْ عَرَفْتَ ذَلِكَ فَلَمَّا لَوْ عُطِفَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ عَلَى
 «قَالُوا» كَمَا زَعَمْتَ كَانَ الَّذِي يَتَصَوَّرُ فِيهِ أَنْ يَكُونَ مِنْ هَذَا الضَّرْبِ الثَّانِي وَأَنْ

(١) قَالُوا: سَقَطَتْ مِنْ (أ).

(٢) وَالْآيَةُ الْكَرِيمَةُ: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا مَلَكٌ وَلَوْ أُنْزِلْنَا مَلَكًا لَفَقِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُطْرَقُونَ﴾.

(٣) الْمَعْطُوفُ عَلَى: سَقَطَ فِي (أ). وَفِي (ب): الْعُطْفُ.

(٤) فِي (ط): بِوَسَاطَةِ.

يكونَ المعنى «وإذا خَلَوْا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزؤون» فإذا قالوا ذلك استهزأ الله بهم ومدَّهم في طُغيانهم يَغْمَهُونَ. وهذا وإن كان يُرى أنه يَسْتَقِيمُ فليس هو بمستقيم وذلك أنَّ الجزاء إنما هو على نفس الاستهزاء وفعلهم له وإرادتهم إيَّاه في قولهم إنا آمنا^(١)، لا على أنهم حَدَّثُوا عَنْ أَنْفُسِهِمْ بأنهم مستهزؤون والعطفُ على «قالوا» يَفْتَضِي أن يكونَ الجزاء على حديثهم عَنْ أَنْفُسِهِمْ بالاستهزاء لا عليه نفسه. ويبين ما ذكرناه مِنْ أنَّ الجزاء يَنْبَغِي أن يكونَ على قَصْدِهِم الاستهزاء وفعلهم له لا على حديثهم عن أنفسهم بأنهم مستهزؤون أَنَّهُمْ لو كانوا قالوا لكبرائهم: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهزَؤُونَ﴾ وهُم يريدونَ بذلك دَفْعَهُمْ عَنْ أَنْفُسِهِمْ بهذا الكلام وأن يَسْلَمُوا مِنْ شَرِّهِمْ وأن يوهموهم أَنَّهُمْ مِنْهُمْ وإن لم يكونوا كذلك لكان لا يَكُونُ عليهم مؤاخَذةٌ فيما قالوه من حَيْثُ كانت المؤاخَذة تكونُ على اعتقادِ الاستهزاء والخديعة في إظهار الإيمانِ لا في القولِ^(٢): إنا استهزأنا، من غير أن يقرنَ بذلك القولِ اعتقادٌ ونيةٌ.

هذا - وههنا أمرٌ سِوَى ما مضى يوجبُ الاستئنافَ وتركَ العطفِ وهو أنَّ الحكايةَ عنهم بأنهم قالوا كَيْتَ وكَيْتَ تحركَ السامعينَ لأن يعلموا مصيرَ أمرهم وما يُضْنَعُ بهم، وأَتَنَزَّلُ بِهِمُ النِّقْمَةُ عاجلاً أم لا تنزلُ ويُمْهَلُونَ، وتُوقِعُ في أَنْفُسِهِم التَّمَنِّيَ لأنَّ يتبينَ لهم ذلك. وإذا كان كذلك كانَ هذا الكلامُ الذي هو قوله: «الله يستهزئ بهم» في معنى ما صَدَرَ جواباً [١٧٧] عن هذا المقدَّرِ وقوعه في أَنْفُسِ السامعينَ. وإذا كان مصدره كذلك كان حَقُّه أن يؤتى به مبتدأ غيرَ معطوف ليكونَ في صورته إذا قيل: فَإِنْ سَأَلْتُمْ قِيلَ لَكُمْ ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمْدُدُّ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: ١٥/٢].

وإذا استقرت وجدتَ هذا الذي ذكرْتُ لك من تنزيلهم الكلامَ إذا جاء بعقب ما يقتضي سؤالاً منزله إذا صرَّحَ بذلك السؤالُ كثيراً. فمن لطيفِ ذلك قوله^(٣):

(١) إنا: من (أ) فقط.

(٢) في (ط): لا في قول.

(٣) قال العباسي في معاهد التنقيص ٢٨١/١: «البيت من الكامل، ولا أعرف قائله».

زَعَمَ الْعَوَاذِلُ أَنِّي فِي غَمْرَةٍ صَدَقُوا وَلَكِنْ غَمَرْتَنِي لَا تَنْجَلِي!
لَمَّا حَكَى عن العواذِلِ أَنَّهُمْ قالوا: «هُوَ فِي غَمْرَةٍ»، وكان ذلك مما يحرك
السامعَ لأن يسأله فيقول: فما قولك في ذلك وما جوابك عنه؟ أخرج الكلامَ
مُخْرَجَهُ إذا كان ذلك قَدْ قِيلَ له وصارَ كأنه قال: أقولُ صَدَقُوا أنا كما قالوا
ولكن لا مَطْمَعَ لهم في فلاحِي. ولو قال: زعمَ العواذِلُ أَنِّي في غَمْرَةٍ وصدَّقُوا
لكانَ يكونُ لم يَصِحَّ في نَفْسِهِ أَنَّهُ مسؤولٌ وأن كلامَه كلامٌ مجيب.
ومثله قولُ الآخرِ في الحماسة^(١):

زَعَمَ الْعَوَاذِلُ أَنَّ نَاقَةَ جُنْدَبٍ بِجَنُوبٍ خَبَتْ عُرْيَتِ وَأَجَمَّتِ
كَذَبَ الْعَوَاذِلُ لَوْ رَأَيْنَا مُنَاخَنَا بِالْقَادِسِيَّةِ قُلْنَ لَجَّ وَذَلَّتِ

وقد زادَ هذا أمرَ القطع والاستثنافِ وتقديرَ الجواب تأكيداً بأن وضعَ الظاهرَ
موضعَ المُضمر فقال: كَذَبَ العواذِلُ. ولم يَقُلْ: «كَذَبْنِ» وذلك أَنَّهُ لَمَّا أعادَ ذَكَرَ
العواذِلَ ظاهراً كان ذلك أَيْبَنَ وأقوى لكونه كلاماً مستأنفاً مِنْ حَيْثُ وضعه وضعاً
لا يحتاجُ فيه إلى ما قَبْلَهُ وأتى فيه^(٢) مَاتَى ما لَيْسَ قَبْلَهُ كلامٌ. وممَّا هُوَ على ذلك
قولُ الآخر^(٣):

(١) البيتان لجندب بن عمار كما في معاهد التنصيص ٢٨١/١ وهما في الحماسة
(المرزوقي) ٣٠٧/١ - ٣٠٨ بلا نسبة. جُنْدَب: هو الشاعر - كما سَمَّاهُ في معاهد
التنصيص - وخبت: ماءٌ لكلب. وقوله: عُرْيَتِ أي الناقة من رحلها، وأجمت من
الإجمام أي أريحت من الركوب وتعب السفر. والضمير في لَجَّ للشاعر في مواصلة
السَّير. وَذَلَّتِ الناقة من مداومة السفر وطول الرحلة.

(٢) فيه: سقطت من (ط). وفي (ب): به.

(٣) وهما بيتان. انظر الحماسة (المرزوقي) ١٤٤٩/٣ والشاعر هو مساور بن هند بن قيس بن
زهير بن جذيمة العبسي، فارس مخضرم، أدرك النبي ولم يجتمع به ويقال إنه ولد في
حرب داحس والغبراء قبل الإسلام بخمسين عاماً. الشعر والشعراء ٣٤٨/١ - ٣٤٩،
والمرزوقي ٤٣٠/١، ومعاهد التنصيص ٢٨٣/١ - ٢٨٤. والبيت الذي بعده:
أولئك أومنوا جوعاً وخوفاً وقد جاعثَ بَنُو أسدٍ وخَافُوا

زَعَمْتُمْ أَنَّ إِخْوَتَكُمْ قُرَيْشٌ لَّهُمْ إِلْفٌ وَلَيْسَ لَكُمْ إِلَافٌ

وذلك أن قوله: لهم إلف، تكذيبٌ لدعواهم أنهم من قريشٍ فهو إذن بمنزلة أن يقول: كذبتُم لهم إلفٌ وليس [٧٧ ب] لكم ذلك. ولو قال: زعمتم أن إخوتكم قريشٌ ولهم إلفٌ وليس لكم إلفٌ، لصار بمنزلة أن يقول: زعمتم أن إخوتكم قريشٌ وكذبتُم. في أنه كان يخرُجُ عن أن يكونَ موضوعاً على أنه جوابُ سائلٍ يقولُ له: فماذا تقولُ في زَعْمِهِمْ ذلك وفي دعواهم؟ فاعرفه.

واعلم أنه لو أظهر «كذبتُم» لكان يجوزُ له أن يَغْطِفَ هذا الكلامَ الذي هو قوله: «لهم إلفٌ» عليه بالفاء فيقول: «كذبتُم فلهم إلفٌ وليس لكم ذلك». أما الآن فلا مَسَاحَ لِدُخُولِ الفاءِ البتةَ لأنَّه يصيرُ حينئذٍ معطوفاً بالفاء على قوله: زَعَمْتُمْ أَنَّ إِخْوَتَكُمْ قُرَيْشٌ. وذلك يخرُجُ إلى المُحَالِ مِنْ حَيْثُ يصيرُ كأنه يستشهدُ بقوله: لهم إلفٌ. على أن هذا الزعمَ كان منهم كما أنك إذا قلت: كذبتُم فلهم إلفٌ؛ كنت قد استشهدتَ بذلك على أنهم كذبوا فاعرف ذلك. ومن اللطيفِ في الاستئناف على معنى جعلِ الكلامِ جواباً في التقدير قولُ اليزيدي^(١):

مَلَكْتُهُ حَبْلِي وَلَكِنَّهُ أَلْقَاهُ مِنْ زُهْدٍ عَلَى غَارِبِي

وقالَ إِنِّي فِي الْهُوَى كَاذِبٌ انْتَقَمَ اللَّهُ مِنَ الْكَاذِبِ!

استأنفَ قوله: انتقمَ الله من الكاذبِ؛ لأنه جعلَ نفسه كأنه يجيبُ سائلاً قالَ له: فما تقولُ فيما اتهمك به من أنك كاذبٌ؟ فقال أقولُ: انتقمَ الله من الكاذبِ! ومن النادرِ أيضاً في ذلك قولُ الآخر^(٢):

قَالَ لِي كَيْفَ أَنْتَ قُلْتُ عَلِيلٌ سَهَرٌ دَائِمٌ وَحُزْنٌ طَوِيلٌ

(١) ترجم أبو الفرج في الأغاني (١٨٠/٢٠ - ٢٣٤) لكلٍ من: أبي محمد اليزيدي، ومحمد بن أبي محمد اليزيدي، وإبراهيم بن أبي محمد اليزيدي، وأحمد بن محمد بن أبي محمد اليزيدي. والبيتان في الأغاني ١٦٤/٢٢ ونسبهما لإبراهيم بن المدبر.

(٢) وانظر معاهد التنصيص ٢٧١/١ - ٢٧٢

قال العباسي في معاهد التنصيص ١٠٠/١ و ٢٨٠: «هو من الخفيف ولا أعرف قائله».

لِما كَانَ فِي الْعَادَةِ إِذَا قِيلَ لِلرَّجُلِ: كَيْفَ أَنْتَ؟ فَقَالَ: «عَلِيلٌ» أَنْ يَسْأَلَ ثَانِيًا
فَيَقَالَ: مَا بَكَ وَمَا عَلَتْكَ؟ قَدَّرَ كَأَنَّهُ قَدْ قِيلَ لَهُ ذَلِكَ فَأَتَى بِقَوْلِهِ: سَهْرٌ دَائِمٌ،
جَوَابًا عَنْ هَذَا السُّؤَالِ الْمَفْهُومِ مِنْ فَحْوَى الْحَالِ فَاعْرِفْهُ.
وَمِنْ الْحَسَنِ الْبَيِّنِ فِي ذَلِكَ قَوْلُ الْمُتَنَبِّي^(١):

وَمَا عَفَّتِ الرِّيحُ لَهُ مَحَلًّا عَفَاهُ مَنْ حَدا بِهِمْ وَسَاقَا

لَمَّا نَفَى أَنْ يَكُونَ الَّذِي [١٧٨] يُرَى بِهِ مِنَ الدُّرُوسِ وَالْعَفَاءِ مِنَ الرِّيحِ وَأَنْ
تَكُونَ الَّتِي فَعَلَتْ ذَلِكَ وَكَانَ فِي الْعَادَةِ إِذَا نُفِيَ الْفِعْلُ الْمَوْجُودُ الْحَاصِلُ عَنْ وَاحِدٍ
فَقِيلَ: لَمْ يَفْعَلْهُ فَلَانٌ، أَنْ يَقَالَ: فَمَنْ فَعَلَهُ؟ قَدَّرَ كَأَنَّ قَائِلًا قَالَ: قَدْ زَعَمْتُ أَنَّ
الرِّيحَ لَمْ تَغْفُ لَهُ مَحَلًّا فَمَا عَفَاهُ إِذَنْ؟ فَقَالَ مُجِيبًا لَهُ: عَفَاهُ مَنْ حَدا بِهِمْ وَسَاقَا.
وَمِثْلُهُ قَوْلُ الْوَلِيدِ بْنِ يَزِيدَ^(٢):

عَرَفْتُ الْمَنْزِلَ الْخَالِي عَفَا مِنْ بَعْدِ أَحْوَالِ

عَفَاهُ كُلُّ حَنَّانٍ عَسُوفِ الْوَيْلِ هَظَالِ

لَمَّا قَالَ: «عَفَا مِنْ بَعْدِ أَحْوَالِ». قَدَّرَ كَأَنَّهُ قِيلَ لَهُ: فَمَا عَفَاهُ؟ فَقَالَ: عَفَاهُ كُلُّ
حَنَّانٍ.

وَاعْلَمْ أَنَّ السُّؤَالَ إِذَا كَانَ ظَاهِرًا مَذْكُورًا فِي مِثْلِ هَذَا كَانَ الْأَكْثَرُ أَنْ لَا يَذْكُرَ
الْفِعْلُ فِي الْجَوَابِ وَيُقْتَصَرُ عَلَى الْأَسْمِ وَحْدَهُ فَأَمَّا مَعَ الْإِضْمَارِ فَلَا يَجُوزُ إِلَّا أَنْ

(١) ديوان المتنبي (الواحدي) ٤٢٤ من قصيدة في مدح سيف الدولة وقد أمر له بفرس
دهماء وجارية، مطلعها:

أيدري الربيع أي دم أراقا وأي قلوب هذا الركب شاقا

(٢) البيتان في معاهد التنصيص ٢٨١/١ - ٢٨٢، وهما فيه منسوبان للبيد، وليس في
ديوانه. تحقيق إحسان عباس، وانظر الأغاني ٣٢/٧

- والبيتان في ديوان الوليد بن يزيد: ٩٧، من قطعة في خمسة أبيات. (السحاب
الحنّان: الذي له صوت يشبه صوت الإبل عند الحنين. والعسوف: الشديد الذي
لا يتوقّف. والهطال: المتتابع).

يُذكر الفعلُ. تفسِيرُ هذا أنه يجوزُ لك إذا قيلَ: إن كانتِ الرياحُ لم تَعْفُه فما عفاه؟ أن تقولَ: «مَنْ حدا بهم وساقا». ولا تقولَ: عفاه من حدا. كما تقولُ في جوابِ من يقولُ: مَنْ فعلَ هذا؟ «زيد». ولا يجبُ أن تقولَ: فعله زيدٌ. وأما إذا لم يكنِ السؤالُ مذكوراً كالذي عليه البيئُ فإنه لا يجوزُ أن يُتركَ ذكرُ الفعلِ. فلو قلتُ مثلاً: وما عفتِ الرياحُ له محلاً مَنْ حدا بهم وساقا. تزعمُ أنك أردتَ «عفاه مَنْ حدا بهم» ثم تركتَ ذكرَ الفعلِ أَحَلَّتْ، لأنه إنما يجوزُ تركُه حيثُ يكونُ السؤالُ مذكوراً لأن ذكرَه فيه يدلُّ على إرادته في الجوابِ فإذا لم يؤتَ بالسؤالِ لم يكنِ إلى العلمِ به^(١) سبيلٌ فاعرف ذلك.

واعلم أن الذي تراه في التزليلِ من لفظِ «قال» مفصلاً غير معطوف هذا هو التقديرُ فيه والله أعلم، أعني مثلَ قوله تعالى: ﴿هَلْ أَنتَكَ حَدِيثٌ ضَيِّفَ إِبْرَاهِيمَ الْمَكْرِيْنَ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ (٢٥) فَرَأَى إِلَيْكَ أَهْلِيهِ فَبَجَاءَ بِعَجَلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ ﴿الذاريات: ٢٤-٢٨﴾^(٢) جاء على ما يقع في أنفس المخلوقين من السؤال فلما [٧٨ ب] كان في العُرفِ والعادةِ فيما بين المخلوقين إذا قيلَ لهم: دخلَ قومٌ على فلانٍ فقالوا كذا، أن يقولوا: فما قال هو؟ ويقولُ المجيبُ: قال كذا. أخرج الكلامَ ذلك المخرجَ لأنَّ الناسَ خوطبوا بما يتعارفونه، وسُلكَ باللفظِ معهم المَسْلُكُ الذي يَسْلُكُونَهُ. وكذلك قوله: «قال ألا تأكلون» وذلك أن قوله: «فجاء بعجلٍ سمينٍ فقرَّبَه إليهم» يقتضي أن يُشعَّع هذا الفعل بقولِ فكأنه قيلَ والله أعلم: فما قال حينَ وَضَعَ^(٣) الطعامَ بين أيديهم؟ فأتى قوله: «قال ألا تأكلون» جواباً عن ذلك. وكذا «قالوا لا تخف» لأن قوله: «فأوجس منهم خيفة» يقتضي أن يكونَ من

(١) في (أ): فيه.

(٢) الذاريات ٢٤/٥١، ٢٥، ٢٦، ٢٧، ٢٨، والآيات الكريمة: ﴿هَلْ أَنتَكَ حَدِيثٌ ضَيِّفَ إِبْرَاهِيمَ الْمَكْرِيْنَ﴾ (٢٥) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٢٦﴾ فَرَأَى إِلَيْكَ أَهْلِيهِ فَبَجَاءَ بِعَجَلٍ سَمِينٍ ﴿٢٧﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٨﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَيَسِّرْهُ يَسْكَرُ عَلَىٰ

(٣) في (ب): وقع.

الملائكة كلام في تأنيبه وتسكينه مما خامره فكانه قيل: فما قالوا حين رأوه وقد تغير ودخلته الخيفة؟ فقول: قالوا لا تخف. وذلك والله أعلم المعنى في جميع ما يجيء منه على كثرته كالذي يجيء في قصة فرعون عليه اللعنة وفي رد موسى عليه السلام كقوله: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (٣٣) قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿٣٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمِعُونَ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَجُنُّونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَقُولُونَ ﴿٣٨﴾ قَالَ لَنْ أَخَذَتْ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَكَ مِنَ السَّجُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ أَوْلَوْا جِثَّتْ مِنْهُ مُبِينٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿الشعراء: ٢٦/٢٣-٣١﴾

جاء ذلك كله والله أعلم على تقدير السؤال والجواب كالذي جرث به العادة فيما بين المخلوقين، فلما كان السامع إذا سمع الخبر عن فرعون بأنه قال: وما رب العالمين؟ وقع في نفسه أن يقول: فما قال موسى له؟ أتى قوله: قال رب السموات والأرض؛ مأتى الجواب مبتدأ مفصلاً غير معطوف. وهكذا التقدير والتفسير أبداً في كل ما جاء فيه لفظ «قال» هذا المجيء وقد يكون الأمر في بعض ذلك أشد وضوحاً.

فَمَا^(١) هُوَ فِي [١٧٩] غَايَةِ الْوُضُوحِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ (٥٧) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿[الحجر: ١٥/٥٧-٥٨]﴾ وَذَلِكَ أَنَّهُ لَا يَخْفَى عَلَى عَاقِلٍ أَنَّهُ جَاءَ عَلَى مَعْنَى الْجَوَابِ وَعَلَى أَنْ يَنْزِلَ السَّامِعُونَ كَانَهُمْ قَالُوا: فَمَا قَالَ لَهُ الْمَلَائِكَةُ؟ فَقِيلَ: ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ (٥٨) وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ يَس: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ (١٢) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا رَبَّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٥﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾ قَالُوا إِنَّا نَطَّيَّرُكُمْ بِكُمْ لَنْ نَمْنَهُوا لَزَجُجْنَاكُمْ وَلَيَمْسَكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧﴾ قَالُوا طَهِّرْ كُمْ مَعَكُمْ أَيْنَ دُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَنْفَوِرُ أَتَابِعُوكُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٩﴾

(١) فِي (ط): وَمَا.

أَتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْئَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ» [يس: ٣٦/١٣-٢١] التقديرُ الذي قدَّرنَاهُ مِنْ
معنى السؤالِ والجوابِ بَيْنَ ذَلِكَ كُلِّهِ وَنَسْأَلُ اللَّهَ التَّوْفِيقَ لِلصَّوَابِ وَالْعَصْمَةِ
مِنَ الزَّلَلِ.



[باب الفصل والوصل]

فصل

[في الأصول العامة لوصل الجمل وفصلها]

وإذ قد عرفت هذه الأصول والقوانين في شأن فصل الجمل ووصلها فاعلم أنا قد حصلنا من ذلك على أن الجمل على ثلاثة أضرب: جملة حالها مع التي قبلها حال الصفة مع الموصوف، والتأكيد مع المؤكّد، فلا يكون فيها العطف البتة لشبه العطف فيها لو عطفت بعطف الشيء على نفسه. وجملة حالها مع التي قبلها حال الاسم يكون غير الذي قبله إلا أنه يشاركه في حكم ويدخل معه في معنى مثل أن يكون كلا الاسمين فاعلاً أو مفعولاً أو مضافاً إليه فيكون حقها العطف. وجملة ليست في شيء من الحالين بل سبيلها مع التي قبلها سبيل الاسم مع الاسم لا يكون منه في شيء فلا يكون إياه ولا مشاركاً له في معنى بل هو شيء إن ذكر [٧٩ ب] لم يُذكر إلا بأمرٍ ينفرد به، ويكون ذكر الذي قبله وترك الذكر سواء في حاله لعدم التعلق بينه وبينه رأساً. وحق هذا ترك العطف البتة، فترك العطف يكون إما للاتصال إلى الغاية أو الانفصال إلى الغاية، والعطف لما هو واسطة بين الأمرين، وكان له حال بين حالين، فاعرفه.

فصل

[في مسائل دقيقة في عطف الجمل]

هَذَا فَنَ مِنَ الْقَوْلِ خَاصٌّ دَقِيقٌ، اَعْلَمُ أَنَّ مِمَّا يُقَالُ نَظَرَ النَّاسِ فِيهِ مِنْ أَمْرِ الْعُطْفِ أَنَّهُ قَدْ يُوْتَى بِالْجُمْلَةِ^(١) فَلَا تُعْطَفُ عَلَى مَا يَلِيهَا وَلَكِنْ تُعْطَفُ عَلَى جُمْلَةٍ بَيْنَهَا وَبَيْنَ هَذِهِ الَّتِي تُعْطَفُ جُمْلَةً أَوْ جُمْلَتَانِ. وَمِثَالُ ذَلِكَ قَوْلُ الْمُتَنَبِّي^(٢):

تَوَلَّوْا بَغْتَةً فَكَأَنَّ بَيْنَنَا تَهَيَّبَنِي فَفَاجَأَنِي اغْتِيَالًا
فَكَانَ مَسِيرُ عَيْسِهِمْ ذَمِيلًا وَسَيْرُ الدَّمْعِ إِثْرُهُمْ انْهِيَالًا

قَوْلُهُ: فَكَانَ مَسِيرُ عَيْسِهِمْ، مَعْطُوفٌ عَلَى «تَوَلَّوْا بَغْتَةً» دُونَ مَا يَلِيهِ مِنْ قَوْلِهِ: «فَفَاجَأَنِي»، لِأَنَّا إِنَّمَا عَظَفْنَاهُ عَلَى هَذَا الَّذِي يَلِيهِ أَفْسَدْنَا الْمَعْنَى مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ يَدْخُلُ فِي مَعْنَى كَأَنَّ وَذَلِكَ يُوْدِي إِلَى أَنْ لَا يَكُونَ مَسِيرُ عَيْسِهِمْ حَقِيقَةً وَيَكُونَ مَتَوَهِّمًا كَمَا كَانَ تَهَيَّبُ الْبَيْنِ كَذَلِكَ، وَهَذَا أَصْلٌ كَبِيرٌ. وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْجُمْلَةَ الْمُتَوَسِّطَةَ بَيْنَ هَذِهِ الْمَعْطُوفَةِ آخِرًا وَبَيْنَ الْمَعْطُوفِ عَلَيْهَا الْأُولَى تَرْتَبِطُ فِي مَعْنَاهَا بِتِلْكَ الْأُولَى كَالَّذِي تَرَى أَنْ قَوْلَهُ: «فَكَأَنَّ بَيْنَنَا تَهَيَّبَنِي» مُرْتَبِطٌ بِقَوْلِهِ: «تَوَلَّوْا بَغْتَةً» وَذَلِكَ أَنَّ الثَّانِيَةَ مُسَبَّبٌ وَالْأُولَى سَبَبٌ، أَلَا تَرَى أَنَّ الْمَعْنَى «تَوَلَّوْا

(١) بِالْجُمْلَةِ: سَقَطَتْ مِنْ (أ).

(٢) مِنْ قَصِيدَةٍ فِي مَدْحِ بَدْرِ بْنِ عَمَارٍ، دِيَوَانُهُ (الوَاحِدِي): ٢١٦ وَمَطْلَعُ الْقَصِيدَةِ:

بِقَائِي شَاءَ لَيْسَ هُمْ ارْتِحَالًا وَحُسْنُ الصَّبْرِ زَمُّوْا لَا الْجَمَالَ

بغته فتوهمت أن بيناً تهييني؟ ولا شك أن هذا التوهم كان سبب أن كان التولي بغته، وإذا كان كذلك كانت مع الأولى كالشيء الواحد، وكان منزلتها منها منزلة المفعول والظرف وسائر ما يجيء بعد تمام الجملة من معمولات الفعل مما لا يمكن إفراده على الجملة وأن يعتدّ كلاماً على حدّته.

وهنا شيء آخر دقيق، وهو أنك إذا نظرت إلى قوله: «فكان مسير عيسهم ذميلاً» وجدته لم يُعطف هو وحده على ما عُطف عليه [٨٠] ولكن تجد العطف قد تناول جملة البيت مربوطاً آخره بأوله، ألا ترى أن الغرض من هذا الكلام أن يجعل توليهم بغته وعلى الوجه الذي تُوهم من أجله أن البين تهيه مستدعياً بكاءه وموجباً أن ينهمل دمه فلم يَغْنِه أن يذكر دَمَلان العيس إلا ليدكر هملاً الدمع وأن يوفق بينهما؟ وكذلك الحكم في الأول فنحن وإن قلنا إن العطف على «تولوا بغته» فإننا لا نغني أن العطف عليه وحده مقطوعاً عما بعده بل العطف عليه مضموماً إليه ما بعده إلى آخره وإنما أردنا بقولنا: «إن العطف عليه» أن نعلمك أنه الأصل والقاعدة وأن نصرفك عن أن تطرحه وتجعل العطف على ما يلي هذا الذي تعطفه فتزعم أن قوله: «فكان مسير عيسهم، معطوف على «فاجاني» فتقع في الخطأ كالذي أريناك فأمر العطف إذن موضوع على أنك تعطف تارة جملة على جملة وتعمد أخرى إلى جملتين أو جمل فتعطف بعضاً على بعض ثم تعطف مجموع هذي على مجموع تلك.

وينبغي أن يُجعل ما يُصنع في الشرط والجزاء من هذا المعنى أصلاً يُعتبر به وذلك أنك ترى متى شئت جملتين قد عُطفت إحداها على الأخرى ثم جعلنا بمجموعهما شرطاً ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرَوْهَا بَرِيئًا فَقَدْ أَحْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ [النساء: ١١٢/٤] الشرط كما لا يخفى في مجموع الجملتين لا في كل واحدة منهما على الانفراد ولا في واحدة دون الأخرى لأننا إن قلنا إنه في كل واحدة منهما على الانفراد جعلناهما شرطين وإذا جعلناهما شرطين اقتضتا جزاءين وليس معنا إلا جزاء واحد. وإن قلنا إنه في واحدة منهما دون الأخرى لزم منه إشراك ما ليس بشرط في الجزم بالشرط وذلك

ما لا يخفى فسادُه. ثم إنا نعلم من طريق المعنى أنَّ الجزء الذي هو احتمال البهتان والإثم المبين أمرٌ يتعلَّق بإيجابه لمجموع^(١) ما حصل من الجملتين، فليس هو لاكتساب الخطيئة على الانفراد، ولا لرمي البريء بالخطيئة أو الإثم على [٨٠ ب] الإطلاق، بل لرمي الإنسان البريء بخطيئة أو إثم كان من الرامي، وكذلك الحكمُ أبداً، فقلوه تعالى: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠/٤]^(٢) لم يعلَّق الحكمُ فيه بالهجرة على الانفراد بل بها مقروناً إليها أن يدرَّكه الموت عليها.

واعلم أنَّ سبيلَ الجملتين في هذا وجعلهما بمجموعهما بمنزلة الجملة الواحدة سبيلَ الجزأين تُعَقَّدُ منهما الجملةُ ثم يُجَعَلُ^(٣) المجموعُ خبراً أو صفة أو حالاً كقول: زيدٌ قام غلامه، وزيدٌ أبوه كريمٌ، ومررتُ برجلٍ أبوه كريمٌ، وجاءني زيدٌ يعدو به فرسه. فكما يكون الخبر والصفة والحال لا محالة في مجموع الجزأين لا في أحدهما كذلك يكون الشرط في مجموع الجملتين لا في إحداهما، وإذا علمت ذلك في الشرط فاحتدّه في العطف فإنك تجده مثله سواء.

ومما لا^(٤) يكون العطف فيه إلّا على هذا الحدّ قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْفَرْقِ إِذْ قَضَيْتَنَا إِلَى مَوْى الْأَمْرِ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [٤٤-٤٥/٢٨] وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ [القصص: ٤٤-٤٥/٢٨] لو جَرِيتُ على الظاهر فجعلتُ كلَّ جملةٍ معطوفةً على ما يليها منعٌ منه المعنى وذلك أنه يلزمُ منه^(٥) أن يكونَ قوله: ﴿وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ معطوفاً على قوله: ﴿فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ وذلك

(١) في (ب): بمجموع.

(٢) والآية الكريمة: ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْعَاً كَثِيراً وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾.

(٣) في (ط): تجعل.

(٤) لا: سقطت من (أ).

(٥) في (ب): فيه.

يقتضي دخوله في معنى «لكن» ويصير كأنه قيل: ولكنك ما كنت ثاوياً، وذلك ما لا يخفى فساده. وإذا كان ذلك بأن منه أنه ينبغي أن يكون عطف مجموع ﴿وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ إلى ﴿مُرْسِلِينَ﴾ على مجموع قوله: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ﴾ إلى قوله: ﴿الْعُمَرُ﴾.

فإن قلت: فهلا قدرت أن يكون «وما كنت ثاوياً [في أهل مدين] معطوفاً على «وما كنت من الشاهدين» دون أن تزعم أنه^(١) معطوف عليه مضموماً إليه ما بعده إلى قوله: «العمر»؟ قيل: لأننا إن قدرنا ذلك وجب أن ينوي به التقديم على قوله: ﴿وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا﴾ [٨١] وأن يكون الترتيب: وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين وما كنت ثاوياً في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ولكننا أنشأنا قروناً فتناول عليهم العمر ولكننا كنا مرسلين. وفي ذلك إزالة (لكن) عن موضعها الذي ينبغي أن تكون فيه. ذاك لأن سبيل (لكن) سبيل (إلا) فكما لا يجوز أن تقول: جاءني القوم وخرج أصحابك إلا زيدا وإلا عمراً، بجعل «إلا زيدا» استثناء من جاءني القوم و «إلا عمراً» من خرج أصحابك. كذلك لا يجوز أن تصنع مثل ذلك بـ (لكن) فتقول: ما جاءني زيد وما خرج عمرو ولكن بكرة حاضر ولكن أخاك خارج. فإذا لم يجز ذلك وكان تقديرك الذي زعمت يؤدي إليه وجب أن تحكم بامتناعه فاعرفه.

هذا وإنما تجوز نيّة التأخير في شيء معناه يقتضي له ذلك التأخير مثل أن كون الاسم مفعولاً لا يقتضي له أن يكون بعد الفاعل فإذا قُدّم على الفاعل نُوي به التأخير ومعنى (لكن) في الآية يقتضي أن تكون في موضعها الذي هي فيه فكيف يجوز أن ينوي بها التأخير عنه إلى موضع آخر؟



هذه فصول شتى في أمر اللفظ والنظم فيها فضل شحذ للبصيرة، وزيادة كشف عما فيها من السريرة.

(١) ما بين معقوفتين سقط من (أ).

فصل

في ماهية البلاغة وصلتها بالإعجاز

وَعَلَّطَ النَّاسِ فِي هَذَا الْبَابِ كَثِيرٌ فَمِنْ ذَلِكَ أَنَّكَ تَجِدُ كَثِيرًا مِمَّنْ يَتَكَلَّمُ فِي شَأْنِ الْبَلَاغَةِ إِذَا ذُكِرَ أَنَّ لِلْعَرَبِ الْفَضْلَ وَالْمِزِيَّةَ فِي حُسْنِ النِّظْمِ وَالتَّأْلِيفِ وَأَنَّ لَهَا فِي ذَلِكَ شَأوًا لَا يَبْلُغُهُ الدِّخْلَاءُ فِي كَلَامِهِمْ وَالْمَوْلِدُونَ جَعَلَ يَعْزِلُ ذَلِكَ بِأَنَّهُ يَقُولُ: لَا غَرَوَ فَإِنَّ اللَّغَةَ لَهَا بِالطَّبَعِ وَلَنَا بِالتَّكَلُّفِ، وَلَنْ يَبْلُغَ الدِّخِيلُ فِي اللُّغَاتِ وَالْأَلْسِنَةِ مَبْلَغَ مَنْ نَشَأَ عَلَيْهَا، وَبَدَأَ مِنْ أَوَّلِ خَلْقِهِ بِهَا. وَأَشْبَاهُ هَذَا مِمَّا يُؤْهِمُ أَنَّ الْمِزِيَّةَ أَتَتْهَا مِنْ جَانِبِ الْعِلْمِ بِاللُّغَةِ، وَهُوَ خَطَأٌ عَظِيمٌ مَنْكَرٌ يُفْضِي بِقَائِلِهِ إِلَى رَفْعِ الْإِعْجَازِ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُ وَذَلِكَ أَنَّهُ لَا يَثْبُتُ إِعْجَازُ [٨١ ب] حَتَّى تَثْبُتَ مَزَايَا تَفَوْقَ عُلُومِ الْبَشَرِ وَتَقْصُرُ قُوَى نَظَرَتِهِمْ عَنْهَا وَمَعْلُومَاتُ لَيْسَ فِي مُنَنِ^(١) أَفْكَارِهِمْ وَخَوَاطِرِهِمْ أَنَّ تُفْضِي بِهِمْ إِلَيْهَا، وَأَنْ تَطْلُعَ عَلَيْهِمْ، وَذَلِكَ مُحَالٌ فِيمَا كَانَ عِلْمًا بِاللُّغَةِ لِأَنَّهُ يُوْدِي إِلَى أَنْ يُحَدِّثَ فِي دَلَائِلِ اللُّغَةِ مَا لَمْ يَتَوَاضَعَ عَلَيْهِ أَهْلُ اللُّغَةِ وَذَلِكَ مَا لَا يَخْفَى امْتِنَاعُهُ عَلَى عَاقِلٍ.

(١) الْمُنَنِ - بِالضَّم - جَمْعُ مُنَّةٍ - بِالضَّم - وَهِيَ الْقُوَّةُ، وَبَعْضُهُمْ يَخْصُهَا بِقُوَّةِ الْقَلْبِ. قَالَ الْجَاهِظُ فِي الْبَيَانِ وَالتَّبْيِينِ ١٧٦/١: «وَكُنَّا يَمْدُحُونَ شِدَّةَ الْعَارِضَةِ، وَقُوَّةَ الْمُنَّةِ، وَظُهُورَ الْحُجَّةِ، وَثِبَاتَ الْجَنَانِ، وَكَثْرَةَ الرِّيقِ، وَالْعُلُوَّ عَلَى الْخَصْمِ، وَيَهْجُونَ بِخِلَافِ ذَلِكَ».

واعلم أنا لم نوجب المزية من أجل العلم بأنفس الفروق والوجوه فنستند إلى اللغة ولكننا أوجبناها للعلم بمواضعها وما ينبغي أن يُضنَّع فيها.

فليس الفضل للعلم بأن الواو للجمع والفاء للتعقيب بغير تراخ «وتم» له بشرط التراخي و «إن» لكذا و «إذا» لكذا، ولكن لأن يتأتى لك إذا نظمت شعراً^(١) وألفت رسالة أن تحسن التخيير وأن تعرف لكل من ذلك موضعه. وأمر آخر إذا تأمله الإنسان^(٢) أنف من حكاية هذا القول فضلاً عن اعتقاده وهو أن المزية لو كانت تجب من أجل اللغة والعلم بأوضاعها^(٣) وما أراده الواضع فيها لكان ينبغي أن لا تجب إلا بمثل الفرق بين الفاء و تم وإن وإذا وما أشبه ذلك مما يعبر عنه وضْع لغوي فكانت لا تجب بالفصل وترك العطف بالحذف والتكرار والتقديم والتأخير وسائر ما هو هيئة يحدُّها لك التأليف ويقتضيها الغرض الذي تؤمُّ والمعنى الذي تقصِّد، وكان ينبغي أن لا تجب المزية بما يبتدئه الشاعر والخطيب في كلامه من استعارة اللفظ للشيء لم يستعز له وأن لا تكون الفضيلة إلا في استعارة قد تعورفت في كلام العرب وكفى بذلك جهلاً. ولم يكن هذا الاشتباه وهذا الغلط إلا لأنه ليس في جملة الخفايا والمشكلات أغرب مذهباً في الغموض ولا أعجب شأناً من هذه التي نحن بصددِها، ولا أكثر تفلُّناً من الفهم وانسلالاً منها، وأن الذي قاله العلماء والبلغاء في صفتها والإخبار عنها رموز لا يفهمها إلا [٨٢] مَنْ هُوَ في مثل حالهم من لطف الطبع ومَنْ هو مهياً لفهم تلك الإشارات حتى كأن تلك الطباع اللطيفة وتلك القرائح والأذهان قد تواضعت فيما بينها على ما سبيله سبيل الترجمة يتواطأ عليها قوم فلا تغدوهم ولا يعرفها مَنْ ليس منهم.

وليت شعري مَنْ أينَ لمنْ لَمْ يتعب في هذا الشأن ولم يمارسه ولم يوفر عنايته عليه أن ينظر إلى قول الجاحظ وهو يذكر إعجاز القرآن^(٤): «ولو أن رجلاً

(١) شعراً: سقط من (ط).

(٢) في (ط): إذا تأمله إنسان.

(٣) في (أ): أوصافها.

(٤) الفقرة في الباقي من كتابه (حُجج النبوة) رسائل الجاحظ (٢٢٩/٣) وفيه: «... لأن

قرأ على رجلٍ من خطبائهم وبلغائهم سورةً قصيرةً أو طويلةً لتبينَ له في نظامها ومخرجها من لفظها وطابعها أنه عاجزٌ عن مثلها ولو تحدّى بها أبلغُ العربِ لأظهرَ عجزه عنها» وقوله وهو يذكرُ روايةَ الأخبار^(١): ورأيتُ عامتهم فقد طالت مشاهدتي لهم وهم لا يقفونَ إلّا^(٢) على الألفاظِ المتخيرة والمعاني المنتخبة والمخارج السهلة والديباجة الكريمة وعلى الطبع المتمكّن وعلى السبك الجيد وعلى كلِّ كلامٍ له ماءٌ ورونقٌ». وقوله في بيتِ الحطيئة^(٣):

متى تأتِه تَغشُو إلى ضَوْءِ نارِه تجذُ خيرَ نارٍ عندها خيرُ موقِدِ

«وما كان ينبغي أن يُمدَح بهذا البيتِ إلّا من هو خيرُ أهلِ الأرضِ على أتني لم أعجبَ بمعناه أكثرَ من عُجبي بلفظه وطبعه ونحته وسبكه» فيفهم منه شيئاً أو يقف للطابع والنظام والتحت والسبك والمخارج السهلة على معنى أو يخلّى منه بشيءٍ وكيف بأن يعرفه ولربما خفيَ على كثيرٍ من أهله.

واعلم أن الداءَ الدَّويَّ والذي أعيأ أمره في هذا الباب غلطٌ من قَدَم الشعرِ بمعناه وأقلُّ الاحتفال باللفظ وجعل لا يعطيه من المزية إن هو أعطى إلا ما فُضِّل

= رجلاً من العرب لو قرأ على رجل من خطبائهم وبلغائهم سورة واحدة طويلة أو قصيرة لتبينَ له في نظامها ومخرجها وفي لفظها وطبعها أنه عاجز عن مثلها. ولو تحدّى بها أبلغ العرب لظهر عجزه عنها.

(١) في البيان والتبيين ٢٤/٤: قال الجاحظ: «ولم أرَ غايةَ رواية الأخبار إلّا كل شعرٍ فيه الشاهد والمثل. ورأيتُ عامتهم - فقد طالت مشاهدتي لهم - لا يقفونَ إلّا على الألفاظِ المتخيرة، والمعاني المنتخبة، وعلى الألفاظِ العذبة والمخارج السهلة، والديباجة الكريمة وعلى الطبع المتمكّن، وعلى السبك الجيد، وعلى كلِّ كلامٍ له ماءٌ ورونقٌ، وعلى المعاني التي إذا صارت في الصدور عَمَرَتها وأصلحتها من الفساد القديم، وفتحت للسان باب البلاغة، ودلّت الأقاليم على مدافن الألفاظ، وأشارت إلى حسان المعاني».

(٢) سقطت «إلّا» من (أ).

(٣) ديوان الحطيئة: ١٦١ من قصيدة في مدح بغيص بن شماس. والبيت في البيان والتبيين

٢٩/٢ والتعليق يختلف عمّا نقله عبد القاهر هنا. وانظر ما نقله في الديوان: ١٦٣

عن المعنى. يقول ما في اللفظ لولا المعنى وهل الكلام إلا بمعناه. فأنْتَ تراه لا يقدم شعراً حتى يكون قد أودعَ حكمة أو^(١) أدباً واشتملَ على تشبيه غريب ومعنى نادر، فإن مالَ إلى اللفظ شيئاً ورأى أن ينحلّه بعض الفضيلة [٨٢ ب] لم يعرف غير الاستعارة ثم لا ينظر في حال تلك الاستعارة أحسنت بمجرد كونها استعارة أم من أجل فَرْقٍ ووجهٍ أم للأمرين. لا يخفى بهذا وشبهه قد قنعَ بظواهر الأمور وبالجمل وبأن يكون كمن يجلبُ المتاعَ للبيع إنما همُّه أن يروج^(٢) عنه. يرى أنه إذا تكلم في الأخذ والسرقة وأحسن أن يقول: أخذه من فلانٍ وألّم فيه بقول كذا؛ فقد استكمل الفضل وبلغ أقصى ما يراؤ.

واعلم أنا وإن كنا إذا اتبعنا العرفَ والعادة وما يهجسُ في الضمير وما عليه العامة أَرانا ذلك أن الصوابَ معهم وأن التعويلَ ينبغي أن يكونَ على المعنى وأنه الذي لا يسوغُ القولُ بخلافه فإنَّ الأمرَ بالضدِّ إذا جئنا إلى الحقائق وإلى ما عليه المحضُّون لأننا لا نرى متقدماً في علم البلاغة مبرزاً في شأوها إلا وهو ينكر هذا الرأيَ ويعيبه ويُزري على القائل به ويغضُّ منه. فمن^(٣) ذلك ما روي عن البحتري: روي أن عبيد الله بن عبيد الله بن طاهر سألَه عن مسلم وأبي نواس أيهما أشعر؟ فقال: أبو نواس. فقال: إن أبا العباسِ ثعلباً لا يوافقك على هذا، فقال: ليس هذا من شأن ثعلبٍ وذويه من المتعاطين لعلم الشعر دون عمله إنما يعلم ذلك مَنْ دُفِعَ في سلك طريق الشعر إلى مضايقه وانتهى إلى ضروراته^(٤). وعن بعضهم^(٥) أنه قال: رأني البحتري ومعي دفتُرُ شعرٍ فقال: ما هذا؟ فقلتُ: شعرُ الشنفرى. فقال: وإلى أين تمضي؟ فقلتُ: إلى أبي العباسِ

(١) في (ط): وأدباً.

(٢) في (ط): أن يروج.

(٣) في (ط): ومن ذلك.

(٤) الخبر في الكشف عن مساوئ شعر المتنبي للصاحب بن عباد: ٢٢٤. وهو في العمد

١٠٤/٢

(٥) هو علي بن العباس كما في أخبار البحتري: ١٣٥ وانظر الخبر هناك، وانظر ديوان

أبي نواس (الصولي) ٥٢

أقرؤه عليه. فقال^(١): قد رأيتُ أبا عَبَّاسِكُمْ هذا منذُ أيامٍ عند ابنِ ثَوَابَةِ^(٢)، فما رأيتهُ ناقداً للشعر ولا مميزاً للألفاظ، ورأيتُهُ يستجيدُ شيئاً وينشدُهُ وما هو بأفضل الشعر. فقلتُ له: أما نقدُهُ وتمييزُهُ فهذه صناعةٌ أخرى؛ ولكنَّه أعرفُ الناسَ بإعرابهِ وغريبهِ فما كان يُنشدُ؟ قالَ قولُ الحارثِ بنِ وَعْلَةَ^(٣):

قَوْمِي هُمْ قَتَلُوا - أُمِيمَ! - أَخِي فَإِذَا رَمَيْتُ يُصِيبُنِي سَهْمِي [٨٣]

فَلَيْسَ عَفْوُكَ لِأَعْفُونَ جَللاً وَلَيْسَ سَطْوُكَ لِأَوْهَنِّ عَظْمِي

فقلتُ: والله ما أنشدَ إلا أحسنَ شعرٍ في أحسنِ معنى ولفظ. فقال: أين الشعرُ الذي فيه عروقُ الذهبِ؟ فقلتُ: مثلُ^(٤) ماذا؟ فقال: مثلُ قولِ^(٥) أبي ذُؤَابِ^(٦):

إِنْ يَقْتُلُوكَ فَقَدْ ثَلَّكَ عُروَشُهُمْ بَعْتَبَةَ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ شِهَابٍ

بِأَسَدِهِمْ كَلْباً عَلَى أَغْدَائِهِ وَأَعَزَّهُمْ فَقَدْ أَعْلَى الْأَصْحَابِ

- (١) في أخبار البحري: «فقلتُ إلى أبي العباس ثعلب، فقال لي...».
- (٢) هو أبو العباس أحمد بن محمد بن ثواب الكاتب، تولى كتابة الإنشاء في دار الخلافة ببغداد سنين كثيرة ومات سنة ٢٧٧ هـ (الفهرست ١٨٧ - ١٨٨، معجم الأدباء ٤/ ١٤٤).

- (٣) في أخبار البحري «قول الربيعي الحارث بن وعلة» والحارث بن وعلة: شاعر جاهلي شيباني ذهلي، قتل بنو شيبان أخاه المنذر بن وعلة، فقال هذه الأبيات (المؤتلف والمختلف ٣٠٣، سمط اللآلي ٥٨٥) والوعلة هي الصخرة المشرفة من أعلى الجبل (الحماسة «المرزوقي» ٢٠٣) والبيتان مطلع قصيدة حماسية. انظر الحماسة (المرزوقي) ٢٠٤/١.

- أُمِيمَ: منادى مرخم يا أميمة. والجلل: الأمر العظيم. وأوهن عظمه: أضعفه.
- (٤) مثل: سقطت من (ب). وفي أخبار البحري: «قلت: مثل ماذا؟».
- (٥) في أخبار البحري: «قال: قول أبي ذؤاب ربيعة الأسدي». وهو ربيعة بن عبيد الأسدي. والبيتان في المؤتلف والمختلف للامدي ١٢٦، وأمالى القالي ٧٢/٢، وسمط اللآلي ٧٠٦. ويقال ثلّ الدار: هدمها. وثلّ عرشه: أذهب سلطانه.
- (٦) انظر ديوان أبي نواس (شرح الصولي) المقدمة ٥٢ والأبيات مع خبر في العقد ٥/ ٢٤٩، وهما في أخبار البحري ١٣٧.

وفي مثل هذا قال الشاعر^(١):

زَوَامِلُ لِلأَشْعَارِ لَا عِلْمَ عِنْدَهُمْ بِجَبِيدِهَا إِلَّا كَعِلْمِ الأَبَاعِرِ
لَعَمْرُكَ مَا يَذْرِي البَعِيرُ إِذَا غَدَا بأوساقِهِ أَوْ رَاحَ مَا فِي الْغَرَائِرِ
وقال الآخر^(٢):

يَا أَبَا جَعْفَرٍ تَحَكَّمْ فِي الشَّعْرِ وَمَا فِيكَ أَلَّةُ الْحُكَّامِ
إِنَّ نَقْدَ الدِّينَارِ إِلَّا عَلَى الصَّبِّ رَفِ صَغْبٌ فَكَيْفَ نَقْدُ الْكَلَامِ؟
قَدْ رَأَيْنَاكَ لَسْتَ تَفْرُقُ فِي الأَشْدِّ عَارِ بَيْنِ الأَزْوَاجِ والأَجْسَامِ!

واعلم أنهم لم يعيخوا تقديم الكلام بمعناه من حيث جهلوا أن المعنى إذا كان أدباً وحكمةً وكان غريباً نادراً فهو أشرف مما ليس كذلك، بل عابوه من حيث كان من حكم من قضى في جنس من الأجناس بفضل أو نقص أن لا يعتبر في قضيتيه تلك إلا الأوصاف التي تخص ذلك الجنس وترجع إلى حقيقته وأن لا ينظر فيها إلى جنس آخر وإن كان من الأول بسبيل أو متصلاً به اتصالاً ما لا ينفك منه. ومعلوم أن سبيل الكلام سبيل التصوير والصياغة وأن سبيل المعنى الذي يعبر عنه سبيل الشيء الذي يقع التصوير والصوغ فيه كالفضة والذهب يصاغ منهما خاتم أو سوار فكما أن محالاً إذا أنت أردت النظر في صوغ الخاتم وفي جودة العمل وردائه أن ينظر إلى الفضة الحاملة لتلك الصورة

(١) البيتان لمروان بن أبي حفصة: مجموع شعره ٥٨ وهما في العقد ٤٨٤/٢، وعيون الأخبار ١٣٠/٢، وفي الكامل ١٣٢/٣، المزهري ٣١١/٢ والشاعر هو مروان بن سليمان بن يحيى بن أبي حفصة أحد الشعراء البارزين في العصر العباسي. توفي ما بين سنة ١٨١ - ١٨٢ هـ الشعر والشعراء ٧٦٣

- وجمع شعره الدكتور حسين عطوان كما جمعه الدكتور قحطان رشيد.

(٢) هو كما في مقدمة ديوان أبي نواس (الصولي) ٤٠: أحمد بن يحيى بن علي، وفي المصنوع ١٢: هو يحيى بن علي أبو أحمد. والأبيات في المصنوع ١٢ - ١٣، ومقدمة ديوان أبي نواس (الصولي) ٤٢، وهي في وفيات الأعيان ٢٠/٢

أو الذهب الذي وقع فيه العملُ وتلك الصنعة. كذلك محالٌّ إذا أردت أن تعرف [٨٣ ب] مكانَ الفضلِ والمزية في الكلام أن تنظرَ في مجرد معناه. وكما أننا لو فضلنا خاتماً على خاتمٍ بأن تكونَ فضةُ هذا أجودَ أو فضةُ أنفسٍ لم يكن ذلك تفضيلاً له من حيث هو خاتمٌ. كذلك ينبغي إذا فضلنا بيتاً على بيتٍ من أجل معناه أن لا يكون ذلك^(١) تفضيلاً له من حيث هو شعرٌ وكلامٌ وهذا قاطعٌ فاعرفه.

واعلم أنك لستَ تنظرُ في كتابٍ صنّف في شأنِ البلاغةِ وكلامٍ جاء عن القدماءِ إلّا وجدته يدلُّ على فسادِ هذا المذهبِ ورأيتهم يتشدّدون في إنكاره وعيبه والعيب به. وإذا نظرت في كتبِ الجاحظِ وجدته يبلغُ في ذلك كلّ مبلغٍ ويتشدّد غايةَ التشدّد وقد انتهى في ذلك إلى أن جعلَ العلمَ بالمعنى مشتركاً وسوى فيه بين الخاصةِ والعامةِ فقال: ورأيتُ ناساً يبهرجون أشعارَ المولّدين ويسنّطون مَنْ رَواها ولم أرَ ذلك قطّ إلّا في روايةٍ غيرِ بصيرٍ^(٢) بجوهرٍ ما يروي ولو كان له بصيرٌ لعرفَ موضعَ الجيدِ ممن كانَ وفي أيّ زمانٍ كان. وأنا سمعتُ أبا عمرو الشيباني وقد بلغَ من استجاداته لهذين البيتين ونحنُ في المسجد الجامع^(٣) يومَ الجمعة أن كلّ رجلاً حتّى أحضره قِرطاساً ودواةً حتّى كتبهما. قال الجاحظُ: وأنا أزعمُ أنّ صاحبَ هذين البيتين لا يقولُ شعراً أبداً ولولا أن أدخلَ في الحكومةِ بعضَ العيّبِ لزعمتُ أن ابنه لا يقولُ الشعرَ أيضاً وهما قوله:

لا تَحَسَبَنَّ الْمَوْتَ مَوْتِ الْبَلَى وإنّما الْمَوْتُ سِوَالِ الرِّجَالِ

كِلَاهُمَا مَوْتُ وَلَكِنَّ ذَا أَشَدُّ مِنْ ذَاكَ عَلَى كُلِّ حَالٍ

ثم قال: وذهبَ الشيخُ إلى استحسانِ المعاني والمعاني مطروحةٌ في الطريقِ يعرفُها العجميّ والعربيّ، والقرويّ، وإنما الشأنُ في إقامةِ الوزنِ، وتخييرِ اللفظِ، وسهولةِ المخرجِ، وصحةِ الطّبعِ، وكثرةِ الماءِ، وجودةِ السبكِ، وإنما الشعرُ

(١) ذلك: سقطت من (ط).

(٢) في الحيوان ٣/ ١٣٠: «ولم أرَ ذلك قطّ إلّا في روايةٍ للشعر غيرِ بصيرٍ بجوهرٍ ما يروي».

(٣) البيتان والخبر في الحيوان ٣/ ١٣٠، ١٣١ والبيتان في البيان والتبيين ٢/ ١٧١ وفي

الحيوان روى الشطر الثاني من البيت الثاني: «أفزع من ذلك لذل السؤال».

صياغةً وضربٌ من التصوير^(١). فقد تراه كيف أسقط أمر المعاني [١٨٤] وأبى أن يجب لها فضلٌ فقال: وهي مطروحةٌ في الطريق، ثم قال: وأنا أزعُم أن صاحب هذين البيتين لا يقول شعراً أبداً. فأعلمك أن فضل الشعر بلفظه لا بمعناه وأنه إذا عدم الحُسن في لفظه ونظمه لم يستحق هذا الاسم بالحقيقة، وأعاد طرفاً من هذا الحديث في (البيان) فقال: «ولقد رأيت أبا عمرو الشيباني يكتب أشعاراً من أفواه جلسائه ليدخلها في باب التحقُّط والتذكُّر، وربَّما خيل إلي أن أبناء أولئك الشعراء لا يستطيعون أبداً أن يقولوا شعراً جيداً لمكان أعراقهم من أولئك الآباء. ثم قال: «ولولا أن أكون عيَّاباً ثم للعلماء خاصةً لصورت لك^(٢) بعض ما سمعت من أبي عبيدة ومن هو أبعد في وهمك من أبي عبيدة»^(٣).

واعلم أنهم لم يبلغوا في إنكار هذا المذهب ما بلغوه إلا لأن الخطأ فيه عظيمٌ وأنه يُفضي بصاحبه إلى أن ينكر الإعجاز ويبطل التَّحدي من حيث لا يشعر. وذلك أنه إن كان العمل على ما يذهبون إليه من أن لا يجب فضلٌ ومزيةٌ إلا من جانب المعنى وحتى يكون قد قالَ حكمةً أو أدباً واستخرج معنىً غريباً أو تشبيهاً^(٤) نادراً فقد وجب اطراح جميع ما قاله الناس في الفصاحة والبلاغة وفي شأن النظم والتأليف وبطل أن يجب بالنظم فضلٌ وأن تدخله المزية وأن تتفاوت فيه المنازل وإذا بطل ذلك فقد بطل أن يكون في الكلام معجزٌ وصار الأمر إلى ما يقوله اليهود ومن قالَ بمثل مقالهم في هذا الباب ودخل في مثل تلك الجهالات ونعوذ بالله من العمى بعد الإبصار.

(١) في البيان والتبيين: «لصورت لك في هذا الكتاب».

(٢) انظر البيان والتبيين ٢٤/٤

(٣) في (ط): شبيهاً.

(٤) انظر الحيوان ٣/١٣١، ١٣٢. والعبارة الأخيرة في الحيوان: «فإنما الشعر صناعةٌ

وضرب من النسخ، وجنس من التصوير».

[باب اللفظ والنظم]

فصل منه

لا يكون لإحدى العبارتين مزية على الأخرى حتى يكون لها في المعنى تأثير لا يكون لصاحبتهما. فإن قلت: فإذا أفادت هذه ما لا تفيده تلك فليستا عبارتين عن معنى واحد بل هما عبارتان عن معنيين اثنين، قيل لك: إن قولنا «المعنى» في مثل هذا يراد [ب ٨٤] به الغرض والذي أراد المتكلم أن يشبه أو ينفيه نحو إن تقصد تشبيه الرجل بالأسد فتقول: زيد كالأسد. ثم تريد هذا المعنى بعينه فتقول: كان زيدا الأسد. فتفيد تشبيهه أيضاً بالأسد إلا أنك تزيد في معنى^(١) تشبيهه به زيادة لم تكن في الأول وهي أن تجعله من فرط شجاعته وقوة قلبه وأنه لا يروعه شيء بحيث لا يتميز عن الأسد ولا يقصُر عنه حتى يتوهم أنه أسد في صورة آدمي. وإذا كان هذا كذلك فانظر هل كانت هذه الزيادة وهذا الفرق إلا بما تُؤخِّي في نظم اللفظ وترتيبه حيث قدّم الكاف إلى صدر الكلام ورتبت مع «أن»، وإذا لم يكن إلى الشك سبيل أن ذلك كان بالنظم فاجعله العبرة في الكلام كله ورض نفسك على تفهم ذلك وتتبعه واجعل فيها أنك تراوُل منه أمراً عظيماً لا يقادر قدره، وتدخل في بحر عميق لا يُذكر قعره.

(١) معنى: سقطت من (أ).

فصل

[هو فنُّ آخره يرجع إلى هذا الكلام]

قد عُلم أن المعارضَ للكلام معارضٌ له من الجهة التي منها يُوصَف بأنه فصيحٌ وبلغٌ ومتخيرٌ اللفظ جيدُ السبك ونحو ذلك من الأوصاف التي نسبوها إلى اللفظ. وإذا كان هذا هكذا فبينا أن ننظر فيما إذا أتى به كان معارضاً ما هو؟ أهو أن يجيء بلفظٍ فيضعه مكانَ لفظٍ آخرَ نحو أن يقولَ بدلَ أسدٍ: ليثٌ، وبدلَ بُعدٍ: نأى، ومكانَ قُربٍ: دنا. أم ذلك ما لا يذهبُ إليه عاقلٌ ولا يقوله مَنْ به طَرَق؟ كيف ولو كان ذلك معارضةً لكان الناسُ لا يفصلون بين الترجمة والمعارضة ولكان كلُّ من فسرَ كلاماً معارضاً له. وإذا بطلَ أن يكونَ جهةً للمعارضة وأن يكونَ الواضعُ نفسه في هذه المنزلة معارضاً على وجهٍ من الوجوه علمتَ أن الفصاحةَ والبلاغةَ وسائرَ ما يجري في طريقيهما أوصافٌ راجعة إلى المعاني وإلى ما يُدْأى عليه بالألفاظِ دونَ الألفاظِ أنفسِها [١٨٥] لأنه إذا لم يكن في القسمة إلا المعاني والألفاظُ وكان لا يُعقلُ تعارضٌ في الألفاظِ المجردة إلا ما ذكرتُ لم يبقَ إلا أن تكونَ المعارضةُ معارضةً من جهة ترجعُ إلى معاني الكلام المعقولة دونَ ألفاظه المسموعة. وإذا عادت المعارضةُ إلى جهة المعنى وكانَ الكلامُ يعارضُ من حيثُ هو فصيحٌ وبلغٌ ومتخيرٌ اللفظُ حصلَ من ذلك أنَّ الفصاحةَ والبلاغةَ وتخيرَ اللفظِ عبارةٌ عن خصائصٍ ووجوهٍ تكونُ معاني الكلامِ عليها وعن زياداتٍ تحدث في أصولِ المعاني كالذي

أرئيتك فيما بين «زيد كالأسد» و«كأن زيدا الأسد» وبأن لا نصيب للألفاظ من حيث هي ألفاظ فيها بوجه من الوجوه.

واعلم أنك لا تشفي الغلة ولا تنتهي إلى ثلج اليقين حتى تتجاوز حد العلم بالشيء مجملاً إلى العلم به مفصلاً، وحتى لا يُقْنِعَكَ إِلَّا النظرُ في زواياه والتغلغلُ في مكانه، وحتى تكون كمن تتبَّع الماءَ حتى عرف منبعه وانتهى في البحث عن جوهر المُود الذي يصنع فيه إلى أن يعرف منبته ومجرى عُروق الشجر الذي هو منه. وإنا لنراهم يقيسون الكلام في معنى المعارضة على الأعمال الصناعية كَنَسْجِ الديباج وصَوْغِ الشَّنْفِ والسَّوار وأنواع ما يصاغ وكل ما هو صنعة وعمل يد بعد أن يبلغ مبلغاً يقع التفاضل فيه ثم يعظم حتى يزيد فيه الصانع على الصانع زيادةً يكون له بها صيت ويدخل في حد ما يعجز عنه الآخرون. وهذا القياس وإن كان قياساً ظاهراً معلوماً وكالشيء المركوز في الطباع حتى ترى العامة فيه كالخاصة فإن فيه أمراً يجب العلم به وهو أنه يتصور أن يبدأ هذا فيعمل ديباجاً ويُبدع في نقشه وتصويره فيجيء آخرُ ويعمل ديباجاً آخرَ مثله في نقشه وهيئته وجملة صفته حتى لا يفصل الرائي بينهما ولا يقع لمن لم يعرف القصة ولم يخبر الحال إلا أنهما صنعة رجل واحد وخارجان من تحت يد واحدة. وهكذا الحكم في سائر المصنوعات [٨٥ ب] كالسَّوار يصوغه هذا ويجيء ذاك فيعمل سواراً مثله ويؤدي صنعة كما هي حتى لا يغادر منها شيئاً البتة. وليس يتصوَّبُ مثل ذلك في الكلام لأنه لا سبيل إلى أن تجيء إلى معنى بيت من الشعر أو فصل من الشر فتؤديه بعينه وعلى خاصيته وصفته بعبارة أخرى حتى يكون المفهوم من هذه هو المفهوم من تلك لا يخالفه في صفة ولا وجه ولا أمر من الأمور. ولا يغرنك قول الناس: قد أتى بالمعنى بعينه وأخذ معنى كلامه فأداه على وجهه. فإنه تسامحٌ منهم والمراد أنه أدى الغرض فأما أن يؤدي المعنى بعينه^(١) على الوجه الذي يكون عليه^(٢) في كلام الأول حتى لا تعقل

(١) بعينه: سقطت من (أ).

(٢) عليه: سقطت من (ب).

ههنا^(١) إِلَّا مَا عَقَلْتَهُ هناك وحتى يكونَ حالُهما في نفسك حالَ الصورتين المشتبهتين في عينك كالسوارين والشَّنْفين ففي غاية الإحالة وظنُّ يفضي بصاحبه إلى جَهَالَةٍ عظيمةٍ وهي أن تكونَ الألفاظُ مختلفةً المعاني إذا فُرِّقَتْ ومتفقتها إذا جُمِعَتْ وألَّفَ منها كلامٌ، وذلك أن ليس كلامنا فيما يُفْهَم من لفظتين مفردتين نحو «قعدَ وجلس» ولكن فيما فُهِمَ من مجموعِ كلامٍ ومجموعِ كلامٍ آخرَ نحو أن تنظر في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩/٢]^(٢) وقول الناس: قَتَلُ البعضِ إحياءً للجميع. فإنه وإن كان قد جَرَتْ عادةُ الناسِ بأن يقولوا في مثل هذا: إنهما عبارتَانِ معبرهما واحدٌ، فليس هذا القولُ قولاً مِنْهُم^(٣) يمكنُ الأخذُ بظاهره أو يقعُ لعاقلي شكٌّ أن ليسَ المفهومُ من أحدِ الكلامَيْنِ المفهومَ من الآخر.



(١) ههنا: سقطت من (أ).

(٢) والآية الكريمة: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَتَأَوَّلِي الْأَلْبَبِ لَمَلَكُمْ نَتَّقُونَ﴾.

(٣) منهم: سقطت من (ط).

فصل

لِفي المعنى، وفي معنى المعنى

الكلام على ضربين: ضربٌ أنت تصلُّ منه إلى الغرضِ بدلالة اللفظ وحده وذلك إذا قصدت أن تخبرَ عن زيد مثلاً بالخروج على الحقيقة فقلت: خرج زيد. وبالانطلاق عن عمرو فقلت: عمرو منطلق. وعلى هذا القياس. وضربٌ آخر أنت لا تصلُّ منه إلى الغرضِ بدلالة اللفظ وحده ولكن يدُلُّ اللفظ على معناه الذي يقتضيه [٨٦] موضوعه في اللغة ثم تجدُ لذلك المعنى دلالةً ثانية تصلُّ بها إلى الغرضِ ومدارُ هذا الأمرِ على الكناية والاستعارة والتمثيل. وقد مَضَتْ الأمثلةُ فيها مشروحةً مستقصاة، أو لا ترى أنك إذا قلت: هو كثيرُ رماذٍ القدر، أو قلت: طويلُ النجاد، أو قلت في المرأة: نُؤومُ الضحى؛ فإنك في جميع ذلك لا تفيدُ غرضك الذي تعني من مجرد اللفظ ولكن يدل اللفظ على معناه الذي يوجبُه ظاهره ثم يغفل السامعُ من ذلك المعنى على سبيل الاستدلالِ معنىً ثانياً هو غرضك كمعرفتك من كثيرِ رماذٍ القدر أنه مضيافٌ ومن طويلٍ^(١) النجاد أنه طويلُ القامة ومن نُؤومِ الضحى في المرأة أنها مترفةٌ مخدومةٌ لها مَنْ يكفيها أمرها. وكذا إذا قال: رأيتُ أسداً - وذلك الحال على أنه لم يُرد السبع - علمت أنه أرادَ التشبيهَ إلا أنه بالغَ فجعلَ الذي رآه بحيث لا يتميز من الأسد في

(١) في (ط): ومن طول النجاد.

شجاعته. وكذلك تعلم من قوله: بلغني أنك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى؛ أنه أراد التردد في أمر البيعة واختلاف العزم في الفعل وتركه على ما مضى الشرح فيه.

وإذ قد عرفت هذه الجملة فما هنا عبارة مختصرة وهي أن تقول المعنى ومعنى المعنى، تعني بالمعنى المفهوم من ظاهر اللفظ والذي تصل إليه بغير واسطة وبمعنى المعنى أن تعقل من اللفظ معنى ثم يُقضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر كالذي فسرت لك.

وإذ قد عرفت ذلك فإذا رأيتهم يجعلون الألفاظ زينة للمعاني وحلية عليها أو يجعلون المعاني كالجواري والألفاظ كالمعارض لها وكالوشي المحبب واللباس الفاخر والكسوة الرائقة إلى أشباه ذلك مما يفخمون به أمر اللفظ ويجعلون المعنى ينبل به ويشرف فاعلم أنهم يضعون كلاماً قد [يفخمون به أمر اللفظ ويجعلون المعنى] (١) أعطاك المتكلم أغراضه فيه من طريق معنى المعنى فكنت وعرض ومثل واستعار ثم أحسن [٨٦ ب] في ذلك كله وأصاب ووضع كل شيء منه في موضعه وأصاب به شاكلته وعمد فيما كتى به وشبه ومثل لما حسن مأخذه ودق مسلكه ولطف إشارته، وأن المعرض وما في معناه ليس هو اللفظ المنطوق به ولكن معنى اللفظ الذي دللت به على المعنى الثاني كمعنى قوله (٢):

..... فإني جبان الكلب مهزول الفصيل

الذي هو دليل على أنه مضاف، فالمعاني الأول المفهومة من أنفس الألفاظ هي المعارض والوشي والحلي وأشباه ذلك والمعاني والثواني التي يوماً إليها بتلك المعاني هي التي تُكسى تلك المعارض وتزين بذلك الوشي والحلي. وكذلك إذا جعلوا المعنى يتصور من أجل اللفظ بصورة ويبدو في هيئة ويتشكل

(١) ما بين معقوفتين سقط من (أ) و (ب).

(٢) صدره:

وما يك في من عيب فإني

والبيت أنشده الجاحظ في الحيوان ٣٨٤/١: ولم ينسبه وأنشده أبو تمام في الحماسة

(مرزوقي) ١٦٥٠/٤ ولم ينسبه، وهو من شواهد الصناعتين: ٣٥١

بشكلٍ يرجعُ المعنى في ذلك كله إلى الدلالاتِ المعنوية ولا يَصْلُحُ شيءٌ منه حيثُ الكلامُ على ظاهره وحيثُ لا يكونُ كنايةً وتمثيلٌ به ولا استعارةً ولا استعانةً في الجملةِ بمعنى على معنى وتكونُ الدلالةُ على الغرضِ من مجردِ اللفظِ، فلو أن قائلًا قال: رأيتُ الأسدَ، وقال آخرُ: لقيتُ الليثَ؛ لم يَجْزُ أنْ يقالَ في الثاني إنه صَوَّرَ المعنى في غيرِ صورتهِ الأولى ولا أنْ يقالَ أبرزه في معرضِ سوى معرضه، ولا شيئاً من هذا الجنسِ. وجملَةُ الأمرِ أنَّ صَوَرَ المعاني لا تتغيَّرُ بنقلها من لفظٍ إلى لفظٍ حتى يكونَ هناك اتساعٌ ومجازٌ وحتى لا يَرادَ من الألفاظِ ظواهرُ ما وضعتُ له في اللغة ولكن يشارُ بمعانيها إلى معانٍ آخر.

واعلم أنَّ هذا كذلك ما دامَ النظمُ واحداً فأما إذا تغيَّرَ النظمُ فلا بدَّ حينئذٍ من أنْ يتغيَّرَ المعنى على ما مضى من البيانِ في مسائلِ التقديمِ والتأخيرِ وعلى ما رأيتُ في المسألةِ التي مضت الآن أعني قولك: إن زيدا كالأسدِ وكان زيدا الأسدُ. ذاكَ لأنَّه لم يتغيَّرَ من اللفظِ شيءٌ وإنما تغيَّرَ النظمُ فقط، وأما فتْحُك «أنَّ» عند تقديم الكاف وكانت مكسورةً فلا اعتدادَ [٨٧ أ] بها لأنَّ معنى الكسرِ باقٍ بحالِه.

واعلم أنَّ السَّببَ في أنْ أحوالوا في أشباهِ هذه المحاسنِ التي ذكرتها لك على اللفظِ أنها ليستُ بأنفسِ المعاني بل هي زياداتٌ فيها وخصائصُ، ألا ترى أنْ ليستِ المزيةُ التي تَجدها لقولك: كأنَّ زيدا الأسدُ. على قولك: زيدٌ كالأسدِ، بشيءٍ خارجٍ^(١) عن التشبيه الذي هو أصلُ المعنى؛ وإنما هو زيادةٌ وفي حكمِ الخصوصيةِ في الشَّكْلِ نحو أن يصاغَ خاتمٌ على وجهٍ وآخرُ على وجهٍ آخرَ تجمعهما صورةُ الخاتمِ ويفترقان بخاصَّةٍ^(٢) وشيءٍ يُعْلَمُ إلا أنه لا يعلمُ منفرداً. ولَمَّا كانَ الأمرُ كذلكَ كَم يُمكنُهم أن يُطلقوا اسمَ المعاني على هذه الخصائصِ إذا كان لا يفترقُ الحالُ حينئذٍ بين أصلِ المَعْنَى وبين ما هو زيادةٌ في المعنى وكيفيةٌ له وخصوصيةٌ فيه فلما امتنعَ ذلك توصلوا إلى الدلالةِ عليها بأن وصلوا

(١) في (ط): شيئاً خارجاً عن التشبيه.

(٢) في (ب): بخاصية.

اللفظ في ذلك بأوصافٍ يُعَلِّمُ أنها لا تكون أوصافاً له من حيث هو لفظٌ كنحوِ وصفهم له بأنه لفظٌ شريفٌ، وأنه قد زانَ المعنى، وأنَّ له ديباجةً وأنَّ عليه طُلاوةً، وأن المعنى منه في مثلِ الرَّشِيِّ، وأنه عليه كالحَلِيِّ إلى أشباه ذلك مما يُعَلِّمُ ضرورةً أنه لا يُعْنَى بمثله الصوتُ والحرفُ ثم إنه لَمَّا جرث به العادةُ واستمرَّ عليه العرفُ وصارَ الناسُ يقولونَ: اللفظُ واللفظُ لَرٌّ^(١) ذلك بأنفسِ أقوامٍ باباً من الفسادِ وخامرهم منه شيءٌ لستُ أحسِّنُ وصفه.



(١) في (ب): لَرٌّ من ذلك بأنفسِ أقوامٍ. ولَرٌّ: يعني لازم. وفي (ط): باباً.

فصل

[تحليلي لفكرة معنى المعنى]

ومن الصفات التي تجدهم يُجرونها على اللفظ ثم لا تعترضك شبهة ولا يكون منك توقفت في أنها ليست له ولكن لمعناه قولهم: لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه ولفظه معناه، ولا يكون لفظه أسبق إلى سمعك من معناه إلى قلبك. وقولهم: يدخل في الأذن بلا إذن، فهذا مما لا يشك العاقل في أنه يرجع إلى دلالة المعنى على المعنى [٨٧ ب] وأنه لا يتصور أن يراد به دلالة اللفظ على معناه الذي وُضِعَ له في اللغة، ذاك لأنه لا يخلو السامع من أن يكون عالماً باللغة وبمعاني الألفاظ التي يسمعها أو يكون جاهلاً بذلك فإن كان عالماً لم يتصور أن يتفاوت حال الألفاظ معه فيكون معنى لفظ أسرع إلى قلبه من معنى لفظ آخر وإن كان جاهلاً كان ذلك في وصفه أبعد. وجملته الأمر أنه إنما يتصور أن يكون لمعنى أسرع فهماً منه لمعنى آخر إذا كان ذلك مما يُدرك بالفكر وإذا كان مما يتجدد له العلم به عند سَمْعِهِ للكلام وذلك محال في دلالات الألفاظ اللغوية لأن طريق معرفتها التوقيف، والتقدم بالتعريف.

وإذا كان ذلك كذلك عُلِمَ ضرورة أن مَصْرِفَ ذلك إلى دلالات المعاني على المعاني وأنهم أرادوا أن من شرط البلاغة أن يكون المعنى الأول الذي تجعله دليلاً على المعنى الثاني ووسيطاً بينك وبينه متمكناً في دلالاته،

مستقلاً بوساطته، يَسْفُرُ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ أَحْسَنَ سِفَارَةٍ، ويشيرُ لك إليه أَتَيْنَ إشارةً، حتى يُخَيَّلَ إِلَيْكَ أَنَّكَ فهمته من حاقَّ اللفظُ وذلك لقلّة الكلفة فيه عليك، وسرعة وصوله إليك، فكانَ من الكنايةِ مثلاً قوله^(١):

لا أَمْنِعُ العُوذَ بالفِصَالِ ولا أَبْنَأُ إِلَّا قَرِيبَةَ الأَجَلِ
ومن الاستعارةِ مثلاً قوله^(٢):

وَصَدْرٍ أَرَاخَ اللَّيْلِ عَازِبَ هَمِّهِ تَضَاعَفَ فِيهِ الحُزْنُ من كلِّ جانبٍ
ومن التمثيلِ مثلاً قوله^(٣):

لا أَذُوذُ الطَّيْرَ عن شَجَرٍ قد بَلَوْتُ المُرَّ مِنْ ثَمَرِهِ
وإنْ أردتَ أن تعرفَ ما حاله^(٤) بالضدِّ من هذا فكانَ منقوصَ القوَّةِ في تأديةِ ما أريدُ منه لأنَّه يعترضُه ما يَمْنَعُه أن يَقْضِيَ حَقَّ السَّفَارَةِ فيما بَيْنَكَ وبين مَعْنَاكَ، ويوضِّحُ تمامَ الإيضاحِ عن مغزَاكَ، فانظرْ إلى قولِ العباسِ بنِ الأحنفِ^(٥):

[٨٨] سأطلبُ بُعْدَ الدَّارِ عنكم لتَقْرُبُوا وتَسْكُبَ عَيْنَايَ الدُّمُوعَ لَتَجْمُدَا
بدأ فدلَّ بسكبِ الدموعِ على ما يوجبُه الفراقُ من الحزنِ والكمَدِ فأحسنَ وأصابَ لأنَّ من شأن البكاءِ أبداً أن يكونَ أمارَةً للحزنِ وأن يُجَعَلَ دلالةً عليه وكنايةً عنه كقولهم: أبكاني وأضحكني، على معنى «سأني وسرّني» كما قال^(٦):

(١) يعني ابن هرمة. ديوانه: ١٨٥ من قصيدة يُقال إنَّها أول ما قاله من الشعر. العوذ جمع عاذ وهو الناقة التي تُنَجّت. والفصال صغارُ الثوق.

(٢) يعني النابغة الذبياني. ديوانه: ٤١

(٣) يعني أبا نواس. ديوانه: ٤٢٧ من قصيدة في مدح العباس بن عبيد الله، مطلعها:

أُيْهَا المَنْتَابُ عن عُفْرِه لست من ليلى ولا سُمره

(٤) في (ط): وإن أردت أن تعرف ماله.

(٥) ليس البيت في ديوانه (صادر) وهو في معاهد التنصيص ٥١/١

(٦) القائل هو (خطّاب بن المعلّى) كما في الحماسة (مرزوقي) ٢٨٥/١، وسماء التبريزي

(حِطّان بن المعلّى) ١٥٢/١ والشاعر إسلامي خارجي (انظر شرحي الحماسة).

أَبْكَانِي الدَّهْرُ يَا رُبَّمَا أَضْحَكَنِي الدَّهْرُ بِمَا يُرْضِي

ثم ساقَ هذا القياسَ إلى نقيضِهِ فالتمسَ أن يدلَّ على ما يوجبُهُ دوامُ التلاقي من السرورِ بقوله: «لتجمدا» وظنَّ أن الجمودَ يبلغُ له في إفادةِ المسرةِ والسلامةِ من الحزنِ، ما بلغَ سَكْبُ الدمعِ في الدلالةِ على الكآبةِ والوقوعِ في الحزنِ، ونظرَ إلى أن الجمودَ خُلُوُ العينِ من البكاءِ وانتفاءُ الدموعِ عنها وأنه إذا قال: «لتجمدا» فكأنَّه قال: أحزنُ اليومَ لثلا أحزنَ غداً، وتبكي عيناى جهدهما لثلا تبكيا أبداً. وغَلِظَ فيما ظنَّ وذاك أنَّ الجمودَ هو أن لا تبكي العينُ مع أنَّ الحالَ حالُ بكاءٍ ومع أن العينَ يرادُ منها أن تبكي ويشتكى مِنْ أن لا تبكي ولذلك لا ترى أحداً يذكرُ عينه بالجمودِ إلَّا وهو يشكوها ويذمُّها وينسبُها إلى البُخلِ ويعدُّ امتناعها من البكاءِ تركاً لمعونةِ صاحبها على ما به مِنْ ألْهَمٍ. ألا ترى إلى قوله^(١):

أَلَا إِنَّ عَيْنًا لَمْ تَجُذْ يَوْمَ وَاسِطٍ عَلَيكَ بَجَارِي دَمْعِهَا لَجَمُودُ

فأتى بالجمود تأكيداً لنفي الجُودِ ومحالَّ أن يجعلَهَا لا تجودُ بالبكاءِ وليس هناك التماسُ بكاءٍ لأنَّ الجودَ والبخلَ يقتضيان مطلوباً يُبْذَلُ أو يُمنعُ ولو كان الجمودُ يصلحُ لأنَّ يرادَ به السلامةُ من البكاءِ وَيَصِحُّ أن يُدَلَّ به على أن الحالَ حالُ مسرَّةٍ وحبورٍ لجازَ أن يُدعى به للرجلِ فيقال: لا زالت عَيْنُكَ جامدةً، كما يقال: لا أبكى الله عينك. وذاك مما لا يُشْكُ في بطلانه. وعلى ذلك قولُ أهل اللُغَةِ: عَيْنٌ [٨٨ ب] جَمُودٌ: لا ماءَ فيها، وسَنَةٌ جَمَادٌ: لا مطراً فيها وناقَةٌ جَمَادٌ: لا لبنَ فيها. وكما لا تُجْعَلُ السَنَةُ والناقَةُ جَمَاداً إلَّا على معنى أن السَنَةَ بخيلةٌ بالقَطَرِ، والناقَةُ لا تسخو بالذَّرِّ، كذلك حُكْمُ العينِ لا تُجْعَلُ جَمُوداً إلَّا وهناك ما يقتضي إرادةَ البكاءِ منها وما يجعلُها إذا بَكَتْ مَحْسِنَةً موصوفةً بأن قَدْ جادَتْ وَسَخَتْ، وإذا لم تبكِ مَسِيئَةً موصوفةً بأن قَدْ ضَنْتْ وَبَخَلَتْ.

(١) البيت من قطعة لأبي العطاء السندي في رثاء ابن هبيرة كما في الأمالي ٢٧١/١، وهو

في معاهد التنصيص ٥٢/١ والقطعة في الشعر والشعراء ٢٦٩/٢

فإن قيل إنه أراد أن يقول: إني اليوم أتجرعُ غُصَصَ الفراقِ وأحملُ نفسي على مُرِّه وأحتملُ ما يُؤدِّيني إليه من حُزْنٍ يفيضُ الدموعَ من عيني ويسكبها لكي أتسبَّبَ بذلك إلى وضلِّ يدومُ ومسرةٌ تتصلُّ حتى لا أعرفَ بعدَ ذلك الحزنَ أصلاً ولا تعرفَ عيني البكاءَ وتصير في أن لا تُرى باكيةً أبداً كالجمود التي لا يكون لها دمعٌ، فإنَّ ذلك لا يستقيمُ ويستتبُّ لأنه يوقِّعه في التناقضِ ويجعله كأنه قال: أحتملُ البكاءَ لهذا الفراقِ عاجلاً لأصيرَ في الآجلِ بدوامِ الوصلِ واتصالِ السرورِ في صورةٍ من يريدُ من عينه أن تبكي ثم لا تبكي لأنها خُلِقَتْ جامدةً لا ماءً فيها، وذلك من التهافتِ والاضطرابِ بحيث لا تنجَعُ الحيلةُ فيه. وجملَةُ الأمرِ أنا لا نعلمُ أحداً جعلَ جمودَ العينِ دليلَ سرورٍ وأمانةً غبطةٍ وكنايةً عن أن الحالَ حالٌ فرحٍ فهذا مثلاً فيما هو بالضدِّ مما شرطوا من أن لا يكونَ لفظه أسبقَ إلى سمعك، من معناه إلى قلبك، لأنك ترى اللفظَ يصلُ إلى سمعك وتحتاجُ إلى أن تُحِبَّ وتوضَّعَ^(١) في طلبِ المعنى. ويجري لك هذا الشرحُ والتفسيرُ في النظمِ كما جرى في اللفظِ لأنه إذا كان النظمُ سوباً والتأليفُ مستقيماً كان وصولُ المعنى إلى قلبك، تلوَ وصولِ اللفظِ إلى سمعك، وإذا كان على خلافٍ ما ينبغي وصلَ اللفظُ إلى السمعِ وبقيت في المعنى تطلبُهُ وتتعبُ فيه، وإذا أفرط الأمرُ في ذلك صارَ إلى التعقيدِ الذي قالوا إنه يستهلكُ [٨٩]

المعنى.

واعلم أن لم تَضَيِّقِ العبارةَ ولم يقصِّرِ اللفظَ ولم ينغلقِ الكلامُ في هذا الباب إلا لأنه قد تناهى في الغموضِ والخفاءِ إلى أقصى الغاياتِ، وأنك لا ترى أغربَ مذهباً وأعجبَ طريقاً وأحرى بأن تضطربَ فيه الآراءُ منه. وما قولك في شيءٍ قد بلغ من أمره أن يدَّعى على كبارِ العلماءِ بأنهم لم يعلموه ولم يفطنوا له؟ فقد ترى أن البحترى قال حينَ سئل عن مسلمٍ وأبي نواس: أيهما أشعر؟ فقال: أبو نواس. فقل: فإن أبا العباس ثعلباً لا يوافقك على هذا. فقال: ليس هذا من

(١) الخبب والوضع نوعان من الجري.

شأنٍ ثعلبٍ وذويه من المتعاطين لعلم الشعر دونَ عمله إنما يعلم ذلك من دُفعٍ في مسلكِ طريقِ الشعر إلى مضايقه وانتهى إلى ضروراته^(١).

ثم لم يَنْفَكْ العالمون به والذين هم من أهله من دخولِ الشبهة فيه عليهم، ومن اعتراضِ السَّهْو والغلِطِ لهم، رُوي عن الأصمعي أنه قال: كنتُ أسيرُ مع أبي عمرو بن العلاء وخلفِ الأحمر^(٢) وكانا يأتیان بشاراً^(٣) فيسلمان عليه بغاية الإغظام^(٤) ثم يقولان: يا أبا مُعَاذٍ ما أحدثت؟ فيخبرُهما وينشدُهما ويسألانه ويكتبان عنه متواضعين له حتى يأتي وقتُ الزوالِ^(٥) ثم ينصرفان. وأتياه يوماً فقالا^(٦): ما هذه القصيدةُ التي أحدثتها في سَلَمِ بنِ قُتَيْبَةَ؟ قال: هي التي بلغتكم^(٧). قالوا^(٨): بلغنا أنك أكثرتَ فيها مِنَ الغريب. قال: نَعَمْ بلغني أنَّ سَلَمَ^(٩) بن قتيبة يتباصرُ بالغريب فأحببتُ أن أوردَ عليه ما لا يَعْرِفُ^(١٠). قالوا^(١١): فأنشدناها يا أبا معاذ. فأنشدَهما^(١٢):

بَكَّرَا صَاحِبِي قَبْلَ الْهَجِيرِ إِنْ ذَاكَ النِّجَاحُ فِي التَّبْكِيرِ

حتى فرغَ منها فقال له خلفٌ: لو قلتَ يا أبا مُعَاذٍ مكانَ «إِنْ ذَاكَ النِّجَاحُ فِي التَّبْكِيرِ»:

- (١) سبق الخبر وتخریجه ١٧٧
- (٢) الخبر في الأغاني ٣/ ١٨٤، وفيه «كنتُ أشهد خلف بن أبي عمرو بن العلاء وخلفاً الأحمر يأتیان بشاراً».
- (٣) في الأغاني: «ويسلمان».
- (٤) في الأغاني: «التعظيم».
- (٥) في الأغاني: «حتى يأتي وقت الظهر».
- (٦) في الأغاني: «فقالا له».
- (٧) في الأغاني: «بلغتكما».
- (٨) في الأغاني: «قالا».
- (٩) في الأغاني: «سلماً يتباصر».
- (١٠) في الأغاني: «ما لا يعرفه».
- (١١) الأغاني: «قالا».
- (١٢) ديوان بشار بن برد ٣/ ٢٠٣ وفيه: أنها في مدح سلم بن قتيبة.

❁ بَكْرًا فَالنَّجَاحُ فِي التَّبْكِيرِ ❁

كَانَ أَحْسَنَ. فَقَالَ بَشَارٌ: إِنَّمَا بَنِيْتُهَا أُعْرَابِيَّةٌ وَحَشِيَّةٌ^(١) فَقُلْتُ: «إِنْ ذَاكَ النَّجَاحُ فِي التَّبْكِيرِ»، كَمَا يَقُولُ^(٢) الْأَعْرَابُ الْبَدَوِيُّونَ وَلَوْ قُلْتُ: «بَكْرًا فَالنَّجَاحُ» كَانَ هَذَا مِنْ كَلَامٍ [٨٩ ب] الْمَوْلَّدِينَ وَلَا يَشْبَهُ ذَاكَ الْكَلَامَ وَلَا يَدْخُلُ فِي مَعْنَى الْقَصِيدَةِ. قَالَ: فَقَامَ خَلْفٌ فَقَبَّلَ بَيْنَ عَيْنَيْهِ. فَهَلْ كَانَ هَذَا الْقَوْلُ مِنْ خَلْفٍ وَالنَّقْدُ عَلَى بَشَارٍ إِلَّا لِلظُّفْرِ الْمَعْنَى فِي ذَلِكَ وَخَفَائِهِ؟

وَاعْلَمْ أَنَّ مِنْ شَأْنِ «إِنَّ» إِذَا جَاءَتْ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ أَنْ تُغْنِيَ غِنَاءَ الْفَاءِ الْعَاطِفَةِ مَثَلًا وَأَنْ تُفِيدَ مِنْ رِبْطِ الْجُمْلَةِ بِمَا قَبْلَهَا أَمْرًا عَجَبِيًّا فَأَنْتَ تَرَى الْكَلَامَ بِهَا مُسْتَأْنَفًا غَيْرَ مُسْتَأْنَفٍ مُقْطوعًا مُوصُولًا مَعًا. أَفَلَا تَرَى أَنَّكَ لَوْ أَسْقَطْتَ «إِنَّ» مِنْ قَوْلِهِ: إِنَّ ذَاكَ النَّجَاحُ فِي التَّبْكِيرِ؛ لَمْ تَرَ الْكَلَامَ يَلْتَمِمْ وَلِرَأَيْتَ الْجُمْلَةَ الثَّانِيَةَ لَا تَتَّصِلُ بِالْأُولَى وَلَا تَكُونُ مِنْهَا بِسَبِيلٍ حَتَّى تَجِيءَ بِالْفَاءِ فَتَقُولَ: بَكْرًا صَاحِبِي قَبْلَ الْهَجِيرِ فَذَاكَ النَّجَاحُ فِي التَّبْكِيرِ. وَمِثْلُهُ قَوْلُ بَعْضِ الْعَرَبِ:

فَغَنَّا وَهِيَ لَكَ الْفِدَاءُ إِنَّ غِنَاءَ الْإِبِلِ الْخُدَاءُ

فَانْظُرْ إِلَى قَوْلِهِ: إِنَّ غِنَاءَ الْإِبِلِ الْخُدَاءُ، وَإِلَى مَلَاءَمَتِهِ الْكَلَامَ قَبْلَهُ وَحُسْنِ تَشْبِيهِهِ بِهِ وَإِلَى حُسْنِ تَعَطُّفِ الْكَلَامِ الْأَوَّلِ عَلَيْهِ. ثُمَّ انْظُرْ إِذَا تَرَكْتَ «إِنَّ» فَقُلْتَ: فَغَنَّا وَهِيَ لَكَ الْفِدَاءُ، غِنَاءُ الْإِبِلِ الْخُدَاءُ؛ كَيْفَ تَكُونُ الصُّورَةُ وَكَيْفَ يَنْبُو أَحَدُ الْكَلَامَيْنِ عَنِ الْآخَرِ وَكَيْفَ يُشْتَمُّ هَذَا وَيُغْرَقُ ذَاكَ حَتَّى لَا تَجِدَ حِيلَةً فِي اتِّتْلَافِهِمَا حَتَّى تَجْتَلِبَ لَهُمَا الْفَاءَ فَتَقُولَ: فَغَنَّا وَهِيَ لَكَ الْفِدَاءُ فَغِنَاءُ الْإِبِلِ الْخُدَاءُ. ثُمَّ تَعْلَمْ أَنَّ لَيْسَتْ الْأَلْفَةُ بَيْنَهُمَا مِنْ جَنْسٍ مَا كَانَ وَأَنَّ قَدْ ذَهَبَتِ الْأَنْسَةُ الَّتِي كُنْتَ تَجِدُ وَالْحُسْنَ الَّذِي كُنْتَ تَرَى. وَرُويَ عَنْ عَنبَسَةَ^(٣) أَنَّهُ قَالَ: قَدِمَ ذُو

(١) الْأَغَانِي: «بَنِيْتُهَا أُعْرَابِيَّةٌ وَحَشِيَّةٌ».

(٢) فِي الْأَغَانِي: «كَمَا يَقُولُ الْأَعْرَابُ الْبَدَوِيُّونَ». وَفِي (ط): تَقُولُ.

(٣) هُوَ عَنبَسَةُ بْنُ مَعْدَانَ الْمِيسَانِي، أَخَذَ النَّحْوُ عَنْ أَبِي الْأَسْوَدِ وَرَوَى شَعْرُ جَرِيرٍ وَالْفَرَزْدَقُ وَيَعْرِفُ بِعَنبَسَةِ الْفِيلِ وَرُويَ الْخَبَرُ عَنْ طَرِيقٍ آخَرَ فِي الْمَوْشِحِ ٢٨٣، وَأَخْبَارُ الْقَضَاةِ ٣/

الرِّمَّةُ الكَوْفَةُ فوقَ يَنْشِدُ النَّاسَ بِالْكُنَاسَةِ^(١) قَصِيدَتَهُ الحَائِيَةِ الَّتِي مِنْهَا^(٢):

هِيَ الْبُرَّةُ وَالْإِسْقَامُ وَالْهَمُّ وَالْمُنَى وَمَوْتُ الْهَوَى فِي الْقَلْبِ مِنْ الْمَبْرُحِ
وَكَانَ الْهَوَى بِالنَّائِي يُنَمِّحِي فَيَمَّحِي وَحُبُّكَ عِنْدِي يَسْتَجِدُّ وَيَرْبُحُ [٩٠]
إِذَا غَيَّرَ النَّائِي الْمُحِبِّينَ لَمْ يَكْذُ رَسِيسُ الْهَوَى مِنْ حُبِّ مَيَّةَ يَبْرُحُ
قال: فلما انتهى إلى هذا البيت ناداه ابن شبرمة^(٣): يَا غَيْلَانُ، أَرَاهُ قَدْ بَرَحَ.
قال: فَشَقَّ نَاقَتَهُ وَجَعَلَ يَتَأَخَّرُ بِهَا وَيَتَفَكَّرُ ثُمَّ قَالَ:

إِذَا غَيَّرَ النَّائِي الْمُحِبِّينَ لَمْ أَجِدْ رَسِيسَ الْهَوَى مِنْ حُبِّ مَيَّةَ يَبْرُحُ
قال: فلما انصرفْتُ حدثُ أبي قال: أخطأ ابنُ شبرمة حين أنكرَ على ذي
الرِّمَّةِ، وأخطأ ذو الرِّمَّةِ حين غيَّرَ شعره لقولِ ابن شبرمة؛ إنما هذا كقول الله
تعالى: ﴿ظَلُمْتُ بَعْضَهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَكُدُّ لَوْ يَكْدُ بِرَبِّهَا﴾ [النور: ٢٤/٤٠]^(٤)
وإنما هُوَ لَمْ يَرَهَا وَلَمْ يَكْذُ.

واعلم أنَّ سَبَبَ الشُّبْهَةِ فِي ذَلِكَ أَنَّهُ قَدْ جَرَى فِي الْعَرَفِ أَنْ يَقَالَ: مَا كَاذُ يَفْعَلُ
وَلَمْ يَكْذُ يَفْعَلُ، فِي فِعْلٍ قَدْ فُعِلَ عَلَى مَعْنَى أَنَّهُ لَمْ يَفْعَلْ إِلَّا بَعْدَ الْجُهْدِ وَبَعْدَ أَنْ كَانَ
بَعِيداً فِي الظَّنِّ أَنْ يَفْعَلَهُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَذَبْحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: ٧١/٢]^(٥)

(١) اسم موضع في الكوفة (معجم البلدان ٤).

(٢) ديوان ذي الرِّمَّة ١١٩٠/٢. وترتيب الأبيات في الديوان:

إِذَا غَيَّرَ النَّائِي الْمُحِبِّينَ لَمْ أَجِدْ رَسِيسَ الْهَوَى مِنْ حُبِّ مَيَّةَ يَبْرُحُ
أَرَى الْحُبَّ بِالْهَجْرَانِ يُنَمِّحِي فَيَمَّحِي وَحُبُّكَ مَيَّةً يَسْتَجِدُّ وَيَرْبُحُ
هِيَ الْبُرَّةُ وَالْإِسْقَامُ وَالْهَمُّ ذَكَرَهَا وَمَوْتُ الْهَوَى لَا التَّنَائِي الْمَبْرُحُ

(٣) عبد الله بن شبرمة: قاض، وأحد رواة الحديث والأخبار ولي قضاء الكوفة له أخبار
تدل على سعة علمه واطلاعه ورجاحة عقل وذكاء. «أخبار القضاة لوكيع ٣/٣٦».

(٤) الآية الكريمة: ﴿أَوْ كَظَلُمْتُ فِي بَحْرِ لُجِّي يَفْشَنُهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ، مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ، سَحَابٌ
ظَلُمْتُ بَعْضَهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَكُدُّ لَوْ يَكْدُ بِرَبِّهَا وَمَنْ لَّا يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾.

(٥) الآية الكريمة: ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولَ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْمَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِئَةَ
فِيهَا قَالُوا لَنْ نَحْنِتَ إِلَّا هِيَ قَدْ فَخَّرَ اللَّهُ بِهَا وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِهِ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾.

فلما كَانَ مجيءُ النفي في كَادَ على هذا السبيل توهم ابنُ شبرمة أنه إذا قال: لم يكذ رسيسُ الهوى من حُبِّ مَيَّةٍ يبرحُ، فقد زعم أن الهوى قد برحَ ووقعَ لذِي الرُمة مثلُ هذا الظن وليس الأمرُ كالذي ظنَّاه فإنَّ الذي يقتضيه اللفظُ إذا قيل: لم يكذ يفعلُ وما كَادَ يفعلُ، أن يكونَ المرادُ أن الفعلَ لم يكن من أصله ولا قاربَ أن يكونَ ولا ظنَّ أنه يكون. وكيف بالشكِّ في ذلك وقد علمنا أنَّ «كاد» موضوعٌ لأن يَدُلَّ على شدةِ قربِ الفعلِ من الوقوعِ وعلى أنه قد شارفَ الوجودَ. وإذا كان كذلك كان مُحالاً أن يوجبَ نفيه وجودَ الفعلِ لأنه يؤدي إلى أن يوجبَ نفيَ مقاربةِ الفعلِ الوجودَ وجوده وأن يكونَ قولُك: ما قاربَ أن يفعل، مقتضياً على البتِّ أنه قد فعل.

وإذ قد ثَبِتَ ذلك فمن سبيلك أن تنظرَ فمتى لم يكن المعنى على أنه قد كَانَ هناك صورةٌ تقتضي أن لا يكونَ الفعلُ وحالٌ يَبْعُدُ معها أن يكونَ ثم تَغَيَّرَ الأمرُ كالذي تراه في قوله تعالى: ﴿فَذَبِّحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ [٩٠ ب] فليس إلا أن تُلْزِمَ الظاهرَ وتجعلَ المعنى على أنك تزعمُ أنَّ الفعلَ لم يقاربَ أن يكونَ فضلاً عن أن يكونَ، فالمعنى إذن في بيتِ ذي الرُّمة على أنَّ الهوى من رسوخه في القلبِ وثبوتِه فيه وغلبتِه على طباعِه بحيث لا يُتوَهَّمُ عليه البراحُ وأن ذلك لا يقاربُ منه^(١) أن يكونَ فضلاً عن أن يكونَ، كما تقول: إذا سلا المحبونَ وفتروا في محبتهم لم يَقَعْ لي وَهْمٌ ولم يَجْرَ مني على بالٍ أنه يجوزُ عليَّ ما يشبهُ السَّلوةَ وما يُعَدُّ فترةً فضلاً عن أن يوجدَ ذلك مني وأصيرَ إليه. وينبغي أن تعلمَ أَنَّهُمْ إِنَّمَا^(٢) قالوا في التفسير: لم يَرَهَا ولم يَكْذ، فبدؤوا فنفوا الرؤيةَ ثم عطفوا «لم يَكْذ» عليه ليغْلُمُوكَ أن ليس سبيلُ «لم يكذ» ههنا سبيلُ ما كادوا في قوله تعالى: ﴿فَذَبِّحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ في أنه نفيٌ معقَّبٌ على إثباتٍ وأنَّ^(٣) ليس المعنى على أنَّ رؤيةَ كانت من بَعْدِ أن كادت لا تكونَ ولكنَّ المعنى على أنَّ رؤيتها لا تقاربُ أن تكونَ فضلاً عن أن تكونَ، ولو كان «لم يكذ» يوجبُ وجودَ

(١) منه: سقطت من (ط).

(٢) إِنَّمَا: سقطت من (أ).

(٣) أن: سقطت من (ب).

الفعل لكان هذا الكلام منهم مُحالاً جارياً مَجْرَى أن تقول: لم يَرَهَا ورآها. فَأَعْرِفْهُ.

وهنا نكتة وهي أن «لم يكد» في الآية والبيت واقع في جواب إذا والماضي إذا وقع في جواب الشرط على هذا السبيل كان مستقبلاً في المعنى فإذا قلت: إذا خرجت لم أخرج؛ كنت قد نفيت خروجاً فيما يُسْتَقْبَلُ. وإذا كان الأمر كذلك استحال أن يكون المعنى في البيت أو الآية على أن الفعل قد كان لأنه يؤدي إلى أن يجيء بلم أفعل ماضياً صريحاً في جواب الشرط فتقول: إذا خرجت لم أخرج أمس. وذلك محال. ومما يتضح فيه هذا المعنى قول الشاعر^(١):

دِيَارٌ لَجْهَمَةٌ بِالْمُنْحَنِ سَقَاهُنَّ مُرْتَجِرٌ بَاكِرٌ
وراحَ عَلَيْنَهُنَّ ذُو هَيْدَبٍ ضَعِيفُ الْقَوَى مَأْؤُهُ زَاخِرٌ
إذا رَامَ نَهْضاً بِهَا لَمْ يَكْذُ كَذِي السَّاقِ أَخْطَأَهَا الْجَابِرُ [١٩١]

- وأعودُ إلى الغرض - فإذا بلغ من دقة هذه المعاني أن يشتبه الأمرُ فيها على مثلِ خَلَفِ الأحمرِ وابنِ شُبْرمةِ وحتى يشتبه على ذي الرُّمةِ في صوابِ قاله فيرى أنه غيرُ صوابٍ فما ظنُّك بغيرهم وما تعجبُك من أن يكثرَ التخليطُ فيه. ومن العَجَبِ في هذا المعنى قولُ أبي النُّجْمِ^(٢):

(١) ارْتَجَزَ الرَّغْدُ: سَمِعَ له صوتٌ متتابع. والباكرُ صفةٌ للسحاب الذي يظهر في البكور (أول النهار قبل طلوع الشمس).

(٢) أبو النجم: هو الفضل بن قدامة العجلي من بني بكر بن وائل من أكابر الرجاز ومن أحسن الناس إنشاداً للشعر نبغ في العصر الأموي، وكان يحضر مجالس عبد الملك بن مروان وولده هشام.

قال أبو عمرو بن العلاء: كان ينزل سواد الكوفة، وهو أبلغ من العجاج في النعت. (معجم الشعراء ١٨٠، الأغاني ١٥٧/١٠، سمط اللآلي ٣٢٨، الشعراء والشعر ٦٠٣). وما أنشده عبد القاهر مطلع أرجوزة له أنشدها السيوطي في شواهد المغني ٢/ ٢٤٤ - ٥٤٥ وأنشده أيضاً في الأغاني ١٦٧/١٠ وقال بعده: وهي أرجوزة طويلة.

- والبيت من شواهد سيبويه ٤٤/١

قد أَضْبَحَتْ أُمُّ الْخَبَارِ تَدَّعِي عَلَيَّ ذَنْباً كُلَّهُ لَمْ أَصْنَعِ

قد حَمَلَهُ الْجَمِيعُ عَلَى أَنَّهُ أَدْخَلَ نَفْسَهُ مِنْ رَفْعِ «كُلِّ» [في] ^(١) شَيْءٍ إِنَّمَا يَجُوزُ عِنْدَ الضَّرُورَةِ مِنْ غَيْرِ أَنْ كَانَتْ بِهِ ضَرُورَةٌ. قَالُوا: لَأَنَّهُ لَيْسَ فِي نَضْبِ «كُلِّ» مَا يَكْسِرُ لَهُ وَزناً أَوْ يَمْنَعُهُ مِنْ مَعْنَى أَرَادَهُ. وَإِذَا تَأَمَّلْتَ وَجَدْتَهُ لَمْ يَرْتَكِبْهُ وَلَمْ يَحْمِلْ نَفْسَهُ عَلَيْهِ إِلَّا لِحَاجَةٍ لَهُ إِلَى ذَلِكَ وَإِلَّا لَأَنَّهُ رَأَى النَّضْبَ يَمْنَعُهُ مَا يَرِيدُ. وَذَلِكَ أَنَّهُ أَرَادَ أَنَّهَا تَدَّعِي عَلَيْهِ ذَنْباً لَمْ يَصْنَعْ مِنْهُ شَيْئاً الْبَتَّةَ لَا قَلِيلاً وَلَا كَثِيراً وَلَا بَعْضاً وَلَا كُلًّا. وَالنَّضْبُ يَمْنَعُ مِنْ هَذَا الْمَعْنَى وَيَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ قَدْ أَتَى مِنَ الذَّنْبِ الَّذِي ادَّعَتْهُ بَعْضُهُ. وَذَلِكَ أَنَا إِذَا تَأَمَّلْنَا وَجَدْنَا إِعْمَالَ الْفِعْلِ فِي «كُلِّ» وَالْفِعْلُ مَنْفِيٌّ لَا يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ إِلَّا حَيْثُ يَرَادُ أَنْ بَعْضاً كَانَ وَبَعْضاً لَمْ يَكُنْ. تَقُولُ: لَمْ أَلْقَ كُلَّ الْقَوْمِ وَلَمْ أَخْذُ كُلَّ الدَّرَاهِمِ؛ فَيَكُونُ الْمَعْنَى أَنَّكَ لَقِيتَ بَعْضاً مِنَ الْقَوْمِ وَلَمْ تَلَقَ الْجَمِيعَ وَأَخَذْتَ بَعْضاً مِنَ الدَّرَاهِمِ وَتَرَكْتَ الْبَاقِي. وَلَا يَكُونُ أَنْ تَرِيدَ أَنَّكَ لَمْ تَلَقَ وَاحِداً مِنَ الْقَوْمِ وَلَمْ تَأْخُذْ شَيْئاً مِنَ الدَّرَاهِمِ. وَتَعْرِفُ ذَلِكَ بِأَنْ تَنْظُرَ إِلَى كُلِّ فِي الْإِبْطَاتِ وَتَتَعَرَّفَ فَائِدَتَهُ فِيهِ.

وَإِذَا نَظَرْتَ وَجَدْتَهُ قَدْ اجْتَلَبَ لِأَنْ يُفِيدَ الشَّمُولَ فِي الْفِعْلِ الَّذِي تَسْنِدُهُ إِلَى الْجُمْلَةِ أَوْ تَوَقُّعَهُ بِهَا. تَفْسِيرُ ذَلِكَ أَنَّكَ إِنَّمَا قُلْتَ: جَاءَنِي الْقَوْمُ كُلُّهُمْ، لِأَنَّكَ لَوْ قُلْتَ: جَاءَنِي الْقَوْمُ. وَسَكَتَ لَكَانَ يَجُوزُ أَنْ يَتَوَهَّمُ السَّامِعُ أَنَّهُ قَدْ تَخَلَّفَ عَنْكَ بَعْضُهُمْ إِلَّا أَنَّكَ لَمْ تَعْتَدْ بِهِمْ أَوْ أَنَّكَ جَعَلْتَ الْفِعْلَ إِذَا وَقَعَ مِنْ بَعْضِ الْقَوْمِ فَكَأَنَّمَا وَقَعَ مِنَ الْجَمِيعِ لِكُونِهِمْ فِي حُكْمِ الشَّخْصِ الْوَاحِدِ [٩١ ب] كَمَا يَقَالُ لِلْقَبِيلَةِ: فَعَلْتُمْ وَصَنَعْتُمْ. يَرَادُ فَعْلٌ قَدْ كَانَ مِنْ بَعْضِهِمْ أَوْ وَاحِدٍ مِنْهُمْ وَهَكَذَا الْحُكْمُ أَبَداً، فَإِذَا قُلْتَ: رَأَيْتُ الْقَوْمَ كُلَّهُمْ وَمررتُ بِالْقَوْمِ كُلِّهِمْ؛ كُنْتَ قَدْ جِئْتَ بِكُلِّ لَثَلَا يُتَوَهَّمُ أَنَّهُ قَدْ بَقِيَ عَلَيْكَ مَنْ لَمْ تَرَهُ وَلَمْ تَمَرَّ بِهِ. يَنْبَغِي أَنْ يُعْلَمَ أَنَا لَا نَعْنِي بِقَوْلِنَا يُفِيدُ الشَّمُولَ أَنْ سَبِيلَهُ فِي ذَلِكَ سَبِيلُ الشَّيْءِ يَوْجِبُ الْمَعْنَى مِنْ أَضْلِهِ وَأَنَّهُ لَوْلَا مَكَانُ «كُلِّ» لَمَا عُقِلَ الشَّمُولُ وَلَمْ يَكُنْ فِيهِمَا سَبْقٌ مِنَ اللَّفْظِ دَلِيلٌ

(١) في: سقطت من (ب).

عليه. كيف ولو كانَ كذلك لم يكنْ يسمَّى تأكيداً فالمعنى أنه يمنعُ أن يكونَ اللفظُ المقتضي الشمولَ مستعملاً على خلافِ ظاهره ومتجاوزاً فيه.

وإذ قد عرفتَ ذلكَ فيها هنا أصلٌ وهو أنه من حكمِ النفي إذا دخلَ على كلامٍ ثمَّ كانَ في ذلكَ الكلامِ تقييدٌ على وجهٍ من الوجوه أن يتوجَّه إلى ذلكَ التقييدُ وأن يقعَ له خصوصاً. تفسيرُ ذلكَ أنك إذا قلتَ: أتاني القومُ مجتمعين، فقالَ قائلٌ: لم يأتِكَ القومُ مجتمعين. كانَ نفيه ذلكَ متوجِّهاً إلى الاجتماعِ الذي هو تقييدٌ في الإتيانِ دونَ الإتيانِ نفسه حتى إنه إن أرادَ أن ينفيَ الإتيانَ من أصله كانَ من سبيله أن يقولَ إنهم لم يأتوكَ أصلاً فما معنى قولك: «مجتمعين». هذا مما لا يشكُّ فيه عاقلٌ. وإذا كانَ هذا حكمَ النفي إذا دخلَ على كلامٍ فيه [تقييدٌ]^(١) فإنَّ التأكيدَ ضربٌ من التقييدِ فمتى نفيتَ كلاماً فيه تأكيدٌ فإنَّ نفيك ذلكَ يتوجَّه إلى التأكيدِ خصوصاً ويقعُ له. فإذا قلتَ: لم أرَ القومَ كلَّهم أو لم يأتني القومُ كلَّهم أو لم يأتني كلُّ القومِ أو لم أرَ كلَّ القومِ؛ كنتَ عمدتَ بنفيك إلى معنى «كلَّ» خاصةً وكانَ حكمُه حكمَ «مجتمعين» في قولك: لم يأتني القومُ مجتمعين. وإذا كانَ النفي يقعُ لكلِّ خصوصاً فواجبٌ إذا قلتَ: لم يأتني القومُ كلَّهم أو لم يأتني كلُّ القومِ، أن يكونَ قد أتاكَ بعضهم، كما يجب إذا قلتَ: لم يأتني القومُ مجتمعين [أن يكونوا قد أتوكَ أشتاتاً. وكما يستحيلُ أن تقولَ: لم يأتني القومُ مجتمعين]^(٢)، وأنتَ تريدُ أنهم لم يأتوكَ أصلاً [٩٢] لا مجتمعين ولا منفردين، كذلكَ محالٌ أن تقولَ: لم يأتني القومُ كلَّهم، وأنتَ تريدُ أنهم لم يأتوكَ أصلاً فاعرفه.

واعلم أنك إذا نظرتَ وجدتَ الإثباتَ كالتنفي فيما ذكرْتُ لك ووجدتَ النفي قد احتذاهُ فيه وتبعه وذلكَ أنك إذا قلتَ: جاءني القومُ كلَّهم، كانَ «كلَّ» فائدةً خبرك هذا والذي يتوجَّه إليه إثباتك بدلالة أن المعنى على أن الشكَّ لم يقع في نفس المجيء أنه كانَ من القومِ على الجملة وإنما وقع في شموله الكلُّ وذلكَ الذي عناك أمرُه من كلامك.

(١) تقييد: سقطت من (أ).

(٢) ما بين معقوفتين ساقط من (أ).

وجملة الأمر أنه ما من كلام كان فيه أمرٌ زائدٌ على مجرد إثبات المعنى للشيء إلا كان الغرض الخاص من الكلام والذي يقصد إليه ويزجى القول فيه. فإذا قلت: جاءني زيدٌ ركباً وما جاءني زيدٌ ركباً، كنت [قد]^(١) وضعت كلامك لأن تثبت مجيئه ركباً أو تنفي ذلك [لا]^(٢) لأن تثبت المجيء وتنفيه مطلقاً. هذا ما لا سبيل إلى الشك فيه.

واعلم أنه يلزم من شك في هذا فتوهم أنه يجوز أن تقول: لم أر القوم كلهم، على معنى أنك لم تر واحداً منهم، أن يجري النهي هذا المجري فتقول: لا تضرب القوم كلهم، على معنى لا تضرب واحداً منهم، وأن تقول: لا تضرب الرجلين كليهما، على معنى لا تضرب واحداً منهما. فإذا قال ذلك لزمه أن يُحيل^(٣) قول الناس: لا تضربهما معاً ولكن اضرب أحدهما ولا تأخذهما جميعاً ولكن واحداً منهما. وكفى بذلك فساداً.

وإذ قد بان لك من حال النضب أنه يقتضي أن يكون المعنى على أنه قد صنع من الذنب بعضاً وترك بعضاً فاعلم أن الرفع على خلاف ذلك وأنه يقتضي نفي أن يكون قد صنع منه شيئاً وأتى منه قليلاً أو كثيراً وأنت إذا قلت: كلهم لا يأتيك، وكل ذلك لا يكون، وكل هذا لا يحسن؛ كنت نفيت أن يأتيه واحد منهم وأبيت أن يكون أو يحسن شيء مما أشرت إليه. ومما يشهد لك [٩٢ ب] بذلك من الشعر قوله^(٤):

(١) قد: سقطت من (أ).

(٢) لا: سقطت من (أ).

(٣) في (ط): يخل، تصحيف.

(٤) البيت هو الرابع من ثمانية أبيات أنشدها أبو علي القالي في الأمالي ١/ ١٧٠ - ١٧١

وقال البكري: هذه الأبيات لإبراهيم بن كُتَيْف التُّبَهَانِي شاعر إسلامي (سمط اللآلي

١/ ٤٣٠، والأمالي ١/ ١٧٠، والحماسة بشرح التبريزي ١/ ١٣٦، ولم يرد البيت في

شرح المرزوقي).

- ومعنى ليس لفلان مَزْحَلٌ من كذا أي لا مهرب له منه.

فَكَيْفَ وَكُلُّ لَيْسَ يَغْدُو حِمَامَهُ وَلَا لَامِرِي عَمَّا قَضَى اللَّهُ مَزْحَلُ

المعنى على نفي أن يغدو أحد من الناس حِمَامَهُ بلا شُبْهَةٍ. ولو قلت: فكيف وليس يعدو كلُّ حِمَامَهُ؛ فَأَخْرَجْتُ كَلَامًا لَأَفْسَدْتَ المعنى وصرتَ كأنك تقول: إنَّ من الناس مَنْ يَسْلُمُ من الحِمَامِ ويبقى خالداً لا يموت. ومثله قولُ دَعْبِلٍ^(١):

فَوَاللَّهِ مَا أَذْرِي بِأَيِّ سِهَامِهَا رَمَتْنِي وَكُلُّ عِنْدَنَا لَيْسَ بِالْمُكْدِي

أَبِالْجِدِّ أَمْ مَجْرَى الْوِشَاحِ وَإِنِّي لَأَتُهُمْ عَيْنَيْهَا مَعَ الْفَاحِمِ الْجَعْدِ

المعنى على نفي أن يكون في سهامها مُكْدٍ على وجهٍ من الوجوه. ومن البَيِّن في ذلك ما جاء في حديث ذي اليمين قال للنبي ﷺ: أَقْصَرَتِ الصَّلَاةُ أَمْ نَسِيتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فقال ﷺ: «كُلُّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ» فقال ذو اليمين: بَعْضُ ذَلِكَ قَدْ كَانَ^(٢). المعنى لا محالة على نفي الأمرين جميعاً وعلى أنه عليه السلام أراد أنه لم يكن واحداً منهما لا القصرُ ولا النسيانُ. ولو قيل: لَمْ يَكُنْ كُلُّ ذَلِكَ، لَكَانَ المعنى أنه قد كانَ بَعْضُهُ.

واعلم أنه لما كان المعنى مع إعمال الفعل المنفي في «كلِّ» نحو: لم يأتني القومُ كُلُّهُمْ، ولم أرَ القومَ كُلَّهُمْ؛ على أن الفعل قد كانَ من البعض ووقع على البعض قلت: لم يأتني القومُ كُلُّهُمْ ولكنَّ أُنَانِي بَعْضُهُمْ، ولم أرَ القومَ كُلَّهُمْ ولكنَّ رَأَيْتُ بَعْضَهُمْ؛ فَأَثْبَتْتُ بَعْدَهَا نَفْيَتِ، ولا يكونُ ذلك مع رفع «كلِّ» بالابتداء. فلو قلت: كُلُّهُمْ لم يأتني ولكنَّ أُنَانِي بَعْضُهُمْ وكلُّ ذلك لم يكن ولكن

(١) دَعْبِلُ بْنُ عَلِيٍّ الْخُزَاعِيُّ: شاعر عباسي، توفي ٢٤٦ هـ. والبيت من أبيات في ديوانه:

١٠١ قالها في العباس بن جعفر بن محمد بن الأشعث.

- وأكدي السهم: إذا أخطأ مرماه، ولم يُصبه، ومعنى أُنَانِي: أَنَّهُمْ.

(٢) في صحيح البخاري ٨٥/٤ بسنده عن أبي هريرة قال: «صَلَّى بِنَا النَّبِيِّ ﷺ الظَّهْرَ

رَكَعَتَيْنِ ثُمَّ سَلَّمَ ثُمَّ قَامَ إِلَى خَشَبَةٍ فِي مُقَدِّمِ الْمَسْجِدِ وَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهَا وَفِي الْقَوْمِ يَوْمئِذٍ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ فَهَابَا أَنْ يُكَلِّمَاهُ وَخَرَجَ سَرَّعَانَ النَّاسُ فَقَالُوا: قَصُرَتِ الصَّلَاةُ، وَفِي الْقَوْمِ رَجُلٌ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَدْعُوهُ ذَا الْيَمِينِ، فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ! أُنْسِيَتْ أَمْ قَصُرَتْ؟ فَقَالَ: لَمْ أُنْسَ وَلَمْ تَقْصُرْ، قَالَ: بَلْ نَسِيتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: صَدَقَ ذُو الْيَمِينِ...».

كان بعض ذلك، لم يَجْزُ لأنه يؤدي إلى التناقض وهو أن تقول: لم يأتي واحد منهم ولكن أتاني بعضهم.

واعلم أنه ليس التأثير لما ذكرنا من أعمال الفعل وترك أعماله على الحقيقة وإنما [٩٣] التأثير لأمر آخر وهو دخول «كل» في حيز النفي وأن لا يدخل فيه وإنما علّقنا الحكم في البيت وسائر ما مضى بأعمال الفعل وترك أعماله من حيث كان أعماله فيه يقتضي دخوله في حيز النفي وترك أعماله يوجب خروجه منه من حيث كان الحرف النافي في البيت حرفاً لا ينفصل عن الفعل وهو «لم» لا أن كونه معمولاً للفعل وغير معمول يقتضي ما رأيت من الفرق. أفلا ترى أنك لو جئت بحرف نفي يتصور انفصاله عن الفعل لرأيت المعنى في «كل» مع ترك أعمال الفعل مثله مع أعماله، ومثال ذلك قوله^(١):

❁ ما كل ما يتمنى المرء يدركه ❁

وقول الآخر^(٢):

❁ ما كل رأي الفتى يدعو إلى رشد ❁

«كل» كما ترى غير مُعْمَلٍ فيه الفعل ومرفوع إما بالابتداء وإما بأنه اسم «ما» ثم إن المعنى مع ذلك على ما يكون عليه إذا عملت فيه الفعل فقلت: ما يدرك المرء كل ما يتمناه، وما يدعو كل رأي الفتى إلى رشد، وذلك أن التأثير لوقوعه في حيز النفي وذلك حاصل في الحالين. ولو قدمت كلاً في هذا فقلت: كل ما يتمنى المرء لا يدركه، وكل رأي الفتى لا يدعو إلى رشد^(٣)، لتغير المعنى

(١) يعني أبا الطيب المتنبي. والبيت:

ما كل ما يتمنى المرء يدركه تجري الرياح بما لا تشتهي السفن

والبيت من قصيدة في مدح كافور الإخشيدي. ديوانه (الواحدي) ٦٦٧

(٢) يعني أبا العتاهية. ديوانه: ٢٣٩ وفيه:

ما كل رأي الفتى يدعو إلى رشد وإن بدا لك رأي مشكل فقفي

(٣) في (ب): إلى المرشد.

ولصار بمنزلة أن يقال: إن المرء لا يدرك شيئاً مما يتمناه ولا يكون في رأي
الفتى ما يدعو إلى رشدٍ بوجهٍ من الوجوه.

واعلم أنك إذا أدخلت كلاً في حيز النفي وذلك بأن تقدم النفي عليه لفظاً أو
تقديراً فالمعنى على نفي الشمول دون نفي الفعل والوصف نفسه.. وإذا أخرجت
كلاً من حيز النفي ولم تدخله فيه لا لفظاً ولا تقديراً كان المعنى على أنك تتبعت
الجملة فنفيت الفعل والوصف عنها واحداً واحداً والعلّة في أن كان ذلك كذلك
أنك إذا بدأت بكلّ كنت قد بنيت النفي عليه وسلّطت الكلّية على النفي وأعملتها
فيه، وإعمال معنى الكلّية في النفي يقتضي أن لا يشدّ شيء عن النفي [٩٣ ب]
فاعرفه.

واعلم أن من شأن الوجوه والفروق أن لا يزال يحدث بسببها وعلى حسب
الأغراض والمعاني التي تقع فيها دقائق وخفايا لا إلى حدّ ونهاية وأنها
خفايا تكتّم أنفسها جهدها حتى لا يُتنبّه لأكثرها ولا يُعلّم أنها هي وحتى لا تزال
تري العالم يعرض له السّهو فيه وحتى إنه ليقتصد إلى الصواب فيقع في أثناء
كلامه ما يؤهم الخطأ وكلّ ذلك لشدة الخفاء وقرط الغموض.



فصل

[تحليلي لضروب من النظم في الجملة]

واعلم أنه إذا كان بيننا في الشيء أنه لا يَحْتَمِلُ إِلَّا الوجه الذي هو عليه حتى لا يشكّل وحتى لا يُحتاج في العلم بأنّ ذلك حقّه وأنه الصواب إلى فِكْرٍ وَرَوِيَّةٍ فلا مَزِيَّةَ، وإنما تكون المزية ويجبُ الفضلُ إذا احتَمَل في ظاهر الحال غير الوجه الذي جاء عليه وجهاً آخرَ ثم رأيت النفس تنبو عن ذلك الوجه الآخر ورأيت للذي جاء عليه حُسناً وقبولاً يَغْدُمُهُمَا إذا أنت تركته إلى الثاني. ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾ [الأنعام: ١٠٠/٦]^(١) ليس بخافٍ أن لتقديم الشركاء حُسناً وروعةً ومأخذاً من القلوب أنت لا تجد شيئاً منه إن أنت أخرت فقلت: وجعلوا الجنّ شركاء لله، وأنت ترى حالك حال مَنْ نُقِلَ عن الصورة المبهجة والمنظر الرائق والحُسنِ الباهر إلى الشيءِ العُفْلِ الذي لا تَحَلِي منه بكثير طائل، ولا تصيرُ النفسُ به إلى حاصلٍ، والسببُ في أن كان ذلك كذلك هو أنّ التقديم فائدة شريفة ومعنى جليلاً لا سبيلَ إليه مع التأخير. بيانه أنا وإن كنا نرى جملة المعنى ومحصوله أنّهم جعلوا الجنّ شركاء وعبدوهم مع الله تعالى وكان هذا المعنى يحصلُ مع التأخير حصوله مع التقديم فإنّ تقديم الشركاء يفيدُ هذا المعنى ويفيدُ معه معنى آخر وهو أنه ما كان ينبغي أن يكونَ لله شريكٌ لا مِنَ الجنِّ ولا غير

(١) والآية الكريمة: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ﴾.

الجن. وإذا أَخْرَ فْقِيلَ: جَعَلُوا [١٩٤] الجنَّ شركاءَ الله لم يُفِذْ ذلك ولم يكن فيه شيء أكثر من الإخبار عنهم بأنهم عبدوا الجنَّ مع الله تعالى، فأما إنكارُ أن يُعْبَدَ معَ الله غيره وأن يكونَ له شريكٌ مِنَ الجنِّ وغيرِ الجنِّ فلا يكونُ في اللفظِ مع تأخيرِ الشركاءِ دليلٌ عليه. وذلك أن التقديرَ يكونُ مع التقديمِ أن «شركاء» مفعولٌ أولٌ لجعل^(١) و «الله» في موضعِ المفعولِ الثاني ويكونُ «الجنَّ» على كلامٍ ثانٍ على تقديرٍ أنه كأنه قيل: فمن جعلوا شركاءَ الله تعالى؟ فْقِيلَ: الجنَّ. وإذا كان التقديرُ في «شركاء» أنه مفعولٌ أولٌ و «الله» في موضعِ المفعولِ الثاني وَقَعَ الإنكارُ على كونِ شركاءِ الله تعالى على الإطلاقِ من غيرِ اختصاصٍ شيءٍ دونَ شيءٍ وحصلَ من ذلك أن اتخاذَ الشريكِ من غيرِ الجنِّ قد دَخَلَ في الإنكارِ دخولٌ اتخذَه من الجنِّ لأنَّ الصفةَ إذا ذكرتْ مجردةً غيرَ مجرأةٍ على شيءٍ كانَ الذي تَعَلَّقَ بها من النَّفْيِ عامًّا في كلِّ ما يجوز أن تكونَ له تلك الصفةُ. فإذا قلتَ: ما في الدارِ كريمٌ، كنتَ نفيتَ الكينونةَ في الدارِ عن كلِّ من يكونُ الكرمُ صفةً له. وحكمُ الإنكارِ أبداً حكمُ النفي. وإذا أَخْرَ فْقِيلَ: وجعلوا الجنَّ شركاءَ الله، كان «الجنَّ» مفعولاً أولٌ و «الشركاء» مفعولاً ثانياً. وإذا كان كذلك كان «الشركاء» مخصوصاً غيرَ مطلقٍ من حيثُ كانَ محالاً أن يجري خبراً على الجنِّ ثم يكونُ عامًّا فيهم وفي غيرهم وإذا كان كذلك احتملَ أن يكونَ القصدُ بالإنكارِ إلى الجنِّ خصوصاً أن يكونوا شركاءَ دونَ غيرهم، جَلَّ الله وتعالى عن أن يكونَ له شريكٌ وشبيهٌ بحالٍ.

فانظر الآنَ إلى شَرْفِ ما حصلَ من المعنى بأن قدَّم الشركاءَ واعتبرَه فإنه ينبهك لكثيرَ من الأمورِ ويدلُّك على عِظَمِ شأنِ النظمِ، وتَعَلَّمْ به كيف يكونُ الإيجازُ [به]^(٢) وما صورته وكيف يُزَادُ في المعنى من غيرِ أن يُزَادَ في اللفظِ، إذ قد ترى أن ليسَ إلَّا تقديمٌ وتأخيرٌ وأنه قد حَصَلَ لك بذلك من زيادةِ المعنى [٩٤] بـ ما إن حاولته مع تَرْكِه لم يحصلَ لك واحتجَّتْ إلى أن تستأنِفَ له كلاماً نحو أن تقولَ: وجعلوا الجنَّ شركاءَ الله وما ينبغي أن يكونَ لله شريكٌ لا مِنَ الجنِّ

(١) في (ب): لجعلوا.

(٢) في (ب): كيف يكون الإعجاز. و «به» ليست في (أ) ولا في (ب).

ولا مِنْ غيرِهِم، ثم لا يكون له إذا عُقِلَ من كلامين من الشرفِ والفخامةِ ومن كرمِ الموقعِ في النفسِ ما تجده له الآنَ وقد عُقِلَ من هذا الكلامِ الواحدِ.

ومما يَنْظُرُ إلى مثلِ ذلكِ قوله تعالى: ﴿وَلَجَدْتَهُمُ آخِصًا النَّاسِ عَلَى حَيَوْهُ﴾ [البقرة: ٩٦/٢]^(١) إذا أنت راجعتَ نفسَكَ وأذكيئتَ حسَّكَ وجدتَ لهذا التنكيرِ وأنَّ قِيلَ «على حياة» ولم يَقُلْ على الحياةِ [ولا على غيرها]^(٢) [حسناً وروعةً ولطفَ موقعٍ لا يُقَادَرُ قَدْرُهُ وتجذُّكَ تَعَدُّمُ ذلكِ مع التعريفِ وتخرجُ عن الأريحيةِ والأنسِ إلى خلافِهِما. والسَّبَبُ في ذلكِ أنَّ المعنى على الازديادِ من الحياةِ لا الحياةِ من أصلِها وذلك لا يحرصُ عليه إلَّا الحيُّ فأما العادمُ للحياة فلا يَصِحُّ منه الحرصُ على الحياةِ ولا على غيرها]^(٣) وإذا كَانَ كذلكَ صارَ كأنه قيلَ: ولتجدنَّهُمُ أحرصَ الناسِ ولو عاشوا ما عاشوا على أن يزدادوا إلى حياتِهِم في ماضي الوقتِ وراهِنِهِ حياةً في الذي يُسْتَقْبَلُ، فكما أنَّكَ لا تقولُ ههنا أن يزدادوا إلى حياتِهِم الحياةَ بالتعريفِ وإنما تقولُ حياةً إذ كَانَ التعريفُ يصلحُ حيثُ تُرادُّ^(٤) الحياةُ على الإطلاقِ كقولنا: كلُّ أحدٍ يحبُّ الحياةَ ويكرهُ الموتَ. كذلكَ الحكمُ في الآية.

والذي ينبغي أن يُراعى أنَّ المعنى الذي يوصفُ الإنسانُ بالحرصِ عليه إذا كَانَ موجوداً حالَ وصفِكَ له بالحرصِ عليه لم يُتَصَوَّرُ أن تجعله حريصاً عليه من أصلِهِ. كيف ولا يحرصُ على الراهنِ ولا الماضي وإنما يكونُ الحرصُ على ما لم يُوجَدَ بعدُ.

وشبيهةً بتنكيرِ الحياةِ في هذه الآية تنكيرُها في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩/٢]^(٥) وذلك أنَّ السببَ في حسنِ التنكيرِ وأنَّ لم

(١) والآية الكريمة: ﴿وَلَجَدْتَهُمُ آخِصًا النَّاسِ عَلَى حَيَوْهُ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُمََّرُّ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرَحِّزٍهُ مِنْ الْعَذَابِ أَنْ يُمََّرُّ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾.

(٢) ما بين معقوفين سقط من (ب) و (ط).

(٣) ما بين معقوفين سقط من (أ).

(٤) في (ط): ترد.

(٥) والآية الكريمة: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَتَأُولَى الْآلِئِبِ لَمَلَكُم تَتَّقُونَ﴾.

يحسن التعريف أن ليس المعنى على الحياة نفسها ولكن على أنه لما كان الإنسان إذا عَلم أنه إذا قُتل قُتل ارتدع بذلك عن القتل فسلم صاحبه صارت حياة هذا المهموم بقتله في مُستأنف الوقت مستفاداً بالقصاص وصار كأنه قد حيي في باقي عمره به أي بالقصاص، وإذا كان المعنى على حياة في بعض أوقاته وجب التنكير وامتنع التعريف من حيث كان التعريف يقتضي أن تكون الحياة قد كانت [٩٥] بالقصاص من أصلها وأن يكون القصاص قد كان سبباً في كونها في كافة الأوقات، وذلك خلاف المعنى وغير ما هو المقصود، ويبيّن ذلك أنك تقول: لك في هذا غنى فتتكرّر إذا أردت أن تجعل ذلك من بعض ما يُستغنى به فإن قلت: لك في الغنى، كان الظاهر أنك جعلت كل غناه به.

وأمر آخر، وهو أنه لا يكون ارتداد حتى يكون هم وإرادة وليس بواجب أن [لا] (١) يكون إنسان في الدنيا إلا وله عدو يهّم بقتله ثم يردعه خوف القصاص، وإذا لم يجب ذلك فمن لم يهّم إنسان بقتله فكفي ذلك الهم لخوف القصاص فليس هو من حيي بالقصاص. وإذا دخل الخصوص فقد وجب أن يقال حياة ولا يقال الحياة كما وجب أن يقال شفاء ولا يقال الشفاء في قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَطْنِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ [النحل: ٦٩/١٦] (٢) حيث لم يكن شفاء للجميع.

واعلم أنه لا يتصور أن يكون الذي هم بالقتل فلم يقتل خوف القصاص داخلاً في الجملة وأن يكون القصاص أفاده حياة كما أفاد المقصود قتله. وذلك أن هذه الحياة إنما هي لمن كان يُقتل لولا القصاص وذلك محال في صفة القاصد للقتل وإنما يصح في وصفه ما هو كالضد لهذا وهو أن يقال إنه كان لا يُخاف عليه القتل لولا القصاص وإذا كان هذا كذلك كان وجهاً ثالثاً في وجوب التنكير.

(١) لا: سقطت من (أ).

(٢) والآية الكريمة: ﴿ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بَطْنِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

فَجَلُّ

[في الذوق والمعرفة]

واعلم أنه لا يصادفُ القولُ في هذا البابِ موقعاً من السامعِ ولا يجدُ لديه قبولاً حتى يكونَ من أهلِ الذوقِ والمعرفةِ وحتى يكونَ ممن تحدّثه نفسه بأنَّ لما يُومئُ إليه من الحسنِ واللفظِ أصلاً وحتى يختلفَ الحالُ عليه عند تأملِ الكلامِ فيجدُ الأريحيةَ تارةً ويعرى منها أخرى وحتى إذا عَجِبَتْه عَجِبَ وإذا نَبَّهَتْه لموضعِ المزية انتبه. فأما من [كانت]^(١) الحالانِ والوجهانِ عنده أبداً على سواءٍ وكان لا يتفقُ من أمرِ النظمِ إلا الصحةُ [٩٥ ب] المطلقةُ وإلا إعراباً ظاهراً فما أقلُّ ما يُجدي الكلامُ معه، فليكنَ مَنْ هذه صفتهُ عندك بمنزلةٍ من عَدَمِ الإحساسِ بوزنِ الشعرِ والذوقِ الذي يقيمه به والطبعِ الذي يميّزُ صحيحه من مكسوره ومزاحفه من سالمه وما خرجَ من البحرِ مما لم يخرجِ منه، في أنك لا تتصدى له ولا تتكلفُ تعريفه لعلمك أنه قد عَدَمَ الأداةَ التي معها يَعْرِفُ^(٢)، والحاسةُ التي بها يَجِدُ^(٣)، فليكنَ قَدْحُك في زَنْدِ وِارٍ، والحكُّ في عُوْدِ أنت تطمَعُ منه في نار.

(١) في (ب): كان.

(٢) في (ط): تعرف.

(٣) في (ط): تجد.

واعلم أن هؤلاء وإن كانوا هم الآفة العظمى في هذا الباب فإن من الآفة أيضاً من زعم أنه لا سبيل إلى معرفة العلة في قليل ما تُعرف المزية فيه وكثيره، وأن ليس إلا أن تعلم^(١) أن هذا التقديم وهذا التنكير أو هذا العطف أو هذا الفضل حسن، وأن له موقعاً من النفس وحقاً من القبول، فأما أن تعلم لم كان كذلك وما السبب؟ فمما لا سبيل إليه، ولا مطمع في الاطلاع عليه، فهو بتوانيه، والكسل فيه، في حكم من قال ذلك.

واعلم أنه ليس إذا لم يمكن معرفة الكل وجب ترك النظر في الكل، وأن تعرف العلة والسبب فيما يمكنك معرفة ذلك فيه وإن قل فتجعله شاهداً فيما لم تعرف أخرى من أن تسد باب المعرفة على نفسك وتأخذها عن الفهم والتفهم وتعودها الكسل والهويني. قال الجاحظ: وكلام كثير قد جرى على ألسنة الناس وله مضرّة شديدة وثمرة مرّة. فمن أضر ذلك قولهم: لم يدع الأول للآخر شيئاً. قال: فلو أن علماء كل عصرٍ مُدّ جرث هذه الكلمة في أسماعهم تركوا الاستنباط لما لم ينته إليهم عمّن قبلهم لرأيت العلم مختلاً. واعلم أن العلم إنما هو معدن فكما أنه لا يمنعك أن ترى ألف وقر^(٢) قد أخرجت من معدنٍ تَبَرُّ أن تطلب فيه وأن تأخذ ما تجد ولو كَقَدْر ثُومَةٍ^(٣) كذلك ينبغي أن يكون رأيك في طلب العلم ومن الله تعالى [٩٦] نسأل التوفيق.



(١) في (ب): يعلم.

(٢) الوقر: هو الجمل.

(٣) الثومة: اللؤلؤة.

فصل

[هذا فنُّ من المجازِ لم نذكره فيما تقدم]

اعْلَمْ أَنَّ طريقَ المجازِ والاتساعِ في الذي ذكرناه قبلُ أنك ذكرتَ الكلمةَ وأنت لا تريدُ معناها، ولكن تريدُ معنى ما هو رَدْفٌ له أو شبيهه، فتجوزتَ بذلك في ذاتِ الكلمة وفي اللفظِ نفسه. وإذا قد عرفتَ ذلك فاعلم أَنَّ في الكلامِ مجازاً على غير هذا السبيلِ، وهو أن يكونَ التجوُّز في حكمٍ يجري على الكلمة فقط وتكونَ الكلمة متروكة على ظاهرها، ويكونَ معناها مقصوداً في نفسه ومراداً من غير تورية ولا تعريض. والمثالُ فيه قولُهُم: «نهارُك صائمٌ وليُّك قائمٌ ونام ليلي وتجلَّى همي» وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَا رَیَحْتَ بِجَنَّتِهِمْ﴾ [البقرة: ١٦/٢]^(١) وقولُ الفرزدق^(٢):

(١) والآية الكريمة: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَیَحْتَ بِجَنَّتِهِمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾.

(٢) لم نجده في الديوان (الصاوي). ولعلَّه من لاميته المشهورة:

تَحِنُّ بِزُورَاءِ الْمَدِينَةِ نَاقَتِي حَنِينٌ عَجُولٌ تَبْتَغِي الْبَوَّ رَائِمِ

والعِلَاط: هو الوَسْمُ في العنق، والخِبَاطُ: الوَسْمُ في الوجه. والناقة المخبوطة التي وسمت بتلك السِّمة. والبيت في الكامل (١/٧٤)، قال في شرحه: «عَلِمَ أربابُ الماءِ لمن هي - يعني الناقة - فسقاها ما سَمِعُوهُ من ذِكر أصحابها لعزِّهم وَمَنَعَتِهِمْ، ولم تحتج أن تكون بها سِمةً.

سَقَّتْهَا^(١) خُرُوقٌ فِي الْمَسَامِيعِ لَمْ تَكُنْ عِلَاطاً وَلَا مَخْبُوطَةً فِي الْمَلَاغِمِ
 أنت ترى مجازاً في هذا كله ولكن لا في ذواتِ الكلم وأنفسِ الألفاظ ولكن
 في أحكامِ أجريثِ عليها؛ أفلا ترى أنك لم تتجوّز في قولك: «نهارك صائم
 وليلك قائم» في نفس صائم وقائم ولكن في أن أجريتهما خبرين على النهار
 والليل. وكذلك ليس المجازُ في الآية في لفظة: «ربحت» نفسها ولكن في
 إسنادها إلى التجارة. وهكذا الحكم في قوله: «سقتها خروق» ليس التجوُّزُ في
 نفس «سقتها» ولكن في أن أسندَها إلى الخروق. أفلا ترى أنك لا ترى شيئاً منها
 إلّا وقد أريدَ به معناه الذي وُضِعَ له على وجهه وحقيقته؟ فلم يُرَدَّ بصائم غيرَ
 الصوم ولا بقائم غير القيام ولا بـ «ربحت» غير الريح ولا بـ «سقت» غير السقي،
 كما أريد بـ «سالت» في قوله:

❁ وسالت بأعناق المطيِّ الأباطح^(٢) ❁

غير السيل.

واعلم أن الذي ذكرتُ لك في المجاز هناك مِنْ أَنَّ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَفْحَمَ عليه
 المعنى وتحدّث فيه النباهة قائم لك مثله ههنا فليس يَشْتَبِهَ على عاقلٍ أَنْ ليس
 حال المعنى وموقعه في قوله^(٣):

❁ فَنَامَ لَيْلِي وَتَجَلَّى هَمِّي ❁

(١) في (ط): سقاها.

(٢) عجز بيت صدره:

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطيِّ الأباطح
 - وهو أحد ثلاثة أبيات تداولتها كتب البلاغة والنقد وأول من تحدث فيها ابن قتيبة في
 مقدمة الشعر والشعراء ٦٦/١ وهذه الأبيات من قصيدة مختلف في نسبتها.
 (٣) بيت من الرجز لرؤبة، وسياقه (الديوان ١٤٢):

حَارَتْ قَدْ قَرَّجَتْ عَنِّي غَمِّي فَنَامَ لَيْلِي وَتَجَلَّى هَمِّي
 وقد تجلّى كُرْبُ الْمُخَنَّمِ

[٩٦ ب] كحاله وموقعه إذا أنت تركت المجاز وقلت: فنمت في ليلي وتجلّى همي، كما لم يكن الحال في قولك: «رأيت أسداً» كالحال في «رأيت رجلاً كالأسد» ومن [ذا]^(١) الذي يخفى عليه مكان العلو وموضع المزية وصورة الفرقان بين قوله تعالى: ﴿فَمَا يَحْتَجِّجُهُمْ﴾ وبين أن يقال «فما ربحوا في تجارتهم».

وإن أردت أن ترداد للأمر تبيّنًا فانظر إلى بيت^(٢) الفرزدق^(٣):

يُخمي إذا اختُرط السيوف نساءنا ضَرْبُ تَطِيرُ لَهُ السَّوَاعِدُ أَرْعَلُ

وإلى رونقه ومائه وإلى ما عليه من الطلاوة. ثم ارجع إلى الذي هو الحقيقة وقل: «نحني إذا اختُرط السيوف نساءنا بضرب تطير له السواعد أرعل» ثم اسبر حالك هل ترى مما كنت تراه شيئاً؟

وهذا الضرب من المجاز على جذته كنز من كنوز البلاغة ومادة الشاعر المُفْلِق والكاتب البليغ في الإبداع والإحسان، والاتساع في طُرُق البيان، وأن يجيء بالكلام مطبوعاً مصنوعاً وأن يضعه بعيد المرام. قريباً من الأفهام، ولا يغرنك من أمره أنك ترى الرجل يقول: «أتى بي الشوق إلى لقائك، وسار بي الحنين إلى رؤيتك، وأقدمني بلدك حق لي على إنسان» وأشباه ذلك مما تجده لسعته وشهرته يجري مجرى الحقيقة التي لا يُشكل أمرها، فليس هو كذلك أبداً، بل يدق ويلطف حتى يمتنع مثله إلا على الشاعر المُفْلِق، والكاتب البليغ وحتى يأتيك بالبدعة لم تعرفها، والنادرة تأتق لها.

(١) ذا: سقطت من (ط).

(٢) في (ب): إلى قول الفرزدق.

(٣) ديوانه ٧١٥/٢ (الصاوي) من قصيدته التي مطلعها:

إن الذي سمك السماء بني لنا بيتاً دعائمه أعز وأطول

ورواية الشطر الثاني في الديوان:

* ضرب تخر له السواعد أرعل *

والأرعل: الأحق.

وجملته الأمر أن سبيله سبيلُ الضرب الأول الذي هو مجاز في نفس اللفظ وذات الكلمة؛ فكما أن من الاستعارة والتمثيل عامياً مثل «رأيتُ أسداً، ووردتُ بحراً، وشاهدتُ بدرأ، وسَلَّ من رأيه سيفاً [ماضياً]^(١)» وخاصياً لا يكمل له كل أحد مثل قوله:

❁ وَسَالَتْ بِأَعْنَاقِ الْمَطِيِّ الْأَبَاطِحُ ❁

كذلك الأمر في هذا المجاز الحكمي.

واعلم [٩٧ أ] أنه ليس بواجب في هذا أن يكون للفعل فاعلٌ في التقدير إذا أنتَ نقلتَ الفعلَ إليه عدتَ به إلى الحقيقة مثل أنك تقول في «ربحت تجارتهم»: ربحوا في تجارتهم، وفي «يحمي نساءنا ضربٌ» نحمي نساءنا بضرب، فإنَّ ذلك لا يتأتى في كل شيء. ألا ترى أنه لا يمكنك أن تثبت للفعل في قولك: أقدمني بلدك حقاً لي على إنسان، فاعلاً سوى الحق، وكذلك لا تستطيع في قوله^(٢):

وَصَيَّرَنِي هَوَاكِ وَبِي لِحَيْنِي يُضْرَبُ الْمَثَلُ
وقوله^(٣):

يَزِيدُكَ وَجْهُهُ حُسْنًا إِذَا مَا زِدْتَهُ نَظَرًا

أن ترغم أن لصيرني فاعلاً قد نُقِلَ عنه الفعل فجعلَ للهوى كما فُعلَ ذلك في «ربحت تجارتهم، ويحمي نساءنا ضربٌ» ولا تستطيع كذلك أن تقدر لـ (يزيد) في قوله: يزيدك وجهه، فاعلاً غيرَ الوجه. فالاعتبار إذن بأن يكون المعنى الذي يرجع إليه الفعلُ موجوداً في الكلام على حقيقته. معنى ذلك أن القُدوم في

(١) ماضياً: سقطت من (ط).

(٢) يعني محمد بن أبي محمد اليزيدي (أبو عبد الله) من رهط ذي الرُّمة وهو من بيت شعر تحدّث عنه الأصفهاني في الأغاني ٢٠/ ١٨٠ - ٢٣٢ والبيت من أبيات له في الأغاني ١٥٨/ ٦ - ١٥٩ و ٢٠/ ٢٠٥ وانظر معجم الشعراء ٣٥٤

(٣) نسبة في الوساطة ٣٩٣ لأبي نواس وهو في ديوانه (الصولي) ٧٥٢ من قصيدة مطلعها:

دِعِ الرَّبْعَ الَّذِي دَثَّرَا يُقَاسِي الرِّيحَ وَالْمَطَرَا

قولك: أقدمني بلدك حقّ على إنسان، موجودٌ على الحقيقة وكذلك الصيرورة في قوله: وصيرني هواك. والزيادة في قوله: «يزيدك وجهه» موجودتان على الحقيقة، وإذا كان معنى اللفظ موجوداً على الحقيقة لم يكن المجاز فيه نفسه، وإذا لم يكن المجاز في نفس اللفظ كان لا محالة في الحكم.

فاعرف هذه الجملة وأحسّ ضبطها حتى تكون على بصيرة من الأمر.

ومن اللطيف في ذلك قولُ حازر بن عوف^(١):

أبي عَبَرَ الْفَوَارِسَ يَوْمَ دَاجٍ وَعَمِي مَالِكٌ وَضَعَ السَّهَامَا
فَلَوْ صَاحَبْتِنَا لَرَضِيتَ عَنَّا إِذَا لَمْ تَغْبُقِ الْمِئَةَ الْغُلَامَا

يريد إذا كان العامّ عامّ جذب، وجفتْ ضروعُ الإبل، وانقطع الدّر حتى إنّ حَلَبَ منها مئة لم يحصل من لبنها ما يكون غُبوق غلام واحد. فالفعل الذي هو غَبَقَ مُسْتَعْمَلٌ في نفسه على حقيقته غير مُخْرَجٍ عن معناه وأصله إلى معنى شيء آخر، فيكون قد دخله مجازٌ في نفسه وإنما المجاز في أن أسند إلى الإبل وجعلَ فعلاً لها. وإسنادُ الفعل إلى الشيء حكمٌ في [٩٧ ب] الفعل وليس هو نفس معنى الفعل؛ فاعرفه.

واعلم أنّ من سبب اللطف في ذلك أنّه ليس كلُّ شيء يصلح لأن يتعاطى فيه هذا المجاز الحكمي بسهولة، بل تجذّك في كثير من الأمر وأنت تحتاج إلى أن تهَيِّئَ الشيء وتصلّحه لذلك بشيء تتوخّاه في النظم، وأن أردت، مثلاً في ذلك فانظر إلى قوله^(٢):

(١) حازر بن عوف: شاعر جاهلي مقل، ليس من مشهوري الشعراء وهو أحد الصعاليك المغيرين على قبائل العرب، وممن كان يعدو على رجله عدواً يسبق به الخيل. انظر الأغاني ٢١١/١٣ والبيتان من قصيدة له في الأغاني ٢١٣/١٣ والرواية ثمة:

أبي رَبَعَ الْفَوَارِسَ يَوْمَ دَاجٍ فَلَوْ صَاحَبْتِنَا لَرَضِيتَ مِنَّا

(٢) ليست الأبيات في مصادرنا.

الأسجَحُ من الإبل: الرقيق المشفر. ومرقال الضحى: أي مسرع في السير في وقت الضحى. والضرَف: الحزام، وقلقه يكون من الضمور.

تناسَ طِلابَ العامِريَّةِ إذْ ناثَ بأَسَجَعَ مِرْقالِ الضُّحَى قَلَقِ الضُّفْرِ
إذا ما أَحَسَّنَهُ الأَفاعي تَمَيَّزَتْ^(١) شِواءُ الأَفاعي في مُثَلِّمةِ سُمْرِ
تَجُوبُ له الظُّلَماءُ عَيْنٌ كَأَنَّها رُجاجةُ شَرْبٍ غيرُ مَلأى ولا صِفْرِ

يَصِفُ جَمَلاً ويريدُ أنه^(٢) يهتدي بنورِ عينه في الظلماء ويمكنه بها أن يخرقها يمضي فيها، ولولاها لكانت الظلماء كالسد والحاجز الذي لا يجد شيئاً يفرُّجه به ويجعلُ لنفسه فيه سبيلاً، فأنت الآن تعلمُ أنه لولا أنه قال: «تجوبُ له»، فعَلَقَ (له) بـ (تجوب) لما صلَّحت العينُ لأن يُسندَ «تجوب» إليها ولكان لا تَبَيَّنَ جهةُ التجوُّز في جعلِ «تجوب» فعلاً للعين كما ينبغي. [وكذلك]^(٣) تعلمُ أنه لو قال مثلاً: تَجُوبُ له الظلماءُ عينُه، لم يكنْ له هذا الموقعُ ولا ضَرَبَ عليه معناه وانقطع السِّلْكُ من حيثُ كان يعيبُه حينئذٍ أن يَصِفَ العينَ بما وصفها به الآن. فتأملْ هذا واعتبره. فهذه التهيئة وهذا الاستعدادُ في هذا المجاز الحُكْمِي نظيرُ أنك تراك في الاستعارة التي هي مجازٌ في نفس الكلمة وأنت تحتاجُ في الأمر الأكثر إلى أن تمهِّد لها وتقدِّمَ أو تؤخِّرَ ما يُعْلَمُ به أنك مستعيرٌ ومشبَّهٌ، ويفتح طريقَ المجاز إلى الكلمة، ألا تَرى إلى قوله^(٤):

وصاعِقَةٌ من نَصْلِهِ يَنكُفِي بها على أرْؤسِ الأَقْرانِ خَمْسُ سَحائبِ

عَنى بخمس السحاب أنامله، ولكنه لم يأت بهذه الاستعارة دفعةً، ولم يَرْمِها إليك بغتةً، بل ذكر ما يُنبئُ عنها، ويُسَدِّلُ به عليها، فذكر أن هناك صاعقةً وقال: «مِنْ نَصْلِهِ» فبين أن تلك الصاعقة من نصلِ سيفه ثم قال: «على أرْؤسِ

(١) في (ط): تحيَّزَتْ - بالحاء المهملة - وهو تصحيف. وتميز من الغيظ: بمعنى تنحى أو تقطع. والشِواءُ: ظاهر الجلد. والمثَلِّمة السمر: هي الأخفاف.

(٢) في (ط): أَنْ.

(٣) في (ب): ولذلك.

(٤) يعني البحترى، والبيت من قصيدة في مدح أبي سعيد محمد بن يوسف الثغري. ديوانه

الأقران» ثم قال: «خمس» فذكر الخمس التي هي عددُ أناملِ اليد، فبانَ من مجموع هذه الأمور غرضه.

وأنشدوا لبعض العرب^(١):

فإن تعافوا العدل والإيماناً فإن في إيماننا نيراناً

يريد أن في إيماننا سيوفاً نضربكم بها، ولولا قوله أولاً: «فإن تعافوا العدل والإيمان» وأن في ذلك دلالة على أن جوابه أنهم يُحاربون ويُفسرون على الطاعة بالسيف، ثم قوله: فإن في إيماننا، لما عَقِلَ مراده، ولما جازَ له أن يستعير النيرانَ للسيوفِ لأنه كان لا يُعَقَل الذي يريد، لأننا وإن كنّا نقول: «في أيديهم سيوفٌ تلمع كأنها شعلُ نارٍ»^(٢) كما قال^(٣):

ناهضتُهُم والبارقاتُ كأنها شعلٌ على أيديهم تَلَهَّبُ

فإن هذا التشبيه لا يبلغ مبلغَ ما يُعرفُ مع الإطلاق كمعرفتنا إذا قال: «رأيتُ أسداً» أنه يريدُ الشجاعةَ وإذا قال: «لقيتُ شمساً وبدراً» أنه يريدُ الحسن، ولا يقوى تلك القوة؛ فاعرفه.

ومما طريق المجاز فيه الحكمُ قولُ الخنساء^(٤):

ترتُّع ما رتعتُ حتّى إذا ادَّكرتُ فلئّما هي إقبالٌ وإدبارُ

وذاك أنها لم تُردّ بالإقبال والإدبار غيرَ معناهما، فتكون قد تجوّزت في نفس الكلمة، وإنما تجوّزت في أن جعلتها لكثرة ما تُقبِلُ وتُدبِرُ ولغلبة ذاك عليها

(١) البيت في معاهد التنصيص ١٣١/٢ منسوباً لبعض العرب.

(٢) في (ط): النيران.

(٣) البحرى، ديوانه ٧٥/١ من قصيدة في مدح إسحاق بن إبراهيم المصعبى.

(٤) من قصيدتها المشهورة في رثاء أخيها صخر (الديوان: ٨٨)، وقبل هذا البيت:

فما عَجُولٌ على بَوِّ تُطيفُ به لها حنينانِ إصغارٌ وإكبارُ

- هي بقرةٌ وحشية فقدت ولدها. والبوّ جلدٌ يُخشى قشاً وما شابه لتتسلى به أمّه عن ولدها.

واتصاله بها، وأنه لم يكن لها حالٌ غيرُهما كأنها قد تجسَّمت من الإقبال والإدبار. وإنما كان يكونُ المجازُ في نفس الكلمة لو أنها كانت قد استعارت الإقبالَ والإدبارَ لمعنى غيرِ معناهما الذي وُضعا له في اللغة ومعلومٌ أن ليس الاستعارةُ مما أَرادته في شيء.

واعلم أن ليس بالوجه أن يُعَدَّ هذا على الإطلاق مَعَدَّ ما حُذِفَ منه المضاف وأقيم المضافُ إليه مقامه مثلَ قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَسَكِلَ الْاَلْقَرِيَّةَ﴾ [٩٨ ب] ومثل قولِ النابغة [الجعدي] ^(١):

وَكَيْفَ تُواصِلُ مَنْ أَضْبَحَتْ خِلَالَتُهُ كَأَبِي مَرْحَبٍ ^(٢)
وقولِ الأعرابي ^(٣):

حَسَبْتُ بُغَامَ راحِلَتِي عَنَّا قَا وما هي وَنَبَّ غَيْرِكَ بِالْعَنَاقِ

وإن كنا نراهم يذكرونه حيث يذكرون حذفَ المضاف، ويقولون إنه في تقدير: «فإنما هي ذاتُ إقبالٍ وإدبارٍ» ذاك لأن المضافَ المحذوفَ من نحو الآية والبيتين في سبيل ما يُحَذَفُ من اللفظ ويُراد في المعنى، كمثُل أن يحذف خبرُ المبتدأ أو المبتدأ إذا دَلَّ الدليل عليه إلى سائر ما إذا حُذِفَ كان في حكمِ المنطوق به؛ وليس الأمرُ كذلك في بيتِ الخنساء، لأننا إذا جعلنا المعنى فيه الآن كالمعنى إذا نحن قلنا: «فإنما هي ذاتُ إقبالٍ وإدبارٍ» أفسدنا الشعرَ على

(١) ما بين معقوفتين من (ط).

(٢) ديوان النابغة الجعدي: ٢٦

الخلافة: الصداقة المختصة. وأبو مرحب: يقال إنَّه الرجل الحسن الوجه ولا باطن له، وقيل إنَّه من أسماء الذئب، أو هو الظلُّ. انظر: اللسان (خل).

(٣) في اللسان: «عنق».

أنشد ابن الأعرابي لقرِيط يصف الذئب:

حَسَبْتُ بُغَامَ راحِلَتِي عَنَّا قَا وما هي وَنَبَّ غَيْرِكَ بِالْعَنَاقِ
فلو أَنِّي رَمَيْتُكَ مِنْ قَرِيبٍ لَعَاقَكَ عَنْ دُعَاءِ الذَّئْبِ عَاقِ

أنفُسِنَا وخرَجْنَا إلى شيء مغسولٍ، وإلى كلامٍ عاميٍّ مردولٍ، وكان سبيلُنَا سبيلَ مَنْ يزعم مثلاً في بيت المتنبي^(١):

بَدَثَ قَمَرًا وَمَالَتْ خُوطَ بَانٍ وَقَاحَتْ عَنَبَرًا وَرَنَتْ غَزَالَا

أنه في تقدير محذوفٍ وأن معناه الآن كالمعنى إذا قلت: بدث مثل قمر ومالت مثل خوط بان وفاحت مثل عنبر ورنث مثل غزال، في أنا نخرج إلى الغثاثة وإلى شيء يَغْزِلُ البلاغة عن سلطانها. ويخْفِضُ من شأنها، ويصدُّ بأوجُهنا^(٢) عن محاسِنِها، وَيَسُدُّ باب المعرفة بها ويلطائفها علينا، فالوجه أن يكون تقديرُ المضاف في هذا على معنى أنه لو كان الكلام قد جيء به على ظاهره ولم يُقصد إلى الذي ذكرنا من المبالغة والاتساع وأن تُجْعَلَ الناقّة كأنها قد صارت بجملتها إقبالاً وإدباراً حتى كأنها قد تَجَسَّمَتْ منهما لكان حقُّه حينئذٍ أن يُجاءَ فيه بلفظ الذات فيقال: إنما^(٣) هي ذات إقبالٍ وإدبار. فأما أن يكون الشعرُ الآن موضوعاً على إرادة ذلك، وعلى تنزيله منزلةً المنطوق به حتى يكون الحال فيه كالحال في:

❁ حَسِبْتَ بُغَامَ رَاحِلَتِي عَنَاقَا ❁

حين كان المعنى [٩٩ أ] والقصدُ أن يقول: حَسِبْتَ بُغَامَ رَاحِلَتِي بُغَامَ عَنَاقٍ. مما^(٤) لا مسأغ له عند من كان صحيح الذوق صحيح المعرفة نَسَابَةً للمعاني.

(١) ديوان المتنبي (الواحدي) ٢١٧ من قصيدة في مدح بدر بن عمار مطلعها:

بقائني شاء ليس هم ارتحالا وحُسن الصبر زُموا لا الجمالا

(٢) في (ط): أوجُهنا.

(٣) في (ب): فإئتما.

(٤) في (ط): فمما.

فصل

[في تحليل شاهد مجازي]

هذه مسألة قد كنت عملتها قديماً وقد كتبتها ههنا لأن لها اتصالاً بهذا الذي صار بنا القول إليه. قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ [ق: ٥٠/ ٣٧]^(١) أي لمن كان^(٢) أَعْمَلَ قلبه فيما خُلِقَ القلبُ له من التدبُّر والتفكير والنظر فيما ينبغي أن ينظر فيه. فهذا على أن يُجْعَلَ الذي لا يَعِي ولا يسمع ولا ينظر ولا يتفكر كأنه قد عَدِم القلب من حيثُ عَدَم الانتفاع به، وفاته الذي هو فائدة القلب والمطلوب منه، كما جُعِل الذي لا ينتفع ببصره وسمعه ولا يفكر فيما يؤديان إليه ولا يحصلُ من رؤية ما يرى وسماع ما يُسمع على فائدة، بمنزلة من لا سَمْعَ له ولا بَصَرَ. فأما تفسيرُ من يفسِّره على أنه بمعنى «من كان له عقل» فإنه إنما يصحُّ على أن يكونَ قد أراد الدلالة على الغرض على الجملة، فأما أن يُؤْخَذَ به على هذا الظاهر حتى كأنَّ القلبَ اسمٌ للعقل كما يتوهمه أهل^(٣) الحشو ومن لا يعرف مخارج الكلام، فمُحَالٌّ باطل لأنه يؤدي إلى إبطال الغرض من الآية، وإلى تحريف الكلام عن صورته وإزالة المعنى عن جهته. وذاك أنَّ المراد به الحثُّ على النظر، والتفريقُ على تركه، وذمُّ من يُخِلُّ به وَيَغْفُلُ عنه،

(١) والآية الكريمة: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾.

(٢) زيادة من (ط).

(٣) أهل: زيادة من (ط).

ولا يحصلُ ذلك إلا بالطريق الذي قدمته، وإلا بأن يكونَ قد جعل من لا يفقه بقلبه ولا ينظرُ ولا يتفكرُ كأنه ليس بذي قلبٍ، كما يُجعلُ كأنه جمادٌ، وكأنه مَيِّتٌ، لا يشعر ولا يحسُّ. وليس سبيل من فسّر القلب ههنا على العقل^(١) إلا سبيلَ من فسّر عليه العينَ والسمع في قول الناس: «هذا بيِّنٌ لمن كانت له عَيْنٌ ولمن كان له سمعٌ» وفسّر العمى والصَّمَمَ والموتَ في صفة من يوصف بالجهالة على مجرد الجهل وأجرى جميعَ ذلك على الظاهر فاعرفه.

ومن عادة قوم ممن يتعاطى التفسيرَ بغير علم أن يتوهّموا أبدأً في الألفاظ [٩٩ ب] الموضوعَةِ على المجاز والتمثيل أنها على ظواهرها فيفسدوا المعنى بذلك ويُبطلوا الغرضَ، ويمنعوا أنفسهم، والسماعَ منهم العلمَ بموضعِ البلاغة وبمكان الشرفِ، وناهيك بهم إذا هم أخذوا في ذكرِ الوجوه وجعلوا يُكثرون في غير طائل! هناك ترى ما شئتَ من بابِ جهلٍ قد فتحوه، وزند ضلالة قد قدحوا به، ونسأل الله تعالى العصمة والتوفيقَ.



(١) في (أ): القلب.

فصل

[في الكناية وشواهدا]

هذا فنٌ من القول دقيقُ المسلك لطيفُ المآخذ وهو أنا نراهم كما يصنعون في نفس الصفة بأن يذهبوا بها مذهب الكناية والتعريض، كذلك يذهبون في إثبات الصفة هذا المذهب وإذا فعلوا ذلك بدت هناك محاسنُ تملأ الطرف، ودقائقُ تُعجز الوصف، ورأيتَ هناك شعراً شاعراً، وسحراً ساحراً، وبلاغةً لا يكمل لها إلا الشاعرُ المُفلقُ، والخطيبُ المضقُّعُ، وكما أنَّ الصفة إذا لم تأتِ مصرحاً بذكرها، مكشوفاً عن وجهها ولكن مدلولاً بغيرها، كان ذلك أفخمَ لشأنها، وألطفَ لمكانها، كذلك إثباتُك الصفة للشيء تشبُّهاً له إذا لم تُلِّقْه إلى السامع صريحاً وجئتَ إليه من جانب التعريض والكناية، والرمز والإشارة، كان له من الفضل والمزية، ومن الحُسْنِ والروني، ما لا يقلُّ قليله، ولا يُجهل موضعُ الفضيلة فيه.

وتفسيرُ هذه الجملة وشرحُها أنهم يرومون وصفَ الرجل ومدحَه وإثباتَ معنى من المعاني الشريفة له، فيدعون التصريح بذلك ويكتنون عن جعلها فيه بجعلها في شيء يشتمل عليه ويتلبس به، ويتوصلون في الجملة إلى ما أرادوا من الإثبات لا من الجهة الظاهرة المعروفة بل من طريقٍ يخفى، ومسلكٍ يدقُّ، ومثاله قول زياد الأعجم^(١):

(١) زياد الأعجم: أبو أمامة بن سليم وقيل: سليمان وقيل: جابر وقيل: سلمي بن عمرو

إِنَّ السَّمَاحَةَ وَالْمُرُوءَةَ وَالنَّدَى فِي قُبَّةٍ ضُرِبَتْ عَلَى ابْنِ الْحَشْرِجِ

وبعده:

مَلِكٌ أَعْرُ مُتَوَجِّحٌ دُو نَائِلٍ لِلْمُغْتَفِينَ يَجِبُهُ لَمْ نَشْنُجِ

يَا خَيْرَ مَنْ صَعِدَ الْمَنَابِرَ بِالتَّقَى بَعْدَ النَّبِيِّ الْمُصْطَفَى الْمُتَحَرِّجِ

لَمَّا أَتَيْتُكَ رَاجِئاً لِنَوَالِكُكُمْ أَلْفَيْتُ بَابَ نَوَالِكُكُمْ لَمْ يُرْزَجِ

أَرَادَ - كما لا يخفى - أن يثبت هذه المعاني والأوصاف خلافاً للممدوح وضرائب فيه؛ فترك أن يصريح فيقول: «إن السماحة والمروءة والندى مجموعة»^(١) في ابن الحشرج أو مقصورة عليه أو مختصة به، وما شاكل ذلك مما هو صريح في إثبات الأوصاف للمذكورين بها، وعدل إلى ما ترى من الكناية والتلويح، فجعل كونها في القبة المضروبة عليه عبارة عن كونها فيه، وإشارة إليه، فخرج كلامه بذلك إلى ما خرج إليه من الجزالة، وظهر فيه ما أنت ترى من الفخامة، ولو أنه أسقط هذه الوساطة من البيت لما كان إلا كلاماً غفلاً، وحديثاً ساذجاً، فهذه الصنعة في طريق الإثبات هي نظير الصنعة في المعاني إذا جاءت كنايات عن معاني آخر نحو قوله^(٢):

= ومولى عبد القيس وسُمِّي الأعجم للكنة في لسانه أو لأنه نشأ بفارس شاعر جزل القول معمر كان في بدء الدولة الأموية.

(ذيل السمت ٨، الشعر والشعراء ٤٣٠/١، الأغاني ٣٠٧/١٥).

- والبيت في الأغاني ٢٠/١٢ لزياد في مدح عبد الله بن الحشرج وكان هذا جواداً ممدحاً.

وذكر له العباسي في معاهد التنصيص ١٧٣/٢ صلة وقال: إن زياداً قال الأبيات في ابن الحشرج عندما كان أمير نيسابور وهي الأبيات التي ثبتت في متن الكتاب.

(١) في (ط): لمجموعة.

(٢) البيت في الحيوان ٣٨٤/١، والحماسة (المرزوقي) ١٦٥٠/٤، والصناعتين ٣٥١،

والعمدة ٣١٨/١ بلا نسبة.

في العمدة: فما يك. وفي الصناعتين: ومهما في من عيب.

وما يَكُ فيَّ مِنْ عَيْبٍ فإِني جَبَانُ الْكَلْبِ مَهْزُولُ الْفَصِيلِ

فكما أنه إنما كان من فاخر الشعر ومما يقع في الاختيار لأجل أن أراد أن يذكر نفسه بالقرى والضيافة فكأن عن ذلك بجبن الكلب وهزال الفصيل وترك أن يصرح فيقول: «قد عُرفَ أنَّ جنابي مألوفٌ وكلبي مؤدَّب لا يَهْرُ في وجوه من يغشاني من الأضيافِ وأني أنحرُ المَتالي من إيلي وأدعُ فصالها هزلى» كذلك إنما راقك بيتُ زياد لأنه كُنَى عن إثباته السماحةَ والمروءةَ والندى كائنةً في الممدوحِ بجعلها كائنةً في القبة المضروبة عليه. هذا، وكما أنَّ من شأنِ الكناية الواقعة في نفسِ الصفة أن تجيء على صُورٍ مختلفة كذلك من شأنها إذا وقعت في طريق إثبات الصفة أن تجيء على هذا الحدِّ، ثم يكونُ في ذلك ما يتناسبُ كما كان ذلك في الكناية عن الصفة نفسها. تفسيرُ هذا أنك تنظرُ إلى قولِ يزيدَ بنِ الحَكَم يمدحُ به يزيدَ بن المَهْلَب وهو في حَسَنِ الْحَجَّاجِ^(١):

أَصْبَحَ فِي قَيْدِكَ السَّمَاحَةُ وَالْمَجْدُ وَفَضْلُ الصَّلَاحِ وَالْحَسَبِ

[١٠٠ ب] فتراه نظيراً لبيت زياد؛ وتعلَّم أن مكان القيد ههنا هو مكان القبة هناك كما أنك تنظر إلى قوله: «جبان الكلب» فتعلَّم أنه نظيرٌ لقوله:

❁ زَجَرْتُ كِلَابِي أَنْ يَهْرَ عَقُورُهَا ❁^(٢)

(١) أوَّل ثلاثة أبيات في الأغاني ٢٩٤/١٢ ليزيد بن الحكم، وقال أبو الفرج: «وقد رُويت هذه الأبيات والقصة لحمزة بن بيض مع يزيد». وفي وفيات الأعيان ٣٠٠/٦: «ولمَّا كان يزيد في حبس عمر دخل عليه الفرزدق، فرآه مقيداً فأنشدته:

أَصْبَحَ فِي قَيْدِكَ السَّمَاحَةُ وَالْجَوْدُ وَحَمَلُ الدِّيَاتِ وَالْحَسَبُ

لَا بَطْرَ إِنْ تَرَادَفْتَ نَعَمَ وَصَابِرَ فِي الْبَدَاءِ مُحْتَسَبُ

يزيد بن الحكم الثقفى شاعر أموي ولآه الحجاج كورة فارس ثم عزله قبل أن يصل إليها. (الأغاني ٢٨٩/١٢).

(٢) عجز بيت لعوف بن الأحوص والبيت بتمامه:

رَفَعْتُ لَهُ نَارِي فَلَمَّا اهْتَدَى بِهَا زَجَرْتُ كِلَابِي أَنْ يَهْرَ عَقُورُهَا

من حيث لم يكن ذلك الجبنُ إلّا لأنّ دَامَ منه الزجرُ واستمرَّ حتى أخرجَ
الكلبَ بذلك عما هو عادته من الهرير والنبج في وجه مَنْ يدنو من دارٍ هو مُرصدٌ
لأنّ يَعْسُ دونها. وتنظر إلى قوله: «مهزول الفصيل» فتعلم أنه نظيرُ قولِ ابنِ هَرَمَةَ:

❁ لا أَمْتِعِ الْعُودَ بِالفصال... ❁

وتنظر إلى قول نُصَيْبٍ^(١):

لِعَبْدِ الْعَزِيزِ عَلَى قَوْمِهِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ ظَاهِرِهِ
فَبَابِكَ أَسْهَلُ أَبْوَابِهِمْ وَدَارُكَ مَأْهُولَةً عَامِرَةً
وَكَلْبُكَ آنَسُ بِالزَّائِرِينَ مِنَ الْأُمِّ بِالابْنَةِ الزَّائِرَةِ
فتعلم أنه من قولِ الْآخِرِ^(٢):

يَكَادُ إِذَا مَا أَبْصَرَ الضَّيْفَ مَقْبَلًا يُكَلِّمُهُ مِنْ حُبِّهِ وَهُوَ أَعْجَمُ
وأن بينهما قرابةً شديدةً ونسباً لاصِقاً وأنَّ صورتَهُما في قَرطِ التناسب صورةُ
بيتي «يزيد» و «يزيد».

= البيت من قصيدة مفضلية. المفضليات (دار المعارف) ١٧٦. وبعض منها في الحيوان
١٣٦/٥، ومعجم الشعراء ١٢٤

والشاعر هو عوف بن الأحوص بن جعفر بن كلاب بن عامر بن صعصعة يُكنى أبا يزيد؛
شاعر جاهلي، حضر يوم شعب جيلة مع أبيه وهو ابن عم الطفيل والد عامر بن الطفيل.
(سمط اللآلي ٣٧٧/١، المفضليات ١٧٣).

(١) الشاعر هو نُصَيْبُ بن رباح مولى عبد العزيز بن مروان، ويكنى أبا الحجناء وهو غير
نصيب مولى المهدي الذي قال فيه المهدي: «والله ما هو بدون نصيب مولى بني
مروان» وكانه المهدي أبا الحجناء أيضاً. (الشعر والشعراء ٤١٠، الأغاني ١/٣٠٥ -
٣١٣، السمت ٢٩١/١ - ٢٩٢).

وهو في ديوانه (مجموع شعره:)، وفي البيان والتبيين ٣/٢٠٥:

تراه إذا ما أبصر الضيفَ كلُّبه يكلمه من حبه وهو أعجم

(٢) هو إبراهيم بن هرمه. ديوانه: ١٩٨

ومما هو إثباتٌ للصفة على طريق الكناية والتعريض قولهم: المجدُّ بَيْنَ ثوبيه، والكرمُ في برديه؛ وذلك أن قائلَ هذا يتوصَّل إلى إثباتِ المجدِّ والكرم للممدوح بأن يجعلهما في ثوبه الذي يلبسه كما توصَّل زيادٌ إلى إثباتِ السماحة والمروءة والندى لابنِ الحشرِ بأن جعلها في القبة التي هو جالسٌ فيها. ومن ذلك قوله:

❁ وحينما يك أمرٌ صالح فكن^(١) ❁

وما جاء في معناه من قوله^(٢):

يَصِيرُ أَبَانُ قَرِينِ السَّما حِ والمَكْرُمَاتِ مَعاً حَيْثُ صَارَا
وقول أبي نواس^(٣):

فَمَا جَارَةُ جُودٍ وَلَا حَلٌّ دُونَهُ وَلَكِنْ يَصِيرُ الْجُودُ حَيْثُ يَصِيرُ

كل ذلك توصَّل إلى إثباتِ الصفة في الممدوح بإثباتها في المكان الذي يكونُ فيه وإلى لزومها له بلزومها الموضع الذي يحلُّه. وهكذا إن اعتبرْتَ قولَ الشَّنْفَرَى يصف امرأةً بالعفة^(٤): [١٠١]

(١) عجز بيت لزهير بن أبي سُلمى المزني ديوانه (ثعلب) ١٢٣ والبيت بتمامه:

هَذَاكَ رَبُّكَ مَا أَعْطَاكَ مِنْ حَسَنِ وَحِينَمَا يَكُنْ أَمْرٌ صَالِحٌ فَكُنْ

والبيت من قصيدة في مدح هرم بن سنان بن أبي حارثة.

(٢) هو الكميت بن زيد الأسدي كما في سرفات أبي نواس ٣٦ وفيه:

يَسِيرُ أَبَانُ قَرِيعِ السَّما حِ والمَكْرُمَاتِ مَعاً حَيْثُ سَارَ

والرواية في الوساطة ٢٨٦:

يَصِيرُ أَبَانُ قَرِيعِ السَّما حِ والمَكْرُمَاتِ مَعاً حَيْثُ صَارَا

ونقله في شعر الكميت ٢٨٢/١

(٣) ديوانه: ٤٨١ من قصيدة في مدح الخصب أمير مصر.

(٤) الشنفرى: شاعر جاهلي، أحد شعراء الصعاليك الذين يُضرب بِعَذوهم المثل (أعدى

من الشنفرى) وهو ابن أخت تابط. شراً (المفضليات ١٠٨ - ١٠٩) ورواية البيت:

تَحُلُّ بِمَنْجَاةٍ مِنَ اللَّؤْمِ بَيْنَتِهَا إِذَا مَا بَيوتُ بِالْمَذْمَةِ حُلَّتِ

يَبِيْتُ بِمَنْجَاةٍ مِنَ اللَّوْمِ بَيْتُهَا إِذَا مَا بُيُوتٌ بِالْمَلَامَةِ حُلَّتْ

وجدته يدخل في معنى بيت زياد وذلك أنه توصل إلى نفي اللوم عنها وإبعادها عنه بأن نفاه عن بيتها وباعد بينه وبينه وكان مذهبه في ذلك مذهب زياد في التوصل إلى جعل السماحة والمروءة والندى في ابن الحشرج بأن جعلها في القبة المضروبة عليه. وإنما الفرق أن هذا ينفي وذاك يثبت. وذلك فرق لا في موضع الجمع فهو لا يمنع أن يكونا من نصاب واحد.

ومما هو في حكم المناسب لبيت زياد وأمثاله التي ذكرت وإن كان قد أخرج في صورة أغرب وأبدع قول حسان رضي الله عنه^(١):

بَنَى الْمَجْدُ بَيْتًا فَاسْتَقَرَّتْ عِمَادُهُ عَلَيْنَا فَأَغْبَا النَّاسُ أَنْ يَتَحَوَّلَا
وقول البحتري^(٢):

أَوْ مَا رَأَيْتَ الْمَجْدَ أَلْقَى رَحْلَهُ فِي آلِ طَلْحَةَ ثُمَّ لَمْ يَتَحَوَّلْ
ذاك لأن مدار الأمر على أنه جعل المجد والممدوح في مكان وجعله يكون حيث يكون.

واعلم أنه ليس كل ما جاء كناية في إثبات الصفة يصلح أن يخكم عليه بالتناسب. معنى هذا أن جعلهم الجود والكرم والمجد يمرض يمرض الممدوح كما قال البحتري^(٣):

ظَلَّلْنَا نَعْوُدَ الْجُودِ مِنْ وَعِكَكَ الَّذِي وَجَدْتَ وَقَلْنَا اعْتَلَّ عَضْوٌ مِنَ الْمَجْدِ
وإن كان يكون القصد منه إثبات الجود والمجد للممدوح فإنه لا يصح أن يقال إنه نظير لبيت زياد كما قلنا ذاك في بيت أبي نواس:

(١) حسان بن ثابت الأنصاري. ديوانه: ٢٧٤ ورواية البيت:

بَنَى الْعَزُّ بَيْتًا فَاسْتَقَرَّتْ عِمَادُهُ عَلَيْنَا وَأَغْبَا النَّاسُ أَنْ يَتَحَوَّلَا

(٢) ديوان البحتري ٣/ ١٧٤٩ من قصيدة في مدح محمد بن علي بن عيسى القمي الكاتب.

(٣) ديوان البحتري ٢/ ٧٥٧

❁ ولكن بصيرُ الجود حَيْثُ بصيرُ ❁

وغيره مما ذكرنا أنه نظيرٌ له كما أنه لا يجوزُ أن يُجعل قوله:

❁ وكلبك أرأف بالزائرين ❁

مثلاً نظيراً لقوله: مهزولُ الفصيل. وإن كان الغرضُ منهما جميعاً الوصفُ بالقرى والضيافة وكانا جميعاً كنايةً عن معنى واحدٍ لأنَّ تعاقبَ الكناياتِ على المعنى الواحد لا يوجبُ تناسبها لأنه في عروض أن تتفقَ الأشعارُ الكثيرة في كونها مدحاً بالشجاعة مثلاً أو الجود أو ما أشبه ذلك. وقد يجتمعُ في البيت الواحد [١٠١ ب] كنايتان المغزى منهما شيءٌ واحدٌ ثم لا تكونُ إحداهما في حُكم النظرِ للأخرى. مثال ذلك أنه لا يكون قوله: جبان الكلب، نظيراً لقوله: مهزولُ الفصيل، بل كل واحدة من هاتين الكنايتين أصلٌ بنفسه جنسٌ على حدة. وكذلك قول ابن هرمة^(١):

لا أمتنعُ العودَ بالفِصال ولا أبتناعُ إلا قرنبَةَ الأجلِ

ليس إحدى كنايتيه في حكم النظرِ للأخرى وإن كان المكنى بهما عنه واحداً فاعرفه.

وليس لِشُعَبِ هذا الأضل وفروعه وأمثله وصوره وطرقه ومسالكه حدٌ ونهايةٌ ومن لطيف ذلك ونادره قولُ أبي تمام^(٢):

أَبِينَ قَما يَزُرُنَ سِوى كَرِيمٍ وَحَسْبُكَ أَنْ يَزُرُنَ أبا سَعِيدٍ

ومثله وإن لم يبلغ مبلّغه قولُ الآخر:

مَتى تَخْلُو تَمِيمٌ من كَرِيمٍ وَمَسْلَمَةُ بَن عَمرو مِن تَمِيمٍ

وكذلك قولُ بعض العرب^(٣):

(١) ديوان ابن هرمة ١٨٥

(٢) ديوان أبي تمام ٦٣٧/٤

(٣) البيتان من قصيدة في الأغاني ٢٨٤/٢٢ - ٢٨٥ منسوبة لزهير بن عروة بن جلهمة

المازني؛ وهو شاعر جاهلي يُعرف بزهير السكب.

إِذَا اللَّهُ لَمْ يَسْنِ إِلَّا الْكَرَامَ فَسَقَى وَجُوهَ بَنِي حَنْبَلٍ
 وَسَقَى دِيَارَهُمْ بِأَكْرَأَ^(١) مِنَ الْغَيْثِ فِي الزَّمَنِ الْمُجَلِّ
 وَفَنٌّ مِنْهُ غَرِيبٌ قَوْلٌ بَعْضُهُمْ فِي الْبَرَامِكَةِ :

سَأَلْتُ النَّدَى وَالْجُودَ مَا لِي أَرَاكُمَا تَبَدَّلْتُمَا ذُلًّا بِعِزٍّ مُؤَيَّدٍ
 وَمَا بَالُ رُكْنِ الْمَجْدِ أَمْسَى مُهْدَمًا فَقَالَا : أَصَبْنَا بِابْنٍ يَحْبِي مُحَمَّدٍ
 فَقُلْتُ فَهَلَا مُتُّمَا عِنْدَ مَوْتِهِ فَقَدْ كُنْتُمَا عَبْدَيْهِ فِي كُلِّ مَشْهَدٍ
 فَقَالَا : أَقْمَنَا كَيْ نُعَزِّي بِفَقْدِهِ مَسَافَةَ يَوْمٍ نَمَّ نَثْلُوهُ فِي غَدٍ



= ورواية البيت الثاني في الأغاني :

فنعم بنو العم والأقربون لدى حَظْمَةِ الزَّمَنِ الْمَحْجَلِ

(١) في (ط) : بأكراً.

فصل

في التوكيد وعلاماته

واعلم أن مما أغمض الطريق إلى معرفة ما نحنُ بصَدِّه أن ههنا فروقاً خفيةً تَجْهَلُهَا العامةُ وكثيرٌ من الخاصة، ليس أنهم يجهلونَهَا في موضعٍ ويعرفونها في آخرَ بل لا يدرون أنها هي ولا يعلمونها في جملةٍ ولا تفصيلٍ. [١٠٢] رُوي عن ابن الأنباري^(١) أنه قال: رَكِبَ الكِنْدِيُّ^(٢) المتفلسفُ إلى أبي العباس^(٣) وقال له: إني لأَجِدُ في كلام العرب حشواً. فقال له أبو العباس: في أيِّ موضعٍ وجدتَ ذلك؟ فقال: أَجِدُ العرب يقولون: عبدُ الله قائمٌ، ثم يقولون: إِنَّ عبدَ الله قائمٌ، ثم يقولون: إِنَّ عبدَ الله لقائمٌ، فالألفاظُ متكررةٌ والمعنى واحدٌ. فقال أبو العباس: بل المعاني مختلفةٌ لاختلافِ الألفاظِ، فقولهم: عبدُ الله قائمٌ إخبارٌ عن قيامه، وقولهم: إِنَّ عبدَ الله قائمٌ جوابٌ عن سؤالٍ سائلٍ، وقولهم: إن عبدَ الله لقائمٌ؛ جوابٌ عن إنكارٍ منكرٍ قيامه، فقد تكررَتِ الألفاظُ لتكرُّرِ

(١) هو أبو بكر محمد بن القاسم بن الأنباري النحوي، كان من أعلم الناس باللغة والأدب وأكثرهم حفظاً. سمع من ثعلب وغيره وكان ديناً زاهداً متواضعاً. توفي سنة ٣٢٨ هـ تاريخ بغداد ٣/ ١٨١، أنباه الرواة ٣/ ٢٠٦

(٢) هو أبو يوسف يعقوب بن إسحاق... من كندة، يسمى فيلسوف العرب وكتبه في علوم مختلفة. الفهرست ٣١٥، طبقات الأطباء والحكماء لابن جلدج ٧٣

(٣) هو أبو العباس المبرد، وكان بينه وبين أبي العباس ثعلب منافسة وتحاسد.

المعاني. قال: فما أحرار المتفلسف جواباً^(١) وإذا كان الكندي يذهب هذا عليه حتى يركب فيه ركوب مستفهم أو معترض فما ظنك بالعامه ومن هو في عداد العامة ممن لا يخطر شئبه هذا بباله.

واعلم أن ههنا دقائق لو أن الكندي استقرأ وتصفح وتبع مواقع «إن» ثم ألطف النظر وأكثر التدبر لعلم علم ضرورة أن ليس سواء دخولها وأن لا تدخل. فأول ذلك وأعجبه ما قدمت لك ذكره في بيت بشار^(٢):

بُكِّرَا صَاحِبَيَّ قَبْلَ الْهَجِيرِ إِنَّ ذَاكَ النَّجَاحَ فِي التَّبْكِيرِ

وما أنشدته معه من قول بعض العرب (٥):

فَقَنَّهَا وَهِيَ لَكَ الْفِدَاءُ إِنَّ غِنَاءَ الْإِبْلِ الْخُدَاءُ

وذلك أنه هل شيء أبين في الفائدة وأدل على أن ليس سواء دخولها وأن لا تدخل من^(٣) أنك ترى الجملة إذا هي دخلت ترتبط بما قبلها وتألف معه وتتحد به حتى كأن الكلامين قد أفرغا إفراغاً واحداً وكأن أحدهما قد شبك في الآخر؟ هذه هي الصورة حتى إذا جئت إلى «إن» فأسقطتها رأيت الثاني منهما قد نبا عن الأول وتجافى معناه عن معناه ورأيت لا يتصل به ولا يكون منه بسبيل حتى [١٠٢ ب] تجيء بالفاء فتقول: بكرا صاحبي قبل الهجير فذاك النجاح في التبكير، وغنّها وهي لك الفداء فغناء الإبل الخداء. ثم لا ترى الفاء تعيد الجمليتين إلى ما كانتا عليه من الألفة ولا ترد عليك الذي كنت تجد ب (إن) من المعنى.

وهذا الضرب كثير في التنزيل جداً من ذلك قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَتَقُورَ رَيْبَكُمْ إِنَّكَ زَلْزَلَةُ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١/٢٢] وقوله عز اسمه: ﴿يَسْتَفْتِي أَفْئِدَ الضُّلُوكَ وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبَرَ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزَمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧/٣١] وقوله سبحانه: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ

(١) الخبر في خزنة الأدب ١/٢٠٦

(٢) مرّ البيتان في الصفحات السابقة.

(٣) سقطت «من» من (أ) و (ب).

إِنَّ صَلَوَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ» [التوبة: ١٠٣/٩]^(١) ومن أبين ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تُخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ [هود: ٣٧/١١]^(٢) وقد يتكرر في الآية الواحدة كقوله عزَّ اسْمُهُ: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٣/١٢] وهي على الجملة من الكثرة بحيث لا يدركها الإحصاء.

ومن خصائصها أنك ترى لضمير الأمر والشأن معها من الحُسْنِ واللطف ما لا تراه إذا هي لم تدخل عليه بل تراه لا يصلح حيث صلح^(٣) إلا بها وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ مَنْ يَتَّقِي وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠/١٢]^(٤) وقوله: ﴿أَنْتُمْ مَنْ يُكَادِدُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ فَأَنْتُمْ لَمْ تَأَرْجِعُوا جَهَنَّمَ﴾ [التوبة: ٦٣/٩]^(٥) وقوله: ﴿أَنْتُمْ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا يَجْهَلُكُمْ ثُمَّ تَابَ﴾ [الأنعام: ٥٤/٦]^(٦) وقوله: ﴿إِنَّهُمْ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧/٢٣]^(٧) ومن ذلك قوله: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَرُ﴾^(٨). وأجاز أبو الحسن^(٩) فيها وجهاً آخر وهو أن

(١) والآية الكريمة: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

(٢) والآية الكريمة: ﴿وَأَصْنَعُ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيُنَا وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾.

(٣) في (ط): يصلح.

(٤) والآية الكريمة: ﴿قَالُوا أَوَلَمْ نَكُنْ لَكَ يُونُسُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُمْ مَنْ يَتَّقِي وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

(٥) والآية الكريمة: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُمْ يُكَادِدُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ فَأَنْتُمْ لَمْ تَأَرْجِعُوا جَهَنَّمَ خَلِيدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْمُظْلِمُ﴾.

(٦) والآية الكريمة: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنْتُمْ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا يَجْهَلُكُمْ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

(٧) والآية الكريمة: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُمْ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾.

(٨) والآية الكريمة: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَرُ وَلَكِنَّ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦/٢٢].

(٩) أبو الحسن: هو الأخفش الأوسط تلميذ سيبويه. وانظر في الكلام على الآية الكريمة. (تفسير القرطبي ٧٧/١٢، والبحر المحيط ٣٧٨/٦).

يكون الضميرُ في «إنها» للأبصار أضمرت قبل الذكر على شريطة التفسير. والحاجة في هذا الوجه أيضاً إلى «إنَّ» قائمة كما كانت في الوجه الأول فإنه لا يُقال: هي لا تعمى الأبصار، كما لا يُقال: هو من يتَّقِي وَيَضْبِرُ فإن الله لا يُضِيعُ. فإن قلت: أو ليس قد جاء ضمير الأمر مبتدأ به معرّي من العوامل في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١/١١٢] قيل: وإن جاء ههنا فإنه لا يكاد يوجد [١٠٣] مع الجملة من الشرط والجزاء بل تراه لا يجيء إلا بـ (إنَّ). على أنهم [قد أجازوا في] ^(١) ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ أن لا يكون الضمير للأمر.

ومن لطيف ما جاء في هذا الباب وناديه ما تجده في آخر هذه الآيات التي أنشدها الجاحظ لبعض الحجازيين ^(٢):

إذا طَمَعَ يَوْمًا عَرَانِي قَرْنُهُ كَتَائِبَ بِأَسِ كَرَّهَا وَطَرَادَهَا ^(٣)
أَكْدُ ثِمَادِي وَالْمِبَاهُ كَثِيرَةٌ أَعَالِجُ مِنْهَا حَفَرَهَا وَانْتِدَادَهَا ^(٤)
وَأَرْضِي بِهَا مِنْ بَحْرِ آخِرِ إِنَّهُ هُوَ الرَّيِّ أَنْ تَرْضَى النُّفُوسُ ثِمَادَهَا ^(٥)

المقصود قوله: إنه هو الريّ، وذلك أن الهاء في إنه تحتل أمرين أحدهما أن تكون ضمير الأمر ويكون قوله «هو» ضمير «أن ترضى» وقد أضمر قبل الذكر على شريطة التفسير. الأصل: أن الأمر أن ترضى النفوس ثمادها الريّ؛ ثم أضمر قبل الذكر كما أضمرت الأبصار في «فإنها لا تعمى الأبصار» على مذهب أبي الحسن ثم أتى بالمضمّر ^(٦) مصرحاً به في آخر الكلام فعُلِمَ

(١) ما بين معقوفتين سقط من (أ).

(٢) الآيات في البيان والتبيين ٣/ ٣٣٨

(٣) عراء الضيف: غشيه طالباً معروفة. القرى: طعام الضيف.

(٤) الكد والانتداد: النزح باليد، يكون ذلك في الجامد والسائل. والشماد: الحفر يكون

فيها الماء القليل جمع ثمد. يقول: إنه يرضى بالقليل ويقنع به.

(٥) من بحر آخر: أي بدل بحر غيري. والبحر: الماء الكثير مالحاً كان أو عذباً.

(٦) في (ط): ثم أتى بالمفسر.

بذلك أن الضمير السابق له وأنه المراد به. والثاني أن تكون الهاء في «إنه» ضمير أن ترضى قبل الذكر ويكون «هو» فضلاً، ويكون أصل الكلام: إن أن ترضى النفوس ثمادها هو الرّي، ثم أضمر على شريطة التفسير. وأي الأمرين كان فإنه لا بُدَّ فيه من «إن» ولا سبيل إلى إسقاطها لأنك إن أسقطتها أفضى ذلك بك إلى شيء شنيع وهو أن تقول: وأرضى بها من بحر آخر هو الرّي أن ترضى النفوس ثمادها.

هذا وفي «إن» هذه شيء آخر يوجب الحاجة إليها وهو أنها تتولى من رُبَط الجملة بما قبلها نحواً مما ذكرت لك في بيتٍ بشار. ألا ترى أنك لو أسقطت «إن» والضميرين معاً واقتصرت على ذكر ما يبقى من الكلام لم تقله إلا بالفاء كقولك: وأرضى بها من بحر آخر فالري أن ترضى النفوس ثمادها. فلو أن الفيلسوف قد [١٠٣ ب] كان تتبّع هذه المواضع لما ظنّ الذي ظنّ.

هذا، وإذا كان خلف الأُخمر^(١) وهو القدوة ومن يؤخذ عنه ومن هو بحيث يقول الشعر فينحله الفحول والجاهليين^(٢) فيخفى ذلك له ويجوز أن يشبه ما نحن فيه عليه حتى يقع له أن يتنقّد على بشار فلا غرو أن تدخل الشبهة في ذلك على الكندي^(٣).

ومما تصنّعه «إن» في الكلام أنك تراها تهیی النكرة وتصلحها لأن يكون لها حكم المبتدأ، أعني أن تكون محدثاً ههنا بحديث من بعدها. ومثال ذلك قوله^(٤):

(١) هو خلف بن حيّان، أبو مُحرز. قال ابن سلام: «اجتمع أصحابنا أنه كان أفرس الناس ببيت شعر، وأصدق لساناً كئلاً نبالي إذا أخذنا عنه خبراً أو أشدنا شعراً أن لا نسمعه من صاحبه». توفي في حدود سنة ١٨٠ هـ.

(طبقات فحول الشعراء ٢٣/١، إنباء الرواة ٣٤٨/١، بغية الوعاة ٥٥٤/١).

(٢) في (ط): فينحله الفحول الجاهليين. والمثبت من (أ) و«الجاهليين» سقطت من (ب).

(٣) قال القفطي في إنباء الرواة ٣٤٨/١: «وكان يبلغ من حذقه واقتداره على الشعر أن يشبه شعره بشعر القدماء، حتى يشبه بذلك على جلة الرواة، ولا يفرقون بينه وبين الشعر القديم».

(٤) البيت من قطعة حماسية. قال المرزوقي (١١٣٧/٣): «هذه المقطوعة خارجة عن البحور التي وضعها الخليل بن أحمد وأقرب ما يقال فيها أنها تجيء على السادس من البسيط» وهي لشاعر اختلف في اسمه. قال البكري في السمط ٢٦٧/١: «هكذا رواه

إِنْ شَوَاءٌ وَنَشْوَةٌ وَخَبَبُ الْبَازِلِ الْأُمُونِ
قد ترى حسنَهَا وصحةَ المعنى معها ثم إنَّكَ إنْ جثتَ بها من غير «إِنْ»
فقلتَ :

شَوَاءٌ وَنَشْوَةٌ وَخَبَبُ الْبَازِلِ الْأُمُونِ

لم يكن كلاماً فإنْ كانت النكرة موصوفةً وكانت لذلك تصلحُ أنْ يبتدأ بها
فإنَّكَ تراها مع «إِنْ» أحسنَ وترى المعنى حينئذٍ أولى بالصحةِ وأمكنَ، أفلا ترى
إلى قوله^(١) :

إِنَّ دَهْرًا يَلْفُ شَمْلِي بِسُغْدَى لَرَمَانٍ يَهُمُّ بِالْإِحْسَانِ
ليس بخفي - وإنْ كَانَ يستقيم أنْ تقولَ : دَهْرٌ يَلْفُ شَمْلِي بِسُغْدَى دَهْرٌ صَالِحٌ
- أنْ ليس الحالان على سواءٍ. وكذلك ليس يَخْفَى أَنَّكَ لو عَمَدْتَ إلى قوله^(٢) :

إِنَّ أَمْرًا فَادِحًا عَنْ جَوَابِي شَفْلَكَ
فأسقطتَ منه «إِنَّ» لَعَدِمْتَ منه الحُسْنَ والطلاوةَ والتمكَّنَ الذي أنتَ واجدهُ
الآنَ ووجدتَ ضعفاً وفثوراً.

= أبو علي سَلَمَى ولم يختلف الرواةُ أَنَّهُ سُلَمَى - بضم السين وتشديد الباء - وهو
سُلَمَى بن ربيعة بن زَبَّان بن عامر من بني ضَبَّةَ شاعر جاهلي.

وانظر ملاحظات العلامة الميمني في الحاشية ثم حواشي الحماسة (المرزوقي) ٥٤٦/٢
(١) البيت في أمالي المرنطقي ١٤٥/٢ بلا نسبة.

(٢) البيت من قصيدة حماسية تُروى لِأَمِّ تَابُطَ شراً ويقال : لِأَمِّ السليكَ بن السلكة.
رجَّح التبريزي أَنَّ الشعر لِأَمِّ السليكَ بن السلكة في خبر طويل ساقه في شرحه. وفي
العقد (٢٦١/٣) : «خرج أعرابي هارباً من الطاعون فبينما هو سائر إذ لدغته حية
فمات، فقال أبوه يرثيه».

والقصيدة من مشطور المديد، وهو وزن نادر من أوزان الشعر قال التبريزي : «من مشطور
المديد والقافية متراكب. قال أبو العلاء : هذا الوزن لم يذكره الخليل ولا سعيد بن
مسعدة. وذكره الزجاج وجعله سابعاً للرمل. وقد يحتمل أن يكون مشطوراً للمديد».
انظر : الحماسة (المرزوقي) ٩١٤/٢ وما بعدها، و (التبريزي) ١٩١/٢ وما بعدها.

ومن تأثير «إن» في الجملة أنها تُغني إذا كانت فيها عن الخبر في بعض الكلام، ووضع صاحب الكتاب في ذلك باباً فقال: «هذا باب ما يحسن عليه السكوت في الأحرف الخمسة» لإضمارك ما يكون مستقراً لها وموضعاً لو أضمرته، وليس هذا المضمّر بنفس المظهر وذلك «إن مالا وإن ولدأ وإن عدداً» أي: إن لهم مالا. فالذي أضمرت هو «لهم» ويقول الرجل للرجل [١٠٤]: هل لكم أحد إن الناس ألبّ عليكم؟ فيقول: إن زيدا وإن عمراً. أي لنا. وقال^(١):

إِنَّ مَحَلًّا وَإِنْ مُرْتَحَلًا وَإِنْ فِي السَّفَرِ^(٢) إِنْ مَضَوْا مَهَلًا

ويقول: إن غيرها إيلأ وشاء. كأنه قال: إن لنا أو عندنا غيرها. قال: وانتصب الإيلأ والشاء كانتصاب الفارس إذا قلت: ما في الناس مثله فارساً. وقال: ومثل ذلك قوله^(٣):

❁ يَا لَيْتَ أَيَّامِ الصُّبَا رَوَّاجِعَا ❁

قال: فهذا كقولهم: ألا ماء باردأ. كأنه قال: ألا ماء لنا باردأ. وكأنه قال:

❁ يَا لَيْتَ أَيَّامِ الصُّبَا أَقْبَلْتُ رَوَّاجِعَ ❁

فقد أراك في هذا كله أن الخبر محذوف وقد ترى حُسن الكلام وصحته مع حذفه وترك النطق به. ثم إنك إن عمدت إلى «إن» فأسقطتها وجدت الذي كان حُسن من حذف الخبر لا يحسن أو لا يسوغ فلو قلت: مالٌ وعددٌ ومحلٌّ ومرتحلٌ وغيرها إيلأ وشاء لم يكن شيئاً. وذلك أن «إن» كانت السبب في أن حُسن حذف الذي حُذف من الخبر وأنها حاضتته والمترجم عنه والمتكفل بشأنه.

(١) هو الأعشى. ديوانه: ٢٣٣

والبيت من البحر المنسرح، وهو مطلع قصيدة يمدح بها «سلامة ذا فائش» وهو من شواهد سيبويه على حذف خبر إن لأنه معلوم وقد شك ابن قتيبة في صحة نسبة هذه القصيدة للأعشى.

(٢) في (ط): وإن في النفس.

(٣) نسبه ابن سلام في الطبقات ٧٨/١ للعجاج، ونقله في الديوان ٣٠٦/٢. وانظر شرح

شواهد المغنى للسيوطي ٦٩٠/٢

واعلم أن الذي قلنا في «إِنَّ» من أنها تدخل على الجملة من شأنها إذا هي أسقطت منها أن يحتاج فيها إلى الفاء لا يطرد في كل شيء وكل موضع، بل يكون في موضع، دون موضع وفي حال دون حال فإنك قد تراها قد دخلت على الجملة ليست هي مما يقتضي الفاء. وذلك فيما لا يخص كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الدخان: ٥١/٤٤-٥٢] وذلك أن قبله: ﴿إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ [الدخان: ٥٠/٤٤] ومعلوم أنك لو قلت: إن هذا ما كنتم به تمترون فالتقون في جنات وعيون؛ لم يكن كلاماً. وكذلك قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١/٢١] لأنك لو قلت: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٠/٢١]، فالذين سبق لهم منّا الحسنى؛ لم تجد لإدخالك الفاء فيه وجهاً. وكذا قوله^(١): ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّٰدِقِينَ وَالصَّٰدِقِينَ وَالْمُجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [الحج: ١٧/٢٢] [١٠٤ ب] ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ اسم إن وما بعده معطوف عليه، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ جملة في موضع الخبر، ودخول الفاء فيها محال لأن الخبر لا يُعطف على المبتدأ.

ومثله سواء: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠/١٨] فإذا إننا إنما يكون الذي ذكرنا في الجملة من حديث اقتضاء الفاء إذا كان مصدرها مصدر الكلام يُصحح به ما قبله ويحتاج له ويبين وجه الفائدة فيه. ألا ترى أن [الغرض من قوله: إن ذاك النجاح في التكبير: جلّه أن يبين المعنى في قوله لصاحبيه «بكرًا» وأن يحتاج لنفسه في الأمر بالتكبير]^(٢) ويبين وجه الفائدة فيه. وكذلك الحكم في الآي التي تلونها، فقوله: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةً أَلْسَعَتْ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١/٢٢]^(٣) بيان للمعنى في قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ

(١) والآية الكريمة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّٰدِقِينَ وَالصَّٰدِقِينَ وَالْمُجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (٧).

(٢) ما بين معقوفتين مضطرب في (أ).

(٣) والآية الكريمة: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَتَقُورُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ (١).

أَتَقُوا رَبَّكُمْ﴾ [النساء: ١/٤] وَلِمَ أَمَرُوا بِأَنْ يَتَّقُوا وكذلك قوله: ﴿إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣/٩] بيان للمعنى في أمر النبي ﷺ بالصلاة أي بالدعاء لهم ولهذا سبيل كل ما أنت ترى فيه الجملة يُحتاجُ فيها إلى الفاء. فاعرف ذلك.

فأما الذي ذَكَرَ عن أبي العباس^(١) جَعَلَهُ لها جوابَ سائلٍ إذا كانت وحدها وجوابٌ مُنْكَرٍ إذا كان معها اللامُ فالذي يدلُّ على أنَّ لها أصلاً في الجوابِ أنا رأيُناهم قد ألزَموها الجملةَ من المبتدأ والخبر إذا كانت جواباً للقسمِ نحو «والله إنَّ زيداً منطلقٌ» وامتنعوا من أن يقولوا: والله زيدٌ منطلق. ثم إنَّا إذا استقرينا الكلامَ وجدنا الأمرَ بيِّناً في الكثير من مواقعها أنه يقصدُ بها إلى الجوابِ كقوله تعالى: ﴿وَسْتَأْذِنُكَ عَنْ ذِي الْقُرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّا مَكَنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الكهف: ٨٣-٨٤] وكقوله عز وجل في أوَّلِ السورة^(٣): ﴿تَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ﴾ [الكهف: ١٨/١٣] وكقوله تعالى: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٦/٢١٦] وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُبِئْتُ أَنَّ عَبَدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ٦/٥٦]^(٤) [١٠٥ أ] وقوله: ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾ [الحجر: ٨٩/١٥] وأشباه ذلك مما يعلمُ به أنه كلامٌ أَمَرَ النبي ﷺ بأن يجيبَ به الكفارَ في بعض ما جادلوا وناظروا فيه، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٦/١٦] وذاك أنه يعلمُ أنَّ المعنى: فأتياه فإذا قالَ لَكُما ما شَأْنُكُما وما جاءَ بكُما وما تقولانِ فقولا: إنَّا

(١) هو أبو العباس المبرّد صاحب المقتضب.

(٢) والآيتان الكريمتان: ﴿وَسْتَأْذِنُكَ عَنْ ذِي الْقُرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّا مَكَنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٢٧﴾﴾.

(٣) والآية الكريمة: ﴿تَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَرِذْنَهُمْ هُدًى﴾.

(٤) جزء من آيتين كريمتين: الأولى من سورة الأنعام ٥٦/٦، والآية الكريمة: ﴿قُلْ إِنِّي نُبِئْتُ أَنَّ عَبَدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُفُّوا عَنْ صَلَاتِكُمْ إِذَا مَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَبِينَ﴾.

والثانية من سورة غافر ٤٠/٦٦، والآية الكريمة: ﴿قُلْ إِنِّي نُبِئْتُ أَنَّ عَبَدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّي الْعَالَمِينَ﴾.

رسول رب العالمين. وكذا قوله: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يُفْرِعُونَ لِي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٤/٧] هذا سبيله.

ومن البين في ذلك قوله تعالى في قِصَّة السَّحَرَةِ: ﴿قَالُوا إِنَّا إِلَهُ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٥/٧] وذلك لأنه عَيَانٌ أنه جوابُ فرعونَ عن قوله: ﴿قَالَ ءَأَنْتُمْ لَمْ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ [طه: ٧١/٢٠]^(١) فهذا هو وَجْهُ القولِ في نُضْرَةِ هذه الحكاية.

ثم إنَّ الأضْلَ الذي ينبغي أن يكونَ عليه البناءُ هو الذي دُوِّنَ في الكتبِ من أنها للتأكيد، وإذا كَانَ قد ثَبِتَ ذلك؛ فإذا كَانَ الخبرُ بأمرٍ ليس للمخاطب ظَنٌّ في خلافه البتة ولا يكونُ قد عَقَّدَ في نفسه أن الذي تزعم أنه كائنٌ غيرُ كائنٍ وأنَّ الذي تزعم أنه لم يكنْ كائنٌ فأنْتَ لا تحتاجُ هناك إلى (إنَّ) وإنما تحتاجُ إليها إذا كَانَ له ظَنٌّ في الخلافِ وعَقَّدَ قلبٌ على نفي ما تُثَبِّتُ أو إثبات ما تنفي؛ ولذلك تراها تزادُ حسناً إذا كَانَ الخبرُ بأمرٍ يَبْعُدُ مثله في الظنِّ وبشيءٍ قد جرت عادةُ الناس بخلافه كقول أبي نُوَاسٍ^(٢):

❁ إِنَّ غِنَى نَفْسِكَ فِي الْيَاسِ ❁

فقد ترى حسنَ موقعها، وكيف قبولُ النفسِ لها، وليس ذلك إلا لأنَّ الغالبَ على الناس أنهم لا يحملون أنفسهم على اليأسِ ولا يَدْعُونَ الرجاءَ والطَّمَعِ ولا يعترفُ كلُّ أحدٍ ولا يُسَلِّمُ أن الغنى في اليأسِ، فلما كَانَ كذلك كَانَ الموضعُ موضعَ فقرٍ إلى التأكيدِ فلذلك كَانَ من حسنِها ما ترى. ومثله سواءٌ [١٠٥] ب[قولُ محمد بن وهيب^(٣):

(١) والآية الكريمة: ﴿قَالَ ءَأَنْتُمْ لَمْ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّكُمْ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَنَكُمُ السِّحْرَ فَلَأَقْلُمَنَّكُمْ وَيُجَسِّدُكُمْ فِي جُحُودٍ وَلْيَقْطَعْ أَعْنَاقُكُمْ وَهُمْ كَاذِبُونَ﴾ [٧١/٢٠].

(٢) ديوان أبي نواس ٦٠١ وفيه:

عليك باليأس من الناس إنَّ الغنى وسحك في اليأسِ

(٣) محمد بن وهيب الحميري صليبة: شاعر عباسي، أصله من البصرة، انقطع إلى المأمون ومدحه كما مدح وزيره الحسن بن سهل وكان يتشيع وله مراثٍ في أهل البيت.
- قال أبو الفرج: «وهو متوسط من شعراء طبقته، وفي شعره أشياء نادرة فاضلة،

أَجَارَتْنَا إِنَّ التَّعَفُّفَ بِالْيَاسِ وَصَبْرٌ^(١) عَلَى اسْتِدْرَارِ دُنْيَا بِلِيسَاسٍ^(٢)
 حَرِيَّانَ أَنْ لَا يَقْذِفَا بِمِثْلِهِ^(٣) كَرِيماً وَأَنْ لَا يُحَوِّجَاهُ إِلَى النَّاسِ
 أَجَارَتْنَا إِنَّ الْقِدَاحَ^(٤) كَوَاذِبٌ وَأَكْثَرُ أَسْبَابِ النَّجَاحِ مَعَ الْيَاسِ
 هُوَ كَمَا لَا يَخْفَى كَلَامٌ مَعَ مَنْ لَا يَرَى أَنَّ الْأَمْرَ كَمَا قَالَ بَلْ يَنْكَرُهُ وَيَعْتَقِدُ خِلَافَهُ
 وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَمْ يَقُلْهُ إِلَّا وَالْمَرَأَةُ تَحْدُوهُ وَتَبْعُهُ عَلَى التَّعَرُّضِ لِلنَّاسِ وَعَلَى الطَّلَبِ.
 وَمَنْ لَطِيفٍ مَوَاقِعُهَا أَنْ يُدْعَى عَلَى الْمُخَاطَبِ ظَنٌّْ لَمْ يَظْنَهُ وَلَكِنْ يَرَادُ التَّهْكُمُ
 بِهِ. وَأَنْ يُقَالَ إِنَّ حَالَكُمْ وَالَّذِي صَنَعْتَ يَقْتَضِي أَنْ تَكُونَ قَدْ ظَنَنْتَ ذَلِكَ. وَمِثَالُ
 ذَلِكَ قَوْلُ الْأَوَّلِ^(٥):

= وأشياء متكلفة. (الأغاني ٣/١٩ - ٤، ومعاهد التنصيص ١/٢٢٠، وطبقات ابن
 المعتز ٣١٠ - ٣١٣).

- والأبيات في الأغاني ٥/١٩، ومعاهد التنصيص ١/٢٢٠ - ٢٢١، وطبقات ابن
 المعتز ٤٤٧. والأبيات في مدح الحسن بن رجاء.

(١) في الأغاني ومعاهد التنصيص وطبقات ابن المعتز:

أَجَارَتْنَا إِنَّ التَّعَفُّفَ بِالْيَاسِ وَصَبْرًا عَلَى اسْتِدْرَارِ دُنْيَا بِلِيسَاسِ

(٢) الإيساس: أَنْ يُمَسَّحَ ضَرْعُ النَّاقَةِ يَسْكُنُهَا لِتُدْر. أَوْ هُوَ صَوِيَّتُ الرَّاعِي تُسْكِنُ بِهِ النَّاقَةَ
 عِنْدَ الْحَلَبِ. قَالَ الْجَاحِظُ فِي الْبَيَانِ وَالتَّبْيِينِ ١٥/٢: «وَلَمْ يَحْلُبُوا الزَّبُونُ إِلَّا بَعْدَ
 الْإِسَاسِ». فِي (ط): صَبْرٍ.

(٣) فِي (ب): أَنْ لَا يَقْذِفَا بِمِثْلِهِ.

(٤) الْقِدَاحُ جَمْعُ قَدَحٍ وَهُوَ السَّهْمُ الَّذِي كَانُوا يَسْتَقْسِمُونَ بِهِ.

(٥) هُوَ حَجَلُ بْنُ نُضْلَةَ كَمَا فِي مَعَاهِدِ التَّنْصِيسِ ١/٧٢، وَشَرْحِ الْحَمَاسَةِ (المرزوقي) ٢/٥٨٠
 قَالَ الْعَبَّاسِيُّ: «الْبَيْتُ لِحَجَلِ بْنِ نُضْلَةَ، مِنْ السَّرِيعِ، وَبَعْدَهُ:

هَلْ أَخَذْتُ الدَّهْرَ لَنَا ذُلَّةً أَمْ هَلْ رَنَتْ أُمُّ شَقِيقِي سِلَاحَ

شَقِيقٍ هُنَا: اسْمُ رَجُلٍ.

وَالْمَعْنَى: جَاءَ هَذَا الرَّجُلُ وَاضِعًا رَمَحَهُ عَرْضًا مَفْتَخِرًا بِتَصْرِيفِ الرِّمَاحِ، مُدْلًا
 بِشَجَاعَتِهِ، دَالًا ذَلِكَ عَلَى إِعْجَابٍ شَدِيدٍ مِنْهُ وَاعْتِقَادٍ بِأَنَّهُ لَا يَقُومُ إِلَيْهِ أَحَدٌ مِنْ بَنِي
 أَعْمَامِهِ. كَأَنَّهُمْ كُلُّهُمْ غُرْلٌ لَيْسَ مَعَ أَحَدٍ مِنْهُمْ رَمَحٌ. فَقِيلَ لَهُ: تَنْكِبُ وَخَلَّ لَهُمُ الطَّرِيقُ

=

جاء شقيق عارضاً رَمَحَهُ إن بني عمك فيهم رماخ

يقول: إِنَّ مجيئه هكذا مُدْلاً بنفسه وبشجاعته قد وَضَعَ رَمَحَهُ عرضاً دليلاً على إعجابٍ شديدٍ وعلى اعتقادٍ منه أنه لا يقومُ له أحدٌ حتى كأنَّ ليس مع أحدٍ منَّا رَمَحٌ يدفعه به وكأننا كُلُّنا عُزْلٌ. وإذا كان كذلك وَجَبَ إذا قيل بها جواب سائل أن يشترط فيه أن يكونَ للسائل ظنٌّ في المسؤول عنه على خلافٍ ما أنتَ تجيبه به فأمَّا أن يُجْعَلَ مجرَّدُ الجوابِ أصلاً فيه^(١) فلا لأنه يؤدي أن لا يستقيمَ لنا إذا قال الرجلُ: كيف زيد؟ أن تقولَ: صالحٌ، وإذا قال: أين هو؟ أن تقولَ: في الدار. وأن لا يصحَّ حتى تقولَ: إنه صالح وإنه في الدار، وذلك ما لا يقوله أحدٌ. وأما جعلُها إذا جُمِعَ بينها وبين اللام نحو: إِنَّ عبدَ الله لقائمٌ، للكلام مع المُنكَرِ فجيءَ لأنَّه إذا كان الكلامُ المنكرُ كانت الحاجةُ إلى التأكيدِ أشدَّ وذلك أنك أحوجُّ ما تكونُ إلى الزيادة في تثبيت خبرك إذا كان هناك من يدفعه وينكر صحته إلا أنه ينبغي أن يُعْلَمَ أنه كما يكون للإنكار قد كان من السامع فإنه يكون للإنكار يُعْلَمُ أو يرى أنه يكون من السامعين. وجملَةُ الأمرِ أنك [١٠٦ أ] لا تقولَ: إِنَّه كذلك، حتى تريد أن تَضَعَ كلامَكَ وضعَ من يَزُغُ فيه عن الإنكار.

= لئلا تتزاحم عليك رماحهم وتتراكم عليك أسننتها؛ إن بني عمك فيهم رماخ كثيرة». والشاعر ذكره ابن قتيبة في الشعر والشعراء ٩٥/١، وذكر أنه أسر بنت عمرو بن كلثوم وركب بها المفاوز، واسمها التوار، وهو كما يبدو جاهلي أحد بني عمرو بن عبد قيس بن معن بن أعصر كما في معاهد التنصيص ٧٣/١، المؤلف والمختلف ١١٥. (وهو فيه لشبيب بن جُعلٍ التغلبي).

واختار له الأصمعي قصيدة في هجاء معاوية بن شكل: الأصمعيات (١٣٨ - ١٣٩). وذكر صاحب اللسان الحادثة التي رواها الأصمعي في مكانين قال في (فجج) ٣/١٦٤: «وفيما سبَّ به حجل بن شكل الحارث بن مصرّف بين يدي النعمان: إِنَّه لَمُفْجُ الساقين فَعَوُ الأَلْيَتَيْنِ».

وقال في (قرا) ٣٩/٢٠: «قال معاوية بن شَكَلٍ يَذُمُّ حَجَلُ بن نضلة بين يدي النعمان». ويبدو بالمقارنة مع ما قاله الأصمعي في الأصمعيات أن في رواية صاحب اللسان في الموضعين تحريفاً.

(١) في (ب): فيها.

واعلم أنها قد تدخلُ للدلالة على أن الظنَّ قد كان منك أيها المتكلمُ في الذي كان إنه لا يكونُ وذلك قولك للشيء هو بمرأى من المخاطبِ ومسمعٍ: إنه كان من الأمر ما ترى وكان مني إلى فلان إحسانٌ ومعروفٌ ثم إنه جعلَ جزائي ما رأيته، فتجعلُكَ كأنك تَرُدُّ على نفسك ظنَّكَ الذي ظننتُ، وتبيِّن الخطأ الذي توهمت. وعلى ذلك والله أعلمُ قوله تعالى حكاية عن أمِّ مريم رضي الله عنها: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ﴾ [آل عمران: ٣٦/٣]^(١) وكذلك قوله عزَّ وجلَّ حكاية عن نوح عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَرِئْتُ كَذِبُونَ﴾ [الشعراء: ١١٧/٢٦] وليس الذي يعرضُ بسببِ هذا الحَرْفِ من الدقائق والأمور الخفية بالشيء يُذكر بالهوينى ونحن نقتصر الآن على ما ذكرنا ونأخذُ في القولِ عليها إذا اتصلت بها (ما).



(١) والآية الكريمة: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَدُرَيْتُهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ ﴿٣٦﴾.

فجعل

في مسائل «إنما»

قال الشَّيْخُ أبو علي^(١) في الشيرازيات: يقولُ ناسٌ من النحويين في نحو قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف: ٣٣/٧]^(٢) إِنََّّ المعنى: ما حَرَّمَ ربي إلا الفواحش. (قال) وأصبتُ ما يدلُّ على صحَّة قولهم في هذا وهو قولُ الفرزدق^(٣):

(١) هو أبو علي الفارسي الحسن بن أحمد بن عبد الغفار المتوفى سنة (٣٧٧ هـ). وهو أستاذ ابن جنِّي وله مؤلفات أكثرها مخطوط منها: المسائل الحليّات، والبغداديات، والمسائل المثورة، وله كتابُ الحجة في القراءات، والمسائل الشيرازيات. وهي كتب جليلة القدر، عظيمة النفع، كما قال عنها علماء النحو كلما ذكروا أبا علي.

(٢) والآية الكريمة: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

(٣) ديوان الفرزدق (ط. الصاوي) ٧١٢/٢: من قصيدة عندما أتته نساء بني مجاشع وهو مقيد وقلن: قبح الله قيدك فقد هتك جرير عورات نساك فلُحيت شاعر قوم فأحفظنه، فغضَّ قبه وقد كان قَبْد نفسه قبل ذلك وحلف ألا يطلق قبه حتى يجمع القرآن فقال:

ألا استهزأت مني هُنَيْدَةُ أَنْ رأت أسيراً يُداني خَطْوَهُ حَلَقُ الْجَحْلِ

ورواية البيت في الديوان:

أنا الضَّامن الراعي عليهم وإنَّما يدافع عن أحسابهم أنا أو مثلي

=

أَنَا الذَّائِدُ الْحَامِي الذَّمَّارَ وَإِنَّمَا يُدَافِعُ عَنْ أَحْسَابِهِمْ أَنَا أَوْ مِثْلِي

فليس يخلو هذا الكلام من أن يكون موجباً أو منفياً فلو كان المراد به الإيجاب لم يستقم. ألا ترى أنك لا تقول: يدافع أنا ولا يقاتل أنا. وإنما تقول: أدافع وأقاتل، إلا أن المعنى لما كان: ما يدافع إلا أنا، فَصَلَّتِ الضمير كما تفصله مع النفي إذا ألحقت معه «إلا» حملاً على المعنى^(١). وقال أبو إسحاق الزجاج^(٢) في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ﴾ [البقرة: ١٧٣/٢]^(٣) النصب في الميتة هو القراءة^(٤) ويجوز: إنما حُرِّمَ عليكم^(٥). قال أبو إسحاق: والذي اختاره أن تكون (ما) هي التي تمنع إن من العمل ويكون المعنى: ما حُرِّمَ عليكم إلا الميتة؛ لأن (إنما) تأتي إثباتاً لما يُذكر بعدها ونفياً لما سواه، وقول [١٠٦ ب] الشاعر:

= قال ابن جني في المحتسب ١٩٤/٢ - ١٩٥: «وقد كثر عنهم تأول معنى النفي وإن لم يكن ظاهراً إلى بادي اللفظ، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف: ٣٣/٧] أي ما حَرَّمَ إِلَّا الفواحش، وعليه بيت الفرزدق:

أَنَا الدافع الحامي الذمار وإنما يدافع عن أحسابهم أنا أو مثلي

أي ما يدافع عن أحسابهم إلا أنا. ولذلك عندما فصل الضمير فقال: أنا. وأنت لا تقول: يقوم أنا، ولا تقعد نحن. ولولا ما ذكرنا من إرادة النفي لقبح الفصل. ولعل مثل ذلك قول عمرو بن معد يكرب الرُّبَيْدِي. ديوانه ١٥٥:

قد علمت سلمى وجاراتها ما قَطَّرَ الفارَسَ إِلَّا أَنَا

(٢) هو إبراهيم بن محمد السري بن سهل، أخذ عن المبرد وثعلب وكان يخطر الزجاج ثم اشتغل بالأدب وعنه أخذ أبو علي الفارسي. توفي سنة ٣١٦ هـ (طبقات الرُّبَيْدِي ١١١ - ١١٢).

(٣) والآية الكريمة: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَكُمْ الْخَنِزِيرُ وَمَا أَهْلَ بِهِ يَغْيِرَ اللَّهُ فَمَنْ أَضَلُّ عَنِ بَابِغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِيَّاهُ إِلَّا اللَّهُ عَفْوٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٣/٢].

(٤) قراءة النصب تكون فيها «إنما» حرفاً واحداً وتكون الميتة منصوبة بوقوع الفعل عليها.

(٥) أي ببناء الفعل لما لم يُسمَّ فاعله ويجب على هذه القراءة رفع «الميتة» لأنها نائب عن الفاعل ويجوز أن تكون «إنما» حرفين وعندئذ تكون القراءة «إِنَّ مَا حُرِّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ» ويكون رفع الميتة على أنها خبر «ما» بمعنى الذي.

(انظر معاني القرآن للفراء ١٠٠/١ - ١٠٢).

وإنما يُدافعُ عَنْ أَحْسَابِهِمْ أَنَا أَوْ مِثْلِي

المعنى: ما يدافع عن أحسابهم إلا أنا أو مثلي.

انتهى كلام أبي علي.

اعلم أنهم وإن كانوا قد قالوا هذا الذي كتبتُه لك فإنهم لم يَغنُوا بذلك أن المعنى في هذا هو المعنى في ذلك بعينه وأن سبيلهما سبيلُ اللفظين يُوضعان لمعنى واحد. وفرق بين أن يكونَ في الشيء معنى الشيء وبين أن يكونَ الشيء الشيء على الإطلاق. يبين لك أنهما لا يكونان سواءً أنه ليس كل كلام يصلح فيه (ما) و (إلا) يصلح فيه (إنما) ألا ترى أنها لا تصلح في مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٦٢/٣]^(١) ولا في نحو قولنا: ما أحدٌ إلا وهو يقولُ ذاك. إذ لو قلت: إنما من إله الله، وإنما أحدٌ وهو يقولُ ذاك؛ قلت ما لا يكون له معنى. فإن قلت: إن سبب ذلك أن (أحدًا) لا يقع إلا في النفي وما يجري مجرى النفي من النفي والاستفهام وأن (من) المَزِيْدَة في (ما من إله إلا الله) كذلك لا تكون إلا في النفي، قيل: ففي هذا كفاية بأنه اعتراف بأن ليسا سواء [لأنهما لو كانا سواءً]^(٢) لكان ينبغي أن يكونَ في (إنما) من النفي مثل ما يكون في ما وإلا. وكما وجدت (إنما) لا تصلح فيما ذكرنا تجد ما وإلا لا تصلح في ضرب من الكلام قد صلحت فيه (إنما) وذلك في مثل قولك: إنما هو درهم لا دينار. لو قلت: ما هو إلا درهم لا دينار، لم يكن شيئاً. وإذ قد بان بهذه الجملة أنهم حين جعلوا إنما في معنى ما وإلا لم يعنوا أن المعنى فيهما واحد على الإطلاق وأن يسقطوا الفرق، فإني أبين لك أمرها وما هو أصل في كل واحدٍ منهما بعون الله وتوفيقه.

اعلم أن موضوع (إنما) على أن تجيء لخبر لا يجهل المخاطب ولا يدفع صحته أو لما ينزل هذه المنزلة. تفسير ذلك أنك تقول للرجل: إنما هو أخوك وإنما هو صاحبك القديم. لا تقوله لمن يجهل ذلك ويدفع صحته ولكن لمن

(١) والآية الكريمة: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَلَئِنْ أَلَّهَ لَهَوَ الْغَرِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

(٢) ما بين معقوفين سقط من (١).

يَعْلَمُهُ وَيَقْرَأُ بِهِ إِلَّا أَنَّكَ تَرِيدُ أَنْ تَنْبَهُهُ لِلَّذِي يَجِبُ عَلَيْهِ مِنْ حَقِّ الْأَخِ وَحَرَمَةِ الصَّاحِبِ وَمِثْلُهُ [١٠٧ أ] الْآخِرُ^(١):

إِنَّمَا أَنْتَ وَالِدٌ وَالْأَبُ الْقَا طِعُ أَخْنَى مِنْ وَاصِلِ الْأَوْلَادِ

لم يُرِدْ أَنْ يُعْلَمَ كَافُوراً أَنَّهُ وَالِدٌ وَلَا ذَاكَ مِمَّا يَحْتَاجُ كَافُوراً فِيهِ إِلَى الْإِعْلَامِ وَلَكِنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَذْكُرَهُ مِنْهُ بِالْأَمْرِ الْمَعْلُومِ لِيَنْبَنِي عَلَيْهِ اسْتِدْعَاءً مَا يَوْجِبُهُ كَوْنُهُ بِمَنْزِلَةِ الْوَالِدِ^(٢). وَمِثْلُ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ: إِنَّمَا يَعْجَلُ مَنْ يَخْشَى الْفَوْتَ؛ وَذَلِكَ أَنَّ مِنَ الْمَعْلُومِ الثَّابِتِ فِي النَفُوسِ أَنَّ مَنْ لَمْ يَخْشَ الْفَوْتَ لَمْ يَعْجَلْ وَمِثَالُهُ مِنَ التَّنْزِيلِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ [الأنعام: ٣٦/٦]^(٣) وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا تُذِذُ مَنْ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخِشَى الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾ [يس: ١١/٣٦]^(٤) وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُذِيرٌ مَنْ يَخْشَاهَا﴾ [النازعات: ٤٥/٧٩] كُلُّ ذَلِكَ تَذْكِيرٌ بِأَمْرٍ ثَابِتٍ مَعْلُومٍ. وَذَلِكَ أَنَّ كُلَّ عَاقِلٍ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا تَكُونُ اسْتِجَابَةٌ إِلَّا مِمَّنْ [يَسْمَعُ وَ]^(٥) يَعْقِلُ مَا يَقَالُ لَهُ وَيُدْعَى إِلَيْهِ وَأَنَّ مَنْ لَمْ يَسْمَعْ وَلَمْ يَعْقِلْ لَمْ يَسْتَجِبْ، وَكَذَلِكَ مَعْلُومٌ أَنَّ الْإِنْذَارَ إِنَّمَا يَكُونُ إِنْذَاراً وَيَكُونُ لَهُ تَأْثِيرٌ إِذَا كَانَ مَعَ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيَخْشَاهُ وَيُصَدِّقُ بِالْبَعْثِ وَالسَّاعَةِ، فَأَمَّا الْكَافِرُ الْجَاهِلُ فَالْإِنْذَارُ وَتَرْكُ الْإِنْذَارِ مَعَهُ وَاحِدٌ. فَهَذَا مِثَالُ مَا الْخَبَرُ فِيهِ خَبَرٌ بِأَمْرٍ يَعْلَمُهُ الْمَخَاطَبُ وَلَا يَنْكَرُهُ بِحَالٍ.

(١) فِي (ب): وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ.

وَالْقَائِلُ هُوَ أَبُو الطَّيِّبِ الْمَتَنَبِّي دِيَوَانَهُ (الوَاحِدِي) ٦٥٧ مِنْ قَصِيدَةٍ قَالَهَا عِنْدَمَا حَاوَلَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ أَنْ يُفْسِدُوا بَيْنَ كَافُورٍ وَابْنِ الْأَخْشِيدِي وَجَرَتْ بَيْنَهُمَا وَحْشَةٌ أَيَّاماً ثُمَّ رَدَّاهُ إِلَيْهِ وَاصْطَلَحَا. وَمَطْلَعُ الْقَصِيدَةِ:

حَسَمَ الصَّلَحَ مَا اشْتَهَتْهُ الْأَعَادِي وَأَذَاعَتْهُ السُّنُ الْخُسَادِ

(٢) يَقُولُ: أَنْتَ فِي تَرْبِيَتِكَ إِيَّاهُ كَالْوَالِدِ. وَالْوَالِدُ الْقَاطِعُ أَبَرُّ بِالْوَلَدِ وَإِنْ كَانَ يَصِلُهُ.

(٣) وَالْآيَةُ الْكَرِيمَةُ: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوَكَ يَبْعَثُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾.

(٤) وَالْآيَةُ الْكَرِيمَةُ: ﴿إِنَّمَا تُذِذُ مَنْ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخِشَى الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ

كَرِيمٍ﴾.

(٥) مَا بَيْنَ مَعْقُوفَتَيْنِ سَقَطَ مِنْ (ط).

وأما مثال ما ينزل هذه المنزلة فكقوله^(١):

إِنَّمَا مُضْعَبُ شِهَابٍ مِنَ الدِّ ۖ تَجَلَّتْ عَنْ وَجْهِهِ الظُّلُمَاءُ

ادعى في كون الممدوح بهذه الصفة أنه أمر ظاهر معلوم للجميع على عادة الشعراء إذا مدحوا أن يدعوا في الأوصاف التي يذكرون بها الممدوحين أنها ثابتة لهم وأنهم قد شهرها بها وأنهم لم يصفوا إلا بالمعلوم الظاهر الذي لا يدفعه أحد كما قال^(٢):

وَتَعَذَّلْنِي أَقْنَاءَ سَعْدٍ عَلَيْهِمْ وَمَا قُلْتُ إِلَّا بِالَّذِي عَلِمْتُ سَعْدُ

وكما قال البحتري^(٣):

لَا أَدْعِي لِأَبِي الْعَلَاءِ قُضِيلَةً حَتَّى يُسَلِّمَهَا إِلَيْهِ عِدَاهُ

ومثله قولهم: إنما [ب ١٠٧] هو أسد وإنما هو نار وإنما هو سيف صارم. إذا أدخلوا (إنما) جعلوا في حكم الظاهر المعلوم الذي لا يُنكر ولا يدفع ولا يخفى. وأما الخبر بالنفي والإثبات نحو: «ما هذا إلا كذا وإن هو إلا كذا» فيكون للأمر يُنكره المخاطب ويشك فيه. فإذا قلت: ما هو إلا مصيب، أو: ما هو إلا مخطئ؛ قلته لمن يدفع أن يكون الأمر على ما قلته. وإذا رأيت شخصاً من بعيد فقلت: ما هو إلا زيد؛ لم تقله إلا وصاحبك يتوهم أنه ليس بزيد وأنه إنسان آخر ويجد في الإنكار أن يكون زيدا. وإذا كان الأمر ظاهراً كالذي مضى لم تقله

(١) هو عبد الله (أو عبيد الله) بن قيس الرقيات، صنفه ابن سلام في الطبقة السادسة بين الشعراء الإسلاميين وكان عبد الله بن قيس الرقيات أشد قريش في الإسلام، وكان يشب ولا يُصرّح وكان منقطعاً إلى آل الزبير فمدح مصعباً وهجا عبد الملك بن مروان. (طبقات ابن سلام ٢/٦٤٨).

والبيت من قصيدة في مدح مصعب بن الزبير. ديوانه: ٩١

(٢) الحطينة. ديوانه: ١٤١ من قصيدة في مدح بغض من بني سعد ومطلعها:

ألا طرقتنا بعدما هجدوا هنئاً وقد سرن عوراً واستبان لنا نجد

(٣) ديوان البحتري ٤/٢٤٠٣ من قصيدة في مدح صاعد بن مخلد وهو أبو العلاء.

كذلك فلا تقول للرجل ترققه على أخيك وتنبهه للذي يجب عليه من صلة الرّحم ومن حُسن التحاب: ما هو إلا أخوك. وكذلك لا يصلح في «إنما أنت والد»: ما أنت إلا والد. فأما نحو «إنما مُصْعَب شهاب» فيصلح فيه أن تقول: ما مُصْعَب إلا شهاب؛ لأنه ليس من المعلوم على الصحة وإنما ادعى الشاعر فيه أنه كذلك. وإذا كان هذا هكذا جاز أن تقوله بالنفي والإثبات إلا أنك تخرج المدح حينئذٍ عن أن يكون على حدّ المبالغة من حيث لا تكون^(١) قد ادعيت فيه أنه معلوم وأنه بحيث لا ينكره منكر ولا يخالف فيه مخالف.

قوله تعالى: ﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ نَصَّدُّوكَ عَمَّا كَانَتْ يَعبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [إبراهيم: ١٤/١٠]^(٢) إنما جاء والله أعلم بأن وإلا دون إنما فلم يقل: إنما أنتم بشر مثلنا؛ لأنهم جعلوا الرسل كأنهم بادعائهم النبوة قد أخرجوا أنفسهم عن أن يكونوا بشرًا مثلهم وادعوا أمرًا لا يجوز أن يكون لمن هو بشر ولما كان الأمر كذلك أخرج اللفظ مُخرجه حيث يُراد إثبات أمر يدفعه المخاطب ويدعي خلافه ثم جاء الجواب من الرسل الذي هو قوله تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [إبراهيم: ١٤/١١]^(٣) كذلك بأن [١٠٨] وإلا دون إنما لأن من حُكم من ادعى عليه خصمه الخلاف في أمر هو لا يخالف فيه أن يعيد كلام الخصم على وجهه ويجيء به على هيئته ويحكيه كما هو فإذا قلت للرجل: أنت من شأنك كيت وكيت. قال: نعم أنا من شأني كيت وكيت ولكن لا ضير علي ولا يلزمني من أجل ذلك ما ظننت أنه يلزم. فالرسل صلوات الله عليهم كأنهم قالوا: إن ما قلتم من أنا بشر مثلكم كما قلتم لسنا ننكر ذلك

(١) في (ط): من حيث لا يكون.

(٢) والآية الكريمة: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ فَأَطِيعِ السَّمْعَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ نَصَّدُّوكَ عَمَّا كَانَتْ يَعبُدُ آبَاؤُنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾.

(٣) والآية الكريمة: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

ولا نجعله ولكن ذلك لا يمنعنا من أن يكون الله تعالى قد من علينا وأكرمنا بالرسالة. وأما قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [الكهف: ١٨/١١٠] ^(١) فجاء بإنما لأنه ابتداء كلام قد أمر النبي ﷺ بأن يبلغه إياهم ويقوله معهم وليس هو جواباً لكلام سابق قد قيل فيه: إن أنت إلا بشر مثلنا ^(٢)، فيجب أن يؤتى به على وفق ذلك الكلام ويُراعى فيه حذفه كما كان ذلك في الآية الأولى.

وجملة الأمر أنك متى رأيت شيئاً هو من المعلوم الذي لا يُشك فيه قد جاء بالنفي فذلك لتقدير معنى صار به في حكم المشكوك فيه فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ، إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٢-٢٣/٣٥] ^(٣) إنما جاء والله أعلم بالنفي والإثبات لأنه لما قال تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ وكان المعنى في ذلك أن يقال للنبي ﷺ: إنك لن تستطيع أن تحول قلوبهم عما هي عليه من الإباء ولا تملك أن توقع الإيمان في نفوسهم، مع إصرارهم على كفرهم، واستمرارهم على جهلهم، وصدّهم بأسماعهم عما تقوله لهم وتتلوه عليهم. كان اللائق بهذا أن يجعل حال النبي ﷺ حال من قد ظن أنه يملك ذلك ومن لا يعلم يقيناً أنه ليس في وسعه شيء أكثر من أن ينذر ويحذر، فأخرج اللفظ مُخرجه إذا كان الخطاب مع مَنْ يَشْكُ فقل: ﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ وبين ذلك أنك تقول للرجل يطيل مناظرة [١٠٨ ب] الجاهل ومقاولته: إنك لا تستطيع أن تسمع الميّت وأن تفهم الجماد وأن تحول الأعمى بصيراً، وليس بيدك إلا أن تبيّن وتحتج، ولست تملك أكثر من ذلك. لا تقول ههنا: فإنما الذي بيدك أن تبيّن وتحتج ذلك لأنك لم تقل له: إنك لا تستطيع أن تسمع الميّت، حتى جعلته بمثابة من يظن أنه يملك وراء الاحتجاج والبيان شيئاً. وهذا واضح

(١) والآية الكريمة: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ ﴿١٣٠﴾.

(٢) مثلنا: زيادة من (ط).

(٣) والآيتان الكريمتان: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ، إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ ﴿٣٣﴾.

فاعرفه. ومثلُ هذا في أنَّ الذي تقدَّم من الكلام اقتضى أن يكونَ اللفظُ كالذي تراه من كونه بيان وإلا قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَكُنْتُكَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨/٧]^(١).



(١) وقد جاءت الآية في (ط) بتقديم وتسبيق في قوله تعالى: ﴿نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ حيث جاء «ضرراً ولا نفعاً».

والصحيح كما جاء في أصل السورة الكريمة أثبتته ونعوذ بالله من السهو والخطأ في أي القرآن الكريم. وتبع الناشرون في هذا الخطأ نسخة (أ).

فعلٌ

[هذا بيانٌ آخرٌ في «إنما»]

اعلم أنها تفيدُ في الكلام^(١) بعدها إيجابَ الفعل لشيءٍ ونفيه عن غيره فإذا قلت: إنما جاءني زيدٌ، عَقِلَ منه أنك أردتَ أن تنفي أن يكونَ الجائي غيره فمعنى الكلام معها شبيه بالمعنى في قولك: جاءني زيدٌ لا عمرو. إلا أن لها مَزِيَّةً وهي أنك تعقِلُ معها إيجابَ الفعل لشيءٍ ونفيه عن غيره دفعةً واحدةً وفي حالٍ واحدةٍ وليس كذلك الأمرُ في: جاءني زيدٌ لا عمرو. فإنك تعقِلُهما في حالين. ومزِيَّةٌ ثانية وهي أنها تجعلُ الأمرَ ظاهراً في أن الجائي زيدٌ ولا يكونُ هذا الظهورُ إذا جعلتَ الكلامَ بلا فقلت: جاءني زيدٌ لا عمرو.

ثم اعلم أن قولنا في (لا) العاطفة: إنها تنفي عن الثاني ما وجبَ للأول:

ليس المرادُ به أنها تنفي عن الثاني أن يكونَ قد شاركَ الأول في الفعل بل أنها تنفي أن يكونَ الفعلُ الذي قلتَ إنه كانَ من الأول قد كانَ من الثاني دونَ الأول. ألا ترى أن ليس المعنى في قولك: جاءني زيدٌ لا عمرو، أنه لم يكنِ من عمرو مجيءُ إليك مثلَ ما كانَ من زيدٍ حتى كأنه عكسُ قولك: جاءني زيدٌ وعمرو. بل المعنى [١٠٩] أن الجائي هو زيدٌ لا عمرو فهو كلامٌ تقوله مع مَنْ يغلط في الفعل قد كانَ مِنْ هذا فيتوهم أنه كان من ذلك. والنكته أنه لا شبهة في

(١) في (١): تفيد من الكلام.

أن ليس ها هنا جاثيان وأنه ليس إلا جاء واحد وإنما الشبهة في أن ذلك الجائي زيد أم عمرو فأنْتَ تحقّق على المخاطب بقولك^(١): جاءني زيد لا عمرو. أنه زيد وليس بعمرو. ونكتة أخرى وهي أنك لا تقول: جاءني زيد لا عمرو. حتى يكون قد بلغ المخاطب أنه كان مجيء إليك من جاء إلا أنه ظنّ أنه كان من عمرو فأعلمته أنه لم يكن من عمرو ولكن من زيد.

وإذ قد عرفت هذه المعاني في الكلام [بلا العاطفة فاعلم أنها بجملتها قائمة لك في الكلام]^(٢) بإنما فإذا قلت: إنما جاءني زيد. لم يكن غرضك أن تنفي أن يكون قد جاء مع زيد غيره ولكن أن تنفي أن يكون المجيء الذي قلت إنه كان منه كان من عمرو، وكذلك تكون الشبهة مرتفعة في أن ليس ههنا جاثيان وأن ليس إلا جاء واحد، وإنما تكون الشبهة في أن ذلك الجائي زيد أم عمرو، فإذا قلت: إنما جاءني زيد. حتى يكون قد بلغ المخاطب أن قد جاءك جاء ولكنه ظنّ أنه عمرو مثلاً فأعلمته أنه زيد. فإن قلت فإنه قد يصحّ أن تقول: إنما جاءني من بين القوم زيد وحده وإنما أتاني من جملتهم عمرو فقط، فإن ذلك شيء كالتكليف والكلام هو الأول، ثم الاعتبار به إذا أطلق فلم يقيد (وحده) وما في معناه. ومعلوم أنك إذا قلت: إنما جاءني زيد، ولم ترد على ذلك أنه لا يسبق إلى القلب من المعنى إلا ما قدّمنا شرحه من أنك أردت النصّ على زيد أنه الجائي وأن تبطل ظنّ المخاطب أن المجيء لم يكن منه ولكن كان من عمرو، حسب ما يكون إذا قلت: جاءني زيد لا عمرو، فاعرفه.

وإذ قد عرفت هذه الجملة فإننا نذكر جملة من القول في ما وإلا وما يكون من^(٣) حكمهما. اعلم أنك إذا قلت: ما جاءني إلا زيد، [١٠٩ ب] احتمل أمرين أحدهما أن تريد اختصاص زيد بالمجيء وأن تنفيه عن عداه، وأن يكون كلاماً

(١) في (أ): تقول.

(٢) ما بين معقوفتين سقط من (أ).

(٣) في (ب): يكون في حكمهما.

تقولهُ لا لأنَّ بالمخاطبِ حاجةً إلى أن تَعْلَمَ^(١) أنَّ زيداً قد جاءكَ ولكنَّ لأنَّ به حاجةً إلى أن يَعْلَمَ أنه لم يَجِئْ إليك غيره. والثاني أن تريدَ الذي ذكرناه في (إنما) ويكونُ كلاماً تقولهُ ليُعْلَمَ أن الجاني زيدٌ لا غيره. فمن ذلك قولُكَ للرجلِ يدَّعي أنك قلتَ قولاً ثم قلتَ خلافه: ما قلتَ اليومَ إلَّا ما قلته أمسَ بعينه. ويقولُ: لم ترَ زيداً وإنما رأيتَ فلاناً فتقولُ: بل لم أرَ إلَّا زيداً. وعلى ذلك قولهُ تعالى: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ١١٧/٥]^(٢) لأنه ليس المعنى أنني لم أزد على ما أمرتني به شيئاً ولكن المعنى أنني لم أدغ [ما أمرتني به]^(٣) أن أقولهُ لهم وقلتُ خلافه. ومثالُ ما جاء في الشعرِ من ذلك قولهُ^(٤):

قَدْ عَلِمْتُ سَلْمَى وَجَارَاتِهَا مَا قَطَّرَ الْفَارِسَ إِلَّا أَنَا

المعنى أنا الذي قَطَّرَ الفارسَ وليسَ المعنى على أنَّه يريدُ أن يَزْعُمَ أنَّه انفراد بأن قَطَّرَهُ وأنَّه لم يَشْرُكْهُ فيه غيره.

وهنا كلامٌ ينبغي أن تَعْلَمَهُ إلَّا أنني أكتبُ لك من قبله مسألةً لأن فيها عنواً عليه. قولهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨/٣٥]^(٥) في تقديم اسم الله عزَّ وجلَّ معنى خلاف ما يكونُ لو أُخِّرَ، وإنما يبيِّنُ لك ذلك إذا اعتبرتَ الحكمَ في ما وإلا وحصلتَ الفرقَ بين أن تقولَ: ما ضربَ زيداً إلَّا عمرو، وبين قولك: ما ضربَ عمرو إلَّا زيداً. والفرقُ بينهما أنك إذا قلتَ: ما ضربَ زيداً إلَّا

(١) في (ب): إلى أن يَعْلَمَ.

(٢) والآية الكريمة: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

(٣) ما بين معقوفين سقط من (أ).

(٤) هو عمرو بن معد يكرب الزبيدي، ديوانه: ١٥٤ من قطعة قالها في يوم القادسية أولها:

الْحِمُّ بِسَلْمَى قَبْلَ أَنْ تَظْعَنَّا إِن بَنَّا مِنْ حُبِّهَا دَيْنُنَا

(٥) والآية الكريمة: ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالْذَوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾.

عمرو، فقدَّمَت المنصوبَ كان الغرضُ بيانَ الضاربِ مَنْ هو والإخبارَ بأنه عمرو خاصةً دونَ غيره. وإذا قلتُ: ما ضربَ عمرو إلا زيداً، فقدَّمَت المرفوعَ كان الغرضُ بيانَ المضروبِ مَنْ هو والإخبارَ بأنه زيدٌ خاصَّةً دونَ غيره.

وإذ قد عرفتَ ذلكَ فاعتبرْ به الآيةَ وإذا اعتبرتَها به علمتَ أنَّ تقديمَ اسمِ الله تعالى إنما كانَ لأجلِ أن الغرضَ أن يُبيِّنَ الخاشعونَ [١١٠] مَنْ هُم ويخبرَ بأنهم العلماءُ خاصَّةً دونَ غيرهم، ولو أخرَ ذكرُ اسمِ الله وقَدَّمَ العلماءَ فقليلٌ: إنما يخشى العلماءُ الله؛ لصارَ المعنى على ضِدِّ ما هو عليه الآن ولصارَ الغرضُ بيانَ المخشي مَنْ هو والإخبارَ بأنه الله تعالى دونَ غيره، ولم يَجِبْ حينئذٍ أن تكونَ الخشية منَ الله تعالى مقصورةً على العلماءِ وأن يكونوا مخصوصينَ بها كما هو الغرضُ في الآية، بل كان يكونُ المعنى أنَّ غيرَ العلماءِ يخشونَ الله تعالى أيضاً إلا أنهم مع خشيتهم الله تعالى يخشونَ معه غيره والعلماءُ لا يخشونَ غيرَ الله تعالى، وهذا المعنى وإن كانَ قد جاءَ في التنزيلِ في غيرِ هذه الآية كقوله تعالى ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٣/٣٩]^(١) فليس هو الغرضُ في الآية ولا اللَّفْظُ بمحتَمِلٍ له البتَّة. ومَنْ أجازَ حملها عليه كان قد أبطلَ فائدةَ التقديمِ وسوى بينَ قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨/٣٥] وبين أن يقالَ: إنما يخشى العلماءُ الله. وإذا سوى بينهما لزمَ أن يُسَوَّى بين قولنا: ما ضربَ زيداً إلا عمرو، وبين: ما ضربَ عمرو إلا زيداً. وذلك ما لا شُبْهةَ في امتناعه.

فهذه هي المسألة، وإذا قد عرفتَها فالأمرُ فيها بيِّنٌ أنَّ الكلامَ بما وإلا قد يكونُ في معنى الكلامِ بإنما، ألا ترى إلى وضوحِ الصورةِ في قولك: ما ضربَ زيداً إلا عمرو، وما ضربَ عمرو إلا زيداً. أنه في الأول لبيان من الضارب، وفي الثاني لبيان من المضروب، وإن كان تكلفاً أن تحمله على نفي الشركة فتريدُ بما ضربَ زيداً إلا عمرو أنه لم يضربْه اثنان، وبما ضربَ عمرو إلا زيداً أنه لم يضربَ اثنين.

(١) والآية الكريمة: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ رَسُولَ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَاسِبًا﴾.

ثم اعلّم أن السبب في أن لم يكن تقديم المفعول في هذا كتأخيرهِ ولم يكن «ما ضرب زيداً إلا عمرّو وما ضرب عمرو إلا زيداً» سواء في المعنى أن الاختصاص يقع في واحدٍ من الفاعل والمفعول ولا يقع فيهما جميعاً ثم أنّه يقع في الذي يكون بعد «إلا» منهما دون الذي قبلها، لاستحالة أن يحدث معنى الحرف في الكلمة^(١) قبل أن يجيء الحرف [١١٠ ب] وإذا كان الأمر كذلك وجب أن يفرّق الحال بين أن تقدّم المفعول على (إلا) فتقول: ما ضرب زيداً إلا عمرّو، وبين أن تقدم الفاعل فتقول: ما ضرب عمرو إلا زيداً. لأنّا إن زعمنا أنّ الحال لا يفرّق جعلنا المتقدم كالتأخّر في جواز حدوثه فيه، وذلك يقتضي المحال الذي هو أن يحدث معنى (إلا) في الاسم من قبل أن تجيء بها فاعرفه.

وإذا قد عرفت أن الاختصاص مع (إلا) يقع في الذي تؤخّره من الفاعل والمفعول فكذلك يقع مع (إنما) في المؤخّر منهما دون المقدّم. فإذا قلت: إنما ضرب زيداً عمرّو. كان الاختصاص في الضارب، وإذا قلت: إنما ضرب عمرو زيداً. كان الاختصاص في المضروب، وكما لا يجوز أن يستوي الحال بين التقديم والتأخير مع (إلا) كذلك لا يجوز مع (إنما) وإذا استبنت هذه الجملة عرفت منها أن الذي صنعه الفرزدق في قوله:

..... وإنّما يُدافعُ عن أحسابهم أنا أو مثلي

شيء لو لم يصنعه لم يصحّ له المعنى. ذاك لأنّ غرضه أن يخصّ المدافع لا المدافع عنه.

وأنه لا يزعم أن المدافعة منه تكون عن أحسابهم لا عن أحساب غيرهم كما يكون إذا قال: وما أَدافعُ إلا عن أحسابهم. وليس ذلك معناه إنما معناه أن يزعم أنّ المدافع هو لا غيره فاعرف ذلك فإن الغلط كما أظنّ يدخل على كثير ممن تسمعونهم يقولون إنه فصلّ الضمير للحمل على المعنى. فيرى أنه لو لم

(١) في (أ): أن يحدث معنى الحرف في الكلمة من قبل.

يفصله لكان يكونُ معناه مثله الآن. هذا ولا يجوز أن يُنسب فيه إلى الضرورة فيجعلَ مثلاً نظيرَ قولِ الآخر^(١):

كَأَنَّا يَوْمَ قُرَى إِنَّا مَا نَقُتُلُ إِنَانَا!

لأنه ليس به ضرورة إلى ذلك من حيث أن أدافعُ ويدافعُ واحدٌ في الوزن فاعرف هذا أيضاً.

وجملة الأمر أن الواجب أن يكونَ اللفظُ على وجهٍ يجعلُ الاختصاصَ فيه للفرزدقِ وذلك لا يكونُ إلا بأن يقدمَ الأحسابَ على ضميره وهو لو قال: وإنما أدافعُ عن أحسابهم؛ استكنَّ ضميره [١١١ أ] في الفعلِ فلم يتصورَ تقديمُ الأحسابِ عليه ولم يقع «الأحساب» إلا مؤخراً عن ضمير الفرزدق وإذا تأخرت انصرفَ الاختصاصُ إليها لا محالة.

فإن قلت: إنه كان يمكنه^(٢) أن يقولَ: «وإنما أدافعُ عن أحسابهم أنا» فيقدمَ الأحسابَ على (أنا) قيل إنه إذا قال: أدافعُ، كان الفاعلُ الضميرُ المستكنُّ في الفعلِ وكان (أنا) الظاهرُ تأكيداً له أعني للمستكنَّ والحكمُ يتعلَّقُ بالمؤكد دون التأكيد لأنَّ التأكيدَ كالتركيب فهو يجيء من بُعد نفوذِ الحكم ولا يكونُ تقديم الجارِ مع المجزورِ الذي هو قوله عن أحسابهم على الضمير الذي هو تأكيدُ تقديماً له على الفاعلِ لأنَّ تقديمَ المفعولِ على الفاعلِ إنما يكونُ إذا ذكرتِ المفعولَ قبل أن تذكرَ الفاعلَ ولا يكونُ لك إذا قلت: «وإنما أدافعُ عن أحسابهم» سبيلٌ إلى أن تذكرَ المفعولَ قبل أن تذكرَ الفاعلَ لأنَّ ذكرَ الفاعلِ ها هنا هو ذكرُ الفعلِ من حيث إن الفاعلَ مستكنٌّ في الفعلِ فكيف يتصورُ تقديمُ شيءٍ عليه؟ فاعرفه.

(١) هو ذو الإصبع العدواني. ديوانه: ٧٨ - ٧٩ شرح أبيات سيويه للسيرافي ١٧٩/٢ وقُرئ:

موضع في بلاد الحارث بن كعب، وعن أبي حنيفة الدينوري أنها ماء قرية من بكة.

واسم ذي الإصبع: حُرثان بن مُحَرَّث، وهو من قبيلة عدوان ووفاته كانت بين (٢٢) -

(٢٥) قبل الهجرة. الخزانة (هارون) ٢٨٢/٥

(٢) في (ط): عليه أن يقول.

واعلم أنك إن عمدت إلى الفاعل والمفعول فأخترتهما جميعاً إلى ما بعد
إلا فإن الاختصاص يقع حيثئذ في الذي يلي «إلا» منهما، فإذا قلت: ما ضرب
إلا عمرو زيدا؛ كان الاختصاص في الفاعل وكان المعنى أنك قلت: إن
الضارب عمرو لا غيره، وإن قلت: ما ضرب إلا زيدا عمرو؛ كان
الاختصاص في المفعول وكان المعنى أنك^(١) قلت: إن المضروب زيد لا من
سواه. وحكم المفعولين حكم الفاعل والمفعول فيما ذكرت لك. تقول: لم
يكس إلا زيدا جبة. فيكون المعنى أنه خص زيدا من بين الناس بكسوة الجبة.
فإن قلت: لم يكس إلا جبة زيدا؛ كان المعنى أنه خص الجبة من أصناف
الكسوة. وكذلك الحكم حيث يكون بدل أحد المفعولين جار ومجرور كقول
السيد الحميري^(٢):

لَوْ خَيْرَ الْمُنْبَرِ فُرْسَانَهُ مَا اخْتَارَ إِلَّا مِنْكُمْ فَارِسًا

الاختصاص في «منكم» دون «فارساً» ولو قلت: ما اختار إلا فارساً منكم؛
صار الاختصاص [ب ١١١] في «فارساً».

واعلم أن الأمر في المبتدأ والخبر إن كانا بعد «إنما» على العبرة التي ذكرت
لك في الفاعل والمفعول إذا أنت قدّمت أحدهما على الآخر. معنى ذلك أنك إن
تركت الخبر في موضعه فلم تقدّمه على المبتدأ كان الاختصاص فيه، وإن قدّمته
على المبتدأ صار الاختصاص^(٣) الذي كان فيه في المبتدأ. تفسیر هذا أنك
تقول: إنما هذا لك^(٤)، فيكون الاختصاص في «لك» بدلالة أنك تقول: إنما هذا
لك لا لغيرك، وتقول: «إنما لك هذا» فيكون الاختصاص في «هذا».

(١) في (أ): أنك إذا قلت.

(٢) هو إسماعيل بن محمد بن يزيد الحميري، كان متشيعاً يذهب مذهب الكيسانية ويقول
بإمامة محمد بن الحنفية، والبيت في ديوانه: ٢٥٩ من قصيدة قالها لما استقام الأمر
لبنى العباس، وهو يقولها لأبي العباس السفاح. الأغاني ٧/ ٢٢٤، ٢٣٤

(٣) ما بين معقوفتين سقط من (أ).

(٤) في (أ): إنما لك هذا.

بدلالة أنك تقول: إنما لك هذا لا ذاك. والاختصاصُ يكونُ أبداً في الذي إذا جئت بلا العاطفة كان العطفُ عليه. وإن أردت أن يزدادَ ذلك عندك وضوحاً فانظر إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠/١٣]^(١) وقوله عزّ وعلا: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَقِذُّوْكَ﴾ [التوبة: ٩٣/٩]^(٢) فإنك ترى الأمرَ ظاهراً أنَّ الاختصاصَ في الآية الأولى في المبتدأ الذي هو البلاغُ والحسابُ دون الخبرِ الذي هو عليك وعلينا، وأنه في الآية الثانية في الخبرِ الذي هو «على الذين» دون المبتدأ الذي هو «السبيل».

واعلم أنه إذا كان الكلامُ بما وإلا كان الذي ذكرته من أن الاختصاصُ يكون في الخبر إن لم تقدّمه وفي المبتدأ إن قدّمت الخبر أوضح وأبين. تقول: ما زيدٌ إلا قائمٌ؛ فيكون المعنى أنك اختصصت القيامَ من بين الأوصاف التي يتوهم كونُ زيد عليها بجعله صفةً له. وتقول: ما قائمٌ إلا زيد؛ فيكون المعنى أنك اختصصت زيدا بكونه موصوفاً بالقيام. فقد قصرت في الأول [الصفة على الموصوف وفي الثاني الموصوف على الصفة]^(٣).

واعلم أن قولنا في الخبر إذا أخر نحو «ما زيدٌ إلا قائمٌ»: أنك اختصصت القيامَ من بين الأوصاف التي يتوهم كونُ زيد عليها ونقيت ما عدا القيامَ عنه فإنما نعني أنك نقيت عنه الأوصاف التي تنافي القيامَ نحو أن يكون جالسا أو مضطجعا أو متكئا أو ما شاكل ذلك، ولم نرد أنك نقيت ما ليس من القيام بسبيل إذ لسنا ننفي عنه بقولنا: ما هو إلا قائم، أن يكون أسوداً أو أبيضاً أو طويلاً [١١٢] أو قصيراً أو عالماً أو جاهلاً، كما أنا إذا قلنا: ما قائمٌ إلا زيد، لم نرد أنه ليس في الدنيا قائمٌ سواه، وإنما نعني ما قائمٌ حيث^(٤) نحن وبحضرتنا وما أشبه ذلك.

(١) والآية الكريمة: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَقَّعَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾.

(٢) والآية الكريمة: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَقِذُّوْكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾.

(٣) في (ط): [فقد قصرت في الأول الموصوف على الصفة وفي الثاني الصفة على الموصوف].

(٤) في (ب): ما قائمٌ بخيث نحن.

واعلم أنَّ الأمرَ بيِّنٌ في قولنا: ما زيدٌ إلَّا قائمٌ؛ أنَّ ليسَ المعنى على نفي الشركة ولكنَّ على نفي أن لا يكونَ المذكورُ ويكونَ بدله شيءٌ آخرٌ ألا ترى أنَّ ليسَ المعنى أنه ليسَ له مع القيامِ صفةٌ أخرى بل المعنى أنَّ ليسَ له بدلُ القيامِ صفةٌ ليستَ بالقيامِ وأنَّ ليسَ القيامُ منفيًا عنه، وكائنًا مكانه فيه القعودُ أو الاضطجاعُ أو نحوهما. فإنَّ قلتَ: فصورَةُ المعنى إذا صورته إذا وضعتَ الكلامَ بإنما فقلتَ: إنما هو قائمٌ. ونحنُ نرى أنَّه يجوزُ في هذا أن تُعْطَفَ بلا فتقول: إنما هو قائمٌ لا قاعدٌ. ولا نرى ذلكَ جائزاً مع ما وإلا إذ ليسَ من كلامِ النَّاسِ أن يقولوا: ما زيدٌ إلَّا قائمٌ لا قاعد. فإنَّ ذلكَ إنما لم يَجُزْ من حيثُ إنك إذا قلتَ: ما زيدٌ إلَّا قائمٌ؛ فقد نفيتَ عنه كلَّ صفةٍ تنافي القيامَ وصرتَ كأنك قلتَ: «ليس هو بقاعدٍ ولا مضطجعٍ ولا متكئٍ» وهكذا حتى لا تدعَ صفةً يخرجُ بها من القيامِ. فإذا قلتَ من بعد ذلكَ: «لا قاعد» كنتَ قد نفيتَ بلا العاطفة شيئاً قد بدأتَ فنفيته وهي موضوعةٌ لأنَّ تنفي بها ما بدأتَ فأوجبته لا لأنَّ تنفي بها النفي في شيءٍ قد نفيتَه. ومن ثمَّ لم يَجُزْ أن تقولَ: ما جاءني أحدٌ لا زيدٌ؛ على أنَّ تعمّدَ إلى بعضٍ ما دخلَ في النفي بعمومٍ أحدٍ فتنفيه على الخصوصِ بل كان الواجبُ إذا أردتَ ذلكَ أن تقولَ: ما جاءني أحدٌ ولا زيدٌ. فتجيءُ بالواو من قَبْلِ (لا) حتى تخرجَ بذلكَ عن أن تكونَ عاطفةٌ فاعرفتَ ذلكَ.

وإذ قد عرفتَ فسادَ أن تقولَ: ما زيدٌ إلَّا قائمٌ لا قاعدٌ؛ فإنَّك تعرفُ بذلكَ امتناعَ [١١٢ ب] أن تقولَ: ما جاءني إلَّا زيدٌ لا عمرو، وما ضربتُ إلَّا زيداً لا عمراً، وما شاكلَ ذلكَ. وذلكَ أنك إذا قلتَ: ما جاءني إلَّا زيدٌ؛ فقد نفيتَ أن يكونَ قد جاءك أحدٌ غيره فإذا قلتَ: لا عمرو؛ كنتَ قد طلبتَ أن تنفي بلا العاطفة شيئاً قد تقدمتَ فنفيته وذلكَ - كما عرفتُك - خروجُ بها عن المعنى الذي وضعتَ له إلى خلافه. فإنَّ قيلَ: فإنَّك إذا قلتَ: إنما جاءني زيدٌ؛ فقد نفيتَ فيه أيضاً أن يكونَ المجيءُ قد كانَ من غيره فكانَ ينبغي أن لا يجوزَ فيه أيضاً أن تعطفَ بلا فتقولَ: إنما جاءني زيدٌ لا عمرو. قيلَ: إن الذي قلته من أنك إذا قلتَ: «إنما جاءني زيدٌ» فقد نفيتَ فيه أيضاً المجيءَ عن غيره غيرُ مسلَّم لك على حقيقته، وذلكَ أنه ليسَ معك إلَّا قولُك: جاءني زيد. وهو كلامٌ كما تراه

مُثَبَّت ليس فيه نفْيُ البتة كما كَانَ في قولك: ما جاءني إِلَّا زيد، وإنما فيه أَنَّك وضعت يدك على زيد فجعلته الجائي وذلك وإن أوجب انتفاء المجيء عن غيره فليس يوجبُه من أجلِ أن كَانَ ذلك إعمالَ نفْي في شيءٍ وإنما أوجبَه من حيث كَانَ المجيء الذي أخبرت به مجيئاً مخصوصاً إذا كَانَ لزيدٍ لم يكنْ لغيره، والذي أبيناه أن تنفي بلا العاطفة الفعلَ عن شيءٍ وقد نفيتَه عنه لفظاً.

ونظيرُ هذا أنا نعقل من قولنا: زيدٌ هو الجائي. أن هذا المجيء لم يكن من غيره ثم^(١) لا يمنع ذلك من أن تجيء فيه بلا العاطفة فتقول: زيدٌ هو الجائي لا عمرو. لأننا لم نعقل ما عَقَلْنَاهُ من انتفاء المجيء عن غيره بنفي أوقعناه على شيءٍ ولكنْ بأنه لَمَّا كَانَ المجيء المقصودُ مجيئاً واحداً كَانَ النصُّ على زيدٍ بأنه فاعله وإثباته له نفيّاً له عَنْ غيره ولكنْ من طريقِ المعقولِ لا من طريقِ أن كَانَ في الكلام نفْي كما كَانَ ثم فاعرفه. فَإِنْ قيل: فَإِنَّكَ إِذَا قُلْتَ: ما جاءني إِلَّا زيد. ولم يكنْ غرضُك أن تنفي أن يكونَ قد جاءَ معه واحداً آخراً كَانَ المجيء أيضاً مجيئاً واحداً. قيلَ إنه وإن كَانَ واحداً فَإِنَّكَ إنما تُثَبِّتُ أَنَّ زيداَ الفاعلُ له بأن [١١٣] نفيتَ المجيء عن كُلِّ مَنْ سِوَى زيدٍ كما تصنعُ إِذَا أردتَ أن تنفي أن يكونَ قد جاءَ معه جاءً آخراً. وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ كَانَ ما قلناه من أَنَّكَ إِن جِثْتَ بلا العاطفة فقلت: ما جاءني إِلَّا زيدٌ لا عمرو، كنتَ قد نفيتَ الفعلَ عن شيءٍ قد نفيتَه عنه مرةً صحيحاً ثابتاً كما قلنا فاعرفه.

واعلمْ أَنَّ حَكَمَ (غير) في جميع ما ذكرنا حَكَمُ (إلا) فإذا قلتَ: ما جاءني غيرُ زيدٍ؛ احتملَ أن تريدَ نَفْيَ أن يكونَ قد جاءَ معه إنسانٌ آخَرُ وأن تريدَ نَفْيَ أن لا يكونَ قد جاءَ وجاءَ مكانه واحداً آخراً ولا يَصِحُّ أن تقولَ: ما جاءني غيرُ زيدٍ لا عمرو. كما لم يَجُزْ: ما جاءني إِلَّا زيدٌ لا عمرو.

(١) ثم: سقطت من (أ).

فصل

في نكتة تتصل بالكلام الذي تضعه

بـ «ما» و «إلا»

اعلم أن الذي ذكرناه من أنك تقول ما ضَرَبَ إلا عمرو زيداً. فتوقع الفاعل والمفعول جميعاً بعد إلا ليس بأكثر الكلام وإنما الأكثر أن تقدم المفعول على (إلا) نحو: ما ضربَ زيداً إلا عمرو. حتى إنهم ذهبوا فيه، أعني في قولك: ما ضربَ إلا عمرو زيداً. إلى أنه على كلامين، وأنَّ زيداً منصوبٌ بفعلٍ مضمرٍ حتى كأن المتكلم بذلك أبهم في أول أمره فقال: ما ضَرَبَ إلا عمرو. ثم قيل له: مَنْ ضَرَبَ؟ فقال: ضَرَبَ زيداً.

وهنا - إذا تأملت - معنى لطيف يوجب ذلك وهو أنك إذا قلت: «ما ضربَ زيداً إلا عمرو» كان غرضك أن تختصَّ عمراً بضربِ زيدٍ لا بالضربِ على الإطلاق. وإذا كان كذلك وجب أن تُعَدِّيَ الفعلَ إلى المفعول من قبل أن تذكرَ عمراً الذي هو الفاعل لأنَّ السامع لا يعقل عنك أنك اختصَّضته بالفعلِ معدِّي حتى تكونَ قد بدأتَ فعديته، أعني لا يفهم عنك أنك أردتَ أن تختصَّ عمراً بضربِ زيدٍ حتى تذكره له مُعَدِّي إلى زيدٍ؛ فأما إذا ذكرته غير معدِّي فقلت: ما ضربَ إلا عمرو. فإنَّ الذي يقع في نفسه أنك أردتَ أن تزعم أنه لم يكن من أحدٍ غيرِ عمرو ضَرَبَ، وأنه ليس [١١٣ ب] هنا مضروبٌ إلا وضاربه عمرو، فاعرفه أصلاً في شأن التقديم والتأخير.

فصل

في «إنما»

إن قيل مضيت في كلامك كله على أن «إنما» للخبر لا يجهله المخاطب ولا يكون ذكرك له لأن تفيده إياه، وإنا لنراها في كثير من الكلام والقصد بالخبر بعدها أن تعلم السامع أمراً قد غلط فيه بالحقيقة، واحتاج إلى معرفته كمثل ما ذكرت في أول الفصل الثاني من قولك: إنما جاءني زيد لا عمرو. وتراها كذلك تدور في الكتب للكشف عن معانٍ غير معلومة ودلالة المتعلم منها على ما لا يعلم. قيل: أما ما يجيء في الكلام من نحو: إنما جاء زيد لا عمرو. فإنه وإن كان يكون إعلماً لأمر لا يعلمه السامع فإنه لا بد مع ذلك من أن يدعى هناك فضلاً انكشاف وظهور في أن الأمر كالذي ذكر. وقد قسمت في أول ما افتتحت القول فيها فقلت إنها تجيء للخبر لا يجهله السامع ولا ينكر صحته أو لما تنزل هذه المنزلة. وأما ما ذكرت من أنها تجيء في الكتب لدلالة المتعلم على ما لم يعلمه فإنك إذا تأملت مواقعها وجدتها في الأمر الأكثر قد جاءت لأمر قد وقع العلم بموجبه وشيء يدل عليه. مثال ذلك أن صاحب الكتاب قال في باب كان: «إذا قلت: كان زيد؛ فقد ابتدأت بما هو معروف عنده مثله عندك وإنما ينتظر الخبر، فإذا قلت: حليماً؛ فقد أعلمته مثلاً ما علمت، وإذا^(١) قلت:

(١) في (ط): وإذا قلت.

كان حليماً؛ فإنما ينتظر أن تعرفه صاحب الصفة» وذاك أنه إذا كان معلوماً أنه لا يكون مبتدأ من غير خبرٍ ولا خبرٍ من غير مبتدأ كان معلوماً أنك إذا قلت: كان زيد، فالمُخاطب ينتظر الخبر وإذا قلت: كان حليماً؛ أنه ينتظر الاسم، فلم يقع إذن بعد «إنما» إلا شيء كان معلوماً للسامع من قبل أن ينتهي إليه.

ومما الأمر فيه بَيِّنُ قوله في باب ظننت: وإنما [١١٤ أ] تحكي بعد «قلت» ما كان كلاماً لا قولاً، وذلك أنه معلوم أنك لا تحكي بعد «قلت» إذا كنت تنحو نحو المعنى إلا ما كان جملة مفيدة فلا تقول: قال فلان «زيد» وتسكت، اللهم إلا أن تريد أنه نطق بالاسم على هذه الهيئة كأنك تريد أنه ذكره مرفوعاً. ومثل ذلك قولهم: إنما يُحذف الشيء إذا كان في الكلام دليل عليه. إلى أشباه ذلك مما لا يُخصى فإن رأيتها قد دَخَلَتْ على كلام هو ابتداء إعلام بشيء لم يعلمه السامع فلأنَّ الدليل عليه حاضرٌ معه والشيء بحيث يقع العلم به عن كُتِب. واعلم أنه ليس يكاد ينتهي ما يعرض بسبب هذا الحرف من الدقائق.

ومما يَجِبُ أن يُعلم أنه إذا كان الفعل بعدها فعلاً لا يَصِحُّ إلا من المذكور ولا يكون من غيره كالتذكير الذي يُعلم أنه لا يكون إلا من أولي الأبواب لم يحسن العطف بلا فيه كما يحسن فيما لا يختص بالمذكور ويصح من غيره. تفسير هذا أنه لا يحسن أن تقول: إنما يتذكر أولو الأبواب لا الجهال. كما يحسن أن تقول: إنما يجيء زيد لا عمرو. ثم إنَّ النفي فيما يجيء فيه النَّفْيُ يتقدَّم تارةً ويتأخَّرُ أخرى، فمثال التأخير ما تراه في قولك: إنما يجيء زيد لا عمرو. وكقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ [الغاشية: ٢١-٢٢]. وكقول لبيد^(١):

❁ إنما يَجْزِي الفَتَى لَيْسَ الْجَمَلُ ❁

(١) لبيد بن ربيعة العامري، ديوانه: ١٧٩ من قصيدة في رثاء أخيه أريد. وتعام البيت:

فلإذا جُوزيت قرضاً فاجزه إنما يَجْزِي الفَتَى لَيْسَ الْجَمَلُ

ومعناه: أن الذي يجزي بما يعامل به من حسن أو قبيح هو الإنسان لا البهيمة.

- والعرب تقول للجاهل: يا جَمَل!

ومثال التقديم قولك: ما جاءني زيد وإنما جاءني عمرو. وهذا مما أنت تعلم به مكان الفائدة فيها وذلك أنك تعلم ضرورة أنك لو لم تدخلها قلت: «ما جاءني زيد وجاءني عمرو» لكان الكلام مع من ظن أنهما جآك جميعاً وأن المعنى الآن مع دخولها أن الكلام مع من غلط في عين الجاني فظن أنه كان زيداً لا عمراً.

وأمر آخر وهو ليس ببعيد أن يظن الظان أنه ليس في انضمام «ما» إلى «إن» فائدة أكثر من أنها تبطل عملها حتى ترى التحوين لا يزيدون في أكثر كلامهم على أنها كافة. ومكانها ها هنا يزيل هذا الظن ويبطله، وذلك أنك ترى أنك لو [١١٤ ب] قلت: ما جاءني زيد وإن عمراً جاءني؛ لم يعقل منه أنك أردت أن الجاني عمرو لا زيد، بل يكون دخول إن كالشيء الذي لا يحتاج إليه^(١) ووجدت المعنى ينبو عنه.

ثم اعلم أنك إذا استقرت وجدتها أقوى ما تكون وأعلق ما ترى بالقلب إذا كان لا يراد بالكلام بعدها نفس معناه، ولكن التعريض بأمر هو مقتضاه، نحو أنا نعلم أن ليس الغرض من قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَذْكُرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الرعد: ١٣/١٩]^(٢) أن يعلم السامعون ظاهر معناه، ولكن أن يذم الكفار وأن يقال إنهم من فرط العناد ومن غلبة الهوى عليهم في حكم من ليس بذي عقل وإنكم إن طمغتم منهم في أن ينظروا ويتذكروا كنتم كمن طمع في ذلك من غير أولي الأبواب. وكذلك قوله: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَّنْ يَخْشَاهَا﴾ [النازعات: ٧٩/٤٥] وقوله عز اسمه: ﴿إِنَّمَا نُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ [فاطر: ٣٥/١٨]^(٣) المعنى على أن من لم تكن له

(١) إليه: سقطت من (أ).

(٢) والآية الكريمة: ﴿أَمَّنْ يَمْلِكُ أَنْتَا أَنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْقُرْآنَ كَنُ هُوَ أَحَقُّ بِأَنْ يَذْكُرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾.

(٣) والآية الكريمة: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جِهِيلٍ لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾.

هذه الحُشْيَةُ فهو كأنه ليس له أذُنٌ تسمعُ وقلْبٌ يَعْقِلُ فالإنذارُ معه كلا إنذار. ومثال ذلك من الشعر قوله^(١):

أنا لَمْ أَرْزُقْ مُحَبَّتَهَا^(٢) إِنَّمَا لِلْعَبْدِ مَا رُزِقَا

الغرضُ أن يفهمَكَ من طريقِ التَّعْرِيضِ أنه قد صارَ يَنْصَحُ نَفْسَهُ ويعلمُ أنه يَنْبَغِي له أن يقطعَ الطَّمَعِ من وصلِها ويَنَاسَ من أن يكونَ منها إسعافُ. ومن ذلك قوله^(٣):

❁ وَإِنَّمَا يَعْذُرُ الْعُشَّاقُ مَنْ عَشِقَا ❁

يقولُ إنه ليس ينبغي للعاشقِ أن يلومَ من يَلُومُهُ في عشقِهِ وأنه ينبغي أن لا يُنكَرَ ذلك منه فإنه لا يَعْلَمُ كنهَ البلوى في العِشْقِ ولو كان ابتلي به لَعَرَفَ ما هو فيه فَعَذَرَهُ. وقوله^(٤):

ما أنتَ بالسَّبَبِ الضَّعِيفِ وَإِنَّمَا نُجْحُ الْأُمُورِ بِقُوَّةِ الْأَسْبَابِ

فاليومَ حَاجَتُنَا إِلَيْكَ وَإِنَّمَا يُدْعَى الطَّبِيبُ لِسَاعَةِ الْأَوْصَابِ

يقولُ في البيت الأول: إنه ينبغي أن أَنجَحَ في أمري حينَ جعلتُكَ السَّبَبَ إليه. ويقولُ في الثاني [١١٥]: إِنَّا قد وَضَعْنَا الشَّيْءَ في مَوْضِعِهِ، وطلبنا الأمرَ من جِهَتِهِ حينَ اسْتَعْنَا بك فيما عَرَضَ من الحاجة، وعَوَّلْنَا على فَضْلِكَ كما أَنَّ مَنْ عَوَّلَ على الطَّبِيبِ فيما يَعْرِضُ له من السُّقْمِ كان قد أَصَابَ بالتعويلِ مَوْضِعَهُ وطلبَ الشَّيْءَ من مَعْدِنِهِ.

(١) يعني العباس بن الأحنف، ديوانه (دار صادر): ٢١٧

(٢) في (ب): مَوَدَّتْهَا.

(٣) قال المراهي: إنه العباس أيضاً وأنَّ صدره:

يلومُ في الحُبِّ مَنْ لَمْ يَدْرِ صَمَّ الْهَوَى وَإِنَّمَا يَعْذُرُ الْعُشَّاقُ مَنْ عَشِقَا

(٤) هو أبو الحسن علي بن الحسن بن علي بن أبي الطيب الباخري السنجي، صاحب دمية القصر وعصرة أهل العصر وهو كتاب تراجم.

- وفيات الأعيان ٣/ ٣٨٧، ومعجم الأدباء ١٣/ ٣٣، والبيتان في معجم الأدباء ١٣/ ٣٦ وفي الحاشية أنَّهما للزبير بن بكار يقولهما للفتح بن خاقان أمَّا في أصل المعجم فهما للباخري.

ثم إن العَجَبَ في أنَّ هذا التعريضَ الذي ذكرْتُ لك لا يحصلُ من دُونِ «إنما» فلو قلتَ: يتذكَّرُ أولو الألبابِ؛ لم يدلَّ على ما دلَّ عليه في الآية وإنَّ كان الكلامُ لم يتغيَّرَ في نفسه وليس إلَّا أنه ليس فيه «إنما» والسَّبَبُ في ذلك أن هذا التعريضَ إنما وقعَ بأن كان من شأنِ إنما أن تضمَّنَ الكلامُ معنى النفي من بُعدِ الإثباتِ والتصريحِ بامتناعِ التذكُّرِ ممن لا يَغْفِلُ وإذا أُسْقِطَتْ من الكلامِ ف قيل: يتذكَّرُ أولو الألبابِ. كان مجردَ وصفٍ لأولي الألبابِ بأنهم يتذكَّرون، ولم يَكُنْ فيه معنى نفيٍ للتذكُّرِ عَمَّنْ ليس منهم، ومحالٌّ أن يقعَ تعرضٌ لشيءٍ ليس له في الكلامِ ذكرٌ ولا فيه دليلٌ عليه، فالتعريضُ بمثلِ هذا أعني بأن يقولَ: يذكُرُ أولو الألبابِ بإسقاطِ «إنما» يقعُ إذن إنَّ وقعَ بمدحِ إنسانٍ بالتيقُّظِ وبأنه فعلٌ ما فعل وتنبه لما تنبَّه له لعقله ولحسنِ تمييزه كما يقال: كذلك يفعلُ العاقلُ وهكذا يفعلُ الكريم. وهذا موضعٌ فيه دقةٌ وغموضٌ وهو مما لا يكادُ يقعُ في نفسِ أحدٍ أن ينبغي أن يُتعرَّفَ سببُهُ ويُبحثَ عن حقيقة الأمرِ فيه.

ومما يجبُ لك أن تجعله على ذكرٍ منك من معاني «إنما» ما عرَّفْتُكَ أولاً من أنها قد تدخلُ في الشيء على أن يُخَيَّلَ فيه المتكلِّمُ أنه معلومٌ ويدَّعي أنه من الصحة بحيث لا يدفعه دافعُ كقوله^(١):

❁ إنما مُصْعَبٌ شَهَابٌ مِنَ اللَّهِ ... ❁

ومن اللطيف في ذلك قولُ قَتَبَ بنِ حِصْنٍ^(٢):

(١) عبيد الله بن قيس الرقيات. والبيت بتمامه (ديوانه: ٩١):

إنَّما مصعبُ شهابٍ مِنَ اللَّهِ تجلَّتْ عن وجهه الظلماءُ

(٢) البيت في الوحشيات: ٩٩ لأبي حَرَجَةَ الفزاري، وفي أصولنا: «قَسَ بنِ حصن».

وفي معجم الشعراء للمرزباني: ٢٢٥ نسبها لقتب بن حصن من بني شمع بن فزارا برواية عمر بن شبة ورويت لغيره. وفي الأمالي ٢٥٨/١ ثلاثة أبيات بلا نسبة. وقال البكري في اللآلئ ٥٧٦/١: الشعر لبعض بني فزارة يقوله في الحرب التي كانت بينهم وبين كلب. وهي في الأغاني ١٣٦/١٩ والرواية في الأغاني: «أجذت بسير إنما أنت حالم».

أَلَا أَيُّهَا النَّاهِي فَرَارَةٌ بَعْدَمَا أَجَدَّتْ لِيَغْزُوا إِنَّمَا أَنْتَ حَالِمٌ

ومن ذلك قوله (تعالى) حكايةً عن اليهود: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١١/٢] [١٥٥ ب] دخلت «إنما» لتدلّ على أنّهم حين ادّعوا لأنفسهم أنهم مُصْلِحُونَ أظهروا أنهم يدّعون من ذلك أمراً ظاهراً معلوماً وكذلك^(١) أكّد الأمر في تكذيبهم والردّ عليهم فجمع بين «ألا» الذي هو للتنبيه وبين «إن» الذي هو للتأكيد فقليل: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٢/٢].



(١) في (ط): معلوماً لذلك.

فصل

لِفي «المحاكاة» و «النظم»

اعلم أنه لا يصح^(١) تقدير الحكاية في النظم والترتيب، بل لن تعدو الحكاية الألفاظ وأجراس الحروف وذلك أن الحاكّي هو من يأتي بمثل ما أتى به المَحْكِي عنه، ولا بد أن تكون حكايته فعلاً له وأن يكون بها عاملاً عملاً مثل عمل المحكّي عنه، نحو أن يصوغ إنسان خاتماً فيبدع فيه صنعة ويأتي في صناعته بخاصة تستغرب، فيعمد واحد آخر فيعمل خاتماً على تلك الصورة والهيئة ويجيء بمثل صنعة فيه ويؤديها كما هي فيقال عند ذلك: إنه قد حكى عمل فلان وصنعة فلان. والنظم والترتيب في الكلام كما بيّنا عمل يعمل مؤلف الكلام في معاني الكلم لا في ألفاظها وهو بما يصنع في سبيل من يأخذ الأصباغ المختلفة فيتوخى فيها ترتيباً يحدث عنه ضرب من النقش والوشي. وإذا كان الأمر كذلك فإننا إن تعدّينا بالحكاية الألفاظ إلى النظم والترتيب أذى ذلك إلى المحال وهو أن يكون المنشد شعر امرئ القيس قد عمل في المعاني وترتيبها واستخراج النتائج والفوائد مثل عمل امرئ القيس، وأن يكون حاله إذا أنشد قوله^(٢):

فَقُلْتُ لَهُ لَمَّا تَمَطَّى بِضَلْبِهِ وَأَزْدَتْ أَعْجَازاً وَنَاءً بَکْکَلِ

(١) في (ط): اعلم أنه لا يصلح.

(٢) ديوان امرئ القيس: ١٨١

حَالِ الصَّائِغِ: يَنْظُرُ إِلَى صُورَةٍ قَدْ عَمِلَهَا صَائِغٌ، مِنْ ذَهَبٍ لَهُ أَوْ فِضَّةٍ فَيَجِيءُ بِمِثْلِهَا فِي^(١) ذَهَبِهِ وَفِضَّتِهِ، وَذَلِكَ يَخْرُجُ بِمِرْتَكَبٍ إِنْ ارْتَكَبَهُ إِلَى أَنْ يَكُونَ الرَّائِي مُسْتَحَقًّا لِأَنْ [١١٦] يَوْصَفَ بِأَنَّهُ اسْتَعَارَ وَشَبَّهَ وَأَنْ يُجْعَلَ كَالشَّاعِرِ فِي كُلِّ مَا يَكُونُ بِهِ نَازِمًا، فَيَقَالُ إِنَّهُ جَعَلَ هَذَا فَاعِلًا وَذَاكَ مَفْعُولًا، وَهَذَا مَبْتَدَأٌ وَذَاكَ خَبَرٌ وَجَعَلَ هَذَا حَالًا وَذَاكَ صِفَةً، وَأَنْ يَقَالُ: نَفَى كَذَا وَأَثْبَتَ كَذَا وَأَبْدَلَ كَذَا مِنْ كَذَا وَأَضَافَ كَذَا إِلَى كَذَا - وَعَلَى هَذَا السَّبِيلِ، كَمَا يَقَالُ ذَاكَ فِي الشَّاعِرِ. وَإِذَا قِيلَ ذَاكَ لَزِمَ مِنْهُ أَنْ يُقَالُ فِيهِ: صَدَقَ وَكَذَبَ، كَمَا يَقَالُ فِي الْمَحْكِيِّ عَنْهُ، وَكَفَى بِهِذَا بُعْدًا وَإِحَالَةً. وَيَجْمَعُ هَذَا كُلَّهُ أَنَّهُ يَلْزَمُ مِنْهُ أَنْ يُقَالُ إِنَّهُ قَالَ شِعْرًا كَمَا يَقَالُ فِيمَنْ حَكَى صَنْعَةَ الصَّائِغِ فِي^(٢) خَاتَمٍ قَدْ عَمِلَهُ: إِنَّهُ قَدْ صَاغَ خَاتَمًا.

وَجُمْلَةُ الْحَدِيثِ أَنَّا نَعْلَمُ ضَرُورَةَ أَنَّهُ لَا يَتَأْتَى لَنَا أَنْ نَنْظِمَ كَلَامًا مِنْ غَيْرِ رَوِيَّةٍ وَفَكَّرَ فَإِنْ كَانَ رَائِي الشَّعْرِ وَمُنْشِدُهُ يَحْكِي نَظْمَ الشَّاعِرِ عَلَى حَقِيقَتِهِ فَيَنْبَغِي أَنْ لَا يَتَأْتَى لَهُ رَوَايَةُ شِعْرِهِ إِلَّا بِرَوِيَّةٍ وَإِلَّا بِأَنْ يَنْظَرَ فِي جَمِيعِ مَا نَظَرَ فِيهِ الشَّاعِرُ مِنْ أَمْرِ النِّظْمِ، وَهَذَا مَا لَا يَبْقَى مَعَهُ مَوْضِعٌ عَذْرٍ لِلشَّاكِّ.

هَذَا وَسَبَبُ دُخُولِ الشَّبَهَةِ عَلَى مَنْ دَخَلَ عَلَيْهِ أَنَّهُ لَمَّا رَأَى الْمَعْنِي لَا تَتَجَلَّى لِلْسَامِعِ إِلَّا مِنَ الْأَلْفَاظِ وَكَانَ لَا يَوْقِفُ عَلَى الْأُمُورِ الَّتِي بَتَوَخُّيْهَا يَكُونُ النِّظْمُ إِلَّا بِأَنْ يَنْظَرَ إِلَى الْأَلْفَاظِ مُرْتَبَةً عَلَى الْأَنْحَاءِ الَّتِي يَوْجِبُهَا تَرْتِيبُ الْمَعْنِي فِي النَّفْسِ وَجَرَتْ الْعَادَةُ بِأَنْ تَكُونَ الْمَعَامِلَةُ مَعَ الْأَلْفَاظِ فَيَقَالُ: قَدْ نَظَّمَ الْأَفَاطُ فَأَحْسَنَ نَظْمَهَا وَأَلَّفَ كَلِمًا فَأَجَادَ تَأْلِيفَهَا - جَعَلَ الْأَلْفَاظَ الْأَضْلَ فِي النِّظْمِ وَجَعَلَهُ يَتَوَخَّى^(٣) فِيهَا أَنْفُسَهَا، وَتَرَكَ أَنْ يَفْكَرَ فِي الَّذِي بَيْنَاهُ مِنْ أَنْ النِّظْمَ هُوَ تَوَخَّى مَعْنِي النِّحْوِ فِي مَعْنِي الْكَلِمِ وَأَنْ تَوَخَّيْهَا فِي مَتُونِ الْأَلْفَاظِ مُحَالٌ. فَلَمَّا جَعَلَ هَذَا فِي نَفْسِهِ وَنَسَبَ هَذَا الْإِعْتِقَادُ بِهِ خَرَجَ لَهُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ الْحَاكِي إِذَا أَدَّى الْأَفَاطَ الشَّعْرَ عَلَى النَّسْقِ الَّذِي سَمِعَهَا عَلَيْهِ كَانَ قَدْ حَكَى نَظْمَ الشَّاعِرِ

(١) فِي (ط): بِمِثْلِهَا مِنْ ذَهَبِهِ وَفِضَّتِهِ.

(٢) فِي (ط): حَكَى صَنْعَةَ الصَّائِغِ مِنْ خَاتَمٍ قَدْ عَمِلَهُ.

(٣) فِي (ط): يَتَوَخَّى، بِالْبِنَاءِ لَمَّا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ.

كما حكى لفظه. وهذه شبهة قد ملكت قلوبَ الناس وعشّشت في صدورهم وتشربتها نفوسُهم، حتى إنك لترى كثيراً منهم وهو^(١) من حلولها عندهم محلّ العلم الضروري بحيث [١١٦ ب] إن أومات له إلى شيء مما ذكرناه اشماًز لك، وسكّ سمعه دونك، وأظهر التعجب منك، وتلك جريرة ترك النظر وأخذ الشيء من غير معدنه، ومن الله التوفيق.



(١) في (ط): وهي من حلولها.

فصل

لِيَفِي أَنْ جَوْهَرُ الْإِبْدَاعِ هُوَ تَوْخِي النِّظْمِ

اعلم أنا إذا أضفنا الشعرَ أو غير الشعر من ضروب الكلام إلى قائله لم تكن إضافتنا له من حيث هو كَلِمٌ وأوضاع لغة ولكن من حيث تَوْخِي فيها النظم الذي بينا أنه عبارة عن تَوْخِي معاني النحو في معاني الكلم وذاك أن من شأن الإضافة الاختصاص فهي تتناول الشيء من الجهة التي يختصُّ منها بزيد وهو كونه مملوكاً. وإذا كان^(١) الأمرُ كذلك فينبغي لنا أن ننظرَ في الجهة التي يختصُّ منها الشعرُ بقائله وإذا نظرنا وجدناه يختصُّ به من جهة تَوْخِيهِ في معاني الكلم التي ألفه منها ما تَوخَّاه من معاني النحو، ورأينا أنفسَ الكلم بمعزِلٍ عن الاختصاص، ورأينا حالها معه حال الإبريسم مع الذي يَنْسِجُ منه الديباجُ، وحال الفضة والذهب مع من يصوغُ منهما الحُلِيَّ، فكما لا يشبه الأمرُ في أن الديباجَ لا يختصُّ بِنَاسِجِهِ من حيث الإبريسم والحُلِيَّ بصائغها من حيث الفضة والذهب ولكن من جهة العلم والصناعة، كذلك ينبغي أن لا يشتهيه أنَّ الشعرَ لا يختصُّ بقائله من جهة أنفسِ الكلم وأوضاع اللغة. ويزداد تبييناً لذلك بأن ينظر في القائل إذا أضفته إلى الشعر فقلت: امرؤ القيس قائلُ هذا الشعر: من أين جعلته قائلاً له؟ أم من حيث نطق بالكلم وسمعت ألقاؤها من فيه أم من حيث صنع

(١) في (أ): وإن كان الأمر كذلك.

في معانيها ما صنعَ وتوَحَّى فيها ما توَحَّى؟ فإن زعمتَ أنك جعلته قائلاً له من حيثُ إنه نطق بالكلم وسَمِعَتْ ألفاظُها من فيه على النسقِ المخصوص فاجعل^(١) راويَ الشعر قائلاً له فإنه ينطقُ بها ويخرجُها من فيه [١١٧ أ] على الهيئة والصورة التي نطقَ بها الشاعر، وذلك ما لا سبيل لك إليه. فإن قلتَ: إن الراوي وإن كانَ نطقَ بالفاظِ الشعرِ على الهيئة والصورة التي نطقَ بها الشاعرُ فإنه لم يبتدئ فيها النسقَ والترتيبَ وإنما ذلك شيءٌ ابتدأه الشاعرُ فلذلك جعلته القائلَ له دونَ الراوي. قيل لك: خبرنا عنك أترى أنه يتصورُ أن يجب لألفاظِ الكلم التي تراها في قوله^(٢):

❁ قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل ❁

هذا الترتيبُ من غير أن يتوَحَّى في معانيها ما تعلم أن امرأ القيس توخاه من كون «نبك» جواباً للأمرِ وكون «من» معدية له إلى «ذكرى» وكون «ذكرى» مضافة إلى «حبيب» وكون «منزل» معطوفاً على «حبيب» أم ذلك محال؟ فإن شككتَ في استحالة لم تُكَلِّمْ، وإن قلتَ: نعم هو محالٌ. قيل لك: فإذا كان محالاً أن يجبَ في الألفاظ ترتيب من غير أن يتوَحَّى في معانيها معاني النحو كان قولك: «إن الشاعرَ ابتدأ فيها ترتيباً» قولاً بما لا يتحصَّل؟

وجملة الأمرِ أنه لا يكونُ ترتيبٌ في شيءٍ حتَّى يكونَ هناك قصدٌ إلى صورةٍ وصنعةٍ إن لم يُقدِّم فيه ما قدِّم ولم يؤخِّر ما أخَّر وبُدئ بالذي تُنِّي به أو تُنِّي بالذي ثلث به لم تحصل لك تلك الصورة وتلك الصنعة^(٣) وإذا كان كذلك فينبغي أن ينظر إلى الذي يقصدُ واضعُ الكلام أن يحصلَ له من الصورة والصنعة أفي الألفاظ يحصلُ له ذلك أم في معاني^(٤) الألفاظ؟ وليس في الإمكان أن

(١) في (أ): ما جعل.

(٢) ديوان امرئ القيس: ٨، وتام البيت:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

(٣) في (ط): وتلك الصنعة.

(٤) في (ط): أم من معاني الألفاظ.

يَشْكُ عَاقِلٌ إِذَا نَظَرَ أَنَّ لَيْسَ ذَلِكَ فِي الْأَلْفَاظِ وَإِنَّمَا الَّذِي يَتَصَوَّرُ أَنَّ يَكُونَ
مَقْصُوداً فِي الْأَلْفَاظِ هُوَ الْوِزْنُ وَلَيْسَ هُوَ مِنْ كَلَامِنَا فِي شَيْءٍ لِأَنَّا نَحْنُ
فِي مَا لَا يَكُونُ الْكَلَامُ كَلَاماً إِلَّا بِهِ وَلَيْسَ لِلْوِزْنِ مَدْخَلٌ فِي ذَلِكَ.



فصل

[في مناقشة من يفرد اللفظ عن المعنى]

واعلم أنني على طول ما أعدت وأبدأت وقلت وشرحت في هذا الذي قام في أوهام الناس من حديث اللفظ لربما [١١٧ ب] ظننت أنني لم أصنع شيئاً وذاك أنك ترى الناس كأنه قد قضي عليهم أن يكونوا في هذا الذي نحن بصدده على التقليد البحت وعلى التوهم والتخيل. وإطلاق اللفظ من غير معرفة بالمعنى قد صار ذاك الدأب والديدن واستحكم الداء منه الاستحكام الشديد. وهذا الذي بيناه وأوضحناه كأنك ترى ابداً حجاباً بينهم وبين أن يعرفوه، وكأنك تسمعهم منه شيئاً تلفظه أسماعهم! وتنكره نفوسهم، وحتى كأنه كلما كان الأمر أبين، وكانوا عن العلم به أبعد، وفي توهم خلافه أقعد، وذاك لأن الاعتقاد الأول قد نشب في قلوبهم وتأشب فيها ودخل بعروقه في نواحيها، وصار كالنبات السوء الذي كلما قلعتة عاد فنبت. والذي له صاروا كذلك أنهم حين رأوهم يفردون اللفظ عن المعنى ويجعلون له حسناً على حدة ورأوهم قد قسموا الشعر فقالوا: إن منه ما حسن لفظه ومعناه، ومنه ما حسن لفظه دون معناه، ومنه ما حسن معناه دون لفظه^(١)، ورأوهم يصفون اللفظ بأوصاف لا يصفون بها المعنى ظنوا أن للفظ من حيث هو لفظ حسناً ومزيةً وتبلاً وشرفاً، وأن الأوصاف التي نحلوه

(١) انظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ٦٤/١ وما بعدها.

إياها هي أوصافه على الصحة وذهبوا عما قَدَّمنا شرحه من أن لهم في ذلك رأياً وتديبراً وهو أن يفصلوا بين المعنى الذي هو الغرض وبين الصورة التي يخرج فيها، فنسبوا ما كان من الحُسْنِ والمزِيَّةِ في صورة المعنى إلى اللفظ ووصفوه في ذلك بأوصافٍ هي تخيرٌ عن أنفسِها أنها ليست له، كقولهم إنه حَلِي المعنى، وإنه كالوُشِي عليه، وإنه قد كَسَبَ المعنى دَلَّاً وشُكَّلاً^(١)، وإنه رَشِيقٌ أُنِيقٌ، وأنه متمكِّنٌ، وأنه على قَدَرِ المعنى لا فاضل ولا مقصَّرٌ، إلى أشباه ذلك مما لا يشكُّ أنه لا يكونُ وصفاً له من حيث هو لفظ وصَدَى صوتٍ، إلا أنهم كأنهم رأوا [١١٨] بَسْلاً^(٢) حراماً أن يكون لهم في ذلك فكرٌ ورويةٌ وأن يميِّزوا فيه قَبِيلاً من دبير.

ومما الصفة فيه للمعنى وإن جرى في ظاهر المعاملة على اللفظ إلا أنه يبعد عند الناس كلَّ البعد أن يكون الأمر فيه كذلك وأن لا يكون من صفة اللفظ بالصحة والحقيقة وصفنا اللفظ بأنه مجازٌ. وذاك أن العادة قد جرث بأن يقال في الفرق بين الحقيقة والمجاز إن الحقيقة أن يُقَرَّ اللفظ على أضله في اللغة، والمجاز أن يُزالَ عن موضعه ويستعمل في غير ما وُضِعَ له فيقال أسدٌ ويراد شجاعٌ، ويحرٌ ويراد جوادٌ. وهو وإن كان شيئاً قد استحكَمَ في النفوس حتى إنك ترى الخاصة فيه كالعامية فإن الأمر بَعْدُ [فيه]^(٣) على خلافه. وذاك أنا إذا حَقَّقْنَا لم نجد لفظَ أسدٍ قد استعمل على القطع والبت في غير ما وضع له. ذاك لأنه لم يجعل في معنى شجاع على الإطلاق ولكن جعل الرجل بشجاعته أسداً فالتجوزُ في أن ادعيت للرجل أنه في معنى الأسد وأنه كأنه هو في قوة قلبه وشدة بطشه وفي أن الخوف لا يخامرُه والدُّعْرُ لا يعرضُ له، وهذا - إن أنت حصلت - تجوز منك في معنى اللفظ لا اللفظ، وإنما يكون اللفظ مزالاً بالحقيقة عن

(١) الشُّكْلُ: بكسر الشين (وتُفتح). الدُّلُّ: القُنْج.

(٢) البَسْلُ: من الأضداد وهو الحرام والحلال، الواحد والجميع والمذكر والمؤنث في

ذلك سواء. اللسان: بسل.

(٣) فيه: سقطت من (أ).

موضعه ومنقولاً عما وضع له أن لو كنت تجد عاقلاً يقول: هو أسد، وهو لا يضمّر في نفسه تشبيهاً له بالأسد ولا يريد إلا ما يريده إذا قال هو شجاع. وذلك ما لا يُشكُّ في بطلانه.

وليس العَجَبُ إلا أنهم لا يذكرون شيئاً من المجازِ إلا قالوا: إنّه أبلغ من الحقيقة، فليت شعري إن كان لفظ أسد قد نُقِلَ عما وضع له في اللغة وأزيلَ عنه وجُعِلَ يُرادُ به الشجاع هكذا غفلاً ساذجاً فمن أين يجب أن يكون قولنا أسدٌ أبلغ من قولنا شجاع. وهكذا الحكمُ في الاستعارة هي وإن كانت في ظاهر المعاملة من صفة اللفظ وكنا نقول: هذه لفظة مستعارة وقد استعير له اسمُ الأسد. إن مآل الأمر إلى أن القصدَ بها إلى المعنى [١١٨ ب] يدلُّك على ذلك أنا نقول: جعله أسداً وجعله بدرأً وجعله بحرأً. فلو لم يكن القصدُ بها إلى المعنى لم يكن لهذا الكلام وجه لأن «جعل» لا تصلح إلا حيث يُراد إثباتُ صفةٍ للشيء كقولنا: جعلته أميراً وجعلته واحداً دهره. تريد أثبتُّ له^(١) ذلك. وحكمُ «جعل» إذا تعدّى إلى مفعولين حكمُ «صير» فكما لا تقول: صيرته أميراً إلا على معنى أنك أثبتَّ له صفةَ الإمارة كذلك لا يصحُّ أن تقولَ جعلته أسداً إلا على معنى أنك جعلته في معنى الأسد ولا يقال: جعلته زيداً. بمعنى سمّيته زيداً ولا يقال للرجل: اجعل ابنك زيداً، بمعنى سمّه زيداً، وولد لفلان ابن فجعله زيداً، وإنما يدخل الغلط في ذلك على من لا يحصل.

فأما قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِندَ الرَّحْمَنِ إِنثًا﴾ [الزخرف: ١٩/٤٣]^(٢) فإنما جاء على الحقيقة التي وصفتها، وذاك أن المعنى على أنهم أثبتوا للملائكة صفة الإناث واعتقدوا وجودها فيهم وعن هذا الاعتقاد صدر عنهم ما صدر من الاسم، أعني إطلاق اسم البنات. وليس المعنى أنهم وضعوا لها لفظ الإناث أو لفظ البنات اسماً من غير اعتقاد معنى وإثبات صفة. هذا

(١) في (ط): تريد أثبتُّ لك ذلك.

(٢) والآية الكريمة: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِندَ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾.

محال لا يقوله عاقل، أما تسمع قول الله تعالى: ﴿أَشْهَدُوا خَلَقْنَاهُمْ سَتَكُنُّبُ شَهِدَتْهُمْ وَرُسُلُونُ﴾ [الزخرف: ١٩/٤٣] فإن كانوا لم يزيدوا على أن أجزوا الاسم على الملائكة ولم يعتقدوا إثبات صفة ومعنى بإجرائه عليهم فأَيُّ معنى لأن يقال: أشهدوا خلقهم. هذا ولو كانوا لم يقصدوا إثبات صِفَةٍ ولم يزيدوا على أن وضعوه اسماً لما استحقوا إلا اليسير من الذم، ولما كان هذا القول منهم كفراً، والأمر في ذلك أظهر من أن يخفى.

وجملة الأمر أنه إن قيل: إنه ليس في الدنيا علمٌ قد عرض للناس فيه من فحش الغلط ومن قبيح^(١) التورط من الذهاب مع الظنون الفاسدة ما عَرَضَ لهم في هذا الشأن ظننت أن لا يُخشى على من يقوله الكذب. وهل عَجَبٌ أعجب من قوم عقلاء يتلون [١١٩ أ] قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ لَّيْنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ [الإسراء: ٨٨/١٧]، ويؤمنون به ويدينون بأن القرآن معجزٌ، ثم يصدّون بأوجههم عن برهان الإعجاز ودليله، ويسلكون غير سبيله، ولقد جنّوا لو درّوا ذاك عظيماً.



(١) في (ط): ومن قبيل التورط.

فصل

[تحليلي للفظ والمعنى]

واعلم أنه وإن كانت الصورة في الذي أعدنا^(١)، وأبدأنا فيه من أنه لا معنى للنظم غير توخي معاني النحو فيما بين الكلم قد بلغت في الوضوح والظهور والانكشاف إلى أقصى الغاية وإلى أن تكون الزيادة عليه كالتكلف لما لا يحتاج إليه، فإن النفس تنازع إلى تتبع كل ضرب من الشبهة يرى أنه يعرض للمسلم نفسه عند اعتراض الشك وأنا لنرى أن في الناس من إذا رأى أنه يجري في القياس وضرب المثل أن تشبه الكلم في ضم بعضها إلى بعض بضم^(٢) غزل الإبريسم بعضه إلى بعض ورأى أن الذي ينسج الديباج ويعمل النقش والوشى لا يصنع بالإبريسم الذي ينسج منه شيئاً غير أن يضم بعضه إلى بعض ويتخير للأصباغ المختلفة المواقع التي يعلم أنه إذا أوقعها فيها حدث له في نسجه ما يريد من النقش والصورة جرى في ظنه أن حال الكلم في ضم بعضها إلى بعض وفي تخير المواقع لها حال خيوط الإبريسم سواء رأيت كلامه كلام من لا يعلم أنه لا يكون الضم فيها ضمّاً ولا الموقع موقعاً حتى يكون قد توخى^(٣) فيها معاني النحو، وأنت إن عمدت إلى ألفاظ فجعلت تتبع بعضها بعضاً من غير

(١) في (أ): في التي أعدنا وأبدأنا.

(٢) بضم: سقطت من (أ).

(٣) في (أ): قد توخى.

أن تتوَحَّى فيها معاني النحو لم تكن صَنَعَتْ شيئاً تدعى به مؤلفاً، وتشبّه معه بمن عَمِلَ نسجاً أو صَنَعَ على الجملة صنيعاً، ولم يتصوّر أن تكون قد تخيرت لها المواقع.

وفسادُ هذا وشيبهه من الظنِّ وإن كان معلوماً ظاهراً فإنَّ ههنا استدلالاً لطيفاً تكثر بسببه الفائدةُ وهو أنه يتصوّر أن يعمدَ عامد إلى نظمِ كلام بعينه فيزيله [١١٩] بـ] عن الصورة التي أرادها الناظم له ويفسدها عليه من غير أن يحوّل منه لفظاً عن موضعه أو يبدّله بغيره أو يغيّر شيئاً من ظاهر أمره على حال. مثال ذلك أنك إن قَدَرْتَ في بيت أبي تمام^(١):

لُعَابُ الْأَفَاعِي الْقَاتِلَاتِ لُعَابُهُ وَأَزْيُ الْجَنَى اشْتَارَتْهُ أَيْدٍ عَوَاسِلُ

أن «لعاب الأفاعي» مبتدأ و «لعابه» خبرٌ كما يوهمه الظاهر، أفسدت عليه كلامه وأبطلت الصورة التي أرادها فيه، وذلك أن الغرض أن يشبّه مدار قلمه بلعاب الأفاعي على معنى أنه إذا كتب في إقامة السياسات، وكذلك الغرض أن يشبه مداده بأزْي الجني على معنى أنه إذا كَتَبَ في العطايا والصلات أوصل به إلى النفوس ما تحلو مذاقته عندها، وأدخَلَ السرورَ واللذة عليها، وهذا المعنى إنما يكون إذا كان لعابه مبتدأ ولعابُ الأفاعي خبراً، فأما تقديرُك أن يكون «لعاب الأفاعي» مبتدأ و «لعابه» خبراً فيبطل ذلك ويمنع منه البتة ويخرج بالكلام إلى ما لا يجوز أن يكون مراداً في مثل غرضِ أبي تمام وهو أن يكون أراد أن يشبّه لعابَ الأفاعي بالمداد ويشبه كذلك الأري به، فلو كان حال الكلم في ضمّ بعضها إلى بعض كحال غزلِ الإبريسم لكان ينبغي أن لا تتغيّر الصورة الحاصلة من نظمِ كَلِمٍ حتى تُزَالَ عن مواضعها كما لا تتغير الصورة الحادثة عن ضمّ غزل الإبريسم بعضه إلى بعض حتى تُزَالَ الخيوط عن مواضعها.

واعلم أنه لا يجوز أن يكونَ سبيلُ قوله:

❁ لُعَابُ الْأَفَاعِي الْقَاتِلَاتِ لُعَابُهُ ❁

(١) ديوانه ١٢٣/٣ وقد سبق الاستشهاد به. الأري: العسل، اشتارته: استخرجته.

سبيل قولهم: «عتابك السيف». وذلك أن المعنى في بيت أبي تمام على أنك تشبه شيئاً بشيء لجامع بينهما في وصفٍ وليس المعنى في: عتابك السيف على أنك تشبه عتابه بالسيف ولكن على أن تزعم أنه يجعل السيف بدلاً من العتاب. أفلا ترى أنه يصح أن تقول: مداد قلمه قاتل كسم الأفاعي. ولا يصح أن تقول: عتابك [١٢٠] كالسيف، اللهم إلا أن تخرج إلى باب آخر وشيء ليس هو غرضهم بهذا الكلام فتريد أنه قد عاتب عتاباً خشناً مظلماً. ثم إنك إن قلت: السيف عتابك خرجت به إلى معنى ثالث، وهو أن تزعم أن عتابه قد بلغ في إيلاجه وشدة تأثيره مبلغاً صار له السيف كأنه ليس بسيف.

واعلم أنه إن نظرنا نظراً في شأن المعاني والألفاظ إلى حال السامع فإذا رأى المعاني تقع في نفسه من بعد وقوع الألفاظ في سمعه ظنَّ لذلك أن المعاني تبع للألفاظ في ترتيبها فإن هذا الذي بيناه يريه فساد هذا الظن. وذلك أنه لو كانت المعاني تكون تبعاً للألفاظ في ترتيبها، لكان محالاً أن تتغير المعاني والألفاظ بحالها لم تزل عن ترتيبها، فلما رأينا المعاني قد جاز فيها التغير من غير أن تتغير الألفاظ وتزول عن أماكنها علمنا أن الألفاظ هي التابعة والمعاني هي المتبوعة.

واعلم أنه ليس من كلام يعمد واضعه فيه إلى معرفتين فيجعلهما مبتدأ وخبراً ثم يقدم الذي هو الخبر إلا أشكل الأمر عليك فيه فلم تعلم أن المقدم خبر حتى ترجع إلى المعنى وتحسن التدبر. أنشد الشيخ أبو علي في التذكرة^(١):

﴿نَمْ وَإِنْ لَمْ أَنْمِ كَرَايَ كَرَاكَ﴾

ثم قال: ينبغي أن يكون «كراي» خبراً مقدماً ويكون الأصل «كراك كراي» أي نم وإن لم أنم فنوئك نومي، كما تقول: قم وإن جلست فقيامك قيامي هذا

(١) هو أبو علي الفارسي، والتذكرة من أشهر كتبه.

أما ما أنشده فهو شطرييت لأبي تمام، تمامه كما في الديوان ٢٤٨/٤:

نَمْ فَإِنْ لَمْ أَنْمِ كَرَايَ كَرَاكَ شاهداً منك أن ذاك كذا

هو عُرِف الاستعمال في نحوه (ثم قال) وإذا كان كذلك فقد قَدَّمَ الخبر وهو معرفة وهو ينوي به التأخير من حيث كان خبراً (قال) فهو كبيت الحماسة^(١):

بَنُونَا بَنُو أَبْنَائِنَا وَبَنَائِنَا بَنُوهُنَّ أَبْنَاءُ الرِّجَالِ الْأَبَاعِدِ

فقدم خبر المبتدأ وهو معرفة وإنما دلَّ على أنه ينوي التأخير المعنى، ولولا ذلك لكانت المعرفة إذا قَدِّمَتْ هي المبتدأ لتقدّمها فافهم ذلك. هذا كله لفظه.

واعلم أن الفائدة تعظم في [١٢٠ ب] هذا الضرب من الكلام إذا أنت أحسنت النظر فيما ذكرت لك من أنك تستطيع أن تنقل الكلام في معناه عن صورة إلى صورة من غير أن تغَيِّر من لفظه شيئاً أو تحوّل كلمة عن مكانها إلى مكان آخر وهو الذي وَسَّع مجال التأويل والتفسير حتى صاروا يتأولون في الكلام الواحد تأويلين أو أكثر ويفسرون البيت الواحد عدّة تفاسير وهو على ذاك الطريق المُرْزَلَة الذي ورّط كثيراً من الناس في الهلكة، وهو مما يعلم به العاقل شدة الحاجة إلى هذا العلم وينكشف معه عوار الجاهل به ويُفْتَضِّحُ عنده المظهر الغنى عنه. ذاك لأنه قد يُدْفَع إلى الشيء لا يصحّ إلا بتقدير غير ما يُريه^(٢) الظاهر ثم لا يكون له سبيل إلى معرفة ذلك التقدير إذا كان جاهلاً بهذا العلم فيتسكّع عند ذلك في العمى ويقع في الضلال. مثال ذلك أن من نظر إلى قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء: ١٧/ ١١٠]^(٣) ثم لم يعلم أن ليس المعنى في (ادعو) الدعاء ولكن الذكر بالاسم^(٤) كقولك: هو يُدْعَى زيداً ويدعى الأمير، وأن في الكلام محذوفاً، وأنَّ التقدير: قل ادعوه الله أو ادعوه الرحمن أيّاً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى. كان بغير أن

(١) الحماسة بشرح المرزوقي ٥٢٠/٢ بلا نسبة، ونسبه في الخزانة ٤٤٥/١ للفرزدق.

(٢) في (أ): يراه.

(٣) والآية الكريمة: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُهَا وَأَتَّبِعْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾.

(٤) ليس: سقطت من (أ).

يقع في الشُّرك من حيث إنه إن جرى في خاطره أنَّ الكلام على ظاهره خرج ذلك به والعيادُ بالله تعالى إلى إثبات مدعوين. تعالى عن أن يكون له شريك. وذلك من حيث كان محالاً أن تعتمد إلى اسمين كلاهما اسم شيء واحد فتعطف أحدهما على الآخر فتقول مثلاً: ادعُ لي زيدا الأمير - والأمير هو زيد - وكذلك محال أن تقول: «أيّاً تدعو»^(١) وليس هناك إلا مدعو واحد لأن من شأن (أي) أن تكون أبداً واحداً من اثنين أو جماعة ومن لم يكن له بُدٌ من الإضافة إما لفظاً وإما تقديرًا.

وهناك بابٌ واسع من المشكل فيه قراءةٌ من قرأ: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠/٩]^(٢) بغير [١٢١] تنوين^(٣) وذلك أنهم قد حملوها على وجهين أحدهما أن يكون القارئ له أراد التنوين ثم حذفه لالتقاء الساكنين ولم يحركه كقراءة من قرأ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ [الإخلاص: ١/١١٢-٢] بترك التنوين من (أحد) وكما حكى عن عُمارة بن عقيل أنه قرأ: ﴿وَلَا إِلِيلَ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ [يس: ٤٠/٣٦]^(٤) بالنصب فقيل له: ما تريد؟ فقال: أريد سابق النهار. قيل: فهلا قلته؟ فقال: فلو قلته لكان أوزن؛ وكما جاء في الشعر من قوله^(٥):

فَالْفَيْثَةُ غَيْرُ مُسْتَعْنِبٍ وَلَا ذَاكِرَ اللَّهِ إِلَّا قَلِيلًا

إلى نظائر ذلك فيكون المعنى في هذه القراءة مثله في القراءة الأخرى سواء. والوجه الثاني أن يكون الابنُ صفةً ويكون التنوين قد سقط على حد سقوطه في قولنا: جاءني زيد بن عمرو، ويكون في الكلام محذوف. ثم اختلفوا في المحذوف فمنهم من جعله مبتدأ فقدر «وقالت اليهود هو عزيرُ ابنُ الله» ومنهم

(١) في (ط): أيّاً ما تدعو.

(٢) والآية الكريمة: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَتَنَّا لَهُمُ اللَّهَ أَنَّى يُوقِفُونَ﴾.

(٣) انظر في معاني القرآن للفراء ٤٣١/١ - ٤٣٢

(٤) والآية الكريمة: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾.

(٥) هو أبو الأسود الدؤلي من قطعة في ديوانه: ١٢٢ - ١٢٣

من جَعَلَهُ خبراً فَقَدَرُ وقالت اليهود: «عزيرُ ابن الله معبودنا» وفي هذا أمر عظيم وذلك أنك إذا حَكَيْتَ عن قائل كلاماً أَنْتَ تريد أن تكذِّبه فيه فإن التكذيبَ ينصرفُ إلى ما كان فيه خبراً دون ما كان صفة. تفسيرُ هذا أنك إذا حَكَيْتَ عن إنسان أَنَّهُ قال: زيدُ بن عمرو سيِّدٌ، ثم كَذَّبْتَ فيه ولم تكن قد أنكرتَ بذلك أن يكون زيدُ بن عمرو ولكن أن يكونَ سيِّداً. وكذلك إذا قال: زيد الفقيه قد قَدِمَ [فقلت له: كَذَّبْتَ أو غلطتَ، لم تكن قد أنكرتَ أن يكونَ زيد فقيهاً ولكن أن يكون قد قدم] (١).

هذا ما لا شبهة فيه وذلك أنك إذا كَذَّبْتَ قائلاً في كلام أو صدقته فإنما ينصرف التكذيبُ منك والتصديقُ إلى إثباته ونفيه والإثبات والنفي يتناولان الخبرَ دونَ الصفة يدُلُّك على ذلك أنك تجد الصفة ثابتة في حال النفي كثبوتها في حال الإثبات فإذا قلتَ: ما جاءني زيد الظريف، كان الظرفُ ثابتاً لزيد كثبوته إذا قلتَ: جاءني زيد الظريف [١٢١ ب]، وذلك أن ليس ثبوتُ الصفة للذي هي صفة له بالمتكلم وبإثباته لها فتنتفي بنفيه وإنما ثبوتها بنفسها وبتقرر الوجود فيها عند المخاطب مثله عند المتكلم لأنه إذا وقعت الحاجة في العلم إلى الصفة كان الاحتياجُ إليها من أجل خِيفَةِ اللبس على المخاطب. تفسيرُ ذلك أنك إذا قلتَ: جاءني زيد الظريف فإنك إنما تحتاج إلى أن تصفَه بالظريف إذا كان فيمن يجيء إليك واحداً آخر يسمى زيدا فأنت تخشى إن قلتَ: جاءني زيد، ولم تقل (الظريف) أن يلتبس على المخاطب فلا يدري أهذا عنيت أم ذاك. وإذا كان الغرضُ من ذكر الصفة إزالةَ اللبس والتبيين كان محالاً أن تكونَ غير معلومة عند المخاطب وغيرَ ثابتة لأنه يؤدي إلى أن تروم تبيينَ الشيء للمخاطب بوصفٍ هو لا يعلمه في ذلك الشيء وذلك ما لا غايةَ وراءه في الفساد، وإذا كان الأمرُ كذلك كان جعلُ الابن صفة في الآية مؤدياً إلى الأمر العظيم وهو إخراجُه عن موضع النفي والإنكار، إلى موضع الثبوت والاستقرار، جلَّ الله تعالى عن شَبَه المخلوقين وعن جميع ما يقول الظالمون علواً كبيراً.

(١) ما بين معقوفتين سقط من (أ).

فإن قيل: إن هذه قراءةٌ معروفة والقول بجواز الوصفية في الابن كذلك معروف ومدون في الكتب وذلك يقتضي أن يكونوا قد عرفوا في الآية تأويلاً يدخل به الابن في الإنكار مع تقدير الوصفية فيه؛ قيل إن القراءة كما ذكرت معروفة والقول بجواز أن يكون الابن صفة مثبت مسطور في الكتب كما قلت ولكن الأصل الذي قدمناه من أن الإنكار إذا لحق الخبر دون الصفة ليس بالشيء الذي يعترض فيه شك أو تسلط عليه شبهة فليس يتجه أن يكون الابن صفة ثم يلحقه الإنكار مع ذلك إلا على تأويل غامض وهو أن يقال: إن الغرض الدلالة [١٢٢] على أن اليهود قد كان بلغ من جهلهم ورسوخهم في هذا الشرك أنهم كانوا يذكرون عزيزاً هذا الذكر، كما تقول في قوم تريد أن تصفهم بأنهم قد استهلكوا في أمر صاجبهم وغلوا في تعظيمه: إني أراهم قد اعتقدوا أمراً عظيماً فهم يقولون: أبداً زيد الأمير. تريد أنه كذلك يكون ذكرهم إذا ذكروه إلا أنه إنما يستقيم هذا التأويل فيه إذا أنت لم تقدّر له خبراً معيناً ولكن تريد أنهم كانوا لا يخبرون عنه بخبر إلا كان ذكرهم له هكذا.

ومما هو من هذا الذي نحن فيه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً انْتَهَوْا خَيْرًا﴾ [النساء: ١٧١/٤]^(١) وذلك أنهم قد ذهبوا في رفع ثلاثة إلى أنها خبر مبتدأ محذوف وقالوا: إن التقدير «ولا تقولوا آلهتنا ثلاثة» وليس ذلك بمستقيم وذلك أنا إذا قلنا^(٢): «ولا تقولوا آلهتنا ثلاثة» كان ذلك والعياذ بالله شبه الإثبات أن ههنا آلهة من حيث إنك إذا نفيت فإنما تنفي المعنى المستفاد من الخبر عن المبتدأ ولا تنفي معنى المبتدأ. فإذا قلت: ما زيد منطلقاً؛ كنت نفيت الانطلاق الذي هو معنى الخبر عن زيد ولم تنف معني زيد ولم توجب عدمه وإذا كان ذلك كذلك فإذا قلنا: «ولا تقولوا آلهتنا ثلاثة» كنا قد نفينا أن تكون عدة الآلهة

(١) والآية الكريمة: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً انْتَهَوْا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَكُمْ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾.

(٢) إذا: سقطت من (أ).

ثلاثة ولم ننّف أن تكون آلهة - جلّ الله تعالى عن الشريك والنظير - كما أنك إذا قلت: ليس أمراؤنا ثلاثة كنت قد نفيت أن تكون عدّة الأمراء ثلاثة ولم تنف أن يكون لكم أمراء، هذا ما لا شبهة فيه. وإذا أدّى هذا التقدير إلى هذا الفساد وجب أن يعدل عنه إلى غيره والوجه - والله أعلم - أن تكون (ثلاثة) صفة مبتدأ لا خبر مبتدأ ويكون التقدير «ولا تقولوا لنا آلهة ثلاثة أو في الوجود آلهة ثلاثة» ثم حذف [١٢٢ ب] الخبر الذي هو لنا أو في الوجود كما حذف من ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ و ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾ فبقي: ولا تقولوا آلهة ثلاثة ثم حذف الموصوف الذي هو آلهة فبقي «ولا تقولوا ثلاثة» وليس في حذف ما قدرنا حذفه ما يتوقف في صحته. أما حذف الخبر الذي قلنا إنه (لنا) أو (في الوجود) فمطرّد في كل ما معناه التوحيد ونفي أن يكون مع الله - تعالى عن ذلك - إله.

وأما حذف الموصوف بالعدد فكذلك شائع وذلك أنه كما يسوغ أن تقول: عندي ثلاثة، وأنت تريد ثلاثة أثواب ثم تحذف لعلمك أن السامع يعلم ما تريد كذلك يسوغ أن تقول: عندي ثلاثة، وأنت تريد (أثواب ثلاثة) لأنه لا فصل بين أن تجعل المقصود بالعدد مميزاً وبين أن تجعله موصوفاً بالعدد في أنه يحسن حذفه إذا عُلِم المراد. ويبيّن ذلك أنك ترى المقصود بالعدد قد ترك ذكره ثم لا تستطيع أن تقدره إلا موصوفاً وذلك في قولك: عندي اثنان وعندي واحد، يكون المحذوف ههنا موصوفاً لا محالة نحو: عندي رجلان اثنان وعندي درهم واحد. ولا يكون مميزاً البتة من حيث كانوا قد رفضوا إضافة الواحد والاثنين إلى الجنس فتركوا أن يقولوا: واحد رجلاً واثنان رجلاً، على حدّ «ثلاثة رجال» ولذلك كان قول الشاعر^(١):

❁ ظَرَفَ عَجُوزٍ فِيهِ ثِنْتَا حَنْظَلٍ ❁

شاذاً. هذا ولا يمتنع أن تجعل المحذوف من الآية في موضع التمييز دون

(١) البيت من شواهد سيبويه الكتاب ١٧٧/٢ ولم ينسبه وفي ٢٠٢/٢ قال إنه لبعض السعديين وروي لخطام المجاشعي. راجع شرح أبيات سيبويه ٣٦١/٢ ومعجم شواهد العربية لهارون ٥٢٤/٢

موضع الموصوف فتجعل التقدير «ولا تقولوا ثلاثة آلهة» ثم يكون الحكم في الخبر على ما مضى ويكون المعنى والله أعلم «ولا تقولوا لنا أو في الوجود ثلاثة آلهة».

فإن قلت: فلم صار لا يلزم على هذا التقدير ما لزم على قول من قدر «ولا تقولوا آلهتنا ثلاثة»؟ فذاك لأننا إذا جعلنا التقدير: «ولا تقولوا لنا أو في الوجود آلهة ثلاثة أو ثلاثة آلهة»، كنا قد نفينا الوجود عن الآلهة كما نفينا في «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»، و «وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ» وإذا زعموا أن التقدير «ولا تقولوا آلهتنا ثلاثة» كانوا قد نفوا أن تكون عدّة الآلهة ثلاثة ولم ينفوا وجود الآلهة [١٢٣] فإن قيل: فإن يلزم على تقديرك الفساد من وجه آخر وذاك أنه يجوز إذا قلت: «ليس لنا أمراء ثلاثة» أن يكون المعنى ليس لنا أمراء ثلاثة ولكن لنا أميران اثنان وإذا كان كذلك كان تقديرك وتقديرهم جميعاً خطأ. قيل: إن ههنا أمراً قد أغفلته وهو أن قولهم آلهتنا: يوجب ثبوت آلهة، جلّ الله تعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً. وقولنا: ليس لنا آلهة لا يوجب ثبوت اثنين البتة فإن قلت: إن كان لا يوجب فإنه لا ينفيه. فقيل: ينفيه ما بعده من قوله تعالى: «إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ» [النساء: ٤/ ١٧١] فإن قيل: فإنه كما ينفي الإلهين كذلك ينفي الآلهة وإذا كان كذلك وجب أن يكون تقديرهم صحيحاً كتقديرك قيل هو كما قلت ينفي الآلهة ولكنهم إذا زعموا أن التقدير «ولا تقولوا آلهتنا ثلاثة» وكان ذلك والعياد بالله من الشّرك يقتضي إثبات آلهة كانوا قد دفعوا هذا النفي وخالفوه وأخرجوه إلى المناقضة. فإذا^(١) كان كذلك كان محالاً أن يكون للصحة سبيل إلى ما قالوه وليس كذلك الحال فيما قدرناه لأننا لم نقدر شيئاً يقتضي إثبات إلهين - تعالى الله - حتى يكون حالنا حال من يدفع ما يوجب هذا الكلام من نفيهما. يبين لك ذلك أنه يصح لنا أن نتبع ما قدرناه نفي الاثنين ولا يصح لهم. تفسير ذلك أنه يصح أن تقول:

«ولا تقولوا لنا آلهة ثلاثة ولا إلهان» لأن ذلك يجري مجرى أن تقول: ليس لنا آلهة ثلاثة ولا إلهان وهذا صحيح. ولا يصح لهم أن يقولوا: «ولا تقولوا

(١) في (أ): وإذا.

آلهتنا ثلاثة ولا إلهان» لأنَّ ذلك يجري مجرى أن يقولوا: ولا تقولوا آلهتنا إلهان. وذلك فاسدٌ فاعرفه وأحسن تأمله.

ثم إنَّ ههنا طريقاً آخر وهو أن تقدّر: ولا تقولوا الله والمسيح وأمه ثلاثة. أي نعبدهما كما نعبد الله. يبيّن ذلك قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣/٥]^(١) [١٢٣ ب] وقد استقر في العُرف أنهم إذا أرادوا إلحاق اثنين بواحد في وصف من الأوصاف وأن يجعلوهما شبيهين له قالوا: هم ثلاثة. كما يقولون إذا أرادوا إلحاق واحدٍ بآخر وجعله في معناه: هما اثنان. وعلى هذا السبيل كأنهم يقولون: هم يُعَدُّون مَعْدَاً واحداً ويوجبُ لهم التساوي والتشارك في الصفة والرتبة وما شاكل ذلك.

واعلم أنه لا معنى لأن يُقال: إنَّ القول حكاية وإنه إذا كان حكاية لم يلزم منه إثباتُ الآلهة لأنه يجري مجرى أن تقول: «إنَّ من دين الكفار أن يقولوا الآلهة ثلاثة» وذلك لأن الخطاب في الآية للنصارى أنفسهم ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿يَتَأَهَّلَ الْكَتَّابُ لَا تَقُولُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَزُوَّجَ مِنْهُ فَذَامُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ١٧١/٤] وإذا كان الخطابُ للنصارى كان تقديرُ الحكاية محالاً ف «لا تقولوا» إذن في معنى: لا تعتقدوا، وإذا كان في معنى الاعتقاد لزم إذا قدر «ولا تقولوا آلهتنا ثلاثة» ما قلنا إنه يلزم من إثبات الآلهة وذلك لأن الاعتقاد يتعلّق بالخبر لا بالمخبر عنه. فإذا قلت: لا تعتقد أن الأمراء ثلاثة؛ كنت نهيت عن أن يعتدّ كونَ الأمراء على هذه العدة لا عن أن يعتدّ أن ههنا أمراء. هذا ما لا يشك فيه عاقلٌ، وإنما يكون النهي عن ذلك إذا قلت: لا تعتقد أن ههنا أمراء؛ لأنك حينئذٍ تصير كأنك قلت: لا تعتقد وجود أمراء. هذا ولو كان الخطابُ مع المؤمنين لكان تقديرُ

(١) والآية الكريمة: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَكَانَ مِنْ إِلَهِ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

الحكاية لا يصح أيضاً. ذاك لأنه لا يجوز أن يقال: إن المؤمنين نهوا عن أن يحكوا عن النصارى مقالتهن ويخبروا عنهم بأنهم يقولون كيت وكيت، كيف وقد قال [١٢٤] الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرُ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ ومن أين يصح النهي عن حكاية قول المُبطل وفي ترك حكايته وترك له وكفره وامتناع من النّعي عليه والإنكار لقوله والاحتجاج عليه وإقامة الدليل على بطلانه، لأنه لا سبيل إلى شيء من ذلك إلا من بعد حكاية القول، والإفصاح به فاعرفه.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فصل

في الإعجاز واللفظ والمعنى

قد أردنا أن نستأنف تقريراً نزيد به الناس تبصيراً أنهم في عبياء من أمرهم حتى يسلوكوا المسلك الذي سلكناه، ويُفرغوا خواطرهم لتأمل ما استخرجناه، وأنهم ما لم يأخذوا أنفسهم بذلك ولم يُجردوا عناياتهم له في غرور، كمن يعدُّ نفسه الريّ من السراب اللامع، ويخادعها بأكاذيب المطامع. يقال لهم: إنكم تتلون قول الله تعالى: ﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَيَّ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾ [الإسراء: ٨٨/١٧]^(١) وقوله عز وجل: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ﴾ [هود: ١٣/١١]^(٢) وقوله: ﴿سُوْرَةٍ مِّنْ مِّثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣/٢]^(٣) فقولوا الآن أيجوز أن يكون تعالى قد أمر نبيه ﷺ بأن يتحدى العرب إلى أن يعارضوا القرآن

(١) والآية الكريمة: ﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَيَّ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾.

(٢) والآية الكريمة: ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفَرَّغْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيْنَ وَادْعُوا مَنِ اسْتَلَقْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

(٣) والآية الكريمة: ﴿وَلَا تَكُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا زَلَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُوْرَةٍ مِّنْ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

بمثله من غير أن يكونوا قد عَرَفُوا الوصفَ الذي إذا أتوا بكلامٍ على ذلك الوصفِ كانوا قد أتوا بمثله؟ ولا بُدَّ من «لا» لأنَّهم إن قالوا: يجوزُ؛ أبطلوا التحدي من حيث إنَّ التحدي كما لا يخفى مطالبة بأن يأتوا بكلامٍ على وصفٍ، ولا تصحَّ المطالبة بالإتيان به على وصفٍ من غير أن يكون ذلك الوصفُ معلوماً للمطالبِ ويبطلُ بذلك دعوى الإعجاز أيضاً، وذلك لأنه لا يتصور أن يقال: إنه [١٢٤ ب] كان عَجْزٌ حتى يثبتَ معجوز عنه معلوم، فلا يقومُ في عَقْلٍ عاقلٍ أن يقول لخصم له: قد أعجزك أن تفعل مثلَ فعلي؛ وهو لا يشير له إلى وصف يَعْلَمُهُ في فعله ويراه قد وقع عليه. أفلا ترى أنَّه لو قالَ رجلٌ لآخر: إني قد أحدثُ في خاتمِ عملته صنعةً أنتَ لا تستطيع مثلها، لم تتجه له عليه حجةٌ ولم يثبتَ به أنه قد أتى بما يعجزه إلّا من بعد أن يريه الخاتم ويشير له إلى ما زعم أنه أبدعه فيه من الصنعة، لأنه لا يصحُّ وصفُ الإنسان بأنه قد عَجَزَ عن شيء حتى يريد ذلك الشيء ويقصد إليه ثم لا يتأتى له. وليس يتصور أن يقصدَ إلى شيء لا يَعْلَمُهُ وأن تكونَ منه إرادةٌ لأمرٍ لم يعلمه في جملةٍ ولا تفصيلٍ.

ثم إن هذا الوصفَ ينبغي أن يكونَ وصفاً قد تجددَ بالقرآن وأمرأ لم يوجد في غيره ولم يعرف قَبْلَ نزوله. وإذا كان كذلك فقد وجب أن يعلم أنَّه لا يجوز أن يكونَ في الكلم المفردة لأن تقديرَ كونه فيها يؤدي إلى المحال وهو أن تكونَ الألفاظُ المفردة التي هي أوضاع اللُّغة قد حدثت في مذاقة حروفها وأصداها أوصافٌ لم تكن لتكون تلك الأوصاف فيها قبل نزول القرآن وتكونَ قد اختصَّت في أنفسها بهيئاتٍ وصفاتٍ يسمُّها السامعون عليها إذا كانت متلوَّة في القرآن لا يجدون لها تلك الهيئاتِ والصفاتِ خارجَ القرآن، ولا يجوز أن تكونَ في معاني الكلم المفردة التي هي لها بوضَعِ اللغة لأنه يؤدي إلى أن يكونَ قد تجددَ في معنى الحمد والربِّ ومعنى العالمين والملك واليوم والدين وهكذا وصفٌ لم يكن قبل نزول القرآن. وهذا ما لو كان ههنا شيء أبعدُ من المحال وأشنعُ لكان إيَّاه. ولا يجوز أن يكون هذا الوصف في تركيبِ الحركات والسكنات حتى كأنَّهم تُحدِّثوا إلى أن يأتوا بكلام تكون كلمائهُ على تواليها في زنة كلمات القرآن وحتى كأنَّ الذي بان به [١٢٥ أ] القرآن من الوصفِ، في سبيل بينونة بحور الشعر

بعضها من بعض، لأنه يخرج إلى ما تعاطاه مسيلمٌ من الحمافة في: إنا أعطيناك الجماهر، فصلٌ لرُبِّكَ وجاهرٌ، والطاحنات طحناً.

وكذلك الحكمُ إنَّ زعم زاعمٌ أن الوصفَ الذي تحدُّوا إليه هو أن يأتوا بكلام يجعلون له مقاطعَ وفواصلَ كالذي تراه في القرآن لأنه أيضاً ليس بأكثرَ من التعويلِ على مراعاةِ وَزْنٍ، وإنما الفواصلُ في الآي كالقوافي في الشعر وقد عَلِمْنَا اقتدارَهم على القوافي كيف هو فلو لم يكن التحديُّ إلّا إلى فصولٍ من الكلام يكون لها أواخرُ أشباه القوافي لم يعوزهم ذلك ولم يتعذر عليهم وقد خيَّل إلى بعضهم - إنَّ كانت الحكايةُ صحيحةً - شيءٌ من هذا حتى وضعَ على ما زعموا فصولٌ^(١) كلام أواخرها كأواخر الآي مثل يعلمون ويؤمنون وأشباه ذلك. ولا يجوزُ أن يكونَ الإعجازُ بأن لم يُلْتَقَ في حروفه ما يثقل على اللسان.

وجملةُ الأمرِ أنَّه لن يعرضَ هذا وشبهه من الظنون لمن يعرضُ له إلّا من سوء المعرفة بهذا الشأنِ أو للخذلان أو لشهوةِ الإغراب في القول. ومن هذا الذي يرضى من نفسه أن يزعم أنَّ البرهانَ الذي بانَ لهم، والأمرُ الذي بهرهم، والهيئة التي ملأت صدورهم، والروعة التي دَخَلت عليهم فأزعجتهم، حتَّى قالوا: «إنَّ له لحلاوةً، وإنَّ عليه لطلاوةً، وإنَّ أسفلَه لَمُغْدِقٌ، وإنَّ أعلاه لمثمر»^(٢) إنما كان بشيءٍ راعهم من مواقعِ حركاته، ومن ترتيبِ بينها وبين سكناته، أو لفواصلٍ في أواخر آياته؟ من أين تليقُ هذه الصفةُ وهذا التشبيهُ بذلك؟ أم ترى أن ابنَ مسعودٍ^(٣) حين قال في صفةِ القرآن: «لا يَنْفَعُ ولا يَنْشَأَنَّ» وقال: «إذا وقعتُ في

(١) في (غ): فصول الكلام.

(٢) جاء في القرطبي ١٦٥/١٠: «قرأ النبي ﷺ على الوليد بن المغيرة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠/١٦] إلى آخرها فقال: يا بن أخي أعد فأعاد عليه فقال: والله إنَّ له لحلاوةً، وإنَّ عليه لطلاوةً، وإنَّ أصله لمورق، وأعلاه لمثمر، وما هو بقول بشر».

(٣) هو عبد الله بن مسعود: صحابي جليل وراوي للحديث، توفي ٣٣ هـ سیر أعلام النبلاء

آل حم^(١) وقعت في رَوَضَاتِ دَمِشَاقٍ أَتَانَتْ فِيهِنَّ^(٢)، أي اتَّبَعَ مُحَاسِنُهُنَّ، قال ذلك من أجل أوزانِ الكلمات، ومن أجلِ الفواصلِ في [١٢٥ ب] أواخرِ الآيات؟ أم ترى أنهم لذلك قالوا لا تَفْنَى عَجَائِبُهُ، ولا يَخْلُقُ على كثرة الردِّ؟ أم ترى الجاحظَ حين قال في كتابِ النبوة^(٣): ولو أن رجلاً قرأ على رجلٍ من خطبائهم وبلغائهم سورةً واحدةً لتبين له في نظامِها ومُخْرِجِها من لفظِها وطابعِها، أنه عاجزٌ عن مثْلِها، ولو تُحَدِّثَ بها أبلغُ العربِ لأظهرَ عجزَه عنها لَعَا ولَغَطَ^(٤).

انظر إلى مثل ذلك فليس كلامه هذا مما ذهبوا إليه في شيء.

وينبغي أن تكون مُوازِنَتُهُمْ بينَ بعضِ الآيِ وبينَ ما قاله الناس في معناها كموازنتهم بين «وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ» [البقرة: ١٧٩/٢] وبين «قَتْلُ الْبَعْضِ إحياءٌ للجميع» خطأ منهم لأننا لا نعلمُ لحديثِ التحريكِ والتسكينِ وحديثِ الفاصلةِ مذهباً في هذه الموازنة، ولا نعلمُهم أرادوا غيرَ ما يريدُه الناس إذا وازنوا بين كلامٍ وكلامٍ في الفصاحةِ والبلاغةِ ودقَّةِ النظمِ وزيادةِ الفائدة. ولولا أن الشيطانَ قد استحوذَ على كثيرٍ من النَّاسِ في هذا وأنهم بتركِ النظرِ وإهمالِ التدبُّرِ وضعفِ النِّيةِ وقصرِ الهمةِ قد طَرَّقوا له حتى جَعَلَ يلقي في نفوسِهِم كلَّ مُحالٍ وكلِّ باطلٍ، وجعلوا هُمَ يعطون الذي يلقيه خطأً من قبولهم، ويؤوِّونه مكاناً من قلوبهم، لما بلغ من قَدَرِ هذه الأقوالِ الفاسدةِ أن تدخل في تصنيف، ويعاد ويبدأ في تبينِ لوجهِ الفسادِ فيها وتعريف.

(١) جاء في القرطبي ٢٨٨/١٥: «وقال الجوهري وأبو عبيدة: وآل حم سور في القرآن وقال ابن مسعود: آل حم ديباج القرآن، قال الفراء: إنّما هو كقولك آل فلان وآل فلان كأنه نسب السورة كلها إلى حم».

(٢) وجاء في القرطبي ٢٨٨/١٥: «وروى - يعني أبا عبيدة - أنّ النبي ﷺ قال: لكل شيء ثمرة وإنّ ثمرة القرآن ذوات حم هُنَّ روضات حسان مخضبات متجاورات فمن أحب أن يرتع في رياض الجنة فليقرأ الحواميم».

(٣) هو كتاب حجج النبوة للجاحظ وقد بقيت منه مختارات نشرت ضمن (رسائل الجاحظ ٢٢٣/٣ - ٢٨١ والنص فيه ص ٢٩٩).

(٤) انظر كتاب حجج النبوة ضمن رسائل الجاحظ ٢٧٤/٣

ثم إن هذه الشناعات التي تقدّم ذكرها تلزم أصحاب الصّرفة أيضاً وذلك أنه لو لم يكن عَجْزُهُم عن معارضة القرآن، وعن أن يأتوا بمثله لأنه معجز في نفسه، لكان لأن أدخل عليهم العجز عنه، وضربت همهم وخواطرمهم عن تأليف كلام مثله، وكان حالهم على الجملة حال من أُغِدِمَ العلم بشيء قد كان يعلمه، وجيل بينه وبين أمر قد كان يتسّع له، لكان ينبغي أن لا يتعاطمهم، ولا يكون منهم ما يدلّ على إكبارهم أمره، وتعجبهم منه، وعلى أنه قد بهرهم، [١٢٦] وعظم كلّ العظم عندهم، ولكان التعجب للذي دخل من العجز عليهم، ولما رأوه من تغيّر حالهم، ومن أن جيل بينهم وبين شيء قد كان عليهم سهلاً، وأن سدّ دونه باب كان لهم مفتوحاً أرايت لو أن نبياً قال لقوميه: «إن آيتي أن أضع يدي على رأسي هذه الساعة وتُمنعون كلّكم من أن تستطيعوا وضع أيديكم على رؤوسكم» وكان الأمر كما قال، كم يكون تعجب القوم؟ أمن وضعه يده على رأسه أم من عجزهم أن يضعوا أيديهم على رؤوسهم؟

ونعود إلى النسق فنقول: فإذا بطل أن يكون الوصف الذي أعجزهم من القرآن في شيء مما عدناه لم يبق إلّا أن يكون في الاستعارة، ولا يمكن أن نجعل الاستعارة الأصل في الإعجاز وأن يُقصر عليها، لأن ذلك يؤدي إلى أن يكون الإعجاز في أي معدودة، في مواضع من السور الطوال مخصوصة، وإذا امتنع ذلك فيها لم يبق إلّا أن يكون في النظم والتأليف لأنه ليس من بعد ما أبطنا أن يكون فيه إلا النظم وإذا ثبت أنه في النظم والتأليف وكنا قد علمنا أن ليس النظم شيئاً غير توخي معاني النحو وأحكامه فيما بين الكلم، وأنا إن بقينا الدهر نجهّد أفكارنا حتى نعلم للكلم المفردة سلكاً ينظمها وجامعاً يجمع شملها ويؤلفها ويجعل بعضها بسبب من بعض غير توخي معاني النحو وأحكامه فيها، طلبنا ما كلّ محالٍ دونه.

فقد بان وظهر أنّ المتعاطي القول في النظم والزاعم أنه يحاول بيان المزية فيه وهو لا يعرض فيما يعيده ويبيده للقوانين والأصول التي قدّمنا ذكرها، ولا يسلك إليه المسالك التي نهجناها، في عمياء من أمره، وفي غرور من

نفسه، وفي خداع من الأمانى والأضاليل. ذاك لأنه إذا كان لا يكون النظم شيئاً غير توخى معاني النحو وأحكامه فيما بين الكلم كان من أعجب العجب حين يزعم زاعم أنه يطلب المزية في النظم ثم لا يطلبها في معاني النحو وأحكامه التي النظم عبارة عن توخيها فيما بين الكلم.

فإن قيل: قولك: «إلا النظم» يقتضي إخراج ما في القرآن من الاستعارة وضروب المجاز من جملة ما هو به معجز، وذلك ما لا مساع له. قيل: ليس الأمر كما ظننت بل ذلك يقتضي دخول الاستعارة ونظائرها [١٢٦ ب] فيما هو به معجز، وذلك لأن هذه المعاني التي هي الاستعارة والكناية والتمثيل وسائر ضروب المجاز من بعدها من مقتضيات النظم عنها يحدث وبها يكون، لأنه لا يتصور أن يدخل شيء منها في الكلم وهي أفراد لم يتوخ فيما بينها حكم من أحكام النحو، فلا يتصور أن يكون ههنا فعل أو اسم قد دخلته الاستعارة من دون أن يكون قد ألف مع غيره. أفلا ترى أنه إن قدر في اشتعل من قوله تعالى: ﴿وَأَشْتَغَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مريم: ٤/١٩] ^(١) أن لا يكون الرأس فاعلاً له ويكون «شيباً» منصوباً عنه على التمييز لم يتصور أن يكون مستعاراً. وهكذا السبيل في نظائر الاستعارة فاعرف ذلك.

واعلم أن السبب في أن لم يقع النظر منهم موقعه أنهم حين قالوا نطلب المزية ظنوا أن موضعها اللفظ، بناءً على أن النظم نظم الألفاظ، وأنه يلحقها دون المعاني، وحين ظنوا أن موضعها ذلك واعتقدوه وقفوا على اللفظ وجعلوا لا يرمون بأوهامهم إلى شيء سواه. إلا أنهم على ذاك لم يستطيعوا أن ينطقوا في تصحيح هذا الذي ظنوه بحرف، بل لم يتكلموا بشيء إلا كان ذلك نقضاً وإبطالاً لأن يكون اللفظ من حيث هو لفظ موضعاً للمزية، وإلا رأيتهم قد اعترفوا من حيث لم يدروا بأن ليس للمزية التي طلبوها موضع ومكان تكون فيه إلا معاني النحو وأحكامه. وذلك أنهم قالوا: إن الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلمات

(١) والآية الكريمة: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَمَنْ آلَظُمَ مِنِّي وَاشْتَغَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾.

وإنما تظهر بالضم على طريقة مخصوصة، فقولهم (بالضم) لا يصح أن يراد به النطق باللفظة بعد اللفظة من غير اتصال يكون بين معنيهما، لأنه لو جاز أن يكون لمجرد ضم اللفظ إلى اللفظ تأثير في الفصاحة لكان ينبغي إذا قيل: «ضحك خرج» أن يحدث من ضم (خرج) إلى (ضحك) فصاحة، وإذا بطل ذلك لم يبق إلا أن يكون المعنى في ضم الكلمة إلى الكلمة توحي معنى من معاني النحو فيما بينهما. وقولهم: على طريقة مخصوصة يوجب ذلك أيضاً، وذلك أنه لا [١٢٧] يكون للطريقة - إذا أنت أردت مجرد اللفظ - معنى وهذا سبيل كل ما قالوه إذا أنت تأملتته، تراهم في الجميع قد دفعوا إلى جعل المزية في معاني النحو وأحكامه من حيث لم يشعروا، ذلك لأنه أمر ضروري لا يمكن الخروج منه.

ومما تجدهم يعتمدونه ويرجعون إليه قولهم: إن المعاني لا تتزايد وإنما تتزايد الألفاظ. وهذا كلام إذا تأملتته لم تجد له معنى يصح عليه غير أن تجعل تزايد الألفاظ عبارة عن المزايا التي تحدث من توحي معاني النحو وأحكامه فيما بين الكلم لأن التزايد في الألفاظ من حيث هي ألفاظ ونطق لسان محال.

ثم إننا نعلم أن المزية المطلوبة في هذا الباب مزية فيما طريقه الفكر والنظر من غير شبهة، ومحال أن يكون اللفظ له صفة تستنبط بالفكر، ويستعان عليها بالروية، اللهم إلا أن تريد تأليف النغم وليس ذلك مما نحن فيه بسبيل. ومن ههنا لم يَجْز إذا عُدَّ الوجوه التي تظهر بها المزية أن يُعَدَّ فيها الإعراب وذلك أن العلم بالإعراب مشترك بين العرب كلهم وليس هو مما يُسْتَنْبَط بالفكر ويستعان عليه بالروية، فليس أحدهم بأن إعراب الفاعل الرفع أو المفعول نصب والمضاف إليه بالجر بأعلم من غيره، ولا ذاك المفعول به مما يحتاجون فيه إلى حدة ذهن وقوة خاطر، إنما الذي تقع الحاجة فيه إلى ذلك العلم بما يوجب الفاعلية للشيء إذا كان إيجابها من طريق المجاز كقوله تعالى: ﴿فَمَا رَحَّتْ يَحْرَثُهُمْ﴾ [البقرة: ١٦/٢]^(١) وكقول الفرزدق^(٢):

(١) والآية الكريمة: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهَدَىٰ فَمَا رَحَّتْ يَحْرَثُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾.

(٢) سبق إنشاده.

سقتها خروق في المسامع...

وأشبهه ذلك مما يُجعل الشيء فيه فاعلاً على تأويلٍ يَدِقُّ، ومن طريقِ تلطُّفٍ، وليس يكونُ هذا علماً بالإعراب ولكن بالوصف الموجِبُ للإعراب. ومن ثمَّ لا يجوز لنا أن نعتدَّ في شأننا هذا بأن يكونَ المتكلِّمُ قد استعمل من اللغتين في الشيء ما يقالُ إنه أفصحُهما، وبأن يكون قد تحفَّظ مما تخطئ فيه العامةُ، لا بأن يكون قد استعملَ الغريبَ [١٢٧ ب] لأن العلم بجميع ذلك لا يعدو أن يكون علماً باللغة بأنفسِ الكلِّمِ المفردة، وبما طريقه الحفظ، دون ما يستعانُ عليه بالنظر، ويوصلُ إليه بإعمالِ الفكر. ولئن كانت العامةُ وأشبهاءُ العامةِ لا يكادون يعرفون الفصاحةَ غير ذلك فإنَّ من ضعف التَّحِيَّزَةِ إخطارَ مثله في الفكر، وإجراؤه في الذكر، وأنت تزعمُ أنك ناظرٌ في دلائل الإعجاز، أترى أنَّ العربَ تُحدِّثوا أن يختاروا الفتح في الميم من الشَّمْعِ والهَاءِ من النهر على الإسكان، وأن يتحفظوا من تخليط العامة في مثل «هذا يَسُو ألفاً» أو إلى أن يأتوا بالغريب الوحشي في الكلام يعارضون به القرآن؟ كيف وأنت تقرأ السورة من السور الطوالِ فلا تجدُ فيها من الغريب شيئاً، وتأملُ ما جمعه العلماء في غريب القرآن فترى الغريب منه إلا في القليلِ إنما كان غريباً من أجلِ استعارة هي فيه كمثلِ ﴿وَأَشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْغَيْلَ﴾ [البقرة: ٩٣/٢]^(١) ومثلِ ﴿خَلَصُوا بِحَيَاتٍ﴾ [يوسف: ٨٠/١٢]^(٢) ومثلِ ﴿فَأَصْدَعُ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحجر: ٩٤/١٥]^(٣) دون أن تكون اللفظة غريبة في نفسها. إنما ترى ذلك في كلماتٍ معدودةٍ كمثلِ ﴿عَجَلْنَا

(١) والآية الكريمة: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْغَيْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ يَتَسَاءَلُونَكَ يَا أَرْمَرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

(٢) والآية الكريمة: ﴿فَلَمَّا اسْتِيعَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا بِحَيَاتٍ قَالَ كَيْفَ هُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ آبَاءَكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي إِلَىٰ أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾.

(٣) والآية الكريمة: ﴿فَأَصْدَعُ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾.

قَطَّنَا» [ص: ١٦/٣٨] ^(١) و «ذَاتِ الْوَجِّ وَدُسْرِ» [القمر: ١٣/٥٤] ^(٢) و «جَعَلَ رَبُّكَ تَحَنُّكَ سِرِّيًّا» [مريم: ٢٤/١٩] ^(٣).

ثم إنه لو كان أكثر ألفاظ القرآن غريباً لكان محالاً أن يدخل في الإعجاز وأن يصحّ التحدي به. ذاك لأنه لا يخلو إذا وقع التحدي به من أن يُتحدّى مَنْ له عِلْمٌ بأمثاله من الغريبِ أو مَنْ لا عِلْمَ له بذلك فلو تُحدّي به مَنْ يعلم أمثاله لم يتعذر عليه أن يعارضه بمثله، ألا ترى أنه لا يتعذر عليك إذا أنت عرفت ما جاء من الغريب في معنى الطويل أن تُعارض من يقول: «الشوق» بأن تقول أنت: «الشوذب» وإذا قال: «الأمق» أن تقول: «الأسق» ^(٤) وعلى هذا السبيل. ولو تُحدّي به من لا عِلْمَ له بأمثاله ما فيه من الغريب كان ذلك بمنزلة أن يتحدّى العرب إلى أن يتكلموا بلسان الترك.

هذا وكيف بأن يدخل الغريب في باب الفضيلة وقد ثبت عنهم أنهم كانوا يرون الفضيلة [١٢٨ أ] في ترك استعماله وتجنّبه. أفلا ترى إلى قول عمر رضي الله عنه في زهير ^(٥): إنه كان لا يعاظمُ بَيْنَ القول ولا يتتبّع حوشي الكلام ^(٦) فقرن تتبع الحوشي وهو الغريب من غير شبهة إلى المعاظلة التي هي التعقيد.

وقال الجاحظ في كتاب البيان والتبيين: ورأيتُ الناس يتداولون رسالة

(١) والآية الكريمة: «وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْ لَنَا قَطَّنًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ».

(٢) والآية الكريمة: «وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْوَجِّ وَدُسْرِ».

(٣) والآية الكريمة: «فَنَادَيْنَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكَ تَحَنُّكَ سِرِّيًّا».

(٤) في اللسان (شقب): «الشوق الطويل من الرجال، والنعام والإبل».

في اللسان (شذب): «والشوذب من الرجال الطويل الحسن الخلق، والطويل النجيب من كلّ شيء».

في اللسان (مقق): «اللمقّ الطول عامة وقيل هو الطول الفاحش في دقة».

في اللسان (شقق): «والأسقّ الطويل».

(٥) انظر الشعر والشعراء ١٣٨/١، طبقات فحول الشعراء ٦٣/١

(٦) في اللسان (عظل): قوله لم يعاظم الكلام أي لم يحمل بعضه على بعض، ولم يتكلم بالرجيع من القول ولم يكرر اللفظ والمعنى، وحوشي الكلام وحشيه وغريبه.

يحيى بن يعمر عن^(١) لسان يزيد بن المهلب إلى الحجاج «إنا لقينا العدو فقتلنا طائفة بعراعر الأودية وأهضام الغيطان»^(٢) وبتنا بعُرْعرة الجبل وبات العدو بحضيضه» فقال الحجاج: ما يزيدُ بأبي عُذر هذا الكلام. فحُمِل إليه فقال: أين ولدك؟ فقال: بالأهواز. فقال: فأنتي لك هذه الفصاحة؟ قال: أخذتها عن أبي. قال: ورأيتهم يديرون في كتبهم أن امرأةً خاصمت زوجها إلى يحيى بن يعمر فانتهرها مراراً فقال له يحيى: أن سألتك^(٣) ثمن شكرها وسَبْرِكَ أنشأت تُطلُّها وتضهلُّها. ثم قال: وإن كانوا قد رَوَوْا هذا الكلامَ لكي يدلَّ على فصاحةٍ وبلاغةٍ فقد باعده الله من صفة البلاغة والفصاحة^(٤).

واعلم أنك كلما نظرتَ وجدتَ سببَ الفسادِ واحداً وهو ظنُّهم الذي ظنَّوه في اللفظ وجعلهم الأوصافَ التي تجري عليهم كلها أوصافاً له في نفسه ومن حيث هو لفظٌ وتركهم أن يميِّزوا بينَ ما كان وصفاً له في نفسه وبين ما كانوا قد أكسبوه إياه من أجلِ أمرٍ عَرَضَ في معناه. ولما كان هذا دأبهم ثم رأوا الناس وأظهروا شيء عندهم في معنى الفصاحة تقويمُ الإعرابِ والتحفظُ من اللحن لم يشكُّوا أنه ينبغي أن يعتدَّ به في جملة المزايا التي يفاضل بها بين كلامٍ وكلامٍ في الفصاحة، وذهب عنهم أن ليس هو من الفصاحة التي يعيننا أمرها في شيء، وإن كلامنا في فصاحةٍ تَجِبُ للفظ لا من أجل شيء يدخل في النطق، ولكن من أجل لطائف تدرك بالفهم، وإنا نعتبرُ في شأننا هذا فضيلةً تَجِبُ لأحدِ الكلامين على الآخر من بعد أن يكونا قد برَّئا من اللَّحن، وسَلِمَا في ألفاظهما [١٢٨ ب] من الخطأ. ومن العَجَبِ أنا إذا نظرنا في الإعراب وجدنا التفاضلَ فيه محالاً لأنه

(١) البيان ٢٧٧/١ - ٢٧٩

(٢) وعراعر الأودية: أسافلها، وعراعر الجبال: أعاليها، وأهضام الغيطان: مداخلها، والغيطان: جمع غائط وهو الحائط ذو الشجر. البيان ٢٧٨/١

(٣) في البيان والتبيين: «إن سألتك».

(٤) ويحيى بن يعمر التابعي مبرِّز، أديب نحوي، فقيه، سمع ابن عمر وجابراً وأبا هريرة وأخذ النحو عن أبي الأسود، ولَّاه قتيبة بن مسلم قضاء خراسان، وتوفي سنة ١٢٩ هـ (بغية الرعاة ٢/٣٤٥).

لا يتصور أن يكون للرفع والنصب في كلام مزية عليهما في كلام آخر، وإنما الذي يتصور أن يكون ها هنا كلامان قد وقع في إعرابهما خللٌ ثم كان أحدهما أكثر صواباً من الآخر، وكلامان قد استمر أحدهما على الصواب ولم يستمر الآخر، ولا يكون هذا تفاضلاً في الإعراب ولكن تركاً له في شيء واستعمالاً له في آخر، فاعرف ذلك.

وجملة الأمر أنك لا ترى ظناً هو أنأى بصاحبه عن أن يصح له كلام، أو يستمر له نظام، أو تثبت له قدم، أو ينطق منه إلا بالمحال فم، من ظنهم هذا الذي حام بهم حول اللفظ وجعلهم لا يعدونه، ولا يرون للمزية مكاناً دونه.

واعلم أنه قد يجري في العبارة من شيء هو يعيدُ الشبهة جذعة^(١) عليهم وهو أنه يقع في كلامنا أن الفصاحة تكون في المعنى دون اللفظ، ونراها لا تدخل في صفة المعنى البتة، لأننا نرى الناس قاطبة يقولون: «هذا لفظ فصيح وهذه ألفاظ فصيحة» ولا نرى عاقلاً يقول: «هذا معنى فصيح وهذه معاني فصاح» ولو كانت الفصاحة تكون في المعنى لكان ينبغي أن يقال ذاك، كما أنه لما كان الحسن يكون فيه قيل: «هذا معنى حسن وهذه معاني حسنة» وهذا شيء يأخذ من الغر مأخذاً. والجواب عنه أن يقال: إن غرضنا من قولنا إن الفصاحة تكون في المعنى أن المزية التي من أجلها استحق اللفظ الوصف بأنه فصيح عائدة في الحقيقة إلى معناه ولو قيل إنها تكون فيه دون معناه لكان ينبغي إذا قلنا في اللفظة إنها فصيحة أن تكون تلك الفصاحة واجبة لها بكل حال. ومعلوم أن الأمر بخلاف ذلك فلما نرى [١٢٩ أ] اللفظة تكون في غاية الفصاحة في موضع ونراها بعينها فيما لا يحصى من المواضع وليس فيها من الفصاحة قليل ولا كثير، وإنما كان كذلك لأن المزية التي من أجلها نصفت اللفظ في شأننا هذا بأنه فصيح، مزية تحدث من بعد أن لا تكون، وتظهر في الكلام من بعد أن يدخلها النظم، وهذا شيء إن أنت طلبته فيها وقد جئت بها أفراداً لم ترم فيها نظاماً، ولم تحدث لها تأليفاً، طلبت محالاً.

(١) في اللسان (جذع): أعدت الأمر جذعاً أي جديداً.

وإذا كان كذلك وجب أن يُعلم قطعاً وضرورة أن تلك المزية في المعنى دون اللفظ. وعبارة أخرى في هذا بعينه وهي أن يقال: قد علمنا علماً لا تعترض معه شبهة أن الفصاحة فيما نحن فيه عبارة عن مزية هي بالمتكلم دون واضح اللغة. وإذا كان كذلك فينبغي لنا أن ننظر إلى المتكلم هل يستطيع أن يزيد من عند نفسه في اللفظ شيئاً ليس هو له في اللغة حتى يجعل ذلك من صنيعه مزية يعبر عنها بالفصاحة. وإذا نظرنا وجدناه لا يستطيع أن يصنع باللفظ شيئاً أصلاً، ولا أن يحدث فيه وصفاً، كيف وهو إن فعل ذلك أفسد على نفسه وأبطل أن يكون متكلماً، لأنه لا يكون متكلماً حتى يستعمل أوضاع لغة على ما وضعت هي عليه. وإذا ثبت من حاله أنه لا يستطيع أن يصنع بالألفاظ شيئاً ليس هو لها في اللغة وكنا قد اجتمعنا على أن الفصاحة فيما نحن فيه عبارة عن مزية هي بالمتكلم البتة، وجب أن نعلم قطعاً وضرورة أنهم وإن كانوا قد جعلوا الفصاحة في ظاهر الاستعمال من صفة اللفظ فإنهم لم يجعلوها وصفاً له في نفسه ومن حيث هو صدى صوت ونطق لسان، ولكنهم جعلوها عبارة عن مزية أفادها المتكلم، ولما لم تزد إفادته في اللفظ شيئاً لم يبق إلا أن تكون عبارة عن مزية في المعنى.

وجملة الأمر أنا لا نوجب الفصاحة للفظه مقطوعة مرفوعة من الكلام الذي هي فيه، ولكننا نوجبها لها موصولة بغيرها، ومعلقاً معناها بمعنى ما يليها. فإذا قلنا في لفظة اشتعل من قوله تعالى: ﴿وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مريم: ٤/١٩]: إنها في أعلى المرتبة من الفصاحة، لم نوجب تلك الفصاحة لها وحدها، ولكن موصولاً بها الرأس [١٢٩ ب] معرفاً بالألف واللام ومقروناً إليها الشيب منكرراً منصوباً.

هذا وإنما يقع ذلك في الوهم لمن يَقَعُ له أعني أن تُوجب الفصاحة للفظه وحدها فيما كان استعارة فأما ما خلا من الاستعارة من الكلام الفصيح البليغ فلا يعرض توهم ذلك فيه لعاقلي أصلاً. أفلا ترى أنه لا يقع في نفس من يعقل أدنى شيء إذا هو نظر إلى قوله عز وجل: ﴿يَحْسِبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَادُّونَ﴾

فَأَحْذَرْتُمْ» [المنافقون: ٤/٦٣] وإلى إكبار الناس شأن هذه الآية في الفصاحة أن يضع يده على كلمة كلمة منها فيقول إنها فصيحة؟ كيف وسبب الفصاحة فيها أمور لا يشك عاقل في أنها معنوية (أولها) أن كانت «على» فيها متعلقة بمحذوف في موضع المفعول الثاني (والثاني) أن كانت الجملة التي هي «هم العدو» بعدها عارية من حرف عطف (والثالث) التعريف في العدو وأن لم يقع: هم عدو. ولو أنك علقت «على» بظاهر، وأدخلت على الجملة التي هي «هم العدو» حرف عطف، وأسقطت الألف واللام من العدو، فقلت: يحسبون كل صيحة واقعة عليهم وهم عدو؛ لرأيت الفصاحة قد ذهبت عنها بأسرها. ولو أنك أخطرت ببالك أن يكون «عليهم» متعلقاً بنفس الصيحة ويكون حاله معها كحالها إذا قلت: صيحت عليه؛ لأخرجته عن أن يكون كلاماً فضلاً عن أن يكون فصيحاً. وهذا هو الفصل لمن عقل.

ومن العجيب في هذا ما روي عن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه أنه قال: ما سمعت كلمة عربية من العرب إلا وسمعتها من رسول الله ﷺ، وسمعتها يقول: «مات حثف أنفه» وما سمعتها من عربي قبله. لا شبهة في أن وصف اللفظ بالعربي في مثل هذا يكون في معنى الوصف بأنه فصيح. وإذا كان الأمر كذلك فانظر هل يقع في وهم متوهم أن يكون رضي الله عنه قد جعلها عربية من أجل ألفاظها؟ وإذا نظرت [١٣٠] لم تشك في ذلك.

واعلم أنك تجد هؤلاء الذين يشكون فيما قلناه تجري على ألسنتهم ألفاظ وعبارات لا يصح لها معنى سوى توخي معاني النحو وأحكامه فيما بين معاني الكلم ثم تراهم لا يعلمون ذلك. فمن ذلك ما يقوله الناس قاطبة من أن العاقل يرتب في نفسه ما يريد أن يتكلم به. وإذا رجعنا إلى أنفسنا لم نجد لذلك معنى سوى أنه يقصد إلى قولك ضرب فيجعل خبراً عن زيد ويجعل الضرب الذي أخبر بوقوعه منه واقعاً على عمرو ويجعل يوم الجمعة زمانه الذي وقع فيه ويجعل التأديب غرضه الذي فعل الضرب من أجله فيقول: ضرب زيد عمراً يوم الجمعة تأديباً له. وهذا كما ترى هو توخي معاني النحو فيما بين معاني هذه

الكلم. ولو أنك فرضت أن لا تتوخى في (ضَرَبَ) أن تجعله خبراً عن زيد، وفي عمرو أن تجعله مفعولاً به لضرب، وفي يوم الجمعة أن تجعله زماناً لهذا الضرب، وفي التأديب أن تجعله غرض زيد من فعل الضرب، ما تصوّر في عقل ولا وقع في وهم أن تكون مرتباً لهذه الكلم. وإذا قد عرفت ذلك فهو العبرة في الكلام كله، فمن ظنّ ظناً يؤدّي إلى خلافه ظنّ ما يخرج به عن المعقول.

ومن ذلك إثباتهم التعلّق والاتصال فيما بين الكلم وصوابها تارة ونفيهم لهما أخرى. ومعلوم علم الضرورة أن لن يتصوّر أن يكون للفظيّة تعلّق بلفظة أخرى من غير أن تعتبر حال معنى هذه مع معنى تلك، ويراعى هناك أمرٌ يصل إحداهما بأخرى، كمرعاة «نَبِّكَ» جواباً للأمر في قوله: قفا نيك. وكيف بالشكّ في ذلك ولو كانت الألفاظ يتعلّق بعضها ببعض من حيث هي ألفاظ ومع اطراح النظر في معانيها لأدّى ذلك إلى أن يكون الناس حين ضحكوا مما يصنعه المُجَّان من قراءة أنصاف الكتب ضحكوا عن جهالة، وأن يكون أبو تمام قد أخطأ [١٣٠ ب] حين قال^(١):

عَدَلًا شَبَّهًا بِالْجُنُونِ كَأَنَّمَا قَرَأْتُ بِهِ الْوَزْهَاءَ شَطَرَ كِتَابٍ
لأنهم لم يضحكوا إلا من عَدَم التعلّق ولم يجعله أبو تمام جنوناً إلا لذلك،
فانظر إلى ما يلزم هؤلاء القوم من طرائف الأمور.



(١) ديوانه ٧٨/١ من قصيدة في مدح مالك بن طوق التغلبي.

والمرأة الورهاء: هي الحمقاء في أعمالها.

فصل

[في أن فصاحة اللفظ في معناه]

وهذا فنٌّ من الاستدلال لطيف على بطلان أن تكون الفصاحة صفةً للفظ من حيث هو لفظ؛ لا تخلو الفصاحة من أن تكون صفةً في اللفظ محسوسةً تدرك بالسمع، أو تكون صفةً فيه معقولةً تعرف بالقلب، فمحال أن تكون صفة اللفظ محسوسةً لأنها لو كانت كذلك لكان ينبغي أن يستوي السامعون للفظ الفصيح في العلم بكونه فصيحاً، وإذا بطل أن تكون محسوسة، وجب الحكم ضرورة بأنها صفةً معقولةً، وإذا وجب الحكم بكونها صفةً معقولةً فإننا لا نعرف لللفظ صفةً يكون طريق معرفتها العقل دون الحس إلا دلالة على معناه، وإذا كان كذلك لزم منه العلم بأن وصفنا اللفظ بالفصاحة وصف له من جهة معناه لا من جهة نفسه، وهذا ما لا يبقى لعاقلٍ معه عذرٌ في الشك والله الموفق للصواب.

فجّل

[تحليلي للاستعارة والمعنى]

وبيان آخر، وهو أن القارئ إذا قرأ قوله تعالى: ﴿وَأَشْتَلَّ الرَّأْسُ سَيْبًا﴾ [مريم: ٤/١٩] فإنه لا يَجِدُ الفصاحة التي يجدها إلا من بعد أن ينتهي الكلام إلى آخره. فلو كانت الفصاحة صفةً للفظ «اشتعل» لكان ينبغي أن يحسها القارئ فيه حالَ نطقه به، فمحال أن تكونَ للشيء صفةً ثم لا يصحُّ العلم بتلك الصفة إلا من بعد عَدَمِهِ. وَمَنْ ذا رأى صفةً يَغْرِى موصوفها عنها في حالِ وجوده حتى إذا عُدِمَ صارت موجودةً فيه؟ وهل سَمِعَ السامعون في قديم الدهر وحديثه بصفةٍ شرط حصولها لموصوفها أن يُعْدَمَ الموصوف؟ فإن قالوا: إن الفصاحة التي ادعيناها للفظ «اشتعل» تكونُ فيه في حال نطقنا به، إلا أنا لا نعلم في تلك [١٣١] الحال أنها فيه، فإذا بلغنا آخرَ الكلام علمنا حينئذٍ أنها كانت فيه حينَ نَطَقْنَا. قيل: هذا فنَّ آخرُ من العَجَب وهو أن تكونَ ههنا صفةٌ موجودةٌ في شيء ثم لا يكون في الإمكان ولا يسعُ في الجواز أن نَعْلَمَ وجودَ تلك الصفة في ذلك الشيء إلا بعد أن يعدم، ويكون العلم بها وبكونها فيه محجوباً عَنَّا حتى يعدم فإذا عُدِمَ علمنا أنها كانت فيه حينَ كانَ.

ثم إنه لا شبهة في أن هذه الفصاحة التي يدعونها للفظ هي مدعاة لمجموع الكلمة دون آحاد حروفها، إذ ليس يبلغُ بهم تهافُتُ الرأي إلى أن يدعوا لِكُلِّ واحدٍ من حروفِ «اشتعل» فصاحةً فيجعلوا الشين على جِدَّتِهِ فصيحاً وكذلك التاء

والعين واللام، وإذا كانت الفصاحة مدعاة لمجموع الكلمة لم يُتصوّر حصولها لها إلا من بعد أن تعدم كلها وينقضي أمرُ النطق بها. ذلك لأنه لا يُتصوّر أن تدخل الحروفُ بجملتها في النطق دفعةً واحدة حتى تجعلَ الفصاحة موجودةً فيها في حالِ وجودها وما بعد هذا إلا أن نسأل الله تعالى العصمة والتوفيق، فقد بلغ الأمرُ في الشناعة إلى حَدٍّ إذا انتبه العاقلُ لَفَت رأسه حياءً من العقلِ حين يراه قد قال قولاً هذا مؤداه، وسلكَ مَسْلكاً إلى هذا مفضاه، وما مَثَلُ مَنْ يزعم أن الفصاحة صفة اللفظ من حيث هو لفظٌ ونطقٌ لسانٍ ثم يزعم أنه يدعيها لمجموع حروفه دونَ أحادها إلا مَثَلُ من يزعم أن ها هنا غَزْلاً إذا نُسِجَ منه ثوب كان أحمرَ وإذا فَرَّقَ ونظر إليه خيطاً خيطاً لم تكن فيه حمرةً أصلاً.

ومن طريف أمرهم أنك ترى كأفْتَهُم لا ينكرون أن اللفظ المستعار إذا كان فصيحاً كانت فصاحته تلك من أجل استعارته ومن أجل لطيفٍ وغبابةٍ كانا فيها، وتراهم مع ذلك لا يشكّون في أن الاستعارة لا تحدّثُ في حروفِ اللفظ صفة ولا [١٣١ ب] تغيّر أجراسها عما تكون عليه إذا لم يكن مستعاراً وكان متروكاً على حقيقته، وأنّ التأثير من الاستعارة إنما يكون في المعنى. كيفَ وَهُمْ يعتقدون أن اللفظ إذا استعيرَ لشيء نُقِلَ عن معناه الذي وُضِعَ له بالكلية، وإذا كان الأمرُ كذلك فلولا إهمالهم أنفسهم وتركهم النظر لقد كان يكونُ في هذا ما يوقظهم من غَفْلَتِهِمْ، ويكشفُ الغطاءَ عن أعينهم.

فصل

[تحليلي مبني على معاني النحو]

ومما ينبغي أن يعلمه الإنسان ويجعله على ذكر أنه لا يتصور أن يتعلّق الفكر بمعاني الكلم أفراداً ومجرّدة من معاني النحو، فلا يقوم في وهم ولا يصح في عقل أن يتفكر متفكّر في معنى فعل من غير أن يريد إعماله في اسم، ولا أن يتفكّر في معنى اسم من غير أن يريد إعمال فعل فيه وجعله فاعلاً له أو مفعولاً، أو يريد منه حكماً سوى ذلك من الأحكام مثل أن يريد جعله مبتدأ أو خبراً أو صفة أو حالاً أو ما شاكل ذلك. وإن أردت أن ترى ذلك عياناً فاعمد إلى أيّ كلام شئت وأزل أجزاءه عن مواضعها وضّعها وضعاً يمتنع معه دخول شيء من معاني النحو فيها فقل في:

❁ قِفَا نَبِكَ مِنْ ذِكْرِي حَبِيبٍ وَمَنْزِلٍ ❁

«من نبك قفا حبيب ذكري منزل» ثم انظر هل يتعلّق منك فكر بمعنى كلمة منها؟

واعلم أنني لست أقول إن الفكر لا يتعلّق بمعاني الكلم المفردة أصلاً، ولكني أقول إنه لا يتعلّق بها مجرّدة من معاني النحو ومنطوقاً بها على وجه لا يتأتّى معه تقدير معاني النحو وتوحيها فيها كالذي أريثك، وإلا فلأنك إذا فكرت في الفعلين أو الاسمين تريد أن تخبر بأحدٍهما عن الشيء أيهما أولى أن

تخبر به عنه وأشبهه بغرضك مثل أن تنظرَ أيهما [أمدح وأذم أو فكرت في الشئين تريد أن تشبه الشيء بأحدهما]^(١) أيهما أشبه به كنت قد فكرت في معاني أنفس الكلم، إلا أن فكرك ذلك لم يكن إلا من بعد أن توخيت فيها من معاني النحو، وهو أن أردت جعل الاسم الذي فكرت [١٣٢] فيه خبراً عن شيء أردت فيه مدحاً أو ذماً أو تشبيهاً أو غير ذلك من الأغراض، ولم تجئ إلى فعل أو اسم ففكرت فيه فرداً ومن غير أن كان لك قصد أن تجعله خبراً أو غير خبر فاعرف ذلك وإن أردت مثلاً فخذ بيتَ بشار^(٢):

كَانَ مُشَارَ النَّفْعِ فَوْقَ رُؤُوسِنَا وَأَسْيَافُنَا لَيْلٌ تَهَاوَى كَوَاكِبُهُ

وانظر هل يتصور أن يكون بشارٌ قد أخطرَ معاني هذا الكلم بباله أفراداً عاريةً من معاني النحو التي تراها فيها، وأن يكونَ قد وقعَ «كان» في نفسه من غير أن يكونَ قصْدَ إيقاع التشبيه منه على شيء، وأن يكونَ فكر في «مثار النفع» من غير أن يكونَ أراد إضافة الأول إلى الثاني، وفكر في «فوق رؤوسنا» من غير أن يكونَ قد أراد أن يضيفَ «فوق» إلى الرؤوس، وفي الأسياف من دون أن يكونَ أراد عطفها بالواو على «مثار» وفي الواو من دون أن يكونَ أرادَ العطف بها، وأن يكونَ كذلك فكر في «الليل» من دون أن يكونَ أراد أن يجعله خبراً لـ «كان»، وفي «تَهَاوَى كَوَاكِبُهُ» من دون أن يكونَ أراد أن يجعل تهاوى فعلاً للكواكب ثم يجعل الجملة ليل ليم الذي أراد من التشبيه؟ أم لم تُخَطِرْ هذه الأشياء بباله إلا مراداً فيه هذه الأحكام والمعاني التي تراها فيها؟ وليت شعري كيف يتصور وقوعُ قصدٍ منك إلى معنى كلمةٍ من دون أن تريدَ تعليقها بمعنى كلمةٍ أخرى.. ومعنى القصد إلى معاني الكلم أن تُعَلِّمَ السامعَ بها شيئاً لا يعلمه؟ ومعلوم أنك أيها المتكلم لست تقصد أن تعلم السامع معاني الكلم المفردة التي تكلمه بها. فلا تقول: خرج زيد؛ لتعلمه معنى خرج في اللغة ومعنى زيد، كيف

(١) ما بين معقوفتين سقط من (أ).

(٢) في ديوانه ٣٠٥/١، ٣١٨. ووقع في الأغاني عند ذكر بعض أبيات هذه القصيدة أنه

مدح بها يزيد بن عمر بن هبيرة. الأغاني ١٩١/٣

ومحال أن تكلمه بالفاظ لا يعرف هو معانيها كما تعرف؟ ولهذا لم يكن الفعل وحده من دون الاسم ولا الاسم وحده من دون اسم آخر أو فعل [١٣٢ ب] كلاماً، وكنت لو قلت: «خرج» ولم تأت باسم ولا قدرت فيه ضمير الشيء، أو قلت: «زيد» ولم تأت بفعل ولا اسم آخر ولم تضميره في نفسك كان ذلك وصوتاً تصوته سواء فاعرفه.

واعلم أن مثل واضح الكلام مثل من يأخذ قطعاً من الذهب أو الفضة فيذيب بعضها في بعض حتى تصير قطعة واحدة. وذلك أنك إذا قلت: ضرب زيد عمراً يوم الجمعة ضرباً شديداً تأديباً له؛ فإنك تحصل من مجموع هذه الكلم كلها على مفهوم هو معنى واحد لا عِدَّة معانٍ كما يتوهمه الناس، وذلك لأنك لم تأت بهذه الكلم لتفيده أنفس معانيها وإنما جئت بها لتفيده وجوه التعلق التي بين الفعل الذي هو ضَرْب وبين ما عمل فيه والأحكام التي هي محصول التعلق. وإذا كان الأمر كذلك فينبغي لنا أن ننظر في المفعولية من عمرو وكون يوم الجمعة زماناً للضرب وكون الضرب ضرباً شديداً وكون التأديب علة للضرب أيتصور فيها أن تفرد عن المعنى الأول الذي هو أصل الفائدة وهو إسناد ضَرْب إلى زيد وإثبات الضَرْب به له حتى يعقل كون عمرو مفعولاً به وكون يوم الجمعة مفعولاً فيه وكون ضرباً شديداً مصدرأ وكون التأديب مفعولاً له من غير أن يخطر ببالك كون زيد فاعلاً للضرب؟ وإذا نظرنا وجدنا ذلك لا يتصور لأن عمراً مفعول لضرب وقَعَ من زيد عليه ويوم الجمعة زماناً لضرب وقع من زيد وضرباً شديداً بياناً لذلك الضرب كيف هو وما صفته والتأديب علة له وبيان أنه كان الغرض منه. وإذا كان ذلك كذلك بَانَ منه وثَبِتَ أن المفهوم من مجموع الكلم معنى واحد لا عدة معانٍ وهو إثباتك زيداً فاعلاً ضرباً لعمرو في وقت كذا وعلى صفة كذا ولغرض كذا، ولهذا المعنى تقول إنه كلام واحد.

وإذ قد [١٣٣ أ] عرفت هذا فهو العبرة أبداً، فبيئتُ بشار إذا تأملتَه وجدته كالخَلْقَة المفرغة التي لا تقبل التقسيم، ورأيتَه قد صنعَ في الكلم التي فيه ما يصنعه الصانع حين يأخذ كِسْراً من الذهب فيذيبها ثم يصبها في قالب

ويخرجها لك سواراً أو خلخالاً. وإن أنت حاولت قطع بعض ألفاظ البيت عن بعض كنت كمن يكسر الحلقة ويفصم السوار، وذلك أنه لم يرد أن يشبه النقع بالليل على حدة والأسياف بالكواكب على حدة، ولكنه أراد أن يشبه النقع والأسياف تجول فيه بالليل في حال ما تنكدر الكواكب وتهاوى فيه، فالمفهوم من الجميع مفهوم واحد والبيت من أوله إلى آخره كلام واحد. فانظر الآن ما تقول في اتحاد هذه الكلم التي هي أجزاء البيت، أتقول إن ألفاظها اتحدت فصارت لفظة واحدة أم تقول إن معانيها اتحدت فصارت الألفاظ من أجل ذلك كأنها لفظة واحدة؟ فإن كنت لا تشك أن الاتحاد الذي تراه هو في المعاني إذ كان من فساد العقل ومن الذهاب في الخبل أن يتوهم متوهم أن الألفاظ يندمج بعضها في بعض حتى تصير لفظة واحدة، فقد أراك ذلك - إن لم تكابر عقلك - أن النظم يكون في معاني الكلم دون ألفاظها، وأن نظمها هو توحي معاني النحو فيها. وذلك أنه إذا ثبت الاتحاد وثبت أنه في المعاني فينبغي أن تنظر إلى الذي به اتحدت المعاني في بيت بشار، وإذا نظرنا لم نجدتها اتحدت إلا بأن جعل مَثَارَ النقع اسمَ كان وجعلَ الظرف الذي هو «فوق رؤوسنا» معمولاً لمَثَارَ ومعلقاً به، وأشركَ الأسيافَ في كان بعطفه لها على مَثَارَ، ثم بأن قال: ليلٌ تهاوى كواكبه، فأتى بالليل نكرةً وجعل جملة قوله: تهاوى كواكبه، له صفة، ثم جعل مجموع «ليل تهاوى كواكبه» خبراً لكان. فانظر هل ترى شيئاً كان الاتحاد به غير ما عدّدناه، وهل تعرف له موجباً سواه؟ فلولا الإخلادُ إلى الهوينى وترك النظر وغطاءُ ألقى على عيون أقوام لكان ينبغي أن يكونَ في هذا [١٣٣ ب] وحده الكفاية وما فوق الكفاية ونسأل الله تعالى التوفيق.

واعلم أن الذي هو آفة هؤلاء الذين لهجوا بالأباطيل في أمر اللفظ أنهم قوم قد أسلموا أنفسهم إلى التخيل، وألقوا مقادّتهم إلى الأوهام، حتى عدلت بهم عن الصواب كلَّ معدل، ودخلت بهم من فحش الغلط في كل مدخل، وتعسّفت بهم في كل منجھل، وجعلتهم يرتكبون في نُصرة رأيهم الفاسد القول بكل محال، ويقتحمون في كل جهالة، حتى إنك لو قلتَ لهم: إنه لا يتأتى للناظم نظمه إلا بالفكر والروية، فإذا جعلتم النظم في الألفاظ لزمكم من ذلك أن تجعلوا فكر

الإنسان إذا هو فُكِّر في نظم الكلام فكراً في الألفاظ التي يريد أن ينطق بها دون المعاني، لم يبالوا أن يرتكبوا ذلك وأن يتعلقوا فيه بما في العادة ومَجْرَى الجبلة من أن الإنسان يُخَيَّل إليه إذا هو فُكِّر أنه كان ينطق في نفسه بالألفاظ التي يفكّر في معانيها حتى يرى أن يسمّعها سماعه لها حين يخرجها من فيه وحين يجري بها اللسان. وهذا تجاهلٌ لأن سبيلَ ذلك سبيلُ إنسانٍ يتخيَّل دائماً في الشيء قد رآه وشاهدَه أنه كأنه يراه وينظر إليه، وأن مثاله نَضْبُ عينيه، فكما لا يوجب هذا أن يكون راثياً له، وأن يكون الشيء موجوداً في نفسه، كذلك لا يكون تخيله أنه كان ينطق بالألفاظ موجباً أن يكون ناطقاً بها. وأن تكونَ موجودةً في نفسه حتى يجعلَ ذلك سبباً إلى جعل الفكر فيها، ثم إنا نعملُ على أنه ينطقُ بالألفاظ في نفسه وأنه يجدها فيها على الحقيقة فمن أين لنا أنه إذا فكر كان الفكرُ منه فيها؟ أم ماذا يرومُ لَيْتَ شعري بذلك الفكر. ومعلوم أن الفكر من الإنسان يكونُ في أن يخبرَ عن شيء بشيء أو يصفَ شيئاً بشيء أو يضيفَ شيئاً إلى شيء أو يُشركَ شيئاً في حكم شيء أو يخرجَ شيئاً من حكم قد سبق منه لشيء أو يجعلَ وجود شيء شرطاً في وجود شيء، وعلى هذا السبيلُ؟ وهذا كله [١٣٤] فكر في أمور معلومة معقولة زائدة على اللفظ.

وإذا كان هذا كذلك لم يخلُ هذا الذي يُجَعَلُ في الألفاظ فكراً من أحدٍ أمرين: إما أن يُخرجَ هذه المعاني من أن يكونَ لواضعِ الكلام فيها فكراً ويجعلَ الفِكْرَ كُلَّهُ في الألفاظ، وإما أن يجعلَ له فكراً في اللفظ مفرداً عن الفكرة في هذه المعاني، فإنْ ذهبَ إلى الأول لم يكلم، وإنْ ذهبَ إلى الثاني لَزِمَه أن يجوِّزَ وقوعَ فكرٍ من الأعجمي الذي لا يعرفُ معانيَ ألفاظِ العربية أصلاً في الألفاظ وذلك مما لا يَحْفَى مكانُ الشنعة والفضيحة فيه.

وشبيه بهذا التوهّم منهم أنك قد ترى أحدهم يعتبر حالَ السامع فإذا رأى المعاني لا تترتب في نفسه إلا بترتب الألفاظ في سمعه ظنّاً عند ذلك أن المعاني تبعٌ للألفاظ، وأن الترتب فيها مكتسبٌ من الألفاظ ومن ترتبها في نطق المتكلم، وهذا ظنٌّ فاسدٌ ممن يظنه، فإنّ الاعتبار ينبغي أن يكون بحالِ الواضع للكلام

والمؤلف له، والواجب أن ينظر إلى حال المعاني معه لا مع السامع، وإذا نظرنا علمنا ضرورة أنه مُحال أن يكون الترتُّب فيها تبعاً لترتُّب الألفاظ ومكتسباً عنه لأن ذلك يقتضي أن تكون الألفاظ سابقة للمعاني وأن تقع في نفس الإنسان أولاً ثم تقع المعاني من بعدها وتالية لها بالعكس مما يعلمه كلُّ عاقل إذا هو لم يؤخذ عن نفسه، ولم يضرب حجاب بينه وبين عقله، وليت شعري هل كانت الألفاظ إلّا من أجل المعاني؟ وهل هي إلّا خدمٌ لها، ومصرفة على حكمها؟ أوليست هي سماتٍ لها، وأوضاعاً قد وضعت لتدلّ عليها؟ فكيف يتصور أن تسبق المعاني وأن تتقدمها في تصور النفس؟ إن جاز ذلك جاز أن تكون أسامي الأشياء قد وضعت قبل أن عرفت الأشياء وقبل أن كانت، وما أدري ما أقول في شيء يجزّ الذاهبين إليه إلى أشياء هذا من فنون المحال، ورديء الأقوال.

وهذا سؤالٌ لهم من جنسٍ آخر في النظم، قالوا: لو كان [١٣٤ ب] النظم يكون في معاني النحو لكان البدوي الذي لم يسمع بالنحو قط ولم يعرف المبتدأ والخبر شيئاً مما يذكرونه لا يتأتى له نظمٌ كلام، وإنا لنراه يأتي في كلامه بنظم لا يحسنه المتقدم في علم النحو. قيل: هذه شبهة من جنس ما عرض للذين عابوا المتكلمين فقالوا: إنا نعلم أن الصحابة رضي الله عنهم والعلماء في الصدر الأول لم يكونوا يعرفون الجوهر والعرض وصفة النفس وصفة المعنى وسائر العبارات التي وضعتوها، فإن كان لا تتم الدلالة على حدوث العالم والعلم بوحدانية الله إلّا بمعرفة هذه الأشياء التي ابتدأتها فينبغي لكم أن تدعوا أنكم قد علمتم في ذلك ما لم يعلموه وأن منزلتكم في العلم أعلى من منازلهم. وجوابنا هو مثل جواب المتكلمين وهو أن الاعتبار بمعرفة مدلول العبارات لا بمعرفة العبارات، فإذا عرّف البدوي الفرق بين أن يقول: جاءني زيد ركباً، وبين قوله: جاءني زيد الراكب؛ لم يضره أن لا يعرف أنه إذا قال: «راكباً» كانت عبارة النحويين فيه أن يقولوا في «راكب» إنه حال، وإذا قال: «الراكب» إنه صفة جارية على زيد. وإذا عرّف في قوله: زيد منطلق، أن زيدا مخبر عنه ومنطلق خبر لم يضره أن لا يعلم أننا نسمي زيدا مبتدأ. وإذا عرّف في قولنا: ضربته تأديباً له؛ أن المعنى في التأديب أنه غرضه من الضرب وأن ضربه ليتأدب

لم يضره أن لا يعلمَ أنا نسمي التأديبَ مفعولاً له. ولو كان عَدَمُ العلم بهذه العباراتِ يمنعه العلمُ بما وضعناها له وأردناها بها لكان ينبغي أن لا يكونَ له سبيلٌ إلى بيان أغراضه وأن لا يفصلَ فيما يتكلَّم به بين نفي وإثبات وبين «ما» إذا كان استفهاماً وبينه إذا كان بمعنى الذي وإذا كان بمعنى المجازاة، لأنه لم يسمع عباراتنا في الفرقِ بين هذه المعاني. أترى الأعرابي حين [١٣٥] سمع المؤذن يقول: أشهدُ أنَّ محمداً رسول الله، بالنصب فأنكر وقال: صَنَعَ ماذا؟ أنكر عن غير علم أن النصبَ يُخرِجه عن أن يكونَ خبراً ويجعله والأوَّل في حكم اسم واحد، وأنه إذا صار والأوَّل في حكم اسم واحد احتيج إلى اسم آخر أو فعل حتى يكونَ كلاماً وحتى يكون قد ذَكَرَ ما له فائدة؟ إن كان لم يعلم ذلك فلماذا قال: صَنَعَ ماذا؟ فطلب ما يجعله خبراً.

ويكفيك أن يلزم على ما قالوه أن يكونَ امرؤ القيس حينَ قال:

❁ قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل ❁

قاله وهو لا يعلمُ ما نعنيه بقولنا: إنَّ «قفا» أمرٌ و «نبك» جوابُ الأمر و «ذكرى» مضافٌ إلى «حبيب» و «منزل» معطوفٌ على الحبيب، وأن تكونَ هذه الألفاظُ قد رُبَّت له من غير قصدٍ منه إلى هذه المعاني، وذلك يوجبُ أن يكونَ قال نَبَك بالجزم من غير أن يكونَ عرف معنى يوجبُ الجزم وأتى به مؤخراً عن قفا من غير أن عرف لتأخيره موجباً سوى طلب الوزن. ومن أفضت به الحال إلى أمثال هذه الشناعاتِ ثم لم يرتدِّع ولم يتبيَّن أنه على خطأ فليس إلّا تركه وإعراض عنه.

ولولا أنا نحبُّ أن لا ينبسَ أحدٌ في معنى السؤال والاعتراض بحرف إلا أريناه الذي استهواه لكان تركُ التشاغل بإيراد هذا وشبهه أولى، ذاك لأننا قد علمنا علم ضرورة أنا لو بقينا الدهر الأطول نصعدُ ونصوبُ ونبحثُ وننقبُ، نبتغي كلمةً قد اتصلت بصاحبةٍ لها، ولفظةً قد انتظمت مع أختها، من غير أن نتوَحَّى فيما بينهما معنىً من معاني النحو، طلبنا ممتنعاً، وثنيينا مطايا الفكر ظُلماً، فإن كان ههنا من يشك في ذلك ويزعم أنه قد علم لاتصال الكلم بعضها

ببعض وانتظام الألفاظ بعضها مع بعض معاني غير معاني النحو فإننا نقول: هاتِ
فبين لنا تلك المعاني وأرنا مكانها واهدنا لها، فلعلك قد أوتيت علماً قد حُجِبَ
عنا، وفُتِحَ لك [١٣٥ ب] باب قد أغلق دوننا:

وذاك له إذا العنقاء صارت مُرَبَّبةً وشبَّ ابنُ الحَصِيّ^(١)



(١) العنقاء: في اللسان (عنق) العنقاء المغرب طائر لم يره أحد (وهمي) والمرَبُّبُ كالْمُرَبَّى
والْحَصِيّ لا ينبغي. ضرب الشاعر العنقاء والحَصِيّ مثلاً.

فصل

في الفصاحة والتشبيه والاستعارة

قد أردتُ أن أعيدَ القولَ في شيء هو أصلُ الفساد ومعظم الآفة والذي صار حِجَازاً بين القوم وبين التأمل، وأخذ بهم عن طريق النظر، وحال بينهم وبين أن يصغوا إلى ما يقالُ لهم، وأن يفتحوا للذي تبينَ أعينُهُم، وذلك قولُهُم: إن العقلاء قد اتفقوا على أنه يصحُّ أن يعبرَ عن المعنى الواحد بلفظين ثم يكون أحدهما فصيحاً والآخر غير فصيح؛ وذلك - قالوا - يقتضي أن يكونَ للفظ نصيب في المزية، لأنها لو كانت مقصورةً على المعنى لكان محالاً أن يجعل لأحد اللفظين فضلٌ على الآخر مع أنَّ المعبرَ عنه واحد. وهذا شيء تراهم يعجبون به ويكثرون ترداده مع أنهم يؤكِّدونه فيقولون: لولا أن الأمر كذلك لكان ينبغي أن لا يكونَ للبيت من الشعر فضلٌ على تفسيرِ المفسِّر له، لأنه إن كان اللفظ إنما يشرف من أجل معناه فإن لفظ المفسِّر يأتي على المعنى ويؤديه لا محالة، إذ لو كان لا يؤديه لكان لا يكون تفسيراً له، ثم يقولون: وإذا لزم ذلك في تفسير البيت من الشعر لزم مثله في الآية من القرآن. وهم إذا انتهوا في الحجاج إلى هذا الموضع ظنوا أنهم قد أتوا بما لا يجوز أن يُسمعَ عليهم معه كلامٌ، وأنه نقض ليس بعده إبرام، وربما أخرجهم الإعجابُ به إلى الضحك والتعجبِ ممن يرى أن إلى الكلام عليه سبيلاً، وأن يستطيع أن يقيمَ على بطلان ما قالوه دليلاً.

والجواب وبالله التوفيق أن يقال للمحتج بذلك: قولك إنه يصح أن يعبر عن المعنى الواحد بلفظين يَحْتَمِلُ أمرين (أحدهما) أن تريد باللفظين كلمتين معناه واحد في اللغة مثل الليث والأسد ومثل شَحَطَ وَبَعُدَ وأشباه ذلك مما وُضِعَ اللفظان فيه لمعنى (والثاني) أن تريد كلامين. فإن أردت الأول خرجت من المسألة [١٣٦] لأن كلامنا نحن في فصاحة تَحْدُثُ من بعد التأليف دون الفصاحة التي توصفُ بها اللفظة مفردة ومن غير أن يُعْتَبَرُ حالها مع غيرها، وإن أردت الثاني ولا بُدَّ لك من أن تريدَه فإن ههنا أصلاً مَنْ عَرَفَه عرف سقوط هذا الاعتراض، وهو أن يعلمَ أنَّ سبيلَ المعاني سبيلَ أشكالِ الحُلِيِّ كالخاتم والشنف والسوار، فكما أن من شأن هذه الأشكال أن يكون الواحد منها غفلاً ساذجاً لم يعمل صانعُه فيه شيئاً أكثرَ من أن يأتي بما يقع عليه اسم الخاتم إن كان خاتماً والشفن إن كان شنفاً، وأن يكون مصنوعاً بديعاً قد أغرب صانعه فيه؛ كذلك سبيل المعاني أن ترى الواحد منها غفلاً ساذجاً عامياً موجوداً في كلام الناس كلهم ثم تراه نفسه وقد عَمَدَ إليه البصير بشأن البلاغة وإحداثِ الصُّور في المعاني فيصنعُ فيه ما يصنع الصَّنْعُ الحاذق حتى يُغْرِبَ في الصنعة وَيُدِقَّ في العمل ويبدع في الصياغة، وشواهد ذلك حاضرة لك كيف شئت، وأمثله نصب عينيك من أين نظرت، تنظر إلى قول الناس: الطبع لا يتغير ولستَ تستطيع أن تخرج الإنسان عما جُبِلَ عليه، فترى معنى غفلاً عامياً معروفاً في كل جيل وأمة، ثم تنظرُ إليه في قول المتنبي^(١):

يُرَادُ مِنَ الْقَلْبِ نَسْبَانُكُمْ وتأبى الطَّبَاعُ عَلَى النَّاقِلِ

فتجده قد خَرَجَ في أحسن صورة، وتراه قد تحوَّلَ جوهره بعد أن كان خرزة، وصار أعجب شيء بعد أن لم يكن شيئاً.

وإذا قد عرفت ذلك فإن العقلاء إلى هذا قصدوا حين قالوا إنه يصح أن يعبر عن المعنى الواحد بلفظين ثم يكون أحدهما فصيحاً والآخر غير فصيح؛ كأنهم

(١) ديوانه (الواحدى): ٣٩٥ من قصيدة في مدح سيف الدولة قالها سنة سبع وثلاثين وثلاثمئة.

قالوا إنه يصحُّ أن تكون ها هنا عبارتان أصلُ المعنى فيهما واحد ثم يكون لإحدهما في تحسين ذلك المعنى وتزيينه وإحداث خصوصية فيه تأثير لا يكون للأخرى.

واعلم أنَّ المخالف لا يخلو من أن يُنكر [١٣٦ ب] أن يكون للمعنى في إحدى العبارتين حسنٌ ومزية لا يكونان له في الأخرى وأن تحدث فيه على الجملة صورة لم تكن أو يعرف ذلك. فإن أنكر لم يكلم لأنه يؤديه إلى أن لا يجعل للمعنى في قوله:

❁ وتأبى الطَّبَاعُ عَلَى النَّاقِلِ ❁

مزية على الذي يُغفل من قولهم: الطبع لا يتغير ولا يستطيع أن يخرج الإنسان عما جُبلَ عليه. وأن لا يرى لقول أبي نواس^(١):

وَلَيْسَ لِلَّهِ^(٢) بِمُسْتَنْكَرٍ أَنْ يَجْمَعَ الْعَالَمَ فِي وَاحِدٍ

مزية على أن يقال: «غيرُ بدیع في قدرة الله تعالى أن يجمع فضائل الخلق كلهم في رجل واحد» ومن آذاه قولٌ يقوله إلى مثل هذا كان الكلام معه محالاً، وكنت إذا كلفته أن يعرف كمن يكلف أن يميز بحور الشعر بعضها من بعض فيعرف المديد من الطويل والبسيط من السريع من ليس له ذوقٌ يقيم به الشعر من أصله، وإن اعترف بأن ذلك يكون قلنا له: أخبرنا عنك أتقول في قوله:

❁ وتأبى الطَّبَاعُ عَلَى النَّاقِلِ ❁

إنه غاية في الفصاحة؟ فإذا قال: نعم قيل له: أو كان كذلك عندك من أجل حروفه أم من أجل حسنٍ ومزية حصلا في المعنى؟ فإن قال: من أجل حروفه؛ دخل في الهذيان، وإن قال: من أجل حسنٍ ومزية حصلا في المعنى، قيل له: فذاك ما أردناك عليه حين قلنا إن اللفظ يكون فصيحاً من أجل مزية تقع في معناه، لا من أجل جرسه وصداه.

(١) ديوان أبي نواس: ٤٥٤ من قطعة في مدح هارون الرشيد.

(٢) في (ط): وليس على الله بمستنكر. وهي رواية أخرى أشار إليها في الديوان.

واعلم أنه ليس شيء أبين وأوضح وأحرى أن يكشف الشبهة عن متأمله في صحة ما قلناه من التشبيه فإنك تقول: زيد كالأسد أو مثل الأسد أو شبيهه بالأسد، فتجد ذلك كله تشبيهاً غفلاً ساذجاً، ثم تقول: كأن زيدا الأسد، فيكون تشبيهاً أيضاً، إلا أنك ترى بينه وبين الأول بوناً بعيداً لأنك ترى له صورة خاصة وتجدر قد فحمت المعنى وزدت فيه بأن أفدت أنه من الشجاعة وشدة البطش وأن [١٣٧] قلبه قلب لا يخامره الذعر^(١) ولا يدخله الروع بحيث يتوهم أنه الأسد بعينه. ثم تقول: لئن لقيته ليلقيك منه الأسد، فتجده قد أفاد هذه المبالغة ولكن^(٢) في صورة أحسن، وصفة أخص، وذلك أنك تجعله في «كأن» يتوهم أنه الأسد، وتجعله ها هنا يرى منه الأسد على القطع، فيخرج الأمر على^(٣) حدّ التوهم إلى حدّ اليقين. ثم إن نظرت إلى قوله^(٤):

أَنَّ أُرْعَشْتَ كَمَا أَبِيكَ وَأَصْبَحْتَ بَدَاكَ يَدَي لَيْسَ فِائِكَ غَالِبُهُ

وجدته قد بدا لك في صورة آتق وأحسن. ثم إن نظرت إلى قول أرتاة بن سُهَيْل^(٥):

(١) الذعر: سقطت من (أ).

(٢) الواو سقطت من (ط).

(٣) في (ط) و (ب): عن حدّ التوهم.

(٤) هو الفرزدق كما في الأغاني ٣٥٢/٢١، وديوانه ١٢٤/١ وفيهما:

أَنَّ أُرْعَشْتَ كَمَا أَبِيكَ وَأَصْبَحْتَ بَدَاكَ يَدَا لَيْسَ فِائِكَ جَاذِبُهُ

إِذَا غَالِبَ ابْنِ الشَّبَابِ أَبَا لَهُ كَبِيرًا فَلِئِنَّ اللَّهَ لَا بُدَّ غَالِبُهُ

(٥) هو أرتاة بن زُفَر الذبياني وسُهَيْل أمه سَبِيَّة من كلب، وكانت لضرار بن الأزور ثم صارت إلى زُفَر وهي حامل فجاءت بأرتاة من ضرار على فراش زُفَر.

وهو شاعر فصيح، في طبقات الشعراء المعدودين من شعراء الإسلام في دولة بني أمية لم يسبقها ولم يتأخر عنها. وكان امرأ صدق شريفاً في قومه جواداً. (الأغاني ٢٧/١٣ -

٢٨، السمت ٦٣٠/٢، الشعر والشعراء ٥٢٢/١ - ٥٢٣).

- والبيت مطلع قصيدة في هجاء شبيب بن البرصاء وقد بلغه أن شبيباً قد تمنى لقاءه في

يوم قتال. انظر الأغاني ٣٢/١٣ - ٣٣

إِنْ تَلَقَّنِي لَا تَرَى غَيْرِي بِنَظَرَةٍ تَنْسُ السَّلَاحَ وَتَعْرِفُ جَبْهَةَ الْأَسَدِ

وجدته قد فضلَ الجميع، ورأيتَه قد أخرج في صورة غير تلك الصور كلها. واعلم أن من الباطل والمحال ما يعلم الإنسان بطلانه واستحالته بالرجوع إلى النفس حتى لا يَشْكُ، ثم إنه إذا أراد بيان ما يجد في نفسه والدلالة عليه رأى المسلك إليه يغمض ويدق. وهذه الشبهة - أعني قولهم: إنه لو كان يجوز أن يكون الأمرُ على خلاف ما قالوه من أنَّ الفصاحة وصفٌ للفظ من حيث هو لفظ لكان ينبغي أن لا يكون للبيت من الشعر فضلٌ على تفسير المفسر. إلى آخره - من ذاك، وقد علقت لذلك بالنفوس وقويت فيها حتى إنك لا تلقي إلى أحدٍ من المتعلقين بأمر اللفظ كلمة مما نحن فيه إلا كان هذا أول كلامه، وإلا عَجِبَ وقال: إن التفسير بيانٌ للمفسر فلا يجوز أن يبقى من معنى المفسر شيء لا يؤديه التفسير ولا يأتي عليه لأن في تجويز ذلك القول بالمحال وهو أن لا يزال يبقى من معنى المفسر شيء لا يكون إلى العلم به سبيلٌ. وإذا كان الأمرُ كذلك ثَبَتَ أن الصحيح من أنه لا يجوز أن يكون للفظ المفسر فضلٌ من حيث المعنى على لفظ التفسير [١٣٧ ب] وإذا لم يَجُزْ أن يكون الفضلُ من حيث المعنى لم يبقَ إلا أن يكون من حيث اللفظ نفسه. فهذا جملة ما يمكنهم أن يقولوه في نُضْرَةِ هذه الشبهة قد استقصيته لك. وإذ قد عرفته فاسمع الجواب، وإلى الله تعالى الرغبة في التوفيق للصواب:

اعلم أن قولهم: إنَّ التفسيرَ يجب أن يكونَ كالمفسر، دعوى لا تصح لهم إلا من بُعد أن ينكروا الذي بيناه من أنَّ من شأن المعاني أن تختلف بها الصور ويدفعوه أصلاً حتى يدَّعوا أنه لا فرق بين الكناية والتصريح، وأنَّ حال المعنى مع الاستعارة كحاله مع ترك الاستعارة، وحتى يبتلوا ما أطبق عليه العقلاء من أن المجازَ يكون أبداً أبلغ من الحقيقة، فيزعموا أن قولنا: طويلُ النجاد وطويلُ القامة: واحدٌ، وأنَّ حال المعنى في بيت ابن هرمة:

❁ ولا أبتاع إلا قربةً لأجل^(١) ❁

(١) صدره: لا أمتع العود بالفصال ولا... ورد البيت قبل.

كحالِه في قولك: أنا مضياف. وأنت إذا قلت: رأيتُ أسداً، لم يكن الأمرُ أقوى من أن تقول: رأيتُ رجلاً هو من الشجاعة بحيث لا ينقصُ عن الأسد. ولم تكن قد زدْتَ في المعنى بأن ادَّعيتَ له أنه أسدٌ بالحقيقة ولا بالغتَ فيه، وحتى يزعموا أنه لا فضلَ ولا مزيةَ لقوله: أَلقيْتُ حبلَه على غاربه. على قولك في تفسيره: خَلَيْتُهُ وما يريدُ وتركته يفعلُ ما يشاء. وحتى لا يجعلوا للمعنى في قوله تعالى: ﴿وَأَشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْوَجَلَ﴾ [البقرة: ٩٣/٢]^(١) مزيةً على أن يقال: اشتدت محبَّتُهُم للعجل وغلبت على قلوبهم، وأن تكون صورةُ المعنى في قوله عزَّ وجل: ﴿وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مريم: ٤/١٩] صورته^(٢) في قول من يقول: وشاب رأسي كلُّه وابتيض رأسي كلُّه. وحتى لا يروا فرقاً بين قوله تعالى: ﴿فَمَا رِيحَتْ بِحَنِّ جَنَدِثُهُمْ﴾ [البقرة: ١٦/٢] وبين: فما ربحوا في تجارتهم. وحتى يرتكبوا جميع ما أريناك الشناعة فيه من أن لا يكون فرقٌ بين قول المتنبّي: «وتأبى الطباغ على الناقل» وبين قولهم: إنك لا تقدر أن تغير طباغ الإنسان. ويجعلوا حالَ المعنى في قول أبي نواس^(٣): [١٣٨ أ]

وَلَيْسَ لَهِ بِمُسْتَنْكَرٍ أَنْ يَجْمَعَ الْعَالَمَ فِي وَاحِدٍ

كحالِه في قولنا: إنه ليس ببديع في قدرة الله أن يجمع فضائلَ الخلق كلِّهم في واحد. ويرتكبوا ذلك في الكلام كلُّه حتى يزعموا أنا إذا قلنا في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩/٢] أن المعنى فيها أنه لما كان الإنسان إذا همَّ بقتل آخر لشيء غاظه منه فذكر أنه إن قُتله قُتِل ارتدع صار المهموم بقتله كأنه قد استفاد حياةً فيما يستقبل بالقصاص، كما قد أدينا المعنى في تفسيرنا هذا على صورته التي هو عليها في الآية حتى لا نعرف فضلاً، وحتى يكون حالُ

(١) والآية الكريمة: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمِعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْوَجَلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ يَسِّرْنَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٩﴾﴾.

(٢) صورته: سقطت من (أ).

(٣) ديوانه: ٤٥٤

الآية والتفسير حال اللفظتين إحداهما غريبة والأخرى مشهورة فتفسر الغريبة بالمشهورة، مثل أن تقول مثلاً في الشرجب إنه الطويل وفي القِط إنه الكتاب وفي الدُّسر إنه المسامير. ومن صار الأمر به إلى هذا كان الكلام معه محالاً.

واعلم أنه ليس عجيبٌ أعجب من حال من يرى كلامين أجزاءً أحدهما مخالفة في معانيها لأجزاء الآخر ثم يرى أنه يسع في العقل أن يكون معنى أحد الكلامين مثل معنى الآخر سواء حتى يتصدى فيقول: إنه لو كان يكون الكلام فصيحاً من أجل مزية تكون في معناه لكان ينبغي أن توجد تلك المزية في تفسيره، ومثله في العجب أنه ينظر إلى قوله تعالى: ﴿فَمَا رَیَحَتْ یَحَرَّتُهُمْ﴾ فيرى إعراب الاسم الذي هو التجارة قد تغير فصار مرفوعاً بعد أن كان مجروراً، ويرى أنه قد حُذِفَ من اللفظ بعض ما كان فيه وهو الواو في «ربحوا» و «في» من قولنا: في تجارتهم. ثم لا نعلم أن ذلك يقتضي أن يكون المعنى قد تغير كما تغير اللفظ.

واعلم أنه ليس للحجج والدلائل في صحة ما نحن عليه حدٌ ونهاية وكلما انتهى منه بابٌ انفتح فيه بابٌ آخر. وقد أردت أن آخذ في نوع آخر من الحجاج ومن البسط والشرح فتأمل ما أكتبه لك.

اعلم أن الكلام الفصيح ينقسم قسمين: قسم [١٣٨ ب] تُعزى المزية والحسن فيه إلى اللفظ وقسم يعزى ذلك فيه إلى النظم. فالقسم الأول: الكناية والاستعارة والتمثيل الكائن على حد الاستعارة وكل ما كان فيه على الجملة مجاز واتساع وعدول باللفظ عن الظاهر، فما من ضرب من هذه الضروب إلا وهو إذا وقع على الصواب وعلى ما ينبغي أوجب الفضل والمزية، فإذا قلت: هو كثيرٌ رماد القدر، كان له موقعٌ وحظٌ من القبول لا يكون إذا قلت: هو كثيرُ القِرَى والضيافة. وكذا إذا قلت: هو طويلُ النجاد، كان له تأثيرٌ في النفس لا يكون إذا قلت: هو طويلُ القامة. وكذا إذا قلت: رأيتُ أسداً، كان له مزية لا تكون إذا قلت: رأيتُ رجلاً يشبه الأسد ويساويه في الشجاعة. وكذلك إذا قلت: أراك تقدّم رجلاً وتؤخر أخرى، كان له موقع لا يكون إذا قلت: أراك تتردد في الذي

دعوتك إليه كمن يقول أخرجُ ولا أخرج فيقدم رجلاً ويؤخر أخرى. وكذلك إذا قلت: ألقى حبله على غاربه^(١)، كان له مأخذٌ من القلب لا يكون إذا قلت: هو كالبعير الذي يُلْقَى حبله على غاربه حتى يرعى كيف يشاء ويذهب حيث يريد. لا يجهل المزية فيه إلا عديمُ الحس، ميتُ النفس، وإلا من لا يكلم، لأنه من مبادي المعرفة التي من عديمها لم يكن للكلام معه معنى.

وإذ قد عرفت هذه الجملة فينبغي أن ننظرَ إلى هذه المعاني واحداً واحداً وتعرفَ محصلها وحقائقها، وأن ننظرَ أولاً إلى الكناية وإذا نظرتَ إليها وجدتَ حقيقتها ومحصولَ أمرها إثباتٌ لمعنى أنت تعرف ذلك المعنى من طريق المعقول دونَ طريق اللفظ. ألا ترى أنك لَمَّا نظرتَ إلى قولهم: هو كثيرُ رمادٍ القدر، وعرفتَ منه أنهم أرادوا أنه كثيرُ القرى والضيافة، لم تعرف ذلك من اللفظ ولكنك عرفتَه بأن رجعتَ إلى نفسك فقلت: إنه كلام قد جاء عنهم في المدح ولا معنى [١٣٩ أ] للمدح بكثرة الرماد، فليس إلا أنهم أرادوا أن يدلُّوا بكثرة الرماد على أنه تنصبُ له القدر الكثيرُ ويطبخ فيها للقرى والضيافة، وذلك لأنه إذا كَثُرَ الطبخ في القدر كَثُرَ إحراقُ الحطب تحتها وإذا كَثُرَ إحراقُ الحطب كَثُرَ الرماد لا محالة. وهكذا السبيلُ في كلِّ ما كان كنايةً فليس من لَفْظٍ الشعر عرفتَ أن ابن هُرْمَةَ أراد بقوله:

..... ولا ابتاع إلا قربةً الأجل

التمدحُ بأنه مضياف ولكنك عرفتَه بالنظر اللطيف وبأن علمتَ أنه لا معنى للتمدح بظاهر ما يدلُّ عليه اللفظ من قرب أجل ما يشتريه فطلبتَ له تأويلاً فعلمتَ أنه أرادَ أنه يشتري ما يشتريه للأضياف فإذا اشتري شاة أو بعيراً كان قد اشتري ما قد دنا أجله لأنه يُذبح ويُنحر عن قريب.

وإذ قد عرفتَ هذا في الكناية، فالاستعارةُ في هذه القضية وذاك أن موضوعها على أنك تُثَبِّتُ بها معنى لا يعرفُ السامع ذلك المعنى من اللفظ

(١) الغارب: الكاهل من ذي الخف وهو ما بين السنام والعنق، وقيل: غارب كل شيء: أعلاه. اللسان: (غرب).

ولكنه يعرفه من معنى اللفظ. بيانُ هذا أنا نعلم أنك لا تقول: رأيتُ أسداً. إلّا و غرضك أن تُثبِتَ للرجل أنه مساوٍ للأسد في شجاعته وجرأته وشدة بطشه وإقدامه وفي أن الذعر لا يخامرُه والخوف لا يعرض له. ثم تعلم أن السامع إذا عقلَ هذا المعنى لم يعقله من لفظ أسد ولكنه يعقله من معناه، وهو أنه يَعْلَمُ أنه لا معنى لجعله أسداً مع العلم بأنه رجل، إلّا أنك أردتَ أنه بَلَغَ من شِدَّةِ مشابهته للأسد ومساواته إياه مبلغاً يُتَوَهَّمُ معه أنه أسدٌ بالحقيقة، فاعرف هذه الجملة وأحسن تأملها.

واعلم أنك ترى الناس وكأنهم يرون أنك إذا قلت: رأيتُ أسداً. وأنت تريدُ التشبيه كنتَ نقلتَ لفظَ أسدٍ عما وُضِعَ له في اللغة واستعملته في معنى غير معناه حتى كأن ليس الاستعارة إلّا أن تعتمد إلى اسم الشيء فتجعله اسماً [١٣٩ ب] لشبيهه، وحتى كأن لا فصلَ بين الاستعارة وبين تسمية المطر سماءً والنبت غيثاً والمزادة راويةً وأشياء ذلك مما يوقع فيه اسم الشيء على ما هو منه بسبب. ويذهبون عما هو مركزُ في الطباع من أن المعنى فيها المبالغة، وأن يدعى في الرجل أنه ليس برجل ولكنه أسدٌ بالحقيقة، وأنه إنما يعار اللفظ من بُعد أن يعار المعنى، وأنه لا يُشْرِكُ في اسم الأسد إلّا من بُعدٍ أن يُدْخَلَ في جنس الأسد. لا ترى أحداً يعقل إلّا وهو يعرف ذلك إذا رجَعَ إلى نفسه أدنى رجوع. ومن أجل أن كان الأمرُ كذلك رأيتَ العقلاء كلَّهم يشبتون القول بأن من شأن الاستعارة أن تكونَ أبداً أبلغَ من الحقيقة، وإلا فإن كان ليس ههنا إلّا نقلُ اسم من شيء إلى شيء فمن أين يجبُ - ليت شعري - أن تكونَ الاستعارة أبلغَ من الحقيقة؟ ويكونَ لقولنا: رأيتُ أسداً، مزيةٌ على قولنا: رأيتُ شبيهاً بالأسد؟ وقد علمنا أنَّه محالٌ أن يتغيَّرَ^(١) الشيء في نفسه بأن ينقلَ إليه اسمٌ قد وضع لغيره من بعد أن لا يراد من معنى ذلك الاسم فيه شيء بوجه من الوجوه بل يجعلُ كأنه لم يوضع لذلك المعنى الأصلي أصلاً، وفي أي عقل يتصور أن يتغير معنى «شبيهاً بالأسد» بأن يوضعَ لفظُ أسدٍ عليه وينقلَ إليه؟

(١) هنا بداية سقط من (ب).

واعلم أن العقلاء بنوا كلامهم إذ قاسوا وشبَّهوا على أن الأشياء تستحق الأسماء لخواص معانٍ هي فيها دون ما عداها، فإذا أثبتوا خاصة شيء لشيء أثبتوا له اسمه، فإذا جعلوا الرجلَ بحيث لا تنقُصُ شجاعته عن شجاعة الأسد ولا يعدم منها شيئاً قالوا: هو أسدٌ، وإذا وصفوه بالتناهي في الخير والخصال الشريفة أو بالحسن الذي يَبْهَرُ قالوا: هو مَلَكٌ، وإذا وصفوا الشيء بغاية الطيب قالوا: هو مِسْكٌ، وكذلك الحكمُ أبداً. ثم إنهم إذا استقصوا في ذلك نفوا عن المشبَّه اسمَ جنسِه فقالوا: ليس هو بإنسان وإنما هو أسدٌ، وليس هو آدمياً وإنما هو ملك [١٤٠]. كما قال الله تعالى: ﴿مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١/١٢]^(١) ثم إن لم يريدوا أن يُخرجوه عن جنسِه جملةً قالوا: هو أسدٌ في صورة إنسان وهو ملك في صورة آدمي. وقد خَرَجَ هذا للمتنبّي في أحسن عبارة وذلك في قوله^(٢):

نحنُ ركبٌ ملجّنٌ في زيّ ناسٍ فوقَ طَيرٍ لها شُخُوصُ الجمالِ!

ففي هذه الجملة بيانٌ لمن عَقَلَ أن ليست الاستعارة نقلَ اسم عن شيء إلى شيء ولكنها ادّعاء معنى الاسم لشيء إذ لو كانت نقلَ اسم وكان قولنا: رأيتُ أسداً، بمعنى رأيتُ شبيهاً بالأسد ولم يكن ادّعاء أنه أسدٌ بالحقيقة لكان محالاً أن يقال: ليس هو بإنسان ولكنه أسدٌ أو هو أسدٌ في صورة إنسان. كما أنه محالٌ أن يقال: ليس هو بإنسانٍ ولكنه شبيهٌ بأسد، أو يقال: هو شبيهٌ بأسد في صورة إنسان.

واعلم أنه قد كثر في كلام الناس استعمالُ لفظ النَّقْلِ في الاستعارة فمن ذلك قولهم: إن الاستعارة تعليقُ العبارة على غير ما وضعت له في أصل اللغة

(١) والآية الكريمة: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا وَآتَتْ كُلَّ وَجْدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ افْرُجْ عَنِّي فَلَمَّا رَأَتْهُ أَكْثَرَتْهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾.

(٢) يعني المتنبّي والبيت من قصيدة في ديوانه (الواحدي): ١٨٦. وقوله: «ملجّن» أي من الجن.

على سبيل النقل. وقال القاضي أبو الحسن^(١): الاستعارة ما اكتُفي فيه بالاسم المستعار عن الأصلي ونقِلَت العبارة فجعلت في مكان غيرها. ومن شأن ما غمض من المعاني ولطف أن يصعب تصويره على الوجه الذي هو عليه لعامة الناس فيقع لذلك في العبارات التي يعبر بها عنه ما يوهّم الخطأ، وإطلاقهم في الاستعارة أنها نقلٌ للعبارة عما وُضِعَتْ له من ذلك فلا يصحّ الأخذ به.

وذلك أنك إذا كنت لا تطلق اسم الأسد على الرجل إلّا من بعد أن تُدخِلَه في جنس الأسود من الجهة التي بينا لم تكن نقلت الاسم عما وُضِعَ له بالحقيقة لأنك إنما تكون ناقلاً إذا أنت أخرجت معناه الأصلي من أن يكون مقصودك ونفصت به يدك، فأما أن تكون ناقلاً له عن معناه مع إرادة معناه فمحال [١٤٠ ب] متناقض.

واعلم أنّ في الاستعارة ما لا يتصور تقدير النقل فيه ألبتة وذلك مثل قول لبيد^(٢):

وَعَدَاةٌ رِيحٌ قَدْ كَشَفَتْ وَفِرَّةٌ إِذْ أَضْبَحَتْ بِيَدِ الشَّمَالِ زِمَامُهَا

لا خلاف في أنّ اليد استعارة، ثم إنك لا تستطيع أن تزعم أن لفظ اليد قد نُقِلَ عن شيء إلى شيء، وذلك أنه ليس المعنى على أنه شبه شيئاً باليد فيمكنك أن تزعم أنه نُقِلَ اليد إليه، وإنما المعنى على أنه أراد أن يثبت للشمال في تصريفها الغداة على طبيعتها شبه الإنسان قد أخذ الشيء بيده يقلّبه ويصرفه كيف يريد، فلما أثبت لها مثل فعل الإنسان باليد استعار لها اليد. وكما لا يمكنك تقدير النقل في لفظ اليد كذلك لا يمكنك أن تجعل الاستعارة فيه من صفة اللفظ. ألا ترى أنه محال أن تقول: إنه استعار لفظ اليد للشمال. وكذلك سبيل

(١) انظر: الصناعتين ٢٦٨... وما بعدها، والوساطة ٤١. وأبو الحسن هو القاضي علي

بن عبد العزيز الجرجاني

(٢) لبيد بن ربيعة العامري: شاعر صحابي جليل والبيت من معلقته (ديوانه: ٣١٥). وهو

في الصناعتين ٢٨٥

نظائره مما تجدهم قد أثبتوا فيه للشيء عضواً من أعضاء الإنسان من أجل إثباتهم له المعنى الذي يكون في ذلك العضو من الإنسان كبيت الحماسة^(١):

إِذَا هَزَّهٗ فِي عَظْمٍ قَرْنٍ تَهَلَّلْتُ نَوَاجِذُ أَفْوَاهِ الْمَنَايَا الضَّوَاكِ
فإنه لما جعل المنايا تضحك جعل لها الأفواه والنواجذ التي يكون الضحك فيها، وكبت المتنبي^(٢):

خَمِيسٌ بِشَرْقِ الْأَرْضِ وَالْغَرْبِ رَخْفُهُ وَفِي أُذُنِ الْجَوَازِ مِنْهُ زَمَارُ
لما جعل الجوزاء تسمع على عادتهم في جعل النجوم تعقل ووصفهم لها لما يوصف بها الأناسي أثبت لها الأذن التي بها يكون السمع من الأناسي، فأنت الآن لا تستطيع أن تزعم في بيت الحماسة أنه استعار لفظ النواجذ ولفظ الأفواه لأن ذلك يوجب المحال، وهو أن يكون في المنايا شيء قد شبهه بالنواجذ وشيء قد شبهه بالأفواه، فليس إلا أن تقول إنه لما ادعى أن المنايا تُسرُّ وتُسَبَّرُ إذا هو هزُّ السيف وجعلها لسروها بذلك تضحك أراد أن يبالغ في الأمر فجعلها في [١٤١ أ] صورة مَنْ يضحك حتى تبدو نواجذه من شدة السرور. وكذلك لا تستطيع أن تزعم أن المتنبي قد استعار لفظ الأذن لأنه يوجب أن يكون في الجوزاء شيء قد أراد تشبيهه بالأذن وذلك من شنيع المحال.

فقد تبين من غير وجه أن الاستعارة إنما هي ادعاء معنى الاسم للشيء لا نقل الاسم عن الشيء، وإذا ثبت أنها ادعاء معنى الاسم للشيء علمت أن الذي قالوه من أنها تعليق للعبارة على غير ما وضعت في اللغة ونقل لها عما وضعت

(١) البيت في الحماسة ٩٨/١ و ٦٩١/٢، لتأبط شراً: وهو ثابت بن جابر بن سفيان

الفهمي وهو أحد لصوص العرب المغيرين، قرين الشنفرى وعمرو بن براق. الحماسة

(مرزوقي) ٧٤/١. ونقله في مجموع شعره (ديوان تأبط شراً) ١٥٥

(٢) من قصيدة في مدح سيف الدولة (ديوان الواحدى) ٥٥١. مطلعها:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم

له، كلام قد تسامحوا فيه لأنه إذا كانت الاستعارة ادعاء معنى الاسم لم يكن الاسم مزالاً عما وُضِعَ له بل مَقَرّاً عليه.

واعلم أنك تراهم لا يمانعون إذا تكلموا في الاستعارة من أن يقولوا إنه أراد المبالغة فجعله أسداً بل هم يلجؤون إلى القول به وذلك صريح في أن الأصل فيها المعنى وأنه المستعار في الحقيقة وأن قولنا: استعير له اسم الأسد؛ إشارة إلى أنه استعير له معناه، وأنه جُعِلَ إياه، وذلك أنا لو^(١) لم نقل ذلك لم يكن لجعلها هنا معنى، لأن جعل لا يصلح إلا حيث يراد إثبات صفة للشيء كقولنا: جعلته أميراً وجعلته لصاً. تريد أنك أثبت له الإمارة ونسبته إلى اللصوصية وادّعتيها عليه ورميته بها. وحكم «جَعَلَ» إذا تعدى إلى مفعولين حكم صير، فكما لا تقول: صيرته أميراً إلا على معنى أنك أثبت له صفة الإمارة، كذلك لا يصح أن تقول: جعلته أسداً، إلا على معنى أنك أثبت له معاني الأسد^(٢) وأما ما تجده في بعض كلامهم من أن «جَعَلَ» يكون بمعنى «سَمَى» فمما تسامحوا فيه أيضاً لأن المعنى معلوم وهو مثل أن تجد الرجل يقول: أنا لا أسميه إنساناً. وغرضه أن يقول: إني لا أثبت له المعاني التي بها كان الإنسان إنساناً. فأما أن يكون «جعل» في معنى «سَمَى» هكذا غفلاً فمما لا يخفى فساده. ألا ترى أنك لا تجد عاقلاً يقول: جعلته زيدا؛ بمعنى سميته زيدا. ولا يقال للرجل: اجعل ابنك زيدا؛ بمعنى سمّه زيدا. و: ولد لفلان ابن فجعله [١٤١ ب] عبد الله؛ أي سماه عبد الله.

هذا ما لا يشك فيه ذو عقل إذا نظر. وأكثر ما يكون منهم هذا التسامح أعني قولهم أن «جعل» يكون بمعنى «سَمَى» في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا أَلَمَاتِكُمُ الَّذِينَ هُمْ عَبْدُ الرَّحْمَنِ إِنشَاءً﴾ [الزخرف: ١٩/٤٣]^(٣) فقد ترى في التفسير أن جعل يكون

(١) لو: سقطت من (أ).

(٢) ما بين معقوفين سقط من (أ).

(٣) والآية الكريمة: ﴿وَجَعَلُوا أَلَمَاتِكُمُ الَّذِينَ هُمْ عَبْدُ الرَّحْمَنِ إِنشَاءً أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ سَخَّكَبُ شَهْدَتِهِمْ وَشَتَلُونُ﴾.

بمعنى سَمَى وعلى ذاك فلا شبهة في أن ليس المعنى على مجرد التسمية ولكن على الحقيقة التي وصفتها لك، وذاك أنهم أثبتوا للملائكة صفة الإناث واعتقدوا وجودها فيهم، وعن هذا الاعتقاد صَدَرَ عنهم ما صَدَرَ من الاسم، أعني إطلاق اسم البنات. وليس المعنى أنهم وضعوا لها لفظ الإناث ولفظ البنات من غير اعتقاد معنى وإثبات صفة. هذا محال. أو لا ترى إلى قوله تعالى: ﴿أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ سَكَنُكُمْ شَهْدَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ فلو كانوا لم يزدوا على إجراء الاسم على الملائكة ولم يعتقدوا إثبات صفة لما قال الله تعالى: ﴿أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ﴾ هذا ولو كانوا لم يقصدوا إثبات صفة ولم يكن غير أن وضعوا اسماً لا يريدون به معنى لما استحقوا إلا اليسير من الذم، ولما كان هذا القول منهم كفراً والتفسير الصحيح والعبارة المستقيمة ما قاله أبو إسحاق الزجاج رَحِمَهُ اللهُ فإنه قال: إن الجعلَ ها هنا في معنى القول والحكم على الشيء تقول: «قد جعلتُ زيداً أعلم الناس» أي وصفته بذلك وحكمت به^(١).

ونرجع إلى الغرض فنقول: فإذا ثَبَتَ أن ليست الاستعارة نقل الاسم ولكن ادعاء معنى الاسم، وكنا إذا عَقَلْنَا من قول الرجل: «رأيتُ أسداً» أنه أراد به المبالغة في وصفه بالشجاعة وأن يقول إنه من قوة القلب ومن فرط البسالة وشدة البطش وفي أن الخوف لا يخامرهُ والذعر لا يعرض له بحيث لا ينقُصُ عن الأسد، لم نعقل ذلك من لفظ أسد ولكن من ادعائه معنى الأسد الذي رآه. ثبت بذلك أن [١٤٢] الاستعارة كالكناية في أنك تعرف المعنى فيها من طريق المعقول دون طريق اللفظ.

وإذا قد عرفت أن طريق العلم بالمعنى في الاستعارة والكناية معاً المعقول فاعلم أن حكم التمثيل في ذلك حكمها بل الأمر في التمثيل أظهر وذلك أنه ليس من عاقل يشك إذا نظر في كتاب يزيد بن الوليد إلى مروان بن محمد حين بلغه أنه يتلکأ في بيئته: أما بعد فإني أراك تقدّم رجلاً وتؤخر أخرى فإذا أتاك كتابي هذا

(١) جاء في تفسير القرطبي ٧٣/١٦: «والجعل هنا بمعنى القول والحكم؛ تقول: جعلت زيداً أعلم الناس أي حكمت له بذلك».

فاعتمد على أيتهما شئت والسلام^(١). يعلم أن المعنى أنه يقول له: بلغني أنك في أمر البيعة بين رأيين مختلفين ترى تارة أن تبائع وأخرى أن تمتنع من البيعة، فإذا أتاك كتابي هذا فاعمل على أي الرأيين شئت؛ وأنه لم يعرف ذلك من لفظ التقديم والتأخير أو من لفظ الرجل، ولكن بأن عليم أنه لا معنى لتقديم الرجل وتأخيرها في رجل يُدعى إلى البيعة، وأن المعنى على أنه أراد أن يقول: إن مثلك في تردّدك بين أن تبائع وبين أن تمتنع مثل رجل قائم ليذهب في أمر فجعلت نفسه تريد تارة أن الصواب في أن يذهب فجعل يقدم رجلاً تارة ويؤخر أخرى.

وهكذا كل كلام كان ضرباً مثلي، لا يخفى على من له أدنى تمييز أن الأغراض التي تكون للناس في ذلك لا تُعرف من الألفاظ ولكن تكون المعاني الحاصلة من مجموع الكلام أدلة على الأغراض والمقاصد، ولو كان الذي يكون غرض المتكلم يعلم من اللفظ ما كان لقولهم: ضرب كذا مثلاً لكذا معنى، فما اللفظ يُضرب مثلاً ولكن المعنى. فإذا قلنا في قول النبي عليه السلام: «يَا كُمْ وَخُضْرَاءُ الدِّمَنِ»^(٢) إنه ضرب عليه السلام خضراء الدمن مثلاً للمرأة الحسناء في منبت السوء، لم يكن المعنى أنه ﷺ ضرب لفظ «خضراء الدمن» مثلاً لها. هذا ما لا يظنه من به [١٤٢ ب] مسّ فضلاً عن العاقل. فقد زال

(١) جاء في البيان والتبيين ٣٠١/١ - ٣٠٢: «وحدّثني ثمامة عن من قديم عليه من أهل دمشق قال: لما بايع الناس يزيد بن الوليد، وأتاه الخبر عن مروان بن محمد ببعض التلّكؤ والتجسس كتب إليه: بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الله أمير المؤمنين يزيد بن الوليد، إلى مروان بن محمد. أمّا بعد فإني أراك تقدّم رجلاً وتؤخر أخرى، فإذا أتاك كتابي هذا فاعتمد على أيهما شئت.. والسلام».

(٢) في فصل المقال ١٥: «قيل: وما خُضْرَاءُ الدِّمَنِ؟ قال: المرأة الحسناء في منبت السوء».

والدمن جمع دمنة وهي الموضع الذي يجتمع فيه الغنم، فتلبّد فيه أبوالها وأبعارها، وقد دمنّت الغنم المكان تدميناً إذا بولّت فيه وبعرت، فضرب النبي ﷺ الدمنة مثلاً لخبث المنبت، وجودة النبات مثلاً لحسن المرأة.

وانظر كشف الخفا ٣١٩، وأمثال العسكري ١٧/١، وأمثال الميداني ٢١/١، والمستقصى ١٨٠، واللسان (دمن).

الشكُّ وارتفعَ في أنَّ طريقَ العلم بما يراد إثباته والخبر به في هذه الأجناس الثلاثة التي هي الكناية والاستعارة والتمثيل المعقول دون اللفظ من حيث يكون القصد بالإثبات فيها إلى معنى ليس هو معنى اللفظ ولكنه معنى يُستدلُّ بمعنى اللفظ عليه ويستنبط منه، كنحو ما ترى من أنَّ القصد في قولهم: هو كثيرُ رماد القدر: إلى كثرة القرى، وأنت لا تعرف ذلك من هذا اللفظ الذي تسمعه ولكنك تعرفه بأن تستدلَّ عليه بمعناه على ما مضى الشرح فيه.

وإذ قد عرفت ذلك فينبغي أن يقال لهؤلاء الذين اعترضوا علينا في قولنا إن الفصاحة وصفٌ تجب للكلام من أجل مزية تكون في معناه وأنها لا تكون وصفاً له من حيث اللفظ مجرداً عن المعنى، واحتجوا بأن قالوا: إنَّه لو كان الكلام إذا وصف بأنه فصيح كان ذلك من أجل مزية تكون في معناه لوجب أن يكون تفسيره فصيحاً مثله: أخبرونا عنكم أترون أن من شأن هذه الأجناس إذا كانت في الكلام أن تكون له بها مزية توجب له الفصاحة أم لا ترون ذلك؟ فإن قالوا: لا نرى ذلك، لم يكلموا. وإن قالوا: نرى للكلام إذا كانت فيه مزية توجب له الفصاحة. قيل لهم: فأخبرونا عن تلك المزية أتكون في اللفظ أم في المعنى؟ فإن قالوا: في اللفظ، دخلوا في الجهالة من حيث يلزم من ذلك أن تكون الكناية والاستعارة والتمثيل أوصافاً للفظ لأنه لا يتصور أن تكون مزيئها في اللفظ حتى تكون أوصافاً له، وذلك محالٌ من حيث يعلم كل عاقل أنه لا يكتفى باللفظ عن اللفظ وأنه إنما يكتفى بالمعنى عن المعنى.

وكذلك [١٤٣] يَعْلَمُ أنه لا يستعار اللفظ مجرداً عن المعنى ولكن يستعار المعنى ثُمَّ اللفظ يكون تبعَ المعنى على ما قدّمنا الشرح فيه. ويعلم كذلك أنه محال أن يُضربَ المثل باللفظ وأن يكونَ قد ضُرِبَ لفظ «أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى» مثلاً لتردده في أمر البيعة. وإن قالوا: هي في المعنى قيل لهم: فهو ما أردناكم عليه فدعوا الشك عنكم، وانتبهوا من رقدتكم، فإنه علم ضروري قد أدى التقسيمُ إليه، وكل علم كان كذلك فإنه يجبُ القطعُ على كلِّ سؤالٍ يسأل فيه بأنه خطأ وأن السائلَ ملبوس عليه.

ثم إن الذي يُعرَفُ به وجهُ دخولِ الغلطِ عليهم في قولهم: إنه لو كان الكلامُ يكونُ فصيحاً من أجلِ مزيةٍ تكون في معناه لوجبَ أن يكونَ تفسيرُهُ فصيحاً مثله؛ هو أنك إذا نظرتَ إلى كلامهم هذا وجدتَهم كأنَّهم قالوا إنه لو كان الكلامُ إذا كان فيه كنايةً أو استعارةً أو تمثيلاً كان لذلك فصيحاً، لوجب أن يكونَ إذا لم توجدْ فيه هذه المعاني فصيحاً أيضاً، ذاك لأن تفسيرَ الكناية أن نتركها ونصرِّحَ بالمكتنى عنه فنقول: إن المعنى في قولهم: هو كثيرُ رمادِ القدر؛ أنه كثيرُ القري. وكذلك الحكمُ في الاستعارة فإنَّ تفسيرَها أن نتركها ونصرِّحَ بالتشبيه فنقول في «رأيتُ أسداً»: إن المعنى رأيتُ رجلاً يساوي الأسدَ في الشجاعة. وكذلك الأمر في التمثيلِ لأنَّ تفسيرَ أن نذكرَ الممثلَ له فنقول في قوله: «أراك تقدم رجلاً» وتؤخِّرُ أخرى: إنَّ المعنى أنه قال: أراك تتردد في أمر البيعة فتقولُ تارة أفعل وتارة لا أفعل كمن يريد الذهاب في وجه فتريه نفسه تارة أن الصواب في أن يذهب وأخرى أنه في أن لا يذهب فيقدم رجلاً ويؤخِّرُ أخرى. وهذا خروجٌ عن المعقول لأنه بمنزلة أن تقول لرجل قد نصبَ لوصفٍ علة: إن كان هذا الوصفُ يجب لهذه العلة فينبغي أن يجبَ مع عدمها.

ثم إن الذي استهواهم [١٤٣ ب] هو أنهم نظروا إلى تفسير ألفاظ اللغة بعضها ببعض فلما رأوا اللفظَ إذا فسِّرَ بلفظٍ مثل أن يقال في الشرجب إنه الطويل لم يَجْزُ أن يكونَ في المفسِّر من حيث المعنى مزية لا تكون في التفسير، ظنوا أن سبيلَ ما نحن فيه ذلك السبيلُ، وذلك غلطٌ منهم، لأنه إنما كان للمفسِّر فيما نحن فيه الفضلُ والمزية على التفسير من حيث كانت الدلالة في المفسِّر دلالة معنى وفي التفسير دلالة لفظ على معنى، وكان المركوز في الطباع والراسخ في غرائز العقول أنه أريدَ الدلالة على معنى فترك أن يُصرِّحَ به ويذكر باللفظ الذي هو له في اللغة وعُمِدَ إلى معنى آخر فأشيرَ به إليه، وجعلَ دليلاً عليه، كان للكلام بذلك حُسْنٌ ومزِيَّةٌ لا يكونان إذا لم يصنع ذلك ودُكِّرَ بلفظه صريحاً. ولا يكون هذا الذي ذكرتُ أنه سببُ فضل المفسِّر على التفسير من كونِ الدلالة في المفسِّر دلالة معنى على معنى وفي التفسير معنى معلوم يعرفه السامع، وهو غير معنى لفظ التفسير في نفسه وحقيقته،

كما ترى من أنَّ الذي هو معنى اللفظ في قولهم: هو كثيرُ رمادِ القدر. غير الذي هو معنى اللفظ في قولهم: هو كثيرُ القرى. ولو لم يكن كذلك لم يتصور أن يكون ههنا دلالة معنى على معنى.

وإذ قد عرفت هذه الجملة فقد حصل لنا منها أن المفسر يكون له دالتان: دلالة اللفظ على المعنى ودلالة المعنى الذي دلَّ اللفظ عليه على معنى لفظ آخر، ولا يكون للتفسير إلا دلالة واحدة وهي دلالة اللفظ، وهذا الفرق هو سبب أن كان للمفسر الفضل والمزية على التفسير، ومحال أن يكون هذا قضية المفسر في ألفاظ اللغة. ذاك لأنَّ معنى المفسر يكون مجهولاً عند السامع ومحال أن يكون للمجهول دلالة. ثم إن معنى المفسر يكون هو معنى التفسير بعينه، ومحال إذا كان المعنى [١٤٤] واحداً أن يكون للمفسر فضل على التفسير لأن الفضل كان في مسألتنا بأنَّ دلَّ لفظ المفسر على معنى ثم دلَّ معناه على معنى آخر. وذلك لا يكون مع كون المعنى واحداً ولا يتصور.

بيان هذا أنه محال أن يقال إنَّ معنى الشرجب الذي هو المفسر يكون دليلاً على معنى تفسيره الذي هو الطويل على وزان قولنا إن معنى «كثيرُ رمادِ القدر» يدلُّ على معنى تفسيره الذي هو «كثيرُ القرى» لأمرين (أحدهما) أنك لا تفسر الشرجب حتى يكون معناه مجهولاً عند السامع ومحال أن يكون للمجهول دلالة. (والثاني) أن المعنى في تفسيرنا الشرجب بالطويل أن نُعلم السامع أن معناه هو معنى الطويل بعينه. وإذا كان كذلك كان محالاً أن يقال إن معناه يدلُّ على معنى الطويل، والذي يُعقل أن يقال إن معناه هو معنى الطويل. فاعرف ذلك، وانظر إلى لعب العقلة بالقوم، وإلى ما رأوا في منامهم من الأحلام الكاذبة، ولو أنهم تركوا الاستئانة إلى التقليد والأخذ بالهوينى وترك النظر، وأشعروا قلوبهم أنَّ ههنا كلاماً ينبغي أن يُصغى إليه. لعلموا ولعاد إعجابهم بأنفسهم في سؤالهم هذا وفي سائر أقوالهم عجباً^(١) منها ومن تطويح الظنون بها.

(١) هذا مأخوذ من قول أبي تمام (ديوانه):

أبدت أسمى أن رأتني مخلص القصب وأل ما كان من عُجب إلى عَجَبٍ

وإذ قد بانَ سقوطُ ما اعترضَ به القومُ وفُحشُ غلطهم فينبغي أن تعلمَ أن ليست المزايا التي تجدها لهذه الأجناسِ على الكلامِ المتروكِ على ظاهره والمبالغة التي تحسُّها في أنفس^(١) المعاني التي يقصد المتكلم بخبره إليها، ولكنها في طريق إثباته لها، وتقريره إياها، وأنت إذا سمعتهم يقولون إنَّ من شأن هذه الأجناس أن تُكسِبَ المعاني مزيةً وفضلاً، وتوجبَ لها شرفاً ونبلاً، وأن تفخِّمها في نفوس السامعين؛ لا يَغنونَ أنفس المعاني التي يقصد المتكلم بخبره إليها كالقري والشجاعة والتردد في الرأي، وإنما يَغنونَ إثباتها لما تُثبتُ [١٤٤ ب] له ويُخبر بها عنه، فإذا جعلوا للكناية مزيةً على التصريح لم يجعلوا تلك المزية في المعنى المكتنى عنه، ولكن في إثباته للذي ثبتَ له، وذلك أنا نعلم أنَّ المعاني التي يُقصد الخبر بها لا تتغيَّر في أنفسها بأن يُكتنى عنها بمعانٍ سواها، ويترك أن تُذكر الألفاظ التي هي لها في اللغة، ومن هذا الذي يشكُّ أن معنى طولِ القامة وكثرة القري لا يتغيَّران بأن يكنى عنهما بطول النجاد وكثرة رماد القدر، وتقديرُ التغير فيهما^(٢) يؤدي إلى أن لا تكونَ الكنايةُ عنهما ولكن عن غيرهما، وقد ذكرتُ هذا في صدر الكتاب، وذكرتُ أن السببَ في أن كان يكون للإثبات إذا كان من طريق الكناية مزيةً لا تكون إذا كان من طريق التصريح أنك إذا كنيْتَ عن كثرة القري بكثرة رمادِ القدر كنتَ قد أثبتتَ كثرة القري بإثباتِ شاهدها ودليلها، وما هوَ عَلَمٌ على وجودها، وذلك لا محالة يكون أبلغ من إثباتها بنفسها، وذلك لأنه يكون سبيلها حينئذٍ سبيلَ الدعوى تكون مع شاهد، وذكرتُ أن السببَ في أن كانت الاستعارة أبلغَ من الحقيقة أنك إذا ادعيت للرجل أنه أسدٌ بالحقيقة كان ذلك أبلغَ وأشدَّ في تسويته بالأسد في الشجاعة. وذاك لأنَّه مُحالٌ أن يكون من الأسود ثم لا تكون له شجاعةُ الأسود. وكذلك الحكمُ في التمثيل فإذا قلت: أراك تقدِّم رجلاً وتؤخِّر أخرى؛ كان أبلغ في إثبات التردد له من أن تقول: أنت كمن يقدِّم رجلاً ويؤخِّر أخرى.

(١) هذا خبر ليست المزايا.

(٢) في (أ): فيما يؤدي.

واعلم أنه قد يَهْجِسُ في نفس الإنسان شيءٌ يظُنُّ من أجله أنه ينبغي أن يكونَ الحكمُ في المزية التي تحدث بالاستعارة أنها تحدث في المثبت دون الإثبات، وذلك أن تقول: إنا إذا نظرنا إلى الاستعارة وجدناها إنما كانت أبلغ من أجل أنها تدلُّ على قوَّة الشبه وأنه قد تنأهى إلى أن صارَ المشبه لا يتميز عن المشبه به في [١٤٥] المعنى الذي من أجله شُبِّه به، وإذا كان كذلك كانت المزية الحادثة بها حادثة في الشبه، وإذا كانت حادثة في الشبه كانت في المثبت دون الإثبات؛ والجوابُ عن ذلك أن يقال: إن الاستعارة لعمري تقتضي قوَّة الشبه وكونه بحيث لا يتميز المشبه عن المشبه به، ولكن ليس ذاك سبب المزية، وذلك لأنه لو كان ذاك سبب المزية لكان ينبغي إذا جئت به صريحاً فقلت: رأيت رجلاً مساوياً للأسد في الشجاعة وبحيث لولا صورته لظننت أنك رأيت أسداً. وما شاكل ذلك من ضروب المبالغة أن تجد لكلامك المزية التي تجدها لقولك أسداً. وليس يخفى على عاقل أن ذلك لا يكون.

فإن قال قائل: إن المزية من أجل أن المساواة تعلم في «رأيت أسداً» من طريق المعنى وفي «رأيت رجلاً مساوياً للأسد» من طريق اللفظ. قيل: قد قلنا فيما تقدم إنه محال أن يتغير^(١) حال المعنى في نفسه بأن يكفى عنه بمعنى آخر، وأنه لا يتصور أن يتغير معنى طول القامة بأن يكفى عنه بطول النجاد، ومعنى كثرة القرى بأن يكفى عنه بكثرة الرماد. وكما أن ذلك لا يتصور فكذلك لا يتصور أن يتغير معنى مساواة الرجل الأسد في الشجاعة بأن يكفى عن ذلك ويدل عليه بأن تجعله أسداً، فأنت الآن إذا نظرت إلى قوله^(٢):

فَأَسْبَلْتُ لَوْلَا مِنْ نَرْجِسٍ وَسَقَتْ وَزْدَا وَعَضَّتْ عَلَى الْعُنَابِ بِالْبَرْدِ

(١) نهاية السقط من (ب).

(٢) هو الواواء الدمشقي: أبو الفرج محمد بن أحمد الغساني شاعر من شعراء القرن الرابع

الهجري، وهو من حسنات الشام وليس للشاميين في وقته مثله.

(انظر مقدمة ديوانه: تح د. سامي الدهان). والبيت في ديوانه ٨٤ وفيه:

* فأمطرت لَوْلَا مِنْ نَرْجِسٍ ... *

فرأيتَه قد أفادَكَ أنَّ الدَمْعَ كان لا يَحْرِمُ من شَبِّهِ اللُّؤلُؤِ والعَيْنَ من شَبِّهِ
النَّرجِسِ شيئاً، فلا تحسبنَ أنَّ الحسنَ الذي تراه والأريحيَّةَ التي تجدها عنده أنه
أفادَكَ ذلكَ فحسبُ، وذلكَ أنكَ تستطيعُ أن تجيءَ به صريحاً فتقولَ: فأَسبَلْتُ
دمعاً كأنَّه اللُّؤلُؤُ بعينه من عَيْنِ كأنها النَّرجِسُ حقيقةً، ثم لا ترى من ذلكَ الحسنِ
شيئاً، ولكن اعلمُ أن سببَ أن رافك وأدخل الأريحية عليك، أنه أفادَكَ في
إثباتِ شدَّةِ الشَّبهِ مزيَّة، وأوجدك^(١) فيه خاصَّةً قد غُرِزَ^(٢) في طَبعِ الإنسانِ أن
يُزَاحَ لها، ويجدُ في نَفْسِهِ هزَّةً عندها، وهكذا حكمُ نظائره كقولِ أبي نواس^(٣):

تَبْكِي فَتُذِرِي الدَّرَّ عَنْ نَرْجِسٍ وَتَلْطِمُ الْوَرْدَ بِعُنَابٍ
وقول المتنبي^(٤):

بَدَتْ قَمَراً وَمَالَتْ خُوطَ بَانٍ وَفَاحَتْ عُنْبَراً وَرَنَتْ غَزَلاً

واعلم أنَّ من شأنِ الاستعارة أنك كلما زدت إرادتك التشبيهَ إخفاءً ازدادت
الاستعارة حسناً، حتى إنك تراها أغرب ما تكون إذا كان الكلامُ قد أُلِّفَ تأليفاً
إن أردت أن تفصحَ فيه بالتشبيه خرجت إلى شيءٍ تعافه النفسُ، ويلفظه السَّمْعُ،
ومثال ذلك قولُ ابنِ المعتز^(٥):

(١) المعروف تعديهِ الفعل باللام فيقال: «أوجد لك».

(٢) في (ب): عُرِفَ.

(٣) ديوان أبي نواس ٢٤٢، من قطعة قالها في جنان وهي تلطم خديها. ومن بيت أبي نواس،
أخذ الواواء بيته السابق، وزاد في كلامه ما هو من تمامه فأصبح أحق بالبيت.

(٤) ديوانه (الواحدي) ٢١٧، من قصيدة في مدح بدر بن عمار مطلعها:

بقائي شاء ليس همُّ ارتحالاً وحُسن الصبرِ زُموا لا الجمالا

(٥) ديوانه (ط. العراق) ٣٥/١، من قصيدة مطلعها:

جاءَ هذا اللَّيْلُ أو آبا وقَرَاكَ الهمُّ أو صابا

ورواية البيت في الديوان:

أثمرت أغصانُ راحتهِ لجُناةِ الحُسنِ عُنابا

- وانظر حواشي القصيدة والروايات المختلفة.

أَثْمَرْتُ أَغْصَانُ رَاحَتِهِ بِجَنَانِ الْحُسْنِ عُنَابًا

ألا ترى أنك لو حملتَ نفسك على أن تظهر التشبيه وتفصح به احتجتَ إلى أن تقول: أثمرت أصابعُ يده التي هي كالأغصان لطالبي الحسنِ شبيهَ العنابِ من أطرافها المخضوبة. وهذا ما لا تخفى غثائته. من أجل ذلك كان موقع العناب في هذا البيت أحسنَ منه في قوله:

❁ وعَضَّتْ على العناب بالبرَد ❁

وذاك لأن إظهار التشبيه فيه لا يقبُح هذا القبح المفرط لأنك لو قلت: وعَضَّتْ على أطرافِ أصابعِ كالعنابِ بِثَغْرِ كَالْبَرَدِ. كان شيئاً يُتكلَّمُ بمثله وإن كان مردولاً. وهذا موضع لا يتبيَّن سرُّه إلا مَنْ كان ملتهبَ الطَّبعِ حادَّ القريحة، وفي الاستعارة علمٌ كثيرٌ ولطائفُ معاني ودقائقُ فروقٍ وسنقولُ فيها إن شاء الله في موضع آخر.

واعلم أنا أخذنا في الجوابِ عن قولهم: إنه لو كان الكلامُ يكونُ فصيحاً من أجل مزِيَّةٍ تكونُ في معناه لكان ينبغي أن يكونَ تفسيرُهُ فصيحاً مثله. قلنا إن الكلامَ الفصيحَ ينقسم قسمين: قسم تُغزى المزية فيه إلى اللفظ، وقسم تُغزى فيه إلى النظم. وقد ذكرنا في [١٤٦ أ] القسم الأول من الحُجَجِ ما لا يبقى معه لعاقِلٍ إذا هو تأملها شكٌّ في بُطلانِ ما تعلَّقوا به من أنه يلزمنا في قولنا: «إن الكلامَ يكونُ فصيحاً من أجل مزِيَّةٍ تكون في معناه» أن يكونَ تفسيرُ الكلامِ الفصيحِ فصيحاً مثله. وأنه تهوُّسٌ^(١) منهم وتفقُّحٌ في المحالات.

وأما القسم الذي تُغزى فيه المزية إلى النظم فإنَّهم إن ظنوا أنَّ سؤالهم الذي اغترُّوا به يتجه لهم فيه كان أمرهم أعجب، وكان جهلهم في ذلك أغرب، وذلك أنَّ النظم كما بيَّناه هو توخِّي معاني النحو وأحكامه وفروقه ووجوهه، والعملُ

(١) الفعل «هوس» من باب (ضرب) ويقال في مصدره (هوس الناس هوساً): وقعوا في اختلاط وفساد، والتهوُّس: المشي الثقيل في الأرض اللينة، والهوس: طرف من الجنون، وتقحيم النفس في الشيء إدخالها فيه من غير روية.

بقوانينه وأصوله، وليست معاني النحو معاني الألفاظ فيتصور أن يكون لها تفسير.

وجملة الأمر أن النظم إنما هو أن الحمد من قوله تعالى: ﴿يَسْمِ اللَّهَ الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ ۝ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ مبتدأ ولله خبرٌ وربّ صفةٌ لاسم الله تعالى ومضافٌ إلى العالمين، والعالمين مضافٌ إليه، والرحمن الرحيم صفتان كالربّ، ومالك من قوله: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ صفةٌ أيضاً ومضافٌ إلى يوم، ويوم مضافٌ إلى الدين. وإياك^(١) ضميرُ اسم الله تعالى مما هو ضميرٌ يقع موقع الاسم إذا كان الاسم منصوباً. معنى ذلك أنك لو ذكرت اسم الله مكانه لقلت: الله نَعْبُدُ. ثم إن «نَعْبُدُ» هو المقتضي معنى النصب فيه. وكذلك حكم «إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ» ثم إنَّ جملة «إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ» معطوفٌ بالواو على جملة «إِيَّاكَ نَعْبُدُ». والصراط مفعولٌ، والمستقيم صفةٌ للصراط، و«صراط الذين» بدلٌ من الصراط المستقيم و«أَنعَمْتَ عليهم» صلة الذين، و«غير المغضوب عليهم» صفة الذين، و«الضالين» معطوفٌ على المغضوب عليهم.

فانظر الآن هل يتصور في شيء من هذه المعاني أن يكون معنى اللفظ؟ وهل يكون كون الحمد مبتدأ معنى لفظ الحمد؟ أم يكون كون ربّ صفة وكونه مضافاً إلى العالمين معنى لفظ الرب^(٢)؟

فإن قيل: إنه إن لم تكن هذه المعاني أنفس الألفاظ فإنها [١٤٦ ب] تُعَلَّم على كل حال من ترتيب الألفاظ ومن الإعراب، فبالرفع في الدال من الحمد يُعَلَّم أنه مبتدأ، وبالجرّ في الباء من ربّ يعلم أنه صفة، وبالياء في العالمين يُعَلَّم أنه مضافٌ إليه، وعلى هذا قياس الكل. قيل: ترتيب اللفظ لا يكون لفظاً والإعراب وإن كان يكون لفظاً فإنه لا يتصور أن يكون ها هنا لفظان كلاهما علامة إعراب ثم يكون أحدهما تفسيراً للآخر. وزيادة القول في هذا من

(١) في الكلام التفات على عادتهم في التنقل من أسلوب الإنشاء إلى الخبر أو العكس وذلك نظرية لنشاط السامع، وجلباً لاهتمامه. (انظر الصناعتين ٣٠٢).

(٢) في هذا المقطع أعرب المؤلف سورة الفاتحة وهي أول سور القرآن مكية آياتها سبع.

خَطَلَ الرَّأْيَ فَإِنَّهُ مِمَّا يَغْلَمُهُ الْعَاقِلُ بِيَدِيهِهِ النَّظْرَ. وَمَنْ لَمْ يَتَنَبَّهُ لَهُ فِي أَوَّلِ مَا يَسْمَعُ لَمْ يَكُنْ أَهْلًا لِأَنْ يَكَلِّمَ. وَنَعُودُ إِلَى رَأْسِ الْحَدِيثِ فَنَقُولُ:

قَدْ بَطَّلَ الْآنَ مِنْ كُلِّ وَجْهِ وَكُلِّ طَرِيقٍ أَنْ تَكُونَ الْفَصَاحَةُ وَصْفًا لِلْفِظِ مِنْ حَيْثُ هُوَ لَفْظٌ وَنَطَقٌ لِسَانٍ. وَإِذَا كَانَ هَذَا صَوْرَةُ الْحَالِ وَجُمْلَةُ الْأَمْرِ، ثُمَّ لَمْ تَرَ الْقَوْمَ تَفَكَّرُوا فِي شَيْءٍ مِمَّا شَرَحْنَاهُ بِحَالٍ، وَلَا أَخْطَرُوهُ لَهُمْ بِبَالٍ، بَانَ وَظَهَرَ أَنَّهُمْ لَمْ يَأْتُوا الْأَمْرَ مِنْ بَابِهِ، وَلَمْ يَطْلُبُوهُ مِنْ مَعْنَاهِ، وَلَمْ يَسْلُكُوا إِلَيْهِ طَرِيقَهُ، وَأَنَّهُمْ لَمْ يَزِيدُوا عَلَى أَنْ أَوْهَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَهَمًّا كَاذِبًا أَنَّهُمْ قَدْ أَبَانُوا الْوَجْهَ الَّذِي بِهِ كَانَ الْقِرَاءَةُ مُعْجَزًا، وَالْوَصْفَ الَّذِي بِهِ بَانَ مِنْ كَلَامِ الْمَخْلُوقِينَ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونُوا قَدْ قَالُوا فِيهِ قَوْلًا يَشْفِي مِنْ شَاكٍ غَلِيلًا^(١)، وَيَكُونُ عَلَى عِلْمٍ دَلِيلًا، وَإِلَى مَعْرِفَةٍ مَا قَصَدُوا إِلَيْهِ سَبِيلًا.

وَاعْلَمْ أَنَّهُ إِذَا نَظَرَ الْعَاقِلُ إِلَى هَذِهِ الْأَدْلَةِ فَرَأَى ظَهْوَرَهَا اسْتَبْعَدَ أَنْ يَكُونَ قَدْ ظَنَّ ظَانًّا فِي الْفَصَاحَةِ أَنَّهَا مِنْ صِفَةِ اللَّفْظِ صَرِيحًا وَلَعَمْرِي إِنَّهُ كَذَلِكَ يَنْبَغِي، إِلَّا أَنَا نَنْظُرُ إِلَى جِدِّهِمْ وَتَشَدَّدِهِمْ وَبَيِّنَتِهِمْ الْحَكَمَ بِأَنَّ الْمَعْنَى لَا تَزِيدُ وَإِنَّمَا تَزِيدُ الْأَلْفَاظَ، فَلَمَّا كَانُوا قَدْ قَالُوا الْأَلْفَاظَ وَهَمُّ لَا يَرِيدُونَهَا أَنْفُسَهَا وَإِنَّمَا يَرِيدُونَ لَطَائِفَ مَعَانٍ تُفْهَمُ مِنْهَا^(٢)، لَقَدْ كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَتَّبِعُوا ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِمْ مَا يَنْبَغِي عَنْ غَرَضِهِمْ، وَأَنْ يَذْكُرُوا أَنَّهُمْ عَنُوا بِالْأَلْفَاظِ ضَرْبًا مِنَ الْمَعْنَى، وَأَنْ غَرَضَهُمْ مَفْهُومٌ خَاصٌ.

هَذَا، وَأَمْرُ النِّظْمِ [١٤٧] فِي أَنَّهُ لَيْسَ شَيْئًا غَيْرَ تَوْخِيٍّ مَعْنَى النِّحْوِ فِيمَا بَيْنَ الْكَلِمِ وَأَنْكَ تَرْتَبُ الْمَعْنَى أَوَّلًا فِي نَفْسِكَ، ثُمَّ تَحْذُو عَلَى تَرْتِيبِهَا الْأَلْفَاظَ فِي نَطْقِكَ، وَإِنَّا لَوْ قَرَضْنَا أَنْ تَخْلُو الْأَلْفَاظُ مِنَ الْمَعْنَى لَمْ يَتَصَوَّرَ أَنْ يَجِبَ فِيهَا نِظْمٌ وَتَرْتِيبٌ فِي غَايَةِ الْقُوَّةِ وَالظَّهْوَرِ ثُمَّ تَرَى الَّذِينَ لَهَجُوا بِأَمْرِ اللَّفْظِ قَدْ أَبَوْا إِلَّا أَنْ يَجْعَلُوا النِّظْمَ فِي الْأَلْفَاظِ، فَتَرَى الرَّجُلَ مِنْهُمْ يَرَى وَيَعْلَمُ أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَسْتَطِيعُ

(١) الغليل: شدة العطش وحرارته، وربما سُمِّيت حرارة الحب والحزن غليلًا.

(٢) هي ما يسمَّى بمقتضى الحال الذي يُعَبَّرُ عَنْهُ بِالنِّظْمِ أَوْ تَوْخِيٍّ مَعْنَى النِّحْوِ.

(٣) فِي (أ): وَلَمْ يَذْكُرُوا.

أن يجيء بالألفاظ مرتبة إلّا من بعد أن يفكر في المعاني ويرتبها في نفسه على ما أعلمناك ثم تفتّش فتراه لا يعرف الأمر بحقيقته، وتراه ينظر إلى حال السامع فإذا رأى المعاني لا تقع مرتبة في نفسه، إلّا من بعد أن تقع الألفاظ مرتبة في سمعه، نسي حال نفسه واعتبر حال مَنْ يسمع منه. وسبب ذلك قصر الهمة وضعف العناية وترك النظر والأنس بالتقليد، وما يُغني وضوح الدلالة مع مَنْ لا ينظر فيها، وإنّ الصبح ليملاً الأفق ثم لا يراه النائم ومن قد أطبق جفنه^(١)؟

واعلم أنك لا ترى في الدنيا علماً قد جرى الأمر فيه بديناً وأخيراً على ما جرى عليه في علم الفصاحة والبيان. أما البديء فهو أنك لا ترى نوعاً من أنواع العلوم إلّا وإذا تأملت كلام الأولين الذين علّموا الناس وجدت العبارة فيه أكثر من الإشارة، والتصريح أغلب من التلويح، والأمر في علم الفصاحة بالضدّ من هذا، فإنك إذا قرأت ما قاله العلماء فيه وجدت جُلّه أو كلّهُ رمزاً ووحياً وكنايةً وتعريضاً، وإيماء إلى الغرض من وجه لا يفتن له إلّا من غلغل الفكر وأدقّ النظر، ومن يرجع من طبعه إلى المعية^(٢) يَفْوى معها على الغامض، ويصل بها إلى الخفيّ حتى كان بسلاً حراماً أن تتجلى معانيهم سافرة الأوجه لا نقاب لها، وبادية الصفحة لا حجاب دونها، وحتى كأنّ الإفصاح بها حراماً، وذكرها إلّا على سبيل الكناية والتعريض [١٤٧ ب] غير سائغ.

وأما الأخير فهو أنا لم نَرِ العقلاء قد رَضُوا من أنفسهم في شيء من العلوم أن يحفظوا كلاماً للأولين ويتدارسوه ويكلّم به^(٣) بعضهم بعضاً من غير أن

(١) قال المتنبي:

وإذا خفيت على الغبيّ فعاذرُ ألا تراني مقلّة عمياء

وقال آخر:

ما ضرّ شمس الضحى في الأفق طالعة أن لا يرى ضوءها من ليس ذا بصر

(٢) اليلمع والألمع والألمعي الذي يتظنن في الأمور فلا يخطئ والذكي المتوقد الحديد القلب والخفيف الظريف.

(٣) به: سقطت من (أ).

يعرفوا له معنى، ويقفوا منه على غَرَضٍ صحيح، ويكون عندهم إن يسألوا عنه بياناً له وتفسير، إلا علم الفصاحة فإنك ترى طبقات من الناس يتداولون فيما بينهم ألفاظاً للقدماء وعبارات من غير أن يعرفوا لها معنى أصلاً، أو يستطيعوا إن سُئِلوا عنها أن يذكروا لها تفسيراً يصح.

فمن أقرب ذلك أنك تراهم يقولون إذا هم تكلموا في مزية كلام على كلام: إن ذلك يكون بجزالة اللفظ. وإذا تكلموا في زيادة نظم على نظم: إن ذلك يكون لوقوعه على طريقة مخصوصة وعلى وجه دون وجه. ثم لا تجدهم يفسرون الجزالة بشيء، ويقولون في المراد بالطريقة والوجه ما يخلو منه السامع بطائل. ويقرؤون في كتب البلغاء ضروب كلام قد وصفوا اللفظ فيها بأوصاف تعلم ضرورة أنها لا ترجع إليه من حيث هو لفظ ونطق لسان وصدى حرف، كقولهم: لفظ متمكن غير قلق ولا ناب به موضعه وإنه جيد السبك صحيح الطابع، وإنه ليس فيه فضل عن معناه. وكقولهم: إن من حق اللفظ أن يكون طبقاً للمعنى لا يزيد عليه ولا ينقص عنه، كقول بعض من وصف رجلاً من البلغاء: كانت ألفاظه قوالب لمعانيه - هذا إذا مدحوه - وقولهم إذا ذمّوه: هو لفظ معقد، وإنه بتعقيد قد استهلك المعنى. وأشبه لهذا. ثم لا يخطر ببالهم أنه يجب أن يطلب لما قالوه معنى وتعلم له فائدة ويجشم فيه فكر، وأن يعتد على الجملة أقل ما في الباب أنه كلام لا يصح حملُه على ظاهره، وأن يكون المراد باللفظ فيه نطق اللسان، فالوصف بالتمكن والقلق في اللفظ محال وإنما يتمكن الشيء ويعلق إذا كان شيئاً يثبت في مكان [١٤٨]، والألفاظ حروف لا يوجد منها حرف حتى يعدم الذي كان قبله. وقولهم متمكن أو قلق وصف للكلمة بأسرها لا حرف حرف منها. ثم إنه لو كان يصح في حروف الكلمة أن تكون باقية بمجموعها لكان ذلك فيها محالاً أيضاً من حيث إن الشيء إنما يتمكن ويعلق في مكانه الذي يوجد فيه، ومكان الحروف إنما هو الحلق والقم واللسان والشفتان، فلو كان يصح عليها أن توصف بأنها تتمكن وتقلق لكان يكون ذلك التمكن وذلك القلق منها في إمكانها من الحلق والقم واللسان والشفتين. وكذلك قولهم: لفظ ليس فيه فضل عن معناه، محال أن يكون المراد به اللفظ لأنه ليس ها هنا اسم

أو فعلٌ أو حرفٌ يزيد على معناه أو ينقص عنه. كيف وليس بالذرع وُضِعَتْ الألفاظ على المعاني، وإن اعتبرنا المعاني المستفادة من الجمل فكذلك، وذلك أنه ليس ها هنا جملةٌ من مبتدأ وخبرٍ أو فعلٍ وفاعلٍ يحصل بها الإثبات أو النفي أتم أو أنقص مما يحصل بأخرى، وإنما فضل اللفظ عن المعنى أن تريد الدلالة بمعنى على معنى فتدخل في أثناء ذلك شيئاً لا حاجةً بالمعنى المدلول عليه إليه. وكذلك السبيلُ في السبك والطابع وأشباههما لا يَحْتَمِلُ شيءٌ من ذلك أن يكون المراد [به اللفظ]^(١) من حيث هو لفظ.

فإن أردتَ الصّدقَ فإنك لا ترى في الدنيا شأنًا أعجب من شأن الناس مع اللَّفْظِ، ولا فسادَ رأيٍ مازجَ النفوسَ وخامرَها واستحكَمَ فيها وصار كإحدى طبائعها، [أغرب من فسادٍ] رأيهم في اللفظ^(٢) فقد بلغ من ملكته لهم وقوّته عليهم، أن تركهم وكأنهم إذا نوظروا فيه أخذوا عن أنفسهم، وغُيِّبوا عن عقولهم، وحِيلَ بينهم وبين أن يكون لهم فيما يسمعونَه نظرٌ، ويُرَى لهم إيرادٌ في الإصغاء وصدَرَ، فلست ترى إلّا نفوساً قد جعلت تركَ النظر دأبها، ووصلت بالهويني أسبابها، فهي تغترّ بالأضاليل [١٤٨ ب]، وتتباعد عن التحصيل، وتُلقي بأيديها إلى الشبه، وتسرع إلى القول المموّه.

ولقد بَلَغَ من قلةِ نظرهم أن قوماً منهم لما رأوا الكتب المصنفة في اللّغة قد شاع فيها أن تُوصَفَ الألفاظ المفردة بالفصاحة ورأوا أبا العباس ثعلباً قد سَمَّى كتابه (الفصيح) مع أنه لم يذكر فيه إلا اللغة والألفاظ المفردة وكان محالاً إذا قيل إن الشمعَ بفتح الميم أفصحَ من الشمع بإسكانه أن يكون ذلك من أجل المعنى إذ ليس تفيد الفتحة في الميم شيئاً في الذي سُمِّي به سبق إلى قلوبهم أن حكم الوصف بالفصاحة أينما كان وفي أي شيء كان أن لا يكون له مرجع إلى المعنى البتة، وأن يكون وصفاً للفظ في نفسه ومن حيث هو لفظٌ ونطق لسان، ولم يعلموا أن المعنى في وصف الألفاظ المفردة بالفصاحة أنها في اللغة أثبتُ،

(١) ما بين معقوفتين سقط من (أ).

(٢) في (أ): كإحدى طبائعها من رأيهم في اللفظ.

وفي استعمال الفصحاء أكثر، أو أنها أجرى على مقاييس اللغة والقوانين التي وضعوها وأن الذي هو معنى الفصاحة في أصل اللغة هو الإبانة عن المعنى بدلالة قولهم فصيحٌ وأعجمٌ: أفصح الأعجمي، وفُصِّحَ اللِّحَانُ، وأفصحَ الرجل بكذا: إذا صرَّحَ به، وأنه لو كان وصفهم هو لها من حيث هي ألفاظ ونطق لسان لوجب إذا وجدت كلمة يقال إنها فصيحة^(١) [على صفة في اللفظ أن لا توجد كلمة على تلك الصِّفَة إلا وجب لها أن تكون فصيحة]^(٢)، وحتى يجب إذا كان «فقهتُ الحديث»^(٣) بالكسر أفصح منه بالفتح أن يكون سبيلُ كلِّ فعل مثله في الزَّنة أن يكون الكسر فيه أفصح من الفتح. ثم إن فيما أودعه ثعلب كتابه ما هو أفصح من أجل أن لم يكن فيه حرفٌ كان فيما جعله أفصح منه. مثل إنَّ «وَقَفْتُ» أفصح من «أوقفتُ» أفترى أنه حدَّث في الواو والقاف والفاء بأن لم يكن معها الهمزة فضيلة وجب لها أن تكون أفصح؟ وكفى برأي هذا مؤداه تهافتاً وخطلاً.

وجملة الأمر أنه لا بُدَّ لقولنا: «الفصاحة» من معنى يُعرَفُ فإن كان ذلك المعنى وصفاً في ألفاظ الكلمات المفردة [١٤٩ أ] فينبغي أن يُشار لنا إليه، وتوضَّع اليدُ عليه، ومن أبين ما يَدُلُّ على قِلَّةِ نظرهم أنه لا شبهة على من نظر في كتابٍ تُذكِّرُ فيه الفصاحة أن الاستعارة عنوانٌ ما يُجَعَلُ به اللفظ فصيحاً وأن المجازَ جملةُ والإيجاز من معظم ما يوجبُ لللفظ الفصاحة. وأنت تراهم يذكرون ذلك ويعتمدونه ثم يذهبُ عنهم أن إيجابهم الفصاحة للفظ بهذه المعاني اعترافٌ بصحة ما نحن ندعوهم إلى القول به من أنه يكون فصيحاً لمعناه.

أما الاستعارة فإنهم إن أغفلوا فيها الذي قلناه من أن المستعار بالحقيقة يكون معنى اللفظ واللفظ تبعٌ من حيث إنا لا نقول: رأيتُ أسداً ونحن نعني رجلاً إلا على أنا ندعي أنا رأينا أسداً بالحقيقة من حيث نجعله لا يتميَّز عن الأسد في بآسِه وبَطْشِه وجراءة قلبه، فإنهم على كلِّ حال لا يستطيعون أن

(١) في (ط): إنها كلمة فصيحة.

(٢) ما بين معقوفتين ساقط من (أ).

(٣) فقه الحديث فهمه، يقال: فلان لا يفقه ولا يتفه. في (أ): نقه بالنون.

يجعلوا الاستعارة وصفاً للفظ من حيث هو لفظ مع أَنَّ اعتقادهم أنك إذا قلت : رأيت أسداً؛ كنت نقلت اسم الأسد إلى الرجل أو جعلته هكذا غفلاً ساذجاً في معنى شجاع، أفترى أَنَّ لَفْظَ الأسدِ لَمَّا نُقِلَ عن السَّبُعِ إلى الرجل المشبَّه به أحدثَ هذا النقلُ في أجراسِ حروفِهِ ومذاقَتِهَا وصفاً صارَ بذلك الوصفُ فصيحاً؟

ثم إن من الاستعارة قبيلاً لا يصحُّ أن يكونَ المستعارُ فيه اللفظُ البتَّة ولا يصحُّ أن تقعَ الاستعارةُ فيه إلَّا على المعنى وذلك ما كان مثلَ اليد في قول لبيد^(١):

وغداة ربحٍ قد كَشَفْتُ وُقْرَةً إِذْ أَضْبَحْتُ بَيْدِ الشَّمَالِ زَمَامَهَا

ذاك أنه ليس ها هنا شيءٌ يزعم أَنَّهُ شَبَّهَ باليد حتى يكون لفظُ اليد مستعاراً له، وكذلك ليس فيه شيءٌ يَتَوَهَّمُ أن يكونَ قد شَبَّهَ بالزمام، وإنما المعنى على أنه شَبَّهَ الشَّمَالَ في تصريفها الغداةَ على طبيعتها بالإنسان^(٢) يكون^(٣) زمام البعير في يَدِهِ فهو يُصَرِّفُهُ على إرادته، ولما أراد [ب ١٤٩] ذلك جعلَ للشمال يداً وعلى الغداة زماماً وقد شرحتُ هذا قَبْلُ شرحاً شافياً.

وليس هذا الضربُ من الاستعارة بدون الضربِ الأولِ من إيجاب وصفِ الفصاحةِ للكلام، لا بَلْ هو أقوى منه في اقتضائها، والمحاسنُ التي تظهرُ به والصورُ التي تحدثُ للمعاني بسببه آنقُ وأعجبُ. وإن أردتَ أن تزداد علماً بالذي ذكرتُ لك من أمره فانظر إلى قوله^(٤):

سَقَنَهُ كَفُّ اللَّيْلِ الْكُؤْسَ الْكَرَى ❁

وذلك أنه ليس يَخْفَى على عاقلٍ أنه لم يَرِدْ أن يشبَّه شيئاً بالكفِّ ولا أرادَ

(١) البيت من معلقته (ديوانه ٣١٥).

(٢) بالإنسان: سقطت من (أ).

(٣) في (ب): يَكُونُ.

(٤) الشطر في الوساطة ٢١١ منسوباً إلى أبي نواس وليس في ديوانه.

ذلك في الأكوس ولكن لما كان يقال: سُكْرُ الكرى وسُكْرُ النوم؛ استعار للكرى الأكوس كما استعار الآخر الكأس في قوله^(١):

❁ وقد سقى القوم كأسَ النعسة السهر ❁

ثم إنه لما كان الكرى يكون في الليل جعل الليلَ ساقياً، ولما جعله ساقياً، جعل له كفاً إذ كان الساقى يناولُ الكأس بالكف. ومن اللطيفِ النادرِ في ذلك ما تراه في آخر هذه الأبيات وهي للحكم بن قنبر^(٢):

وَلَوْلا اغْتِصَامِي بِالْمُنَى كُلِّمَا بَدَا لِي الْيَأْسُ مِنْهَا لَمْ يَقُمْ بِالْهَوَى صَبْرِي
وَلَوْلا اِنْتِظَارِي كُلَّ يَوْمٍ جَدَا غِدٍ لِرَاحِ بِنَعْشِي الدَّافِنُونَ إِلَى قَبْرِي
وَقَدْ رَابَنِي وَهْنُ الْمُنَى وَانْقِبَاضُهَا وَبَسْطُ جَدِيدِ الْيَأْسِ كَفِّهِ فِي صَدْرِي

ليس المعنى على أنه استعار لفظ الكفين لشيء ولكن على أنه أراد أن يصِفَ اليأسَ بأنه قد غَلَبَ على نفسه، وتمكَّن في صدره، ولما أرادَ ذلك وصفه بما يصفون به الرجلَ بفضلِ القدرة على الشيء وبأنه متمكَّن منه وأنه يَفْعَلُ فيه كلَّ ما يريد كقولهم: قد بَسَطَ يديه في المالِ يَنْفِقُهُ ويصنَعُ فيه ما يشاء، وقد بَسَطَ

(١) عجز بيت صدره:

قُولِي وَرَكْبُكَ قَدْ مَالَتْ عَمَائِمُهُمْ وَقَدْ سَقَاهُمْ بِكَاسِ السَّكْرَةِ السَّفَرُ
وَيُنْسَبُ لِأَبِي دَهْبَلِ الْجَمْحِيِّ وَالصَّحِيحِ أَنَّهُ لِمُحَمَّدِ بْنِ بَشِيرٍ الْخَارِجِيِّ. نَبَّهَ صَاحِبُ
اللسان: «أجر» والأغاني ٧٤/١٦ ورواية اللسان هي:

قُولِي وَرَكْبُكَ قَدْ مَالَتْ عَمَائِمُهُمْ وَقَدْ سَقَاهُمْ بِكَاسِ النَّوْمَةِ السَّهَرُ

ومحمد بن بشير الخارجي شاعر فصيح حجازي مطبوع، من شعراء الدولة الأموية كان منقطعاً إلى أبي عبيدة بن عبد الله بن زُمعة القرشي أحد بني أسد، وكان يَبْدُو في أكثر زمانه ويقم في بوادي المدينة فلا يكاد يحضر مع الناس. (الأغاني ٦١/١٦).

(٢) الحكم بن قنبر المازني: مازن بن عمرو بن تميم، بصري شاعر ظريف من شعراء الدولة الهاشمية. وكان يهاجي مسلم بن الوليد الأنصاري مدة ثم غلبه مسلم. قنبر بضم القاف والباء في معجم الأدباء ٢٤٠/١٠ وبفتحهما في اللسان: «قنبر». (الأغاني ١٥٣/٤) ولم ترد الأبيات في الأغاني.

العاملُ يَدُهُ في الناحية وفي ظُلْمِ الناس. فليس لك إلا أن تقول إنه لَمَّا أرادَ ذلك جَعَلَ لليأسِ كَافَيْنِ واستعارَهما له، فأما أن تُوقِعَ الاستعارة فيه على اللفظ فمما لا تخفى [١٥٠] استحالتُه على عاقل.

والقولُ في المجازِ هو القولُ في الاستعارةِ لأنَّه ليس هو بشيءٍ غيرها وإنما الفرقُ أنَّ المجازَ أعمُّ من حيثُ إنَّ كلَّ استعارةٍ مجازٌ وليس كلُّ مجازٍ استعارة. وإذا نظرنا من المجازِ فيما لا يطلقُ عليه أنه استعارة ازداد خطأ القوم قبحاً وشناعةً وذلك أنه يلزم على قياس قولهم أن يكون قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [يونس: ٦٧/١٠] ^(١) أفصح من أضله الذي هو قولنا: والنهارُ لتبصروا أنتم فيه أو مبصراً أنتم فيه من أجل أنه حدث في حروفِ مُبصر - بأن جَعَلَ الفعلَ للنهار على سعة الكلام - وصفتُ لم يكن. وكذلك يلزم أن يكونَ السببُ في أن كان قول الشاعر ^(٢):

❖ فنام لَيْلِي ونجلى هَمِّي ❖

أفصح من قولنا: فنامتُ في ليلي، أن كَسَبَ ^(٣) هذا المجازُ لفظَ الليل مذاقةً لم تُكُنْ لهما. وهذا مما ينبغي للعاقل أن يستحي منه، وأن يأنف من أن يُهْمَلَ النظرُ إهمالاً يؤديه إلى مثله، ونسأل الله تعالى العِصمة والتوفيق.

وإذ قد عرفت ما لزمهم في الاستعارة والمجاز فالذي يلزمهم في الإيجاز أعجب، وذلك أنه يلزمهم إن كان اللفظ فصيحاً ^(٤) لأمر يرجع إليه نفسه دون معناه أن يكون كذلك موجزاً لأمرٍ يرجع إلى نفسه وذلك من المحال الذي يضحك منه، لأنه لا معنى للإيجاز إلا أن يدلَّ بالقليل من اللفظ على الكثير من المعنى، وإذا لم تجعله وصفاً للفظ من أجل معناه أبطلت معناه أعني أبطلت معنى الإيجاز.

(١) والآية الكريمة: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾.

(٢) الرجز لرؤية، وقد سبق.

(٣) في (ب): كَسَبَ.

(٤) في (أ) و (ب): إن كان اللفظ يكون فصيحاً.

ثم إن ها هنا معنى شريفاً قد كان ينبغي أن نكون قد ذكرناه في أثناء ما مضى من كلامنا؛ وهو أن العاقل إذا نظر عِلِمَ عِلِمَ ضرورة أنه لا سبيل له إلى أن يُكثِرَ معاني الألفاظ أو يُقلِّلَها، لأنَّ المعاني المودعة في الألفاظ لا تتغير على الجملة عما أرادَه واضع اللغة، وإذا ثبتَ ظَهَرَ منه أنه لا معنى لقولنا: كثرة المعنى مع قلة اللفظ. غير أن [١٥٠ ب] المتكلم يتوصلُ بدلالة المعنى على المعنى إلى فوائدَ لو أنه أراد الدلالة عليها باللفظ لاحتاج إلى لفظ كثير.

واعلم أن القولَ الفاسدَ والرأيَ المدخولَ^(١) إذا كان صدورُه عن قوم لهم نباهة وصيتٌ وعلو منزلة في أنواع من العلوم غير العلم الذي قالوا ذلك القول فيه، ثم وقع في الألسن فتداولته ونشرته، وفشا وظهر وكثر الناقلون له والمشيّدون بذكره، وصار تركُ النظر فيه سُنَّةً والتقليدُ ديناً، ورأيت الذين هم أهلُ ذلك العلم وخاصته والممارسون له والذين هم خلقاء أن يعرفوا وجه الغلط والخطأ فيه - لو أنهم نظروا فيه - كالأجانب الذين ليسوا من أهله في قبوله والعمل به والركون إليه، ووجدتهم قد أعطوه مقادتهم، وألنوا له جانبهم، أو أوهمهم النَّظْرُ إلى منتهاه ومنتسبه، ثم اشتهاره وانتشاره وإطباق الجمع بعد الجمع عليه، أن الضنَّ به أصوبُ، والمحاماة عليه أولى، ولربما بل كلُّما^(٢) ظنوا أنه لم يشغ ولم يتسغ، ولم يروه خلف عن سلف، وآخر عن أول، إلا لأن له أصلاً صحيحاً، وأنه أخذ من معدن صدق، واشتقَّ من نبعة كريمة، وأنه لو كان مدخولاً لظهر الدَّخْلُ^(٣) الذي فيه على تقادم الزمان وكرور الأيام، وكم من خطأ ظاهرٍ ورأي فاسدٍ حِطِّي بهذا السبب عند الناس حتّى بؤأوه في أخصّ موضع من قلوبهم، ومنحوه المحبة الصادقة من نفوسهم، وعطفوا عليه عطف الأم على واحدِها. وكم من داءٍ ذويٍّ قد استحکم بهذه العلّة حتى أعيا علاجه،

(١) رأي مدخول: أي فاسد، وانظر مادة «دخل» في اللسان.

(٢) في (أ): ولربما بل كما ظنوا.

(٣) الدَّخْل: ما داخل الإنسان من فساد في عقل أو جسم ومدخول مشتق من المادة.

اللسان: «دخل».

وحتى بَعِلَ^(١) به الطبيب ولولا سلطان هذا الذي وصفت على الناس وأن له أخذة تمنع القلوب عن التدبر، وتقطع عنها دواعي التفكر، لما كان لهذا الذي ذهب إليه القوم في أمر اللفظ هذا التمكن وهذه القوة، ولا كان يرسخ في النفوس هذا الرسوخ، وتتشعب عروقه هذا التشعب، مع الذي [١٥١] بأن من تهافتة وسقوطه، وفحش الغلط فيه، وأنت لا ترى في أديمه من أين نظرت وكيف صرفت وقلبت مصححاً، ولا تراه باطلاً فيه شوب من الحق، وزيفاً فيه شيء من الفضة، ولكن ترى الغش بحتاً، والغلط صرفاً، ونسأل الله التوفيق.

وكيف لا يكون في إसार الأخذة^(٢) ومحولاً بينه وبين الفكرة، من يسلم أن الفصاحة لا تكون في أفراد الكلمات، وأنها إنما تكون فيها إذا ضُم بعضها إلى بعض، ثم لا يعلم أن ذلك يقتضي أن تكون وصفاً لها من أجل معانيها، لا من أجل أنفسها، ومن حيث هي ألفاظ ونطق لسان؟ ذاك لأنه ليس من عاقل يفتح عين قلبه إلا وهو يعلم ضرورة أن المعنى في ضُم بعضها إلى بعض، تعليق بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب من بعض؛ لا أن ينطق ببعضها في إثر بعض من غير أن يكون فيما بينها تعلق، ويعلم كذلك ضرورة - إذا فكر - أن التعلق يكون فيما بين معانيها لا فيما بينها أنفسها. ألا ترى أنا لو جهدنا كل الجهد أن نتصور تعلقاً فيما بين لفظين لا معنى تحتها لم نتصور؟

ومن أجل ذلك انقسمت الكلم قسمين: مؤتلف وهو الاسم مع الاسم والفعل مع الاسم، وغير مؤتلف وهو ما عدا ذلك كالفعل مع الفعل والحرف مع الحرف. ولو كان التعلق يكون بين الألفاظ لكان ينبغي أن لا يختلف حالها في الائتلاف، وأن لا يكون في الدنيا كلمتان إلا ويصح أن يأتلفا لأنه لا تنافي بينهما من حيث هي ألفاظ. وإذا كان كل واحد منهم قد أعطى يده بأن الفصاحة لا تكون في الكلم أفراداً، وأنها إنما تكون إذا ضُم بعضها إلى بعض. وكان

(١) البعل: هو الضجر والتبرم بالشيء! والبعل: الدهش عند الروح. اللسان.

(٢) الإसार: القيد؛ وهو السير من الجلد يُشدُّ به الشيء وأسرته شدّه بالإسار، والأخذة - بضم الهمزة وفتحها - : الرقعة. اللسان: أسر، أخذ.

يكون المراد بضم بعضها إلى بعض تعليق معانيها بعضها ببعض، لا كون بعضها في النطق على أثر بعض، وكان واجباً إذا عليم ذلك أن يعلم أن الفصاحة تجب لها من أجل معانيها لا من أجل أنفسها، لأنه محال أن يكون سبب ظهور الفصاحة فيها تعلق معانيها [١٥١ ب] بعضها ببعض ثم تكون الفصاحة وصفاً يجب لها لأنفسها لا لمعانيها. وإذا كان العلم بهذا ضرورة ثم رأيتهم لا يعلمونه فليس إلا أن اعتزامهم على التقليد قد حال بينهم بين الفكرة، وعرض لهم منه شبه الأخذ.

واعلم أنك إذا نظرت وجدت مثلهم مثل من يرى خيال الشيء فيحسبه الشيء وذلك أنهم قد اعتمدوا في كل أمرهم على النسق الذي يروونه في الألفاظ، وجعلوا لا يحفلون بغيره ولا يعولون في الفصاحة والبلاغة على شيء سواه، حتى انتهوا إلى أن زعموا أن من عمداً إلى شعر فصيح فقرأه. ونطق بالفاظه على النسق الذي وضعها الشاعر عليه، كان قد أتى بمثل ما أتى به الشاعر في فصاحته وبلاغته، إلا أنهم زعموا أنه يكون في إتيانه به محتذياً لا مبتدئاً.

ونحن إذا تأملنا وجدنا الذي يكون في الألفاظ من تقديم شيء منها على شيء إنما يقع في النفس أنه نسق إذا اعتبرنا ما تؤخى من معاني النحو في معانيها، فأما مع ترك اعتبار ذلك فلا يقع ولا يتصور بحال. أفلا ترى أنك لو فرضت في قوله^(١):

❁ قِفَا نَبْكَ مِنْ ذِكْرِي حَبِيبٍ وَمَنْزِلٍ ❁

أن لا يكون «نَبْكَ» جواباً للأمر، ولا يكون مُعَدَّى بمنزلة «ذِكْرِي»، ولا يكون «ذِكْرِي» مضافةً إلى «حَبِيبٍ» ولا يكون «مَنْزِلٍ» معطوفاً بالواو على «حَبِيبٍ»، لخرج ما ترى فيه من التقديم، والتأخير عن أن يكون نسقاً؟ ذاك لأنه إنما يكون تقديم الشيء على الشيء نسقاً وترتيباً إذا كان ذلك التقديم قد كان

(١) من مطلع معلقة امرئ القيس في (ديوانه ٨) وتام البيت:

* بسقط اللوى بين الدخول فحومل *

لموجبٍ أوجبَ أن يُقدَّمَ هذا ويؤخَّر ذاك، فاما أن يكون مع عدم الموجب نسقاً فمُحال، لأنه لو كان يكونُ تقديمُ اللَّفْظِ على اللَّفْظِ من غير أن يكونَ لَهُ موجبٌ نسقاً، لكانَ يَنبغي أن يكونَ توالي الألفاظِ في النُّطقِ على أيِّ وجهٍ كانَ نسقاً، حتى إنك لو قلتَ: «نبتك قفا حبيبِ ذكرى من» لم تكنْ قد أَعَدَمْتَه النسقَ والنظمَ وإنما أَعَدَمْتَه الوزنَ فقط [١٥٢]، وقد تقدَّمَ هذا فيما مضى؛ ولكنَّا أَعَدْنَاه ههنا لأن الذي أخذنا فيه من إسلامِ القومِ أنفسهم إلى التقليدِ اقتضى إعادته.

واعلم أن الاحتذاءَ عندَ الشعراءِ وأهلِ العلمِ بالشعرِ وتقديره وتمييزه أن يبتدئَ الشاعرُ في معنى له وغرضٍ أسلوباً - والأسلوبُ الضربُ مِنَ النظمِ والطريقةُ فيه - فيعمدُ شاعرٌ آخرٌ إلى ذلك الأسلوبِ فيجيءُ به في شعره فيشبههُ بِمَن يقطعُ مِنْ أديمه نعلًا على مثالِ نعلٍ قد قطعها صاحبُها؛ فيقال قد أخذى على مثاله، وذلك مثلُ أنَّ الفرزدقَ قال^(١):

أترجو رُبَيْعَ أن تجيءَ صغارُها بخيرٍ وقد أعيا ربيعاً كبارُها؟
واحتذاءَ البعِثُ فقال^(٢):

أترجو كليبَ أن يجيءَ حديثُها بخيرٍ، وقد أغيا كليباً قديمُها
وقالوا: إنَّ الفرزدقَ لما سمعَ هذا البيتَ قال^(٣):

(١) ديوان الفرزدق ٣٣٨/١ من قطعة يهجو بها بني ربيع بن الحارث رهط مرّة بن محكان. - ورواية الديوان: «أن يجيء».

والبيت، وسياقه مع الأبيات الأخرى في نقائض جرير والفرزدق ١٢٥/١. والأبيات في بعض كتب النقد والبلاغة (مثلاً: الصناعتين ٢٣٦).

(٢) من قصيدة له في (نقائض جرير والفرزدق) ١٠٩/١، وفيه (المعنى): أترجو كليب أن يكون لها حديث من المجد ولا قديم لها؟

(٣) النقائض ١٢٥/١

- تنخلها أي أخذ خيارها. وإذا رويت تنحلها (بالحاء المهملة) والمعنى: انتحلها. والمقصود بـ «ابن حَمراء العجان»: البعِث. (أمّه أعجمية غير عربية) وفي التلقيب شتيمة خفية ظاهرة!

إذا ما قُلْتُ قافيةً شروداً تنحَّلها ابنُ حمراءِ العِجان!
ومثلُ ذلك أنَّ البَيعَ قال في هذه القصيدة^(١):
كُليبُ لِشامِ الناسِ قد يَعلِموَنه وأنتَ إذا عُذَّتْ كُليبُ لثِيبُها
وقال البحتري^(٢):
بنو هاشِمٍ في كلِّ شَرْقٍ ومَغْرِبٍ كرامُ بني الدُّنيا وأنتَ كَرِيبُها
وحكى العسكريُّ في (صنعة الشعر) أنَّ ابنَ الرومي قال: قال لي البحتري:
قولُ أبي نواس^(٣):
ولم أذِرْ مَنْ هُم غيرَ ما شَهِدْتَ لَهُم بشرقيِّ ساباطِ الدِّيَارِ البَسَاطِ
مأخوذٌ من قول أبي خِراشِ الهذلي^(٤):
ولَمْ أذِرْ مَنْ ألقى عليه رِداءَهُ سِوى أَنَّهُ قَدْ سُلَّ مِنْ ماجِدٍ مَحْضٍ
قال: فقلت: قد اختلف المعنى^(٥) فقال: أما ترى حدو الكلام حدواً

(١) النقاظ ١/ ١٠٩، وروايته: قد تعلمونه.

(٢) من قصيدة يمدح بها المهدي بالله (الديوان ٣/ ٢٠٢٣).

(٣) البيت من قصيدة مشهورة لأبي نواس (الديوان ٣٧).

- وروايته: غير ما شهدت به. وفي شرح الديوان: (ساباط) مدينة فارسية قريبة من المدائن.

(٤) البيت من قطعة في ديوان أبي خراش في (ديوان الهذليين ١٥٨) وللشعر خبر منتشر في كتب الأدب والأخبار.

- وروي في البيت: ولكنه قد سلّ...

(٥) اختلف المعنى لأن أبا نواس يتحدث عن دار ندامى نزل بها وجدّد ذكريات الأنس، وأبو خراش يتحدث عن رجل ألقى رداءه على ابنه خراش فنجا من القتل، وأدرك القوم أخاه عروة بن مرة، فقتلوه.

- أما أن الكلامين على حدو واحد فلأن أبا خراش وأبا نواس معاً أثنيا على مجهولين، وأدارا الكلام من هذه الناحية.

- والعسكري صاحب الخبر هو أبو أحمد الحسن بن عبد الله المعروف بالعسكري

واحدًا؟ وهذا الذي كتبتُ من حلي الأخذ في الحذر.

ومما هو في حَدِّ الخَفِيِّ قولُ البحتري^(١):

ولنْ يَنْقُلَ الحَسَادُ مَجْدَكَ بَعْدَمَا تَمَكَّنَ رَضْوَى واطْمَأَنَّ مُتَالِغٌ
[١٥٢ ب] وقولُ أبي تمام^(٢):

ولقد جَهَدْتُمْ أَنْ تُزِيلُوا عِزَّهُ فإِذَا أَبَانَ قَدْ رَسَا وَيَلْمَلَمُ
قد احتذى كُلُّ واحدٍ منهما على قول الفرزدق^(٣):

فادْفَعْ بِكَفِّكَ إِنْ أَرَدْتَ بِنَاءَنَا نُهْلَانَ ذَا الهَضْبَاتِ هَلْ يَتَحَلَّلُ
وجملةُ الأمرِ أنَّهم لا يجعلونَ الشاعرَ محتذياً إلا بما يجعلونه به آخذاً
ومُسترقاً؛ قال ذو الرمة^(٤):

وَشِعْرٍ قَدْ أَرَقْتُ لَهُ غَرِيبٍ أَجْنَبَهُ الْمُسَانِدَ وَالْمُحَالَ
فَبِتُّ أَقْبِمُهُ وَأَقْدُ مِنْهُ قَوَافِي لَا أُرِيدُ لَهَا مِثَالاً

= (المتوفى سنة ٣٨٢): وهو أديب، ناقد، لغوي. له تصانيف، وصف بعضها، مثل

المصون في الأدب، وكتاب في التصحيف والتحريف.

- وذكروا من كتبه واحداً بعنوان: علم النظم، وسماه ياقوت (صناعة الشعر).

- وأظنه المقصود بـ (صناعة الشعر) في الخبر المذكور.

(١) البيت للبحتري من قصيدة في مدح الفتح بن خاقان:

- الديوان ١٣٠٥

- (رضوى) و (متالع) جَبْلَان.

(٢) البيت من قصيدة في مدح مالك بن طوق التغلبي (الديوان ٢٠٠/٣) و (أبان) و (يللمم)

جَبْلَان.

(٣) البيت من قصيدة نقيضة، والخطاب لجريز. (الديوان ٧١٧/٢).

(٤) من قصيدة في مدح بلال بن أبي بردة. (الديوان ١٥٣٢/٣) وسياق الأبيات من معان

يذكر فيها شعره وشاعريته.

- وروايته: «قوافي لا أعد لها مثلاً».

- والمساند من السناد، وهو عيب في الشعر.

قال يقول: لا أخذوها على شيء سمعته. فأما أن يجعلَ إنشادَ الشعرِ وقراءته احتذاءً فمما لا يعلمونه؛ كيف وإذا عمَدَ عامدٌ إلى بيتِ شعرٍ فوضع مكانَ كُلِّ لفظٍ لفظاً في معناه كمثلي أن يقول في قوله^(١):

دَعِ المَكَارِمَ لَا تَرْحَلْ لِبَغِيَّتِهَا واقْعُدْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الكَاسِي
ذَرِ المَآثِرَ لَا تَذْهَبْ لِمَطْلَبِهَا واجلسْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الأَكْلُ اللَّابِسُ

لم يجعلوا ذلك احتذاءً، ولم يؤهلوا صاحبه لأن يُسمّوه مُحْتَذِياً ولكن يسمون هذا الصَّنِيعَ سَلْخاً^(٢) ويرذلونه وَيُسَخِّفُونَ المتعاطيَ له. فمن أين يجوز لنا أن نقول في صبيّ يقرأ قصيدة امرئ القيس إنه احتذاءً في قوله:

فَقُلْتُ لَهُ لَمَّا تَمَطَّى بِضُلْبِهِ وَأَزْدَفَ أَغْجَازاً وَنَاءً بِكُلْجَلِ

والعجبُ من أنهم لم ينظروا فيعلموا أنه لو كان مُنْشِداً الشعرَ محتذياً لكانَ يكونُ قائلَ شعرٍ، كما أن الذي يحذو النعلَ بالنعلِ يكون قاطعَ نعلٍ وهذا تقريرٌ يصلح لأن يُحْفَظَ للمناظرة ينبغي أن يقالَ لمن يزعمُ أن المنشد إذا أنشدَ شعرَ امرئ القيس كان قد أتى بمثله على سبيل. لأنه نطقُ بَأَنْفُسِ الألفاظِ التي نطقَ بها، أم لآتِه راعى النَّسْقَ الذي راعاه في النطقِ بها؟ فَإِنْ قُلْتَ: إِنَّ ذَلِكَ لَأَنَّهُ نَطَقَ بَأَنْفُسِ الألفاظِ التي نَطَقَ بها: أَحَلَّتْ^(٣)، لأنه إنما يصحُّ أن يقالَ في الثاني إنه أتى بمثل ما أتى به الأول إذا كان الأول قد سبق إلى شيء فأحدثه ابتداءً، وذلك في الألفاظ مُحالٌ، إذ ليس يمكنُ أن يقالَ إنَّه لم ينطق بهذه الألفاظِ التي هي في قوله:

❁ قَفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرِي حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ ❁

(١) البيت للحطيئة من قصيدة له في الديوان ٢٨٤، وفي البيت تعريض بالزبرقان بن بدر.

(٢) في كتاب التعريفات لعلي بن محمد الجرجاني ١٢٦. السلخ: هو أن تعمد إلى بيت فتضع مكان كل لفظ لفظاً في معناه مثل أن تقول في قول الشاعر:

دَعِ المَكَارِمَ لَا تَرْحَلْ لِبَغِيَّتِهَا

ذَرِ المَآثِرَ لَا تَذْهَبْ لِمَطْلَبِهَا واجلسْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الأَكْلُ اللَّابِسُ

(٣) أي وقعت في المُحال.

قبل امرئ القيس أحدٌ، وإن قلتَ: إن ذلك لأنه قد راعى في نطقه بهذه الألفاظ النسق الذي راعاه امرؤ القيس؛ قيل: إن كنتَ لهذا قضيتَ في المُنشد أنه قد أتى بمثل شعره فأخبرنا عنك إذا قلتَ إن التحدي وقَعَ في القرآن إلى أن يُؤتى بمثله على جهة الابتداء ما تعني به؟ أتعني أنه يأتي في ألفاظ غير ألفاظ القرآن بمثل الترتيب والنسق الذي تراه في ألفاظ القرآن؟ فإن قال: ذلك أعني. قيل له: أعلمتَ أنه لا يكون الإتيان بالأشياء بعضها في أثر بعض على التوالي نسقاً وترتيباً حتى تكونَ الأشياء مختلفة في أنفسها، ثم يكونَ للذي يجيء بها مضموماً بعضها إلى بعض غرضٌ فيها ومقصودٌ لا يتم ذلك الغرض وذاك المقصودُ إلا بأن يتخير لها مواضع فيجعلَ هذا أولاً وذاك ثانياً؟ فإن هذا ما لا شبهة فيه على عاقل.

وإذا كان الأمر كذلك لزمك أن تبين الغرض الذي اقتضى أن تكونَ ألفاظ القرآن منسوقةً النسق الذي تراه. ولا مخلص له من هذه المُطالبة لأنه إذا أبى أن يكونَ المُقتضى والموجب للذي تراه من النسق المعاني، وجعله قد وجبَ لأمرٍ يرجعُ إلى اللفظ لم تجد شيئاً يُحيل الإعجاز في وجوبه عليه البتة، اللهم إلا أنه يجعل الإعجاز في الوزن ويزعم أن النسق الذي تراه في ألفاظ القرآن إنما كان مُعجزاً من أجل أن كان قد حَدَث عنه ضربٌ من الوزن يُعجز الخلق عن أن يأتوا بمثله، وإذا قال ذلك لم يُمكنه أن يقولَ إن [١٥٣ ب] التحدي وقَعَ إلى أن يأتوا بمثله، في فصاحته وبلاغته، لأن الوزن ليس هو من الفصاحة والبلاغة في شيء، إذ لو كان له مدخلٌ فيهما لكان يجبُ في كل قصيدتين اتفقتا في الوزن أن تتفقا في الفصاحة والبلاغة. فإن عاد بعض الناس طول الإلف لما سمع من أن الإعجاز في اللفظ إلى أن يجعله في مُجرد الوزن كان قد دخل في أمرٍ شنيع، وهو أنه يكونُ قد جعل القرآن معجزاً لا مِنْ حيثُ هو كلامٌ، ولا بما به كان لكلامٍ فضلٌ على كلامٍ، فليس بالوزن ما كان الكلامُ كلاماً ولا به كان كلامٌ خيراً من كلامٍ.

وهكذا السبيلُ إن زعمَ زاعمٌ أن الوصفَ المُعجز هو الجريانُ والسُهولة، ثم يعني بذلك سلامته من أن تلتقي فيه حروفٌ تثقلُ على اللسان، لأنه ليس بذلك

كان الكلام كلاماً ولا هو بالذي يتناهى أمره إن عُذَّ في الفضيلة إلى أن يكون الأصل، وإلى أن يكون المعوّل عليه في المفاضلة بين كلام وكلام. فما به كان الشاعر مُفْلِقاً، والخطيب مُصْقِعاً والكاتب بليغاً^(١) ورأينا العقلاء حيث ذكروا عجزَ العرب عن معارضة القرآن قالوا إن النبي ﷺ تحدّاهم وفيهم الشعراء والخطباء والذين يُدّلُّون بفصاحة اللسان، والبراعة والبيان، وقوّة القرائح والأذهان، والذين أوتوا الحكمة وفصل الخطاب، ولم نرهم قالوا إن النبي عليه السلام تحدّاهم وهم العارفون بما ينبغي أن يُصنع حتى يسلم الكلام من أن تلتقي فيه حروف تثقل على اللسان، ولما ذكروا مُعْجَزَات الأنبياء عليهم السلام، وقالوا: إن الله تعالى قد جعل معجزة كلّ نبيّ فيما كان أغلب على الذين بُعث فيهم، وفيما كانوا يتباهون به وكانت عوامّهم تعظم به خواصّهم. قالوا: إنه لما كان السحرُ الغالب على قوم فرعون ولم يكن قد استحكم في زمانٍ استحكمه في زمانه جعل تعالى مُعْجَزَةً موسى عليه السلام في إبطاله وتوهينه، ولما كان الغالب على زمانٍ عيسى عليه السلام الطّبُّ جعل الله تعالى مُعْجَزَتَه في إبراء الأكمه [١٥٤] والأبرص وإحياء الموتى.

ولما انتهوا إلى ذكرِ نبينا محمّدٍ ﷺ وذكرِ ما كان الغالب على زمانه لم يذكروا إلا البلاغة والبيان والتصرف في ضروب النظم.

وقد ذكرت في الذي تقدّم عين ما ذكرته ههنا مما يدلّ على سقوط هذا القول وما دعاني إلى إعادة ذكره إلا أنه ليس تهالك الناس في حديث اللفظ، والمحاماة على الاعتقاد الذي اعتقدوه فيه، وضنّ أنفسهم به إلى حدّ فأحببت لذلك أن لا أدع شيئاً ممّا يجوز أن يتعلّق به متعلّق ويلجأ إليه لاجئ إليه لاجئ ويقع منه في نفس سامع شكّ إلا استقصيت في الكشف عن بطلانه.

وها هنا أمرٌ عجيب، وهو أنّه معلوم لكلّ من نظر أن الألفاظ من حيث هي ألفاظ وكليم ونطق لسان لا تختصّ بواحد دون آخر، وأنها إنما تختصّ إذا توخّي

(١) أفلق الشاعر: أتى بما يعجب في شعره، فهو مفلق. والمصقع: البليغ يتفنّن في مذاهب القول. يقال: خطيب مصقع.

فيها النظم، وإذا كان كذلك كان مَنْ رفع النظم من البين وجَعَلَ الإعجازَ بِجُمْلَتِهِ
في سهولةِ الحروفِ وجَريانها جاعلاً له فيما لا يصحّ إضافته إلى الله تعالى،
وكَفَى بهذا دليلاً على عَدَمِ التوفيق، وشَدَّةِ الضلال عن الطريق.



فصل

في إجمال ما سبق

قد بلغنا في مداواة الناس من داءهم، وعلاج الفساد الذي عرض في آرائهم، كل مبلغ، وانتهينا إلى كل غاية، وأخذنا بهم عن المجاهل التي كانوا يتعسفون فيها إلى السنن اللاجب، ونقلناهم، عن الآجن المطروق إلى التميز الذي يشفي غليل الشارب، ولم ندع لباطلهم عزقاً ينبض إلا كويناه، ولا للخلاف لساناً ينطق إلا أحرسانه، ولم نترك غطاءً كان على بصير ذي عقل إلا حسرناه، فيا أيها السامع لما قلناه، والناظر فيما كتبناه، والمتصفح لما دوناه، إن كنت سمعت سماع صادق الرغبة في أن تكون في أمرك على بصيرة، ونظرت نظر تام العناية في أن يورد ويصدّر عن معرفة، وتصفّحت تصفّح من إذا مارس باباً من العلم لم يقنعه إلا أن يكون على ذروة السنام، ويضرب بالمعلّى [١٥٤ ب] من السهام، فقد هديت لضالتك، وفتّحت الطريق إلى بُغيتك، وهي لك الأداة التي بها تبلغ، وأوتيت الآلة التي معها تصل، فخذ لنفسك بالتي هي أملأ ليديك، وأعود بالخط عليك، ووازن بين حالك الآن وقد تنبهت من رقدتك، وأفقت من غفلتك، وصرت تعلم - إذا أنت خضت في أمر اللفظ والنظم - معنى ما تذكر، وتعلم كيف تورّد وتصدّر، وبينها وأنت من أمرها في عمياء، وخابط خبط عشواء، قُصاراك أن تكرر الفاظاً لا تعرف لشيء منها تفسيراً، وضروب كلام للبلغاء إن سئلت عن أغراضهم فيها لم تستطع لها تبييناً، فإنك تراك تطيل

التعجب من غفلتك، وتكثرُ الاعتذار إلى عقلك من الذي كنتَ عليه طولَ مدَّتِكَ، ونسألُ الله تعالى أن يجعلَ كلَّ ما نأتيه، ونقصدهُ وننتحيه، لوجهه خالصاً، وإلى رضاه عزَّ وجلَّ مؤدياً، ولثوابه مُقتضياً، ولللزُّلفى عنده موجباً، بمتة وفضله ورحمته^(١).



(١) هنا تنتهي نسخة (ب).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[فصل]

في اللفظ والاستعارة

وشواهد تحليلية للمعنى

اعلم أنه لما كان الغلط الذي دخل على الناس في حديث اللفظ كالداء الذي يسري في العروق، ويفسد مزاج البدن، وجب أن يتوخى دائباً فيهم ما يتوخاه الطبيب في الناقه من تعهده بما يزيد في منته، ويُبقيه على صحته، ويؤمنه النكس في علته؛ وقد علمنا أن أصل الفساد وسبب الآفة هو ذهابهم عن أن من شأن المعاني أن تختلف عليها الصُّور، وتحدث فيها خواص ومزايا من بعد أن لا تكون، فإنك ترى الشاعر قد عمد إلى معنى مبتذل فصنع فيه ما يصنع الصانع الحاذق إذا هو أغرب في صنعة خاتم وعمل [١٥٥] شنف وغيرهما من أصناف الحلّي. فإن جهلهم بذلك من حالها هو الذي أغواهم واستهواهم، وورطهم فيما تورطوا فيه من الجهالات، وأداهم إلى التعلق بالمحالات، وذلك أنهم لما جهلوا شأن الصورة وضعوا لأنفسهم أساساً وبنوا على قاعدة، فقالوا إنه ليس إلا المعنى واللفظ ولا ثالث، وإنه إذا كان كذلك وجب إذا كان لأحد الكلامين فضيلة لا تكون للآخر، ثم كان الغرض من أحدهما هو الغرض من

صاحبه أن يكونَ مرجعُ تلك الفضيلة إلى اللفظ خاصة، وأن لا يكونَ لها مرجعُ إلى المعنى من حيثُ إنَّ ذلك زعموا يؤدِّي إلى التناقضِ وأن يكونَ معناهما متغايراً وغيرَ متغاير معاً. ولما أَقَرُّوا هذا في نفوسهم حملوا كلامَ العلماء في كلِّ ما نسبوا فيه الفضيلة إلى اللفظ على ظاهره وأَبَوْا أن ينظروا في الأوصافِ التي أتبعوها نسبتهم الفضيلة إلى اللفظ مثل قولهم: لفظٌ متمكِّنٌ غيرُ قلقٍ ولا نابٍ به موضعه. إلى سائر ما ذكرناه قَبْلُ فيعلموا أنَّهم لم يُوجِبُوا لللفظِ ما أوجِبُوهُ من الفضيلةِ وهم يَعتُنون نطقَ اللسانِ وأجْراسَ الحروف. ولكن جعلوا كالمُواضعة فيما يَنتَهِم أن يقولوا اللفظُ وهم يُريدون الصورة التي تحدث في المعنى والخاصة التي حَدَثت فيه، وَيَعتُنون الذي عَناه الجاحظُ حيث قال: وَذهبَ الشيخُ إلى استحسان المعاني، والمعاني مطروحةٌ وسطَ الطريق يعرفُها العربيُّ والعجميُّ والحضريُّ والبدويُّ، وإنما الشَّعْرُ صياغةٌ وَضُرِبَ من التَّصْويرِ؛ وما يعنونه إذا قالوا: إنه يأخذ الحديثَ فيشتفه ويقرطه، ويأخذ المعنى خرزةً فيردُّه جَوهرةً، وعباءةً فيجعلُه ديباجةً، ويأخذُه عاطلاً فيردُّه حالياً. وليس كونُ هذا مرادهم بحيثُ كان ينبغي أن يَخْفَى هذا الخفاء ويشتبه هذا الاشتباه، ولكن إذا تعاطى الشيءَ غيرُ أهله، وتولَّى الأمرَ غيرُ البصير به، أعْضَلَ الداءُ، واشتدَّ البلاءُ.

ولو لم يكن من الدليل [١٥٥ ب] على أنَّهم لم يَنحلُّوا اللفظَ الفضيلةَ وهم يريدونه نفسه، وعلى الحقيقةِ إلَّا واحدٌ وهو وصفُهم له بأنَّه يزيِّن المعنى، وأنه حلي له لكان فيه الكفايةُ، وذلك أنَّ الألفاظَ أدلة على المعاني وليس للدليل إلَّا أن يعلمكَ الشيءَ على ما يكونُ عليه، فأما أن يصيرَ الشيءَ بالدليلِ على صفوةٍ لم يكن عليها فمما لا يقومُ في عقلٍ، ولا يَتَصَوَّرُ في وهم.

ومما إذا تفكَّر فيه العاقلُ أطالَ التعجُّبَ من أمرِ الناس ومن شدَّةِ غفلتهم قولُ العلماء حيثُ ذكروا الأخذَ والسرقةَ: إنَّ من أَخَذَ معنى عارياً فكسَاه لفظاً من عنده كان أحق به. وهو كلامٌ مشهورٌ متداولٌ يقرأه الصَّبيانُ في أوَّلِ كتابِ عبد الرَّحمن^(١)

(١) المقصود بعبد الرحمن هو: عبد الرحمن بن عيسى الهمداني (توفي سنة ٣٢٠) وكان كاتباً لغوياً أديباً، شاعراً. وكتابه المشار إليه هو (الألفاظ الكتائية).

- وكلامه، الذي ألمح إليه المؤلف هو قوله في مقدِّمة الكتاب عن الشعراء والخطباء

ثم لا ترى أحداً من هؤلاء الذين لهجوا بجعل الفضيلة في اللفظ يفكر في ذلك فيقول: من أين يتصور أن يكون ها هنا، معنى عارٍ من لفظ يدل عليه؟ ثم من أين يُعقل أن يجيء الواحد منا لمعنى من المعاني بلفظ من عنده إن كان المراد باللفظ نُطق اللسان؟ ثم هب أنه يصح له أن يفعل ذلك فمن أين يجب إذا وضع لفظاً على معنى أن يصير أحق من صاحبه الذي أخذه منه إن كان هو لا يصنع بالمعنى شيئاً، ولا يحدث فيه صفة، ولا يكسبه فضيلة؟ وإذا كان كذلك فهل يكون لكلامهم هذا وجه سوى أن يكون اللفظ في قولهم: «فكسأه لفظاً من عنده» عبارة عن صورة يحدثها الشاعر أو غير الشاعر للمعنى؟ فإن قالوا: بلى يكون وهو أن يستعير للمعنى لفظاً. قيل الشأن في أنهم قالوا: «إذا أخذ معنى عارياً فكسأه لفظاً من عنده كان أحق به» والاستعارة عندكم مقصورة على مجرد اللفظ ولا ترون المستعير يصنع بالمعنى شيئاً، وترون أنه لا يحدث فيه مزية على وجه من الوجوه. وإذا كان كذلك فمن أين - ليت شعري - يكون أحق به؟ فاعرفه!

ثم إن أردت مثلاً في ذلك فإن من أحسن شيء فيه ما صنع أبو تمام في بيت أبي نخيلة. وذلك أن أبا نخيلة قال في مسلمة بن عبد الملك^(١): [١٥٦ أ]

أَمْسَلَمُ إِنِّي يَا بَنَ كُلِّ خَلِيفَةٍ وَيَا جَبَلَ الدُّنْيَا وَيَا وَاحِدَ الْأَرْضِ
شَكَرْتُكَ إِنْ الشُّكْرَ حَبْلٌ مِنَ الثَّمَى وَمَا كُلُّ مَنْ أَوْلَيْتُهُ صَالِحاً يَقْضِي
وَأَنْبَهْتَ لِي ذِكْرِي وَمَا كَانَ خَامِلاً وَلَكِنَّ بَعْضَ الذِّكْرِ أَنْبَهُ مِنْ بَعْضٍ
فَعَمِدَ أَبُو تَمَامٍ إِلَى هَذَا الْبَيْتِ الْأَخِيرِ فَقَالَ^(٢):

= والكتاب: «فمن أخذ منهم معنى بلفظ فقد سرقه، ومن أخذه ببعض لفظه فقد سلخه، ومن أخذه عارياً وكسأه من عنده لفظاً فهو أحق به ممن أخذه منه».

(١) الأبيات من قطعة في مجموع شعره (مجلة المورد، العدد ٣، المجلد السابع، سنة ١٩٧٥ م، ص ٢٥٧). وهي أربعة أبيات. وانظر أيضاً الأغاني ٢٠/٣٦٣ - ٣٦٤ وأبو نخيلة شاعر راجز مخضرم الدولتين ووفاته سنة ١٤٥ هـ، قتل غيلة. وأبو نخيلة اسمه وكنيته أبو الجنيد.

(٢) من قصيدة في مدح محمد بن عبد الملك الزيات. (الديوان ٩٩/٣ - ١٠٠).

لقد زدت أوصاحي امتداداً ولم أكن بهيماً ولا أُرْضِي من الأَرْضِ مَجْهَلاً
ولكن أبادِ صادَفْتَنِي جِسامُها أَغْرَ فأَوْقَتْ بِـي أَغْرَ مُحَجَّلاً
وفي كتاب (الشعر والشعراء)^(١) للمَرْزُبَانِي فصلٌ في هذا المعنى حسنٌ،
قال: ومن الأمثال القديمة قولهم^(٢): «حَرّاً أخافُ على جاني كماؤُ لا قُرّاً»
يُضْرَبُ مثلاً للذي يخافُ من شيءٍ فيسلم منه ويصيبُه غيرُه مما لم يَخَفْه، فأخذ
هذا المعنى بعضُ الشعراءِ فقال^(٣):

وَحَذِرْتُ من أَمْرِ قَمَرٍ بِجَانِبِي لَمْ يُنْكِنِي وَلَقِينْتُ ما لَمْ أَخْذِرِ
وقال لبيد^(٤):

= - والأوضح جمع وضع وهو البياض. يقول: إن الممدوح وجده أغر فزاده حجولاً.
والمعنى: لَمَّا أَكْرَمْتَنِي زدت في شرفي.

(١) المرزباني هو أبو عبيد الله محمد بن عمران بن موسى، المتوفى سنة ٣٨٤ هـ. وهو
أديب، مصنف، راوية. وله كتب كثيرة وصل إلينا بعضها مثل (الموشح) و (معجم
الشعراء).

- وقد أشار المرزباني في مقدمة الموشح إلى كتاب له في الشعر، وبين أنه عالٍ فيه
موضوع السرقات الأدبية.

(٢) في أمثال الميداني (١/٢١٢) يضرب هذا المثل للرجل يقول: إني أخاف كذا وكذا،
ويكون الخوف في غيره. والمثل في أمثال العسكري (١/٣٧٣): حَرّاً أخاف على جاني
الكماة. قال: ويضرب مثلاً للرجل يخاف أمراً، وغيره أخوف عليه.

(٣) الشعر لسهم بن حنظلة، قال فيه الآمدي: فارس مشهور وشاعر مُحسن. وذكر البيت،
وقبله:

كَم من عَدُوٍّ قد رَماني كاشِحٍ وَنَجَوْتُ من أَمْرِ أَغْرَ مُشْهَرٍ
وعقَّب بعد خبره في (المؤتلف والمختلف ٢٠٠ - ٢٠١) فقال: وقوله في البيت
الآخر: ما لم أحذر، مثله قول البُحْثري:

يَنالُ الفَتى ما لَمْ يَؤْمَلِ ورَبِّما أَناحتْ لَه الأَقْدار ما لَمْ يُحاذِرْ

(٤) من قصيدة في ديوانه ١٥٨

- وأريد أخوه لأمه.

أَخْشَى عَلَى أَرِيدَ الْحَتُوفَ وَلَا أَرْهَبُ نَوْءَ السَّمَاءِ وَالْأَسَدِ
قال: وأخذه البحرني فأحسن وطفى اقتداراً على العبارة واتساعاً في المعنى
فقال^(١):

لَوْ أَنَّنِي أَوْفِي التَّجَارِبَ حَقَّهَا فِيمَا أَرْتُ لِرَجُوتُ مَا أَخْشَاهُ
وشية بهذا الفصل فصل آخر من هذا الكتاب^(٢) أيضاً.
أنشد لإبراهيم بن المهدي^(٣):

يَا مَنْ لِقَلْبٍ صَبِغَ مِنْ صَخْرَةٍ فِي جَسَدٍ مِنْ لُؤْلُؤٍ رَظَبٍ
جَرَحْتُ خَدْيَهُ بِلَحْظِي فَمَا بَرَحْتُ حَتَّى اقْتَصَرَ مِنْ قَلْبِي!
ثم قال^(٤): قَالَ عَلِيٌّ بْنُ هَارُونَ: أَخَذَهُ أَحْمَدُ بْنُ أَبِي فَنَنْ^(٥) مَعْنَى وَلَفْظاً
فقال: [١٥٦ ب]

أَذْمِنْتُ بِاللَّحْظَاتِ وَجَنَنْتُهُ فَاقْتَصَرَ نَازِرُهُ مِنَ الْقَلْبِ!
قال: ولكنه بقاء عبارته وحسن مأخذه قد صار أولى به.

= يقول إنه كان يخشى عليه كل سبب من أسباب المنية، ولكنه لم يكن يخشى (يتوقع) أن
تصيبه صاعقة (كما كان في خبره). وقد دعا النبي ﷺ على عامر بن الطفيل وعلى أريد،
فمات أحدهما بالطاعون، وأهلكت الصاعقة الثاني.

- (١) البيت من قصيدة في مدح صاعد بن مخلد ومدح ابنه أبي عيسى. (الديوان ٢٤٠١/٤).
- (٢) هو كتاب (الشعر) للمرزباني.
- (٣) البيتان في ديوان ابن المعتز ٢٤٣/٣، في الزيادات التي ضمها جامع الديوان،
ومحققه.

- (٤) القائل هو المرزباني. والمؤلف هنا ينقل عنه.
- (٥) هو أبو عبد الله أحمد بن صالح بن أبي فنن، شاعر عباسي من شعراء بغداد، شهر
بالشعر في أيام المتوكل، وأكثر من مدح وزيره الفتح بن خاقان.
(طبقات ابن المعتز ٢٩٦، وسمط اللآلي ٢٤٥، والموشح ٥٣١) وله شعر مبثوث.
واستشهد ابن وكيع في المنصف كثيراً بشعره.

ففي هذا دليل لمن عَقَلَ أنهم لا يَغْنُون بحسنِ العبارة مَجَرَّدَ اللفظ، ولكن صورةً وصفةً وخصوصيةً تحدثُ في المعنى، وشيئاً طريق معرفته على الجملة العقلُ دونَ السمع، فإنه على كل حال لم يَقُل في البحرى إنه أحسنَ فطغى اقتداراً على العبارة من أجل حروف لو أنني أوفي التجارب حقها.

وكذلك لم يَصِف ابنُ أبي فتنَ ببقاء العبارة من أجل حروف:

❁ أَدْمَيْتُ بِاللَّحَظَاتِ وَجَنَّتُهُ ❁

واعلم أنك إذا سبرت أحوال هؤلاء الذين زعموا أنه إذا كان المعبر عنه واحداً والعبارة اثنتين، ثم كانت إحدى العبارتين أفصح من الأخرى وأحسن، فإنه ينبغي أن يكون السبب في كونها أفصح وأحسن اللفظ نفسه وجدتهم قد قالوا ذلك من حيث قاسوا الكلامين على الكلمتين، فلما رأوا أنه إذا قيل في الكلمتين إن معناهما واحد لم يكن بينهما تفاوت ولم يكن للمعنى في إحداهما حال لا يكون له في الأخرى، ظنوا أن سبيل الكلامين هذا السبيل. ولقد غلطوا فأفحشوا لأنه لا يتصور أن تكون صورة المعنى في أحد الكلامين أو البيتين مثل صورته في الآخر البتة؛ اللهم إلا أن يعمدَ عامداً إلى بيت فيضع مكان كل لفظة منه لفظة في معناها، ولا يعرض لنظمه وتأليفه، كمثلي أن يقول في بيت الحطيئة^(١):

دَعِ الْمَكَارِمَ لَا تَرْحَلْ لِبَغْيَتِهَا واقعد فإنك أنت الطاعمُ الكاسي

دَرِ الْمَفَاخِرَ لَا تَذْهَبْ لِمَظْلَبِهَا واجلس فإنك أنت الأكلُ اللابس!

ومن كان هذا سبيله كان بمعزل من أن يكون به اعتداد، وأن يدخل في قبيل ما يُفاضل فيه بين عبارتين، بل لا يصح أن يجعل ذلك عبارة ثانية، ولا أن يجعل الذي يتعاطاه بمحل [١٥٧ أ] من يوصف بأنه أخذ معنى. ذلك لأنه لا يكون بذلك صانعاً شيئاً يستحق أن يدعى من أجله واضع كلام ومستأنف عبارة، وقائل شعر. ذاك لأن بيت الحطيئة لم يكن كلاماً وشعراً من أجل معاني الألفاظ

(١) سبق في الكتاب.

المفردة التي تراها فيه مجردة معرّاة من معاني النظم والتأليف، بل منها متوخي فيها ما ترى من كون المكارم مفعولاً لـ «دع» وكون قوله: «لا ترحل لبغيتها» جملة أكّدت الجملة قبلها، وكون «اقعد» معطوفاً بالواو على مجموع ما مضى، وكون جملة «أنت الطاعِمُ الكاسي» معطوفةً بالفاء على «اقعد»، فالذي يجيء فلا يُغيّر شيئاً من هذا الذي به كان كلاماً وشعراً، لا يكون قد أتى بكلام ثانٍ وعبارة ثانية، بل لا يكون قد قال من عند نفسه شيئاً البتّة.

وجملة الأمر أنه كما لا تكون الفِضّة أو الذهب خاتماً أو سواراً أو غيرهما من أصناف الحلّي بأنفسهما ولكن بما يحدث فيهما من الصّورة، كذلك لا تكون الكلمة المفردة التي هي أسماء وأفعال وحروف كلاماً وشعراً من غير أن يحدث فيها النّظم الذي حقيقته توخّي معاني النحو وأحكامه. فإذا لم يكن يتصدّى لما ذكرنا من أن يعمد إلى بيت فيضّع مكان كلّ لفظة منها لفظة في معناها إلا أن يُستركّ عقله ويستخفّ ويُعدّد معدّد الذي حكي أنه قال: إني قلت بيتاً هو أشعر من بيت حسان؛ قال حسان^(١):

يُغْشَوْنَ حَتَّى مَا تَهْرُ كِلَابُهُمْ لَا يَسْأَلُونَ عَنِ السَّوَادِ الْمُقْبِلِ
وقلتُ:

يُغْشَوْنَ حَتَّى مَا تَهْرُ كِلَابُهُمْ أَبَدًا وَلَا يَسْأَلُونَ مَنْ ذَا الْمُقْبِلِ^(٢)
ف قيل: هو بيت حسان ولكنك قد أفسدته!

واعلم أنه إنما أتى القوم من قلة نظّروهم في الكتب التي وضّعها العلماء في اختلاف العبارتين على المعنى الواحد، وفي كلامهم في أخذ [١٥٧ ب] الشاعر من الشاعر، وفي أن يقول الشاعران على الجملة في معنى واحد وفي الأشعار التي دونوها في هذا المعنى، ولو أنهم كانوا أخذوا أنفسهم بالنظر في تلك

(١) من قصيدة في مدح عمرو بن الحارث الغساني وقومه. الديوان (البراقوقي) ٣٠٩.

وقوله: يُغشَوْنَ.. أي إن منازلهم لا تخلو من الأضياف والطراق.

(٢) في (ط): «يسألون». وهو تصحيف يفسد الوزن.

الكتبِ وتدبروا ما فيها حقَّ التدبُّر لكان يكونُ ذلك قد أيقظهم مِنْ غفلتهم، وكشَفَ الغطاءَ عن أعينهم.

وقد أردتُ أن أكتبَ جملةً من الشُّعر الذي أنت ترى الشاعرين فيه قَدْ قَالَا في معنى واحدٍ، وهو ينقسمُ قسمين: قسم أنت ترى أحد الشاعرين فيه قد أتى بالمعنى غُفلاً ساذجاً، وترى الآخر قد أخرجه في صورة تروق وتُعجِبُ، وقسم أنت ترى كلَّ واحدٍ من الشاعرين قد صَنَعَ في المعنى وصَوَّرَ.

وأبدأ بالقسم الأول الذي يكونُ المعنى في أحد البيتين غُفلاً وفي الآخر مصوراً مصنوعاً، ويكونُ ذلك إمَّا لأنَّ متأخراً قصر عن متقدِّم، وإمَّا لأنَّ هُديَّ متأخراً لشيء لم يهتدِ إليه المتقدِّم، ومثال ذلك قولُ المتنبي^(١):

بِئْسَ اللَّيَالِي سَهَدَتْ مِنْ طَرَبِي شَوْقاً إِلَى مَنْ يَبِيتُ بِرَقْدِهَا
مع قولِ البحتري^(٢):

لَبِلْ يُصَادِفُنِي وَمُرْهَفَةُ الْحَشَا ضِدَّيْنِ أَسْهَرُهُ لَهَا وَتَنَامُهُ
وقولُ البحتري^(٣):

وَلَوْ مَلَكَتْ زَمَاعاً ظَلَّ يَجْذِبُنِي قَوْداً لَكَانَ نَدَى كَفِّكَ مِنْ عُقْلِي
مع قول المتنبي^(٤):

وَقَيِّدْتُ نَفْسِي فِي ذَرَاكَ مَحَبَّةً وَمَنْ وَجَدَ الْإِحْسَانَ قَبِداً تَقَبَّداً

(١) من قصيدة لأبي الطيب في مدح أبي الحسن محمد بن عبيد الله. (الديوان ٢).

(٢) من قصيدة في مدح أبي العباس أحمد بن محمد بن بسطام. (الديوان ٣/٢٠٣٧).

(٣) من قصيدة في مدح إبراهيم بن المديبر. (الديوان ٣/١٨٧٣).

- الزَّمَاع: المضاء في الأمر، والعزم على الأمر. والقَوْد: مصدر قاد يقول. والعُقل: جمع العقال.

(٤) من قصيدة سيفية يمدح الأمير ويهنته بالعيد. (الديوان ٣٦٢).

- فِي ذَرَاكَ (بفتح الذال) أي في كنفك.

وقول المتنبي^(١):

إِذَا اغْتَلَّ سَيْفُ الدَّوْلَةِ اغْتَلَّتِ الْأَرْضُ وَمَنْ فَوْقَهَا وَالْبَأْسُ وَالْكَرَمُ الْمَخْضُ
مع قول البحري^(٢):

ظَلَّلْنَا نَعُودَ الْجُودِ مِنْ وَعْكَكَ الَّذِي وَجَدْتَ وَقُلْنَا: اغْتَلَّ عِضْوٌ مِنَ الْمَجْدِ!
وقول المتنبي^(٣):

يُعْطِيكَ مُبْتَدِئاً فَإِنْ أَغْجَلْتَهُ أَعْطَاكَ مُعْتَذِراً كَمَنْ قَدْ أَجْرَمَا
مع قول أبي تمام^(٤):

أَخُو عَزَمَاتٍ فَعَلُهُ فَعَلُ مُحْسِنٍ إِلَيْنَا وَلَكِنْ عُذْرُهُ عُذْرُ مُذْنِبٍ
وقول المتنبي^(٥):

كَرِيمٌ مَتَى اسْتَوْهَبْتَ مَا أَنْتَ رَاكِبٌ وَقَدْ لَقِحتُ حَرْبٌ فَإِنَّكَ نَازِلٌ [١٥٨]

مع قول البحري^(٦):

مَاضٍ عَلَى عَزْمِهِ فِي الْجُودِ لَوْ وَهَبَ الشَّدَّ بَابَ يَوْمَ لِقَاءِ الْبَيْضِ مَا نَدِمَا ۝
وقول المتنبي^(٧):

وَالَّذِي يَشْهَدُ الْوَعَى سَاكِنَ الْقَلْدِ بَ كَأَنَّ الْقِتَالَ فِيهَا ذِمَامُ

(١) من قطعة قصيرة في مدح سيف الدولة. (الديوان ٢/٢١٨).

(٢) من قصيدة يمدح بها إبراهيم بن المدبر ويذكر علة أصابته. (الديوان ٢/٧٥٧).

(٣) من قصيدة له في صباه، يمدح. (الديوان ٤/٣٠).

(٤) من قصيدة في مدح عياش بن لهيعة الحضرمي. (الديوان ١/١٥٢).

- وفيه: أخو أزمات بذله بذل محسن... قال: والأزمات: الشدائد، أي يقوم فيها ويبدل.

(٥) من قصيدة في مدح سيف الدولة. (الديوان ٣/١١٦).

(٦) من قصيدة في مدح أبي يوسف رافع الطائي. (الديوان ٣/٢٠٥٠).

(٧) البيت من قصيدة في مدح سيف الدولة. (الديوان ٣/٣٤٧).

مع قول البحرى^(١):

لَقَدْ كَانَ ذَاكَ الْجَاشُّ جَاشٌ مُسَالِمٍ عَلَى أَنَّ ذَاكَ الرَّيِّ زِيٌّ مُحَارِبٍ
وقول أبي تمام^(٢):

الصُّبْحُ مَشْهُورٌ بِغَيْرِ دَلِيلٍ مِنْ غَيْرِهِ ابْتِغَاثٌ وَلَا أَغْلَامٍ
مع قول المتنبي^(٣):

وَلَيْسَ يَصُحُّ فِي الْأَذْهَانِ شَيْءٌ إِذَا اخْتَجَّ النَّهَارُ إِلَى دَلِيلٍ
وقول أبي تمام^(٤):

وَفِي شَرَفِ الْحَدِيثِ دَلِيلٌ صِدْقٍ لِمُخْتَبِرٍ عَلَى الشَّرَفِ الْقَدِيمِ
مع قول المتنبي^(٥):

أَفْعَالُهُ نَسَبٌ لَوْ لَمْ يَقُلْ مَعَهَا جَدِّي الْخَصِيبُ عَرَفْنَا الْعِرْقَ بِالْفُضْنِ
وقول البحرى^(٦):

وَأَحَبُّ أَفَاقِ الْبِلَادِ إِلَى الْفَتَى أَرْضٌ يَنَالُ بِهَا كَرِيمَ الْمَطْلَبِ
مع قول المتنبي^(٧):

وَكُلُّ أَمْرٍ يُؤَلِّي الْجَمِيلَ مُحَبَّبٌ وَكُلُّ مَكَانٍ يُنْبِئُ الْعِزَّ طَيِّبٌ

(١) من قصيدة في مدح أبي سعيد الثغري. (الديوان ١/١٧٨).

(٢) من قصيدة يمدح بها الواثق بالله، ويهنته بالخلافة، ويرثي المعتصم بالله. (الديوان ٣/٢٠٣).

(٣) من قطعة لأبي الطيب (الديوان ٣٣٤) وفيه: وليس يصح في الأفهام شيء... - قال في الحاشية: ويروى (في الأوهام).

(٤) من قصيدة في مدح بني عبد الكريم الطائين. (الديوان ٣/١٦٣).

(٥) ديوان أبي الطيب ٢١٧/٤ من قصيدة يمدح بها أبا عبد الله محمد بن عبد الله الخصيبي.

(٦) ديوان البحرى ٢٨٣/١ من قصيدة يمدح بها أبا صالح بن يزداد.

(٧) ديوان أبي الطيب ١٨٣/١ من قصيدة في كافور.

وقول المتنبي^(١):

يُقَرُّ لَهُ بِالْفَضْلِ مَنْ لَا يَوَدُّهُ وَيَقْضِي لَهُ بِالسَّعْدِ مَنْ لَا يُنْجِمُ

مع قول البحتري^(٢):

لَا أَدْعِي لِأَبِي الْعَلَاءِ فَضِيلَةً حَتَّى يُسَلِّمَهَا إِلَيْهِ عِدَاهُ

وقول خالد الكاتب^(٣):

رَقَدْتَ وَلَمْ تَرِثِ لِلسَّاهِرِ وَلَيْلُ الْمُحِبِّ بِلاَ آخِرِ

مع قول بشار^(٤):

لِخَدْيِكَ مِنْ كَفْيِكَ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ إِلَى أَنْ تَرَى ضَوْءَ الصَّبَاحِ وَسَادُ

تَبَيْتُ تُرَاعِي اللَّيْلَ تَرْجُو نَفَادَهُ وَلَيْسَ لِلَّيْلِ الْعَاشِقِينَ نَفَادُ

وقول أبي تمام^(٥):

ثَوَى بِالْمَشْرِقَيْنِ لَهُمْ ضِجَاجُ أَطَارَ قُلُوبَ أَهْلِ الْمَغْرِبِينَ

وقول البحتري^(٦):

(١) من قصيدة له في سيف الدولة ٣٥٥/٣

(٢) ديوان البحتري ٢٤٠٣/٤ من قصيدة في مدح صاعد بن مخلد، ويكنى أبا العلاء. وكان البحتري يمدح أبا عيسى العلاء ابنه أيضاً.

(٣) البيت مع بيت آخر في الأماشي ١٠٠/١ وهو:

وَلَمْ تَذَرْ بَعْدَ ذَهَابِ الرُّقَا دِ مَا صَنَعَ الدَّمْعُ مِنْ نَاطِرِي

(٤) ديوان بشار ١٣٥/٣ من قصيدة يخاطب فيها نفسه على طريقة التجريد. وفي الديوان بيت بين هذين البيتين.

- ورواية الديوان: «لخدك». قال المحقق: ورواية «لخدك» أظهر.

(٥) ديوان أبي تمام ١٠٦/٣ من قصيدة في مدح إسحاق بن إبراهيم، وذكر إيقاعه بأصحاب بابك الخرمي.

- والضجج، والضجج واحد.

(٦) الديوان ١٠٦/١ من قصيدة يمدح بها عبد الله بن دينار.

تَنَادَرُ أَهْلُ الشَّرْقِ مِنْهُ وَقَائِعاً اطَّاعَ لَهَا الْعَاصُونَ فِي بَلَدِ الْغَرْبِ
مع قولِ مسلم^(١):

لَمَّا نَزَلَتْ عَلَى أَدْنَى دِيَارِهِمْ أَلْقَى إِلَيْكَ الْأَقَاصِي بِالْمَقَالِيدِ [١٥٨]

وقولُ محمد بن بشير^(٢):

افْرُغْ لِحَاجَتِنَا مَا دَمْتَ مَشْغُولاً فلو قَرَعْتَ لَكُنْتَ الدَّهْرَ مَبْذُولاً
مع قول أبي علي البصير^(٣):

فَقُلْ لِسَعِيدٍ أَسْعَدَ اللَّهُ جَدَّهُ لَقَدْ رَتَّ حَتَّى كَادَ يَنْصَرِمُ الْحَبْلُ
فَلا تَعْتَذِرْ بِالشُّغْلِ عَنَّا فَإِنَّمَا تُنَاطُ بِكَ الْأَمَالُ مَا اتَّصَلَ الشُّغْلُ
وقولُ البحتري^(٤):

مِنْ غَادَةٍ مُنَعْتُ وَتَمَنَعُ وَصَلَهَا فلو أَنهَا بُذِلَتْ لَنَا لَمْ تَبْذُلْ
مع قولِ ابن الرومي^(٥):

وَمِنْ الْبَلِيَّةِ أَنْنِي عُلِّقْتُ مَمْنُوعاً مَمْنُوعاً
وقولُ أبي تمام^(٦):

= - وتناذر القوم: أنذر بعضهم بعضاً.

- (١) ديوان مسلم بن الوليد ١٦١ من قصيدة في مدح داود بن يزيد المهلبى.
(٢) ترجم الأغاني ١٦/٦٠ لمحمد بن بشير الخارجي العدواني، وكان شاعراً فصيحاً،
والخارجي نسبة إلى بني خارجة من عدوان. وقد سبقت الإشارة إليه.

- وفي بعض المطبوع أنه محمد بن يسير، وهو شاعر عباسي من أسد، وكان في عصر
أبي نواس وعاش بعده زماناً. وتوفي نحو سنة ٢١٠ هـ.

- (٣) البيتان في مجموع شعره من قطعة، وبينهما بيت آخر. وفي ديوانه: ولا تعتذر.
مجلة المورد (أشعار أبي علي البصير ١٦٥).

(٤) ديوان البحتري ٩٥٤/٢

(٥) ديوان ابن الرومي ١٤٦٢/٤

- (٦) من قصيدة في ديوانه ٥٧١/٤ يفخر فيها بقومه عند انصرافه من مصر.

لئن كَانَ ذَنْبِي أَنَّ أَحْسَنَ مُطْلَبِي أَسَاءَ فِي سُوِّ الْقَضَاءِ لِي الْعَذْرُ
مع قولِ البحتري^(١):

إِذَا مُحَاسِنِي اللَّاتِي أَدُلُّ بِهَا كَانَتْ ذُنُوبِي فَقُلْ لِي كَيْفَ أَعْتَذِرُ
وقول أبي تمام^(٢):

قَدْ يُقَدِّمُ الْعَيْرُ مِنْ دُغْرِ عَلَى الْأَسَدِ
مع قولِ البحتري^(٣):

فَجَاءَ مَجِيءَ الْعَيْرِ قَادَتْهُ حَبِيرَةٌ إِلَى أَهْرَتِ الشَّدَقِينَ تَذْمِي أَظَافِرُهُ
وقولِ معنِ بنِ أوس^(٤):

إِذَا انْصَرَفْتُ نَفْسِي عَنِ الشَّيْءِ لَمْ تَكُذْ إِلَيْهِ بِوَجْهِ آخِرِ الدَّهْرِ تُقْبِلُ
مع قولِ العباسِ بنِ الأحنف^(٥):

نَقْلُ الْجِبَالِ الرُّوَاسِي مِنْ أَمَاكِنِهَا أَخَفُّ مِنْ رَدِّ قَلْبٍ حِينَ يَنْصَرِفُ
وقولِ أُمِيَّةِ بنِ أَبِي الصَّلْتِ^(٦):

(١) من قصيدة له في مدح علي بن مُرَّ الطائي. (الديوان ٢/ ٩٥٤).

(٢) عجز بيت لأبي تمام (الديوان ٤/ ٣٥١)، وصدرة:

أَطْلَت رَوْعَكَ حَتَّى صَرْتُ لِي غَرَضًا

(٣) من قصيدة في مدح يوسف بن محمد.

- والعير: الحمار الأهلي أو الوحشي. وغلب على الوحشي. وأهرت الشدقين: متسعهما.

(٤) البيت من قطعة مشهورة لمعن بن أوس المزني (الحماسة بشرح المرزوقي ٣/ ١١٣١).

(٥) البيت أول بيتين في (ديوان العباس ٢١١).

- وفيه: «من رد نفس حين تنصرف».

(٦) أحد بيتين ذكرهما ابن سلام من شعر لأمية بن أبي الصلت يمدح به عبد الله بن جدعان. وهما في مجموع شعره ٤٩٩

عطاؤك زين لامرئ إن أصبته بخير وما كلُّ العطاء يزين!
مع قول أبي تمام^(١):

تدعى عطاياه وفرأ وهي إن شهرت كانت فخاراً لمن يعفوه مؤتئفا
ما زلت منتظراً أعجوبة عنناً حتى رأيت سؤالاً يُجتنى شرفاً
وقول جرير^(٢):

بعثن الهوى ثم ارتمين قلوبنا بأنهم أعداء وهن صديق
مع قول أبي نواس^(٣):

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت له عن عدو في ثياب صديق!
وقول كثير^(٤):

إذا ما أرادت حلة أن نزيلنا أبينا وقلنا الحاجية أول [١٥٩]
مع قول أبي تمام^(٥):

نقل فوادك حيث شئت من الهوى ما الحب إلا للحبيب الأول
وقول المتنبي^(٦):

(١) ديوان أبي تمام ٢/ ٣٦٥ - ٣٦٦

- والوفر: المال. فإذا شهرت العطايا كانت فخراً للمُعطى.

- وروى في البيت الثاني: يجتنى (بالمعلوم) ويجتنى (بالمجهول).

(٢) ديوان جرير ١/ ٣٧٢

(٣) ديوان أبي نواس ٦٢١

(٤) ديوان كثير عزة ٢٥٥

- الحلة: الصديق، يقال في المذكر والمؤنث. و (الحاجية): عزة.

(٥) ديوان أبي تمام ٤/ ٢٥٧ من قطعة له.

(٦) الديوان ٤/ ٢٤٦

وَعِنْدَ مِنَ الْيَوْمِ الْوَفَاءُ لَصَاحِبٍ شَبِيبٌ وَأَوْقَى مِنْ تَرَى أَخَوَانِ
مع قول أبي تمام^(١):

فَلَا تَحْسَبَا هِنْدًا لَهَا الْغَدْرُ وَحَدَّهَا سَجَبَةُ نَفْسٍ؛ كُلُّ غَانِيَةٍ هِنْدًا
وقول البحتري^(٢):

وَلَمْ أَرِ فِي رَنْقِ الصَّرَى لِي مَوْرَدًا فَحَاوَلْتُ وَرَدَ التَّيْلَ عِنْدَ احْتِفَالِهِ
مع قول المتنبي^(٣):

قَوَاصِدُ كَافُورٍ تَوَارِكُ غَيْرِهِ وَمَنْ قَصَدَ الْبَحْرَ اسْتَقْلَّ السَّوَاقِيَا
وقول المتنبي^(٤):

كَأَنَّمَا يُوَلَّدُ النَّدَى مَعَهُمْ لَا صَفَرٌ عَازِرٌ وَلَا هَرَمٌ
مع قول البحتري^(٥):

عَرِيقُونَ فِي الْإِفْضَالِ يُؤْتَنَفُ النَّدَى لَنَاشِئِهِمْ مِنْ حَيْثُ يُؤْتَنَفُ الْعَمْرُ
وقول البحتري^(٦):

فَلَا تُغْلِبِينَ بِالسَّيْفِ كُلَّ غَلَاثِهِ لِيَمْضِيَ فَإِنَّ الْكَفَّ لَا السَّيْفَ تَقْطَعُ

= - وشبيب المذكور هو ابن جرير العقيلي، وكان ثار على الإخشيديين (أيام كافور) ودخل دمشق فمات (أو قتل فيها).

(١) من قصيدة لأبي تمام في مدح أبي الهيثم بن شُبَّانَه. (الديوان ٨١/٢).
- والبيت من المطلع الغزلي: سَجِيَّةُ نَفْسٍ.

(٢) ديوان البحتري ١٦٢٤/٣ من قصيدة في مدح علي بن يحيى المنجم.
والصَّرَى: الماء الذي يطول مكثه. والرَنْق: الماء الكدر.

(٣) ديوان المتنبي ٢١٧/٤

(٤) ديوان المتنبي ٦٥/٤ من قصيدة في مدح علي بن إبراهيم التنوخي وقومه.

(٥) ديوان البحتري ٨٧٢ من قصيدة مديح.

- ومعنى يُؤْتَنَفُ: يُبْتَدَأُ. أي يولد الكرم معهم.

(٦) الديوان ١٢٧٠/٢ من قصيدة في مدح أبي عيسى العلاء بن صاعد.

مع قول المتنبي^(١):

إذا الهندُ سَوَتْ بينَ سَيْفِي كَرِيهَةً فسيْفُكَ في كَفِّ تُزِيلُ التَّساوِيَا
وقولُ البحري^(٢):

ساموكَ من حَسَدٍ فأفضَلَ منهمُ غيرُ الجوادِ وجادُ غيرُ المفضلِ
فبذلتَ فينا ما بذلتَ سماحةً وتكرُماً وبذلتَ ما لم يُبذَلِ
مع قولِ أبي تمام^(٣):

أرى الناسَ منهاجَ الندى بعدما عَفَتْ مهايغُهُ المُثلى وَمَحَتْ لَواجِبُهُ
ففي كلِّ نجدٍ في البلادِ وغائِرِ مواهبٌ ليستُ منه وهيَ مواهبُهُ
وقول المتنبي^(٤):

بيضاءُ تُطِمِعُ فيما تحتَ حُلَّتْها وعزٌّ ذاكَ مطلوباً إذا طُلِبَا
مع قولِ البحري^(٥):

تبدو بعطفةٍ مُطْمِعٍ حتَّى إذا شُغِلَ الخَلِيُّ ثَنَّتْ بِصَدْفَةِ مُؤَسِّسِ
وقول المتنبي^(٦):

(١) ديوان أبي الطيب ٢١٨/٤ من قصيدة كافورية.

(٢) الديوان ١٨٠١/٣ في مدح محمد بن صالح الهاشمي وقبلهما:

رغبت قوماً في السَّماحِ وأبن هم إن ساجلوكَ مِنَ السَّماكِ الأعزَلِ؟

(٣) ديوان أبي تمام ٢٢٨/١ من قصيدة مشهورة في مدح عبد الله بن طاهر.

- والمهايع جميع المهييع: الطريق الواسع السابل (المطروق) بالناس وغيرهم. و
(مَحَتْ) من مَحَّ الثوب إذا بلي. و (لواحب) جمع لاحب وهو الطريق الواضح. و
(غائِر): غور وهو عكس النجد.

(٤) ديوان المتنبي ١١١/١

(٥) ديوان البحري ١١٥٠/٢، والبيت من مقدمة غزلية لقطعة قصيرة.

- والصدفة من صدف عن الأمر: انصرف وأعرض.

(٦) من شعر المتنبي في صباه. (الديوان ٨).

إِذْكَارٌ مِثْلِكَ تَرْكُ إِذْكَارِي لَهُ إِذْ لَا تَرِيدُ لِمَا أَرِيدُ مُتَرَجِّمًا
مع قول أبي تمام^(١):

وَإِذَا الْمَجْدُ كَانَ عَوْنِي عَلَى الْمَرِّ ۚ تَقَاضَيْتُهُ بَتَرِكِ التَّقَاضِي [ب ١٥٩]
وقول أبي تمام^(٢):

فَنَعَمْتُ مِنْ شَمْسٍ إِذَا حُجِبَتْ بَدَتْ مِنْ خِدْرِهَا فَكَأَنَّهَا لَمْ تُحَجَّبِ
مع قول قيس بن الخطيم^(٣):

قَضَى لَهَا اللَّهُ حِينَ صَوَّرَهَا الـ خَالِقُ أَلَّا تُكِنَّهَا سُدْفُ
وقول المتنبي^(٤):

رَامِيَاتٍ بِأَسْهُمٍ رِيْشُهَا الْهُدُ بُ تَشْقُ الْقُلُوبَ قَبْلَ الْجُلُودِ
مع قول كثير^(٥):

رَمَتْنِي بِسَهْمٍ رِيْشُهُ الْكَحْلُ لَمْ يَجْزُ ظَوَاهِرَ جِلْدِي وَهُوَ فِي الْقَلْبِ جَارِحُ
وقول بعض شعراء الجاهلية، ويُعزى إلى ليلى^(٦):

وَدَعَوْتُ رَبِّي بِالسَّلَامَةِ جَاهِدًا لِيُصَحِّحَنِي فَلِذَا السَّلَامَةُ دَاءُ!
مع قول أبي العتاهية^(٧):

أَسْرَعَ فِي نَقْصِ امْرِئٍ تَمَامُهُ تُذْبِرُ فِي إِقْبَالِهَا إِيَامُهُ

(١) ديوان أبي تمام ٣١٦/٢

(٢) ديوانه ٩٥/١

(٣) ديوان قيس بن الخطيم ٥٦

- وفي الديوان: يَكْنُهَا سَدْف. وَالسَّدْفُ (بفتح السين) والسُدْفَةُ: الظلمة وجمعها سُدَف.

(٤) ديوان أبي الطيب ٣١٤/١

(٥) ديوان كثير عزة ١٨٨

(٦) البيت في ذيل ديوان ليلى ٣٦١ (الأشعار المنسوبة إليه).

(٧) ديوان أبي العتاهية ٢٣٠، وروايته في المتن: «يَا ذَا الَّذِي قَدْ بَعَدَتْ أَيَامُهُ».

وقوله^(١):

أَقْلِلْ زِيَارَتَكَ الْحَبِيبِ بَ تَكُونُ كَالثُّوبِ اسْتَجَدَّةً
إِنَّ الصَّديقَ يُمِلُّهُ أَنْ لَا يَزَالَ يَسْرَاكَ عِنْدَهُ!
مع قول أبي تمام^(٢):

وطولُ مقامِ المرءِ في الحيِّ مُخْلِقٌ لدِيبَاجَتَيْهِ فَاغْتَرَبَ تَتَجَدَّدُ
وقولُ الخريمي^(٣):

زَادَ مَعْرُوفَكَ عِنْدِي عَظْمًا أَنَّهُ عِنْدَكَ مَحْقُورٌ صَغِيرُ
تَتَنَاسَاهُ كَأَن لَمْ تَأْتِهِ وَهُوَ عِنْدَ النَّاسِ مَشْهُورٌ كَبِيرُ
مع قول المتنبّي^(٤):

نَظَنُّ مِنْ فَقْدِكَ اعْتِدَادَهُمْ أَنَّهُمْ أَنْعَمُوا وَمَا عَلِمُوا
وقولُ البحري^(٥):

أَلَمْ تَرَ لِلنَّوَابِيفِ كَيْفَ تَسْمُو إِلَى أَهْلِ النَّوَابِلِ وَالْفُضُولِ
مع قول المتنبّي^(٦):

أَفَاضَلُ النَّاسِ أَغْرَاضُ لَذَا الزَّمَنِ يَخْلُو مِنْ هَلَمٍّ أَخْلَاهُمْ مِنَ الْفِطَنِ

(١) ليسا في الديوان.

(٢) من قصيدة في مدح خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني (الديوان ٢/٢٣).

- وأصل معنى الدِّيبَاغَةِ في اللغة: الخَدَّة.

(٣) البيتان في مجموع شعر الخريمي ٢٥، وفيهما روايات وهما في الشعر والشعراء ٢/٨٥٦ كرواية الدلائل.

(٤) الديوان ٤/٦٥

(٥) ديوان البحري ٣/١٧٣٩ من قصيدة في مدح الفتح بن خاقان.

(٦) ديوان أبي الطيب ٤/٢٠٩

وقول المتنبي^(١):

تذلّل لها واخضع على القرب والنوى فما عاشق من لا يذل ويخضع
مع قول بعض المحدثين^(٢):

كن إذا أحببت عبداً للذي تهوى مطيماً
لن تنال الوصول حتى تلزم النفس الخضوعاً [١٦٠]

وقول مضر بن ربيعي^(٣):

لعمرك إني بالخليل الذي له عليّ دلالٌ واجبٌ لمفجعٌ
وإني بالمولى الذي ليس نافعي ولا ضائري فُقدانه لممتّعٌ
مع قول المتنبي^(٤):

أما تغلظ الأيام فيّ بأن أرى بغيضاً تُنائي أو حبيباً تُقربُ
وقول المتنبي^(٥):

مظلومة القدّ في تشبيهه غصناً مظلومة الريق في تشبيهه ضرباً
مع قوله^(٦):

(١) ديوانه ٢/٢٣٨

(٢) نسب الجرجاني البيت الأول في (الوساطة ٣١٣) إلى بعض المحدثين أيضاً.

(٣) كذا والبيتان من حماسة للبراء بن ربيعي الفقعسي (الحماسة بشرح المرزوقي ٢/٨٥٠) والقطعة في المؤتلف والمختلف للأمدى (١١٩) قال فيه: هو أبو الحناك البراء بن ربيعي الفقعسي.

(٤) ديوان المتنبي ١/١٧٧

(٥) ديوان المتنبي ١/١١١

(٦) الأبيات لعلي بن الجهم في مدح الخليفة المتوكل. (الديوان ١٦٥ - ١٦٦).

- ورواية الثاني ثمة:

لأنك أحمى للذمار وإيسلُ

إذا نحنُ شَبَّهناك بالبدر طالِعاً بخسناك حَظاً أنتَ أبهى وأجملُ
ونَظلم إن قسناك بالليث في الوغى لأنك أحمى للحريم وأبسلُ
ذكر ما أنتَ ترى فيه في كلِّ واحدٍ من البيتين صنعة وتصويراً وأستاذية على
الجملة. فمن ذلك وهو مِن النادر قولُ لييد^(١):

واكذبِ النَّفْسَ إذا حَدَّثَتْها إنَّ صدقَ النفسِ يُزري بالأملِ
مع قولِ نافعِ بنِ لقيط^(٢):

وإذا صدقتِ النفسُ لم تترك لها أملاً ويأملُ ما اشتهى المكذوب
وقولُ رجلٍ من الخوارج أُنِيَ به الحجاج في جماعةٍ من أصحابِ قَطْرِ
فقتلهم ومَنَّ عليه ليَدَ كانت عنده، وعاد إلى قَطْرِ فقال له قطري: عاودَ قتال
عدوَّ الله الحجاج، فأبى وقال^(٣):

أأقَاتِلُ الحَجَّاجَ عن سُلطانِه بيدِ تُقَرُّ بأنَّها مَولائُه
ماذا أَقولُ إذا وَقَفْتُ إِزاءَه في الصَّفِّ واحتجَّتْ لَهُ فَعَلائُه
وتحدَّثَ الأقوامُ أنَّ صَنائِعاً غُرِسَتْ لَدَيَّ فَحَنَظَلْتُ نَخلائُه؟

(١) ديوان لييد ١٨٠

(٢) هو نافع بن لقيط الفقعسي. وفي حاشية سمط اللّالي ٧٦٨/٣ أنه قد يرد أيضاً (ابن ملقط).

- ولنافع هذا قطعة على البحر والروي في كتاب الزهرة (النصف الثاني) ٨٤
(٣) الأبيات في (شعر الخوارج) ٣١ من قطعة أذَرَجَها في شعر عمران بن حِطّان. قال في
التعليق: نسبها صاحب زهر الآداب لعمران بن حِطّان ولا أراها له فيه فهي غريبة على
روحه وعلى سيرته معاً، ولعلّ الصواب أنها لأحد الخوارج من أصحاب قطري.
- والشعر لعامر بن حِطّان وهو أخو عمران، نَبّه إليه ابن الأبار في (إعتاب الكتاب ٦٢).
- وروى ثمة: إذا وقفت موازياً.

وقوله: حنظلت نخلائه: أي صار ثمرها حنظلاً يكتئ عن ردّ المعروف إساءة. والحنظل
نبات له ثمر شديد المرارة يسمى به أيضاً.

مع قول أبي تمام^(١):

أَسْرَبَ لُحْجَرُ الْقَوْلِ مَنْ لَوْ هَجَوْتُهُ إِذَنْ لَهَجَانِي عَنْهُ مَعْرُوفُهُ عِنْدِي

وقول النابغة^(٢):

إِذَا مَا غَدَا بِالْجَيْشِ حَلَقَ فَوْقَهُ عَصَائِبُ طَيْرٍ تَهْتَدِي بِعَصَائِبِ
جَوَانِحَ قَدْ أَيْقَنَ أَنْ قَبِيلَهُ إِذَا مَا التَّقَى الصَّفَّانِ أَوَّلَ غَالِبٍ [١٦٠ ب]

مع قول أبي نواس^(٣):

وَإِذَا مَجَّ الْقَنَا عُلْقًا وَتَرَاءَى الْمَوْتُ فِي صُورِهِ
رَاحَ فِي ثُنْيَيْ مُفَاضَتِهِ أَسَدٌ يَذْمَى شَبَابَ ظُفْرِهِ
تَتَابَا الطَّيْرُ غُدُوَّتَهُ^(٤) ثِقَّةٌ بِالشَّبَعِ مِنْ جُزْرِهِ

المقصود البيت الأخير وحكى المرزباني قال: حدثني عمرو الوراق:

رَأَيْتُ أَبَا نَوَاسٍ يُنْشِدُ قَصِيدَتَهُ الَّتِي أَوْلَاهَا:

❁ أَيُّهَا الْمُنْتَابُ عَنْ عُفْرَةٍ^(٥) ❁

(١) ديوان أبي تمام ١١٦/٢

(٢) من قصيدة مشهورة للنابغة (ديوانه ٤٢) في مدح الغساسنة، وأميرهم عمرو بن الحارث الأعرج.

- ورواية الديوان (بشرح الأعلام الشنتمري): «إِذَا مَا غَزَوْا فِي الْجَيْشِ حَلَقَ فَوْقَهُمْ» وبينها بيتان آخران و «إِذَا مَا التَّقَى الْجَمْعَانِ».

(٣) ديوان أبي نواس ٤٣١ من قصيدة في مدح العباس بن عبيد الله. واللقنا جمع القناة. والعلق: الدم. والمفاضة: الدرع الواسعة. والشبا جمع الشبابة: وهي من كل شيء حذّه.

(٤) في الأصول: يتأي. وفي طبعة الغزالي من الديوان: يتأى. وفي رواية الصولي للديوان (طبعة بغداد): «تتأى». قال: تتأيا: تترقب وتنتظر. وقيل: تتأيا الطير غدوته ثقة بأنه يقتل أعداءه، فتقع على جيفهم فتشبع. والجُزُر: القتلى.

(٥) المنتاب: الذي يأتيك. عن عفر: عن بعد. وفي بعض الشروح (طبعة بغداد): هذا مثل

فحسدته فلما بلغ إلى قوله :

تَأَيَّا الطَّيْرُ عُدْوَتَهُ ثِقَةً بِالشَّيْبِ مِنْ جُزْرِهِ

قلت له : ما تركت للنابغة شيئاً حيث يقول : إذا ما غدا بالجيش.. البيتين.

فقال : اسكت فلئن كان سَبَقَ فما أسأتُ الاتِّباع !

وهذا الكلام من أبي نواسٍ دليلٌ بيِّنٌ في أن المعنى يُنقل من صورة إلى صورة. ذاك لأنه لو كان لا يكون قد صَنَعَ بالمعنى شيئاً لكانَ قوله : فما أسأتُ الاتِّباعَ مُحالاً، لأنه على كلِّ حال لم يتبعه في اللفظ. ثم إن الأمرَ ظاهرٌ لمن نَظَرَ في أنه قد نقل المعنى عن صورته التي هو عليها في شِعْرِ النابغة إلى صورةٍ أخرى، وذلك أنَّ هُنا معنيين أحدهما أصلٌ وهو علم الطَّيْرِ بأنَّ الممدوح إذا غزا عدوًّا كان الظَّفَرُ له وكان هو الغالب، والآخَرُ فرعٌ وهو طَمَعُ الطَّيْرِ في أن تتسع عليها المطاعم من لُحوم القَتلى، وقد عمد النابغة إلى الأصل الذي هو علم الطير بأنَّ الممدوح يكون الغالب فذكره صريحاً وكشَفَ عن وجهه، واعتمد في الفرع الذي هو طمعها في لحوم القَتلى وإنها لذلك تحلَّق فوقه على دلالة الفحوى. وعكس أبو نواس القِصَّةَ ذكر الفرع الذي هو طمعها في لحوم القَتلى صريحاً فقال كما ترى :

❁ ثِقَةً بِالشَّيْبِ مِنْ جُزْرِهِ ❁

وعوَّل في الأصل الذي هو علمها بأنَّ الظفرَ يكونُ للممدوح على الفحوى، ودلالة الفحوى على علمها أن الظفرَ يكونُ للممدوح هي في أن قال : «من جُزْرِهِ» وهي لا تَثْبُتُ [١٦١ أ] بأن شبعها يكون من جُزْرِ الممدوح حتى تعلم أنَّ الظفرَ يكون له، أفيكونُ شيءٌ أظهرَ من هذا في النقلِ عن صورةٍ إلى صورة؟

أرجعُ إلى النَّسَقِ. ومن ذلك قولُ أبي العتاهية :

شَيْبٌ فَتَنَحَّتْ مِنَ الْمَذْحِ مَا قَدْ كَانَ مُسْتَغْلِقاً عَلَى الْمُدَّاحِ^(١) !

= يقول : لست ممن يصلح لمودتي (انظر الصفحة ٣٩٩).

(١) ديوان أبي العتاهية ٥١٥. وجاء وحده من المستدرك على الديوان.

مع قول أبي تمام^(١):
 نظمْتُ له خَرَزَ المديحِ مواهبٌ ينْفُثُن في عَقْدِ اللسانِ المُفَحِّمِ
 وقول أبي وجزة^(٢):
 أناكَ المجدُّ من هَنا وهَنا وكنتَ له كمجتمع السُّيولِ
 مع قول منصور النَّمري^(٣):
 إن المكارمَ والمعروفَ أوديةً أحلَّكَ الله منها حيثُ تجتمعُ
 وقول بشار^(٤):
 الشَّيبُ كُرَّةٌ وكُرَّةٌ أن يفارقني أغعِبَ بشيءٍ على البغضاءِ مودودِ
 مع قول البحتري^(٥):
 تعيبُ الغانياتُ عليَّ شيبِي ومَنْ لي أن أمتَّعَ بالمعيب؟
 وقول أبي تمام^(٦):

-
- (١) ديوان أبي تمام ٢٥٢/٣ من قصيدة في مدح أبي الحسين محمد بن الهيثم بن شبانة.
 - قال التبريزي: ينْفُثُن أي يصلحُه ويرقينه من الفحامة حتى ينطلق ويستمر.
 (٢) قوله: من هنا وهنا أي من ههنا وههنا. قاله في اللسان.
 والشاعر هو أبو وجزة السعدي، واسمه يزيد بن عبيد، راجز، شاعر أموي، توفي سنة ١٣٠ هـ، وبعده في التابعين (له أخبار في الأغاني ٢٣٩/١٢).
 (٣) البيت لمنصور النَّمري، وهو من شعراء الدولة العباسية من أهل الجزيرة، وكان تلميذ كلثوم بن عمرو العتابي وراويته.
 والبيت من قصيدة طنانة مشهورة في مدح الرشيد. (الأغاني ١٤٥/١٣). وانظر شعر منصور النَّمري: ١٠٠
 (٤) البيت أحد بيتين أوردهما في ذيل ديوان أبي العتاهية، على أنهما من المداخل. فهي تنسب له، ولمسلم ولبشار أيضاً (انظر تحقیقات أستاذنا الدكتور شكري فيصل - ديوان أبي العتاهية ٥٣٠).
 (٥) ديوان البحتري ٩٩/١
 (٦) ديوان أبي تمام ٢٣٢/٥

يشتاقُهُ من كمالِهِ غدُهُ ويُكثر الوجدَ نحوهَ الأَمْسُ!
مع قول ابن الرومي^(١):

إِمامٌ يَظِلُّ الأَمْسُ يُعْمَلُ نحوهَ تَلَقَّتْ مَلْهُوفٍ وَيشتاقُهُ الغدُ
لا تنظر إلى أنه قال: «يشتاقه الغد» فأعاد لفظ أبي تمام، ولكن النظر إلى قوله: يعمل نحوه تلفت ملهوف.

وقول أبي تمام^(٢):

لئن ذَمَّتْ الأعداءُ سُوءَ صَباحِها فليس يُؤدِّي شُكرَها الذنبُ والنَّسرُ!
مع قول المتنبي^(٣):

وَأُنَبِّتُ مِنْهُمْ رِيبَ السَّبَّاحِ فَأَنْتَ بِإِخْسانِكَ الشَّامِلِ
وقول أبي تمام^(٤):

وَرَبِّ نائِي المَغاني رُوحُهُ أَبداً لصَبِقُ رُوحِي وَدَانٍ لَيْسَ بالداني
مع قول المتنبي^(٥):

لِنا وَلأَهْلِهِ أَبداً قُلُوبٌ تَلاقى فِي جُسُومٍ ما تَلاقى
وقول أبي هفان^(٦):

(١) ديوان ابن الرومي ٢/ ٦٦٠ من قطعة في المعتضد العبّاسي أبي العباس أحمد.

(٢) ديوان أبي تمام ٤/ ٥٧٧ من قصيدة «يفخر فيها بقومه عند انصرافه من مصر». وروايته فيه: فإن ذمت الأعداء....

(٣) ديوان أبي الطيب ٣/ ٣١ والشعر في مدح سيف الدولة. - وروى في الديوان أيضاً: فأنبئت.

(٤) من قصيدة في مدح سليمان بن وهب، وشفع في رجل يقال له سليمان بن رزين وهو ابن أخيه دعل الخزاعي. (الديوان ٣/ ٣٣٥). وقبلة:

أزواجنا في مكان واحد وغدت أبداننا في شام أو خراسان

(٥) ديوان أبي الطيب ٢/ ٢٩٤

(٦) هو أبو هفان عبد الله بن أحمد المهري. قال الخطيب البغدادي فيه: «كان له محلّ كبير

أَصْبَحَ الدَّهْرُ مُسِيئاً كُلُّهُ مَا لَهُ إِلَّا ابْنٌ يَحْبِي حَسَنَهُ
مع قول المتنبي^(١):

أَزَالْتُ بِكَ الْأَيَّامَ عَثْبِي كَأَنَّمَا بَنُوها لَهَا ذَنْبٌ وَأَنْتَ لَهَا عَذْرُ [١٦١ ب]
وقول علي بن جبلة^(٢):

وَأَرَى اللَّبَالِي مَا طَوْتُ مِنْ قُوَّتِي رَدَّتْهُ فِي عِظَتِي وَفِي إِفْهَامِي
مع قول ابن المعتز^(٣):

وَمَا يُنْتَقَضُ مِنْ شَبَابِ الرِّجَالِ يَزْدُ فِي نَهَاها وَالْبَابِها
وقول بكر بن الطَّاح^(٤):

وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي كَفِّهِ غَيْرُ رَوْحِهِ لَجَادَ بِها فَلَيْتَقِ اللَّهَ سَائِلُهُ
مع قول المتنبي^(٥):

إِنَّكَ مِنْ مَعْشَرٍ إِذَا وَهَبُوا مَا دُونَ أَعْمَارِهِمْ فَقَدْ بَخِلُوا
وقول البحتري^(٦):

وَمَنْ ذَا يَلُومُ الْبَحْرَ أَنْ بَاتَ زَاخِراً يَفِيضُ وَصَوَّبَ الْمُرْنَ أَنْ رَاحَ يَهْطَلُ

= في الأدب» وقال في اللآلي: «راوية» عالم بالشعر والغريب وشعره جيد إلا أنه مُقلِّ. (معجم الأدباء ٥٤/١٢، واللآلي ٣٣٥/١، وتاريخ بغداد ٣٧٠/٩).

(١) ديوان أبي الطَّيب ١٢٤/٢

(٢) هو علي بن جبلة المشهور بالكوك (١٦٠ - ٢١٣) والبيت أحد بيتين في مجموع شعره (دار المعارف ١٠٤).

- وروايته ثمة: في عقلي وفي إفهامي. ورواية الدلائل أعلى، وأدق في سياق المعنى.

(٣) ديوان ابن المعتز ١٩/١

(٤) البيت ثابت في ديوان أبي تمام من قصيدة طويلة مشهورة في مدح المعتصم (الديوان ٢٩/٣) على أنه نسب أيضاً لزياد الأعجم مع بيت آخر (العمدة ٢١٧/٢).

(٥) ديوان أبي الطَّيب ٢١٦/٣ من قصيدة في مدح بدر بن عمار.

(٦) ديوان البحتري ١٧٩٤/٣ من قصيدة في مدح محمد بن عبد الله بن طاهر.

مع قول المتنبي^(١):

وما ثنَّاكَ كلامَ الناسِ عن كَرَمٍ ومن يسُدُّ طريقَ العارضِ الهطلِ
وقولُ الكندي^(٢):

عَزُّوا وَعَزَّ بِعَزِّهِمْ مَنْ جَاوَرُوا فَهَمُ الذُّرَى وَجَمَاجِمُ الهَامَاتِ
إِنْ يَطْلُبُوا بِتِرَاتِيهِمْ يُعْطَوْا بِهَا أَوْ يُطْلَبُوا لَا يُذَرَّكَوا بِتِرَاتِ!
مع قول المتنبي^(٣):

تُفِيْتُ اللَّيَالِي كُلَّ شَيْءٍ أَخَذَتْهُ وَهَنْ لَمَّا يَأْخُذَنَّ مِنْكَ غَوَارِمُ
وقولُ أبي تمام^(٤):

إِذَا سَيْفُهُ أَضْحَى عَلَى الْهَامِ حَاكِمًا عَدَا الْعَفْوُ مِنْهُ وَهُوَ فِي السَّيْفِ حَاكِمُ
مع قول المتنبي^(٥):

لَهُ مِنْ كَرِيمِ الطَّلَعِ فِي الْحَرْبِ مُنْتَضِ وَمِنْ عَادَةِ الْإِحْسَانِ وَالصَّفْحِ غَامِذُ
فَانظُرِ الْآنَ نَظْرَ مَنْ نَفَى الْغَفْلَةَ عَنْ نَفْسِهِ فَإِنَّكَ تَرَى عَيَانًا أَنَّ لِلْمَعْنَى فِي كُلِّ
وَاحِدٍ مِنَ الْبَيْتَيْنِ مِنْ جَمِيعِ ذَلِكَ صُورَةً وَصِفَةً غَيْرَ صُورَتِهِ وَصِفَتِهِ فِي الْبَيْتِ
الْآخِرِ، وَأَنَّ الْعُلَمَاءَ لَمْ يَرِيدُوا حَيْثُ قَالُوا: إِنَّ الْمَعْنَى فِي هَذَا هُوَ الْمَعْنَى فِي
ذَاكَ، أَنَّ الَّذِي تَعْقِلُ مِنْ هَذَا لَا يَخَالِفُ الَّذِي تَعْقِلُ مِنْ ذَاكَ، وَأَنَّ الْمَعْنَى عَائِدٌ
عَلَيْكَ فِي الْبَيْتِ الثَّانِي عَلَى هَيْئَتِهِ وَصِفَتِهِ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا فِي الْبَيْتِ الْأَوَّلِ وَأَنَّ

(١) ديوان أبي الطيب ٣/ ٨٧٠ من قصيدة في مدح سيف الدولة.

(٢) الترة (كالوتر) الثار.

(٣) ديوان أبي الطيب ٣/ ٨٢ من قصيدة في مدح سيف الدولة.

- يقول: إذا سلبت الليالي شيئاً أفته عليها فلم تقدر على استرداده منك، وهي إذا
أخذت منك شيئاً غرمته. يعني أنت أقوى من الدهر!!

(٤) ديوان أبي تمام ٣/ ١٨١ من قصيدة في مدح أحمد بن وهب.

(٥) ديوان أبي الطيب.

لا فرق ولا فصل ولا تباينَ بوجهٍ من الوجوه، وأنَّ حكمَ البيتين مثلاً حكم الاسمين قد وضعاً في اللغة لشيء واحدٍ كاللith والأسد.

ولكن قالوا ذلك على حَسَب ما يقوله العقلاء [١٦٢ أ] في الشيثين يجمعهما جنسٌ واحد، ثم يفترقان بخواصٍّ ومزايا وصفاتٍ كالخاتم والخاتم والشنف والشنفِ والسَّوارِ والسَّوارِ وسائر أصناف الحلي التي يجمعها جنسٌ واحد، ثم يكون بينها الاختلافُ الشديدُ في الصنعة والعمل.

ومَنْ هذا الذي ينظر إلى بيتٍ الخارجي وبيت أبي تمام فلا يعلم أن صورةَ المعنى في ذلك غيرُ صورته في هذا؟ كيف والخارجي يقول: واحتجَّت له فعلاته. ويقول أبو تمام^(١):

❁ إِذَنْ لَهْجَانِي عَنْهُ مَعْرُوفُهُ عِنْدِي ❁

ومتى كان احتجَّ وهجا واحداً في المعنى؟ وكذلك الحكم في جميع ما ذكرناه فليسَ يتصوَّر في نفسٍ عاقلٍ أن يكون قول البحري:

وَأَحَبُّ آفَاقِ الْبِلَادِ إِلَى الْفَنَى أَرْضٌ يَنَالُ بِهَا كَرِيمَ الْمَظْلَبِ^(٢)

وقول المتنبي:

❁ وَكُلَّ مَكَانٍ يُنْبِئُ الْعِزَّ طَيِّبٌ^(٣) ❁

سواء.

واعلم أن قولنا الصورة إنما هو تمثيلٌ وقياس لما نَعَلَمه بعقولنا على الذي نراه بأبصارنا، فلما رأينا البينونةَ بين آحاد الأجناسِ تكونُ من جهة الصورة فكان بينُ إنسانٍ مِن إنسان، وفرس من فرس، بخصوصية تكونُ في صورة هذا لا تكونُ في صورة ذاك.

وكذلك كان الأمر في المصنوعات فكانَ تَبَيَّنُ خَاتِمٍ من خَاتِمٍ وسوارٍ من

(١) تقدم البيت أجمع.

(٢) تقدم البيت.

(٣) تقدم البيت.

سوارٍ بذلك. ثم وَجَدْنَا بين المعنى في أحد البيتين وبينه في الآخر بينونةً في عقولنا وفرقاً عَبَرْنَا عن ذلك الفرق وتلك البينونة بأن قُلْنَا: «للمعنى في هذا صورةٌ غَيْرُ صورته في ذلك» وليس العبارة عن ذلك بالصورة شيئاً نحن ابتدأناه فينكره منكراً بل هو مستعملٌ مشهورٌ في كلام العلماء، وكيفيك قولُ الجاحظ: «وإنما الشعر صناعةٌ وضربٌ من التصوير».

واعلم أنه لو كَانَ المعنى في أحد البيتين يكونُ على هيئته وصفته في البيت الآخر وكانَ التالي من الشاعرين يجيئك به معاداً على وجهه لم يُحْدِثْ فيه شيئاً ولم يغير له صفةً لكان قولُ العلماء في شاعرٍ: إنه أَخَذَ المعنى مِنْ صاحِبِهِ فأحسنَ وأجادَ وفي آخر: إنه أساء وقصّر لغواً [١٦٢ ب] من القول من حيثُ كان محالاً أن يُحْسِنَ أو يسيء في شيءٍ لا يصنع به شيئاً. وكذلك كَانَ يكون جعلهم البيتَ نظيراً للبيت ومناسباً له خطأ منهم لأنه محالٌ أن يناسبَ الشيء نفسه وأن يكونَ نظيراً لنفسه. وأمرٌ ثالث وهو أنهم يقولون في واحد: إنه أَخَذَ المعنى فظهر أخذه، وفي آخر: إنه أخذه فأخفى أخذه، ولو كان المعنى يكونُ معاداً على صورته وهيئته وكانَ الآخِذُ له مِنْ صاحِبِهِ لا يصنع شيئاً غيرَ أن يبدلَ لفظاً مكانَ لفظ، لكان الإخفاء فيه محالاً لأن اللفظ لا يُخْفِي المعنى، وإنما يُخْفِيهِ إخراجُه في صورةٍ غير التي كَانَ عليها. مثال ذلك ^(١) أن القاضي أبا الحسن ذكر فيما ذكر فيه تناسُبُ المعاني بيتَ أبي نواس ^(٢):

خُلِبَتْ والحُسْنُ تَأْخُذُهُ تَنْتَقِي مِنْهُ وَتَنْتَخِبُ

وبيتَ عبد الله بن مُضْعَبٍ ^(٣):

كَأَنَّكَ جِئْتَ مُحْتَكِماً عَلَيْهِمْ نَخِيرُ فِي الْأَبْوَةِ مَا نَشَاءُ

(١) النص من كتاب القاضي الجرجاني، أبي الحسن علي بن عبد العزيز، (الوساطة بين

المتنبي وخصومه) الصفحة ٢٠٤

(٢) ديوان أبي نواس ٢٣٩

(٣) هو عبد الله بن مصعب.. بن الزبير الأسدي القرشي (١١١ - ١٨٤ هـ). أمير من أهل

الورع والعدل، وكان شاعراً فصيحاً.

وذكر أنهما معاً من بيتٍ بشار^(١):

خُلِقْتُ على ما في غير مخيرٍ هواي ولو خُيرْتُ كنتُ المهدَّباً
والأمر في تناسب هذه الثلاثة ظاهرٌ. ثم إنه ذكر أن أبا تمام قد تناوله فأخفاه
وقال^(٢):

فلَوْ صَوَّرْتَ نفسك لم تَزِدْها على ما فيكَ من كَرَمِ الطَّبَاعِ!
ومن العَجَبِ في ذلك ما تراه إذا أَنْتَ تَأَمَّلْتَ قولَ أبي العتاهية^(٣):
جُزِيَ البَخِيلُ عليَّ صَالِحَةً عَنِّي لَخْفَتِهِ على ظَهْرِي
أعلى وأكرمَ عن يَدَيْهِ يَدِي فَعَلْتُ ونَزَّهُ قَدْرُهُ قَدْرِي
ورُزِقْتُ من جَدَواهُ عَافِيَةً أن لا يَضِيقَ بِشُكْرِهِ صَدْرِي
وعَنَيْتُ خِلْواً من تَفَضُّلِهِ أَخْنُو عَلَيْهِ بأخْسَنِ العُذْرِ
ما فَاتَنِي خَيْرُ امرئٍ وَضَعْتُ عَنِّي يَدَاهُ مُؤَوَّنةً الشُّكْرِ [١٦٣ أ]
ثم نظرتُ إلى قولِ الذي يقول^(٤):

أعتقني سوء ما صنعتُ من الرِّقِّ م فيا برَدَها على كَيْدِي
فصرتُ عَبْدًا للسُّوءِ فيكَ وما أَحْسَنَ سُوءَ قَبْلِي إلى أَحَدِ!
ومما هو في غاية النُدرة من هذا الباب ما صَنَعَهُ الجاحظُ بقول نُصَيْبٍ^(٥):

(١) ديوان بشار ٢٤٦

(٢) ديوان أبي تمام ٣٤٠ / ٢

(٣) الأبيات حماسية انتقاها أبو تمام (الحماسة بشرح المرزوقي ٣ / ١٥٤٤) ونبه إليها في

ديوان أبي العتاهية ١٧١

(٤) نسبهما في (الطبعة المحمودية) إلى ابن الرومي نقلاً (عن بعض الكتب) وليس البيتان في ديوانه. وهما في حماسة ابن الشجري ١ / ٢٩١ بلا عزو.

(٥) شطر بيت، وقبله «فعاوجوا فأتوا بالذي أنت أهلكه». والبيت في ديوانه ٥٩

نُصَيْب بن رباح، مولى عبد العزيز بن مروان، شاعر فحل من شعراء الدولة المروانية (توفي سنة ١٠٨ هـ) وقد جمع الدكتور داود سلوم شعره، وطبع ببغداد.

ولو سكتوا أثنت عليك الحقائق

حين نشره فقال وكتب به إلى ابن الزيات: نحن أعزك الله نَسَحَرُ بالبيان، ونموه بالقول، والناس ينظرون إلى الحال، ويقضون بالعيان، فأثر في أمرنا أثراً ينطق إذا سكتنا، فإن المدعي بغير بينة متعرض للتكذيب.

وهذه جملة من وصفهم الشعر وعمله وإدلالهم به:

أبو حَيَّة التَّمِيرِي^(١):

إن القصائد قد عَلِمَنَ بَأْتَنِي صَنَعَ اللِّسَانُ بِهِنَ لَا أُنَحِّلُ
وَإِذَا ابْتَدَأْتُ عَرُوضَ نَسِجِ رِيضٍ جَعَلْتُ تَذِلَ لِمَا أُرِيدُ وَتُسَهِّلُ
حَتَّى تَطَاوَعَنِي وَلَوْ يَزْتَاضُهَا غَيْرِي لِحَاوَلَ صَغْبَةً لَا تَقْبِلُ
تَمِيمُ بْنُ مُقْبِلٍ^(٢):

إِذَا مِثٌّ عَنْ ذِكْرِ الْقَوَافِي فَلَنْ تَرَى لَهَا قَائِلًا بَغْدِي أَطَبَّ وَأَشْعَرَا
وَأكْثَرَ بَيْتًا سَائِرًا ضَرِبَتْ لَهُ حُزُونُ جِبَالِ الشُّعْرِ حَتَّى تَبَسَّرَا
أَعْرَ غَرِيبًا يَمَسُحُ النَّاسُ وَجْهَهُ كَمَا تَمْسُحُ الْأَيْدِي الْأَعْرَ الْمُشْهَرَا
عَدِيَّ بْنُ الرَّقَاعِ^(٣):

وَقَصِيدَةٌ قَدْ بِتْ أَجْمَعُ بَيْنَهَا حَتَّى أَقْوَمَ مَبْلَهَا وَسِنَادَهَا
نَظَرَ الْمُثَقِّفِ فِي كُغُوبِ قَنَاتِهِ حَتَّى يُقِيمَ ثِقَافَهُ مُنَادَهَا
كَعْبُ بْنُ زَهِيرٍ^(٤):

(١) وردت في مجموع شعره (١٦٠) نقلاً عن الدلائل.

(٢) ديوان تميم بن أبي بن مقبل ١٣٦

(٣) البيت في الأغاني ٣١١/٩

قال أبو الفرج: ونسبه الناس إلى جدّ جده (الرقاع) لشهرته. وكان شاعراً مقدماً عند بني أمية مداحاً لهم، خاصاً بالوليد بن عبد الملك.

(٤) ديوان كعب بن زهير ٥٩

فَمَنْ لِلْقَوَافِي شَانَهَا مَنْ يَحَوِّكُهَا إِذَا مَا تَوَى كَغَبٍّ وَفَوَّزَ جَزَوَل
يَقْوُمُهَا حَتَّى تَلَيْنَ مَثُونُهَا يَقْصُرُ عَنْهَا كُلُّ مَا يُتَمَثَّلُ [١٦٣ ب]
بِشَار^(١):

عَمِيْتُ جَنِيناً وَالذَّكَاءَ مِنَ الْعَمَى فَجِثْتُ عَجِيبَ الظَّنِّ لِلْعَلَمِ مَوْتِلا
وَعَاضَ ضِيَاءَ الْعَيْنِ لِلْعَلَمِ رَافِداً لِقَلْبٍ إِذَا مَا ضَيَّعَ النَّاسُ حَصَلا
وَشَعِرٍ كَنُورِ الرُّوضِ لَأَمْتُ بَيْنَهُ بِقَوْلٍ إِذَا مَا أَحْزَنَ الشَّعْرُ أَسْهَلا
وَلَهُ^(٢):

رَوُزُ مَلُوكٍ عَلَيْهِ أَبْهَةٌ يُغْرِفُ مِنْ شَعْرِهِ وَمِنْ خُطْبَةٍ
لِلَّهِ مَا رَاحَ فِي جَوَانِحِهِ مِنْ لَوْلُو لَا يَنَامُ عَنْ طَلْبَةٍ
يَخْرُجُ مِنْ فِيهِ لِلْنَدِيِّ كَمَا يَخْرُجُ ضَوْءُ النَّهَارِ مِنْ لَهَبَةٍ
أَبُو شَرِيحِ الْعُمَيْرِ^(٣):

فَإِنْ أَهْلِكَ فَقَدْ أَبْقَيْتُ بَعْدِي قَوَافِي تَعَجَّبُ الْمُتَمَثِّلِينَ
لَذِيذَاتِ الْمَقَاطِعِ مُحْكَمَاتٍ لَوْ أَنَّ الشَّعْرَ يُلْبَسُ لَارْتَدِينَا
الْفَرَزْدَقُ^(٤):

(١) ديوان بشار ١٣٦/٤ في ملحقات الديوان والقطعة ثمة في أربعة أبيات.

- وفيه للعلم معقلاً. وغاض ضياء العين للقلب فاغتدي بقلب.. إلخ.

(٢) ديوان بشار ١٣٩/١

(٣) الأظهر أنه أبو شريح عمير بن الحباب السلمي، وهو فارس، شاعر أموي. شارك في حروب كثيرة وقتل سنة ٧٠ هـ في يوم الحشاك، قتلته بنو تغلب. له أخبار في الأغاني ١٨٤/٢٣، وتاريخ الطبراني ٨٠/٦، ومعجم الشعراء ٧٤

(٤) ديوان الفرزدق ١٢٣/١

الضمير في (بلغن) يعود على القوافي = الشعر أي شَرَقَ شعره وغَرَبَ، ودار على الألسن والثنية مفرد الثنايا: وهي إحدى الأسنان الأربع التي في مقدم الفم.

بَلَّغْنَ الشَّمْسَ حِينَ تَكُونُ شَرْقَا وَمَسَقَطَ قَرْنِهَا مِنْ حَيْثُ غَابَا
بِكُلِّ ثَنِيَّةٍ وَبِكُلِّ ثَغْرِ غَرَائِبُهُنَّ تَنْتَسِبُ أَنْتَسَابَا
ابن ميادة^(١):

فَجَرْنَا يَنَابِيعَ الْكَلَامِ وَبَخَرَهُ فَأَصْبَحَ فِيهِ ذُو الرِّوَابَةِ يَسْبِغُ
وَمَا الشَّعْرُ إِلَّا شَعْرُ قَيْسٍ وَخَنْدِفٍ وَشَعْرُ سَوَاهِمٍ كُفْلَةٌ وَتَمْلُحُ
وَقَالَ عَقَالُ بْنُ هِشَامٍ الْقَيْنِي يَرُدُّ عَلَيْهِ^(٢):

أَلَا بَلَّغَ الرَّمَّاحُ نَقْضَ مَقَالَةٍ بِهَا خَطِلَ الرَّمَّاحُ أَوْ كَانَ يَمْرُحُ
لَئِنْ كَانَ فِي قَيْسٍ وَخَنْدَفٍ أَلْسَنُ طَوَالَ وَشَعْرٍ سَائِرٍ لَيْسَ يُفْدَحُ
لَقَدْ خَرَّقَ الْحَيُّ الْيَمَانُونَ قَبْلَهُمْ بِحُورِ الْكَلَامِ تُسْتَقَى وَهِيَ طَفْحُ
وَهُمْ عَلَّمُوا مَنْ بَعْدَهُمْ فَتَعَلَّمُوا وَهُمْ أَعْرَبُوا هَذَا الْكَلَامَ وَأَوْضَحُوا
فَلِلْسَابِقِينَ الْفَضْلُ لَا تَجْحَدُونَهُ وَلَيْسَ لِمَنْسُوبِي عَلَيْهِمْ تَبْجُحُ
أبو تمام^(٣):

كَشَفْتُ قِنَاعَ الشَّعْرِ عَنْ حُرِّ وَجْهِهِ وَطَيَّرْتُهُ عَنْ وَكْرِهِ وَهُوَ وَاقِعٌ^(٤)
[١٦٤ أ] يَغُرُّ^(٥) يَرَاهَا مِنْ يَرَاهَا بِسَمْعِهِ وَيَدْنُو إِلَيْهَا ذُو الْحِجَا وَهُوَ شَاسِعُ
يَوَدُّ وَدَاداً أَنْ أَعْضَاءَ جَسْمِهِ إِذَا أَنْشِدَتْ شَوْقاً إِلَيْهَا مَسَامِعُ

(١) البيتان في الأغاني ٢٧١/٢

وابن ميادة (الرماح بن أبرد) مخضرم الدولتين. وفيه أبلغ.

(٢) الخبر والشعر في الأغاني ٢٧١/٢ - ٢٧٢. وكانت بين ابن ميادة، وبين عقال بن هشام مفاخرة.

(٣) ديوان أبي تمام ٥٩٠/٤ من قصيدة في مدح أبي دلف العجلي.

(٤) الواقع خلاف الطائر.

(٥) الغرُّ صفة للقوافي (أو القصائد).

وله^(١):

حَذَاءٌ تَمَلَأُ كُلَّ أَذُنٍ حِكْمَةً وَبِلَاغَةً وَتُذِيرُ كُلَّ وَرِيدٍ
كَالدُّرِّ وَالْمَرْجَانِ أَلْفَ نَظْمٍ بِالشَّدْرِ فِي عُنُقِ الْفَتَاةِ الرُّودِ
كَشَقِيقَةِ الْبُرْدِ الْمُتَمَنِّمِ وَشَيْءٍ فِي أَرْضِ مَهْرَةٍ أَوْ بِلَادِ تَزِيدِ
يُعْطِي بِهَا الْبُشْرَى الْكَرِيمُ وَيُرْتَدِي بِرَدَائِهَا فِي الْمَحْفَلِ الْمَشْهُودِ
بُشْرَى الْغَنِيِّ أَبِي الْبَنَاتِ تَتَابَعَتْ^(٢) بُشْرَاؤُهُ بِالْفَارِسِ الْمَوْلُودِ!
وله^(٣):

جَاءَتْكَ مِنْ نَظْمِ اللِّسَانِ قِلَادَةٌ سِنَطَانٌ فِيهَا اللَّوْلُؤُ الْمَكْنُونُ
أَخْذَاكَهَا صَنَعَ الضَّمِيرُ يَمُدُّهُ جَفَرٌ إِذَا نَضَّبَ الْكَلَامُ مَعِينُ
أَخَذَ لَفْظَ الصَّنَعِ مِنْ قَوْلِ أَبِي حَيَّةٍ: «بَأَنِّي صَنَعَ اللِّسَانُ بَهْنَ لَا أَتَنَحَّلُ»^(٤)
وَنَقَلَهُ إِلَى الضَّمِيرِ وَقَدْ جَعَلَ حَسَانٌ أَيْضاً اللِّسَانَ صَنَعاً وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ:

(١) ديوان أبي تمام ٣٩٧/١. وقبل هذه الأبيات:

خَذَهَا مَثْقَفَةً الْقَوَافِي رُبُّهَا لِسَوَابِغِ النِّعْمَاءِ غَيْرُ كَنُودِ

- مثقفة: صفة للقسيمة أي مقومة. وحذاء: أي خفيفة السير، بمعنى سريعة. أراد أنها تسير في البلاد. والشدر: ما يصاغ من الذهب والفضة فيفضل به اللؤلؤ. والرود: الناعمة.

- وترك القاضي بيتين من نسق أبيات القصيدة.

(٢) قال التبريزي: يعطي (بالبناء للمعلوم) يعني أن الكريم إذ بُشِّرَ بقدمها أعطى من بشره بُشْرَاهُ أي عطية البشارة.

(٣) من قصيدة يمدح بها الواثق بالله. (الديوان ٣/٣٢٩ - ٣٣١) وبين البيتين في الديوان أبيات أخرى.

- وقوله: جاءتك أي القصيدة، وأحذاكها: أي أعطاكها. والبثر الواسعة الفم. وذكرها الشاعر هنا في معنى يدل على الغزارة والمعين الذي يجري على وجه الأرض. والصنع: الماهر.

(٤) سبق التمثل به في أول الفصل.

أَهْدَى لَهُمْ مَدْحًا قَلْبٌ مُوَازِرُهُ فِيمَا أَحَبَّ لِسَانَ حَائِكُ صَنَعِ
ولأبي تمام^(١):

إِلَيْكَ أَرَحْنَا عَازِبَ الشَّعْرِ بَعْدَمَا تَمَهَّلَ فِي رَوْضِ الْمَعَانِي الْمَجَائِبِ
غَرَائِبُ لَاقَتْ فِي فَنَائِكَ أَنْسَهَا مِنْ الْمَجْدِ فَهِيَ الْآنَ غَيْرُ غَرَائِبِ
وَلَوْ كَانَ يَقْنَى الشَّعْرُ أَفْنَاءَ مَا قَرَّتْ حِبَاضُكَ مِنْهُ فِي السَّنِينَ الذَّوَاهِبِ
وَلَكِنَّهُ صَوَّبَ الْعَقُولَ إِذَا انْجَلَتْ سَحَابٌ مِنْهُ أَعْقَبَتْ بِسَحَابِ
البحثري^(٢):

أَلَسْتُ الْمُوَالِي فِيكَ نَظْمَ قَصَائِدِ هِيَ الْأَنْجُمُ اقْتَادَتْ مَعَ اللَّيْلِ أَنْجَمَا
[١٦٤ ب] ثَنَاءً كَانَ الرُّوضَ مِنْهُ مَنْوَرًا ضَحَىٰ وَكَأَنَّ الْوُشْيَ مِنْهُ مَنْمَمَا
وله^(٣):

أَحْسَنُ أَبَا حَسَنِ بِالشَّعْرِ إِذْ جَعَلَتْ عَلَيْكَ أَنْجَمُهُ بِالْمَدْحِ تَنْتَثِيرُ
فَقَدْ أَتَيْتُكَ الْقَوَافِي غَبَّ فَائِدَةٍ كَمَا تَفْتَحُ غَبَّ الْوَابِلِ الزَّهْرُ
وله^(٤):

إِلَيْكَ الْقَوَافِي نَازَعَاتُ قَوَاصِدُ يُسَيِّرُ ضَاحِي وَشِيهَا وَيُنْمِزُ
وَمُشْرِقَةٌ فِي النِّظْمِ غَرٌّ يَزِينُهَا بِهَاءٍ وَحَسَنًا أَنَّهَا لَكَ تُنْظِمُ

(١) ديوان أبي تمام ٢١٣/١

(٢) ديوان البحثري ١٩٨٣/٣ من قصيدة يمدح بها الفتح بن خاقان.

(٣) من قصيدة للبحثري في مدح علي بن مرّ الطائي ويلقب بالأرمي. (الديوان ٩٥٨/٢).

(٤) من قصيدة له في مدح الفتح بن خاقان. (الديوان ١٩٣١/٣).

- يسير: أي يجعل كالسيرا، أو وشي السيرا، وهي ثياب يمنية مزركشة بخيوط من الحرير والذهب.

وله^(١):

بِمَنْقُوشَةٍ نَقَشَ الدَّنَانِيرُ يُنْتَقَى لَهَا اللَّفْظُ مُخْتَاراً كَمَا يُنْتَقَى التَّبَرُّ
وله^(٢):

أَيْذَهُبُ هَذَا الدَّهْرُ لَمْ يَرِ مَوْضِعِي وَلَمْ يَذَرْ مَا مَقْدَارُ حَلِّي وَلَا عَقْدِي
وَيَكْسُدُ مِثْلِي وَهُوَ تَاجِرُ سُؤْدِدِ يَبِيعُ ثَنِيَّاتِ الْمَكَارِمِ وَالْمَجْدِ
سَوَائِرُ شِعْرِ جَامِعِ بَدَدِ الْعُلَى تَعْلَقْنَ مَنْ قَبْلِي وَأَتَعِبْنَ مَنْ بَعْدِي
يُقَدِّرُ فِيهَا صَانِعٌ مَتَمِّلٌ لِإِحْكَامِهَا تَقْدِيرَ دَاوُدَ فِي السَّرْدِ^(٣)
وله^(٤):

لِلَّهِ يَسْهَرُ فِي مَدِيحِكَ لَيْلُهُ مَتَمَلِّمَلاً وَتَنَامُ دُونَ ثَوَابِهِ
يَقْظَانُ يَنْتَحِلُ الْكَلَامَ كَأَنَّهُ جَبِشٌ لَدَيْهِ يَرِيدُ أَنْ يَلْقَى بِهِ
فَأَتَى بِهِ كَالسَّيْفِ رَقْرَقَ صَبَقْلُ مَا بَيْنَ قَائِمِ سِنْخِهِ وَذُبَابِهِ
وَمَنْ نَادَرَ وَصَفَهُ لِلْبَلَاغَةِ قَوْلُهُ^(٥):

فِي نِظَامٍ مِنَ الْبَلَاغَةِ مَا شَكَّ أَمَرُوهُ أَنَّهُ نِظَامُ فَرِيدِ
وَيَدِيعُ كَأَنَّهُ الزَّهْرُ الضَّاحِكُ حَكَ فِي رَوْنَقِ الرَّبِيعِ الْجَدِيدِ

(١) ديوان البحري ٨٧٥/٢ من قصيدة في مدح أبي عامر الخضر بن أحمد.

(٢) ديوان البحري ٧٤٧/٢ من قصيدة في مدح ابن ثوابه.

(٣) داود: نبي الله داود. والسرد: اسم لكل درع وحلق. وفيه إشارة إلى الآية الكريمة: ﴿أَنْ أَعْمَلَ سَيِّفَتِي وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ﴾ [سبا: ١١/٣٤].

(٤) من قصيدة له في الديوان ٨٨/١ يعاتب إسماعيل بن شهاب.

- والصَّيْقَلُ الذي يصقل السُّيُوف. وسنخ كل شيء أصله. وذباب السيف: حده الذي يضرب به.

(٥) من قصيدة في مدح محمد بن عبد الملك الرُّيَّات (الديوان ٦٣٦/١ - ٦٣٧).

مشرق في جوانب السمع ما يُخْ لمقهُ عَوْدُهُ على المستعبدِ
 حجج تُخرس الألدَّ بالفا ظِ فُرَادِي كالجوهرِ المعدودِ
 ومعانٍ لو فَصَّلْتُهَا القَوافي هَجَنْتُ شعراً جَرَوِيَّ وَلَبِيدِ
 حُزْنَ مُستعمل الكلامِ اختياراً وتجنَّبْنَ ظِلْمَةَ التعقيدِ
 وركبْنَ اللَّفْظَ القريبَ فأدرك نَ بِهِ غَايَةَ المُرادِ البعيدِ
 كالعَذَارَى غَدَوْنَ فِي الحِللِ الصُّفَى ر إذا رُحْنَ فِي الخطوطِ السودِ

الغرض من كُتِبَ هذه الأبيات الاستظهار حتى إن حَمَلَ حَامِلٌ نَفْسَهُ على القَرَر والتَّقَحُّم على غير بصيرة فزعم أن الإعجازَ في مَذَاقَةِ الحُرُوفِ، وفي سَلَامَتِهَا مما يثقل على اللسانِ، علَمَ بالنظر فيها فسادَ ظَنِّهِ وَقُبْحَ غِلْطِهِ، من حيث يرى عياناً أن ليس كلامُهم كلامَ من خطر ذلك منه ببال، ولا صفاتُهم صفاتٍ تصلحُ له على حال، إذ لا يخفى على عاقل أن لم يكن ضربُ (تميم) لحزون جبال الشعر لأنَّ تسلم ألفاظه من حروف تثقل على اللسان، ولا كان تقويم (عدي) لشعره ولا تشبيهه نظره فيه بنظر المثقف في كُحُوبِ قَنَاتِهِ لذلك وأنه محال أن يكونَ له جعل (بشار) نور العين قد غاضَ فصار إلى قلبه، وأن يكون اللؤلؤ الذي كان لا ينام عن طلبه، وأن ليس هو صوبَ العقول الذي إذا «انجلت سَحَابٌ مِنْهُ أُعْقِبَتْ بِسَحَابٍ»، وأن ليس هو «الدرُّ والمرجان» مؤلفاً بالشذر في العقد، ولا الذي له كان (البحثري) مقدراً تقدير داود في السرد.

كيف؛ وهذه كلها عبارات عما يُدْرِكُ بالعقل وَيُسْتَنْبِطُ بالفكر، وليس الفكر الطريقَ إلى تمييز ما يثقل على اللسان مما لا يُثْقَلُ، إنما الطريق إلى ذلك الحس ولولا أنَّ البلوى قد عَظُمَتْ بهذا الرأي الفاسد وأن الذين قد استهلكوا فيه قد صاروا من فَرَطِ شَغْفِهِمْ بِهِ يُصْعِقُونَ إلى كُلِّ شَيْءٍ يَسْمَعُونَهُ، [١٦٥ ب] حتى لو أنَّ إنساناً قال: «باقلي حار»^(١) يريهم أنه يريد نصرة مذهبهم لأقبلوا بأوجههم عليه،

(١) الباقلي: القول. ولا زالت الكلمة شائعة في الاستعمال، في بعض البلدان العربية.

فألقوا أسماعهم إليه، لكان^(١) اطرأحه وترك الاشتغال به أصوب، لأنه قول لا يتصل منه جانب بالصواب البتة!

ذلك لأنه أول شيء يؤدي إلى أن يكون القرآن معجزاً لا بما به كان قرآنًا وكلام الله عز وجل، لأنه على كل حال إنما كان قرآنًا وكلام الله عز وجل بالنظم الذي هو عليه. ومعلوم أن ليس النظم من مذاقة الحروف وسلامتها مما يثقل على اللسان في شيء. ثم إنه اتفاق من العقلاء أن الوصف الذي به تنأى القرآن إلى حدٍّ عجز عنه المخلوقون هو الفصاحة والبلاغة وما رأينا عاقلاً جعل القرآن فصيحاً أو بليغاً بأن لا يكون في حروفه ما يثقل على اللسان، لأنه لو كان يصح ذلك لكان يجب أن يكون الشوقي الساقط من الكلام والسفساف الرديء من الشعر فصيحاً إذا خفَّت حروفه. وأعجب من هذا أنه يلزم منه أنه لو عمد عامدٌ إلى حركات الإعراب فجعل مكان كل ضمة وكسرة فتحةً فقال: «الحمد لله» بفتح الدال واللام والهاء وجرى على هذا في القرآن كله أن لا يسلبه ذلك الوصف الذي هو مُعْجَزٌ به بل كان ينبغي أن يزيد فيه لأن الفتحة كما لا يخفى أخف من كل واحدة من الضمة والكسرة، فإن قال: إن ذلك يحيل المعنى قيل له: إذا كان المعنى والعلّة في كونه معجزاً خفة اللفظ وسهولته فينبغي أن يكون مع إحالة المعنى معجزاً لأنه إذا كان معجز الوصف يخص لفظه دون معناه كان محالاً أن يخرج عن كونه معجزاً مع قيام ذلك الوصف فيه.

ودع هذا وهب أنه لا يلزم شيء منه فإنه يكفي في الدلالة على سقوطه وقلة تمييز القائل به أن يقتضي إسقاط الكناية والاستعارة والتمثيل والمجاز والإيجاز جملة، واطرأح جميعها رأساً، مع أنها الأقطاب التي تدور البلاغة عليها، والأعضاء التي تستند الفصاحة إليها، والطلبة التي يتنازعها المحسنون، [١٦٦] والرّهان الذي تجرّب فيه الجياد، والنضال الذي تعرف به الأيدي الشداد، وهي التي نوه بذكرها البلغاء، ورفع من أقدارها العلماء، وصنّفوا فيها الكتب، ووكّلوا بها الهمم، وصرفوا إليها الخواطر، حتى صار الكلام فيها نوعاً

(١) جواب (لولا) السالفة في مطلع الفقرة.

من العلم مفرداً، وصناعةً على حدة، ولم يتعاط أحد من الناس القول في الإعجاز إلّا ذكرها وجعلها العمدة والأركان فيما يوجب الفضل والمزية، وخصوصاً الاستعارة والإيجاز. فإنك تراهم يجعلونها عنواناً ما يذكرون، وأول ما يُوردون، وتراهم يذكرون من الاستعارة قوله عز وجل: ﴿وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ وقوله: ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْوَعْلَ﴾ وقوله عز وجل: ﴿وَأَيُّ لَّهُمْ أَلِيلٌ نَسَلَخَ مِنْهُ النَّهَارَ﴾ وقوله عز وجل: ﴿فَأَصْدَقَ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ وقوله: ﴿فَلَمَّا أَسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَاَصُوا يَمِينًا﴾ وقوله تعالى: ﴿حَقٌّ نَقَعَ الْمَرْبُ أَرْزَاقًا﴾ وقوله: ﴿فَمَا رِيحَتْ يَحْدَرْتُهُمْ﴾ ومن الإيجاز قوله تعالى: ﴿وَإِنَّمَا تَخَافُكَ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٌ فَانْزِلْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَنْفُتُكَ مِثْلُ خَيْرٍ﴾ وقوله: ﴿فَشَرَدَ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ﴾ وتراهم على لسان واحد في أن المجاز والإيجاز، من الأركان في أمر الإعجاز.

وإذا كان الأمر كذلك عند كافة العلماء الذين تكلموا في المزايا التي للقرآن فَيَنْبَغِي أَنْ يَنْظَرَ فِي أَمْرِ الَّذِي يُسَلِّمُ نَفْسَهُ إِلَى الْغُرُورِ، فَيَزْعُمُ أَنَّ الْوَصْفَ الَّذِي كَانَ لَهُ الْقُرْآنُ مُعْجَزاً هُوَ سَلَامَةُ حُرُوفِهِ مِمَّا يَنْثَقِلُ عَلَى اللِّسَانِ أَيْصَحُّ لَهُ الْقَوْلُ بِذَلِكَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَدَّعِي الْغَلْطَ عَلَى الْعُقَلَاءِ قَاطِبَةً فِيمَا قَالُوهُ، وَالْخَطَأُ فِيمَا أَجْمَعُوا عَلَيْهِ، وَإِذَا نَظَرْنَا وَجَدْنَاهُ لَا يَصِحُّ لَهُ ذَلِكَ إِلَّا بِأَنْ يَقْتَحِمَ هَذِهِ الْجَهَالَةَ اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يَخْرُجَ إِلَى الضُّحْكَةِ^(١) فَيَزْعُمَ مِثْلًا أَنَّ مِنْ شَأْنِ الاستعارة والإيجاز إذا دَخَلَ الْكَلَامُ أَنْ يَحْدُثَ بِهِمَا فِي حُرُوفِهِ خِفَّةٌ، وَيَتَجَدَّدَ فِيهَا سُهولةٌ، وَنَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى الْعَصْمَةَ وَالتَّوْفِيقَ.

واعلم أننا لا نأبي أن تكون مذاقة الحروف وسلامتها مما يَنْثَقِلُ عَلَى اللِّسَانِ دَاخِلًا فِيمَا يَوْجِبُ الْفَضِيلَةَ، وَأَنْ تَكُونَ مِمَّا يُوَكِّدُ أَمْرَ الإعجازِ، وَإِنَّمَا الَّذِي نُنْكِرُهُ وَنُقِيلُ^(٢) رَأْيَ مَنْ يَذْهَبُ إِلَيْهِ أَنْ يَجْعَلَهُ مُعْجَزاً بِهِ وَحْدَهُ وَيَجْعَلَهُ الْأَصْلَ وَالْعَمْدَةَ فَيَخْرُجَ إِلَى مَا ذَكَرْنَا مِنَ الشَّنَاعَاتِ.

(١) الضُّحْكَةُ: من يضحك الناس معه.

(٢) قِيلَ رَأْيُهُ: أَيِ خَطَاؤِهِ وَقَبْحِهِ. وَيُقَالُ: قَالَ رَأْيَ فُلَانٍ أَيْ ضَعْفَ. وَرَجُلٌ قِيلَ الرَّأْيِ وَقِيلَ الرَّأْيِ (عَلَى وَزْنِ هَيْتٍ): ضَعِيفُ الرَّأْيِ.

ثم إنَّ العجبَ كلَّ العجبِ ممَّن يجعلُ كلَّ الفضيلةِ في شيءٍ هو إذا انفرد لم يَجِبْ به فضلُ البتة ولم يدخُلْ في اعتدادِ بحالٍ، وذلك أنه لا يَخْفَى على عاقل أنَّه لا يكونُ بسهولة الألفاظِ وسلامَتِها مما يثقل على اللسانِ اعتداد حتى يكونَ قد أُلْفَ منها كلام، ثم كان ذلك الكلامُ صحيحاً في نظمه والغرض الذي أريد به، وأنه لو عَمَدَ عامدٌ إلى ألفاظٍ فجمعَها من غير أن يراعي فيها معنى ويؤلف منها كلاماً، لم ترَ عاقلاً يعتدُّ السهولةَ فيها فضيلةً، لأنَّ الألفاظَ لا تُراد لأنفسِها وإنما تُراد لتجعلَ أدلة على المعاني، فإذا عَدِمَتِ الذي له تُراد أو اختلَّ أمرُها فيه لم يُعتدَّ بالأوصاف التي تكون في أنفسِها عليها، وكانت السُّهولة وغير السُّهولة فيها واحداً. ومن ها هنا رأيتُ العلماءَ يذمُّونَ مَنْ يحمله تطلُّبُ السَّجع والتجنيس على أن يضُمَّ لهما المعنى، ويدخلَ الخللُ عليه من أجلهما، وعلى أن يتعسَّفَ في الاستعارة بسببهما، ويركبُ الوعورةَ، ويسلكُ المسالكَ المجهولةَ، كالذي صنَّع أبو تمام في قوله^(١):

سيفُ الإمام الذي سَمَّتهُ هيبتهُ لما تخرَّم أهلُ الأرضِ مخترمها
قرَّت بِقرَّانِ عَيْنِ الدينِ وانتشرت بالأشترين عيونُ الشُّركِ فاصطُلِمَا
وقوله:

ذَهَبَتْ بِمَذْهِبِ السَّماحَةِ والتَّوْثِ فيه الظنونُ أَمْذَهَبُ أم مُذْهَبُ
ويصنعه المتكلِّفون في الأسجاعِ، وذلك أنه لا يتصوَّر أن يجبَ بهما ويزُ
حيثُ هما فضلٌ، ويقعَ بهما مع الخلوِّ من المعنى اعتدادٌ، وإذا نظرتَ إلى
تجنيسِ أبي تمام «أَمْذَهَبُ أم مَذْهَبُ» فاستضعفته، وإلى تجنيسِ القائل:

❁ حَتَّى نَجَا مِنْ خَوْفِهِ وما نَجَا ❁

وقولِ المحدث^(٢): [١٦٧ أ]

(١) ديوان أبي تمام من قصيدة في مدح إسحاق بن إبراهيم المصعبي (الديوان ٣/ ١٦٨).

وفيه: تخرَّم أهل الكفر. والاخترام: استئصال الشيء.

(٢) البيت لأبي الفتح البستي (في ديوانه ٣٢٢ - ٣٢٣) ونصُّ المحقق على أن القطعة التي

منها البيت تنسب لغيره في بعض المصادر.

ناظره فيما جنى ناظره أودعاني أمث بما أودعاني

فاستحسنته، لم تشك بحال أن ذلك لم يكن لأمر يرجع إلى اللفظ ولكن لأنك رأيت الفائدة ضعفت في الأول وقويت في الثاني، وذلك أنك رأيت أبا تمام لم يزك بـ «مذهب» و «مذهب» على أن أسمعك حروفاً مكررة لا تجد لها فائدة - إن وجدت - إلا متكلفة متمحلة، ورأيت الآخر قد أعاد عليك اللفظة كأنه يخدعك عن الفائدة وقد أعطاها، ويوهمك أنه لم يزك وقد أحسن الزيادة ووقاها، ولهذه النكتة كان التجنيس وخصوصاً المستوفى منه مثل «نجا ونجا» من حلي الشعر. والقول فيما يحسن وفيما لا يحسن من التجنيس والسجع يطول، ولم يكن غرضنا من ذكرهما شرح أمرهما ولكن تأكيد ما انتهى بنا القول إليه من استحالة أن يكون الإعجاز في مجرد السهولة وسلامة الألفاظ مما يثقل على اللسان.

وجملة الأمر أننا ما رأينا في الدنيا عاقلاً أطرح النظم والمحاسن التي هو السبب فيها من الاستعارة والكناية والتمثيل وضروب المجاز والإيجاز وصد بوجهه عن جميعها وجعل الفضل كله والمزية أجمعها في سلامة الحروف مما يثقل كيف وهو يؤدي إلى السخف والخروج من العقل كما بينا واعلم أنه قد آن لنا أن نعود إلى ما هو الأمر الأعظم والغرض الأهم، والذي كأنه هو الطلبة وكل ما عداه ذرائع إليه، وهو المرام وما سواه أسباب للتسلق عليه، وهو بيان العلل التي لها وجب أن يكون لنظم مزية على نظم وأن يعم أمر التفاضل فيه ويتناهى إلى الغايات البعيدة، ونحن نسأل الله تعالى العون على ذلك والتوفيق له والهداية إليه [١٦٧ ب].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[فصل]

مجل في النظم

ما أظن بك أيها القارئ لكتابنا إن كنت وفيته حقاً من النظر، وتدبرته حقاً التدبر، إلا أنك قد علمت علماً أبيض أن يكون للشك فيه نصيب، وللتوقف نحوك مذهب، أن ليس النظم شيئاً إلا توخى معاني النحو وأحكامه ووجوهه وفروقه فيما بين معاني الكلم، وأنك قد تبينت أنه إذا رُفِعَ معاني النحو وأحكامه مما بين الكلم حتى لا تُرادَ فيها في جملة ولا تفصيل خرجت الكلم المنطوق ببعضها في أثر بعض في البيت من الشعر والفصل من النثر عن أن يكون لكونها في مواضعها التي وُضِعَتْ فيها موجباً ومقتضياً، وعن أن يتصور أن يقال في كلمة منها إنها مرتبطة بصاحبة لها، ومتعلقة بها وكأنه بسبب منها، وأن حسنَ تصوورك لذلك قد ثَبَّتَ فيه قَدَمَكَ، وملاً مِنَ الثقة بنفسك، وباعدك من أن تحنَّ إلى الذي كنت عليه، وأن يَجُرَّكَ الإلف والاعتیادُ إليه، وأنك جعلت ما قلناه نقشاً في صدرك، وأثبتته في سويداء قلبك، وصادقت بينه وبين نفسك، فإن كان الأمر، كما ظنناه رجونا أن يصادف الذي نريد أن نستأنفه بعون الله تعالى منك نية حسنة تقيك الملل، ورغبة صادقة تدفع عنك السأم،

وأريحية يخفُّ معها عليك تعبُ الفكرِ وكُدُّ النظر، والله تعالى وليُّ توفيقك وتوفيقنا بمنه وفضله ونبدأ فنقول:

فإذا ثبتَ الآن أن لا شكَّ ولا مِرْيَةَ في أن ليس النظمُ شيئاً غير توخّي معاني النحو وأحكامه فيما بين معاني الكلم، ثبتَ من ذلك أنَّ طالبَ دليلِ الإعجازِ مِنْ نَظْمِ القرآنِ إذا هو لم يطلبه في معاني النحو وأحكامه ووجوهه وفروقه، ولم يَعلَم أنها معدّته ومعانته^(١) وموضعه ومكانه، وأنه لا مستنبط له سواها، وأن لا وجهَ لطلبه فيما عداها، غارَ نفسه بالكاذب من الطَّمَع، [١٦٨] ومُسلم لها إلى الخُدَع، وأنه إن أبى أن يكونَ فيها كان قد أبى أن يكون القرآنُ معجزاً بنظمه، ولزِمَه أن يثبتَ شيئاً آخرَ يكونُ مُعجزاً به، وأن يلحق بأصحابِ الصّرفة فيدفع الإعجاز من أصله، وهذا تقريرٌ لا يدفعه إلا معانِدٌ يَعدُّ الرجوع عن باطلٍ قد اعتقده عجزاً، والثّباتُ عليه مِنْ بَعْدِ لزوم الحِجَّةِ جلدأً، ومَنْ وضع نفسه في هذه المنزلة كان قد باعَدها من الإنسانية، ونسأل الله تعالى العصمةَ والتوفيقَ.

وهذه أصولٌ يحتاجُ إلى معرفتها قبل الذي عمَدنا له. اعلم أن معاني الكلام كلّها، معانٍ لا تتصوّر إلا فيما بين شيئين، والأصل والأول هو الخبر، وإذا أحكمت العلم بهذا المعنى فيه عرفته في الجميع. ومن الثابت في العقول والقائم في النفوس أنه لا يكونُ خبرٌ حتى يكونَ مخبرٌ به ومخبرٌ عنه، لأنه ينقسم إلى إثباتٍ ونفي، والإثبات يفتضي مثبتاً ومثبتاً له، والنفي يقتضي منفيّاً ومنفيّاً عنه، فلو حاولت أن يتصوّر إثباتٌ معنى أو نفيه مِنْ دون أن يكونَ هناك مثبتٌ له ومنفيٌّ عنه حاولت ما لا يصحُّ في عقلٍ، ولا يقع في وهم، ومن أجل ذلك امتنع أن يكونَ لك قصدٌ إلى شيءٍ مُظهِرٍ أو مقدّرٍ مُضمرٍ، وكان لفظُك به إذا أنت لم تُرد ذلك وصوتٌ تصوّته سواء.

وإن أردت أن تستحكم معرفة ذلك في نفسك فانظر إليك إذا قيلَ لك: ما فعل زيد؟ فقلت: خرجَ هل يتصوّر أن يقع في خلدك من «خرج» معنى مِنْ دون أن تنوي فيه ضميرَ زيد؟ وهل تكونُ إن أنت زعمت أنك لم تنو ذلك

(١) المعان: المنزل، ويقال: هم منك بمعان أي بحيث تراهم.

إلا مُخْرِجاً نَفْسَكَ إِلَى الْهَذْيَانِ؟ وَكَذَلِكَ فَانْظُرْ إِذَا قِيلَ لَكَ: كَيْفَ زَيْدٌ؟ فَقُلْتَ: صَالِحٌ. هَلْ يَكُونُ لِقَوْلِكَ «صَالِحٌ» أَثَرٌ فِي نَفْسِكَ مِنْ دُونِ أَنْ تَرِيدَ «هُوَ صَالِحٌ» أَمْ هَلْ يَغْفُلُ السَّمَاعُ مِنْهُ شَيْئاً إِنْ هُوَ لَمْ يَعْتَقِدْ ذَلِكَ؟ فَإِنَّهُ [١٦٨ ب] مِمَّا لَا يَبْقَى مَعَهُ لِعَاقِلٍ شَكٌّ أَنَّ الْخَبَرَ مَعْنَى لَا يَتَصَوَّرُ إِلَّا بَيْنَ شَيْئَيْنِ يَكُونُ أَحَدُهُمَا مَثْبِتاً وَالْآخَرُ مَثْبِتاً لَهُ، أَوْ يَكُونُ أَحَدُهُمَا مَنْفِيّاً وَالْآخَرُ مَنْفِيّاً عَنْهُ، وَأَنَّهُ لَا يَتَصَوَّرُ مَثْبِتٌ مِنْ غَيْرِ مَثْبِتٍ لَهُ وَمَنْفِيٌّ مِنْ دُونِ مَنْفِيٍّ عَنْهُ. وَلَمَّا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ أَوْجَبَ ذَلِكَ أَنَّ لَا يَعْقِلُ إِلَّا مِنْ مَجْمُوعٍ جَمْلَةٍ فَعَلٍ وَاسْمٍ كَقَوْلِنَا: خَرَجَ زَيْدٌ. أَوْ اسْمٍ وَاسْمٍ كَقَوْلِنَا: زَيْدٌ مَنْطَلِقٌ. فَلَيْسَ فِي الدُّنْيَا خَبَرٌ يَعْرِفُ مِنْ غَيْرِ هَذَا السَّبِيلِ، وَبِغَيْرِ هَذَا الدَّلِيلِ، وَهُوَ شَيْءٌ يَعْرِفُهُ الْعُقَلَاءُ فِي كُلِّ جِيلٍ وَأَمَةٍ، وَحَكْمٌ يَجْرِي عَلَيْهِ الْأَمْرُ فِي كُلِّ لِسَانٍ وَلُغَةٍ.

وَإِذْ قَدْ عَرَفْتَ أَنَّهُ لَا يُتَصَوَّرُ الْخَبَرُ إِلَّا فِيمَا بَيْنَ شَيْئَيْنِ مَخْبَرٌ بِهِ وَمَخْبَرٌ عَنْهُ، فَيَنْبَغِي أَنْ يُعْلَمَ أَنَّهُ يَحْتَاجُ مِنْ بَعْدِ هَذَيْنِ إِلَى ثَالِثٍ، وَذَلِكَ أَنَّهُ كَمَا لَا يَتَصَوَّرُ أَنْ يَكُونَ هُنَا خَبَرٌ حَتَّى يَكُونَ مَخْبَرٌ بِهِ وَمَخْبَرٌ عَنْهُ، كَذَلِكَ لَا يُتَصَوَّرُ أَنْ يَكُونَ خَبَرٌ حَتَّى يَكُونَ لَهُ مَخْبَرٌ يَصْدُرُ عَنْهُ وَيَحْصُلُ مِنْ جِهَتِهِ، وَيَكُونَ لَهُ نِسْبَةٌ إِلَيْهِ، وَتَعَوُّدُ التَّبَعَةِ فِيهِ عَلَيْهِ، فَيَكُونُ هُوَ الْمَوْصُوفُ بِالْصَدَقِ إِنْ كَانَ صَدَقاً وَبِالْكَذِبِ إِنْ كَانَ كَذَباً، أَفَلَا تَرَى أَنَّ مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّهُ لَا يَكُونُ إِثْبَاتٌ وَمَنْفِيٌّ حَتَّى يَكُونَ مَثْبُتٌ وَنَافٍ يَكُونُ مَصْدَرُهُمَا مِنْ جِهَتِهِ، وَيَكُونُ هُوَ الْمُزْجِي لِهَمَا، وَالْمَبْرِمُ وَالنَّاقِضُ فِيهِمَا، وَيَكُونُ بِهِمَا مُوَافِقاً وَمُخَالَفاً، وَمَصِيباً وَمَخْطِئاً، وَمَحْسَناً وَمُسِيئاً.

وَجَمْلَةُ الْأَمْرِ أَنَّ الْخَبَرَ وَجَمِيعَ الْكَلَامِ مَعَانٍ يَنْشِئُهَا الْإِنْسَانُ فِي نَفْسِهِ، وَيَصْرِفُهَا فِي فِكْرِهِ، وَيُنَاجِي بِهَا قَلْبَهُ، وَيَرَاجِعُ فِيهَا عَقْلَهُ وَتَوَصَّفُ بِأَنَّهَا مَقَاصِدُ وَأَغْرَاضٌ، وَأَعْظَمُهَا شَأْناً الْخَبَرُ فَهُوَ الَّذِي يَتَصَوَّرُ بِالصُّوَرِ الْكَثِيرَةِ، وَتَقَعُ فِيهِ الصَّنَاعَاتُ الْعَجِيبَةُ، وَفِيهِ يَكُونُ فِي الْأَمْرِ الْأَعْمِ الْمَزَايَا الَّتِي بِهَا يَقَعُ التَّفَاضُلُ فِي الْفَصَاحَةِ كَمَا شَرَحْنَا فِيمَا تَقَدَّمَ وَنَشْرُحُهُ فِيمَا نَقُولُ مِنْ بَعْدِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

وَاعْلَمْ أَنَّكَ إِذَا فَتَشْتَ أَصْحَابَ اللَّفْظِ عَمَّا فِي نَفُوسِهِمْ وَجَدْتَهُمْ قَدْ تَوَهَّمُوا فِي الْخَبَرِ أَنَّهُ صِفَةٌ لِلْفِظِ، وَأَنَّ الْمَعْنَى فِي كَوْنِهِ إِثْبَاتاً أَنَّهُ لَفْظٌ يَدُلُّ عَلَى وَجُودِ

[١٦٩] المعنى من الشيء أو فيه، وفي كونه نفيًا أنه لفظ يدل على عدمه وانتفائه عن الشيء. وهو شيء قد لزمهم وسرى في عروقهم وامتزج بطباعهم، حتى صار الظنُّ بأكثرهم أن القول لا ينبجُ فيهم، والدليل على بطلان ما اعتقدوه: أنه محالٌّ أن يكون اللفظ قد نُصِبَ دليلاً على شيء ثم لا يحصل منه العلمُ بذلك الشيء، إذ لا معنى لكون الشيء دليلاً إلا إفادته إياك العلمَ بما هو دليلٌ عليه. وإذا كان هذا كذلك عُلِمَ منه أن ليس الأمر على ما قالوه من أن المعنى في وصفنا اللفظ بأنه خبرٌ أنه قد وُضِعَ لأن يدلَّ على وجود المعنى أو عدمه، لأنه لو كان كذلك لكان ينبغي أن لا يقع من سامع شك في خبرٍ يسمعه، وأن لا تسمع الرجلُ يثبت وينفي إلا علمت وجود ما أثبت وانتفاء ما نفى، وذلك مما لا يشكُّ في بطلانيه، وإذا لم يكن ذلك مما يشكُّ في بطلانيه وجب أن يُعلم أن مدلول اللفظ ليس هو وجود المعنى أو عدمه ولكن الحكم بوجود المعنى أو عدمه، وأن ذلك أي الحكم بوجود المعنى أو عدمه حقيقة الخبر، إلا أنه إذا كان بوجود المعنى من الشيء أو فيه يسمى إثباتاً، وإذا كان بعدم المعنى وانتفائه عن الشيء يسمى نفيًا. ومن الدليل على فساد ما زعموه أنه لو كان معنى الإثبات الدلالة على وجود المعنى وإعلامه السامع أيضاً وكان معنى النفي الدلالة على عدمه وإعلامه السامع أيضاً، لكان ينبغي إذا قال واحد: «زيد عالم» وقال آخر: «زيد ليس بعالم» أن يكون قد دلَّ هذا على وجود العلم وهذا على عدمه، وإذا قال الموحد: «العالم مُحدث» وقال الملحد: «هو قديم» أن يكون قد دلَّ الموحد على حدوثه والملحد على قديمه، وذلك ما لا يقوله عاقل.

تقريرٌ لذلك بعبارة أخرى: لا يتصور أن تفتقر المعاني المدلول عليها بالجمل المؤلفة إلى دليل يدلُّ عليها زائد على اللفظ، كيف وقد أجمع العقلاء على أن العلم بمقاصد الناس في محاوراتهم علم ضروري، ومن ذهب مذهباً يقتضي أن لا يكون [١٦٩ ب] الخبر معنى في نفس المتكلم ولكن يكون وصفاً للفظ من أجل دلاليته على وجود المعنى من الشيء أو فيه أو انتفاء وجوده عنه، كان قد نفى منه الأصل الذي قدّمناه من حيث يكون قد جعل المعنى المدلول عليه باللفظ لا يعرف إلا بدليل سوى اللفظ، ذاك لأننا لا نعرف وجود المعنى

الْمُثَبِّتِ وانتفاء المنفي باللفظ، ولكننا نَعْلَمُه بدليلٍ يقومُ لنا زائدٌ على اللفظِ وما من عاقلٍ إلَّا وهو يعلمُ بيديهِ النظر أن المعلومَ بغيرِ اللفظ لا يكونُ مدلولَ اللفظ.

طريقة أخرى: الدلالةُ على الشيء هي لا محالة إعلامُك السامع إياه، وليس بدليلٍ ما أنت لا تعلمُ به مدلولاً عليه، وإذا كان كذلك وكان مما يُعلمُ ببداية المعقول أن الناس إنما يكلّم بعضهم بعضاً ليعرف السامعُ غرضَ المتكلّم ومقصوده، فينبغي أن يُنظَرَ إلى مقصودِ المُخبر من خبره وما هو؟ أهو أن يُعلم السامع وجودَ المُخبر به من المخبر عنه؟ أم أن يعلمه إثبات المعنى المخبر به للمخبر عنه؟ فإن قيل: إن المقصودَ إعلامُه السامع وجودَ المعنى من المخبر عنه فإذا قال: ضرب زيد، كان مقصوده أن يُعلم السامع وجودَ الضرب من زيد وليس الإثباتُ إلَّا إعلامُه السامع وجودَ المعنى. قيل له: فالكافرُ إذا أثبت مع الله - تعالى عما يقول الظالمون - إلهاً آخر يكونُ قاصداً أن يَعلَمَ - نعوذ بالله تعالى - أن مع الله تعالى إلهاً آخر، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وكفى بهذا فضيحةً.

وجملة الأمرِ أنه ينبغي أن يقالَ لهم أتَشْكُونُ في أنه لا بُدَّ من أن يكونَ لخبر المخبر معنى يعلمه السامعُ علماً لا يكونُ معه شكٌ ويكون ذلك معنى اللفظ وحقيقته؟ فإذا قالوا: لا نشكُّ. قيل لهم: فما ذلك المعنى؟ فإن قالوا: هو وجود المعنى المخبر به من المخبر عنه أو فيه إذا كان الخبرُ إثباتاً وانتفاؤه عنه إذا كان نفياً؛ لم يمكنهم أن يقولوا ذلك إلَّا من بعد أن يكابروا فيدّعوا أنَّهم إذا سَمِعوا الرجلَ يقولُ: خرج زيد، علموا علماً لا شكَّ معه وجودَ الخروج من زيد. وكيف [١٧٠ أ] يدّعون ذلك وهو يقتضي أن يكونَ الخبرُ على وفقِ المخبر عنه أبداً؟ وأن لا يجوزَ فيه أن يقع على خلافِ المخبر عنه، وأن يكونَ العقلاء قد غَلَطُوا حين جعلوا من خاصٍّ وصفه أنه يحتملُ الصدقَ والكذبَ، وأن يكونَ الذي قالوه في أخبارِ الآحادِ وأخبارِ التواترِ من أنَّ العلمَ يقعُ بالتواترِ دونَ الآحادِ سهواً منهم، ويقتضي الغنى عن المعجزة لأنه إنما احتيجَ إليها ليحصلَ العلمُ بكونِ الخبر على وفقِ المخبر عنه، فإذا كان لا يكونُ إلَّا على وفقِ المخبر عنه لم تَقَعِ الحاجةُ إلى دليلٍ يدل على كونه كذلك فاعرفه.

واعلم أنه إنما لزمهم ما قلناه من أن يكون الخبر على وفق المخبر عنه أبداً من حيث إنه إذا كان معنى الخبر عندهم إذا كان إثباتاً أنه لفظ موضوع ليدل على وجود المعنى المخبر به من المخبر عنه أو فيه وجب أن يكون كذلك أبداً، وأن لا يصح أن يقال: ضرب زيد، إلا إذا كان الضرب قد وجد من زيد. وكذلك يجب في النفي أن لا يصح أن يقال: ما ضرب زيد، إلا إذا كان الضرب لم يوجد منه، لأن تجويز أن يقال: ضرب زيد، من غير أن يكون قد كان منه ضرباً وأن يقال: «ما ضرب زيد» وقد كان منه ضربٌ يوجب على أصلهم إخلاء اللفظ من معناه الذي وُضِعَ ليدلّ عليه، وذلك ما لا يُشكُّ في فساده، ولا يلزمنا على أصلنا لأن معنى اللفظ عندنا هو الحكم بوجود المخبر به من المخبر عنه أو فيه إذا كان الخبر إثباتاً والحكم بعدمه إذا كان نفيّاً، واللفظ عندنا لا يتفكك من ذلك ولا يخلو منه. وذلك لأن قولنا «ضرب وما ضرب» يدلُّ من قول الكاذب على نفس ما يدل عليه من قول الصادق، لأننا إن لم نقل ذلك لم يخلُ من أن يزعم أن الكاذب يخلي اللفظ من المعنى، أو يزعم أنه يجعل للفظ معنى غير ما وضع له، وكلاهما باطل.

ومعلوم أنه لا يزال يدور في كلام العقلاء في وصف الكاذب أنه يثبت ما ليس بثابت وينفي ما ليس بمنتفٍ، والقول [١٧٠ ب] بما قالوه يؤدي إلى أن يكون العقلاء قد قالوا المحال من حيث يجب على أصلهم أن يكونوا قد قالوا إن الكاذب يدل على وجود ما ليس بوجود، وعلى عدم ما ليس بمعدوم، وكفى بهذا تهافتاً وخطلاً، ودخولاً في اللغو من القول. وإذا اعتبرنا أصلنا كان تفسيره أن الكاذب يحكم بالوجود فيما ليس بوجود وبالعدم فيما ليس بمعدوم. وهو أسدُّ كلام وأحسنه.

والدليل على أن اللفظ من قول الكاذب يدلُّ على نفس ما يدل عليه من قول الصادق أنهم جعلوا خاصاً وصف الخبر أنه يحتل الصدق والكذب، فلولا أن حقيقةً فيهما حقيقة واحدة لما كان لحدّهم هذا معنى، ولا يجوز أن يقال إن الكاذب يأتي بالعبرة على خلاف المعبر عنه، لأن ذلك إنما يقال فيمن أراد شيئاً

ثم أتى بلفظ لا يصلح للذي أراد، ولا يمكننا أن نزعم في الكاذب أنه أراد أمراً
ثم أتى بعبارة لا تصلح لما أراد.

ومما ينبغي أن يحصل في هذا الباب أنهم قد أصّلوا في المفعول وكلّ ما زاد
على جزئي الجملة أنه يكون زيادة في الفائدة، وقد يُخَيَّلُ إلى من ينظر إلى ظاهر
هذا من كلامهم أنهم أرادوا بذلك أنك تضمّ بما تزيده على جزئي الجملة فائدة
أخرى، وينبغي عليه أن ينقطع عن الجملة حتى يتصوّر أن يكون فائدة على حدة،
وهو ما لا يعقل، إذ لا يتصوّر في زيد من قولك: «ضربتُ زيداً» أن يكون شيئاً
برأسه حتى تكون بتعديتك «ضربت» إليه قد ضممت فائدة إلى أخرى. وإذا كان
ذلك وجب أن يعلم أن الحقيقة في هذا أن الكلام يخرج بذكر المفعول إلى معنى
غير الذي كان، وأن وزان الفعل قد عُذِّي إلى مفعولٍ معه وقد أطلق فلم يقصد به
إلى مفعولٍ دون مفعول وزان الاسم المخصّص بالصفة مع الاسم المتروك على
شباعه، كقولك: «جاءني رجلٌ ظريفٌ» مع قولك: «جاءني رجلٌ» في أنك لستَ
في ذلك كمن يضمّ معنى إلى معنى وفائدة إلى فائدة، ولكن كمن يريدُ ههنا شيئاً
وهناك شيئاً آخر. فإذا قلتَ: ضربتُ زيداً؛ كان المعنى غيره إذا قلتَ: «ضربتُ»
[١٧١ أ] ولم تزد «زيداً» وهكذا يكون الأمرُ أبداً كلّما زدت شيئاً وجدتَ المعنى
قد صارَ غير الذي كان، ومن أجل ذلك صلح المجازاة بالفعل الواحد إذا أتى به
مطلقاً في الشرط ومعدي إلى شيء في الجزاء كقوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أُحْسَنْتُمْ
لِأَنْفُسِكُمْ﴾ [الإسراء: ٧/١٧] وقوله عزّ وجل: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾
[الشعراء: ١٣٠/٢٦] مع العلم بأن الشرط ينبغي أن يكون غير الجزاء من حيث
كان الشرط سبباً والجزاء مسبباً، وأنه محال أن يكون الشيء سبباً لنفسه،
فلولا أن المعنى في أحسنتم الثانية غير المعنى في الأولى وأنها في حكم فعل
ثاني لما ساء ذلك، كما لا يسوغ أن تقول: إن قمْتُ قمت وإن خرجْتُ خرجت.
ومثله من الكلام قوله: «المرءُ بأصغريه إن قال قال ببيانٍ وإن صالَ صالَ بجنانٍ»
ويجري ذلك في الفعلين قد عُذِّي جميعاً إلّا أن الثاني منهما قد تعدّى إلى شيء
زائد على ما تعدّى إليه الأول؛ ومثاله قولك: «إن أتاك زيدٌ أتاك لحاجة». وهو
أصلٌ كبير والأدلة على ذلك كثيرة، ومن أولاهما بأن يحفظ أنك ترى البيت قد

استحسنه الناس وقَصَّوا لقائله بالفضل فيه وبأنه الذي غاص على معناه بفكره، وأنه أبو عُذْره ثم لا ترى الحسن وتلك الغرابة كانا إلا لما بناه على الجملة دون نفس الجملة. ومثال ذلك قول الفرزدق^(١):

وما حَمَلْتُ أُمَّ امرئٍ في ضُلُوعِهَا أعقَّ من الجاني عليها هجائباً

فلولا أن معنى الجملة يصيرُ بالبناء عليها شيئاً غير الذي كان ويتغير في ذاته لكان محالاً أن يكون البيت بحيث تراه من الحُسْنِ والمزِيَّةِ، وأن يكون معناه خاصاً بالفرزدق، وأن يقضي له بالسبق إليه، إذ ليس في الجملة التي بُني عليها ما يوجب شيئاً من ذلك، فاعرفه.

والنكتة التي يجب أن تُراعى في هذا أنه لا تبيين لك صورة المعنى الذي هو معنى الفرزدق إلا عند آخر حرفٍ من البيت [١٧١ ب]، حتى إن قطعت عنه قوله هجائياً بل الياء التي هي ضمير الفرزدق لم يكن الذي تعقله منه مما أراده الفرزدق بسبيل، لأن غرضه تهويلُ أمر هجائه والتحذيرُ منه وأن من عَرَضَ أمه له كان قد عَرَضَها لأعظم ما يكون من الشرِّ وكذلك حكمُ نظائره من الشُّعْرِ. فإذا نظرت إلى قول القُطامي^(٢):

فهنَّ يَنْبِذْنَ من قولٍ يُصَبِّنَ به مَوَاقِعَ المَاءِ من ذي الغُلَّةِ الصَّادي

وجدتُك لا تحصلُ على معنى يصحُّ أن يقال إنه غرضُ الشاعر ومعناه إلا عند قوله «ذي الغلة» ويزيدك استبصاراً فيما قلناه أن تنظر فيما كان من الشعرِ جملاً قد عُطِفَ بعضها على بعضٍ بالواو كقوله^(٣):

(١) ديوان الفرزدق ٢/٨٩٦

(٢) البيت من قصيدة في ديوانه ٨١

- ينبذن أي يرمين به، يتكلمن. والغلة: الحرارة.

وهو من قصيدة في مدح زفر بن الحارث، من المقدمة الغزلية.

والشاعر هو عمير بن شميم التغلبي المعروف بـ (القطامي). كان نصرانياً وأسلم. (راجع

مقدمة الديوان)، والأغاني ٢٣ - ١٧٤

(٣) البيت للمرقش الأكبر (وشعره هذا في المفضليات ٢٣٨).

النَّشْرُ مِسْكٌ والوجوه دنا نِيرٌ وأطرافُ الأكفِّ عَنَمٌ

وذلك أنك ترى الذي تعقله من قوله: «النَّشْرُ مِسْكٌ» لا يصير بانضمام قوله: «الوجوه دنانير»، إليه شيئاً غير الذي كان بل تراه باقياً على حاله. كذلك ترى ما تعقل من قوله: «الوجوه دنانير» لا يلحقه تغيير بانضمام قوله: «وأطرافُ الأكفِّ عَنَمٌ» إليه.

وإذ قد عرفت ما قرّرناه من أنَّ من شأنِ الجملة أن يصير معناها بالبناء عليها شيئاً غير الذي كان وأنه يتغير في ذاته فاعلم أن ما كان من الشَّعر مثل بيت بشار^(١):

كَأَنَّ مِثَارَ النِّقْعِ فَوْقَ رُؤُوسِنَا وَأَسْيَافُنَا لَيْلٌ تَهَاوَى كَوَاكِبَهُ
وقول امرئ القيس^(٢):

كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رُطْباً وَيَابِساً لَدَى وَكْرَهَا الْعُنَابُ وَالْحَشَفُ الْبَالِي
وقول زياد^(٣):

وإِنَّا وَمَا تُلْقِي لَنَا إِنْ هَجَوْتَنَا لَكَالْبَحْرِ مَهْمَا يُلْقَى فِي الْبَحْرِ يَفْرَقُ

كان له مزية على قول الفرزدق فيما ذكرنا لأنك تجد في صدر بيت الفرزدق جملة تؤدي معنى وإن لم يكن معنى يصح أن يقال: «إنه معنى فلان»، ولا تجد في صدر هذه الأبيات ما يصح أن يعدّ جملة تؤدي معنى فضلاً عن أن تؤدي معنى يقال إنه معنى فلان. ذاك لأن قوله: «كَأَنَّ مِثَارَ النِّقْعِ.. إلى: وأسيفنا» جزء واحد و«ليل تهاوى كواكبه» بجملة الجزء الذي ما لم تأت به لم تكن قد أتيت

(١) من قصيدة مشهورة لبشار (الديوان ٣١٨/١).

(٢) ديوان امرئ القيس ٣٨

(٣) البيت لزياد الأعجم (الأغاني ٣١٧/١٥) وهو ثاني بيتين قالهما زياد للفرزدق، وقبله:

وما ترك الهاجون لي أن هجوته مصححاً أراه في أديم الفرزدق

- والشاعر هو زياد بن سليمان مولى عبد القيس. وكان ينزل اصطخر (فغلبت العجمة على لسانه، فقليل له الأعجم). وانظر (شعر زياد الأعجم ١٥٢).

بكلام [١٧٢ أ]. وهكذا سبيلُ البيتَيْن الأخيرين. فقلوه: «كأن قلوبَ الطير رطباً وبأساً لدى وكرها» جزء، وقلوه: «العناب والحشف البالي» الجزء الثاني. وقلوه:

❁ وإنما وما تلقى لنا إن هجوتنا ❁

جزء، وقلوه: «الكالبحر» الجزء الثاني. وقلوه: «مهما تلقى في البحر يغرق» وإن كان جملةً مستأنفة ليس لها في الظاهر تعلق بقلوه: «الكالبحر»، فإنها لما كانت مبيّنة لحال هذا التشبيه صارت كأنها متعلّقة بهذا التشبيه، وجرى مجرى أن تقول: «الكالبحر في أنه لا يُلقى فيه شيء إلا غرق».



فصل

[في الألفاظ المفردة والوضع والنظم]

وإذا ثَبَّتَ أن الجملة إذا بُني عليها حَصَلَ منها وَمِنَ الذي بُني عليها في الكثير معنى يجب فيه أن ينسَبَ إلى واحد مخصوص، فإن ذلك يقتضي لا محالة أن يكونَ الخبر في نفسه معنى هو غيرُ المخبر به والمخبر عنه. ذاك لعلنا باستحالة أن يكون للمعنى المخبر به نسبةٌ إلى المخبر، وأن يكون المستنبط والمستخرج والمستعانَ على تصويره بالفكر، فليس يَشْكُ عاقلٌ أنه محال أن يكون للحمل في قوله :

❁ وما حملت أم امرئ في ضلوعها ❁

نسبة إلى الفرزدق وأن يكون الفكر منه كانَ فيه نفسه، وأن يكون معناه الذي قيل إنه استنبطه واستخرجه وغاص عليه. وهكذا السبيل أبداً لا يتصوّر أن يكون للمعنى المخبر به نسبةٌ إلى الشاعر وأن يبلغ من أمره أن يصير خاصاً به، فاعرفه.

ومن الدليل القاطع فيه ما بيّناه في الكناية والاستعارة والتمثيل، وشرحناه من أن من شأن هذه الأجناس أن توجِبَ الحسنَ والمزية، وأن المعاني تتصوّر من أجلها بالصور المختلفة، وأن العلمَ بإيجابها ذلك ثابتٌ في العقول، ومركوزٌ في غرائزِ النفوس، وبيّنا كذلك أنه محال أن تكونَ المزايا التي تحدث بها حادثة في المعنى المخبر به المثبت أو المنفي لعلنا باستحالة أن تكونَ المزية التي

تجدّها لقولنا: «هو طويلُ النجاد» على قولنا: «طويلُ القامة» في الطول، والتي
تجدّها لقولنا: «هو كثيرُ رمادِ القدر» على قولنا: «هو كثيرُ القرى والضّيافة» في
كثرة القرى. وإذا كان ذلك محالاً ثبت أن المزية والحُسن يكونان في إثبات
ما يراد أن يوصفَ به المذكور والإخبار به عنه. وإذا ثَبَتَ ذلك ثَبَتَ أن الإثبات
معنى لأن حصولَ المزية والحسن فيما ليس بمعنى محال.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وبه ثقتي وعليه اعتمادادي^(١)

اعلم أن ها هنا أصلاً أنت ترى الناس فيه في صورة من يعرف من جانب وينكر من آخر، وهو أن الألفاظ المفردة التي هي أوضاع اللغة لم توضع لتعرف معانيها في أنفسها ولكن لأن يُضَمَّ بعضها إلى بعض فيعرف فيما بينها فوائد، وهذا علم شريف، وأصل عظيم. والدليل على ذلك أنا إن زعمنا أن الألفاظ التي هي أوضاع اللغة إنما وضعت ليعرف بها معانيها في أنفسها لأدّى ذلك إلى ما لا يشك عاقل في استحالة، وهو أن يكونوا قد وضعوا للأجناس الأسماء التي وضعوها لها لتعرفها بها حتى كأنهم لو لم يكونوا قالوا: «رجل وفسر ودار» لما كان يكون لنا علم بمعانيها، وحتى لو لم يكونوا قالوا: فعل ويفعل، لما كنا نعرف الخبر في نفسه ومن أضله، ولو لم يكونوا قد قالوا: افعل، لما كنا نعرف الأمر من أصله ولا نجده في نفوسنا، وحتى لو لم يكونوا قد وضعوا الحروف لكنا نجهل معانيها فلا نعقل نفيًا ولا نهياً ولا استفهاماً ولا استثناء. وكيف والمواضعة لا تكون ولا تتصور إلا على معلوم، فمحال أن يوضع اسم أو غير اسم لغير معلوم، ولأن المواضعة الإشارة فكما أنك إذا قلت: خذ ذاك، لم تكن هذه الإشارة لتعرف السامع المشار إليه في نفسه ولكن ليعلم أنه المقصود من بين سائر الأشياء التي تراها وتبصرها، كذلك حكم اللفظ مع

(١) تبدأ هنا فقرة سقطت من (أ).

ما وضع له. ومَنْ هذا الذي يَشْكُ أنا لم نَعْرِفَ الرجلَ والفرسَ والضربَ والقتلَ إلا من أساميهما؟ لو كان لذلك مساعٌ في العقل لكان ينبغي إذا قيل: زيد، أن تعرف المسمى بهذا الاسم من غير أن تكون قد شاهدته أو ذُكر لك بصفة.

وإذا قلنا في العِلْمِ واللغاتِ من مبتدأ الأمر إنه كان إلهاماً فإنَّ الإلهام في ذلك إنما يكون بين شيئين يكون أحدهما مثبتاً والآخر مثبتاً له، أو يكون أحدهما منفيّاً والآخر منفيّاً عنه، وأنه لا يتصور مثبتٌ من غير مثبتٍ له ومنفيٌّ من غير منفيٍّ عنه. فلما كان الأمر كذلك أوجب ذلك أن لا يعقل إلا من مجموع جملة فعلٍ واسمٍ كقولنا: خرج زيد. أو اسمٍ واسمٍ كقولنا: زيدٌ خارج. فما عقلناه منه وهو نسبة الخروج إلى زيد لا يرجع إلى معاني اللغات، ولكن إلى كون ألفاظ اللغات سماتٍ لذلك المعنى وكونها مرادة بها. أفلا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٣١/٢] أفترى أنه قيل لهم: أنبئوني بأسماء هؤلاء، وهم لا يعرفون المشار إليهم بهؤلاء؟

ثم إننا إذا نظرنا في المعاني التي يصفها العقلاء بأنها معاني مستنبطة، ولطائف مستخرجة، ويجعلون لها اختصاصاً بقائلٍ دون قائلٍ، كمثلي قولهم في معاني من الشعر: إنه معنى لم يسبق إليه فلان، وإنه الذي فطن له واستخرجه، وإنه الذي غاص عليه بفكره، وإنه أبو عُذره. لم تجد تلك المعاني في الأمر الأعم شيئاً غير الخبر الذي هو إثباتُ المعنى للشيء ونفيه عنه. يدلك على ذلك أنا لا ننظرُ إلى شيء من المعاني الغريبة التي تختصُّ بقائلٍ دون قائلٍ إلا وجدت الأصلَ فيه والأساسَ الإثباتَ والنفي وإن أردت في ذلك مثلاً فانظر إلى بيت الفرزدق^(١):

وما حملتُ أمَّ امرئٍ في ضُلُوعِها أعقَّتْ مِنَ الجاني عليها هِجائيا
فلأنك إذا نظرتَ لم تشكَّ في أن الأصلَ والأساسَ هو قوله: «وما حملتُ أم

امري» وأن ما جاوزَ ذلك مِن الكلمات إلى آخر البيت مستند [إليه] ومبني عليه،
وأنتك إن رفعتَه لم تجدَ لشيء منها بياناً، ولا رأيتَ لذكرها معنى، بل ترى ذكرَكَ
لها إن ذكرتها هذياناً، والسبب الذي من أجله كان كذلك أن من حكم كل ما عدا
جُزْأَي الجملة: الفعل والفاعل والمبتدأ والخبر أن يكون تحقيقاً للمعنى المثبت
والمنفي، فقولُه: في ضلوعِها؛ يفيدُ أولاً أنه لم يُردْ نفي الحمل على الإطلاق
ولكن الحملَ في الضلوع. وقولُه: أعق؛ يفيد أنه لم يُردْ هذا الحمل الذي هو
حملٌ في الضلوع أيضاً على الإطلاق ولكن حملاً في الضلوع محموله أعق من
الجاني عليها هجاءه. وإذا كان ذلك كله تخصيصاً للحمل لم يتصور أن يُعقل من
دون أن يعقل نفي الحمل، لأنه لا يتصور تخصيص شيء لم يدخل في نفي
ولا إثبات ولا ما كان في سبيلهما من الأمر به والنهي عنه والاستخبار عنه.

وإذا قد ثبت أن الخبرَ وسائر معاني الكلام معانٍ يُنشئها الإنسان في نفسه،
ويصرفها في فكره، ويناجي بها قلبه، ويراجع فيها لُبّه، فاعلم أن الفائدة في
العلم بها واقعة من المنشئ لها، صادرة عن القاصِد إليها، وإذا قلت في الفعل
إنه موضوع للخبر لم يكن المعنى فيه أنه موضوع لأن يعلم به الخبر في نفسه
وجنسه ومن أصله وما هو، ولكن المعنى أنه موضوع حتى إذا ضُمَّتْهُ إلى اسمٍ
عُقل منه ومن الاسم أن الحكمَ بالمعنى الذي اشتق ذلك الفعل منه على مسمى
ذلك الاسم واقع منك أيها المتكلم^(١).



(١) ينتهي النقص من (أ) وهنا.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[فصل]

تحليلي للنظم

اعلم أنك لن ترى عجباً أعجبَ من الذي عليه الناسُ في أمرِ النظم، وذلك أنه ما من أحدٍ له أدنى معرفة إلا وهو يعلم أن ههنا نظماً أحسنَ من نظم، ثم تراهم إذا أنت أردت أن تُبصِّرهم ذلك تَسْدُرُ أعينهم^(١)، وتضلُّ عنهم أفهامُهم وسبب ذلك أنهم أوَّل شيء عَدِمُوا العلمَ به نفسه من حيث حَسِبُوهُ شيئاً غير توخّي معاني النحو، وجعلوه يكونُ في الألفاظِ دونَ المعاني، فانتِ تلقي الجهدَ حتى تُمِيلَهم عن رأيهم، لأنَّك تُعالج مَرَضاً مزمنًا، وداءً متمكِّناً، ثم إذا أنتَ قدتَهم بالخِزائم^(٢) إلى الاعترافِ بأن لا معنى له غير توخّي معاني النحو عرضَ لهم من بعدُ خاطراً يدهِشُهم، حتى يكادوا يَعُودُونَ إلى رأسِ أمرهم، وذلك أنَّهم يروننا ندّعي المزيةَ والحسنَ لنظمِ كلامٍ من غير أن يكونَ فيه من معاني النحو شيء يتصوَّر أن يتفاضَلَ الناسُ في العلمِ به، ويروننا لا نستطيع أن نضعَ اليدَ من معاني النحو ووجوهِهِ على شيء نزعِم أن من شأن

(١) سدر بصره: لم يكدر يُبصر.

(٢) الخِزائم جمع الخِزامة وهي حلقةٌ من شعر يُشدُّ بها الزَّمامُ.

هذا أن يوجبَ المزيةَ لكلِّ كلامٍ يكونُ فيه، بل يرونا ندَّعي المزيةَ لكلِّ ما ندَّعيها له من معاني النحو ووجوهه وفروقه في موضعٍ دونَ موضعٍ، وفي كلامٍ دونَ كلامٍ، وفي الأقلِّ دونَ الأكثرِ، وفي الواحدِ من الألفِ، فإذا رأوا الأمرَ كذلك دخلتهم الشبهةُ، وقالوا كيف يصيرُ المعروفُ مجهولاً، ومن أين يتصوّر أن يكونَ للشيء في كلامٍ مزيةٌ عليه في كلامٍ آخرَ بعد أن تكونَ حقيقتهُ فيهما حقيقةً واحدة؟ فإذا رأوا التنكير يكون فيما لا يُحصى من المواضع ثم لا يقتضي فضلاً، ولا يوجبُ مزيةً اتهمونا في دعوانا ما ادَّعينا لتنكير الحياة في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩/٢] من أنَّ له حُسنًا ومزيةً، وأن فيه بلاغةً عجيبةً، وظنُّوه وهماً منا وتخيلاً، ولمنا نستطيع في كشفِ الشبهة في هذا عنهم، وتصويرِ الذي هو الحقُّ عندهم، ما استطعناه في نفسِ النظم، لأننا ملكنا في ذلك أن نضطرَّهم إلى أن يعلموا صِحَّةَ ما نقولُ، وليس الأمر في هذا كذلك، فليس الداءُ فيه بالهين. ولا هو بحيثُ إذا رمتَ العلاجَ منه وجدتَ الإمكانَ فيه مع كلِّ أحدٍ مسعفاً، والسعي منجحاً، لأنَّ المزايا التي تحتاج أن تُعلِّمهم مكانها، وتصوِّر لهم شأنها، أمورٌ خفية، ومعانٍ روحانية، أنت لا تستطيع أن تنبه السامع لها، وتحدِّث له علماً بها، حتَّى يكونَ مهياً لإدراكها، وتكونَ فيه طبيعة قابلة لها، ويكونَ له ذوقٌ وقريحة يجد لهما في نفسه إحساساً بأنَّ من شأنِ هذه الوجوه والفروق أن تعرض فيها المزية على الجملة، وممَّن إذا تصفَّح الكلامَ وتدبَّر الشُّعرَ فرَّق بين موقعِ شيءٍ منها وشيءٍ وممن إذا أنشدته قوله^(١):

لي منك ما للناس كلهم نظرٌ وتسلُّيمٌ على الطُّرُقِ
وقول البحرى^(٢):

وسأستقلُّ لك الدموعَ صبايةً ولَوْ أنَّ دجلةً لي عليك دموعُ

(١) لم يرد في ما بين أيدينا من مصادر.

(٢) البيت للبحري في ديوانه ١٣١٥/٢ من قصيدة في وداع إبراهيم بن الحسن حين خرج

من البصرة.

وقوله^(١):

رَأَتْ مَكْنَاتَ الشَّيْبِ فَابْتَسَمَتْ لَهَا وَقَالَتْ نَجُومٌ لَوْ طَلَعْنَ بِأَسْعَدِ

وقول أبي نواس^(٢):

رَكِبْتُ نَسَاقُوا عَلَى الْأَكْوَارِ بَيْنَهُم كَأْسَ الْكَرَى فَاَنْتَشَى الْمُسْقِيَّ وَالسَّاقِي

كَأَنَّ أَعْنَاقَهُمُ وَالنَّوْمُ وَاضِعُهَا عَلَى الْمَنَاكِبِ لَمْ تُغْمَذْ بِأَعْنَاقِ

وقوله^(٣):

يَا صَاحِبِيَّ عَصَيْتُ مَضْطَبِحَا وَغَدَوْتُ لِلذَّاتِ مُطَّرِحَا

فَتَزَوَّدُوا مِنِّي مُحَادَثَةً حَذَرُ الْعَصَا لَمْ يُبْقِ لِي مَرَحَا

وقول إسماعيل بن يسار^(٤):

حَتَّى إِذَا الصَّبْحُ بَدَأَ ضَوْؤُهُ وَغَابَتْ الْجُوزَاءُ وَالْمَرْزُومُ

خَرَجْتُ وَالْوِطْءُ خَفِيَ كَمَا يَنْسَابُ مِنْ مَكْمَنِهِ الْأَرْقُمُ

أُنْقَ لَهَا، وَأَخَذَتْهُ أَرِيحِيَّةٌ عِنْدَهَا، وَعَرَفَ لَطْفَ مَوْجِعِ الْحَذْفِ وَالتَّنْكِيرِ فِي

قوله:

(١) ديوان البحري ٧٧١/٢ من قصيدة في مدح أحمد بن المدبر.

- ومكنات جمع مكنة: (بيض الجراد ونحوها) شبه به الشيب لبياضه وكثرته.

- وروى في الديوان: رأت فلتات الشيب.

(٢) ديوان أبي نواس ٢٨٥

(٣) ديوان أبي نواس ٥٩

(٤) البيتان لإسماعيل بن يسار في الأغاني ٤/١٨ وهو شاعر أموي، ولم يدرك الدولة العباسية. قال أبو الفرج: وكان مليح الشعر، وكان كالمنقطع إلى (مديح) عروة بن الزبير.

وهما من قصيدة وردت في شعر إسماعيل بن يسار (٥١ - ٥٢). في آخر القصيدة

(البيتان ١٥، ١٦ البيت الثاني ثمة: وغارت الجوزاء...).

❁ نظر وتسليم على الطرق ❁

وما في قول البحرى: «لي عليك دموع» من شبه السحر، وأن ذلك من أجل تقديم «لي» على «عليك» ثم تنكير الدموع، وعرف كذلك شرف قوله:

❁ وقالت نجوم لو طلعتن بأسعد ❁

وعلو طبقته، ودقة صنيعة. والبلاء، والداء العياء أن هذا الإحساس قليل في الناس، حتى إنه ليكون أن يقع للرجل الشيء من هذه الفروق والوجوه في شعره يقول أو رسالة يكتبها الموقع الحسن ثم لا يعلم أنه قد أحسن، فأما الجهل بمكان الإساءة فلا تقدمه. فلست تملك إذاً من أمرك شيئاً حتى تظفر بمن له طبع إذا قدحت وري، وقلب إذا أريته رأى، فأما وصاحبك من لا يرى ما تريه، ولا يهتدي للذي تهديه، فأنت رام معه في غير مرمى، ومعن نفسك في غير جذوى، وكما لا تقيم الشعر في نفس من لا ذوق له، كذلك لا تفهم هذا الشأن من لم يؤت الآية [١٧٤] التي بها يفهم، إلا أنه إنما يكون البلاء إذا ظن العادم لها أنه أوتىها، وأنه ممن يكمل للحكم، ويصح منه القضاء، فجعل يقول القول لو علم غيّه لاستحيا منه. فأما الذي يحسن بالنقص من نفسه، ويعلم أنه قد علم علماً قد أوتيه من سواه، فأنت منه في راحة، وهو رجل عاقل قد حماه عقله أن يعدو طوره، وأن يتكلف ما ليس بأهل به.

وإذا كانت العلوم التي لها أصول معروفة، وقوانين مضبوطة، قد اشترك الناس في العلم بها، واتفقوا على أن البناء عليها، إذا أخطأ فيه المخطئ ثم أعجب برأيه لم يستطع رده عن هواه، وصرفه عن الرأي الذي رآه، إلا بعد الجهد، وإلا بعد أن يكون حصيلاً عاقلاً ثباتاً إذا نبه انتبه، وإذا قيل إن عليك بقية من النظر وقف وأصغى، وخشي أن يكون قد غر فاحتاط باستماع ما يقال له، وأنف من أن يلج من غير بينة، ويطلق بغير حجة؛ وكان من هذا وصفه يعز ويقل، فكيف بأن ترد الناس عن رأيهم في هذا الشأن، وأصلك الذي تردهم إليه، وتعوّل في محاجّتهم عليه استشهاد القرائح وسبر النفوس وفليها، وما يعرض فيها من الأريحية عندما تسمع، وكان ذلك الذي يفتح لك سمعهم،

ويَكْشِفُ الغطاءَ عن أعينهم، وَيَضْرِفُ إليك أوجهَهُم، وهم لا يضعون أنفسهم موضعَ مَنْ يرى الرأي ويفتي وَيَقْضِي إلّا وعندهم أنهم ممن صَفَتْ قريحته، وصَحَّ ذوقه وتَمَّتْ أداؤه.

فإذا قلتَ لهم: «إنكم قد أتيتم من أنفسكم» رَدُّوا عليك مثله وقالوا: «لا بل قرائننا أصحُّ، ونظرنا أصدق، وحسنا أذكى! وإنما الآفة فيكم لأنكم خَلَّيْتُمْ إلى نفسِكُم أموراً لا حاصلَ لها، وأوهمكم الهوى والميلُ أن توجبوا لأحد النظمين المتساويين فضلاً على الآخر من غير أن يكون ذلك الفضلُ معقولاً» فتبقى في أيديهم حسيراً لا تملك غير التعجُّب، فليس الكلامُ إذن بمغْنٍ عنك، ولا القولُ بِنافع، ولا الحجَّةُ مسموعةٌ، حتى تجد مَنْ فيه عونٌ لك على نفسه، ومن أتى عليك، أبى ذاك طبعه فرَّده إليك، وفَتَحَ سَمْعَه لك، ورفعَ الحجابَ بينك وبينه، وأخذَ به إلى حيثُ أنت، وصرفَ ناظرَه إلى الجهة التي إليها أومأت، فاستبدلَ بالنفارِ أنساً، وأراكِ مِنْ بعد الإباءِ قبولاً. ولم يكن الأمر على هذه الجملة إلّا لأنه ليس في أصنافِ العلوم الخفية، والأمور الغامضة الدقيقة، أعجبُ طريقاً في الخفاء من هذا، وإنك لتتعبُ في الشيء نفسك وتكدُّ فيه فكرَكَ، وتجهد فيه كلَّ جَهْدِكَ، حتى إذا قلتَ قد قَتَلْتُهُ علماً، وأحكمتُه فهماً، كنتَ الذي لا يزال يتراءى لك فيه شبهةٌ، ويعرضُ فيه شكٌّ، كما قال أبو نواس^(١):

ألا لا أرى مثلَ امترائي في رسمٍ تغصُّ به عيني ويلفظه وهمي
أنتَ صوَرُ الأشياءِ بيني وبينه فظنني كلا ظنٍ وعلمي كلا علمٍ
وإنك لتنظرُ في البيتِ دهرأً طويلاً وتفسره ولا ترى أن فيه شيئاً لم تعلمه ثم

(١) ديوان أبي نواس ٨٧ من مطلع قطعة غزلية وهما فيه:

ألا لا أرى مثلي امترى اليوم في رسم تغصُّ به عيني ويلفظه وهمي
أنتَ صوَرُ الأشياءِ بيني وبينه فجهلني كلا جهلٍ وعلمي كلا علم!

وانظر الديوان بشرح الصولي (طبعة بغداد) ٢٨١

يبدو لك فيه أمر خفي لم تكن قد علمته، مثال ذلك بيت المتنبي^(١):

عجباً له حَفِظَ العنانَ بأنمِلِ ما حَفِظَها الأشياءُ من عاداتِها

مضى الدهرُ الطويلُ ونحن نقرؤه فلا ننكرُ منه شيئاً، ولا يقع لنا أن فيه خطأ ثم بان بأخراً أنه قد أخطأ. وذلك أنه كان ينبغي أن يقول: «ما حفظ الأشياء من عاداتِها» فيضيف المَصَدَر إلى المفعول فلا يذكرُ الفاعلَ، ذاك لأن المعنى على أنه ينفي الحِفْظَ عن أنامله جُملةً، وأنه يزعم أنه لا يكونُ منها أصلاً، وإضافته الحِفْظَ إلى ضميرها في قوله: «ما حفظها الأشياء» يقتضي أن يكون قد أثبت لها حِفْظاً.

ونظيرُ هذا أنك تقول: «ليس الخروجُ في مثلِ هذا الوقتِ من عاداتي» ولا تقول: «ليس خروجي في مثل هذا الوقت من عاداتي» وكذلك تقول: «ليس ذمُّ الناس من شأني» ولا تقول: «ليس ذمي الناس من شأني» لأن ذلك يوجب إثبات الذم ووجوده منك.

ولا يصحُّ قياسُ المصدر في هذا على الفعل أعني لا ينبغي أن يُظَنَّ أنه كما يجوز أن يقال: «ما من عاداتها أن تحفظ الأشياء»، كذلك ينبغي أن يجوز: «ما مِنْ عاداتها حفظُها الأشياء» ذاك أنَّ إضافة المصدر إلى الفاعل يقتضي وجوده وأنه قد كان منه. يبين ذلك أنك تقول: «أمرْتُ زيداً بأن يخرج غداً» ولا تقول: «أمرته بخروجه غداً».

ومما فيه خطأ هو في الخفاء قوله^(٢):

ولا تَشْكُ إلى خَلْقٍ فتَشْمِتُهُ شكوى الجريحِ إلى الغربانِ والرخمِ

وذلك أنك إذا قلت: «لا تضجّر ضجر زيد»، كنت قد جعلت زيدا يضجر ضرباً من الضجر مثل أن تجعله يفرط فيه أو يسرع إليه. هذا هو موجبُ العرفِ

(١) ديوان المتنبي ١٢٧/٢

(٢) البيت لأبي الطيب المتنبي (الديوان ٢٩٥/٤).

- والغربان جمع غراب، والرخم جمع رخمة، وهو طائر من الجوارح الخسيسة.

ثم إن لم تعتبر خصوصَ وصفٍ فلا أقل من أن تجعلَ الضجر على الجملة من عادته وأن تجعله قد كان منه. وإذا كان كذلك اقتضى قوله:

❁ شكوى الجريح إلى الغربان والرخم ❁

أن يكونَ ها هنا جريح قد عرف من حاله أنه يكون له شكوى إلى الغربان، والرخم، وذلك محال. وإنما العبارة الصحيحة في هذا أن يقال: لا تُشكَّ إلى خلق فإنك إن فعلتَ كان مثلُ ذلك مثلَ أن تصوّر في وَهْمِكَ أن بعيراً ذَبِراً^(١) كَشَفَ عن جرحه، ثم شكاه إلى الغربان والرخم.

ومن ذلك أنك ترى من العلماء مَنْ قد تأوّل في الشيء تأويلاً، وقضى فيه بأمر فتعتمده أتباعاً ولا ترتأّب أنه على ما قَضَى وتأوّل، وتبقى على ذلك الاعتقاد الزمان الطويل [١٧٥ ب]، ثم يلوح لك ما تعلم به أن الأمر على خلاف ما قدر.

ومثال ذلك أن أبا القاسم الأمدى ذكرَ بيت البحرى^(٢):

فصاعٌ ما صاعٌ من يَبَرٍ ومن وَرَقٍ وحاكٌ ما حاكٌ من وَشْيٍ وديباج

ثم قال: «صوغُ الغيث وحوكُه للنبات ليس باستعارة بل هو حقيقة. ولذلك لا يقال: هو صائغ ولا كأنه صائغ»، وكذلك لا يقال: هو حائك وكأنه حائك، قال: على أن لفظ حائك في غاية الركاسة إذا أخرج على ما أخرجه أبو تمام في قوله^(٣):

إذا الغيثُ غادى نسجه خِلْتُ أَنَّهُ خَلْتُ حُقُبَ حرسٍ له وهو حائكٌ

قال: وهذا قبيحٌ جداً. والذي قاله البحرى: «فحاكٌ ما حاكٌ» حسنٌ مستعملٌ. والسببُ في هذا الذي قاله إنه ذهب إلى أن غرضَ أبي تمام أن يقصِدَ بـ «خلت» إلى الحوكِ وأنه أرادَ أن يقولَ: «خلتُ الغيثَ حائكاً» وذلك سهوٌ منه

(١) البعير الدبّر الذي أصابته (الدبرة) وهي قرحة الدواب والجرح يكون من الرّخل وغيره.

(٢) ديوان البحرى ٤١١/١

(٣) ديوان أبي تمام ٤٥٩/٢ من قصيدة يمدح بها إسحاق بن كنداج.

لأنه لم يقصد بـ «خلت» إلى ذلك. وإنما قصد أن يقول: إنه يظهر في غداة يوم من حوك الغيث ونسجه بالذي ترى العيون من بدائع الأنوار، وغرائب الأزهار، ما يتوهم منه أن الغيث كان في فعل ذلك وفي نسجه وحوكه حقباً من الدهر، فالحيلولة واقعة على كَوْنِ زمانِ الحوك حقباً لا على كون ما فعله الغيث حوكاً فاعرفه.

ومما يدخل في ذلك ما حكي عن الصاحب^(١) من أنه قال: كان الأستاذ أبو الفضل^(٢) يختار من شعر ابن الرومي وينقظ عليه، قال: فدفع إلي القصيدة التي أولها^(٣):

❁ أتحت ضلوعي جمرة تتوقد ❁

وقال: تأملها فتأملتها فكان قد ترك خير بيت فيها، وهو^(٤):

بِجَهْلٍ كَجَهْلِ السَّيْفِ وَالسَّيْفِ مُتَنَضًى وَحِلْمٍ كَحِلْمِ السَّيْفِ وَالسَّيْفِ مُفْعَدٌ

(١) هو إسماعيل بن عبّاد الطالقاني (٣٢٦ - ٣٨٥) كاتب من مترسلي القرن الرابع. له شعر، وشيء من النثر. وشارك في التأليف فلم يجار رجال عصره. تولّى الوزارة مدة طويلة، ولقب بالصاحب لطول صحبته ابن العميد (وقيل غيره). وأسرف بعض معاصريه في الثناء عليه، ولكن أبا حيان التوحيدي صنف كتاباً فيه وفي أبي الفضل بن العميد سماه (مثالب الوزيرين). ووصف فيه الصاحب بأوصاف غريبة عجيبة.

(وفيات الأعيان ١/٢٢٨، معجم الأدباء ٦/١٦٨).

(٢) أبو الفضل محمد بن الحسين، الكاتب المعروف بابن العميد والعميد لقب والده. وكان أبو الفضل وزير ركن الدولة أبي علي الحسن بن بويه. وكان يقال له: «الأستاذ» قال فيه ابن خلكان: كان سائساً، مدبراً للملك، قائماً بحقوقه. وهو توفي سنة ٣٦٠ هـ وللمتنبي قصائد في مدحه.

(وفيات الأعيان ٥/١٠٣، وبيمة الدهر ٣/١٥٨).

(٣) القصيدة في ديوان ابن الرومي ٢/٤٨٤ وهي في مدح صاعد بن مخلد. وفيه: «أين ضلوعي...».

(٤) الديوان ٥٩٠

[١٧٦ أ] فقلتُ: لِمَ ترك الأستاذ هذا البيت؟ فقال: لعلَّ القلمَ تجاوزَه. قال: ثم رآني من بُعدٍ فاعتذر بعذر كان شراً من تركه قال: إنما تركته لأنه أعاد السيف أربع مرات. قال الصاحب: «لو لم يُعَدَّ أربعَ مراتٍ فقال: بجهل كجهل السيف وهو منتضى وحلم كحلم السيف وهو مغمَد لفسد البيت».

والأمر كما قال الصاحب. والسببُ في ذلك أنك إذا حدثتَ عن اسمٍ مضاف ثم أردتَ أن تذكرَ المضافَ إليه، فإن البلاغةَ تقتضي أن تذكره باسمه الظاهر ولا تُضمِّره، وتفسيرُ هذا أن الذي هو الحسنُ الجميلُ أن تقولَ: «جاءني غلامُ زيدٍ وزيدٌ» ويقبح أن تقولَ: «جاءني غلامُ زيدٍ وهو» ومن الشاهد في ذلك قول دُعيل^(١):

أضيافُ عمرانَ في خِضْبٍ وفي سَعَةٍ وفي حباءٍ وخيرٍ غيرِ مَمْنوعٍ
وضيفُ عمرو وعمرو يسهرانِ معاً عمرو لبطنَتِه والضيفُ للجوعِ
وقول الآخر^(٢):

وإن طُرَّةً راقَتِكَ فانظر فربما أمرٌ مذاقُ العودِ والعودُ أخضرُ
وقول المتنبي^(٣):

بِمَنْ نُضْرِبُ الأمثالَ أم مَنْ نَقِيسُهُ إليك وأهلُ الدَّهْرِ دونَكَ والدهرُ

ليس بخفي على مَنْ لَهُ ذوقٌ أنه لو أتى موضع الظاهر في ذلك كلّه بالضمير فقل: وضيفُ عمرو وهو يسهرانِ معاً، وربما أمرٌ مذاقُ العودِ وهو أخضرُ، وأهلُ الدهرِ دونَكَ وهو؛ لعدمِ حسنٍ ومزيةٍ لا خفاءَ بأمرهما، ليس لأن الشعرَ

(١) نقلها في ديوان دُعيل ٣٠٨، وجعلها في الشعر المتداخل التسمية.

(٢) الشعر لخالِد بن صفوان الأهمشي، (توفي نحو ١٣٣) من فصحاء العرب المشهورين، أمويّ، له خطب، وكلمات مشهورة مأثورة، ومشاركة في نظم الشعر.

(٣) ديوان أبي الطيب ٥٨ وفيه:

بِمَنْ نُضْرِبُ الأمثالَ أم مَنْ أَقِيسُهُ إليك وأهلُ الدَّهْرِ دونَكَ والدهرُ

يَنْكَسِرُ ولكن تنكره النفس. وقد يرى في بادئ الرأي أَنَّ ذلك من أَجْلِ اللَّبْسِ، وأَنَّكَ إِذَا قُلْتَ: جاءني غلام زيد وهو؛ كان الذي يقع في نفس السامع أَنَّ الضمير للغلام، وَأَنَّكَ على أَنَّ تجيء له بخبر، إِلَّا أَنَّهُ لَا يَسْتَمِرُّ مِنْ حَيْثُ إِنَّا نقول: جاءني غلمانُ زيد وهو، فتجد الاستنكار وتُبَوِّ النَّفْسُ مع أَنَّ لَا لبس مثل الذي وجدناه. وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ السَّبَبُ غَيْرَ ذَلِكَ. والذي يُوَجِّهُ التَّامُّلُ أَنَّ يُرَدُّ إِلَى الْأَصْلِ الَّذِي ذَكَرَهُ الْجَاحِظُ مِنْ أَنَّ سَائِلًا سَأَلَ عَنْ قَوْلِ قَيْسِ بْنِ خَارِجَةَ^(١): «عِنْدِي قِرَى كُلُّ نَازِلٍ، وَرَضَى كُلُّ سَاخِطٍ، وَخُطْبَةٌ مِنْ لَدُنِّ تَطْلُعِ الشَّمْسِ إِلَى أَنْ تَغْرُبَ، أَمْرٌ فِيهَا بِالتَّوَاصُلِ، وَأَنْهَى فِيهَا عَنِ التَّقَاطُعِ» فقال: أليس الأمرُ بِالصَّلَةِ هُوَ النِّهْيُ عَنِ التَّقَاطُعِ؟ قَالَ: فَقَالَ أَبُو يَعْقُوبَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الْكِنَايَةَ وَالتَّعْرِیْضَ، لَا يَعْمَلَانِ فِي الْعُقُولِ عَمَلَ الْإِفْصَاحِ وَالتَّكْشِيفِ، وَذَكَرْتَ هُنَا أَنَّ لِهَذَا الَّذِي ذَكَرَ مِنْ أَنَّ لِلتَّصْرِیْحِ عَمَلًا لَا يَكُونُ مِثْلَ ذَلِكَ الْعَمَلِ لِلْكِنَايَةِ كَانَ لِإِعَادَةِ اللَّفْظِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلَ﴾ [الإسراء: ١٧/١٠٥] وقوله: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ① اللَّهُ الصَّكَمَدُ [الإخلاص: ١١٢/٢-١] عَمَلٌ لَوْلَاهَا لَمْ يَكُنْ. وَإِذَا كَانَ هَذَا ثَابِتًا مَعْلُومًا فَهُوَ حَكْمُ مَسْأَلَتِنَا. وَمَنْ الْبَيْنُ الْجَلِيِّ فِي هَذَا الْمَعْنَى - وَهُوَ كَبِيتِ ابْنِ الرُّومِيِّ سِوَا لَأَنَّهُ تَشْبِيهٌُ مِثْلُهُ - بَيْتُ الْحِمَاسَةِ^(٢):

شَدَّذْنَا شِدَّةَ اللَّيْثِ غَدَا، وَاللَّيْثُ غَضْبَانُ

ومن الباب قول النَّابِغَةِ:

نَفْسُ عَصَامٍ سَوَّدَتْ عِصَامًا وَعَلَّمْنَاهُ الْكَرَّ وَالْإِقْدَامَا

(١) ذكره الجاحظ (البيان والتبيين ١/١١٦). والخبر ثمة بطوله.

وأبو يعقوب هو إسحاق بن حسان الخريمي. وكان شاعراً، مدح عدداً من رجال الدولة العباسية.

(٢) الحماسة (بشرح المروزقي) ١/٣٢ من أبيات لشهل بن شيبان الزماني (وهو شاعر فارس جاهلي).

لا يخفى على من له ذوق حسن هذا الإظهار، وأن له موقعاً في النفس وباعثاً للأريحية لا يكون إذا قيل: «نفس عصام سودته» شيء منه البتة^(١).

تمّ الكتاب في أواسط شهر ربيع الأول سنة ثمان وستين وخمس مئة غفر الله
لكاتبه ولوالديه ولجميع المؤمنين والمؤمنات برحمته إنه أرحم الراحمين وخير
الغافرين.



(١) مما ألحق بديوان النابغة ١٠٦ (التوضيح والبيان).

فهرس الفهارس

- ١- الفهرس التحليلي.
- ٢- فهرس أفاظ الإعجاز.
- ٣- فهرس الآيات القرآنية الكريمة.
- ٤- فهرس الأحاديث النبوية الشريفة.
- ٥- فهرس الأمثال.
- ٦- فهرس المصطلحات النحوية واللفوية.
- ٧- فهرس المصطلحات البلاغية والنقدية.
- ٨- فهرس الشواهد الشعرية.
- ٩- فهرس الأعلام.
- ١٠- فهرس الكتب الواردة.

الفهرس التحليلي

- المدخل إلى دلائل الإعجاز ٥٨ ، ٥١
- عرض موجز للأحكام النحوية وربطها بمفهوم النظم ٥٦ ، ٥١
- أبيات لعبد القاهر الجرجاني عن مفهوم النظم ٥٨ ، ٥٦
- خطبة الكتاب ٦١
- فضيلة العلم ٦١-٥٢ ، المفاضلة بين ضروب العلم وفنونه ٦٢-
٦٣ ، علم البيان ٦٣ - ٦٥ ، الفصاحة والبلاغة ٦٤ ، الشعر ٦٤ ،
النحو ٦٤ ، الجهة التي منها قامت الحجة بالقرآن ٦٥ - ٦٦ ، صلة
الفصاحة بمعرفة الشعر ديوان العرب ٦٦ ، وجه آخر من وجوه
الإعجاز غير الفصاحة يعرضه بعض المحاورين وردّه ٦٦ - ٦٧
- فصل في الكلام على من زهد في رواية الشعر وحفظه وذم
الاشتغال بعلمه ٦٨
- أسباب ذم الشعر ورفضه ٦٨ ، ذمه من أجل ما فيه من هزل ٦٨ ،
استشهاد العلماء لغريب القرآن بالشعر ٦٩ ، تمثل عمر بن الخطاب
بشعر عمارة بن الوليد ٧٠ ، ما روي من أحاديث نبوية حول الشعر
٧٢ ، سماع النبي ﷺ للشعر ٧٣ ، استنشاده ٧٣ ، ٧٤ ، علمه ﷺ
بالشعر ٧٦ ، ٧٧ ، ارتياعه ﷺ للشعر ٧٧ ، قصيدة كعب بن زهير
بن أبي سلمى في مجلس النبي ﷺ ٧٨ ، ٧٩ ، ذم الشعر من حيث
هو موزون مقفى ٧٩ ، شرح ما ورد في القرآن الكريم حول الشعر
والشعراء ٨٠-٨٢
- مناقشة من زهد في النحو وتهاون به وردّ مزاعمه ٨٦-٨٢

- آراء العلماء في معنى الفصاحة والبلاغة ٨٧، ضرورة تفسير الفصاحة على نحو مفصل ٨٩، كلام في إعجاز القرآن لغوياً ٩٠-٩١، النقد المعلن ٩١، إشارة إلى ما سيكون من تحقيق القول في البلاغة والفصاحة ٩٢، المقابلة بين اللفظ والمعنى ٩٢، دلالة الكلمة مفردة وفي سياقها اللغوي والموقعي (النظم) ٩٢-٩٦
- فصل في الفرق بين الحروف المنظومة والكلم المنظومة ٩٧-١٠٠، الدلالة الوضعية العرفية في اللغة ٩٧، النظم مردّه إلى المعاني وإلى الفكر لا إلى التوالي اللفظي ٩٨-٩٩، لا يتصور أن تعرف للفظ موضعاً من غير أن تعرف معناه ١٠٠
- فصل في أنه لا نظم في الكلم ولا ترتيب حتى يعلّق بعضها ببعض ١٠١-١٠٢
- فصل في ردّ ادعاء أن لا معنى للفصاحة سوى التلاؤم اللفظي وتعديل مزاج الحروف ١٠٣-١٠٩
- أمثلة للتنافر بين الألفاظ وثقلها على اللسان ١٠٣، هل تخرج الفصاحة من حيّز البلاغة؟ ١٠٤، هل يكون تلاؤم الحروف معجزاً؟ ١٠٥، المطلوب في حديث الإعجاز هو ترتيب المعاني ١٠٥، لماذا اختصت الفصاحة باللفظ؟ ١٠٧، الصلة بين اللفظ والمعنى في الدلالة ١٠٥-١٠٩
- فصل في اللفظ يطلق والمراد به غير ظاهره (الكناية، المجاز، الاستعارة والتمثيل) ١١٠-١١٢
- فصل في أن الكناية أبلغ من الإفصاح وأن للاستعارة مزية وفضلاً وأن المجاز أبداً أبلغ من الحقيقة ١١٣-١١٥
- فصل في ضروب الاستعارات: العامي المبتذل، والبديع النادر ١١٦-١٢١
- القول في النظم وفي تفسيره والمراد منه وأي شيء هو وما محصوله ومحصول الفضيلة فيه ١٢٢-١٢٥، نصوص تطبيقية وتحليلات للنظم والمعاني النحوية ١٢٥-١٢٧
- فصل في أمثلة وشواهد للنظم ١٢٨-١٣٢
- فصل يتضمن شواهد على الكلام تتحد أجزاءه ويدخل بعضها في

- بعض ١٣٣، الشرط والجزاء ١٣٣، التقسيم وظواهر أخرى ١٣٤،
 أمثلة للتركيب لم يحتج واضعه إلى فكر وروية حتى انتظم له
 ١٣٦، شواهد على الفرق بين أن تكون المزية في اللفظ وبين أن
 تكون في النظم (تحليلات لمجموعة من الاستعارات) ١٣٧-١٤٢
- القول في التقديم والتأخير ١٤٣
 - تقديم الشيء على وجهين: تقديم على نية التأخير، وتقديم لا على
 نية التأخير ١٤٣، الأصل لدى الدارسين قبل عبد القاهر في هذا
 الباب: تقديم الذي بيانه أهمّ لهم وهم بشأنه أعنى ١٤٤، هذا
 الأسلوب ١٤٥-١٤٦، التقديم مع همزة الاستفهام ١٤٧، الاسم
 والفعل ١٤٨، الهمزة للتقرير ١٤٩، مع الفعل المضارع ١٥٠،
 الإنكار والاستفهام ١٥١-١٥٢
 - فصل التقديم مع النفي ١٥٥، التقديم في الخبر المثبت ١٥٧،
 تقديم المحذّث عنه يقتضي تأكيد الخبر وتحقيقه له ١٦٠، مما يرى
 تقديم الاسم فيه كاللازم (مثل) (غير) ١٦٥
 - فصل في النكرة إذا قدّمت على الفعل أو قدّم الفعل عليها ١٦٨
 - القول في الحذف ١٧٠، المواضع التي يطرد فيها حذف المبتدأ
 ١٧٠-١٧٥، حذف المفعول به ١٧٦، الأفعال المتعدية التي لا
 نرى لها مفعولاً لا لفظاً ولا تقديرأ ١٧٧، الأفعال المتعدية يحذف
 مفعول لها للدليل الحال عليه ١٧٨، تحليل مفصل لحالات حذف
 المفعول به ١٧٩-١٨٢، الإضمار على شريطة التفسير ١٨٣،
 حذف مفعول المشيئة ١٨٣-١٨٦، تحليل شاهد للبحثري ١٨٦-١٨٨
 - فصل في تحليل شاهد آخر للبحثري ١٨٩-١٩٠
 - القول على فروق في الخبر ١٩١، الخبر نوعان: خبر هو جزء من
 الجملة لا تتم الفائدة بدونه، وخبر ليس بجزء من الجملة ولكنه
 زيادة في خبر آخر سابق له ١٩١، الفرق بين الإثبات (في الخبر)
 إذا كان بالاسم وبينه إذا كان بالفعل (الثبوت، والتجدد) ١٩٢-
 ١٩٣، تنكير الخبر وتعريفه ١٩٤، الخبر مع الذي ٢٠٠، من

- الأمور المشتبهة ٢٠٢، الفكرة الإسنادية ٢٠٤، أسماء الأجناس كلها إذا وصفت تتنوع بالصفة ٢٠٦، من شأن المصدر أن يفرّق بالصلات ٢٠٧، فصل في (الذي) خصوصاً ٢١٢، لا يتصل (الذي) إلا بجمله من الكلام قد سبق من السامع علم بها ٢١٣
- فصل في الفروق في الحال لها تعلّق بالبلاغة ٢١٥
- الحال تجيء مفرداً وجمله، وتجيء تارة مع الواو وأخرى بغير الواو ٢١٥، العلل والأسباب التي تقتضي مجيء الجملة الواقعة حالاً مجردة من الواو أو مقترنة بها أو جائزة الاقتران وعدمه . . ٢٢٥
- القول في الفصل والوصل (العلم بما ينبغي أن يصنع في الجمل من عطف بعضها على بعض أو ترك العطف فيها والمجيء بها منشورة تستأنف واحدة بعد أخرى) ٢٣٢، الإشكال في الواو دون غيرها من حروف العطف ٢٣٣
- فصل في إجمال الأصول والقوانين في شأن فصل الجمل ووصلها ٢٥١
- فصل في الجملة لا تعطف على ما يليها ولكن تعطف على جملة بينها وبين هذه التي تعطف جملة أو جملتان ٢٥٢
- فصل في مناقشة أغلاط في فهم البلاغة يترتب عليها عدم إدراك الإعجاز على وجهه الصحيح ٢٥٦
- رأي للبحثري في نقد الشعر ٢٥٩، الألفاظ والمعاني في البناء الأدبي ومقارنة بين الأدب والتصوير والصياغة ٢٦١، الألفاظ والمعاني في رأي للجاحظ ٢٦٢
- فصل في المقارنة بين العبارتين تشتركان في التعبير عن أمر وتفاضلان ٢٦٤، المعنى هو الغرض ٢٦٤
- المعارضه لكلام إنما تكون في الأسلوب (النظم) لا في المفردات والألفاظ بدلالاتها المعجمية ٢٦٥
- فصل في المعنى الذي هو الدلالة اللغوية الوضعية، وفي معنى المعنى أي الدلالة الفنية: الكناية، والتمثل، والاستعارة ٢٦٦-٢٧١
- فصل تحليلي لفكرة معنى المعنى ٢٧٢، أساليب أصيلة تغمض

- على العارفين بأسرار العربية ٢٧٥، «إن» تأتي وترى الكلام بها
مستأنفاً غير مستأنف مقطوعاً غير مقطوع ٢٧٦، مسائل أخرى في
هذا الباب ٢٧٧
- كل ومعاني الشمول في الجملة ٢٨٦-٢٨١
 - فصل تحليلي يعتمد على مفهوم النظم والقيم التعبيرية لحركة
مكوّنات الجملة وتوزعها ٢٨٧-٢٩٠
 - الذوق والمعرفة شرطان لاستيعاب المفهومات النقدية ودلائل
الإعجاز ٢٩٢-٢٩١
 - فصل في فن من المجاز يعتمد على علاقات النظم ٢٩٣، المجاز
الحكمي ٢٩٧
 - مسألة في دلالة مجازية ٣٠٢
 - فصل في الكناية وشواهدا ٣١١-٣٠٤
 - فصل في التوكيد وعلاماته في بناء الجملة ٣١٢، ودلالات مرتبطة
بـ «إن» ٣١٣-٣٢٤
 - مسائل القصر بـ «إنما» مقارنة بأساليب أخرى للقصر ٣٢٥-٣٤٢
 - فصل في نكتة تتصل بالكلام الذي تضعه بما وإلا ٣٤٣
 - فصل آخر في القصر ٣٤٤
 - فصل في أن الحكاية (المحاكاة) لا تصح في (النظم) الذي شرطه
الروية والفكر ٣٥٠
 - فاعلية الإبداع في الشعر تتمثل في (توخي النظم) ٣٥٣
 - مناقشة من يفرد اللفظ عن المعنى (ابن قتيبة) ٣٥٦
 - اللفظ والمعنى مناقشة تحليلية ٣٦٠
 - حديث في الإعجاز ٣٧١، التحدي شرطه معرفة العرب بخصائص
القرآن الكريم ٣٧١، الإعجاز والكلم المفردة ٣٧٢، الفواصل في
الآيات ٣٧٣، الصرفة ٣٧٥، الإعجاز والاستعارة ٣٧٥، النظم
ومعاني النحو ٣٧٦، الغريب وحوشي الكلام ٣٧٩، الفصاحة في
المعنى ٣٨١

- الاستدلال على بطلان أن تكون الفصاحة صفة اللفظ من حيث هو
 ٣٨٥ لفظ
- فصل تحليلي للقضية السالفة في الاستعارة ٣٨٦
- فصل تحليلي لأنماط أدبية بحسب مرتكزات النظم ٣٨٨، الفصاحة
 ٣٩٦ والتشبيه
- الدلالة والتفسير للشعر ٣٩٧، التشبيه ٣٩٩، المجاز ٤٠٠، التنظير
 والتحليل للاستعارة في العربية ٤٠٤، ليست الاستعارة نقل
 الاسم، ولكن ادعاء معنى الاسم ٤٠٧، اللفظ والمعنى ٤١٧،
 علم الفصاحة والبيان ٤٢٠، الاستعارة بين الحقيقة والحركة
 ٤٢٣ المجازية
- المحاكاة الشكلية والأسلوب الشعري (الاحتذاء) ٤٣٠، الوزن
 ٤٣٤ والتحدي وكلام في الإعجاز
- الغلط الذي دخل في حديث اللفظ ٤٣٤، عن الاستعارة ٤٣٥
- شواهد شعرية مقارنة بين المعنى غفلاً في واحد ومصوراً مصنوعاً
 ٤٣٩-٤٥٩ في آخر
- في السرقات الشعرية ٤٦٠
- الإعجاز والجانب الصوتي في ألفاظ القرآن الكريم ٤٧٥، السجع
 ٤٧٧ والتجنيس
- عرض مركز لفكرة النظم ٤٧٩
- الألفاظ المفردة ودلالاتها الوضعية مقارنة بالنظم ٤٨٩
- مناقشة وتحليل للنظم ٤٩١-٥٠٤

فهرس أفاظ الإعجاز

الصَّرفة: ٣٧٥	الإعجاز: ٦٦-٨١-٩٠-٩٤-١٠٤
عَجَز: ٥٦-٥٧-٥٨-٦٦-٨٧-٩٠	١٠٦-١٠٧-١٤٥-٢٥٦
٣٧٢-٤٣٥، المعجز: ٣٧٥	٢٥٧-٢٦٣-٣٥٩-٣٧٢
عَجَز: ٣٧٢، عجزوا: ٩٠	٣٧٥-٣٧٩-٤٣٤-٤٧٤
عَجْزه: ٢٥٨-٣٧٤، عجزهم: ٣٧٥	٤٧٦-٤٨٠
عاجز: ٣٧٤	أَعْجَز: ٥٦-٩٠، أعجزك: ٣٧٢
مذاقة الحروف: ٣٧٤-٤٧٥-٤٧٦	أَعْجَزهم: ٣٧٥
المعارضة: ٩٠-٣٧١-٤٣٥	أَعْجَز: ٥٧
مُعْجَز: ٦٦-١٠٥-٢٦٣-٣٥٩	البرهان: ٦٦-٣٥٩-٣٧٣
٣٧٥-٣٧٦-٤١٩-٤٣٤	التحدّي: ٢٦٣-٣٧١-٣٧٢-٣٧٩
٣٧٥-٤٧٦-٤٨٠	٤٣٤، تُحَدِّثوا: ٣٧٢-٣٧٨
معجزة: ٥٦-٦٦-٨١-٤٣٥-٤٨٣	يتحدّى: ٣٧٩
معجزات: ٤٣٥	التنزيل: ٢١٨
معجوز عنه: ٣٧٢	الحُجّة: ٦٥-٦٦-٣٧٢، حُجّة الله:
نظم القرآن: ٤٨٠ (ومصطلح النظم	٦٥-٦٧-٨٩
مستفيض في الدلائل)	دلائل الإعجاز: ٣٧٨، دليل الإعجاز:
يعارضون: ٣٧١	٤٨٠
يعجز: ٣٧٢-٤٣٤	سلامة الحروف: ٤٧٤، ٤٧٦، ٤٧٧
	سهولة الحروف: ٤٣٦-٤٧٧

فهرس الآيات

الآية	رقمها	الصفحة
البقرة / ٢/		
- ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾	٢، ١	٢٣٦
- ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾	٦	١٤٦
- ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾	٧، ٦	٢٣٦
- ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾		
- ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَإِلَّا يُوْذِرُ الْآخِرَ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾	٨، ٩	٢٣٧
- ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ اللَّهَ إِنَّمَا أَنفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾		
- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾	١١	٢٤٠ - ٣٤٩
- ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾	١٢	٢٤٠ - ٣٤٩
- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ الْأَشْقَهَاءُ﴾	١٣	٢٤٠
- ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْأَشْقَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَمْلِكُونَ﴾		
- ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنُوا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شُيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُونَ﴾	١٤	٢٣٧ - ٢٤٠
- ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدِّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾	١٥	٢٣٩ - ٢٤٠
- ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْعَصَلَةَ بِالْهَدْيِ فَمَا رَجَعَتِ يُجَدِّتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُنْهَدِينَ﴾	١٦	٢٩٣ - ٣٧٧
		٣٨١ -

الآية	رقمها	الصفحة
- ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾	٢٣	٣٧١
- ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾﴾	٣١	٤٩٢
- ﴿قَالَ اللَّهُ بَقُولُوا إِنَّمَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولَ تُبِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْقَرْيَةَ مَسْأَلَةً لَا شَيْءَ فِيهَا قَالُوا النَّارُ جِثَّتْ بِالْحَقِّ فَنَذَبُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾	٧١	٢٧٨
- ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمِعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَنشِرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْمِجْلَ كُفْرِهِمْ قُلْ بِمَسَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيصَاتُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾	٩٣	٣٧٨-٤٠١
- ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ عَلَى النَّارِ عَلَى حَيَاتِهِمْ وَمِنَ اللَّيْلِ أَشْرَكُوا يَوْمَ أَعْلَهُمُ لَوْ يُصْرَتُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرْجَاهِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُصْرَتَ وَاللَّهُ بِصِيرَةٍ بِهِمَا يَحْكُمُ ﴿٩٦﴾﴾	٩٦	٢٨٩
- ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَالْعَمَّ الْخَنِزِيرَ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ أَضَلَّ عَنِ بَاطِلٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾	١٧٣	٣٢٦
- ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾	١٧٩	٢٦٧-٣٧٤-٤٩٥-٤٠١

آل عمران /٣/

- ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَعَتُهَا مَرْمٍ وَلَئِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾	٣٦	٣٢٤
- ﴿وَمَكْرُوهًا وَمَكَّرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِيهِ ﴿٥٤﴾﴾	٥٤	٢٤٠
- ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَتَمُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَلَئِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ الْغُرُوبُ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾	٦٢	٣٢٧
- ﴿وَمِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأَمَّنْتَ بِغُتَابِ يَوْمِهِ إِلَيْكَ مِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأَمَّنْتَ بِدِينِهِ لَا يُؤَدُّ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمُورِ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾	٧٥	١٦٢

الآية	رقمها	الصفحة
- ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُفْعَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ نِيلَةٌ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَخَرُوا بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَصِيرِينَ﴾	٩١	٥٣
النساء /٤/		
- ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقِيلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْمِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾	٧٥	٥٢
- ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْعًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْوُتُّ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾	١٠٠	٢٥٤
- ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرَوْهَا فِي بَرِيئَةٍ فَقَدْ اخْتَصَلَ بِهِئَاتِنَا وَأِنَّمَا تَبَيَّنَّا﴾	١١٢	٢٥٣
- ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾	١١٤	٥٣
- ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ يَجْعِلُونَ لِلَّهِ وَهُوَ خَدَعَهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾	١٤٢	٢٤٠
- ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾	١٦٧	٦٥
- ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خِثْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَكُمْ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾	١٧١	٣٦٦-٣٦٩

المائدة /٥/

- ﴿وَإِذَا جَاءَكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ
أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾

الآية	رقمها	الصفحة
- ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقُونَ وَالصَّابِقَاتُ مِنَ الْأُمَمِ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقُونَ وَالصَّابِقَاتُ مِنَ الْأُمَمِ﴾	٦٩	٨٥
- ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثُ ثُلُثٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَحْدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُوا لَكُنَّا مِنَ الْآلِ الْكَافِرِينَ﴾	٧٣	٣٦٩
- ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مِمَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبُ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾	١١٧	٣٣٥

الأنعام /٦/

- ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكَ لَفِيقِيَ الْأَمْرِ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾	٨	٢٤١
- ﴿قُلْ أَخْبِرِ اللَّهُ أَعْبُدُوا إِلَهًا فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُعَلِّمُ وَلَا يُلْمَعُ قُلْ إِنْ أُهِنْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾	١٤	١٥٣
- ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَلَمْتَ أَنْ تَبْنِيَ نَقْفًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَاتِهِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾	٣٥	١٨٣
- ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾	٣٦	٣٢٨
- ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سُوءُ بِئْسَ الْفُلْكَانُ مَنْ يَسْلُمِ اللَّهُ يَضِلُّهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾	٣٩	١٨٥
- ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنتُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَنتُمْ السَّاعَةُ أَخْبِرِ اللَّهُ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾	٤٠	١٥٣
- ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنْتُمْ مِنْ عِندِ رَبِّكُمْ سَوَاءٌ بِمُحَلَّلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾	٥٤	٣١٤
- ﴿قُلْ إِنْ يُهَيْبُكُمْ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا آخِئَ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَبِينَ﴾	٥٦	٣٢٠

الآية	رقمها	الصفحة

الأنفال /٨/

- ﴿وَإِذَا ثَلَّ عَلَيْهِمْ ءِيسُنَا قَالُوا قَدْ سَجَعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِن هَذَا إِلَّا أَصْطِيلُ الْآلِثِينَ ﴿٥٦﴾﴾
- ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٧﴾﴾
- ﴿فَإِنَّا نَنقِفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ نَفْثَةً يَهْدِيهِمْ مِّنْ خَلْفِهِمْ يُكَفِّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾
- ﴿وَإِنَّا نَحْنُ غَافِقٌ مِّنْ قَوْمٍ عِيسَانَةٌ طَائِفَةٌ مِّنْهُم عَلَىٰ سَوَاءٍ بَاطِلٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُنَافِقِينَ ﴿٥٩﴾﴾

التوبة /٩/

- ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزِّيُّ بْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَتَلْنَاهُ اللَّهُ أَن يُؤَفَّفُ كُونَ ﴿٦٠﴾﴾
- ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُشِيرَ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٦١﴾﴾
- ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُمْ مِّنْ يُحَادِدِ اللَّهِ وَرَسُولَهُ فَأَبَقَ لَهُمُ نَارُ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴿٦٢﴾﴾
- ﴿وَإِنَّا لَنَسِيرٌ عَلَىٰ آلِثِينَ يَسْتَنذِرُوكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٣﴾﴾
- ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٤﴾﴾

يونس /١٠/

- ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْنَاهُ نَئِثًا حَرَامًا وَحَلَائِلًا قُلْ اللَّهُ آذَنَ لَكُمْ أَنزَلَ عَلَى اللَّهِ تَقَرُّوتُ ﴿٦٥﴾﴾
- ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْيَمْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٦﴾﴾

الآية	رقمها	الصفحة
- ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْذِرُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿١١٩﴾﴾	٩٩	١٥٤

هود /١١/

- ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِينَ وَأَدْعُوا مَن أَسْتَطَعْتُمْ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٢٠﴾﴾	١٣	٣٧١
- ﴿قَالَ يَبْقَوْمَ إِنَّ كُنتُمْ عَلَىٰ يَتَتَوْ مِّن رَّبِّي وَءَالِئِي رَحْمَةٍ مِّن عِندِي فَعَيِّتْ عَلَيْكُمْ أَنْزِلُكُمْ مَعَا وَآتَتْ لَهَا كَظِيمُونَ ﴿١٢١﴾﴾	٢٨	١٥٠
- ﴿وَأَصْنَعِ الْفُلَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخْطِئُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ﴿١٢٢﴾﴾	٣٧	٣١٤
- ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَاتَسَحَّاهِ أَلْقِي رِجْسَ الْمَاءِ وَفُيَ الْأَرْضُ وَاسْتَوَتْ عَلَىٰ الْجُودَىٰ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٢٣﴾﴾	٤٤	٩٣
- ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَن خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٢٤﴾﴾	١٠٣	٥٢

يوسف /١٢/

- ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿١٢٥﴾﴾	٣١	٢٣٨-٤٠٥
- ﴿وَمَا أَتَيْنَهُنَّ بِقِسِيٍّ إِنْ الْنَفْسَ لِأَنَارَةٍ بِالشُّوْءِ إِلَّا مَا رَجِمَ رَبِّيَّ إِنَّ رَبِّيَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٦﴾﴾	٥٣	٣١٤
- ﴿فَلَمَّا اسْتَمْتَعُوا مِنْهُ خَلَعُوا لِجَنَّتٍ قَالِ كَيْدُهُمْ أَتَمَّ نَقَلَوا أَبَاكُ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْفِقًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَن أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَبِيرُ الْمُرَكِّبِينَ ﴿١٢٧﴾﴾	٨٠	٣٧٨
- ﴿وَسَلِّ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِمْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿١٢٨﴾﴾	٨٢	٣٠٠

الآية	رقمها	الصفحة
- ﴿قَالُوا أَوَإِنَّمَا بُرِّئُوا بِرِيسِ اللَّهِ لَأَنَّا يُؤْسَفُ قَالَ أَنَا يُؤْسَفُ وَمَهْذَا أَمْرٌ قَدْ مَرَّ مِنْكَ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّمَا مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾	٩٠	٣١٤
الرعد / ١٣/		
- ﴿إِنَّمَا يَسْمَعُ أَتَانَا أَنزَلَ إِلَهِكَ مِن رَّبِّكَ الْفَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَذَّكَّرُ أُولَئِكَ الْأَكْبَرُ﴾	١٩	٣٤٦
- ﴿فَأَنَّا عَلَيْنَا الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾	٤٠	٣٤٠
إبراهيم / ١٤/		
- ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ فَأَطِيعِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّجَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَتَيْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَرْسَلْنَا سُلَاطِينَ مُّجِيبِينَ﴾	١٠	٣٣٠ - ١٥٤
- ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَتْ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلَاطِينَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾	١١	٣٣٠
الحجر / ١٥/		
- ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾	٥٨ ، ٥٧	٢٤٧
- ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾	٨٩	٣٢٠
- ﴿فَأَصْدَقَ بِمَا تُؤْمَرُ وَاعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾	٩٤	٣٧٨
النحل / ١٦/		
- ﴿وَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ﴾	٩	١٨٣
- ﴿ثُمَّ كَلِمَ مِن كُلِّ النَّمْرَيْنِ فَنَاسِكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بَطُونٍهَا سَرَّابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾	٦٩	٢٩٠

الآية	رقمها	الصفحة

الإسراء /١٧/

- ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَوْفُوا وَبُوعَهُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبَرَّأَ مَا عَلَوُا تَتَبِّرَكُمْ ۚ﴾ (٧)
- ﴿أَلَمْ تَكُنْ مِنْهُمْ رَئِيسًا يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَاتَّخِذُوا آلَ قَرْطَبٍ لَكُمْ بَنِيَّ لَقَدْ يَلْبِغُونَ أُولَئِكَ عَظِيمًا ۚ﴾ (٤٠)
- ﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ۚ﴾ (٨٨)
- ﴿وَالْحَقُّ أَنزَلْنَاهُ بِالْحَقِّ زَيْدٌ وَوَعَدَ الْوَعْدَ ۚ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۚ﴾ (١٠٥)
- ﴿قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرُوا بِهَذَا عِلْمًا لِلَّهِ الَّذِي لَا يُحِيطُ بِشَيْءٍ مِنْ شَيْءِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ۚ﴾ (١١٠)

الكهف /١٨/

- ﴿مَنْ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْنَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ مُدَىٰ ۚ﴾ (١٣)
- ﴿وَنَحْسَبُهُمْ آفَاقًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُجُبًا ۚ﴾ (١٨)
- ﴿إِنَّ الْأَبْدَانَ أَعْمَارًا مُخْتَطَفًا لِيُتَبَرَّأَ إِلَهُكُم مِّنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ۚ﴾ (٣٠)
- ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْقُرَيْشِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ۚ وَإِنَّا لَمَكِّنَّا لَكَ فِي الْأَرْضِ مَوَاقِينَ وَمَا كُنَّا بِمَبْذُولٍ ۚ﴾ (٨٣، ٨٤)
- ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ ۚ إِنَّكَ عَلَىٰ شَرِّ ذَمِيرٍ ۚ﴾ (١١٠)

الآية	رقمها	الصفحة

مريم /١٩/

- ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝﴾
 ٤ ١٣٩-٣٧٦
 ٤٠١
 ٢٤ ٣٧٩ - ﴿فَادْنِهَا مِنْ نَحْنِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ۝﴾

الأنبياء /٢١/

- ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنْ رَبِّهِمْ تُحَدِّثُ إِلَّا أَسْتَمِعُوهُ وَهُمْ يَلْمِزُونَ ۝﴾
 ٥٢ ٣ ، ٢
 ١٤٨ ٦٣ ، ٦٢ - ﴿قَالُوا يَا نَذِيرٌ آلَ آدَمَ عَلَيْكَ صَبْرٌ ۝﴾
 ١٠١ ٣١٩ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ۝﴾
 ١٠٠ ٣١٩ - ﴿لَهُمْ فِيهَا زَوْجٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ۝﴾

الحج /٢٢/

- ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَقٌّ عَظِيمٌ ۝﴾
 ١ ٣١٩-٣١٣
 ١٧ ٣١٩ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْمُجْرِمِينَ وَاللَّذِينَ أَسْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝﴾
 ٤٦ ٣١٤-١٦١ - ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ۝﴾

المؤمنون /٢٣/

- ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ۝﴾
 ٥٧ ٦١-١٦٤
 ٥٨ ٦١ - ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝﴾
 ٥٩ ٦١ - ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَعَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ۝﴾
 ٦٠ ٦١ - ﴿أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَمْ يَحْشُرُوا ۝﴾

الآية	رقمها	الصفحة
- ﴿وَالشُّمْرَةَ يَنْعِمُهُمُ الْقَارُونُ ﴿٣٦﴾ أَلَمْ نَرِ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٣٧﴾ وَأَنْتُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٨﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾	٢٢٤ - ٨٢ ٢٢٧	

النمل / ٢٧/

- ﴿وَحِشْرٌ لِّسُلَيْمَانَ جُودُودٌ مِنَ الْإِنِّ وَالْإِنِّسِ وَالطَّلَيرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٧﴾﴾	١٧	١٦٤

القصص / ٢٨/

- ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّكَاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا سَقَىٰ حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّجَاءَ وَأُورَاكَ شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٣٠﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الْفَلِيلِ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٣١﴾﴾	٢٣ ، ٢٤	١٨١
- ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْفَرْقِ إِذْ فَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْمُمَرُّ وَمَا كُنْتَ تَأْوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ مَا بَيْنَنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾﴾	٤٤ ، ٤٥	٢٥٤
- ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٤٦﴾ فَعَمِيَّتَ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿٤٧﴾﴾	٦٥ ، ٦٦	١٦٥

لقمان / ٣١/

- ﴿وَإِذَا نَثَلْ عَلَيْهِ مَا بَيْنَنَا وَلَكَ مُتَسَخِّرًا كَانَ لَكَ يَسْمَعُهَا كَانَ فِي أَذُنَيْهِ وَقُرْأَ فَنَشَرَهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾﴾	٧	٢٣٧
- ﴿يَتَقَىٰ أَهْلَ الْمَكَلَّةِ وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الشُّكْرِ وَأَسَدٍ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَرَمِ الْأُمُورِ ﴿٧٧﴾﴾	١٧	٣١٣

الأحزاب / ٣٣/

- ﴿الَّذِينَ يَلْعَنُونَ رَسَلَاتِ اللَّهِ وَيَحْضُونَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٣﴾﴾	٣٩	٣٣٦

الآية	رقمها	الصفحة
- ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٥٥﴾﴾	٤٠	٣٦٤
- ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾	٦٩	٢٣٩-٨٠

الصافات /٣٧/

- ﴿أَصْلَفَى النَّبَاتِ عَلَى الْبَسِينِ ﴿٣٧﴾ مَا لَكَ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٨﴾﴾	١٥٣-١٥٤	١٤٨

ص /٣٨/

- ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْ لَنَا قِطْعًا قَلِيلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾﴾	١٦	٣٧٩

الزمر /٣٩/

- ﴿أَمَنْ هُوَ قَدْ بَلَغَ أَهْلَهُ النَّبِيُّ سَالِحًا وَفَآئِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾	٩	١٧٧

غافر /٤٠/

- ﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾	٦٦	٣٢٠

الشورى /٤٢/

- ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْعَلْ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُخَيِّطُ الْمُلُوكَ يَكْلِمُنِي بِأَعْيُنِي وَإِنَّمَا عَلِمْتُ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤٢﴾﴾	٢٤	١٨٥

الزخرف /٤٣/

- ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنِشَاءً أَشْهَادًا خَلَقَهُمْ سَكَنًا شَهِدَتْهُمْ وَنَسُواهُمْ ﴿٤٣﴾﴾	١٩	٤٠٨-٣٥٨
- ﴿أَمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَئِشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾	٣٢	١٥٤
- ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْأَعْمَى وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾	٤٠	١٥٣

الآية	رقمها	الصفحة
الدخان / ٤٤/		
- (إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴿٥٥﴾)	٥٠	٣١٩
- (إِنَّ الْمُفْسِقِينَ فِي مَقَابِرِ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُوبٍ ﴿٥٢﴾)	٥٢-٥١	٣١٩
محمد / ٤٧/		
- (وَإِذَا لَيْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا فَصْرَبَ الرَّقَابِ حَقَّ إِذَا اتَّخَذْتُمُوهُمْ زُنَدًا لِّلْوَقَاقِ فَإِنَّا مَتَّاعٌ بَعْدَ وَإِنَّا فَعْدَاهُ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَآتَيْنَاكُمْ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِّبَلَّوْا بِبَعْضِكُمْ بَعْضًا وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُعْطِيَ أَعْلَانُكُمْ)	٤	
ق / ٥٠/		
- (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِّمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ)	٣٧	٣٠٢
الذاريات / ٥١/		
- (هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثَ ضَيْفٍ لِّإِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّشْكِرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَوَّاهَ إِلَهُ أَهْلِيهِ فَجَاءَهُ بِعِجْلٍ سَبِينٍ ﴿٢٦﴾ فَفَرَّقَهُمْ إِنْتِهَمٍ قَالَ آلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوَّحَصَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشِّرُوهُ بِنَلَامٍ عَلَيْهِ ﴿٢٨﴾)	٢٨-٢٤	٢٤٦
النجم / ٥٣/		
- (وَمَا يَنْبَغِي عَنِ الْمَوْتِ ﴿٣﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا رَحْمَةٌ يُّوحَىٰ ﴿٤﴾)	٤-٣	٢٣٩
- (وَأَنْتُمْ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿١٣﴾ وَأَنْتُمْ هُوَ آمَنَ وَكُنِيَ ﴿١٤﴾)	٤٤-٤٣	١٧٧
- (وَأَنْتَ هُوَ أَفْهَىٰ وَأَفْهَىٰ ﴿١٥﴾)	٤٨	١٧٧
القمر / ٥٤/		
- (فَتَفَحَّصْنَا آيَاتِ السَّمَاءِ بِمَا هُوَ مُتَهَيِّجٌ ﴿١﴾ وَفَجَرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَمَىٰ الْمَلَاةُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿٧﴾)	١٢-١١	١٤٠
- (وَحَلَّلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ الْأَوَّاجِ وَدُشِّرَ ﴿١٣﴾)	١٣	٣٧٩
- (فَقَالُوا أَبَشَرًا يَتَنَزَّلُ مِنَّا وَحَدًا نَّفِيعُهُ إِنَّا إِذَا لَبِئْسَ مَلَكًا وَشِعْرٌ ﴿١٧﴾)	٢٤	١٥٤

الآية	رقمها	الصفحة
المنافقون /٦٣/		
- ﴿وَإِنَّا رَأَيْنَاهُمْ يُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَانَتْهُمْ حُشُبٌ مُّسْتَعِدَّةٌ يَّحْسِبُونَ كُلَّ صَبْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُوَ الْعَذَابُ فَاعْتَرَضَهُمْ قَتْلُهُمْ اللَّهُ أَنَّهُ يُؤَفِّكُوكُنَّ ﴿١﴾﴾	٤	٢٨٣
الحاقة /٦٩/		
- ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي السُّورِ فَفُتِحَتْ وَجْدَةٌ ﴿١﴾ وَجَلَّتْ أَرْضُ رَيْبٍ أَلْبَسَتْكَ دَكَّةٌ وَجْدَةٌ ﴿٢﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿٣﴾﴾	١٣-١٥	٨٤
المدثر /٧٤/		
- ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبُّكَ فَكَذَّبَ ﴿٣﴾ وَيَا بَلَاءَ فَطْلِعْ ﴿٤﴾ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمَنَّ أَنْ تَمُنَّ تَتَذَكَّرُ ﴿٦﴾﴾	١-٦	٢١٨
النازعات /٧٩/		
- ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنَادٍ مَّنْ يَنْفَعُهَا ﴿١﴾﴾	٤٥	٣٢٨-٣٤٦
الغاشية /٨٨/		
- ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴿١﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢﴾﴾	٢١-٢٢	٣٤٥
البلد /٩٠/		
- ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْمَقْبُةُ ﴿٧﴾ فَكَأَنَّ رَقَبَةً ﴿٨﴾ أَوْ يُطْمَعُ فِي يَوْمٍ ذِي مَقْبَرَةٍ ﴿٩﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٠﴾ أَوْ وَشِيكًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١١﴾﴾	١٢-١٦	٥٣
الليل /٩٢/		
- ﴿وَسَيَجْنِبُهَا آلُكَ ﴿٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ﴿٨﴾﴾	١٧-١٨	٢١٨
الإخلاص /١١٢/		
- ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾﴾	١-٢	١٨٨-٣١٥-٥٠٣-٣٦٤

فهرس الأحدث النبوة الشرفة

الصفحة	الحديث
٧٧	«أحدث لا يفرض الله فاك»
٢٨٤	«أقصر الصلاة أم نسيت يا رسول الله؟ فقال ﷺ: كل ذلك لم يكن»
٧٥	«يا حسان أشكر الناس أشكرهم الله تعالى..»
٧٥	«إن أشكر الناس الله عز وجل أشكرهم للناس»
٧٣	«إن من الشعر لحكماً، وإن من البيان لسحراً»
٧٩	«إنما الشعر كلامٌ حسنه حسن وقبيحه قبيح»
٤١٠	«يثاكم وخضراء الدمن»
٧٢	«لأن يمتلئ جوف أحدكم قبحاً فيريه خير له من أن يمتلئ شعراً»
٧٤	«لو أن أبا طالب حي لعلم أن أسيفنا قد أخذت بالأنامل»
٣٨٣	«مات حتف أنفه»
٧٣	«ما نسي ربك وما كان ربك نسياً شعراً قلته»
	«يقول الله تبارك وتعالى لعبد من عباده: صنع إليك عبدي معروفاً فهل شكرته عليه؟ فيقول: يا رب علمت أنه منك فشكرتك عليه، قال:
٧٦	فيقول الله عز وجل: لم تشكرني إذ لم تشكر من أجرته على يده»

فهرس الأمثال

١٥٨	أتعلمني بضبُّ أنا حرشته :
١١٢	أراك تنفخ في غير فحم وتخط على الماء :
٣٢٨	إنما يعجل من يخشى الفوت :
٤٤٢	حرّاً أخاف على جاني كماؤ لا قرّاً :
٢١٦	رجع عوده على بدته :
٢٠٩	الشجاع موقى والجبان ملقى :
١٦٩	شرُّ أهرّ ذا ناب :
٢٩١	فليكن قذحك في زُند وارٍ، والحكّ في عود أنت تطمع منه في نار :
٦١	قد أسديت فالحم، وأسرجت فالحجم :
٢١٦	كلمته فوه إلى فيّ :
٢٢٠	كنت ولا أخشى بالذنب :
١١٢	ما زال يقتل في الذروة والغارب :
٤٨٥	المرء بأصغريه إن قال قال ببيان، وإن صالّ صالّ بجنان :
٦٥	النحو في الكلام كالملح في الطعام :

فهرس المصطلحات اللغوية والنحوية

الاستقبال: ١٥٠
الإسكان: ٨٣
اسم: ٥٢ - ٨٤ - ١٠١ - ١٠٧
اسم الفاعل: ٥٢ - ٨٥
أسماء الأجناس: ٢٠٦ - ٢١٢
الإسناد: ١٣٩، أسندته: ٢٠٤
الإشارة (أسماء): ١٣١ - ١٠٩
الاشتقاق (المشتق منه): ٢٠٩
أصوات الطيور: ٩٨
الأصول: ٣٧٥
أصول النحو: ٥١ - ١٢٢
الإضافة: ٥٣
الإضمار والإظهار: ١٢٣
الإضمار والحذف: ١٨٣
الإطلاق: ١٤٧
إعراب القرآن: ٦٩
الإعراب: ٨٢ - ٨٣ - ٨٤ - ١٣٧
حكم الإعراب: ٢٣٢، إعراب ظاهر:
٢٩١
التباس (التبس به): ٢٢٦

(١)

الإبدال: ٨٣، الابتداء: ٨٤
إثبات (الفعل للمفاعل) ١٨١، (النفي
والإثبات: ٣٢٩)، إثبات المعنى ١٩٥
الإثبات: ٣٠٤ - ٣٠٥
الاتصال: ٣٨٤ - ٣٩٤
أجراس (اللغات) ٦٤، أجراس حروف:
٤٤٠
الأجناس: ٤٠٥
أحكام النحو: ٥٥
إخبار: ٩٣
الاختصاص: ١٩٧ - ٣٣٧ - ٣٤٠ - ٣٤١
ارتباط الكلمة: ٩٣
الاستثناف: ١٣٢، يستأنف: ٢٠٦،
استأنفت: ٢٢٧، استأنف وقطع:
٢٣٩، مستأنفة: ٤٨٨
استخبار: ٩٣ - ١٦٦
استثناء: ٥٣ - ٥٤
استفهام: ١٠١ - ١٤٧ - ١٦٦
استفراق (تستغرق): ٢٠٩ - ٩١٠

تعلق: ٥٢، ٥٣ - ٥٤ - ٥٥ - ٣٨٤ - ٤٢٨

التفسير: ٤٠٠

التقدير (النحوي): ١٧٧ - ٢٣٥ - ٣٦٣

التقرير: ١٤٨

التقديم والتأخير: ١٢٣ - ١٤٤

تمام الاسم: ٥٣

تمام الكلام: ٥٣ - ٥٧

التمني: ١٠١

التمييز: ٥٣ - ١٠١

التنزيل (تنزيل الجملة منزلة المفرد): ٢٢٧

التنوين: ٥٣ - ٨٣ - ٣٦٤

(ث)

ثبوت (الصفة للاسم): ١٩٣

(ج)

جار ومجرور: ٣٣٩

جرس الصوت: ١٤٦

جرس الكلمة: ٤٨٥

الجملة: ٥٤ - ٨٤ - ١٩١ - ٢١٢ - ٢٣٢ -

٣١٣ - ٣١٤ - ٣١٥ - ٣١٦ - ٣١٨ -

٣٣٤

الجملة العارية الموضع من الإعراب: ٢٣٣

جمع السلامة: ٨٣

الجنسية: ٢٠٨

الجنس (مذكر ومؤنث): ١٦٨

الإلهام (في اللغة والدلالة): ٤٩٢

أمر: ٦٤ - ٩٣

إنما: ٣٢٥ - ٣٢٦ - ٣٢٧ - ٣٢٨ - ٣٢٩ -

٣٣٠ - ٣٣٣ - ٣٤٨

الإنكار: ١٥٠ - ١٥١ - ١٥٤

أوضاع اللغة: ٦٤ - ٣٥٣ - ٤٩١ - ٣٧٢

أوعية المعاني (الألفاظ): ٩٩

إيصال (الفعل إلى الاسم): ٥٤

(ب)

البدل: ٥٢

(ت)

التأليف (في الجمل): ١٤٢

التأويل: ١٤٦ - ٢٢٩ - ٣٦٣

التأكيد: ٥٢ - ٩٤ - ١٠١، مؤكدة ٨٤

تابع (توابع): ٥٢، الصفة تتبع: ٨٤

ثنائية: ٥٣ - ٥٧ - ٨٣

تجدد المعنى (الفعل): ١٩٢

تخصيص (الصفة): ٨٤

التصريف (مسائل): ٨٣

التصور (يتصور): ٣٥٤ - ٣٦١

التعدي: ٥٧، تعدية: ١٨١ - ٢٠٧، معداه:

١٨٣، معدى بمن: ٤٢٩

تعجب: ٩٣

التعريف والتكثير: ١٢٣

خير كان: ٥٣

الخبر المثبت: ١٥٧

الخبر (الإخبار): ١٢٣ - ١٩١ - ٣٢٧ -

٣٢٨ - ٤٨١

خفة الحروف: ٤٧٦

(د)

الدخيل (في اللغات): ٢٥٦

الدلالة: ٩٢، أدل: ٩٣ - ١٠٦ - ١٨١ -

٢٧٠ - ٢٧٢ - ٤١٣ - ٤٢٢ - ٤٨٢

دلالات الألفاظ: ٢٧٢، دلالة اللفظ:

١٦٩

دلالة (الأدوات): ٣٢٤

دلائل اللغة: ٢٥٦

(ذ)

ذوات الكلم: ٢٩٣ - ٢٩٤

(ز)

ربط الجملة: ٢٧٧ - ٣١٦

الرفع: ٦٥ - ٨٤ - ٨٥ - ٣٨١

روية وفكر: ٣٥١

(س)

سهولة الحروف: ٤٧٦ - ٤٧٧

السياق: ٩٠

جهيز الصوت: ٦٤

جواب الشرط: ٢٢٧

جواب القسم: ٣٢٠

(ح)

الحال: ٥٢ - ٥٦ - ٨٤ - ٨٥ - ١٠١ -

١٥٠ - ٢١٥ - ذو حال: ٥٦

حُبْسَة: ٦٤

الحذف: ٨٣ - ١٧٠ (في الجملة) - حذف

الخبر: ٣١٨

الحركة: ٨٣، حركات الإعراب: ٤٧٥

حرف: ٥٢ - ١٠٧، حروف النفي: ٥٤،

حروف المعجم: ٩٨

حروف منظومة: ٩٧، حروف الجر: ٥٤ -

٨٣

حروف الجزاء (المجازاة): ١٨٣ - ١٨٥

الحمل على المعنى: ٣٢٦ - ٣٣٧

الحكاية: ٣٥٠ - ٣٦٩ - ٣٧٠، المحكي

عنه: ٣٥٠

الحقيقة (المعنى): ٢٩٦ - ٣٩٧

حوشي الكلام: ٣٧٩

(خ)

خبر: ٥٢ - ٥٦ - ٥٧ - ٦٤ - ٨٤ - ٨٥ -

١٠١

الخبر (في الجملة): ١٤١ - ١٤٣

العرف والعادة: ١٦٥

العطف: ٥٢ - ٥٤ - ٢٤٢، عطف الجمل:

٢٥٢

عطف بيان: ٥٢

العلل (العلة): ٨٣

علم التأويل: ٨٤ - ٨٦

علم النحو: ١٢٢ - ٢٢٦

علم الإعراب: ٦٤

علم اللغة: ٦٤

عمل الفعل: ٥٢

العَيْن: ١٦٨

(غ)

غريب القرآن: ٦٩

الغريب (اللغوي): ٣٧٩

(ف)

الفاعل: ٥٢ - ٥٦ - ٥٧ - ١٠١ - ١٤٤ -

١٤٧

الفعل: ٥٢ - ٥٧ - ٨٤ - ١٠١ - ١٠٧ -

١٤١ - ١٦٣ - ٢٣٠

فكر وروية: ١٠٨

(ق)

القصر: ١٦٩

القطع والاستئناف: ١٧١

قَلَق (لفظ): ١٠٨

(ش)

شرط وجزاء: ٥٥ - ١٠١ - ١٢٣ - ١٣٣

الشرط وجوابه: ١٢٦

الشمول (كلّ): ٢٨١ - ٢٠٩ - ٢١٠

(ص)

الصفة: ٥٢ - ٥٦ - ٨٤ - ١٠١، موصوف:

٨٤ - ٥٦

الصفة المشبهة: ٥٢

الصلة (في الاسم والجملة) ٢٣٦،

الصلات والصفات: ٢٠٧

صورة المعنى: ٤٨٦

(ض)

الضمير: ٨٤، إضمار ٩٤

ضمير المتكلم: ٢٢٣

ضميره: ١٨٨

ضمير الفصل: ١٩٥

ضمير القصة: ١٦١

(ظ)

ظرف (مفعول فيه): ٥٣ - ١٢٦

(ع)

العامل: ٥٤

العبارة: ١٠٩ - ٤٤٤ - ٤٦٦

٢٦٥ - ٢٦٦ - ٢٩٣ - ٣١٢ - ٣٢٧ -

٣٥٤ - ٣٥٦ - ٣٥٧ - ٣٦٠ - ٣٦٢ -

٣٧١ - ٣٨٥ - ٣٩٢ - ٣٩٦ - ٤١١ -

٤١٨ - ٤٤١ - ٤٨١

لكنة: ٦٤

(م)

ما لا ينصرف: ٨٣

الماضي: ٢٢٣ - ٢٣٠

المبتدأ: ٥٦ - ٥٧ - ٨٤ - ١٠١

متمكّن: ١٠٨

متون الألفاظ: ٣٥١

مذاقة الحروف: ٤٦٤ - ٤٧٦

مسند: ٥٧

مسند إليه: ٥٤

المسثنى: ٥٤

المصدر: ٥٢، المصادر: ٢٠٧

المضارع: ١٦٤ - ٢٢١ - ٢٢٢

المعنى / المعاني: ٨٢ - ٨٨ - ٨٧ - ٩٢ -

٩٩ - ١٠٠ - ١٠٢ - ١٠٦ - ١١٠ -

١١٢ - ١١٤ - ١٢١ - ١٥٧ - ١٦٧ -

١٣٣ - ١٣٦ - ١٩٢ - ٢٠٥ - ٢١٠ -

٢٦٢ - ٣٢٥ - ٣٣٤ - ٣٣٦ - ٤٠٨ -

٤٨٦

معاني النحو وأحكامه: ٥٥ - ١٢٣ - ١٢٥ -

١٢٧ - ٣٥٣ - ٣٧٥ - ٣٧٦ - ٣٧٧ -

٣٨٣ - ٣٨٨ - ٤١٧

قوانين النحو: ٥٧ - ٣٧٥

القياس: ١٦٥

(ك)

الكلمة: ٩٠ - ٩٢ - ٩٣ - ٩٦، (الكلمة:

الفكرة ٢٩٢)، الوحشية: ٦٤

الكلم: ٥٢ - ٨٨ - ١٠٢

الكلم المفردة: ١١٤

كلم منظومة: ٩٧

كلام: ٥٥ - ٥٦ - ٨١ - ١٣٦ - ١٩٦ -

٣٢٧ - ٣٣٦

كلام العرب: ٥٥

مخارج الكلام: ٣٠٢

(ل)

اللحن: ١٣٧ (يلحن): ٦٤

لسان العرب: ٦٦

اللفظ - اللفظة: ٨٧ - ٩٢ - ٩٣ - ٩٤ -

٩٦ - ١٠٢ - ١٠٧ - ١١٠ - ١١٢ -

١٢٠ - ١٤٦ - ١٦٩ - ٢٤٦

الألفاظ: ٨٢ - ٩٠ - ٩٤ - ٩٩ - ١٠٠ -

١٠٦

اللفظ الغريب: ٦٤

الألفاظ الدالة بالنطق: ١٠٠

الألفاظ المفردة: ٤٢٢ - ٤٨٩

اللفظ والمعنى: ١٠٥ - ١٠٨ - ١٣٧ -

١٦٤ - ٢٥٨ - ٢٥٩ - ٢٦٢ - ٢٦٤ -

النظم: ٥١ - ٥٢ - ٥٧ - ٨٧ - ٨٨ - ٨٩ -
 ٩٦ - ١٠٢ - ١٢٢ - ١٢٤ - ١٢٨ -
 ١٣٨ - ١٤٢ - ٣٥١ - ٤٢١ - ٤٣٦ -
 ٤٣٧ - ٤٧٩ - ٤٨٠ - ٤٩٤

الناظم: ٣٩١

منظوم: ٩٨

النفي: ١٥٥ - ١٥٦

نفي الجنس: ٥٤

النقل للغوي: ٤٠٤ - ٤٠٩

نهي: ٦٤ - ٩٣

(و)

الوصفية: ٣٦٦

واضع اللغة: ٨٣ - ٩٧ - ٣٨٢ - ٤٢٧

واضع الكلام: ٣٩٠

وضع لغوي: ٢٥٧ - ٣٥٨ - ٤٦٥

المواضعة: ٤٤٠ - ٤٩١

يتواضع أهل اللغة: ٢٥٦

الوهم (والتقدير): ٢٠٠

(ي)

يسند: ٥٤ - ٢٠٤

يثقل على اللسان: ٤٧٤ - ٤٧٧

معاني الترتيب والتردد (معاني الحروف):
 ٢٣٣

معنى المعنى: ٢٦٨ - ٢٦٩ - ٢٧٢

المعتل: ٨٣

المفعول: ٥٢ - ٥٦ - ١٠١ - ١٤٣ - ١٤٤

مفعول له: ٥٣ - ٣٩٤

المفعول المطلق: ٥٣

المفعول معه: ٥٣

معمول للفعل: ٢٨٥

المعيار: ٨٢

المقياس: ٨٢، المقاييس: ٨٣

مقاييس اللغة: ٤٢٣

مواقع المعاني (في النفس): ١٠٠ - ١٠٢

موضع من الإعراب: ٢٣٣

الموازنة (بين اللغات): ٩٣

(ن)

النداء: ٥٥ - ٩٤

النحو: ٦٥ - ٨٢، النحويون: ٨٤

نُحي (هذا النحو): ١٦٦

النسق: ٣٥٤ - ٣٧٥ - ٤٢٩ - ٤٣٠ - ٤٣٤

النصب: ٥٤ - ٥٦ - ٨٣ - ٣٨١

النطق: ٩٨

فهرس المصطلحات البلاغية والنقدية

الاستغراق: ٢٠٩
 الاستفهام: ١٤٧-١٤٨-١٥٢-١٥٤
 ١٥٥-١٥٧-١٦٦-١٦٧-١٦٩
 ٣٢٧
 الإشارة: ٨٠-٨٧-١٠٩
 إشكال: ٢٢٥
 الإضمار: ١٢٣
 الإطناب: ٦٤
 الإظهار والإضمار: ١٤٥-١٨٨
 الأمر: ١٦٧
 الانفصال إلى الغاية: ٢٥١
 إنكار: ١٤٨-١٤٩-١٥٠-١٥١-١٥٢
 ١٥٨-١٧٩-٢٨٨-٣١٢-٣٢٠
 ٣٢٣-٣٢٩-٣٦٥-٣٦٦
 إنمّا: ٣٢٥-٣٢٦-٣٢٧-٣٢٨-٣٣٣-
 ٣٤٤-٣٤٥-٣٤٨-٣٤٩
 الإلهام (الشعري): ١٢٩
 الإيجاز: ٤٢٦-٤٧٦
 الإيماء: ٨٧١

(ب)

بحور الشعر: ٣٩٨-٣٧٢

(١)

الإبداع: ١٠٤
 أبلغ: ٢٣٧
 الأخذ: ٤٤٠
 أشعار المولدين: ٢٦٢
 الاتساع: ٢٩٣-٣٠١
 الاتصال إلى الغاية: ٢٥١
 الإجمال والتفصيل: ١٠٥
 الاحتذاء: ٤٣٠-٤٣٢
 اختصاص: ٣٣٤-٣٣٧-٣٤٠-٣٤٣
 الادّعاء/ الاستعارة: ٣٥٧-٤٠٩-٤١٤
 استخبار: ١٦٦
 الاستدلال: ٢١٠
 الاستعارة (مستعار - مستعارة - يستعير -
 مستعير): ٨٠-١١١-١١٢-١١٥
 ١١٦-١٢١-١٢٥-١٣٨-١٣٩
 ١٤٠-١٤٢-٢٦٨-٢٧٠-٢٩٦
 ٢٩٩-٣٥٨-٣٧٥-٣٧٦-٣٧٨
 ٣٨٦-٣٨٧-٤٠٠-٤٠٢-٤٠٤
 ٤٠٦-٤٠٧-٤٠٩-٤١١-٤١٥
 ٤١٦-٤٤١-٤٧٦-٤٧٧-٤٨٩

التصاویر: ٨٨	بديع التألیف: ١٠٥
التصویر: ٢٦١ - ٢٦٣ - ٢٦٦	البراعة: ١٠٥
یتصوّر: ٢٦٦	بلاغة: ٦٤ - ٨٠ - ٨١ - ٨٧ - ٩٢ - ١٠٤
تصویر: ٤٥٨	١٠٥ - ١١٤ - ١٤٥ - ٢٣٢ - ٢٥٦
التعادل: ١٠٦	٢٦٢ - ٢٦٣ - ٢٦٥ - ٢٧٢ - ٢٩٥
التعريض: ١١٣ - ١٨٧ - ٢٩٣ - ٣٠٤	٣٠١ - ٣٠٣ - ٤٧٥
٣٤٧ - ٣٤٨	البلغاء: ٥٦ - ١٠٠
التعريف والتكثير: ١٢٣	بليغ: ٨٠ - ١٠٥
التعريف: ٢٩٠	البليغ (الكاتب): ٢٩٥
التفسير: ١٨٣ - ٣٠٣	بيان: ٥٦ - ٦٨ - ٧٤ - ٨٠ - ٨٧ - ٩٢ - ١٠٥
التقديم: ١٠٥ - ١٢٣ - ١٢٥ - ١٣٨	الفصاحة والبيان: ٤٢٠ - ٤٦٨
١٤٣ - ١٤٦ - ١٤٧ - ١٥٠ - ١٥١	
١٥٣ - ١٥٤ - ١٥٧ - ٢١٧ - ٢٨٧	(ت)
٢٨٨ - ٣٣٦ - ٣٣٧ - ٣٤٣ - ٤٢٩	التأكيد: ١٠٥
التقرير: ١٤٨	التأخير: (١٠٥ - ١٢٣ - ١٢٥ - ١٣٨)
التكرار: ١٢٣ - ١٤٥ - ٣١٢	١٤٣ - (٢٥٥ - ٣٣٩ - ٣٤٣)
التلاؤم اللفظي: ١٠٣	تثقل على اللسان: ١٠٤
التلاؤم: ١٠٦	التجنيس: ١٠٥ - ٢٧٧
التلويع: ٨٠ - ٣٠٥	تجنيس: ١٢٥
التمثيل: ٨٠ - ١٠٤ - ١١١ - ١١٢ - ١١٤	تخيّل: ٢١٠
١١٥ - ١٥٢ - ١٥٣ - ٢٦٨ - ٢٩٦	التخيل: ٣٥٦
٣٠٣ - ٣٧٦ - ٤٠٢ - ٤٠٩ - ٤١١	تشبيه (مشبه/ مشبه به): (٥٥ - ١٠٤ - ١١١)
٤٨٩	١١٥ - ١٥٣ - ٢٣٧ - ٢٦٨ - ٢٧٠
تمثيل وقياس: ٤٦٥	٣٩١
التهمك: ٣٢٣	الترصيع: ١٠٥
توحشك (اللفظة): ٩٤	تصحیح الأقسام: ١٠٤
التورية: ٢٩٣	التصريح: ١١٣ - ١١٤ - ١١٥

الخفّة (اللفظ): ٩٥

(ر)

الرمز: ٨٧

روعة: ١٦١

(س)

السجع: ١٠٥ - ١٠٦ - ١٤٦ - ٤٧٧

(المستجعة): ١٠٦

(الأسجاع): ٤٧٧

السرقعة (مسترق): ٤٣٢ - ٤٤٠

السفاف: ٤٧٥

السلخ: ٤٣٣

سلامة اللفظ: ١٠٥

السوقي: ٤٧٥

(ش)

الشاعر: ٧٨ - ١٠٦ - ٣٥١ - ٤٤١

الشاعر (الشعر - الشاعر): ١٢٩

شاعر فحل: ١٢٩

الشاعر المُفلق: ٢٩٥ - ٣٠٤

شدّة الخفاء: ٢٨٦

شرف: ١٦١

الشعر: ٦٤ - ٦٥ - ٦٩ - ٧٢ - ٧٤ - ٧٨

٧٩ - ٨١ - ١٢٦ - ١٢٩ - ١٤٧ - ١٥٨

٢١٠ - ٢٥٨ - ٢٥٩ - ٢٦٠ - ٣٥١

٣٥٣ - ٣٧٣ - ٣٩٦ - ٤٧٠

التوكيد: ٣١٢ - ٣٢١

التوقم: ٣٥٦

(ج)

الجزالة: ١٠٥ - ٣٠٥

الجملة: ٢٢٤ - ٢٢٥ - ٢٢٦ - ٢٢٩ -

٢٣٢ - ٢٣٣ - ٢٥٣

جهير الصوت: ٦٤

(ح)

خُبّة: ٦٤

الحذف: ١٠٥ - ١٢٣ - ١٤٥ - ١٧٤ -

١٧٥ - ١٧٨ - ١٨٠ - ١٨٢ - ١٨٣ -

١٨٤ - ١٨٥ - ١٨٦ - ١٨٧ - ١٩٠ -

٣٤٥ - ٣٦٤ - ٣٦٧ - ٤٩٦

المحذوف: ١٧٦

حسن الترتيب والنظام: ١٠٤

الحقيقة: ١٤٨ - ١٤٩ - ٢٩٦ - ٢٩٧ -

٣٥٨ - ٤١٤

الحكاية (المحاكاة): ٣٥٠ - ٣٦٩

الحاكي: ٣٧٠

حوشي الكلام: ٣٧٩

(خ)

الخبر: ١٩١ - ١٩٢ - ٢٢٠ - ٢٢٥ - ٢٢٦ -

٢٣٤ - ٢٣٦ - ٣١٨ - ٣٢٨ - ٣٢٩ -

٤٨١ - ٤٨٣

(غ)

غموض: ٢٢٥

(ف)

الفخامة: ٩٤ - ١٣٩ - ٣٠٥

فخامة: ١٦١

فَحَمَتِ المعنى: ٣٩٩

فرط الغموض: ٢٨٦

الفصل والوصل: ١٠٥ - ١٢٣ - ١٤٥

٢٣٢

الفصاحة: ٦٤ - ٦٩ - ٨٠ - ٨٧ - ٨٩

٩٢ - ٩٤ - ١٠٤ - ١٠٥ - ١٠٧ - ١١٤

٢٦٣ - ٢٦٥ - ٣٧٦ - ٣٨٠ - ٣٨٢

٤٢٣ - ٤٢٩ - ٤٧٥

(علم الفصاحة): ٨٩

فصبح: ٨٠ - ١٠٧

الفصبح: ٣٨٢

فُتْرِكَ: ٩٩

فكر وروية: ٩٩ - ١٣٦ - ٢٨٧

(ق)

(القصر) يقصر الصفة: ١٦٠ - ١٧٠ - ١٩٦

قلقة: ٩٣

(لفظ قلق): ١٠٨

القوافي: ١٤٦ - ٣٧٣

شعر الجاهلية: ٧٥

شعر شاعر: ٣٠٤

الشعراء: ٨٠ - ٨١ - ٣٢٩

(ص)

صنعة: ٨٠ - ٢٦٢ - ٣٥٤ - ٤٥٨

صواب الإشارة: ١٠٤

الصورة: ٢٠٢ - ٢٦١ - ٢٦٧ - ٢٧٧ -

٣٥٤ - ٣٥٧ - ٣٦٠ - ٣٦١ - ٣٦٣ -

٤٣٩ - ٤٦٠ - ٤٦٤ - ٤٦٥

الصياغة: ٨٧

الصياغة (الصوغ للذهب): ٢٦١

صياغة (الشعر): ٢٦٣

(ط)

الطبع: ٢٦١

الطَّلَاوة: ١٣٨ - ٣١٧

(ظ)

الظرف: ١٣٨

(ع)

العاميّ المبثذل (الاستعارة): ١١٦

العبارة: ١٠٤

العبارة (التعيير): ١٠٩ - ٢٧٥

العبارة (الجُمْل): ٢٦٤ - ٢٦٧

متمكن (لفظ): ١٠٨

المجاز: ١١٠ - ٢٩٣ - ٢٩٤ - ٢٩٥ -

٢٩٧ - ٣٠٣ - ٣٥٨ - ٣٧٦ - ٤٢٦

المجاز الحكمي: ٢٩٧

مذاقة الحروف: ٤٧٤

مستكرهة: ٩٣

مصنوع: ٢٩٥

المطبوعون (الشعراء): ١٢٩

مطبوع: ٢٩٥

المعاظلة: ٣٧٩

معنى المعنى: ٢٦٩ - ٢٧٠ - ٢٧٢

المعنى العامي: ٣٩٧

معاني النحو: ١٢٣ - ١٢٦ - ٣٥٣ - ٣٦١ -

٣٧٥ - ٣٧٧ - ٣٨٣ - ٣٨٨ - ٣٨٩ -

٣٩١ - ٣٩٥ - ٤١٧ - ٤١٨ - ٤١٩ -

٤٤٥ - ٤٨٠ - ٤٩٤

مقفى: ٦٨ - ٧٩

موزون: ٦٨ - ٧٩ - ٨١

(ن)

ناقد الشعر: ٢٦٠

النظم: ٥١ - ٥٢ - ٩٧ - ١٠٢ - ١٠٥ -

١٢٢ - ١٢٣ - ١٢٤ - ١٢٥ - ١٣٧ -

١٣٨ - ١٤٠ - ١٤٥ - ١٦٦ - ٢٦٣ -

٢٦٤ - ٢٧٠ - ٢٩٧ - ٢٨١ - ٣٩٣ -

٤٠٢ - ٤١٨ - ٤٣٧ - ٤٧٩ - ٤٩٤

النفي: ١٥٥ - ١٥٧

(ك)

الكلام البليغ: ١٦٣

الكلام (النص): ٢٦٥ - ٢٦٧

كلام عامي (عادي): ٣٠١

الكلمة الوحشية: ٦٤

الكناية (الكناية والتعريض): ١١٠ - ١١٣ -

١١٥ - ١٨٧ - ١٨٨ - ٢٦٨ - ٣٠٤ -

٣٠٥ - ٣٠٨ - ٣٠٩ - ٣٧٦ - ٤٠٠ -

٤٠٢ - ٤٠٣ - ٤٠٩ - ٤١٠ - ٤١١ -

٤٨٩

(ل)

اللفظة المستعارة: ١٢٠

اللفظ والمعنى (الألفاظ والمعاني): ١٠٠ -

١٠٥ - ١٠٧ - ١٠٨ - ١٣٨ - ٢٥٩ -

٢٦٥ - ٢٨٨ - ٣٦٢ - ٣٧٧ - ٣٨١ -

٣٨٥ - ٣٨٦ - ٣٩١ - ٣٩٢ - ٤٠٠ -

٤١٠ - ٤١٨ - ٤٢٩ - ٤٣٧ - ٤٣٩ -

٤٤٠ - ٤٦٦

لُكْنَة: ٦٤

(م)

المادح: ١٦٣

يمدح: ١٦٣

المبالغة (الاستعارة): ٤٠٨

مبتذلة (الاستعارة): ١٤٢

متمكنة (لفظة): ٩٣

وزن الشعر: (صحيحه / مكسوره/

مزاحفه/ سالمه): ٢٩١

وضوح الدلالة: ١٠٤

(ي)

يُتَصَوَّر: ١٥٢ - ١٩٨ - ٢٣٥ - ٣٥٥ -

٣٨٩ - ٣٨١

(يُصَوِّر): ٢٠٠

يخصّص: ١٩٦

يضطرب (القول): ٩٦

(في الوهم): ٢٠٠

يوهم: ٢٠٢ - ١٤٨ - ٢٨٦

يوهمونهم: ٢٤٢

توقم: ٢٥٣

النقل (المجاز): ١١٠

نقلت (النقل) الاستعارة: ٤٠٤

نقل الاسم/ الاستعارة: ٤٠٥ - ٤٠٦ -

٤٠٧

نكرة: ١٦٨ - ١٦٩ - ٢١٢ - ٢١٣ - ٢٨٩ -

٢٩٠ - ٣١٦ - ٣١٧

النمط العالي: ١٣٥

النهى: ٣٢٧

(هـ)

الهجاء: ١٤١

هية (النفس): ٩٤

(و)

الوزن: ٨٠ - ٨١ - ١٠٥ - ٢٦٢ - ٣٥٥ -

٣٧٣

فهرس الشواهد الشعرية

الصفحة	الشاعر	القافية	اول البيت
(الهزة)			
٢٣٩-٣٤٨	عيد الله بن قيس الرقيات	الظلماء	إنما مصعب..
(بيتان) ١٣٤	سليمان بن داود القضاعي	اعتلاء	فيينا المرء..
(بيتان متاليان) ١٧٢	أبو برج القاسم بن حنبل المرّي	شاؤوا	هم حلّوا..
٤٦٦	عبد الله بن مصعب بن ثابت	ما تشاء	كانك جنت..
٤٥٥	ليد وينسب إلى عمرو بن قميّة	دأء	ودعوت..
٢٧٧، ٣١٣	بعض العرب	الحداء	فغثها..
(بيتان) ٢٢٤	بعض العرب	والدلاء	لنا فتى..

(ب)

٢٢١	مسكين الدارمي	لأب	أكسبه..
٤٥٤	المتنبي	طلبا	يضاء..
٤٥٧	المتنبي	ضربا	مظلومة..
٤١٧	ابن المعتز	عنا	أثمرت..
٤٦٧	بشار بن برد	المهذبا	خلقت..
٤٧٠	الفرزدق	غابا	بلغن..
٢٣١	سعد بن ناشب	جالبا	سأغسل..
١٢٥	البحري (أربعة أبيات)	ضريبا	بلونا..
١٢٩	مجهول القائل (بيتان)	السرابا	تمنانا..

اول البيت	القافية	الشاعر	الصفحة
إذا شاء..	رربا	البحري	١٨٥
لو أن..	أحجبُ	خالد بن يزيد الأموي	٢٢٣
ناهضتهم..	تلهبُ	البحري	٢٩٩
أن أرعشت..	غالبه	فرعان بن الأعر	٣٩٩
أرى الناس..	لواجبه	أبو تمام (بيتان)	٤٥٤
وكل امرئ..	طيبُ	المتنبي	٤٤٨
أما تغلط..	تُقربُ	المتنبي	٣٤٣
وإذا صدقت..	المكذوبُ	نافع بن لقيط	٤٥٨
خليت..	تتخبُ	أبو نواس	٤٦٦
لقد صبرت..	قضيْبُ	أبو وائلة	٢١٦
أخوك..	جانبه	بشار بن برد	٢٠٠
كأن مثار..	كواكبه	بشار بن برد	٤٨٧-٣٨٩-١٣٥
هم يضربون..	سبائبُ	الأخنس بن شهاب	١٥٩
وما مثله..	يقاربه	الفرزدق	١٢٤
فزرتها..	فتصوبوا	النابعة الجعدي	١٦٤
ديار مية..	ولا عربُ	ذو الرمة	١٧١
ذهبت..	مذهبُ	أبو تمام	٤٧٧
وقبله ملكته..	غاربي	إبراهيم بن المدبر	٢٤٤
أصبح..	والحسبُ	يزيد بن الحكم	٣٠٦
ما أنت..	الأسبابُ	الباخري	(بيتان) ٣٤٧
وصاعقة..	سحائبُ	البحري	٢٩٨
وكيف..	مرحبُ	النابعة الجعدي	٣٠٠
عذلاً..	كتابُ	أبو تمام	٣٨٤
زعمت..	الغلابُ	كعب بن مالك	٧٣
أخو عزمات..	مذنِبُ	أبو تمام	٤٤٧

الصفحة	الشاعر	القافية	أول البيت
٤٤٣	أحمد بن أبي فتن	القلب	أدميت..
(بيتان) ٤٤٣	إبراهيم بن المهدي	رطب	يا من لقلب..
٤٥٠	البحري	الغرب	تناذر..
(بيتان) ٢٤٤	اليزيدي	غاربي	ملكته حلي..
٤٦٨	نُصيب	الحقائب	فعاجوا..
٤٤٨-٤٤٥	البحري	المطلب	وأحب..
٤٤٨	البحري	محارب	لقد كان..
٤٥٥	أبو تمام	لم تحجب	فنعمت..
٤١٦	أبو نواس	بعتاب	تبكي..
٤٥٩	الناطقة الذبياني	بعضائب	إذا ما غدا..
٤٦٣	ابن المعتز	إليابها	وما ينتقص..
٤٦٠	البحري	بالمعيب	يعتب..
ثلاثة أبيات ٤٦٩	بشار بن برد	حُطبة	زور ملوك..
أربعة أبيات ٤٧٢	أبو تمام	العجائب	إليك..
٢٠٥	المتنبي	محبوب	أنت الحبيب..
٢٠٠	حُجبة بن المضر	يغضب	أخوك...
(بيتان) ٢٦٠	أبو ذؤاب	شهاب	إن يقتلوك..
٢٧٣	الناطقة الذبياني	جانب	وصدر..
١٤٠	بعض الأعراب	غراب	الليل داج..
١٤٢	أبو تمام	الجلباب	خذها..
١٢١	أبو تمام	التعب	بصُرت..
٤٧٣ (ثلاثة أبيات)	البحري	ثوابه	لله..

(ت)

٤٥٨	ينسب إلى قطري وإلى عمران ابن حطان الخارجي	مولأته	أأقاتل..

اول البيت	القافية	الشاعر	الصفحة
عجباً له..	عاداتها	المتني	٤٩٩
سأشكر..	جلّت	عبد الله بن الزبير	(بيتان) ١٧٣
ولاني وتهيامي..	تخلّت	كثير عزة	(بيتان) ١٣٤
يبث..	حُلّت	الشنفرى	٣٠٩
زعم العواذل..	وأجمت	جندب بن عمار	(بيتان) ٢٤٣
عزّوا..	الهامات	الكندي	(بيتان) ٤٦٤
فلو أنّ..	أجرت	عمرو بن معد يكرب	١٧٩
جزى الله..	فزلت	طفيل الغنوي	(ثلاثة أبيات) ١٨٠

(ج)

ولقد أعتدي..	إضربُ	أبو دؤاد الإيادي	(بيتان) ٢١٨-١٣١
إنّ السّاحة..	الحشرج	زياد الأعجم	(أربعة أبيات) ٣٠٥
بخيل قد..	بالحجج	ابن المعتز	١١٩
فصاغ	ديباچ	البحري	٥٠٠

(ح)

جاء شقيق..	رماخ	حجلة بن نضلة	٣٢٣
يا صاحبي..	مقرحا	أبو نواس	(بيتان) ٤٩٦
ولمّا قضينا..	ماسح	كثير عزة	(ثلاثة أبيات) ١١٦-
			٢٩٦-٢٩٤
لقد كنت..	طائئح	الأغرّ	(بيتان) ١٢٠
هي البرء..	المبرح	ذو الرّمة	(ثلاثة أبيات) ٢٧٨
فجرنا..	يسح	ابن ميادة	٤٧٠
ألا بلغ..	يمزح	عقال بن هشام	(خمس أبيات) ٤٧٠
رمتني بسهم..	جارح	كثير عزة	٤٥٥
وظلت..	ملاح	ابن المعتز	١٤٢

الصفحة	الشاعر	القافية	أول البيت
٤٦٠	أبو العتاهية	المداح	شيم..
٢٠٣	جرير	راح	ألستم..

(د)

٤٥٦ (بيتان)	أبو العتاهية	استجده	أقلل..
٣١٥ (ثلاثة أبيات)	بعض الحجازيين	وطرادها	إذا طمع..
٤٦٨ (بيتان)	عدي بن الرقاع	سنادها	وقصيدة..
١٧٦ (بيتان)	مجهول	ووفودا	قالت سمية..
١٣٤ (ثلاثة أبيات)	مجهول	أبدا	لو أن..
٤٤٦-١٤٢	المتنبي	تقيدا	وقيدت..
١٧١ (بيتان)	عمرو بن معد يكرب	ونهدا	وعلمت أني..
٢٠٠ (ثلاثة أبيات)	ابن الرومي	غدا	أهدي إلي..
٢٦٢-٢٧٣	العباس بن الأحنف	لتجمدا	سأطلب بعد..
٤٥٣	أبو تمام	هند	فلا تحسبا..
٤٤٩ (بيتان)	بشار بن برد	وساد	لخديك من..
٥٠١	ابن الرومي	مغمدا	بجهل كجهل..
٤٦٤	المتنبي	غامدا	له من..
٤٦٢	ابن الرومي	الغد	أما يظل..
٣٢٩	الحطيئة (جرويل بن أوس)	سعد	وتعذلني..
٤٤٦	المتنبي	يرقلها	بش الليالي..
١٩٨	حسان بن ثابت	العبد	وإن سنام..
١٣٥ ، ١٤٢ (بيتان)	الخالدي	مجتهدا	ويعرف الشعر..
١٩٩	ابن الرومي	مفرد	هو الرجل..
٢١٦	بشار بن برد	سواد	إذا أنكرتني..
٢٢٥	الفردق	الحوارد	فقلت عسى..
٢٢١ (بيتان)	مالك بن ربيع	لا أحيذ	أتاني مصعب..

الصفحة	الشاعر	القافية	أول البيت
٢٧٤	أبو العطاء السندي	لجمود	ألا إنَّ..
٤٤٣	ليبد بن ربيعة	الأسد	أخشى على..
٤٥١	أبو تمام	الأسد	أطلت..
٤٥٠	مسلم بن الوليد	بالمقاليد	لَمَّا نزلت..
٤٥٥	المتنبي	الجلود	راميات بأسهم..
٤٦٠	بشار بن برد	مودود	الشيب كره..
٤٥٦	أبو تمام	تجدد	وطول مقام..
٤١٦-٤١٧	الوأواء الدمشقي	بالبرد	فأسبلت..
٤٤٤، ٤٥٩	أبو تمام	عندي	أسربل..
(أربعة أبيات) ٤٧٣	البحري	عقدي	أيذهب هذا..
(ثمانية أبيات) ٤٧٣	البحري	فريد	في نظام..
(خمس أبيات) ٤٧١	أبو تمام	وريد	حداء تملأ..
٤٧٨	القطامي	الصادي	فهنَّ ينبدن..
٤٩٦	البحري	بأسعد	رأت مكثات..
٢٥٨	الحطيئة	موقد	متى تأته..
٣٠٩، ٤٤٧	البحري	المجد	ظللنا نعود..
٣١٠	أبو تمام	أبا سعيد	أبينَ فما يزرن..
(أربعة أبيات) ٣١١	مجهول	مؤيد	سألت..
٣٢٨	المتنبي	الأولاد	إنما أنت..
(ثلاثة أبيات) ١٣٠	أبو حفص الشطرنجي	إلى أحد	لو كان يمنع..
٣٦٣	مجهول	الأبعاد	بنونا بنو..
(بيتان) ٢٨٤	دعبل الخزاعي	بالمكدي	فوالله..
١٨٣	البحري	خالد	لو شئت..
١٨٥	طرفة بن العبد	محصد	وإن شئت..
١٨٥	البحري	وزروده	لو شئت عدت..

الصفحة	الشاعر	القافية	أول البيت
(بيتان) ٤٦٧	ابن الرومي	كبدِي	أعتقني سوء..
١٢٠	بشار بن برد	جلدي	وصاحب..
١٦٦	أبو تمام	الأيادي	وغيري يأكل..
١٠٤	أبو تمام	وحدي	كريم متى..
٢١١	المتنبي	بالجواد	وأنت لا تجود..
٢١١	البحري	لم يجِدْ	أعطيت حتى..
٤٠١ ، ٣٩٨ ، ٢٠٩	أبو نواس	واحد	وليس على..
٤٠٠-٢٢٢	أرطاة بن شهية	الأسد	إن تلقني..

(ج)

(بيتان) ١٧٢	أسيد بن عتقاء	جهز	رآني على..
(ثلاثة أبيات) ٤٦٨	تميم بن أبي بن مقبل	أشعرا	إذا مت..
٢٩٦	أبو نواس	نظرا	يزيدك..
(ثلاثة أبيات) ٣٠٧	نصيب	ظاهرة	لعبد العزيز..
١٤١	علي بن حمزة	خياره	يا علي
٣٠٨	الكميت الأسدي	صارا	يصير..
١٩٧	الأعشى	عشارا	هو الواهب..
١٨٦	الجوهري	تفكرا	فلم يُبقِ..
٢٠٣	جميل بن معمر	شمرا	أبوك حباب..
(بيتان) ١٧٣	الوليد بن حنيفة	وأدبرا	ألا لا فتى..
١٥٦	المتنبي	نارا	وما أنا..
(ثلاثة أبيات) ٧٧	النابغة الجعدي	مظهرا	بلغنا السماء..
٥٠٢	المتنبي	الدهر	من نضرب..
٤٧٢	البحري	تتشرب	أحسن أبا..
٤٥٣	البحري	العمر	عريقون..
٤٥١	أبو تمام	عذر	لئن كان..

الصفحة	الشاعر	القافية	أول البيت
(بيتان) ٤٥٦	الخريمي	صغيرُ	زاد معروفك..
٤٢٥	محمد بن بشير	السهر	قولي
٥٠٢	خالد بن صفوان الأهمي	أخضرُ	وإن طرة..
١٠٣	مجهول	قبرُ	وقبرُ
٤٥١	المتني	عذرُ	أزالت بك..
٤٦٢	أبو تمام	النسرُ	لئن ذقت..
٤٧٣	البحري	التبرُ	بمنقوشة..
٣٠٨	أبو نواس	يصيرُ	فما جازه..
(بيتان) ٧٧	النايفة	يكدرُ	ولا خير..
٢٩٩	الخنساء	إدبارُ	ترتع ما رتعت..
٤٥١	البحري	أظافره	فجاء مجيء..
٤٣٠	الفرزدق	كبارها	أترجو..
١٥٣	ابن أبي عينة	يضيرُ	فدع الوعيد..
١٩٨	مجهول	المواطنُ	أسودُ إذا..
٤٥١	البحري	أعتذرُ	إذا محاسني..
(أربعة أبيات) ١٧٤	جميل بن معمر	لصبورُ	إنني عشية..
٢٢٤	أحد الخوارج	استبشارُ	يمشون..
(ثلاثة أبيات) ٢٨٠	مجهول	باكرُ	ديار لجهمة..
١٣٣	البحري	الهجر	إذا ما نهى..
١٣٥	الفرزدق	نهارُ	والشيب..
(ثلاثة أبيات) ١٢٦	إبراهيم بن العباس الصولي	نصيرُ	فلو إذ..
(بيتان) ١١٨	مجهول	فأعتذر	اليوم يومان..
١٦٣	طرفة بن العبد	يتقرُ	نحن في..
١٥٦	المتني	شعرُ	وما أنا وحدي..
٤٤٢	عبد الله بن يزيد	لم أحذرِ	وحذرت من..

الصفحة	الشاعر	القافية	أول البيت
٤٤٩	خالد الكاتب	بلا آخر	رقدت ولم..
(ثلاثة أبيات) ٤٢٥	الحكم بن قنبر	صبري	ولولا اعتصامي..
(ثلاثة أبيات) ٢٩٨	مجهول	الضفر	تناس طلاب..
٢١٧	المسيب بن علس	لا يدري	نصف النهار..
٢٢٢	عكرشة العبيسي	قدر	مضوا..
(بيتان) ٢٦١	مروان بن أبي حفصة	الأباعر	زوامل للأشعار..
٤٥٩	أبو نواس	صوره	وإذا
٢٧٣	أبو نواس	ثمره	لا أذود..
٣١٣-٢٧٦	بشار بن برد	التكبير	بكرا صاحبي..
١٤١	ابن المعتز	النهار	يا مسكة..
١٤١	مجهول	خياره	يا علي بن..
١٦٢	زهير بن أبي سلمى	لا يفري	ولانت..
١٢٤	أبو تمام	الغار	ثانية في..
١١٩	ابن المعتز	الأبصار	حتى إذا..
١٢٠	ابن المعتز	صدري	يتاجيني..
(بيتان) ١٧٢	موسى بن جابر العنبري	أفاخر	إذا ذكر..
٧٥	الأعشى	الواتر	علقم ما أنت..
٧٧		الدار	يا أيها الرجل..
١٣٨ ، ١١٧	سبيع بن الحطيم	كالدنانير	سالت عليه..
(بيتان) ١١٨	يزيد بن مسلمة بن عبد الملك	مخاطر	عودته فيما..
(بيتان) ١١٩	ثعلبة بن صعير	هاتر	ولرب خصم..
(خمسة أبيات) ٤٦٧	أبو العتاهية	ظهري	جزى البخيل..

(س)

٣٣٩	السيد الحميري	فارسا	لو خير..
٤٦٢	أبو تمام	الأمس	يشتاقه..

اول البيت	القافية	الشاعر	الصفحة
ولم أدر..	البساسُ	أبو نواس	٤٣١
والله قد..	النبراسِ	أبو تمام	٧١
أجارتنا..	بابساسِ	محمد بن وهب	(ثلاثة أبيات) ٣٢٢
عليك باليأس..	الياسِ	أبو نواس	٣٢١
تبدو بعطفه..	مؤسِ	البحري	٤٥٤
دع المكارم..	الكاسي	الحطيئة	٤٣٣، ٤٤٤ (بيتان)

(ض)

العين تبدي..	النقضا	بكر بن النطاح	(ثلاثة أبيات) ١٧٥
إذا اعتلّ..	المحضُ	المتني	٤٣١
أبكاني الدهر..	يرضي	حطان بن المعلى	٢٧٤
وإذا المجد..	التقاضي	أبو تمام	٤٥٥
ولم أدر..	محضِ	أبو خراش الهذلي	٤٤٧
أمسلمُ لني..	الأرضِ	يعمر الحماني	(ثلاثة أبيات) ٤٤١

(ع)

يا ليتني فيها..	وأضغُ	ورقة بن نوفل	٩٩
تلقتُ نحو..	وأخذعا	الضمّة بن عبد الله	٩٤
يا ليت أيام..	رواجعا	العجاج	(رجز) ٣١٨
كن إذا..	مطيعا	مجهول	٤٥٧
ومن البلية..	منوعا	ابن الرومي	٤٥٠
قوم إذا..	نفعوا	حسان بن ثابت	(بيتان) ١٣٤
إذا احتربت..	دموئها	البحري	١٣٣
كشفت قناع..	واقُعُ	أبو تمام	(ثلاثة أبيات) ٤٧٠
أهدي لهم..	صنعُ	حسان بن ثابت	٤٧٢
ولو شئت..	أوسُعُ	الخريمي	١٨٤

الصفحة	الشاعر	القافية	أول البيت
٤٦٠	منصور النمري	تجتمعُ	إنَّ المكارم..
١٦٦	المتنبى	شجعوا	غيري
٤٥٧	المتنبى	ويخضعُ	تذلّل لها..
٤٥٣	البحري	تقطعُ	فلا تغلّين..
٤٣٢	البحري	منالُ	ولن ينقل..
٤٩٥	البحري	دموعُ	وساستقل..
٩٥	البحري	أخدعي	واني وإن..
٢٨١	أبو النجم العجلي	أصنعِ	قد أصبحت..
٤٦٧	أبو تمام	الطباعِ	فلو صوّرت..
١٧٨	البحري	واعِ	شجو حساده..
(بيتان) ١٧٤	الأقشِر	بسرّيعِ	سريع إلى..
١٦٦	الأقشِر	بمضّيعِ	حريص..
٥٠٢	دُغبل الخزاعي	منوعِ	أضياف..

(ف)

(بيتان) ٤٥٢	أبو تمام	مؤتفا	تدعى عطايا..
٤٥١	العبّاس بن الأحنف	ينصرفُ	نقل الجبال..
(بيتان) ٧٦	قيس بن معدان الكلبي	عارفُ	مخالف..
٢٤٤	مساور بن هند بن قيس	إلافُ	زعمتم..
٤٥٥	قيس بن الخطيم	سدّ	قضى الله
٢٨٥	أبو العتاهية	فقفِ	ما كلّ رأي..
١٨٢	البحري	يشفي	إذا بعدت..
٧٧	مطرود بن كعب الخزاعي	منافِ	يا أيّها الرجل..

(ق)

٣٤٧	العبّاس بن الأحنف	ما رزقا	أنا لم أرزق..

أول البيت	القافية	الشاعر	الصفحة
وما عفت الرياح.. وساقا	المتنبي	٢٤٥	
يقولون..	يحققوا	أنس بن أبي أنيس	٩١
واني على..	أطرقُ	ابن المعتز	١٣٨
لعمري لقد..	تحرّقُ	الأعشى	(بيتان) ١٩٣
لا يالف..	منطلقُ	النضر بن جؤية	١٩٢
بَعَثَ الهوى..	صديقُ	جرير	٤٥٢
والأ فاعلموا..	شقاقي	بشر بن أبي خازم	٨٥
وإنّا وما تلقى..	يفرقِ	زياد الأعجم	٤٨٧-١٣٥
حسبت بغام..	بالعناقِ	أعرابي	٣٠٠
ولو جنان..	لم يمزّقِ	سلامة بن جندل	٢١٧
إذا امتحن..	صديقِ	أبو نواس	٤٥٢
لي منك..	الطريقِ	مجهول	٤٩٥
ركب تساقوا..	الساقبي	أبو نواس	(بيتان) ٤٩٦

(ك)

يا دهر قوم..	خرقكُ	أبو تمام	٩٥
إنّ أمراً..	شغلْكُ	من شعراء الحماسة	٣١٧
نم فإن لم..	كذاكا	أبو تمام	٣٦٢
يصيبُ..	كذلّكا	أبو الأسود الدؤلي	٢٢١
فلما خشيت..	مالكا	ابن همام السلولي	٢١٩
إذا الغيث..	حائكُ	أبو تمام	٥٠٠
أبيني أفي..	شمالكُ	ابن الدمينه	(ثلاثة أبيات) ١٣٠
إذا هزّه..	الضواحيكُ	حماسي	٤٠٧

(ل)

فإذا جوزيت..	الجميلُ	ليد بن ربيعة	٣٤٥

الصفحة	الشاعر	القافية	اول البيت
٤٥٨	ليبد بن ربيعة	بالأمل	وأكذب النفس..
٣١٨	الأعشى	مهلا	إنّ محلاً وإنّ..
٣٠٩	حسان	يتحولا	بنى المجد..
٤١٦-٣٠١	المتنبي	غزالا	بدت قمرأ..
٣٦٤	أبو الأسود الدؤلي	قليلا	فألفيته غير..
٤٤٢	أبو تمام	مَجْهَلا	لقد زدت..
(بيتان) ٤٣٢	ذو الرُّمة	المحالا	وشعر قد..
٤٥٠	محمد بن بشير	مبذولا	افرغ لحاجتنا..
(ثلاثة أبيات) ٤٦٩	بشار بن برد	موتلا	عميت جنينا..
(بيتان) ٢٥٢	المتنبي	اغتيالا	تولّوا بغتة..
٢٣٦	أبو تمام	تفضلا	لهان علينا..
١٨٨	ذو الرُّمة	مالا	ولم أمدح..
١٨٦	البحري	مثلا	قد طلبنا..
٢١٦	أمية بن أبي الصلت	محلالا	فاشرب هنيئاً..
١٩٧	الخنساء	الجميل	إذا قبح..
١٤١	المتنبي	خالا	غصب الدهر..
(بيتان) ١٧١	عمر بن أبي ربيعة	الخللا	هل تعرف..
١٢٥ ، ٢٩٦	محمد بن محمد اليزيدي	المثل	وصيرني هواك..
٢٩٥	الفرزدق	أرعل	يحمي إذا..
٢٨٤	إبراهيم بن كنيف النبهاني	مزحل	فكيف وكلّ..
٣٦١	أبو تمام	عواسل	لعابُ الأفاعي..
٤٣٢	الفرزدق	يتحلحل	فادفع..
٤٣٢	كثير عزة	أول	إذا ما أرادت..
٤٥١	معن بن أوس	تُقبل	إذا انصرفت..
(بيتان) ٤٥٠	أبو علي البصري	الحبل	فقل لسعيد..

الصفحة	الشاعر	القافية	أول البيت
(بيتان) ٤٥٨	علي بن الجهم	وأجملُ	إذا نحن..
٤٦٣	البحري	يهطلُ	ومَن ذا يلوم..
٤٦٣	المتبي	بخلوا	إنك من معشر..
٤٦٣	بكر بن النطاح	سائلةُ	ولو لم يكن..
٤٦٩	كعب بن زهير	جروُلُ	فمن للقوافي..
(ثلاثة أبيات) ٤٦٨	أبو حية النميري	أتَنَحُلُ	إنَّ القصائد..
٢٤٤	مجهول	طويلُ	قال لي..
٤٤٧	المتبي	نازلُ	كريمٌ متى..
٢٢٣	خندج بن خندج المرّي	السرّايِلُ	متى أرى..
(أربعة أبيات) ١٣١	ابن البواب	الحيلُ	أتيتك عائذا..
١٢٤	أبو تمام	والعسلُ	يدي لمن..
١٢٠	أبو تمام	العملُ	لا يطمع المرء..
١٢٤	المتبي	عواملُ	ولذا اسم..
١٢٤	المتبي	الغاسلُ	الطيب أنت..
(بيتان) ١٧٠	عمر بن أبي ربيعة	الطللُ	اعتاد قلبك..
٧٩ ، ٧٨	كعب بن زهير	مغلُولُ	بانّت سعاد..
٣٣٧ ، ٣٢٧	الفرزدق	مثلي	أنا الذائد..
(بيتان) ٣١١	زهير السكب	حنبلٍ	إذا الله..
٣٠٩	البحري	يتحوّل	أو ما رأيت..
(أربعة أبيات) ٧٤	أبو طالب	للأرامِلِ	وأبيض يستسقى..
٣٥٤-٣٨٨-٣٩٤	امرؤ القيس	فحومِلِ	قفا نبك..
٤٢٩-٤٣٣			
٤٥٣	البحري	احتفالِه	ولم أر..
٣٩٧	المتبي	الناقلِ	يُراد من..
٤٤٨	المتبي	دليلِ	وليس يصح..

الصفحة	الشاعر	القافية	أول البيت
٤٤٥	حسان بن ثابت	المقبل	يُعشون حتى..
٤٥٠	البحري	تبذل	من عادة..
٤٥٢	أبو تمام	الأول	نقل فوادك..
٤٥٤	البحري	المفضل	ساموك من..
٤٥٦	البحري	الفضول	ألم تر..
٤٦٠	أبو وجزة	السيول	أناك المجد..
٤٠٥	المتنبي	الجمال	نحن ركب..
٤٦٤	المتنبي	الهطل	وما ثناك..
٤٦٢	المتنبي	الشامل	وأنت منهم..
٢٧٣-٣١٠-٤٠٠-٤٠٣	ابن هرمة	الأجل	لا أمتع..
٢٦٩، ٣٠٦	مجهول	الفصيل	وما يك في..
(بيتان) ٢٦٢	مجهول	الرجال	لا تحسب الموت..
(بيتان) ٢٤٥	الوليد بن يزيد	أحوال	عرفت المنزل..
٢٤٣	مجهول	لا تنجلي	زعم العواذل..
(ثلاثة أبيات) ١٧٥	عبد الله بن الزبير	الشواغل	عرضت على..
١٣٥، ٤٨٧	امرؤ القيس	البالي	كان قلوب..
١٥٠	امرؤ القيس	أغوال	أيقنني..
١٥٠	امرؤ القيس	بقثال	يفط غطيظ..
١٢١-٣٥٠-٤٣٣	امرؤ القيس	بكلكل	فقلت له..
(ثلاثة أبيات) ١٠٣	ابن يسير	بخيل	لا أذيل..
٤٤٦	البحري	عقلي	ولو ملكت

(م)

٤٨٧	المرقش الأكبر	عَنَم	النشر مسك..
١٦٠	عَمرة الخشعية	كلاهما	هما يلبسان..
(بيتان) ١٨٥	حميد بن مالك	يلملما	إذا شئت..

الصفحة	الشاعر	القافية	اول البيت
١٨٠	جرير	مستهما	أمتيت المنى..
(بيتان) ٤٧٧	أبو تمام	مختتما	سيف الإمام..
٤٧٢	البحري	أنجما	ألست الموالى..
٥٠٣	النابغة	الإقداما	نفس عصام..
٤٤٧	البحري	ما ندما	ماضٍ على..
٤٤٧	المتنبي	أجرما	يعطيك..
٤٥٥	المتنبي	مترجما	إذكار مثلك..
(بيتان) ٢٩٧	حاجز بن عوف	السهاما	أبي عبر الفوارس..
٧٠	الحسن البصري	المعصم	اليوم عندك..
١٢٤	المتنبي	ساجمة	وفاؤكما كالربع..
١٥١	عمارة بن عقيل	للثيم	أترك أن..
٢٢٥	ابن الرومي	تعظيم	والله يبقيك..
٢٣٤	أبو تمام	كريم	لا والذي هو..
٤٠٦-١١١	ليد بن ربيعة	زمامها	وغداة ربح..
١٩٤	طريف بن تميم	يتوسم	أو كلما وردت..
٢١٧	الأخطل	الكرم	إذا أتيت..
٢٢٧-٢١٨	علقمة بن عبده	مسموم	وقد علوت..
(بيتان) ٤٧٢	البحري	وينمّم	إليك القوافي..
٤٦٤	المتنبي	غوارم	كفيت الليالي..
٤٦٤	أبو تمام	حاكم	إذا سيفه..
٤٠٧	المتنبي	زمازم	خميس بشرق..
٤٥٦	المتنبي	علموا	تظن من..
٤٥٥	أبو العتاهية	أيامه	أسرع في..
٤٤٧	المتنبي	ذمام	والذي يشهد..
٤٤٨	أبو تمام	أعلام	الصبح مشهور..

الصفحة	الشاعر	القافية	أول البيت
٤٤٩	المتنبي	ينجّم	يقرّ له بالفضل..
٤٥٣	المتنبي	هرم	كأنما يولد..
٤٣٢	أبو تمام	ويللم	ولقد جهدت..
(بيتان) ٤٩٦	إسماعيل بن يسار	المرزم	حتى إذا الصبح..
٤٣١	البحري	كريمها	بنو هاشم في..
٤٣٠	البّعث	قديمها	أترجو كليب..
٤٤٦	البحري	تأمة	ليل يصادفني..
٤٣١	البّعث	لثيمها	كليب لثام..
٣٠٧	ابن هرمة	أعجم	يكاد إذا ما..
٣٤٩	قيس بن حصن	حالم	ألا أيها..
٤٦٠	أبو تمام	المفحم	نظمت له..
(بيتان) ٧١	عمارة بن الوليد	كالغنائم	ولسنا
(بيتان) ٧٠	عمارة بن الوليد	غارم	أسرك لقا..
(بيتان) ٢٦٠	الحارث	سهمي	قومي هم..
(ثلاثة أبيات) ٢٦١	أحمد بن يحيى بن علي	الحكّام	يا أبا جعفر..
١٨٤	عبد الله بن شبرمة	والحرم	لو شئت..
١٨٩	البحري	العظم	وكم ذدت..
(بيتان) ٢٢٣	أعشى همدان	نعيم	أتينا أصبهان..
٤٦٣	علي بن جبلة	إفهامي	وأرى الليالي..
٤٤٨	أبو تمام	القديم	وفي شرف..
٤٩٩	المتنبي	الرخم	ولا تشك إلى..
(بيتان) ٤٩٨	أبو نواس	وهمي	ألا لا أرى..
٣١٠	مجهول	تميم	متى تخلو..
٢٩٤	الفرزدق	الملاغم	سقاها خروق..
١٢١	ربيعة الرقي	إلى نعم	قولي نعم..

الصفحة	الشاعر	القافية	أول البيت
(ن)			
٤٦٣	أبو هفان	حسنة	أصبح الدهر..
٢٢٤	عبد الشارق بن عبد العزى	انحنينا	فأبوا بالرماح..
٢٣٦	الفضل بن العباس	تؤذونا	لا تطعموا أن..
٣٣٥	عمرو بن معد يكرب	إلا أنا	قد علمت
		سلمى..	
٣٣٨	ذو الإصبع العدواني	إثانا	كأننا يوم..
١٥٩	عروة بن أذينة	أينا	سلمى أزمعت..
١٣٠	العباس بن الأحنف	خراسانا	قالوا خراسان..
٢٩٩	بعض العرب	نيرانا	فإن تعافوا..
٤٦٩ (بيتان)	أبو شريح القمير	التمثلينا	فإن أهلك فقد..
٤٥٢	أمية بن أبي الصلت	يزين	عطاؤك زين..
٥٠٣	الفند الزماني	غضبنا	شددنا شدة..
٤٧١ (بيتان)	أبو تمام	المكتون	جاءتك من نظم..
٢٠١	عبد الله بن محمد بن أبي عينة	سيكون	ما لا يكون..
٢٨٥	المتني	السنن	ما كل ما يتمنى..
٤٥٣	المتني	أخوان	وعند من..
٤٤٨	المتني	بالفصن	أفعاله نسب..
٢١٩	رجل من بني سلول	لا يعني	ولقد أمر..
٤٥٦	المتني	الفطن	أفاضل الناس..
٤٦٢	أبو تمام	بالداني	ورب نائي..
٤٧٨	أبو الفتح البستي	دعاني	ناظره فيما..
٢٠٧	المتني	الميدان	وتوهموا..
٣١٧	سُلَمي بن ربيعة	الأمون	إن شواء..
٣١٧	مجهول	بالإحسان	إن دمرأ..

الصفحة	الشاعر	القافية	اول البيت
١٣٢	جرير	بزمان	لمن الديار..
٣٠٨	زهير بن أبي سلمى	فكن	هناك ربك..
٩٦	المتنبي	الدوران	لو الفلك..
١١٨	سوار بن المضرب	وان	بعرض تنوفة..
٢٠٠	ابن الرومي	زمانى	أنا الرجل..
٤٣١	الفرزدق	العجان	إذا ما قلت..
٤٤٩	أبو تمام	المغربين	ثوى بالمشرقين..

(هـ)

٤٤٩-٣٢٩	البحثري	عداء	لا أدعي..
٤٤٣	البحثري	أخشاء	لو أنني..
٢٠١	أبو العتاهية	عليه	واني لمشتاق..
(اثنان وعشرون بيتاً)	عبد القاهر الجرجاني	بدا فيه	إنني أقول مقالا..
٥٨ ، ٥٦			
١٧٣ (أربع أبيات)	جميل بثينة	أجزبها	وهل بثينة..
١٦٥	المتنبي	مشبه	ولم أقل..
١٦٥	المتنبي	غريب	مثلك يثني..

(ي)

٣٩٥	مجهول	الخصي	وذاك له..
١٩٦	جرير	لسانيا	وليس لسيفي..
٩٦	أبو حية النميري	التقاضيا	إذا ما تقاضى..
١٥٨	المعذل بن عبد الله	المغاليا	هم يفرشون..
٤٩٢-٤٨٦	الفرزدق	هجاثيا	وما حملت أم..
٤٥٤	المتنبي	التساويا	إذا الهند..
٤٥٣	المتنبي	السواقيا	قواصد كافور..

الصفحة	الشاعر	القافية	اول البيت
(ى)			
٧٦ (بيتان)	ورقة بن نوفل	قد نـمى	ارفع ضعيفك
١٣٤	البحري	الأقوى	لعمرك إنا..
٤٦٢	المتنبى	تلاقى	لنا ولأهله..
٢٠٨	المتنبى	أعلى	وهو الضارب..
٩٥	عمر بن أبي ربيعة	كالذمى	ومن مالى..
١٣٢ (بيتان)	عبد الصمد بن المعذل	عبرى	مكتب ذو..
١٣٢	عبد الصمد بن المعذل	اليسرى	يرفع يمناه..

الشطور

السطر الأخير	الشاعر	الصفحة
(ب)		
ولم يلدوا امرأً إلا نجيباً	المتني	٢٠٣
(ر)		
وقد سقى القوم كأس النعسة السهرُ	أبو دهب الجمحي	٤٢٥
(ع)		
سقتها خروق في المسامع	الفرزدق	٣٧٨
(ق)		
وإنما يعذر العشاق من عشقا	العباس بن الأحنف	٣٤٧
(ل)		
ظرف عجوز فيه ثثا حنظل	خطام المجاشعي	٣٦٧
إنما يجزي الفتى ليس الجملُ	ليد بن ربيعة	٣٤٥
(م)		
فنام ليلى وتجلّى همّي	رؤبة	٤٢٦-٢٩٤
قد أغتدي والطير لم تكلمِ	مجهول	١٦٣
(ي)		
وحاتم الطائي وهاب المنى	امراة من عقيل	٢٠٤
سقته كف الليل أكؤس الكرى	أبو نواس	٤٢٤

فهرس الأعلام

(١)

ابن البواب: ١٤١

ابن دريد: ٩٨

ابن الرومي: ١٩٩ - ٢٢٥ - ٤٥٠ - ٤٦٢ -

٤٦٧ - ٥٠١

ابن عباس: ٧٣

ابن عساكر: ٧٥

ابن ماجه: ٧٢-٧٣

ابن المعتز: ١٢٠ - ١٣٧ - ١٤١ - ١٤٢ -

٤١٦ - ٤٦٣

ابن ميادة (الرماح بن أبرد): ٤٧٠

ابن نايقا: ٢١٧

ابن هزّمة (إبراهيم): ٢٧٣ - ٣٠٧ - ٣١٠

ابن هشام: ٧٣

ابن يسير الرياشي: ١٠٣

أبو إسحاق الزجاج: ٣٢٦ - ٤٠٩

أبو الأسود الدؤلي: ٩١ - ١٢٢

أبو البرج (القاسم بن حنبل المري): ١٧١

أبو بكر الصديق: ٧٣، ٧٥، ٧٧، ١٢٩

أبو بكر بن السراج: ٢٣٠

أبو بكر بن الأنباري: ٣١٢

أبو تمام: ٩٥ - ١٠٤ - ١٢٠ - ١٢٤ -

١٤٢ - ١٦٦ - ٢٣٤ - ٢٣٦ - ٣١٠ -

٣٦١ - ٣٦٢ - ٣٨٤ - ٤٣٢ - ٤٤١ -

٤٤٧ - ٤٤٨ - ٤٤٩ - ٤٥٠ - ٤٥١ -

٤٥٢ - ٤٥٣ - ٤٥٤ - ٤٥٥ - ٤٥٦ -

٤٥٩ - ٤٦١ - ٤٦٢ - ٤٦٤ - ٤٦٧ -

٤٧٠ - ٤٧١ - ٤٧٢ - ٥٠٠

أبو حرجة الفزاري: ٣٤٨

أبو خُزابة (الوليد بن حنيفة): ١٧٢

أبو حية النميري: ٩٥ - ٤٧٨

أبو خراش الهذلي: ٤٣١

أبو داود: ٧٣

أبو داود: ١٣١ - ٢١٨

أبو ذؤاب: ٢٦٠

أبو رافع: ٢١٩ - ٢٢٠

أبو سفيان بن حرب: ٧٥

أبو شريح القمير: ٤٦٩

أبو طالب بن عبد المطلب: ٦٤

أبو الفرج الأصفهاني: ٧٦ - ٢٤٤

أبو عبيد: ٧٢

الأخفش (أبو الحسن): ٢٣٠
 الأخنس بن شهاب: ١٥٩
 أروطاة بن سهية: ٢٢٢-٣٩٩
 إسماعيل بن يسار: ٤٩٦
 أسيد بن عتقاء الفزاري: ١٧٢
 الأشعث بن قيس: ٧٥
 الأصمعي: ١٤٦
 الأعشى: ٧٥-١٩٣-١٩٤-١٩٦-٣١٨
 أعشى همدان: ٢٢٢
 الإقشيش: ١٢٤
 الأقيشر: الأسدي ١٧٤
 امرؤ القيس: ٨٢-١٢١-١٣٥-١٥٠
 ٣٥٠-٣٥٤-٣٩٤-٤٢٩-٤٣٣-٤٨٧
 أمية بن أبي الصلت: ٢١٦، ٤٥١
 أنس بن أنس: ٩١
 أوس بن حارثة: ٨٥

(ب)

الباخرزي (أبو الحسن علي بن الحسن):
 ٣٤٧
 بجير بن زهير بن أبي سلمى: ٩٨
 البحتري (الوليد بن عبيد): ٩٥-١٢٥
 ١٣٣-١٣٤-١٧٨-١٨٢-١٨٣
 ١٨٥-١٨٦-١٨٩-٢١١-٢٥٩
 ١٩٨-٣٠٩-٣٢٩-٤٣١-٤٣٢
 ٤٤٣-٤٤٦-٤٤٧-٤٤٨-٤٤٩
 ٤٥١-٤٥٣-٤٥٤-٤٥٦-٤٦١
 ٤٦٢-٤٦٣-٤٦٥-٤٧٢-٤٨٣-٥٠٠

أبو عبيدة: ٢٦٣
 أبو العتاهية: ٢٠١-٢٨٥-٤٥٥-٤٦٠
 ٤٦٧
 أبو العطاء السندي: ٢٧٤
 أبو علي الفارسي: ٣٢٥-٣٢٧-٣٦٢-٢١٧
 أبو عمرو الشيباني: ٢٦٢-٢٦٣
 أبو عمرو بن العلاء: ٢٧٦
 أبو محمد اليزيدي: ٢٤٤
 أبو المغيث الوافقي: ١٠٤
 أبو النجم العجلي: ٢٨٠
 أبو نواس: ٢٠٩-٢٥٩-٢٧٣-٢٧٥
 ٢٩٦-٣٠٩-٣٢١-٣٩٨-٤٠١
 ٤١٦-٤٢٤-٤٣١-٤٥٢-٤٥٩
 ٤٦٠-٤٦٦-٤٩٦-٤٩٨
 أبو نخيلة أبو الجنيد: ٤٤١
 أبو هقان: ٤٦٢
 أبو وجزة السعدي: ٤٦١
 إبراهيم بن العباس: ١٢٦
 إبراهيم بن المدبر: ٢٤٤
 إبراهيم بن المهدي: ٤٤٣
 إبراهيم بن كنيف: ٢٨٣
 أحمد بن أبي فغن: ٤٤٣-٤٤٤
 أحمد بن حنبل: ٧٣-٧٥
 أحمد بن محمد بن ثوابة: ٢٦٠
 أحمد بن يحيى بن علي: ٢٦١
 الأخطل التغلبي: ٢١٧
 (أبو العباس): ٤٢٦

جربير بن عطية بن الخطفي: ١٣٢ - ١٨٠ -

١٩٦ - ٢٠٣ - ٤٥٢

جميل بن معمر: ١٧٣ - ١٧٤ - ٢٠٣

(ح)

حاجز بن عوف: ٢٩٧

الحارث بن ولة: ٢٦٠

الحجاج: ٣٠٦ - ٣٨٠ - ٤٥٨

حجلة بن نضلة: ٣٢٢

حجبة بن المضرب: ٢٠٠

حسن بن ثابت: ٧٥ - ١٣٤ - ١٩٨ -

٣٠٩ - ٤٤٥

الحسن البصري: ٦٩

حظان بن المعلی: ٢٧٣

الحطينة: ٢٥٨، ٣٢٩، ٤٣٣، ٤٤٤

حفصة (زوجة الرسول ﷺ): ٧٦

الحكم بن قنبر: ٤٢٥

حميد بن ثور: ١٨٥

(خ)

خالد الكاتب: ٤٤٩

خالد بن الوليد: ١٢٩

خالد بن يزيد بن معاوية: ٢٢٣

خندج بن خندج: ٢٢٣

الخريمي: ١٨٤ - ٤٥٦

خطان بن المعلی: ٢٧٣

البخاري: ٧٢

البراء بن عازب: ٧٣

البرامكة: ٣١١

بشر بن أبي خازم: ٨٥

بشار بن برد: ١٢٠ - ١٣٥ - ٢٠٠ - ٢١٥ -

٢٧٦ - ٢٧٧ - ٣١٦ - ٣٨٩ - ٤٩١ -

٤٦١ - ٤٦٧ - ٤٦٩ - ٤٨٧

البعيث: ٤٣٠ - ٤٣١

بغض بن بني سعد: ٢٥٨

بكر بن النطاح: ١٧٥ - ٤٦٣

(ت)

تأبط شرأ (ثابت بن جابر): ٤٠٧

الترمذي: ٧٢ - ٧٣

تميم بن أبي بن مقبل: ٤٦٨

(ث)

ثعلب: ٢٥٩ - ٢٦٠

ثعلبة: ١١٩

(ج)

جؤية بن النضر: ١٩٢

الجاحظ: ٧١ - ١٠٣ - ١٠٤ - ١٢٠ -

١٣٦ - ١٨٧ - ٢٥٧ - ٢٦٢ - ٢٩٢ -

٣٧٩

جبار بن سلمى بن مالك: ١٩٦

جندب بن عمار: ٢٤٣

خلف الأحمر: ٢٧٦ - ٢٨٠ - ٣١٦

الخليل بن أحمد: ٩٨

الخنساء: ١٩٧

(د)

دعبل الخزاعي: ٢٨٤

(ذ)

ذو الإصبع العدواني: ٣٣٨

ذو الرمة (غيلان): ١٧١ - ١٨٨ - ٢٧٨ -

٢٧٩ - ٢٨٠ - ٤٣٢

(ر)

رؤية بن العجاج: ٢٩٤ - ٤٢٦

ربيعة الرقي: ١٢١

رشيد رضا: ٥٧

(ز)

الزبير بن بكار: ٧٧

الزمرخري: ٥١

زهير بن أبي سلمى: ١٦٢

زهير بن جناب: ٧٦

زهير بن عروة: ٣١٠

زياد الأعجم: ١٣٥ - ٣٠٤ - ٤٨٧

زيد بن ثابت: ٧٠

زيد بن عمرو بن نفيل: ٧٦

زيد الفوارس الضبي: ١١٧

(س)

سبيع بن الخطيم: ١١٧

سعد بن ناشب: ٢٣١

سعيد بن هاشم الخالدي: ١٤٢

سلامة بن جندل: ٢١٧

مسلم بن قتيبة: ٢٧٦

سلمي بن ربيعة: ٣١٧

سليمان بن داود القضاعي: ١٣٤

سهم بن حنظلة: ٤٤٢

سؤار بن المضرب: ١١٨

سودة (زوجة الرسول ﷺ): ٧٦

السيد الحميري: ٣٣٩

سيف الدولة الحمداني: ١٤٢ - ١٦٥ - ٢٠٧

(ش)

الشعبي: ٧٤

شمر بن عمرو الحنفي: ٢١٩

الشنفرى: ٢٥٩ - ٣٠٨

(ص)

الصاحب بن عباد: ١٤١ - ٥٠٢

الصمة بن عبد الله القشيري: ٩٤

(ط)

طرفة بن العبد: ١٦٢ - ١٨٥

طريف بن تميم العنبري: ١٩٤

طفيل الغنوي: ١٨٠

(ع)

- عائشة (زوجة الرسول ﷺ): ٧٣-٧٦-٧٩
 عامر بن الطفيل: ٧٥
 عامر بن المجنون: ٧٦
 العباس بن الأحنف: ١٣٠-٢٧٣-٣٤٧-٤٥١
 عبد الرحمن بن عيسى الهمداني: ٤٤٠
 عبد الشارق بن عبد العزى: ٢٢٣
 عبد الصمد بن المعدل: ١٣١
 عبد القاهر الجرجاني: ٥١
 عبد الله بن أبي حدرد: ٧٤
 عبد الله بن أبي عينة: ٢٠١
 عبد الله بن رواحة: ٧٣
 عبد الله بن الزبير: ١٧٣
 عبد الله شبرمة: ١٨٤-٢٧٨-٢٧٩-٢٨٠
 عبيد الله بن قيس الرقيات: ٣٢٩
 عبد الله بن المعتز: ١١٩
 عبد الله بن مسعود: ٣٧٣
 عبد الله بن مصعب: ٤٦٦
 عبد الله بن ناشرة: ١٧٢
 عبد الله بن همام السلولي: ٢١٩
 عبيد الله بن عبد الله بن طاهر: ٢٥٩
 عبد الملك بن عمير: ٧٠
 عبد المطلب بن هاشم: ٧٧
 عتاب بن ورقاء: ٢٢٢
 العجاج: ٣١٨
 عدي بن الرقاع: ٤٦٨

عروة بن أذينة: ١٥٩

- علي بن أبي طالب: ٧١-٣٨٣
 علي بن أحمد الجوهري: ١٨٦
 علي بن جبلة: ٤٦٣
 علي بن حمزة: ١٤١
 علي بن عبد العزيز الجرجاني: ٤٠٦
 علي بن هارون: ٤٤٣
 عليّة بنت المهدي: ١٣٠
 علقمة بن علاثة: ٧٥
 علقمة الفحل: ٢١٨
 عمارة بن عقيل: ١٥٠
 عمارة بن الوليد: ٧٠
 عمر بن أبي ربيعة: ٩٥-١٧٠-١٧١
 عمر بن الخطاب: ٧٠، ٧٥-٧٦
 عمرة الخثعمية: ١٦٠
 عمرو بن الحارث الغساني: ١٣٧، ٤٤٥
 عمرو بن عثمان بن عفان: ١٧٣
 عمرو بن معد يكرب: ١٧١-١٧٩-٣٣٥
 عمرو الوراق: ٤٥٩
 عنبة بن الفيل: ٢٧٧
 عوف بن الأحوص: ٣٠٦

(ف)

- الفتح بن خاقان: ١٢٥
 الفرزدق: ١٢٤-١٣٥-٢٢٤-٢٩٣-
 ٢٩٥-٣٢٥-٣٩٩-٤٣٠-٤٣٢-
 ٤٦٩-٤٨٦-٤٨٩-٤٩٢

المبرد: ٣١٢ - ٣٢٠

المتنبي: ٩٦ - ١٢٤ - ١٤١ - ١٤٢ -

١٥٦ - ١٦٥ - ٢٠٣ - ٢٠٥ - ٢٠٧ -

٢٠٨ - ٢١١ - ٢٤٥ - ٢٥٢ - ٢٨٥ -

٣٠١ - ٣٢٨ - ٣٩٧ - ٤٠٥ - ٤٠٧ -

٤١٦ - ٤٢٠ - ٤٤٦ - ٤٤٧ - ٤٤٨ -

٤٤٩ - ٤٥٢ - ٤٥٣ - ٤٥٤ - ٤٥٥ -

٤٥٦ - ٤٥٧ - ٤٦٢ - ٤٦٣ - ٤٦٤ -

٤٦٥ - ٤٩٩ - ٥٠٢

المتوكل على الله: ١٣٣

محمد ﷺ: ٦١ - ٦٦ - ٧٣ - ٧٤ - ٧٥ -

٧٦ - ٧٧ - ٧٨ - ٨٠ - ٨١ - ٨٥ -

٢٨٤ - ٣٣١ - ٣٨٣ - ٤١٠ - ٤٣٥

محمد بن أبي بكر: ٧٠

محمد بن أبي محمد الزيدي: ١٣١

محمد بن بشير الخارجي: ٤٢٥ - ٤٥٠

محمد بن جعفر بن أبي طالب: ٧٠

محمد بن حاطب: ٧٠

محمد بن طلحة بن الزبير: ٧٠

محمد بن عبد الملك الزيات: ١٢٦

محمد بن مسلمة الأنصاري: ٧٤ - ٧٥

محمد بن محمد اليزيدي: ٢٩٦

محمد بن وهيب الحميري: ٣٢١

محمد بن يوسف الثقفي: ٧١ - ٧٢

محمد بن عمران المرزباني: ٧٠ - ٤٤٢ -

٤٥٩

مروان بن أبي حفصة: ٢٦١

الفضل بن العباسي: ٢٣٥

(ق)

قثا بن أشيم الكثاني: ٢٢٠

قث بن حصن: ٣٤٨

قطري بن الفجاءة: ٤٥٨

قيس بن خارجة: ١٨٧

قيس بن الخطيم: ٤٥٥

قيس بن معدان: ٧٦

قيصر الروم: ٧٥

(ك)

كافور الإخشيدي: ٩٦ - ٢٠٥ - ٣٢٨

كثير عزة: ١١٦ - ١٣٤ - ٤٥٢ - ٤٥٥

كعب بن زهير: ٧٣ - ٧٨ - ١١٦ - ٤٦٨

كعب بن مالك: ٧٣

الكندي أبو يوسف يعقوب: ٣١٢ - ٣١٣ -

٣١٦

(ل)

لبيد: ١١١ - ٣٤٥ - ٤٢٤ - ٤٤٢ - ٤٥٥ -

٤٥٨

(م)

المأمون بن الرشيد: ٢٠١

مالك بن رُفيع: ٢٢١

مالك بن طوق: ١٤٢

مروان بن محمد: ١١٢ - ٢٠٠ - ٤٠٩

مسلم بن الحجاج (الإمام): ٧٢

مسلمة بن عبد الملك: ٤٤١

مسلم بن الوليد: ٢٥٩ - ٢٧٥ - ٤٥٠

مسكين الدارمي: ٢٢٠

المسيب بن علس: ٢١٦

المضرب: ١١٦

مضرّس بن ربيعي: ٤٥٧

مطروود بن كعب الخزاعي: ٧٧

المعتز بالله: ١٨٦

المعتصم بالله: ١٢٠ - ١٢٤

المعذلّ بن عبد الله الليثي: ١٥٨

معن بن أوس: ٤٥١

منصور النمري: ٤٦١

موسى بن جابر بن أرقم: ١٧٢

(ن)

النايفة الجعدي: ٧٧ - ١٦٤ - ٣٠٠

النايفة الذبياني: ١٣٦ - ٢٧٣ - ٤٥٩ -

٤٦٠ - ٥٠٣

نافع بن لقيط: ٤٥٨

نُصيب بن رباح: ١١٦ - ٤٦٧

(هـ)

هارون الرشيد: ١٣٠

(و)

الوآء الدمشقي (محمد بن أحمد

الفساني): ٤١٥

الواحدي: ٩٦

ورقة بن نوفل: ٩٩

الوليد بن المغيرة: ٣٧٣

الوليد بن يزيد: ٢٤٥

(ي)

يزيد بن الحكم: ٣٠٦

يزيد بن الطثرية: ١١٦

يزيد بن مسلمة بن عبد الملك: ١١٧

يزيد بن عمر بن هبيرة: ٣٨٩

يزيد بن المهلب: ٣٠٦ - ٣٨٠

يزيد بن الوليد: ١١٢ - ٤٠٩

يحيى بن يعمر: ٣٨٠

فهرس الكتب الاردة

- أخبار البحتري / الصولي (أبو بكر)، تحقيق د. صالح الأشر، ط. المجمع العلمي بدمشق.
- أخبار الرسل والملوك (تاريخ الطبري) / محمد بن جرير الطبري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط. دار المعارف بمصر.
- أخبار القضاة / وكيع محمد بن خلف بن حيّان، ط. عالم الكتب - بيروت (مصورة).
- أساس البلاغة / الزمخشري جار الله أبو القاسم محمود بن عمر، ط. دار الكتب المصرية - القاهرة.
- أسرار البلاغة / عبد القاهر الجرجاني، تحقيق ريتز، ط. وزارة المعارف، استانبول ١٩٥٤م.
- إصلاح المنطق / يعقوب بن السكيت، تحقيق أحمد شاكز، عبد السلام هارون، ط. دار المعارف بمصر ١٩٧٠م.
- الأصمعيّات / عبد الملك بن قريب الأصمعي، تحقيق أحمد شاكز، عبد السلام هارون، ط. دار المعارف بمصر - القاهرة ١٩٧٦م.
- إعجاز القرآن / للباقلائي، تحقيق أحمد صقر، دار المعارف بمصر.
- الأغاني / أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد الأصفهاني، ط. دار الثقافة ودار الأندلس - بيروت ١٩٥٥م / ١٣٧٤هـ.
- الإغفال / أبو علي الفارسي، مخطوط.

- الألفاظ الكتائية / عبد الرحمن الهمذاني، ط. بيروت.
- أمالي المرتضى / للشريف المرتضى، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط. عيسى البابي الحلبي.
- الأمالي / أبو علي القالي إسماعيل بن القاسم، ط. دار الكتب المصرية ١٣٤٤هـ / ١٩٢٦م.
- إنباء الرواة على أنباء النحاة / القفطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.
- الإنصاف في مسائل الخلاف / لأبي البركات بن الأنباري، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط. المكتبة التجارية الكبرى.
- البحر المحيط / لأبي حيان الأندلسي، ط. مكتبة النصر الحديثة - الرياض.
- البرهان في وجوه البيان / أبو الحسين إسحاق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب، تحقيق د. أحمد مطلوب ود. خديجة الحديثي، بغداد ١٩٦٧م.
- بغية الوعاة في أخبار النحاة / جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط. عيسى البابي الحلبي - القاهرة ١٩٦٤م.
- البيان والتبيين / أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، ط. لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٣٦٧هـ / ١٩٤٨م، ط. دار الكتاب العربي - بيروت.
- التعريفات / علي بن محمد الجرجاني، ط. مصطفى البابي الحلبي - القاهرة.
- تفسير القرطبي / الجامع لأحكام القرآن، ط. مصورة عن ط. دار الكتب المصرية ١٩٦٧م، دار الكتاب العربي بالقاهرة.
- التيسير في القراءات السبع / أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني، طبعة أوتوبرتزل - استانبول ١٩٣٠م.
- جمهرة الأمثال / العسكري أبو هلال، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعبد المجيد قطامش، ط. المؤسسة العربية الحديثة، القاهرة ١٩٦٤م.

- الجوانب الدلالية في نقد الشعر / د. فايز الداية، ط. دار الملاح بدمشق ١٩٧٨م.
- حجج النبوة (رسائل الجاحظ) / الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، ط. الخانجي - مصر.
- الحماسة المغربية - لأبي العباس الجراوي، الطبعة الثانية، دار الفكر - دمشق ٢٠٠٦م.
- الحماسة الصغرى (الوحشيات) / لأبي تمام، تحقيق محمود شاكر، ط. دار المعارف بمصر ١٩٧٠م.
- حماسة أبي تمام بشرح المرزوقي ١٩٥٨/٤
- الحيوان / للجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، دار الكاتب العربي - القاهرة ١٩٦٧م.
- الخصائص / لابن جني، تحقيق محمد علي النجار، ط. دار الكتب المصرية - القاهرة.
- ديوان ابن الرومي / تحقيق د. حسين نصّار، ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة.
- ديوان ابن المعتز / تحقيق يونس أحمد السامرائي، ط. بغداد ١٩٧٨م.
- ديوان أبي الأسود الدؤلي / تحقيق محمد محمد حسن آل ياسين، ط. مكتبة النهضة - بغداد.
- ديوان أبي تمام / تحقيق د. محمد عبده عزّام، ط. دار المعارف بمصر.
- ديوان أبي حية النميري / تحقيق د. يحيى الجبوري، وزارة الثقافة بدمشق ١٩٧٥م.
- ديوان أبي ذؤاد الإيادي / تحقيق غروبناوم (غوستاف)، دراسات في الأدب العربي، ط. دار مكتبة الحياة - بيروت.

- ديوان أبي الطيب المتنبي أحمد بن الحسين / بشرح الواحدي، مصورة عن ط. برلين بعناية فريدريخ ديتريشي، وطبعة. د. عزام (عبد الوهاب) لجنة التأليف - القاهرة ١٣٦٣هـ، وطبعة السقا ورفاقه - القاهرة ١٩٥٦م.
- ديوان أبي العتاهية / تحقيق د. شكري فيصل، ط. دار الملاح - دمشق ١٩٧٨م.
- ديوان أبي نواس بشرح الصولي / تحقيق بهجة الحديثي، ط. بغداد ١٩٨٠م.
- ديوان أبي نواس / تحقيق الغزالي، ط. مصر ١٩٥٣م.
- ديوان الأخطل / إيليا سليم حاوي، ط. دار الثقافة - بيروت.
- ديوان الأعشى / تحقيق د. محمد محمد حسين، ط. مكتبة الآداب بالجماميز.
- ديوان امرئ القيس / تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط. دار المعارف بمصر - القاهرة ١٩٦٤م.
- ديوان أمية بن أبي الصلت / تحقيق د. عبد الحفيظ السطلي، ط. دمشق.
- ديوان البحري / تحقيق حسن كامل الصيرفي، ط. دار المعارف بمصر.
- ديوان بشار بن برد / تحقيق محمد الطاهر بن عاشور، ط. لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة ١٩٦٦م.
- ديوان بشر بن أبي خازم / تحقيق د. عزة حسن، ط. وزارة الثقافة - دمشق ١٩٦٠م.
- ديوان جرير / تحقيق نعمان أمين طه، ط. دار المعارف بمصر - القاهرة.
- ديوان جميل بن معمر / جمعه د. حسين نصار، (جميل بثينة) ط. مكتبة مصر بالقاهرة.
- ديوان حسان بن ثابت / تحقيق د. سيد حنفي، ط. دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٩٧٤م.
- ديوان الحطيئة / تحقيق نعمان طه، القاهرة ١٩٥٨م.

- ديوان الخالدين / تحقيق د. سامي الدهان، ط. مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٦٩م.
- ديوان الخريمي / جمعه وحققه علي جواد الطاهر ومحمد جبار المعبيد، ط. دار الكتاب الجديد - بيروت ١٩٧١م.
- ديوان الخنساء / ط. دار صادر - بيروت.
- أنيس الجلساء في ديوان الخنساء / ط. بيروت.
- ديوان دعبل بن علي الخزاعي / تحقيق د. عبد الكريم الأشتر، ط. مجمع اللغة العربية ١٩٦٤م.
- ديوان ذي الرمة / تحقيق عبد القدوس أبو صالح، ط. مجمع اللغة العربية بدمشق.
- ديوان ربيعة الرقي / جمع وتحقيق زكي العاني، ط. وزارة الثقافة بدمشق ١٩٨٠م.
- ديوان زهير بن أبي سلمى / بشرح ثعلب، نسخة مصورة عن ط. دار الكتب المصرية.
- ديوان سلامة بن جندل / تحقيق د. فخر الدين قباوة، ط. المكتبة العربية بحلب ١٩٦٨م.
- ديوان طرفة بن العبد / تحقيق درية الخطيب ولطفي الصقال، ط. مجمع اللغة العربية بدمشق.
- ديوان العباس بن الأحنف / ط. دار صادر - بيروت.
- ديوان عبد الله بن الدمينه / تحقيق أحمد راتب النفاخ، ط. دار العروبة - القاهرة ١٩٦٠م.
- ديوان علقمة الفحل / تحقيق لطفي الصقال ودريه الخطيب، ط. دار الكتاب العربي بحلب ١٩٧٠م.

- ديوان علي بن جبلة (العكوك) / تحقيق د. حسين عطوان، ط. دار المعارف بمصر - القاهرة ١٩٧٢م. وتحقيق زكي ذاكر العاني - بغداد ١٩٧١م.
- ديوان علي بن الجهم / تحقيق خليل مردم بك، ط. المجمع العلمي العربي بدمشق.
- ديوان عمر بن أبي ربيعة / تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط. المكتبة التجارية الكبرى.
- ديوان عمرو بن معد يكرب / تحقيق مطاع طرايشي، ط. مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٧٤م.
- ديوان الفرزدق / تحقيق الصاوي، ط. المكتبة التجارية الكبرى - القاهرة.
- ديوان كثير عزة / د. إحسان عباس، ط. دار الثقافة - بيروت ١٩٧١م.
- ديوان كعب بن زهير بن أبي سلمى، ط. دار الكتب المصرية - القاهرة ١٣٦٩هـ / ١٩٥٠م.
- ديوان لبيد / تحقيق إحسان عباس، ط. الكويت ١٩٦٢م.
- ديوان مسكين الدارمي / جمعه خليل العطية والجبوري.
- ديوان مسلم بن الوليد / تحقيق د. سامي الدهان، ط. دار المعارف بمصر، القاهرة.
- ديوان النابغة الذبياني / تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط. دار المعارف بمصر ١٩٧٧م.
- ديوان النابغة الجعدي / ط. المكتب الإسلامي، دمشق ١٩٦٤م.
- ديوان الهذليين / مصورة عن طبعة دار الكتاب المصرية - القاهرة ١٩٦٥م.
- ديوان الواواء الدمشقي / أبو الفرج محمد بن أحمد الغساني، تحقيق د. سامي الدهان، ط. المجمع العلمي العربي بدمشق.
- ديوان يزيد بن الطثيرة / تحقيق حاتم صالح الضامن.

- (شعر) / بغداد ١٩٧٣م.
- الرسالة الشافية / عبد القاهر الجرجاني، ضمن كتاب (ثلاث رسائل في الإعجاز)، ط. دار المعارف بمصر ١٩٥٦م.
- زهر الآداب / للقيرواني، تحقيق علي البجاوي، ط. عيسى البابي الحلبي، ١٣٧٢هـ.
- سمط اللآلئ / أبو عبيد البكري، تحقيق عبد العزيز الميمني - القاهرة ١٩٣٦م.
- سير أعلام النبلاء / الذهبي، ط. دار الرسالة - بيروت.
- السيرة النبوية / تحقيق مصطفى السقا، إبراهيم الإياري، عبد الحفيظ شلبي، ط. ١٣٧٥هـ.
- شرح حماسة أبي تمام / أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي، تحقيق أحمد أمين وعبد السلام هارون، ط ٢، لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة ١٩٦٧م.
- شرح الحماسة / للتبريزي أبو زكريا يحيى بن علي، ط. البولاقية ١٢٩٢هـ.
- شروح سقط الزند / لجنة من: طه حسين، ومصطفى السقا وآخرين، ط. دار الكتب المصرية - القاهرة ١٣٦٤هـ / ١٩٤٥م.
- شرح شواهد المغني / للسيوطي، تصحيح الشيخ محمد محمود الشنقيطي، ط. دمشق لجنة التراث العربي ١٩٦٦م.
- شعر إبراهيم بن هرمة / تحقيق محمد نفاع، حسين عطوان، ط. مجمع اللغة العربية بدمشق.
- شعر الأقيشر الأسدي / تحقيق الطيب العشاش، ط. حوليات الجامعة التونسية، العدد الثامن ١٩٧١م.
- شعر الخوارج / تحقيق وجمع د. إحسان عباس، ط. دار الثقافة - بيروت.

- الشعر والشعراء / ابن قتيبة عبد الله بن مسلم، تحقيق أحمد شاكر، ط. دار المعارف بمصر - القاهرة ١٩٦٦م.
- شعر مروان بن أبي حفصة / جمع وتحقيق د. حسين عطوان، ط. دار المعارف بمصر ١٩٧٣م، وتحقيق قحطان رشيد التميمي - بغداد ١٩٧٢م.
- الشفاء / لابن سينا (العبرة)، تحقيق محمود الخصري، ط. الهيئة المصرية العامة - القاهرة ١٩٧٠م.
- صحيح البخاري / الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، ط. دار الفكر عن طبعة دار الطباعة باستانبول.
- الصناعتين / أبو هلال العسكري الحسن بن عبد الله بن سهل، تحقيق علي محمد البجاوي محمد أبو الفضل إبراهيم، ط. عيسى البابي الحلبي بمصر ١٩٧١م.
- طبقات الأطباء والحكماء / ابن جليل (أبو داود سليمان بن حسان الأندلسي)، ط. المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة ١٩٥٥م.
- طبقات فحول الشعراء / ابن سلام، تحقيق محمود شاكر، ط. مطبعة المدني - القاهرة ١٩٧٣م.
- طبقات الشعراء / لابن المعتز، تحقيق عبد الستار فرّاج، ط. دار المعارف بمصر ١٩٥٦م.
- الطبقات الكبرى:
- طبقات ابن سعد / دار صادر، دار بيروت - بيروت ١٣٨٠هـ / ١٩٦٠م.
- طبقات النحويين واللغويين / أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر ١٩٧٣م.
- الطرائف الأدبية / تحقيق عبد العزيز الميمني، ط. لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة ١٩٣٧م.
- العقد / ابن عبد ربّه، ط. لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة ١٩٥٥م.

- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده / أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط ٢، المكتبة التجارية الكبرى - القاهرة ١٣٧٤هـ / ١٩٥٥م.
- عيون الأخبار / ابن قتيبة عبد الله بن مسلم، ط. دار الكتب المصرية - القاهرة.
- الكامل في اللغة والأدب / لأبي العباس المبرد، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، علي البجاوي.
- الكتاب / سيويه، ط. بولاق.
- كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس / إسماعيل بن محمد العجلوني، ط. حلب.
- الكشف عن وجوه القراءات السبع / أبو محمد مكي بن أبي طالب القيسي، تحقيق د. محيي الدين رمضان، ط. مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٧٤م.
- الكشف عن مساوئ شعر المتنبي / الصاحب بن عباد.
- الإبانة عن سرقات المتنبي / تحقيق إبراهيم الدسوقي البساطي، ط. دار المعارف بمصر ١٩٦٩م.
- لسان العرب / أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور.
- المؤلف والمختلف / أبو القاسم الحسن بن بشر الأمدى، تحقيق عبد الستار فراج، ط. دار إحياء الكتب العربية - القاهرة ١٣٨١هـ / ١٩٦١م.
- مجمع الأمثال / الميداني، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السنة المحمدية بمصر ١٩٧٤هـ.
- مجموع شعر مسلمة بن عبد الملك (مجلة المورد ٣ / مجلد ٧ سنة ١٩٧٥م).
- المحتسب / ابن جنبي أبو الفتح عثمان، ط. المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية - القاهرة.

- المزهري في علوم اللغة وأنواعها / السيوطي عبد الرحمن جلال الدين، تحقيق محمد أحمد جاد المولى علي البجاوي محمد أبو الفضل إبراهيم، ط. دار إحياء الكتب العربية - القاهرة.
- المصون في الأدب / العسكري أبو أحمد الحسن بن عبد الله، تحقيق عبد السلام هارون، ط. الكويت ١٩٦٠م.
- معاهد التنصيص / عبد الرحيم العباسي، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط. المكتبة التجارية - القاهرة ١٩٤٧م.
- معجم الأدباء / ياقوت الحموي، ط. محمد فريد الرفاعي - مصر، دار المأمون ١٩٣٧م.
- معجم البلدان / ياقوت الحموي، دار صادر - بيروت ١٩٦٨م.
- معجم الشعراء / المرزباني أبو عبيد الله محمد بن عمران، تحقيق عبد الستار فراج، ط. دار إحياء الكتب العربية ١٣٧٩هـ / ١٩٦٠م.
- معجم شواهد العربية / عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٧٢م.
- ملحق ديوان عمر بن أبي ربيعة
- معجم ما استعجم / أبو عبيد البكري، تحقيق مصطفى السقا، ط. لجنة التأليف ١٩٤٥م.
- المعجم الوسيط / مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ط ١
- المفضليات / المفضل الضبي، تحقيق أحمد شاکر، عبد السلام هارون، ط. دار المعارف بمصر - القاهرة ١٩٧٦م.
- المسند / الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق أحمد محمد شاکر، ط. دار المعارف بمصر ١٩٥٠م، ط. المكتب الإسلامي - بيروت ١٩٧٨م.
- المنصف في السارق والمسروق / ابن وكيع التنيسي، تحقيق د. محمد رضوان الداية، ط. دار قتيبة - دمشق ١٩٨٢م.

- الموشح / أبو عبد الله محمد بن عمران المرزباني، تحقيق علي البجاوي، ط. دار نهضة مصر ١٩٦٥م.
- معيار العلم / الغزالي، تحقيق د. سليمان دنيا، ط. دار المعارف بمصر ١٩٦١م.
- نقائض جرير والفرزدق / أبو عبيدة معمر بن المثنى، ط. دار الكتاب العربي - بيروت (مصورة).
- الوساطة بين المتنبي وخصومه / علي بن عبد العزيز الجرجاني، تحقيق علي البجاوي محمد أبو الفضل إبراهيم، ط. عيسى البابي الحلبي، القاهرة ١٩٦٧م.
- وفيات الأعيان / ابن خلكان، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر - بيروت.
- يتيمة الدهر / لأبي منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي، ط. م. محيي الدين عبد الحميد - القاهرة.
- F de Saussure, Cours de linguistique generale Paris.

بسم الله

مستخلص

من أهم كتب البلاغة والنقد الأدبي في عصور ازدهار الأدب، بما فيه من تحديد في المنهج والأسلوب.

قسم المؤلف كتابه إلى ثلاثين فصلاً بعد المقدمة التي تحدث فيها عن ((المدخل إلى إعجاز القرآن)). وجاء من أبرز فصوله ((الكلام على من زهد في رواية الشعر وحفظه وذمّ الاشتغال بعلمه وتبعه))، و ((الفرق بين الحروف المنظومة والكلام المنظوم))، و ((معنى النظم))، و ((الكناية والاستعارة والمجاز والحقيقة))، و ((التقديم والتأخير))، و ((الفصل والوصل))، و ((ماهية البلاغة وصلتها بالإعجاز))، و ((الدوق والمعرفة))، و ((الكناية وشواهداها))، و ((التوكيد وعلاماته))، و ((المحاكاة والنظم))، و ((تحليل اللفظ والمعنى))، و ((الاستعارة والمعنى))، و ((معاني النحو))، و ((اللفظ والاستعارة))، و ((الألفاظ المفردة)).

هذا إلى جانب فصول خصصها المؤلف لنكتة معينة مثل (إنما)، و (الذي)، و (ما) و (النفي) و (ما وإلا).

أما المحققان فقد صدّرا الكتاب بمقدمة أشارا فيها إلى أنهما اعتمدا فيه على ثلاث مخطوطات، أولاها قريبة العهد بمؤلفها، لا تبعد عنه غير قرن واحد، وذكرنا عملهما في التحقيق وما يميز طبعتهما من غيرها من الطباعات المتوافرة في السوق. وأعقبا مقدمتهما بدراسة عن المؤلف وكتابه هذا. ثم ألحقا بالكتاب كشافات علمية بلغت عشرة.

Abstract

Here is one of the most significant books on rhetoric and literary criticism, which was written when literature was at utmost prosperity, for the innovation it includes in both method and style.

The author divides his book into thirty chapters after an introduction dealing with “Introducing the Miraculous aspects of the Qur’an”. The most prominent chapters the book involves are: “Disregarding Transmitting and Memorizing Poetry and Condemning Getting Engaged in its Science and Tracing it”, “Difference between Rhymed Letters and Rhymed Speech”, “The Meaning of Rhyming”, “Metonymy, Metaphor, Figuration and Realism” , “Advancing and Delaying”, “Dividing and Joining”, “Essence of Rhetoric and its Relation with the Miraculous Aspects”, “Taste and Knowledge”, “Metonymy and its Quotations”, “Emphasis and its Signs”, “Resemblance and Rhyming”, “Analyzing Pronunciation and Meaning”, “Metaphor and Meaning”, “Meanings of Grammar”, “Pronunciation and Metaphor” and “Singular Words”.

The writer also dedicates a few chapters for certain interesting points, such as discussing “rather”, “who”, “what”, “negatives” and “what and except”.

Regarding the revisers, they initiate the book with a preface, in which they point out that they have depended on three manuscripts. The first one is not far from its writer as far as time is concerned, for it is only one century distant from him. They also tell about their work on revising and the points of distinction of their edition over others found in markets. The preface is followed by a study of the writer and his book, and the book is appended by a total of ten scientific indexes.

PROOFS OF INIMITABILITY
Dalā' al-I'jāz
'Abd al-Qāhir al-Jirjānī

لا أحد من أهل المعرفة والعلم بالبلاغة إلا
ويقف إجلالاً للجرجاني في كتابه هذا ((دلائل
الإعجاز))، وكتابيه الآخر ((أسرار البلاغة))، فقد
كان ظهورهما حدثاً جليلاً في تاريخ النقد الأدبي
خصوصاً، والبلاغة عموماً؛ وذلك لأن المؤلف
وضع يده على النقاط الحساسة في الكلام
المعجز، ودلّ عليها ودلّل بطريقة متميزة ومنهج
في التأليف جديد..

تفخر دار الفكر بتقديم هذه الطبعة من
الكتاب الأول، بتحقيق علمي منهجي، من
أستاذين متمرسين، لهما سابقة في بابة الكتاب..
وترجو أن تكون قدّمت للقراء خدمة في إنتاج
الكتب التراثية الهامة، التي لا يستغني عنها
مثقف جاد، فضلاً عن المتخصصين أو على طريق
التخصص.

فُرَات

www.furat.com

موقع عربي رائد لتجارة الكتب والإبرام الإلكترونية

SPOUR ALWANI 2007

ISBN 1-59239-671-2



9 781592 396719